

قتل مصر

من عبد الناصر الى السادات

هذا الكتاب ليس اجتراراً آخر لذكريات كثيفة. فانشغاله الاساسي منصب على ما هو آت، وإن توقف عندما فات، وما أنجز حتى الآن، فانما لاستطلاع ما سوف يُنجز، ترتيباً على ما حققه العرب لإسرائيل بأيديهم، في لغة هذا الكتاب لا مكان للالفاظ الدارجة في الكتابة السياسية ذات الطابع الخطابي كـ «الخيانة»، و«الفدر»، و«الجبن»، و«العمالة»، وغيرها من الكلمات المجزية المريحة للنفس.

هذا الكتاب الذي يقف على شطر من تاريخ مصر السياسي المعاصر، يبين لنا ان ذهاب انور السادات إلى الأرض المحتلة ومن ثم إلى معسكر داوود، كان أمراً طبيعياً، بل ومقضياً منذ أن سلح الملك فاروق المصريين بأسلحة فاسدة ودفع بهم ليقاتلوا على أرض فلسطين.

ذلك التشوه في رؤية «المسألة الفلسطينية»، وما ظل يوصف حتى الآن على سبيل البلاغة الخطابية بـ «الصراع العربي - الإسرائيلي»، هو ما يحاول هذا الكتاب استظهار أبعاده ونتائجه كما كشفت عنها وتشير إليها عملية استدراج مصر إلى مصيدة كامب دايفيد، بعد عقد من استدراجها إلى معركة الأيام الستة.

ISBN 1 869844 10 6

شفيق مقلار

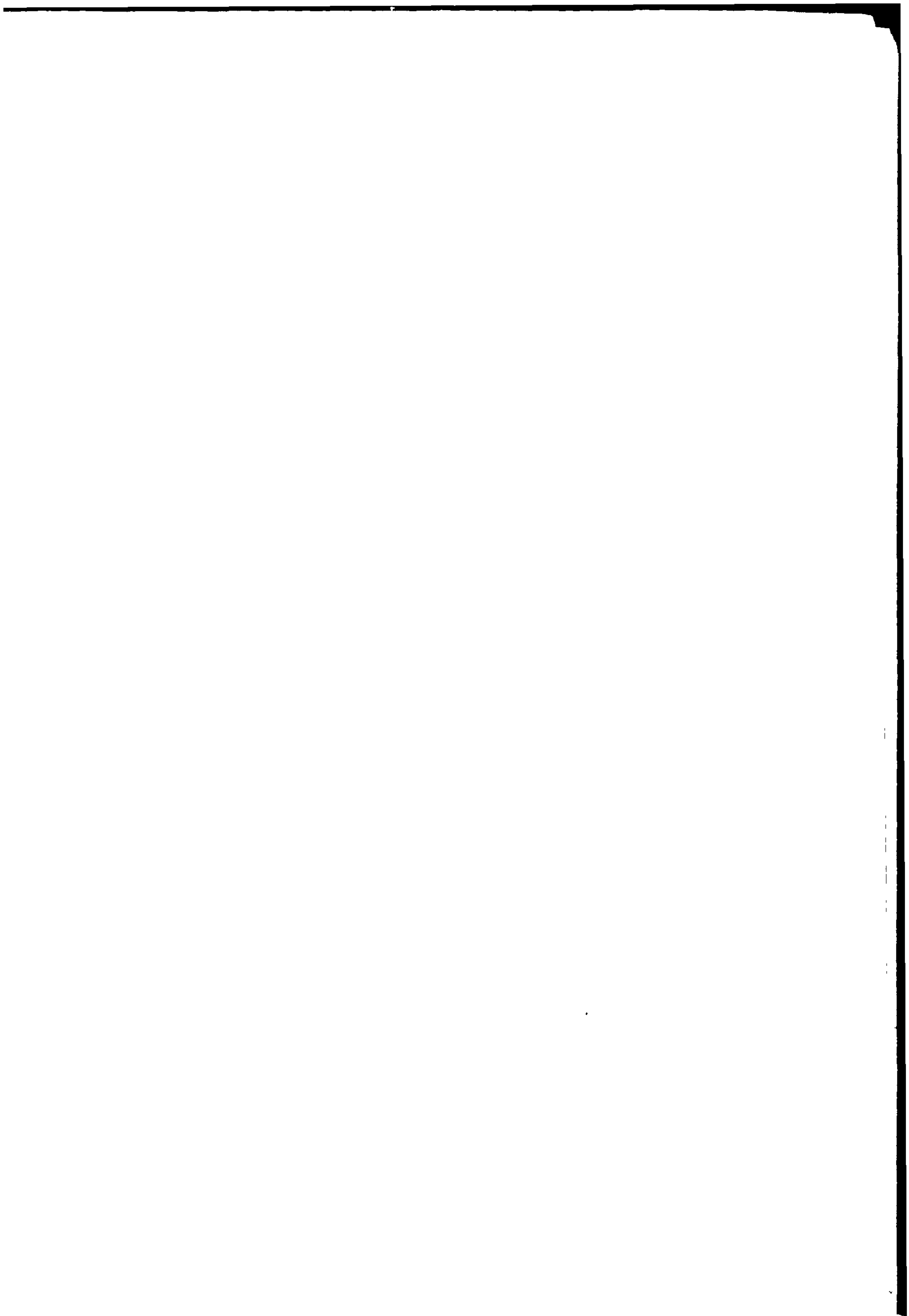


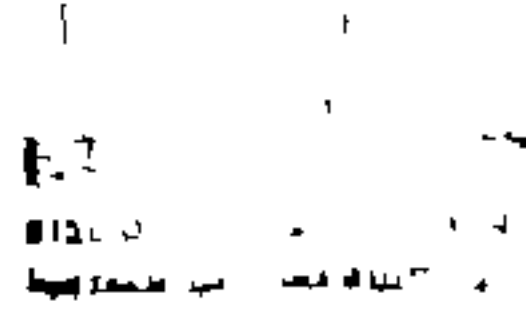
Bibliotheca Alexandrina
0019190



100

قتل مصر
من عبد الناصر الى السادات





Central Library
General Library
5th Floor

شفيق مقار

قتل مصر

من عبد الناصر الى السادات

الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية

رقم التحف 962.253

رقم التسجيل ٢٠١٨٩٢

699.7

رقم التسجيل



RIAD EL-RAYYES
BOOKS

رياضة الريس للمكتبة والنشر

56, Knightsbridge, London SW1X7NJ

THE KILLING OF EGYPT

by

SHAFIC MAKAR

First Published in Great Britain in 1989
Copyright © Alad El-Rayyes Books Ltd
56 Knightsbridge, London SW1X 7NJ

British Library Cataloguing in Publication Data

Makar, Shafic

The Killing of Egypt

1. Egypt. Political events, 1922--

I. Title

962'.05

ISBN 1 - 869844 - 10 - 6

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

الاستاذ

الى ذكرى نجيب سرور



محتويات الكتاب

هذا الكتاب	١١
مدخل: مصر في مواجهة الخطر الصهيوني	١٥
تقديم	١٧
١ - مصر في الديانة اليهودية	٢٣
٢ - مصر كطريدة رئيسية للحركة الصهيونية	٣٣
الباب الأول: شرك حرب الأيام الستة	٤١
١ - مصر «عزلة من؟»	٤٣
٢ - التواجد في العصر	٤٧
٣ - تشكيل حكومة ثورية	٥٨
٤ - من الرمضاء إلى النار	٦٥
٥ - مخاطر «وحدانية» الحاكم	٧٨
٦ - من الجاني؟	٩١
خلاصة	١١٩
الباب الثاني: مصيدة كامب دايفيد	١٢٧
١ - العمدة يرث العزبة	١٢٩
٢ - العمدة يحاول أن يصبح زعيماً	١٧٠
٣ - العمدة يطلب رضاء العربيين الجدد	١٩٢
٤ - ثغرة العمدة، ثقب في قلب مصر	٢١٥
٥ - العمدة يصبح صانع سلام ونجماً عالمياً	٢٣١
الباب الثالث: السلام المميت	٢٧٧
تقديم	٢٧٩
خلاصة: بعد القتل، تقطيع أوصال مصر	٢٩٧

٢٢٣	خاتمة
٢٢٧	فهرس الاعلام
٢٢٤	فهرس الامكنة والمدن والدول
٢٢٩ ..	فهرس الموضوعات

«ثمة بلدان لا يعرف القلقُ منها سبيلاً إلى قلب
السلطان لندرة الثورات فيها. ففي مصر، مثلاً، لا
تجد غير السيد المطاع والرعية المطيعة»

(ابن خلدون)

(١٤٠٦ - ١٣٣٢)

«ما أقلّ من يجدون لديهم الرغبة في قراءة تاريخ
الامة من الأمم بعد أن يكون عدوها قد كسر ظهرها
وهشم رأسها».

(و. هـ. أودن)



هذا الكتاب

هذا الكتاب ليس اجتراراً آخر لذكریات كئيبة. فانشغاله الاساسي منصب على ما هو آت، وإن توقّف عندما فات وما «أنجز» حتى الآن، فإنما لاستطلاع ما سوف «ينجز»، ترتيباً على ما حققناه لإسرائيل بأيدينا.

وفي سياق ذلك، لا مكان للألفاظ التي من قبيل «الخيانة»، و «الغدر»، و «الجبن»، و «العمالة» وغيرها من الكلمات المجزية المريحة للنفس والمفيدة في المقالات «السياسية»، والخطب التي من نار. ولقد يوافقنا القارئ، بعد أن يكون قد انتهى من قراءته، على أن ذهاب أنور السادات إلى الأرض المحتلة في ١٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٧، ثم إلى «معسكر داود» بالولايات المتحدة، كان شيئاً طبيعياً للغاية وأمرأ مقضياً به منذ سلّح فاروق المصريين بأسلحة فاسدة وبعث بهم لـ «يقاتلوا العدو الغادر» على أرض فلسطين. فالكّل - منذ تلك البداية الملائمة تماماً لكل ما حدث بعدها - لم يفتنوا، فيما بدا، وباستثناء قلة قليلة للغاية ومطاردة، إلى الجدية المميّنة للخطر الذي ظلوا يتظاهرون بالتصدي له بينما - هم في واقع الأمر - يقودون مصر، ومن حولها الجميع، إلى ظل وادي الموت - بلا أدنى محاولة للتشاعر أو البراعة إلى ظل وادي الموت.

وحتى لا تظل الأمور مبهمّة ومختلطة في أذهاننا، ينبغي أن يكون واضحاً منذ البداية أن الملك فاروق، والرئيس السادات، وكل من توسطوا عهديهما، لا يحملون بالوزر وحدهم. لأنه مهما كان الحاكم طاغية، ومهما كانت أجهزته ماهرة في الإرهاب والتخويف، تتوقف الشعوب عند مشارف الموت. تحرن. وحتى إن كانت قد تركت أحداً يحتل صهوتها، تركل الهواء وتسقط الراكب على ظهرها، وتستدير فتمزقه، متى تعلّق الأمر بالبقاء. ولدينا التاريخ، فلنرجع إلى صفحاته، أو لننظر إلى ما هو حادث في العالم حولنا. وسوف نجد أن الشعوب الراغبة في البقاء تستأسد وتفترس، متى تعلّق الأمر ببقائها.

لكننا لم نفعل، وبتنا بذلك، شئنا أم ابينا، شركاء في كل ما «أنجز». واشترك معنا معظم صنّاع الرأي وكل صنّاع القرار، وكل من يسيرون شؤون المؤسسة التي تدير المجتمع. فالكّل - بلا أي عذر أو ادّعاء للبراءة - شركاء في المسؤولية عما حدث، وعما سيقرب عليه.

ولعله قد بات واضحاً الآن أن ما سوف يترتب على كل ما «أنجزناه»، حتى الآن متعلق بالأرض. وأن الأرض سوف تؤخذ. وهذا شيء يحسن أن نتوقف عنده قليلاً ونفكر فيه. لأن مصير أي شعب - في هذا العالم الضيق - متوقف على الأرض. لأن وجود أي شعب متوقف على الأرض، وبغير الأرض يموت.

ولقد كانت مشكلة مصر منذ البداية - ومشكلة غيرها من البلدان العربية الأخرى - فيما تعلق بـ «مسألة» فلسطين، أن الأرض التي دار الصراع حولها لم تكن أرض مصر أو أرض أي بلد من تلك البلدان العربية الأخرى. فهي أرض فلسطين وبالمعنى الحرفي الضيق المحدد، ذهب المصريون وغيرهم من مواطني البلدان العربية ليموتوا ويشوهوا على أرض «شعب آخر»، دفاعاً عن أرض

ذلك الشعب، وبالمفهوم الذي أوردناه عن ارتباط بقاء الشعب باستمرار حيازته لأرضه، دفاعاً عن بقاء ذلك «الشعب الآخر»، الشعب الفلسطيني.

وما زال ذلك التصور لـ «المسألة» سائداً حتى اليوم، وبعدما حدث للبنان والجولان السورية فعلى المستوى «الرسمي»، أي مستوى معظم الحكومات والمؤسسات المديرة للمجتمعات العربية، قد يظل ذلك التردد للشعارات عن «الأرض السليبية»، و «العدو الغادر»، أو عن «الصهاينة»، إلا أن ضرباً غريباً من ذلك الشيء الذي أفلح اليهود في اختلاقه في أذهان البشر تحت اسم «معاداة السامية»، قد ندعوه - على سبيل التمييز - «معاداة الكنعانية» (أخذاً بمسميات التوراة سام، وكنعان) يظل مستشترى، بل ويزداد ضراوة، تحت السطح، تجاه الفلسطينيين وكل ما له علاقة بهم، لدى معظم تلك الحكومات والمؤسسات المديرة للمجتمعات العربية.

وعلى المستوى «غير الرسمي»، أي مستوى السواد الأعظم من شعوب تلك البلدان العربية، تخافت كثيراً تردد شعارات «الأرض السليبية» و «العدو الغادر»، وراء الجوقات الحكومية، وبدأ يعلو صوت «معاداة الكنعانية»، باعتبار أنه «الله يخرب بيت الفلسطينيين، هم السبب في كل ما نحن فيه».

وبطبيعة الحال، لم تسر المظاهرات في شوارع القاهرة بعد هاتفة بسقوط فلسطين ومطالبة بشنق الفلسطينيين، لكن «معاداة الكنعانية» موجودة، وبقوة، وأخذت في التعاضد لدى جماهير أمية مطحونة لا تستطيع أن تعض اليد الممسكة بمقبض السوط، فتجد الفلسطينيين منطرحين على ظهورهم، أو تتصورهم كذلك، وتتلطمز اشتهاً لغرس أنيابها في أعناقهم.

وربما كان تصور جان بول سارتر في تقديمه لكتاب فرانز فانون «المعذبون في الأرض» عن اشتها الإنسان المنسحق المطحون لتقديم نفسه في صورة الأخ الذي يقتله، تصوراً ذا صلاحية في هذا الخصوص إلا أنه ما من شك أيضاً في أن قدراً لا يستهان به من مشاعر «معاداة الكنعانية» لدى من سممت تلك المشاعر عقولهم وقلوبهم نابع من الأسباب نفسها التي جعلت «الصراع»، ابتداء من أسلحة فاروق الفاسدة، إلى كامب ديفيد وما بعده وما سوف يترتب عليه، أشبه بكوميديا سوداء معوجة تراوحت فيها المهزلة والمأساة لأنه، فيما يخص «السادة المواطنين» في مصر وغيرها، «ما لنا نحن وأرض فلسطين، ومشاكل الفلسطينيين؟» و «لماذا يجب علينا نحن أن نخوض غمار حرب وراء حرب مع إسرائيل كيما نعيد إلى الفلسطينيين أرضهم»، و «إن كان لا بد للفلسطينيين أن يموتوا ويندثروا، فليموتوا، ونبقى نحن، ونبني بلدنا، وبنوع غريب من التفاعل الدائري بين النظم الحاكمة والشعوب المحكومة، بدأ بتشويه رؤية الشعوب لحقيقة الصراع على أيدي حكام يبدو أنهم لم يروا فيه أكثر من وسيلة ناجعة لإبقاء المنطقة في حالة توتر واشتعال، تبريراً لاستمرار حكم الطوارئ وسطوة قواتهم المسلحة على العدو الحقيقي، وهو الشعب المحكوم، وانتهى بتسرّب رؤية الشعوب الغوغائية إلى عقول الحكام الذين أوجدوها، اقتربت نظم وشعوب من نقطة التلاحم، ولأول مرة، عند تفاهم مشترك يمثل شعار «ليمت الفلسطينيون ونحيا نحن».

ولقد كان «الشجار» الذي نشب مؤخراً، في ربيع ١٩٨٧، بين مصر ومنظمة التحرير الفلسطينية، مؤشراً مبدئياً على الاتجاه صوب علانية مثل ذلك التصور الذي فجر إثر اغتيال يوسف السباعي

وعلى مستوى «المثقفين» وصناع الرأي من كتاب وصحفيين وشعراء ومفكرين، أي على مستوى «الصفوة» أو «النخبة» أو - كما سماهم سميح القاسم - «الزبدة»، لندع جانباً توفيق الحكيم، مثلاً، وكل من نهج نهجه من نجوم المؤسسة، ولنتفكر - مثلاً - في تأكيد صحفي لبناني مهاجر أنه، دون أن يطرف له رمش «كفر بقضية أولئك الفلسطينيين منذ قتلوا يوسف السباعي الله يرحمه»، أو قول مثقف سوري بعد نقاش طويل حول الانتماء لقضية فلسطين أن «هذه حكاية باتت غير ذات موضوع والأفضل لمن أراد أن ينتمي أن يجد له حكاية غيرها»، أو قول أديب مصري مثقف، بطريقته الممتلئة يقيناً بصحة آرائه وقناعة بانها لا تدحض، بالوقار المعهود «أوه هاها! الفلسطينيون! اليسوا هم السبب في كل ما هو حادث لمصر».

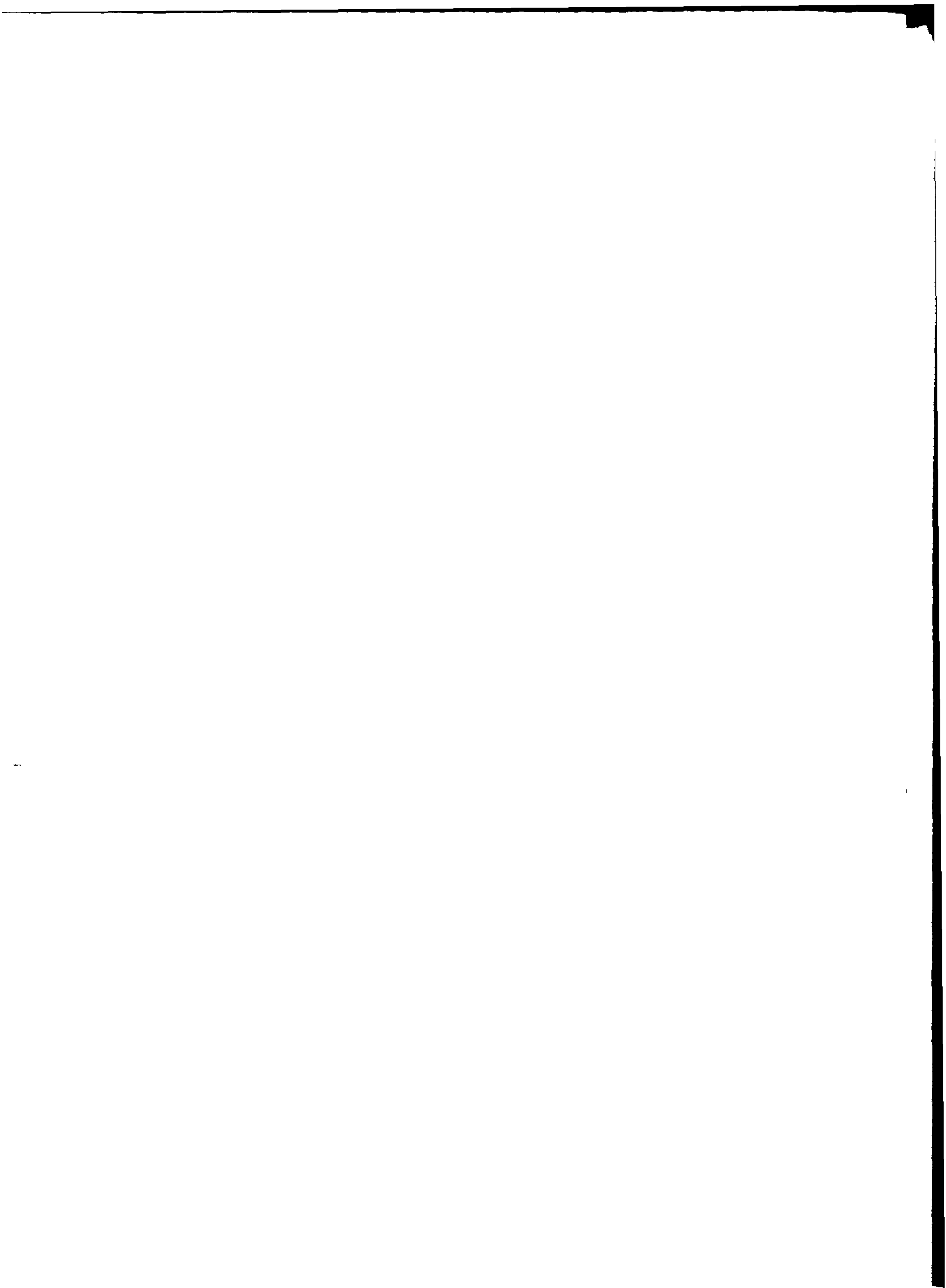
هذا الكتاب

وهذا قدر يسير من مصارحات تختلف - بطبيعة الحال وبحكم متطلبات الصورة «النضالية» أو «القومية» - اختلافاً تاماً عما يقال عندما يكون الحديث مع أكثر من سامع والذي يعنينا منه، على أي حال، تسرّب الرؤية الغوغائية إلى فكر أناس مفروض أنهم ضمن «الصفوة»، صانعة الرأي المشتغلة بـ «إعلام» الجماهير وتنويرها.

وفي جذور كل هذه المواقف الآخذة في التخلّث - كالدّم الفاسد - فيما أسميناه بـ «معاداة الكنعانية»، يكمن التشوّه ذاته الذي جعل من الممكن لملك فاسد كفاروق أن يتربّح هو واذنابه وخدمه من الصراع، عن طريق بيع أسلحة فاسدة إلى جيشه، وجعل من الممكن، بعد ربع قرن من زوال فاروق، لرئيس «ثوري» و «مناضل وطني»، كانور السادات أن يذهب إلى القدس المحتلة «سعيًا وراء السلام»، فيحتضن موشي ديان ومناحيم بيجين، ويشد على الأيدي المخضبة بدماء كثيرة، ويضم إلى صدره جولدا مائير، التي لم تكف عن القول بأنها لم تكن تنام الليل كلما فكرت في أن طفلاً فلسطينياً قد ولد وأنه قد يظل على قيد الحياة، ويقبلها في وجنتيها

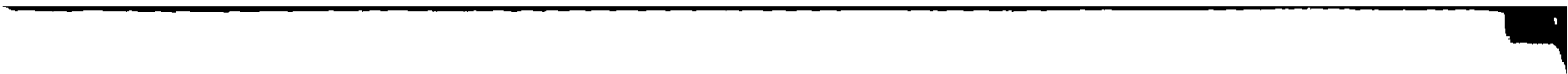
ذلك التشوّه في رؤية «المسألة الفلسطينية»، وما ظل يوصف حتى الآن، على سبيل البلاغة الخطابية، بـ «الصراع» العربي الإسرائيلي، هو ما يحاول هذا الكتاب إستظهار أبعاده ونتائجه كما كشفت عنها وتشير إليها عملية استدراج مصر إلى مصيدة كامب ديفيد، بعد عقد من استدراجها إلى شرك الأيام الستة

شفيق مقار



مدخل

ملحق في مواجهة الخطر اللامعروف



تقديم

منذ البداية، لم يفتن «الثوار» الذين حكموا مصر بعد إسقاط النظام الملكي الفاسد للحقيقة. رغم كل التصريحات والخطب عن فلسطين الحبيبة والأرض السليبة وكل تلك الأشياء التي توجع القلب وتستدر الدمع من العيون، لم يفتنوا إلى الحقيقة. وربما، بحكم النشأة السياسية السلفية والخروج من رجم حركة الإخوان، بدا لهم من أخذوا فلسطين كـ «أعداء لله» أو كشيء غيبي من هذا القبيل الذي يسهل أن ينزلق إليه العقل متى غلفه الضباب، وتترنح إليه البصيرة متى ختم الافتقار إلى المعرفة والنضج الفكري والسياسي عليها فأعماها.

عندما استدرج جمال عبد الناصر إلى شرك الأيام الستة، سنة ١٩٦٧، كتبت نشرة «الاشتراكي»، لسان حال «الثوريين التقدميين»، في ٣ يونيو/ حزيران، قبل المذبحة بيومين اثنين، كلاماً كان قد سبق أن قيل كثيراً حتى أصبح من قبيل العبارات الإنشائية، عن مخاطر التوسع الصهيوني الشرير، ثم قالت إن جنود مصر البواسل كانوا «في انتظار إشارة البدء من القائد لينطلقوا منفذين أمر الله»، وعندما تأزم الموقف في ١٠ يونيو/ حزيران، كتبت مبشرة بالنصر من عند الله وفتح قريب محذرة إسرائيل، عدوة الله، من أن نهايتها دنت على أيدي جند الله^(*). والواقع أن حرب يونيو/ حزيران أحدثت تغييراً عند عبد الناصر بالنسبة لموقفه من (الرؤية) الدينية للمسألة. (ورغم أن السنوات الثلاث التي عاشها بعد الحرب لا تكفي للحكم بمضمون محدد لذلك التغير، فإنه) من الواضح أنه كان قد أصبح أكثر مرونة (بذلك الخصوص)، فقبيل الحرب، كان قد شنَّ هجوماً شديداً على النظم العربية التقليدية ونذَّر باستغلالها لعامل الدين، لكن موقفه هذا انقلب من أساسه بعد مؤتمر الخرطوم في أغسطس/ آب ١٩٦٧، إثر المصالحة التي جرت في ذلك المؤتمر (مع تلك النظم)، وقبل الحرب كان موقفه من الصراع العربي الإسرائيلي لا يدخل البعد الديني كثيراً في أسس الصراع، مركزاً (بالقدر الأكبر) على عروبة فلسطين (أي على البعد القومي)، لكنه بعد الحرب بدأ يتحدث عن الصهيونية بوصفها خطراً على الأديان^(١).

وبطبيعة الحال، يظل هناك تناقض لا مهرب منه في محاولة التعامل مع الصراع من منطلق غيبي، حتى وإن وجد المتحدث ما قد يبدو كمهرب من ذلك التناقض، بقصر الكلام على «الصهيونية» دون إشارة إلى «اليهود». ومنشأ التناقض أن اليهودية ديانة توحيدية كبرى يشترك أتباعها، (فيما هو متصور) مع أتباع الديانتين التوحيديتين الأخيرتين، في عبادة نفس الإله.

إلا أنه، رغم وجود ذلك التناقض، لا شك في أن قدراً كبيراً من العداء لمن أخذوا فلسطين ظل مدخولاً بكونهم اليهود، مهما حاولنا الهرب من ذلك الواقع بتسميتهم «صهاينة» والذي لا شك فيه أنه - حتى

(*) الواقع أن الزح بالالوهة في سياق صراع دنيوي كهذا فيه احتراء غريب لأن من يدعي أن السماء تحارب في صفه قد يعنى بهزيمة ماحقه كما حدث في سنة ١٩٦٧. وفي هذه الحالة يصبح العقل مواجهاً باحتمالين اثنين لا ثالث لهما أن السماء تخلت عن المهزوم في منتصف الطريق وتركت له لتنصر عدوه عليه، وهو شيء لا يليق إطلاقاً، والثاني أن العدو من القوة بحيث حقق النصر لنفسه وهزم من أمامه هو السماء التي كانت تحارب معه، وهو شيء يقرب من الكفر والعباذ بالله. فالله عز وجل فوق كل ذلك، وهو قادر، متى كانت تلك مشيئته، أن يعمر العدو الغادر من ظهر الأرض محواً لا أن يهزمه في ميدان القتال فقط.

قتل مصر

إذا لم تقتصر رؤية الغالبية العظمى من الحكام والمتقنين العرب على البُعد الغيبي - فإنه ظل أساساً، لدى عامة الناس، لرؤية الجماهير للعدو بوصفه يهودياً وعدو الله، كما وصفته نشرة «الاشتراكي» الناصرية وذلك بُعد لم يغيب عن المقاومة الفلسطينية فحاولت التصدي له وتعديله بدعوتها الديمقراطية لإقامة وطن فلسطيني يعيش فيه الفلسطينيون من الأديان الثلاثة كمواطنين متساوين في الحقوق والواجبات وهو بُعد لم يغيب أيضاً - بطبيعة الحال - عن الإسرائيليين والأميركيين، وقد استغلوه استغلالاً دعائياً فعالاً في تشويه الموقف العربي بعامة والشوشرة على الحق المشروع للفلسطينيين في المقاومة والسعي إلى استرداد الوطن الذي أخذ منهم

وكما ظل النظر إلى إسرائيل مدخولاً بذلك البعد الغيبي، ظل مدخولاً بالبعد الأيديولوجي وقد ربط المغفور له الملك سعود باستمرار ربين الصهيونية والبلشفية وكذلك فعل زعيما مصر في ظل «الثورة»، جمال عبد الناصر، وأنور السادات.

والذي لا سبيل إلى التشكك أو التشكيك فيه أن المصالح اليهودية العالمية ومخططات الحركة الصهيونية لعبت دوراً لا يمكن إنكار أهميته في إشعال نيران الثورة البلشفية في روسيا. ولقد كان معظم مفكرى الثورة وزعمائها المبرزين، باستثناء ستالين الذي جعل شرير الحلقة بعد محاولته مشاركة الصهيونية في كنز التعويضات الألمانية بعد الحرب العالمية الثانية، من اليهود

إلا إن رؤية الغزوة الاستيطانية لفلسطين في سياق مؤامرة بلشفية/صهيونية فيه من البعد عن الحقيقة ومن التبسيط المبالغ فيه ومن الابتعاد عن واقع الغزوة ما لا يقل عما في النظر إلى غزاة فلسطين الاستيطانيين من زاوية كونهم يهوداً فحسب. لكن النظام وزعامته كانا على قدر من «الواقعية العملية» والبراجماتيكية أتاح للزعيم أن يتقل الوطء على الدول «التقليدية» ورؤيتها السلفية للصراع العربي الإسرائيلي قبيل هزيمة ١٩٦٧، وأن يعدل عن ذلك تماماً بعد تصالحه معها. وبالمثل، ربط النظام وزعامته بين الصهيونية والشيوعية «في أوج معركته مع الشيوعيين في ١٩٥٤، في مصر وفي ١٩٥٩، في العراق ومصر. (وفي سياق تلك الرؤية التكتيكية) رأى الزعيم أن الشيوعيين أكبر عون للصهيونية كما أن الصهيونية تعمل على إيجاد تنظيمات شيوعية تخدع الناس تحت بعض الأسماء الخلافة البراقة مثل الحرية والديموقراطية وتخدر الناس بكلام معسول عن المساواة ورفع مستوى العامل والفلاح والأخذ بيد الفقير. (وقد وجد الرعيم تأكيداً لتلك الرؤية في (أن) الذي كان يمول أكبر منظمة شيوعية في مصر كوريل الصهيوني، (ورأى) أن الشيوعيين استعملوا طرقاً معينة للتضليل كي يمكنوا الصهيونية العالمية من احتلال وادي النيل وجزءاً من العراق وجزءاً من المملكة العربية السعودية (وأنهم) لذلك يثيرون بعض الشغب وينسبونهم إلى الشعب باسم الشيوعية وهم في الحقيقة جماعة صهيونية قامت بعمل حرائق في بعض المدن والمنشآت الوطنية»^(١).

وإذا لم يصلح ذلك، اتجه النظام إلى استيلاء البراهين على الترابط بين الشيوعية والصهيونية إبان أزمة قناة السويس مما اتهم «عبد الناصر به إسرائيل من أنها تشاطر الشيوعيين في موقفهم» عن قصد أو عن غير قصد «حينما تسعى للحيلولة دون التوصل إلى تسوية سلمية لمشكلة قناة السويس التي دامت ٧٢ عاماً (كما سعت للحيلولة) دون عقد اتفاقية جلاء قوات الاحتلال البريطاني عن القناة سنة ١٩٥٤. (وذلك دليل) على أن الشيوعيين والصهيونيين عقدوا عزمهم على تعطيل التسوية لأن الاضطرابات في العالم العربي لا تخدم إلا العناصر الهدامة. وقد ثبت في مصر أن كلا الفريقين قد دبرا مؤامرة لحرق مكتب الاستعلامات الأمريكي بالقاهرة لأن الكفاح المسلح هو الطريق لمحاربة الاستعمار (٩) كما عمل كلا الفريقين لهدم القومية العربية وبالتالي كانا حليفين للرجعية والاستعمار.. (كانت هذه الأفكار) في بداية الثورة وإبان معاركها مع خصومها.. ولما سُئل عبد الناصر عن الربط بين الصهيونية والشيوعية بعد انتهاء معركته مع عبد الكريم قاسم لم يُجب، نظراً لانتهاج الموضوع بانتهاء المعركة»^(٢).

وليس هناك ما هو أوضح من ذلك: «الربط بين الصهيونية والشيوعية» ظل أداة تكتيكية في معارك «الزعيم» مع الشيوعيين المصريين في سياق تأمين «الزعيم» لوحدة زعامته، ومع قاسم العراق، في

معرض دفاع «الرعيم» عن موقعه كزعيم واحد وحيد لا شريك له لكل العرب، فلما انتهت المعارك، لم يعد هناك لروم للربط بين الشيوعية والصهيونية «نظراً لانتهاه الموضوع»^(١). وهذا موقف عريب فعلاً في التعامل مع خطر مميت كالغزوة الاستيطانية البادئة بفلسطين. والمشكلة أن هذا الفهم التكتيكي، أو بالأحرى التظاهر بالفهم، لأغراض تكتيكية بحثة استجابة لمعارك اللحظة العابرة، لم يتمخض فحسب عن تشويش الإرسال، إن صحَّ التعبير، من «عقول» النظام إلى أدمغة الشعب فيما يخص الوعي بحقيقة الغزوة وحقيقة العدو وحقيقة القوى المتعاونة معه، بل وتمخض عن تشوّه مستمر لرؤية النظام ذاته ورؤية زعامته لـ «المسألة» كلها، وهو تشوّه جعل النظام وزعامته على أتم استعداد للعب بالغزوة الاستيطانية لفلسطين كورقة مربحة أهم مكاسبها ترسيخ أوضاع النظام والمؤسسة العسكرية التي ملكها مصر وتأييد مزاياها بحجة الدفاع عن «الوطن المفدى» في وجه عدوانية «العدو الغادر» الشرسة، وجعل المنطقة كلها، ومصر بالذات، تعيش من يوم إلى يوم في حالة طوارئ مستمرة أباحت وبررت كل النجاوزات وكل ضروب الإهدار للحرية والديموقراطية والحقوق الأساسية للبشر تحت سائر أنه «لا صوت يعلو على صوت المعركة، وأن كل تلك الأشياء التي من قبيل الترف كالحرية والديموقراطية والحقوق الإنسانية للمواطنين وحقوقهم المدنية يمكن النظر فيها فيما بعد عندما يكون قد «تم للتوار الأبرار» القضاء على الخطر الصهيوني بإذن الله

وفي الوقت نفسه الذي جنح النظام فيه إلى استغلال الوجود الصهيوني في فلسطين ثم في الأرض المحتلة الأخرى بعد هزيمة ١٩٦٧ كورقة يلعب بها ليكسب مزيداً من المنعة ومزيداً من المزايا ومزيداً من الترسيع لزعامته «الزعيم»، أبدى النظام وزعامته باستمرار استعداداً للتصالح والتسوية مع «العدو الغادر»، ورغم اضطرار النظام وزعامته للجوء إلى القوة العظمى الرئيسية المنافسة للولايات المتحدة، الاتحاد السوفياتي، للحصول منها على ما عجز عن الحصول عليه من أسلحة يبرر بها بقاء قبضته على أعناق المصريين ويديم بها حالة الطوارئ المربحة في المنطقة، أظهر النظام وزعامته باستمرار ميلاً واضحاً، بل نزوعاً قوياً، للوئح بحضن واشنطن، فقط إذا ما وجدت واشنطن للنظام وزعامته فسحة تحت جناحها. «ولقد كان تصور النخبة المصرية الحاكمة بأجنحتها المختلفة - الجناح المدني والجناح العسكري - أنه يمكن الحصول على الكثير إذا أمكن إيجاد مكان «بجوار واشنطن». فقد كانت تجربة البورجوازية المصرية بمثابة تأكيد لها بأن إسرائيل في ذاتها ليست خطراً عليها (١) - لذلك، وكما يقول جاك كوبر «لم يتم اتخاذ أي إجراء لإصلاح جوانب القصور والضعف التي كشف عنها (أداء) الجيش والنظام سنة ١٩٥٦، بل ولم يتخذ أي إجراء ضد صدقي محمود، قائد الطيران، قبل هزيمة ١٩٦٧ رغم أن السوفيات كانوا قد أبلغوا عبدالناصر أن صدقي محمود يتعاون مع المخابرات البريطانية»^(٢).

وقد بلغ من قوة ذلك الشبق إلى حضن الولايات المتحدة - وهو شبق كان من غير الممكن عملياً أن ينتاب النظام وزعامته لو كان النظام والزعيم على وعي بالأبعاد الحقيقية للعلاقة العضوية بين الولايات المتحدة كامة وبين إسرائيل - أن بات عاملاً من العوامل التي أودت «بالزعيم» إلى حيث تردّي في الشرك في يونيو/ حزيران ١٩٦٧. «فقد كان التصور العام (لدى النظام وزعامته) أنه بإحداث نوع من التوتر العسكري على الحدود المصرية عن طريق القيام بمظاهرة عسكرية (أو بالأحرى القيام بعملية «تهويش» كما قال الفريق أول محمد فوزي) في سيناء، كان ذلك سيؤدي إلى بعث قضية التسوية مع إسرائيل من جديد وفي ظل شروط أفضل، وأنه سيتيح في الوقت نفسه تحقيق عدة أهداف كانت تشكل عدداً من أولويات الزعامة المصرية في ذلك الوقت، وكانت تلك الأهداف تدور حول «ردع» العدوان المحتمل على سوريا، وعودة الأوضاع في سيناء إلى ما كانت عليه سنة ١٩٥٦، والضغط على الولايات المتحدة من أجل بذل جهودها الدبلوماسية للضغط على إسرائيل (١)، والدخول في حوار مصري - أمريكي تحسّن مصر فيه موقفها التفاوضي بشأن شروط التعامل مع الولايات المتحدة (١)»^(٢).

ومثلما أفصحت الزعامة المصرية بكل تلك التصورات عن جهل كامل مطبق بحقيقة إسرائيل وحقيقة

العلاقة بينها وبين الولايات المتحدة(*) وحقيقة الغزوة الاستيطانية اليهودية لتي تمخضت عنها تلك العلاقة العضوية غائرة الجذور بين الأمة الأميركية التي اعتبرت نفسها واعتبرها قادتتها وزعمائها ومفكروها دائما «إسرائيل هذا الزمان وتسعب الله المختار الجديد» واعتبرت غزوتها الاستيطانية التي أبيد في غمارها سكان القارة الأميركية الأصليين بناءً لـ «أورشليم الجديدة» على أرض العالم الجديد، وفكر قادتتها قبل أن يتخذوا النسر شعاراً لهم أن يرسموا على علمهم القومي صورة موسى على رأس «بني إسرائيل» في الطريق إلى «الأرض الموعودة» وبين الامتداد العضوي والتحقيق الأقصى لتلك الأمة، أي إسرائيل. وبفصل ذلك الجهل الذي أدى إلى الوقوع في شرك الادعاءات القائلة بأن إسرائيل «حليف» للولايات المتحدة و «قاعدة استراتيجية» لها في منطقة حيوية من العالم، تصورت «الزعامة» المصرية أن بوسعها، عن طريق «عملية التهويش» كما أسماها الفريق أول محمد فوزي، التي انتهت بهزيمة ١٩٦٧ الماحقة، أن تجعل «الولايات المتحدة تصغط على إسرائيل! تضغط على إسرائيل لتجعلها تفعل أي شيء» لتجعلها تكف عن إبادة السكان الأصليين حتى لا يبقى هناك من ينازعها على الأرض التي أخذتها، فلسطين؟ ولكن لم، والولايات المتحدة فعلت الشيء نفسه وما زالت تفاخر بما فعلته في تواريقها وأعمالها الروائية وأشعارها وأفلامها، فأبادت السكان الأصليين من الأرض التي أخذتها في القارة الأميركية الشمالية. لتجعلها تعيد إلى العرب ما مكنتها الولايات المتحدة بكل أنواع المساعدة والعون والدعم والتأييد والتواطؤ على أخذه منهم؟ ولكن كيف، والمشروع الاستيطاني لم يقتصر على المرحلة التمهيدية، فلسطين، بل شمل منذ البداية و «بتعاقد قانوني صريح بين الشعب المختار والآله»(**) كل الأرض من النيل إلى الفرات. فهل يمكن تصوّر أن تُقدّم الولايات المتحدة، الأمة المتدينة للتقية التي تربت على تعاليم التوراة والعهد القديم ورضعتها منذ الصغر، على تلك المعصية المميتة، فتتقضى - لأجل خاطر الزعامة المصرية أو أي زعامة عربية موالية - ذلك الاتفاق الإلهي بين الشعب المختار الأصلي، أو تُقدّم على ما من شأنه أن يؤخر تنفيذه بإعادة ما أخذته إسرائيل من الأراضي المتفق على أخذها مع، الإله ذاته منذ قرون عديدة؟

والأدهى من كل ذلك أن «الزعامة» المصرية لم تظن طيلة الوقت إلى الحزازة الخاصة المسمومة الضاربة في القدم الراسخة في الروح اليهودية تحاه مصر بالذات، ولم تظن - في الوقت ذاته - إلى أن تدمير مصر كأمة، لا إخراجها من المعركة كدولة فحسب، هدف رئيسي جيوهري للمنظمة الصهيونية، مما يجعل من الجنون المطبق تصوّر أية إمكانية «للتعامل مع مصر» - تعاملاً لا يرمي إلى تدميرها - من جانب الولايات المتحدة.

وإذا غابت كل تلك الأبعاد عن فطنة «الزعامة» المصرية التي انصرف همها الرئيسي إلى تأمين بقائها من المخاطر الداخلية (احتمال عصيان الشعب المصري)، تشوّهت رؤيتها لـ «الصراع» تشوّهاً جذرياً. وقد وصل ذلك التشوّه إلى حد التصوّر أن إسرائيل، في يونيو/ حزيران ١٩٦٧، لم تكن «تشكّل خطراً على مصر» لأن الولايات المتحدة لن تستطيع أن تقدّم لها من الدعم ما يجعلها خطراً على مصر، «لأن العالم لن يسمح للولايات المتحدة بذلك»^(١).

وعندما «فوجئت» الزعامة المصرية بأن الولايات المتحدة دعمت إسرائيل بغير حدود، وأن إسرائيل جعلت «الجميع يفيقون من وهم أن جيش مصر كان أقوى وأعتى جيوش دول الشرق الأوسط جميعاً»^(٢). «خاصمت» الولايات المتحدة لذلك «الغدر»، فقطعت علاقاتها الدبلوماسية معها.

وحتى من قبل هزيمة ١٩٦٧ الماحقة التي استدرجت مصر إليها في غمار «عملية تهويش» وتظاهر بنية الحرب، ظل تصوّر «الزعامة» المصرية قائماً على وهم إمكانية التصالح والتعايش مع إسرائيل. وطيلة الوقت، اعتمدت تلك الزعامة «أسلوب المفاوضة كاداة رئيسية للتسوية مع إحداث حالة

(*) أرجع إلى دراستنا المعنونة «البعد الأميركي للمشروع الصهيوني» وقد نشرت مسلسلة لمجلة «الدستور»، لندن الأعداد ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٧.

(**) أرجع إلى كتابنا «قراءة سياسية للتوراة»، رياض الريس للكتب والنشر ١٩٨٨.

توتر عسكري كأداة ضغط، والبحث عن تسوية عن طريق الولايات المتحدة مع استخدام أسلوب التقارب مع الكتلة الشرقية كأداة ضغط أيضاً»^(٨)

وفي محاولة ديماجوجية لتفسير ذلك العمى السياسي الذي أدى «بالزعامة» المصرية إلى الاعتقاد بإمكانية «التفاوض» مع إسرائيل، و«التسوية» مع إسرائيل «عن طريق الولايات المتحدة»، لم يجد محمد حسنين هيكل مانعاً من أن يقول - على سبيل الاستعارة من كتب غربيين كثيرين كتبوا سيرة ذاتية أو أرخوا لبعض قادة الغرب العسكريين فقالوا عنهم على سبيل التمجيد أنهم «من خبرتهم بالحرب كرهوا الحرب» - أن عبدالناصر، رغم «التزامه الأدبي والسياسي والأيدولوجي حيال الشعب الفلسطيني، كان يكره الحرب لأن تجربته الشخصية للحرب في العلمين (٩) والغالوجا علمته أن يكرهها»^(٩).

ومعنى كلام الأستاذ الكبير والصحفي المطلع محمد حسنين هيكل أن عبدالناصر كان، كـ «زعيم» لمصر، قد وجد نفسه في مواجهة مع إسرائيل من أجل الشعب الفلسطيني الذي كان عبدالناصر «ملتزماً به أدبياً وسياسياً وأيدولوجياً»، لكن عبدالناصر، من خبرته بالحرب في العلمين (٩) والغالوجا، كان يكره الحرب، ولذلك لم يكن راغباً في القيام بالتزامه حيال الشعب الفلسطيني حرباً، بل تفاوضاً، وبالتسوية.

وهذا - كما هو واضح - يغفل تماماً البُعد المصري المباشر لذلك الصراع مع إسرائيل. فد «الشعب الفلسطيني، هو مثار التزام «الزعيم» وهذه مشاعر أخوية وقومية حميدة ما في ذلك شك. ولكن ماذا عن مصر؟ هل فكر هيكل في مصر؟ هل فكر عبد الناصر؟ هل فكر السادات؟ هل توقف أحد من أولئك الذين تصدوا لقيادة مصر في مرحلة من أخطر ما مر بها عبر تاريخها الطويل ليفكر في أن مصر هي العدو الرئيسي والطريدة الأهم والفريسة المشتهاة، وأن فلسطين ما هي إلا منصة قفز؟ وأن «الصراع العربي الإسرائيلي، ليس صراعاً حول فلسطين الحبيبة والأرض السليبة وكل ذلك، بل هو صراع حول مصر أولاً وقبل كل شيء، وبعد الانتهاء من تمزيق جفتها، حول بقية الأرض العربية، تنفيذاً للتعاهد القانوني مع الإله بملكية الأرض من النيل إلى الفرات».

لم يفكر أحد. فكانت النتيجة أن باتت «الزعامة» المصرية، ومن ورائها بطبيعة الحال، الشعب المصري، على قناعة كاملة بأن مصر «ضحت وتضحي» في سبيل فلسطين، وأن أولئك الفلسطينيين، كما أكد الأديب المصري المثقف لكاتب هذا الكلام وهو يهز رأسه بوقار، هم السبب في كل ما حدث ويحدث لمصر من مصائب.

وجنباً إلى جنب مع غياب ذلك الوعي بالبُعد المصري الجوهرى للصراع، أفصح هيكل عن وجه آخر من أوجه الموقف «المصري» من ذلك الصراع. والذي يقرأ هيكل يجب أن يضع نصب عينيه دائماً أنه يقرأ أنصاف حقائق يستخدمها ببراعة داعية متمرس بأصول الشغل. فقله أن «عبدالناصر كان يكره الحرب» حقيقة. وقوله أن «خبرة عبدالناصر بالقتال في العلمين (٩) والغالوجا هي التي علمته أن يكره الحرب» حقيقة. غير أن هاتين «حقيقتين» من نوع «نصف الحقيقة» الممتاز المغطى ببراعة. لأن عبدالناصر لم يكن مونجومري أو أيزنهاور، ولم يخض غمار حرب كالحرب العالمية الثانية مثلاً تبرر لمن يؤرخ له أو يكتب سيرته أو «يشرح فلسفته» أن يدعى أنه «كره الحرب من خبرته بها». فد «الحرب» التي خاض عبدالناصر غمارها وضخمها له هيكل أيام كان مراسلاً حربياً فجعلها معركة بطولية كبرى وكسب من وراء ذلك مجداً وثراء عظيمًا بوصفه الداعية الأول والمنظر الرئيسي للنظام طوال عهد عبدالناصر، كانت حرباً خائبة صغيرة محدودة بأسلحة فاسدة، وعندما يكتب تاريخها حقاً بغير شطارة سيتبين أن الذين قاتلوا فيها حقيقة كانوا - أساساً - أولئك «الصعايدة والفلاحين» الذين تذكرهم عبدالناصر فجأة بعد هزيمة ١٩٦٧ الماحقة التي بددت كل الأوهام النابوليونية: الجاويشية والعساكر. وعلى أي حال، لم تكن تلك الحرب حرباً هائلة ضروس تبرر لذلك «الزعيم» العسكري الذي استولى على الحكم بوصفه ضابطاً هاماً رافضاً للهزيمة التي تسبب فيها فساد الملك وعهده المتعفن أن «يكره» الحرب إلى الحد الذي يجعله يبدأ بالتفاوض حتى وتلك الحرب دائرة، هناك، في الغالوجا.

وكون كلام هيكل من أنصاف الحقائق راجع إلى أنه قال أن عبدالناصر كان «يكره الحرب»، ولم يقل لم كان عبدالناصر يكرهها. وبطبيعة الحال، لم يكن بوسع هيكل وهو أخذ في رسم الصورة المعللة

لـ «الزعيم» أن يصارح قراءه في كتاب موَّحه إلى العالم الخارجي قبل العالم العربي بأن عبد الناصر كان كارها للحرب محباً للتفاوض والتسوية لأنه كان يعرف جيداً أكثر من أي إنسان غيره حقيقة نظامه وحقيقة من ملكهم مصر من العسكريين وزبانية المخابرات والأجهزة، ويدرك تماماً أن العدو الحقيقي للنظام لم يكن - في وعي النظام - «العدو الغادر»، إسرائيل، الذي كانت مشكلته على أي حال - في رؤية النظام - مع «أولئك الفلسطينيين» وربما أيضاً مع «أولئك العرب»^(*)، بل كان «الشعب المصري» ذاته الذي يمكن أن يحرم النظام والمنتفعين بالنظام وأعوانه - لو حزن - من «غنيمة الحرب» التي استولى عليها الضباط البواسل بغير حرب مصر وهذا واضح من كون التركيز الحقيقي لأجهزة أمن النظام كان على العدو الداخلي لا العدو الخارجي وعندما جد الجد، وتورط النظام وزعامته في «عملية التهويش» الكبرى التي استُدرج الزعيم إليها سنة ١٩٦٧، تبين فجأة أن المخابرات لم تكن تعرف أي شيء عن «العدو الغادر» الخارجي، بينما كانت تعرف كل شيء عن العدو الحقيقي الداخلي، صاحب الغنيمة الحقيقي، الشعب المصري، الذي ظل - رغم خضوعه التقليدي - خطراً على من استولوا على تلك الغنيمة وأداروها لحاسهم بوصفهم جيش احتلال داخلي، لا جيش دفاع خارجي.

(*) بدأ خصام عبد الناصر مع بعض السوريين سنة ١٩٥٩ عندما شرع الإسرائيليون في تحويل مياه نهر الأردن على بعد ستة كيلومترات عبر الحدود، فعارض عبد الناصر رغبة السوريين في القيام بعملية محدودة ضد المشروع الهندسي الإسرائيلي بحجتين، الأولى أنه من السهل إشعال حرب لكنه ليس من السهل إنهاؤها. والثانية أن فكرة الحرب المحدودة وهم، وقد قال «إنني مستعد للقيام بحرب محدودة إذا جاء أحدكم بضمان من بن جوريون بأنه، هو الآخر، سيجعلها حرباً محدودة»! (عبد الناصر وما بعده، ص ٥٦)

توقفنا قراءة «العهد القديم» وقراءة القصص الديني اليهودي المبني على ما حرّره الكهنة اليهود إبان عصر السبي في بابل في «العهد القديم» من «تواريخ»، على أن مصر، دون سائر بلدان العالم، ظلت العدو الأكبر، الغريم الأبدي، والفريسة المشتهاة لكهنة تلك الديانة والمؤمنين بها في كل العصور. وقد تناولنا دنس مصر عند هؤلاء الناس، باستفاضة، في كتابنا «قراءة سياسية للتوراة»، واستوضحنا فيه منشأ تلك الكراهية الممرورة المسمومة لمصر التي جعلت «العهد القديم» لا تكاد تخلو صفحة من صفحاته أو سفر من أسفاره من لعنة، أو سباب أو دعاء بخراب مصر. فبين اليهود وبين مصر، من أقدم العصور، ثأر دموي متوهج بنار وحشية لا تنطفيء. وليس هنا مجال استجلاء أسباب تلك الحزازة، فقد أوفيناها حقها من البحث في المرجع المشار إليه. أما الذي يتطلبه بحثنا هنا، فمتابعة سريعة لأهم ما جاء في «العهد القديم» وكتب القصص الديني المنبئية عليه من تصوير لمصر والمصريين وتعبير لا يهادن ولا يتورع عن الحقد الذي يغلي في القلوب ولا يتصورن أحد، عن رغبة في خداع النفس، أن تلك الحزازة كانت قديما، وأن الكراهية كانت لـ «أجدادنا الكفرة» كما يسمى الفلاحون المصريون إلى اليوم أجدادهم العظام الذين علّموا العالم الحضارة فالحزازة مصبّها مصر لا من سكنوها قديما. والكراهية نبعت في القلوب لذلك «الوجود» الذي اسمه مصر، والذي احتك به وعاش فيه أوقاتا التائهون الجياع الذين ظلّوا بلا حضارة ولا تاريخ ولا منشأ ولا وطن، والذين تسولوا حتى الديانة والأساطير من الشعوب التي تطفلوا على أراضيها، وشبعوا من خيرها ومن كرم أهلها، ونعني بهم الآراميين الذين حاول الكهنة اليهود خلال عصر السبي إرجاع نسب «اليهود» إليهم كيما يصطنعوا لهم استمرارية وعمقا تاريخيا يصل ما بينهم وبين آباء قالوا أن الإله عقد معهم عقودا وقطع على نفسه عهدا بمنح سلهم الأرض خالية ممن عليها، وعلى رأسها مصر، على النحو المصور اليوم في كتبهم وعلى أبينتهم العامة.

(١/١) مصر في «العهد القديم»

لنصنع إلى «إشعيا بن أموص الذي رأى الرؤي في أيام عزيا ويوثام وأحاز وحزقيا، ملوك يهوذا»^(*) «وحي من جهة مصر: وأهيج مصريين على مصريين فيحارب كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه، مدينة مدينة، ومملكة مملكة. وتهرق روح مصر داخلها وأفني مشورتها، وأغلق على المصريين في يد مولى قاس فيتسلط عليهم، هكذا يقول السيد رب الجنود.

(*) المعروف الآن أن سفر إشعيا ألفه ثلاثة من كبار المتنبيين اليهود عرفوا ثلاثتهم بذلك الاسم وكان أولهم، الذي عرف أيضا باسم «إشعيا» أورشليم. المتنبي الذي بدأ نشاطه في السنة التي مات فيها «الملك عزيا» من «ملوك يهوذا» (٧٤٢ ق م.) وظل يقتنأ إلى قرب نهاية القرن الثامن قبل الميلاد. وقد نسبت إليه الاصحاحات من ١ إلى ٣٩ من ذلك السفر ويعتبره كثيرون من الدارسين رحل دولة أكثر منه متسنا بطرا لانشعاله الواضح بالشؤون السياسية لـ «مملكة يهوذا» وبخاصة سياستها الخارجية. ومن أظهر خطوط «سياسته الخارجية» العداء الواضح لمصر والابحياز إلى الآشوريين الذين صورهم في تنبؤاته بالأداة الدنيوية المنفذة لمشينة الإله، لكنه انقلب عليهم في أواخر حياته ونصح الملك حزقيا بمنائهم. أما إشعيا الثاني، فكان من متبني عصر السبي، وإليه نسبت الاصحاحات ٤٠ إلى ٥٥ من السفر وأما الثالث، فمارس نشاطه بالقدر الأكبر بعد السبي والعودة إلى أورشليم، وإليه نسبت الاصحاحات من ٥٦ إلى آخر السفر. وعند تحرير «العهد القديم»، الذي اضطلع بالقدر الأكبر منه الكاهن عزرا ونحميا، أدمجت تسوّات الثلاثة وشخصهم في سفر واحد وشخص واحد. والواضح في السفر المسمى بذلك الاسم أن الخط الأساسي الذي امتد عبر أقوال المتنبيين الثلاثة تمثل في النظر إلى الإله باعتباره حاكما ملوكا محاربا، الإله الملك رب الجنود.

«وتنشف مياه البحر، ويحف النهر وييسس وتبتن الأنهار وتضعف وتجف سواقي مصر ويثلف القصب والأسل والرياح على حافة النيل وكل مزرعة على النيل تيسس وتتدد ولا تكون والصيادون يثنون وكل الذين يلقون شحفا في النيل يبحون والذين يبسطون شبكة على وجه المياه يحربون ويخري الذين يعملون الكتان المشط والذين يحيكون الأسحة البيضاء وتكون عمدتها مسحوقة وكل العاملين بالآخرة مكتنبي النفوس» إن رؤساء صوعس أعياء حكماء مشيري فرعون مشورتهم بهيمية. كيف تقولون لفرعون أنا ابن حكماء اس ملوك قدماء» فأين هم حكماءك فليخبروك ليعرفوا ماذا قضى به رب الجنود على مصر. رؤساء صوعس صاروا أعياء رؤساء بوق انخدعوا وأصل مصر وحده أسباطها. مزح الرب في وسطها روح غي فاضلوا مصر في كل عملها كترنج السكران في قبته فلا يكون لمصر عمل يعمل رأس أو ذنب في ذلك اليوم تكون مصر كالنساء فترتعد وترتجف من مرة يد رب الجنود التي يهزها عليها «وتكون أرض يهوذا رعبا لمصر كل من تذكرها يرتعب من أمام قضاء رب الجنود الذي يقضي به عليها».

(اشعيا ١٩ - ١ - ١٧)

ويل للذين ينزلون إلى مصر (طلبا) للمعونة ويستندون على الخيل ويتوكلون على المركبات لأنها كثيرة وعلى الفرسان لأنهم أقوياء جدا ولا ينظرون إلى قدوس إسرائيل ولا يطلبون الرب (يهوه) وهو أيضا حكيم ويأتي بالشر ولا يرجع بكلامه ويقوم على بيت فاعلي الشر وعلى معوية فاعلي الاثم وأما المصريون فهم بشر لا آلهة وخيلهم جسد لا روح والرب يمد يده فيعثر المعين ويسقط المعان ويفسب كلاًهما معاً.

(اشعيا ٣١ - ١ - ٣)

والمعنى واضح. ففي النص الأول، يهذي أشعيا بأمنية خراب مصر ودمار حضارتها وانهدام ملكها واقتتال أهلها ونضوب خيراتها في البر والنهر وفي كل هذيانه. يفصح الحقد الممرور الذي شعر به التائهون الجياع وهم يعاينون ضياع مصر وبذخها الحضاري والعمراني، وبالتفكير بالتمني، يرى يد إلهه، رب الجنود، عليها، زارعة الغي في وسطها.. باعثة الضلال في كل ما تفعل حتى لتصبح كالسكران مترنحا متمرغا في قبته، محطمة إياها لتصبح أرض يهوذا في النهاية رعبا لها.

وفي النص الثاني يهدد أشعيا الأقوام المستجيرة بقوة مصر الحربية وفرسانها ومركباتها بانتقام يهوه إله إسرائيل من كل من يلوذ بحمي مصر من شر جحافل انطلقت في المنطقة معربة تلغ في الدماء وتدمر وتنهب كل ما في طريقها باسم الإله ولأجل مجده العظيم، الذي تصوّره الكهنة دائما على أكوام من أشلاء البشر، ومهدداً مصر أيضاً إن هي أعانت من يلوذ بها.

وفي سفر إرميا بن حلقيا الكاهن، لا يهدد المتنبي من يلوذ بمصر من الأقوام الأخرى التي نزل قومه بينها كقطيع ذئب جائعة لا تشبع من لحمها أو ترتوي من دماؤها، بل يتهدد قومه أنفسهم إن هم تركوا أرض كنعان هرباً من وجه بابل، ولأذا بمصر. وفي النص الذي سنورده، يكشف إرميا عن مدى الكذب اللوح الصفيق في كل ما قيل عن بغي المصريين ووحشيتهم تجاه «بني إسرائيل» قبل إخراج موسى لهم من أرض مصر. ففي ذلك النص، يتبين أن الذاكرة الجمعية لأولئك الناس كانت قد ظلت محتفظة بصورة حية لمصر كملاذ من الموت ومن العنف، وبالأخص من الجوع الذي كان من الصق خصائص أولئك القوم بهم.

«وكان بعد عشرة أيام أن كلمة الرب صارت إلى إرميا فدعا إرميا يوحانان بن قاريح وكل رؤساء الجيوش الذين معه وكل الشعب من الصغير إلى الكبير وقال لهم هكذا قال الرب إله إسرائيل الذي أرسلتموني إليه كي أقي تصرعكم أمامه إن كنتم تسكنون في هذه الأرض فإني أبنيكم ولا أنقضكم وأغرسكم ولا أقتلعكم. لأنني ندمت على الشر الذي صنعتكم بكم. لا تخافوا ملك بابل الذي أنتم خائفوه لا تخافوه، يقول الرب، لأنني أنا معكم لأخلصكم وأنقذك من يده. وأعطيتكم نعمة فيرحمكم يردكم إلى أرضكم»

«وإن قلتم لا نسكن في هذه الأرض ولم تسمعوا لصوت الرب إلهكم قائلين لا بل إلى أرض مصر نذهب حيث لا نرى حرباً ولا نسمع صوت بوق ولا نجوع للخبز وهناك نسكن. فالآن لذلك اسمعوا كلمة الرب يا بقية يهوذا. هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل. إن كنتم تجعلون وجوهكم للدخول إلى مصر وتذهبون لتغربوا هناك يحدث أن السيف الذي أنتم خائفون منه يدرككم هناك في أرض مصر والجوع الذي أنتم خائفون منه يلحقكم هناك في مصر فتموتون هناك ويكون أن كل الرجال الذين جعلوا وجوههم للدخول إلى مصر ليتغربوا هناك يموتون بالسيف والجوع والوباء ولا يكون منهم باق ولا ناج من الشر الذي أجلبه أنا عليهم. لأنه هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل. كما انسكب غضبي وغيظي على سكان أورشليم هكذا ينسكب غيظي عليكم عند دخولكم مصر فتصيرون حلفاً ودهشاً ولعنة وعاراً ولا ترون بعد هذا الموضع ثانية قد تكلم الرب عليكم يا

مصر في الديانة اليهودية

بقية يهوذا لا تدخلوا مصر اعلموا علما أنني أندركم اليوم . فالآن اعلموا علما أنكم تموتون بالسيف والجوع والوباء في الموضع الذي ابتغيتم أن تدخلوه للتغربوا فيه،

(إرميا ٤٢ ٧ - ١٩ و ٢٢)

والشواغل العسكرية الكهنوتية واضحة في النص . فابتداء، الإله إله محارب، و «رب الجنود». ولندع حالياً كون التسمية - حتى هذه التسمية - مستعارة من بعض أوصاف الإله في الديانة المصرية القديمة، فالذي يعنينا هنا أن الكاهن المتنبئ إرميا يحكي لـ «بقية يهوذا» أن رب الجنود كلمه وأمره بأن يقول لهم أن يصمدوا في الأرض التي أعطاها لهم، أرض كنعان، ولا يفروا من وجه نبوخذ نصر ملك بابل ليلوذوا بمصر التي - من خبرة من سبقوهم - كانت ملاذاً من الموت والجوع . فالكاهن المتنبئ منشغل هنا بالحفاظ على المكاسب الإقليمية التي تحققت حتى ذلك الوقت، ومنخرط في تخويف «الشعب» بانتقام الإله إذا ما عصى أمر الإله وهرب إلى مصر تاركاً الأرض، بل وتاركاً الإله (الجديد) ذاته، يهوه، ليعود إلى عبادة إلهه القديم بعل صفون «في مجدل وفي تحفنجيس وفي أرض فتروس» (إرميا ٤٢ . ١) ولذلك يهددهم إرميا قائلاً:

«أحبروا في مصر واسمعوا في مجدل واسمعوا في نوف وفي تحفنجيس قولوا انتصبت وتهيا لأن السيف يأكل حوالبك، ثم يغلبه الحقد على مصر، فيفصر صائحاً «نادوا هناك فرعون ملك مصر هالك قد مات الميعاد. مصر عجلة حسنة جداً الهلاك من الشمال جاء أيضاً مستأجروها في وسطها كعجول صغيرة قد أخريت بنت مصر».

(إرميا ٤٦ ١٤ و ١٧ و ٢٠ و ٢١ و ٢٤)

ومنذ ذلك الوقت الموغل في القدم، ٦٣٠ ق م.، ارتبط خراب مصر ودمار فلسطين، بغير فكاك، في رؤى المتنبئين (النبیین) اليهود. فبينما تنبجس كراهيات الكهنة المسمومة لمصر على شكل نبؤات خراب وحرب أهلية وتخبط وفشل وتدهور وموت ودمار، تندفق كراهياتهم للفلسطينيين في رؤى مثيلة، أفصاحاً ربما عن أن دمار هذه مترتب على خراب تلك

«كلمة الرب التي صارت إلى إرميا عن الفلسطينيين (عن) اليوم الآتي لهلاك كل الفلسطينيين لينقرض من صور وصيدا كل بقية (للفلسطينيين) نعين (تعييهم) لأن الرب يهلك الفلسطينيين بقية (كل من بقي منهم) عزة واشقلون أهلك مع بقية وطائهم».

(إرميا ٤٧ ١ و ٤ و ٥)

وهو، قبل ذلك، قد وصف «هلاك كل الفلسطينيين» بانتشاء ديان يحكي للأحفاد عن أمجاد مذابح قبية ودير ياسين وصبرا وتساتيلا مثلاً

«ها مياه تصعد من الشمال وتكون سيلاً حارفاً فتعشى الأرض وملؤها المدينة والساكسين فيها فيصرخ الناس ويولول كل سكان الأرض من صوت قرع حواجر أقويانه من صرير مركبانه وصريف بكراته، لا تلتفت الآباء إلى البنين من ارتقاء الأيادي اه يا سيف الرب حتى متى لا تستريح، انضم إلى عمك اهدأ واسكن (ولكن) كيف يستريح (السيف) والرب قد أوصاه على أشقلون وعلى ساحل البحر هناك وأعدده (الرب) وأعدده على اللقاء هناك».

(إرميا ٤٧ ٢ و ٣ و ٦ و ٧)

وحتى يعم الخراب، يرى المتنبئ رؤيا لدمشق

«عن دمشق، حزيت حمة وأرماد. قد داسوا لأنهم سمعوا خبراً رديناً في البحر اضطراب لا يستطيع الهدوء ارتخت دمشق والتفتت للهرب أمسكتها الرعدة وأخذها الضيق والأوجاع كماخض (امراة جاءها المخاض). كيف لم تترك المدينة الشهيرة قرية مريحة لذلك تسقط شبانها في شوارعها وتهلك كل رجال الحرب (فيها) في ذلك اليوم (هكذا) يقول رب الجنود وأشعل نارا في سور دمشق فتاكل قصور بيهده».

(إرميا ٤٩ ٢٣ - ٢٧)

و «بنهده» تعني «بن حداد»، وهو الاسم الذي كان يضيفه إلى أسمائهم ملوك السوريين تيمناً باسم إله حداد، الذي كان إله الأراميين وأخذه عنهم من عرفوا باسم «بني إسرائيل» وعبدوه باسمه حداد، باسم بعل صفون، قبل أن يأتيهم موسى من عند المديانيين بالإله «يهوه». وهكذا نجد أن الكهنة والنبیین

اليهود عندما استغلوا اسم الإله في رؤاهم المنبجسة من كراهياتهم للشعوب التي اقتحموا أراضيها وطمعوا في ازاحتها والحلول محلها، مزجوا بين كراهياتهم وطموحاتهم وبين كراهية الإله الجديد يهوه لمن أسماهم الكهنة دائماً بـ «الآلهة الغريبة» وبخاصة بعل حداد أو بعل صفون. ولهذا يقول إرميا وهو يحلم بخراب دمشق «المدينة الشهيرة»، أن الإله، رب الجنود، سيحرق أيضاً قصور «بنهدد»، بن حداد، تصفية للحسابات مع ذلك الإله القديم المنافس «حداد» أو «هدد» كما يسميه «العهد القديم» أحياناً. والكاهن المتنبي، إرميا أخذ هنا - وهو منساق على عباب جارف من الشهوات الكهنوتية إلى أراضي الغير وضروب الحقد والحسد الحضاري وما تولد عنها من كراهيات - في الهمهمة بـ «رؤى» يضرب فيها يمناً ويسرة وفي كل اتجاه «متنبئاً» بأشياء فظيعة هي في حقيقتها أشياء تمنى هو وقومه دائماً أن تحدث للأقوام المتمدينة المستقرة في أوطانها، مؤكداً أن يهوه، رب الجنود، سوف يفعلها بتلك الأقوام كيما تقوم مملكة صهيون، واضعاً في مقدمة من سيفعل بهم رب الجنود تلك الأفاعيل، مصر وأهلها.

«هكذا قال الرب هاندا ادفع فرعون حفرع (خفرع) ملك مصر ليد أعدائه ليد طالبي نفسه كما دفعت صدقيا ملك يهوذا ليد نبوخذ نصر ملك بابل عدوه وطالب نفسه».

(إرميا ٤٤: ٣٠)

أي أن مصر سيحدث لها ما حدث لـ «مملكة» يهوذا على يد البابليين، فتخرب وتهدم ويسبى أهلها كما سبى اليهود وخرب «ملكهم» الذي أقاموه وقتاً على ما أخذوه من أرض جنوب فلسطين، ولكن (١) صدقيا، «ملك» يهوذا (٥٩٧ - ٥٨٦ ق م) الذي تمرّد على البابليين سنة ٥٩٧ ق. م. وعجل بذلك بنشوب الأزمة الأخيرة التي أودت بتلك «المملكة» وسقوط أورشليم سنة ٥٨٦ ق. م.، لم يكن معاصراً لخفرع فرعون مصر، ولم يكن ممن حكموا مصر في زمنه أو بعده فرعون اسمه خفرع.

(٢) فخفرع، باني الهرم الثاني، ثالث ملوك الأسرة الرابعة، أسرة الأهرامات، حكم مصر من سنة ٢٧٥٨ إلى سنة ٢٧٤٠ ق. م.، أي قبل زمان صدقيا وإرميا بقرون عديدة، فلم يكن من الممكن أن يدفعه يهوه رب الجنود «ليد أعدائه وطالبي نفسه كما دفع صدقيا ليد نبوخذ نصر».

والواضح أن هذا خطأ تاريخي آخر من الأخطاء التي وقع فيها كهنة العهد القديم وهم في حالة نشوة وتنبؤ، والواضح أن اسم الفرعون المصري العظيم كان قد علق بذهن إرميا، وفي عنفوان هذيانه بما فجره الحقد على مصر وتمني الخراب لها كما خربت «مملكة» يهوذا، قال أن رب الجنود أخبره أنه سيفعل بالفرعون خفرع تلك الأشياء الفظيعة عينها التي حدثت لصدقيا «ملك» يهوذا. والذي حدث لصدقيا أنه هرب بعد سقوط أورشليم، لكن البابليين ما لبثوا أن أسروه، وذبحوا أبناءه أمامه واحداً بعد آخر، ثم فقاؤا عينيه وأخذوه مكبلاً بالأغلال إلى بابل. وبطبيعة الحال، اغتاز إرميا لحدث تلك الأشياء لـ «مملكة» يهوذا و «ملكها» صدقيا بينما مصر ما زالت قائمة مستقرة مزدهرة، فانتابته الرؤى، وأعلن أن رب الجنود سيفعل بخفرع ملك مصر مثل ما فعله بصدقيا الذي عزا إرميا سقوطه إلى عصيانه إله إسرائيل وإغضابه إياه، أي خروجه على طاعة الكهنة وفي قبضة ما تسلط عليه من حقد وهياج، لم يتوقف المتنبي عند تفصيل عديم الشأن كاسم الفرعون الذي كان حاكماً لمصر وقت أن انتابه ذلك الهياج، أو تاريخ حكم خفرع لمصر وتاريخ مماته. ومن الواضح طبعاً أنه لو كان من قال له تلك الأشياء التي تنبأ بها أحد غير حقه وكراهياته، أو كان من أوحى بها إليه إلهها، كما ادعى، لما وقع وأوقعه في ذلك الخطأ التاريخي الغريب.

ونحن إذ نورد هذه الاستشهادات ونناقشها لا ننشغل بـ «تلك التواريخ القديمة، انشغالا مجانياً، بل نفعل ذلك إدراكاً منا للحقيقة الماثلة في أن الحركة الصهيونية قد وُحّدت دائماً بين «فكرها» وبين تلك التنبؤات والرؤى، ووعياً بأنه يكون من الغفلة الا نحاول الوقوف على ما أفصحت عنه تلك المنابع التي استمدت منها الصهيونية «فكرها» ونحاول أن نتبين ما يعنيه ذلك بالنسبة إلى الصراع الراهن.

وتدليلاً على ذلك، يحسن أن نتوقف لحظة عند القدس، أو «أورشليم» و«بالاحرى» «يروشلايم» في تلك التسمية. فما أكثر من ظلوا يحامون بإمكان استخلاص القدس سلمياً من برائن إسرائيل عن طريق «تسوية» ما تعقد تحت جناح الأصدقاء الأميركيين. لكن أحداً، فيما يبدو، لم يفكر في الرجوع إلى

الأصول الكهنوتية للمسألة أو يخطر له التنقيب قليلاً في تلك المنابع التي نتحدث عنها. ولو عني أحد بأن يكلف النفس تلك المشقة لتبين له بوضوح وجلاء ما بعدهما وضوح أو جلاء، وبغير لبس أو إساءة فهم، وبلا أي مجال لخداع النفس أو خداع أحد بادعاء إمكان إجراء «تسوية» بشأن القدس، واقع الموقف الصهيوني فيما يخص المدينة المقدسة التي انتزعت من كل البشر، لا من الفلسطينيين وحدهم، لتكون عاصمة لمملكة صهيون المسماة حتى الآن إسرائيل. ولنضع، مثلاً، إلى إشعياء

«استيقظي استيقظي السبي عرك يا صهيون السبي ثياب حمالك يا اورشليم المدينة المقدسة لأنه لا يعود يدخلك في ما بعد ألعف ولا نحس أنتفضي من التراب قومي اجلسي يا اورشليم احلي من رُبُط عنقك ايتها المسبية اسة صهيون، فبانه هكذا قال الرب»

(إشعياء ٥٢ ١-٣)

«لا يدخلك أغلف ولا نجس»، أي لا يدنسك أممي من غير اليهود فيطأ ترابك بقدمه. -اليهود بعد أن أخذوا عادة الختان من المصريين ادعوها لأنفسهم علامة وجعلوها علامة على خصوصيتهم وكونهم «الامة المقدسة للرب» وجعلوا كل من عداهم، بها، نجسا من الاممين. ويمكننا أن نتأمل قليلاً، إن شئنا، في مغزى القول وأبعاد الوضع الذي ينشأ عن تحريم القدس على غير اليهود، وهو ما شرع الحاخام مائير كاهانا منذ الآن في تنفيذه فعلاً وعلناً بحركته النضالية الداعية إلى تطهير كل أرض إسرائيل، لا القدس وحدها، من غير اليهود، وبخاصة - مرحلياً - من العرب.

فهذه الأشياء تحدث في الحقيقة والواقع. تتحقق «رؤى» الكهنة والنبیین سياسياً وعسكرياً حولنا على الأرض. ويمكننا، بطبيعة الحال، أن نختار الطريق الأسهل، فندفن رؤوسنا في رمال عدم التصديق، ونقول أن هذا هذيان أو كلام أناس جعلتهم الحميا الدينية «يتحمسون أكثر مما يجب»، أو أي شيء من هذا القبيل. إلا أننا، نحن وغيرنا من الاممين في الواقع، يجمع بنا، كنوع من رجاحة العقل والحرص على البقاء، أن نصيخ السمع جيداً لمثل هذه الأقوال التي نجهلها أو نصر على تجاهلها بينما الحركة الصهيونية، بمساعدة قوية نشطة من الأميركيين، أخذة في تنفيذها، حرفياً، كلمة بكلمة، وحرفاً بحرف، حولنا، وتحت أنوفنا، ونحن لا نريد أن نرى، وإن رأينا لا نريد أن نصدق. ولنندبر، مثلاً، قول إشعياء

«هوذا الرب يخلي الأرض ويعرعا ويقلب وجهها ويبدد سكانها تفرغ الأرض إفراعا وتذهب بهبا لأن الرب قد تكلم بهذا القول».

(إشعياء ٢٤ ١ و ٣)

«في المستقبل يتأصل يعقوب يزهر ويفرع إسرائيل ويملاون وجه المسكونة ثماراً ويكون في ذلك اليوم أن الرب يجني من مجرى النهر (الفرات) إلى وادي مصر، وأنتم تلقطون واحداً واحداً يا بني إسرائيل».

(إشعياء ٢٧ ٦ و ١٣)

«اقتربوا أيها الأمم لتسمعوا وأيها الشعوب اصغوا. لتسمع الأرض وملؤها. المسكونة وكل نشائجها. لأن للرب سخطا على كل الأمم وجمعوا على كل حيوشهم. قد حزمهم دفعهم إلى الدبح فقتلهم تطرح وجيفهم تصعد بتانتها وتسيل الجبال بدمائهم. لأن للرب يوم انتقام سنة جزاء من أحل دعوى صهيون. فتشوا في سفر الرب واقراوه. واحدة من هذه (التنبؤات) لا تفقد (لا تخيب) (وإذ ذاك) تفرح البرية والأرض اليابسة ويبتهج الفقير ويرهر كالنرجس يزهر أزهاراً ويبتهج ابتهاجاً ويرنم يدفع إليه مجد لبنان بهاء كرمل وشارون هم يرون مجد الرب بهاء الهنا. شددوا الأيادي المسترخية والركب المرتعشة ثبتوها (يا بني إسرائيل) قولوا لخائف القلوب تشددوا ولا تخافوا هوذا إلهكم. الانتقام أت. جزاء الله هو يأتي ويخلصكم حينئذ تفتح عيون العمي وأذان الصم تفتح حينئذ يقفز الأعرج كالأيول ويرنم لسان الأخرس. وتكون هناك سكة وطريق يقال لها الطريق المقدسة لا يعبر فيها نجس (غير يهودي) بل هي لهم يسلك المعديون (بنو إسرائيل) فيها. مفديو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون وترنم وفرح أبدي على رؤوسهم».

(إشعياء ٣٤ ١-٣ و ٨ و ١٦ و ٣٥ ١-٦ و ٨-١٠)

فنحن نرى كل ما يحدث الآن «مكتوب» من قبل في مخطط العهد القديم، وكل ما يجري في المنطقة تنفيذ حربي لتلك الخطة «الإلهية» لإقامة ملك صهيون على أشلاء كل الأمم. وإشعياء قد أقسم:

«من أجل صهيون لا أسكت ومن أجل اورشليم لا أهدأ حتى يخرج برها كضياء وحلاصها كمصباح يتقد. فتري الأمم

مرك (يا صهيون) وكل الملوك محدك وتسمين باسم حديد يعيه فم الرب وتكونين إكليل جمال بيد الرب وتاحاً ملكياً بكف إلهك.

(اشعيا ٦٢ ١ - ٣)

وفي مقدمة الأعداء الذين سبيدهم الرب من وجه مجد صهيون الصاعد، يظل لمصر مكان الصدارة.

«لأنه هكذا قال لي الرب إله إسرائيل حذ كأس خمر هذا السخط من يدي واسق جميع الشعوب فرعون مصر وعبيده ورؤسائه وكل شعبه، وكل اللغيف وكل ملوك أرض عوص وكل ملوك أرض فلسطين واشقلون وغرة وعقرون وبقية أشدود وادوم ومواب وسي عمون وكل ملوك صور وكل ملوك صيدا وملوك الجزائر التي في عبر البحر. ودان وتيماء وبور وكل مقصوصي الشعر مستديرا وكل ملوك العرب. وكل ملوك اللغيف الساكن في البرية.. وكل المعالك التي على وجه الأرض هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل اشربوا واسكروا وتقيأوا واسقطوا ولا تقوموا من أجل السيف الذي أرسله أنا بينكم لأنني أنا أدعو السيف على كل سكان الأرض هكذا يقول رب الجنود إله إسرائيل».

(إرميا ٢٥ ١٥ و ١٩ - ٢٤ و ٢٦ و ٢٧ و ٢٩)

هذا كله، والذي أوردناه بعض يسير من كل غزير، تحت أعيننا في «العهد القديم»، لكن أحدا رغم كل ما هو حادث، لا يعني بأن يقرأ، وإن قرأ يفكر، وإن فكر يفهم. ولعل المثال المميت على ذلك العمى، ما قاله الرئيس المصري أنور السادات عن الرئيس الأميركي جيمي كارتر:

«كان (السادات) يقول، عن كارتر إن الثقة كاملة بيننا، لأنه رجل متدين مثلي ولذلك فإننا لم نختلف»^(١).

وكارتر متدين فعلاً. ولكن هل خطر للرئيس المصري، قبل أن يذهب ليسلمه عنق مصر، أن يمعن النظر، ولو قليلاً، في نوعية ذلك التدين؟ بطبيعة الحال، لم يخطر ذلك للرئيس المؤمن ببال لأنه كان يكفيه أن يكون ذلك الرئيس الأميركي الطيب «رجلاً متديناً مثله». ولو كان السادات قد عني بالنظر في تدين كارتر لتبين أن كارتر من شيعة دينية تدعو نفسها «المسيحيين المولودين من جديد» (born again Christians)، وهي شيعة ينسب إيمانها على مسلمة أساسية هي أن غرض الله لن يتحقق إلا إذا عاد اليهود إلى أرض الميعاد، فلسطين، وأقاموا فيها مملكة إسرائيل اليهودية الخالصة التي لا يشاركهم فيها أو يقيم على أرضها، كمواطن من مواطنيها، أحد من غير اليهود. وهو عين ما يقوله الحاخام كاهانا وينادي به في الكنيسة وفي وسائل الإعلام الأميركية ومن مختلف منابر الولايات المتحدة وإسرائيل. وربما - لو كان السادات قد عني بتكليف «ولد» من «الأولاد العفاريات» ضباط المخابرات بأن يقتطع من وقته أياماً ينصرف فيها عن مراقبة «السادة المواطنين» ويذهب إلى أميركا فيتحقق من طبيعة تدين صديقه كارتر - كان سيصبح بوسع السادات، إذا ما وجد فسحة من الوقت، وهو جالس على المصطبة في استراحة القناطر، أن يفكر قليلاً في مؤدى ذلك الالتزام الديني لصديقه جيمي كارتر، وربما - لو كان قد ضيع بعض الوقت في ذلك - كان حرياً بأن يكلف أحداً بالتنقيب له في هذه الخلفيات الدينية لما هو حادث الآن، وربما - لو كان قد فعل ذلك - كان حرياً بأن يربط بين كلام اشعيا وإرميا وغيرهما وبين تدين جيمي كارتر وما قد يترتب عليه بالنسبة لمصر وفلسطين وكل العرب. ولكن هل تظن أنه كان يمكن أن يفعل ذلك؟ وهل تظن أنه - لو كان فعل - كان سيفهم؟ أو كان سيصدق؟ ومنذا الذي يمكن أن يصدق أن أولئك «الأصدقاء الأميركيين» الطيبين المتحضرين يمكن أن يكونوا معتئين، من بشر العهد القديم، بكل تلك المشاعر تجاه مصر، وهي مشاعر لا سبيل إلى إجمالها، في النهاية، إلا في تسمية أيوب لها بـ «رهب» أي «راحاب» تنينة البحر العظيمة و«الحية المتحوية»، في قوله أن إله إسرائيل «بفهمه يسحق رهب»، فـ «رهب»، تنينة البحر هذه، أخطر أعداء الإله في الأسطورة اليهودية، وإسباغ هويتها في كلام أيوب ناطق بمدى العداوة الذي انطوى عليه قومه لمصر من قديم، والخوف الذي بعثته في قلوب كهنتهم ونبيهم.

وبطبيعة الحال، لم تعد مصر اليوم مخيفة لأحد. لكن الكراهية القديمة المسمومة مترسبة في العروق والعقول. فوق أن مصر اليوم، بعدد سكانها، وموقعها، وحجمها، ووجودها العربي، تشكل حجر عثرة من المحتم أن يرفع من الطريق. وفي هذا تتوحد الكراهيات القديمة بالضرورات المعاصرة، فتظل مصر طريدة رئيسية لإسرائيل وأصدقاء إسرائيل «المؤمنين» الاتقياء كجيمي كارتر وغيره من زعماء الأمميين الذين تربوا على تعاليم «العهد القديم» وأمنوا بأن مخطط الإله لخليقته لن يتحقق ويرضى الإله إلا إذا قامت

مملكة إسرائيل على كل الأرض التي وعد بها الإله «أنه البكر» إسرائيل، وهو ما لن يتحقق إلا بخراب مصر، كما تنبأ ميخا

«لا تشمتني يا عدوتي إذا سقطت أقوم. إذا جلست في الظلمة فالرب نور لي. احتمل غضب الرب لأنني أخطأت إليه حتى يقيم دعواي ويحري حقي سيخرجني إلى النور سأنظر نوره وترى عدوتي فيعطيهما الخزي وهي التي قالت لي أين هو الرب إلهك عياني ستنتظران إليهما الآن تصير للدوس كطين الأرقعة من آشور ومدن مصر ومن مصر إلى النهر (الفرات) ومن البحر إلى البحر ومن الجبل إلى الجبل تصير الأرض حربة سسب سكانها من أحمل ثمر أفعالهم»

(ميخا ٧ - ٨ - ١٠ و ١٢ و ١٣)

(٢/١) مصر في القصص الديني اليهودي

يعزو القصص الديني اليهودي الكراهية والعداء للذين تنضح بهما تواريخ اليهود وكتابات كهنتهم وممتنبيهم في «العهد القديم» وغيره من كتبهم إلى اجرام المصريين ووحشيتهم في معاملة «اليهود» أيام كانوا يقيمون في مصر قبل أن يخرجهم موسى منها وبصرف النظر عن أن «اليهود» لم يقيموا في مصر، بل أقام فيها الآراميون قوم إبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف الذين انحدروا من نفس الأصل الذي انحدرت منه العرب العاربة والذين انتسب إليهم من ألفوا التوراة وحرروا أسفار العهد القديم الأخرى، اغتصاباً، حتى يصبح لهم عمق تاريخي يتيح الإدعاء بوجود تعاقدات بين «الآباء» وبين الإله من أقدم الأزمنة، اتصفت كل تلك الحكايات بالاختلاق.

فلم يكن الآراميون الذين عاشوا في مصر وعرفت سلالتهم بعد الخروج بـ «بني إسرائيل» والموسويين يعرفون الإله الذي عبده اليهود، يهوه، بل كانوا يعبدون الإله حداد، أو «هدد رمون» كما يسميه العهد القديم، وهو إله جاءوا به إلى مصر وسوريا وكنعان من أرض الكلدانيين، وعبدوه حينما استقروا في تلك البلدان باسم «بعل صفون» الذي كان مركز عبادتهم له في مصر ببلدة بلزيوم على ساحل المتوسط بالقرب من بلدة مجدل^(*). ولم يسمع أولئك الآراميون بـ «يهوه» إلا بعد أن تعلم موسى عبادته من كهنة المديانيين. وقد استغرقت عملية إخراج «الموسويين» من عبادة بعل صفوان وإدخالهم في عبادة يهوه أجيالاً عديدة بدأت محاولات التنقيف الديني اليهودي فيها على يد موسى واستمرت بعده على أيدي الكهنة القواد الذين كانوا قد باتوا «صفوة» حاكمة أصبح من صالحها ترسيخ تلك الديانة الجديدة تأميناً لمكاسبها وتحقيقاً لخطّة توحيد القبائل والأسباط في «أمة» واحدة يشتملها تنظيم سياسي / ديني يقوم على هيكل موحد وعبادة واحدة.

ومما ترويه التوراة ذاتها في سفر «الخروج» وما بعده، يتبين أن المصريين لم يعاملوا الآراميين (الذين ذويت حكايات الكهنة اليهود فيهم عبر «العبرانيين») معاملة إجرامية أو وحشية، بل - على العكس تماماً - توقفنا التوراة على أن المصريين كانوا، حتى في تلك الأزمنة السحيقة، متصفين بـ «عبطهم» المعهود وكرمهم الزائد.

فالمفروض عقلاً ومنطقاً، ولو كانت ادعاءات الإجرام والوحشية صحيحة، أن تكون العلاقات بين المصريين وأولئك الدخلاء الأغراب متوترة وعدائية، بالأقل في المرحلة التي حدث فيها الخروج من مصر. فحكاية التوراة تقول أن المصريين «استعبدوا بني إسرائيل بعنف ومرروا حياتهم بعبودية قاسية» (خروج ١: ١٣) وتقول أن موسى، «لما كبر وخرج إلى أخوته (بني إسرائيل، من بيت فرعون حيث تربى) لينظر في أثقالهم.. رأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من أخوته، فتلفت هناك وهناك ورأى أنه لم يكن يراه أحد فقتل المصري وطمره في الرمل» (خروج ٢: ١١ و ١٢) غير أن التوراة تحكي بعد ذلك مباشرة أن يهوه قال لموسى «حينما تمضون لا تمضون فارغين. بل

(*) انظر كتابنا «قراءة سياسية للتوراة»، رياض الريس للكتب والنشر ١٩٨٨.

تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها (المصرية) أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنبكم وبناتكم. فتسلبون المصريين». (خروج ٣: ٢١ و ٢٢) وهذا لم يكن من الممكن أن يحدث بين أناس غرباء مضطهدين وبين مضطهديهم ومعذبهم أهل البلد الأصليين. بمعنى أنه لو كانت ادعاءات الإجماع والوحشية صحيحة لاستحال على من خرجوا مع موسى أن يخدعوا المصريين ويسرقوا منهم أموالهم «حتى لا يمشون فارغين». وتحكي التوراة أن يهوه عاد فأكد على موسى، قبل الضربة الأخيرة، وهي «موت كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلف السرجى وكل بكر بهيمة (حتى) يكون صراخ عظيم في كل أرض مصر لم يكن مثله ولا يكون مثله أيضاً» (خروج ١١ و ٥ و ٦)، ألا ينسى ما اتفق عليه معه وقال له «تكلم في مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه (المصري) وكل امرأة من صاحبها (المصرية) أمتعة فضة وأمتعة ذهب» (خروج ١١: ٢) وبالفعل، حسب حكاية التوراة، ضرب الرب في نصف الليل كل بكر في أرض مصر، من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذي في السجن (بل) وبكر كل بهيمة (فكان) أن قام فرعون ليلاً هو وكل عبيده وجميع المصريين. وكان صراخ عظيم في مصر. لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت. فدعا (فرعون) موسى وهرون ليلاً وقال قوموا اخرجوا من بين شعبي انتما وبنو إسرائيل جميعاً. اذهبوا اعبدوا إلهكم كما تكلمتم. خذوا غنمكم أيضاً وبقركم كما تكلمتم واذهبوا. وباركوني أيضاً. وألح المصريون على الشعب أن يعجل بالخروج من مصر. لأنهم قالوا إن لم يخرج الشعب سنصبح جميعنا أموات. (فكان) أن حمل الشعب عجينهم قبل أن يختمر ومعاجنهم مصرورة في ثيابهم وعلى أكتافهم. وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى لهم. طلبوا من المصريين (الذين فقدوا أبقارهم ولم يكن في بيت من بيوتهم بكر قد ظل حياً) أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً. وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم الفضة والذهب والثياب فسلبوا المصريين». (خروج ١٢: ٢٩ - ٣٦).

فحتى في غمار تلك المناحة القومية الكبرى وقد فقد المصريون كل أبقارهم، حتى أبقار البهائم، لم يضمنوا على «الشعب» بفضتهم وذهبهم وثيابهم، فأعاروه إياها، وسلبهم الشعب كما قال لهم موسى وكما اتفق يهوه مع موسى

وبصرف النظر عن أن هذه حكاية مشينة لكل المشتركين فيها، ومخالفة لوصية «لا تسرق»، لم يكن من الممكن أن تتصور المخيلة المتقدمة بنار الحقد واشتهاء الضراب والموت لمصر حتى تتحول إلى مأتم واحد كبير أنه كان بوسع «الشعب» أن يسلب المصريين لو كانت تلك المخيلة صادقة فيما ادعته من إجرام المصريين ووحشيتهم تجاه «الشعب».

غير أن ذلك فهم يمليه المنطق ويفرضه العقل، بينما المنطق والعقل يغيبان تماماً ويتلاشيان في ضباب الأهواء عندما تحتدم والعواطف عندما تتوهج بنار الكراهية والحقد.

لذلك، لا يمكن لأحد أن يتوقع وجوداً لعقل أو لمنطق في القصص الديني اليهودي فيما يتعلق بمصر وشعبها، أو - في الواقع - بأي بلد آخر من البلدان المشتهاة أراضيها ودماء شعوبها وفضتها وذهبها. وإن كان حبر متنبئ جليل كحزقيال قد وجد في مكنته أن يضمّن كتاب اليهود الديني تأكيداً إلهياً بأن «المصريين لحمهم كلهم الحميم ومنّيهم كمنّي الخيل» (حزقيال ٢٣: ٢٠)، فإنه ليس مما يثير دهشة أحد أن نجد قصص اليهود الديني مليئاً بالسباب العنصري الصريح للمصريين، والتمجيد لـ «العبرانيين». وسنورد هنا أمثلة مختصرة محدودة على ذلك:

«بعد موت يوسف، لجأ المصريون إلى اللؤم والغش والخداع ومعسول الكلام لاستدراج سلالة يعقوب إلى وضع العبودية. أما في حياة يوسف، فكان «بنو إسرائيل» يتمتعون بوضع طيب في مصر، لأن يوسف كان قد أصبح «نائب ملك» لفرعون الذي ترك له إدارة كل شؤون الدولة، ولم يحتفظ إلا باللقب. وكان السواد الأعظم من المصريين يحب يوسف، ولم يجرؤ على المجاهرة بالعداء له إلا قلة من المصريين أزعجها أن تصبح في يد رجل أجنبي كل تلك السلطات الواسعة. غير أن الأمور تغيرت بسرعة بعد ممات يوسف. ولم يكد ينقضي على وفاته نصف قرن حتى كان العبرانيون قد بدأوا يجردون تدريجياً من امتيازاتهم

السابقة ويتلاشى حب المصريين السابق لهم. ورويدا رويدا بات العداء تجاه الأجانب الدخلاء كما بات المصريون يعتبرون بني إسرائيل، مكشوفاً، والكراهية مستعرة لا هودة فيها. وكلما حاول بنو إسرائيل الاندماج في المصريين بتعلم طريقة حياتهم ومحاكاة تقاليدهم وعاداتهم، بل وتكلم لغتهم والذهاب في محاولة استرضاء المصريين إلى حد التخلي عن عادة الختان المقدسة، ازداد المصريون رفضاً لهم وتشككاً في أولئك الأغراب الدخلاء»^(١١).

ومتعين أن نقطع سياق الاستشهاد هنا حيث أن الصفاقة تقف أحياناً في الحلق. فالقصص الديني الذي أوردنا الاستشهاد منه، بعد أن يقول أن «بني إسرائيل» حاولوا تعلم طريقة حياة المصريين وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم (بعد أكثر من أربعة قرون من الإقامة الطفيلية في مصر) يذهب في معرض الإدعاء إلى حد القول أن «بني إسرائيل» تخلوا عن عادة الختان المقدسة محاولة منهم لاسترضاء المصريين، الذين كانت تلك العادة من أهم ممارسات ديانتهم وحضارتهم وكانوا يقطعون أيدي الأسرى عندما يجدونهم غير مختنين إذ اعتبروا كل من لم يكن مختنناً «لا بشر» غير أن ذلك، بالنسبة للدارس الذي التقى المرة تلو المرة بهذا الضرب بالغ الاجترار على الحقيقة، الممعن في الصفاقة، من قلب الحقائق وتزييفها، لا يستغرب مثل هذا القول، وإن توقف عنده مفكراً في نوعية العقل الذي أمكن أن يجعل من مثل ذلك التزييف طريقة حياة.

ويقول راوية هذه الحكاية وهو معاصر يحكيها عن مصادرها القديمة المذكورة في هوامش كتابه كما أوردناها، أن «ما بات يعرف في العصور الحديثة باسم «معاداة السامية» كان شائعاً متفشياً بين المصريين» وإذا شعر بما في كلامه من اختلاق، يسرع فيستند بظهره إلى الحائط الصلد الذي لا يخيب، فيقول أن «الله كان قد قضى بأن ينقلب حب المصريين لبني إسرائيل كرهاً، حتى يرغب بني إسرائيل على الاتجاه إليه»! وقد لاحظنا ذلك الاستخدام عينه لرغبات الإله في حكاية سلب المصريين، إذ بررت الحكاية إعطاء المصريين ذهبهم وفضتهم وثيابهم إلى بني إسرائيل التي قالت نفس الحكاية أن المصريين «مروا حياتهم بعبودية قاسية»، بأن «الرب أعطى نعمة للشعب في عيون المصريين» فأعطوه ذهبهم وفضتهم ومكنوه من أن يسلبهم «كما علمهم موسى».

ونعود إلى الراوية المعاصر الذي لم يتوقف ليحاول التوفيق بين قوله أن «معاداة السامية كانت متفشية بين المصريين»، وبين قوله أن يهوه رأى أن «يقلب حب المصريين لبني إسرائيل كرهاً حتى يرغب بني إسرائيل على الاتجاه إليه»، فنجد منطلقاً في طريقه جذلاً غير عابئ لعقل أو منطق، لا يعوقه شيء «وهكذا بدأ اضطهاد بني إسرائيل في مصر. ففرضت عليهم ضرائب مجحفة ثقيلة بعد أن كانوا لا يدفعون أي نوع من الضرائب التي كان المصريون يدفعونها (والتي كان يوسف، حسب حكاية التوراة، هو الذي فرض معظمها). وسرعان ما أصدر فرعون أمره إلى شعبه بأن يبني له قصراً فاخراً. واضطر «العبرانيون» هم أيضاً، بعد أن كانوا معفين من مثل تلك الأعمال، إلى تقديم عملهم بغير أجر، بل وأرغموا على بناء تلك القلعة على نفقتهم الخاصة.

«وقد كان لاوى (ليفي) ابن يعقوب الذي امتد به العمر بعد أن مات كل أخوته، إذ مات بعد وفاة يوسف باثنتين وعشرين سنة. وقد عانى لاوى من تغير الأحوال كثيراً. لأن كل الاحترام والتقدير والمعاملة المميزة التي كان أبناء يعقوب قد تمتعوا بها قبلاً تلاشت تماماً. فاضطهد بنو إسرائيل واستعبدوا، وصودرت ممتلكاتهم من قصور وكروم ومزارع، وهي الممتلكات التي كان يوسف قد أغدقها عليهم عندما كان حياً ونائباً لفرعون. فقد ادعى المصريون أن تلك كانت أموالهم، واستولوا عليها لأنفسهم. وكان المصريون يكرهون العمل الشاق لأنهم كسالى، ومخنثون، ومولعون باللذات، وكانوا نقيضاً للعبرانيين المجددين الأذكاء الذين عاشوا حياة نظيفة وعملوا بجد فأثروا وأثارت ثراؤهم الحسد. فالعبرانيون، لأنهم عاشوا حياة نشطة ملتزمة بقواعد الفضيلة ومحاسن الأخلاق، كانت أحوالهم قد ازدهرت ازدهاراً كبيراً في إقليم جاسان (محافظة الشرقية الآن)، وكانت أعدادهم تتعاظم من يوم إلى يوم لأن نسايتهم، من بركة الله، كن يلدن ستة، واثنى عشر، بل وأحياناً ستين طفلاً في البطن الواحدة. وكان كل أطفالهم أصحاء أقوياء، وبفضل العمل الجاد الدؤوب، وحسن التدبير، والنشاط، اكتسبوا مكانة عظيمة وثراء ما بعده

ثراء في تلك البلاد. وسرعان ما بدأ المصريون يحسدونهم وفي الوقت ذاته يخافون منهم، إذ توقعوا أن يصبح تعداد الإسرائيليين أكبر من تعداد المصريين فيهددوا ملكهم ويستولوا على السلطة ويستعبدوا المصريين. (وهذا ما تقوله التوراة أيضا «قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف. فقال لشعبه هوذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا. هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض» (خروج ١ - ٨ - ١٠) ولو أن هناك اختلافا طفيفا فيما يتعلق بمخاوف المصريين من «عظمة بني إسرائيل» بين حكاية التوراة وحكاية القصة الدينية). ففي القصة، رغم تلك المخاوف، حاول المصريون عبثاً أن يجعلوا فرعون يستعبد بني إسرائيل استعباداً كاملاً، إذ قال لهم فرعون «يا أغبياء لقد ظل بنو إسرائيل حتى اليوم يطعموننا، وأنتم تريدون مني أن أجعلهم عبيداً» إلا تعرفون أنه لولا يوسف لما كنا أحياء اليوم ولكننا قد متنا جميعاً أثناء سنوات الجوع». غير أن كلمات فرعون الحكيمة لم تجد أذناً صاغية عند المصريين. فقد أنزلوه عن عرشه وسجنوه، ولم يفرجوا عنه ويعيدوه إلى العرش إلا بعد أن امتثل لهم واستبعد بني إسرائيل^(١).

ليس العداء لمصر نابعا من الجذور التاريخية التي حسدها «العهد القديم» والقصص الديني وحدها، فهو نابع أيضا من الدور الذي يمكن أن تلعبه مصر في إفساد المشروع الصهيوني - أو بالأقل - تعطيله. وبطبيعة الحال، سيظل من أصعب الأمور على أي بلد من بلدان المنطقة بمفرده، حتى وإن كان مصر، أن يتصدى لذلك المشروع أو يتعامل معه تعاملًا فعالاً لكن مصر أظهرت استعداداً للوحدة، واتحدت بالفعل مرتين. فوق أن مصر، في ظل عبدالناصر، رغم كل ما اتصف به عهده من سلبيات، فطنت إلى أهمية دعوة القومية العربية

وإن شئنا أن نتصور الدور الذي يمكن أن تلعبه مصر في مواجهة الغزوة الاستيطانية التي لا يحب أن نفكر فيها تفكيراً جدياً إلا بوصفها غزوة شاملة لا تشكل فيها فلسطين إلا مرحلة أولى ومنصة قفز، فما علينا إلا أن نتصور وعياً مصرياً حقيقياً بأبعاد الصراع ومرامييه يقضي بمصر إلى الاندماج في وحدة حقيقية مع البلدان التي يتهدها المشروع الصهيوني بالفناء وما علينا - بعد ذلك - إلا أن نتصور ما يمكن أن يؤدي إليه ذلك الاندماج الوجدوي من نتائج تقلب كل الحسابات الصهيونية والأميركية في المنطقة.

وليس هناك ما هو أدعى للحزن، بل للشعور بالفجيعة، من ضياع تلك الفرصة في عهد عبدالناصر. وبطبيعة الحال، لم يكن الوزر كله وزر عبد الناصر ونظامه، فقد شاركه في ذلك الوزر كثيرون في بلدان عربية عديدة ومبعث الحزن والشعور بالفجيعة، بصرف النظر عن تحمل بالقدر الأكبر من الوزر في تضيق الفرصة، أن عبد الناصر - بفضل ما تمتع به من حاذبية للجماهير العربية وما اكتسبه من شعبية - كان أقدر على تحقيق حلم الوحدة غير أن الشعوب عندما تجد نفسها مواجهة بالخيار الأقصى إما البقاء وإما الفناء، لا يعود لديها وقت تضيقه في التحسر على ما فات، وإن تعين عليها أن تستخلص العبر مما فات، ولا يظل بمكنتها أن تطمع في البقاء ما لم تكن قادرة على أن تفرز من داخلها من يقودها عبر المهالك التي تنتظرها، صوب تأمين البقاء

والذي تواجهه مصر وتواجهه كل الشعوب العربية معها لا سبيل إلى وصفه إلا بأنه خيار بين البقاء أو الفناء فالصراع مع إسرائيل لا مدار له إلا من الذي سيبقى، ومن الذي سيباد. وأي تصور لذلك الصراع خارج ذلك النطاق ضرب من الهذيان، من خداع النفس، من النكوص عن مواجهة الواقع، من الجبن. فالولايات المتحدة عندما مكنت الحركة الصهيونية من القيام بالمرحلة الأولى من مشروعها للاستيلاء على كل الأرض المتعاقد عليها مع الإله حسب الادعاء التوراتي، كانت - عن وعي وقصد وتدبير - تعيد خلق نفسها مجدداً في الكيان الذي يدعى حتى الآن «إسرائيل»، بنفس الأسلوب الذي وجدت به الولايات المتحدة أصلاً على أرض القارة الأميركية.

ونحن إذا ما شئنا أن نكون واقعيين وجادين في فهم ما هو حادث لنا، لا ينبغي أن نفصل لمدي لحظة، بين تاريخ الولايات المتحدة وتاريخ المشروع الصهيوني. فمنذ البداية، أعلن رؤساء الولايات المتحدة وساستها ومشروعها وكتّابها ومفكروها أنها «إسرائيل هذا الزمان»، وكما قلنا، اعتبروا إنشاء اتحادهم على الأرض الأميركية إنشاء لـ «أورشليم الجديدة». والرئيس الطيب المتدين الذي أعجب أنور السادات كثيراً بتدينه، جيمي كارتر، لم يفعل، في الحقيقة، عندما مكن إسرائيل من عنق مصر والشعوب العربية باتفاق كامب ديفيد، إلا أنه أوصل الالتزام الأميركي التاريخي الديني والأخلاقي إلى مداه الطبيعي تبعاً لما أملت عليه عقيدة الشيعة الدينية التي ينتمي إليها. وبطبيعة الحال، لم ير الرجل ذنباً ولا خطيئة فيما فعل. فهو - من وجهة نظر شيعته - قد ساعد على فتح الطريق صوب تحقق «مخطط الله للخلق»، بإعادة إقامة دولة صهيون - كما سيصبح اسم إسرائيل عندما تحكم - على «أرض الميعاد». وفي الوقت نفسه، «أنقد» الرجل أولئك المصريين المساكين من عبء الصراع.

ولقد ظل الخطأ المميت الذي تردى فيه العرب أنهم صدقوا حكاية أن إسرائيل «حليف استراتيجي

هام للولايات المتحدة، وركيزة لها في منطقة الشرق الأوسط، إلى آخر ذلك الكلام الذي ظل العرب يُلقنونه منذ تكشف دور الولايات المتحدة في تنفيذ المشروع الصهيوني في منطقتهم. غير أن الحقيقة التي يعرفها جيداً الأميركيون، والغرب والشرق، وكل من يتعمق جذور وطبيعة «العلاقة الخاصة» بين الولايات المتحدة وإسرائيل، تخالف ذلك الفهم المغلوط. فإسرائيل ليست «حليفاً» للولايات المتحدة أو قاعدة استراتيجية لها في الشرق الأوسط. إسرائيل هي التحقق الأقصى للحلم الأميركي، والامتداد العضوي للولايات المتحدة. والذي يجب أن يعيه العرب وكل من يعاني من آثار المشروع الصهيوني في الشرق الأوسط ويتفهمه جيداً، أن العلاقة بين الولايات المتحدة والمنظمة الصهيونية لم تنشأ من فراغ، أو بحكم ضرورات سياسية أو متطلبات استراتيجية، ولم تبدأ من مؤتمر بلطيمور سنة ١٩٤٢، فهي علاقة جذرية متأصلة في العقل الأميركي والروح الأميركية من البدء وستظل كذلك حتى اليوم الذي تصحوف فيه الأمة الأميركية - إن تركتها القبضة الصهيونية الخائفة على روحها وفكرها، تصحو - لتجد أن مصالحها كأمة ومصالح بلدها كقوة عالمية كبرى متجهة إلى فرض امبراطوريتها على كوكب الأرض كله متصادمة لا محالة مع مصالح «صهيون حاكمة الأمم»، أي مع الحركة الصهيونية المتجهة إلى فرض امبراطوريتها على العالم تحقيقاً لـ «غرض الله من خلق العالم»، وتنفيذاً لمخططة الحكيم لخليقته. وإلى أن تأتي لحظة الصحو المروعة هذه، إن أنت، ستظل إسرائيل ومشروع الصهيونية جزءاً لا يتجزأ من الولايات المتحدة ومن المشروع الأميركي كله. ومع الاحترام الكامل لكل تنظير أو «بحث» أو دراسة أو استقصاء لجذور وأبعاد العلاقة بين الصهيونية وبين «الامبريالية الأميركية»، وكل التقدير لفطنة الباحثين والمنظرين وأمانتهم، يتعين في النهاية القول أن تصوير العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل (المرحلة الأولى من المشروع الصهيوني) بأنها علاقة مصلحة تملئها استراتيجيات الامبريالية الأميركية يشكل قصوراً عن فهم حقيقة العلاقة ونوعيتها وبغيرها اصطناعياً مما هي حقيقة، أي من كونها علاقة عضوية حية متأصلة في بنية الولايات المتحدة كأمة، وقوة حاكمة للولايات المتحدة كمجتمع، إلى علاقة مصلحة، يمكن أن تكون مرحلية بين الولايات المتحدة كدولة وإسرائيل «كدولة صديقة وحليفة». وفي جذور الحيرة العربية والتخبط العربي في فهم المواقف الأميركية من «الصراع العربي الإسرائيلي» يكمن ذلك التصور الخاطئ للتلاحم الأميركي الصهيوني كعلاقة منفعة استراتيجية بإسرائيل. ومحك صدق ما نقول هو أن ننحي جانباً ذلك الفهم الذي لقن للعرب والعالم، ولو لمدى لحظة، وننظر في تناقضات السياسة الخارجية الأميركية ومواقف السياسة الداخلية الأميركية من القضايا المتعلقة بإسرائيل والحركة الصهيونية على ضوء فهم يقول أن العلاقة ليست بين «دولة» وأخرى، بل علاقة عضو من أعضاء الجسم الحي للأمة الأميركية والكيان النشط للمجتمع الأميركي وبين الجسم كله والكيان برمته.

وأعراض الحيرة العربية في فهم «الانحياز» الأميركي لإسرائيل رغم مصالح الولايات المتحدة الكثيرة والحيوية في العالم العربي، عديدة لا تحصى في تصريحات وخطب وكتابات الزعماء والسياسة العرب، وهي تتراوح بين الاستغراب والمصعقة بالشفاه والعتاب، وبين الاستفظة وعدم التصديق والغضب الشديد. ويمكن لمن شاء أن يضع مبحثاً متعمقاً في ذلك أن يرجع إلى خطب قادة مصر وساستها، على سبيل المثال. ويكفي هنا لتوضيح ما نعني أن نورد ما كتبه وزير خارجية مصر محمود رياض عن مواقف الأميركيين في أواخر سنة ١٩٧٠، أثر دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة:

«كان الحوداغل كواليس الأمم المتحدة جو معركة دبلوماسية كاملة بيننا وبين الولايات المتحدة بكل ثقلها في الميدان الدولي كقوة عظمى وقبيل التصويت على مشروع القرار الذي كان معروضاً على الجمعية العامة، بادرت بعقد اجتماعات متعددة متتالية مع وزراء الخارجية الذين جاؤوا من مختلف القارات لترأس وفود بلادهم في الدورة، كيما أجيب على أسئلتهم وأشرح لهم بمزيد من الإيضاح موقفنا وأفند الموقف الأميركي الإسرائيلي. وكان صدور القرار عن الجمعية العامة (وتنديده باستمرار الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية المحتلة منذ ٥ يونيو/ حزيران ١٩٦٧، وتأكيد على عدم جواز الاستيلاء على الأراضي بالقوة وضرورة إعادتها، واعترافه بحقوق الشعب الفلسطيني وضرورة احترامها كشرط أساسي لإقرار سلام عادل في الشرق الأوسط، وتأكيد على تنفيذ قرار مجلس الأمن ٢٤٢ وإنهاء حالة الحرب) كان صدور القرار، بغير شك، هزيمة قاسية للولايات المتحدة. وقبل عودتي إلى القاهرة، اجتمعت بوليم روجرز، وزير الخارجية الأميركي، مرة أخرى..»

مصر كطريدة رئيسية للحركة الصهيونية

ودكرت له أنه توجد الآن أمام الولايات المتحدة فرصة ذهبية (١) للتقدم نحو السلام في المنطقة، وأنه إذا كانت العلاقات قد ساءت بين الولايات المتحدة وعبد الناصر لأسباب لا داعي للحوض فيها الآن مما حدا بالولايات المتحدة أن تتحد (أشد) موقفا معاديا لمصر، فإن الولايات المتحدة تستطيع على ضوء تجارب الماضي أن تبادر إلى السعي من أجل بناء الثقة وتحقيق الحل الشامل (٢) (ووقتها) أظهر ويليم روجر اهتمامه بهذا الحديث، لكن يبدو أن اهتمامه لم يكن كافيا لتغيير موقف الولايات المتحدة (٣) أو (إغراء) الإدارة الأميركية بانتهاز الفرصة لإعادة بناء الجسور مع العالم العربي بهدف السعي بجدية نحو تحقيق السلام (٤) (ذلك رغم أن ويليم روجر كان في الواقع شخصية تدعو للاحترام، وكان - بحكم رئاسته لوزارة (الخارجية) تصم خبراء محترفين متخصصين في شؤون الشرق الأوسط - ملما بطبيعة وحجم المصالح الأميركية في المنطقة وتحكمه الرغبة في المحافظة على تلك المصالح وتنميتها ويتعمى التوفيق بين تلك المصالح وبين السلام العادل بين العرب وإسرائيل (٥)، ويرى أن هذا ممكن فعلاً لو استطاعت (أو رعت) الولايات المتحدة كبح جماح رغبة إسرائيل في التوسع على حساب الآخرين.. (إلا أن الذي حدث) أن الولايات المتحدة (بدلاً من أن تسعى لصور مصالحها والتوفيق بينها وبين إقرار «سلام عادل» بين العرب وإسرائيل) صعدت في الشهر التالي حالة التوتر معنا بإعلانها عن تقديم المريد من الأسلحة لإسرائيل بالرغم من إعلان إسرائيل رفض أي اتصال مع السفير ياربع (وسيط الأمم المتحدة)، (بل) وتحدث ويليم روجرز في اللجنة المالية لمجلس الشيوخ الأميركي يوم ٨ ديسمبر/ كانون الأول قائلاً «إن الميزان العسكري قد تعرض للخطر بفعل الانتشار الكثيف للصواريخ أرض/ جو في منطقة قناة السويس، وهو العمل الذي قامت به مصر بالمشاركة مع الاتحاد السوفياتي، والاعتمادات المالية المطلوبة لإسرائيل سوف تستخدم أساساً من أجل الطائرات والمعدات الالكترونية التي ستساعد على استعادة التوازن العسكري». وفي نفس اليوم، صرح وزير الدفاع الأميركي بقوله «إننا نحتاج إلى (اعتماد من الكونجرس بمبلغ) خمسمائة مليون دولار لتمويل مبيعات الأسلحة إلى إسرائيل هذا العام». وقد أثار هذا الموقف الأميركي الدول العربية جميعاً لأن مصر أقامت شبكة الصواريخ للدفاع عن أرواح أبنائها، بينما رأت الولايات المتحدة في ذلك خطيئة كبرى ولذلك عملت على تزويد إسرائيل بأسلحة من قاذفات القنابل والأحرة الالكترونية لتتيح لإسرائيل الاستمرار في الإغارة على الأراضي المصرية» (٦).

وكلام وزير الخارجية واضح وليس بحاجة إلى تعليق، اللهم إلا فيما يتعلق بما أنبأ عنه كلامه من عدم القدرة على فهم حقيقة الموقف الأميركي، رغم قوله أن مجرد استصدار قرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة يعزز قرار مجلس الأمن بضرورة إعادة الأراضي الإضافية التي احتلتها إسرائيل كان «معركة دبلوماسية كاملة»، لا بين مصر وإسرائيل، أو بين العرب جميعاً وإسرائيل، بل بينهم وبين الولايات المتحدة وقد اتضح عدم الفهم، أو بالأحرى عدم القدرة على التصديق تحت تأثير المواقف التي استقرت في الأذهان عن طبيعة العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل، في كلام محمود رياض عن «الفرصة الذهبية التي أتاحت للولايات المتحدة للتقدم نحو السلام في المنطقة» وعن إمكان تحسين العلاقة بين الولايات المتحدة ومصر بعد أن مات عبد الناصر، وتوقعه لأن «تغير أميركا موقفها» فـ «تنتهز الفرصة لإعادة بناء الثقة وتحقيق حل شامل للصراع وإعادة بناء الجسور مع العالم العربي والسعي بجدية نحو تحقيق السلام». فكل هذه التصورات منبئة عن خطأ أساسي في فهم نوعية العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل، وبالتالي دور الولايات المتحدة في تنفيذ مراحل المشروع الصهيوني.

وفي إشارة محمود رياض إلى أن موت عبد الناصر كان ينبغي أن يكون منفذاً للولايات المتحدة لتغيير «موقف العداء الذي اتخذته من مصر» ما قد يوقفنا على بعض الحقيقة فيما يخص الموقف الأميركي، وإن لم يبد أنه كان كافياً لجعل محمود رياض يعيد نظراً في القنوات التي أرسيت في عقول الجميع عن ذلك الموقف. ومما يوقفنا على مدى قوة تلك القنوات أن محمود رياض نفسه هو الذي كتب هذا الكلام:

«على أن كيسنجر يزداد وضوحاً بعد ذلك حينما يكتب مستغرباً «أن عبد الناصر يضعنا في اعتباره لكي نستثله من عواقب نهوّه سنة ١٩٦٧، لكنه - مع ذلك - غير راغب في الكف عن دوره كنصير للقومية العربية الراديكالية التي وضعته في مركز خشن معاد للولايات المتحدة بالنسبة لكل القضايا الدولية تقريباً» (٧).

ولم يكن «الصديق» هنري كيسنجر، كما دأب السادات على تسميته، مطالباً - بطبيعة الحال - بإمعان النظر أو مصارحة قراءه بالدوافع الحقيقية «الزعامية» لعبد الناصر فيما يتعلق بـ «القومية العربية»، لأنه، فيما يخص كيسنجر كأحد أعضاء المؤسسة الحاكمة الأميركية، يكفي أن عبد الناصر ارتكب خطيئة التحدث عن القومية العربية، حتى وإن كان كلامه عنها من قبيل التكتيكات الزعامية لا أكثر وظل - في

النهاية - كلاما لم يتمخض عن أي شيء إيجابي بالنسبة لتحقيق الوحدة التي ينبغي أن تظل المحصلة النهائية لأي إيمان حقيقي بما تدور حوله حكاية القومية العربية فالوحدة مع سوريا فشلت، وكان السبب الرئيسي في فشلها النظام الناصري ذاته بأخطائه التي كشفت في النهاية عن أنه لم يكن لديه أي وعي حقيقي وأصيل بمطلب الوحدة كتحقق جوهرى لتلك القومية العربية التي لم يكف الزعيم عن استخدامها تكتيكيا. والوحدة الطبيعية مع السودان أهدرت نتيجة للغباء والتخبط والعشوائية و«الرقص» والوحدة مع العراق أجهضت حتى من قبل أن تبدأ غير أن شيئا من كل ذلك لم يكن يعني هنري كيسنجر في شيء طبيعة الحال، إذ كان يكفيه التحدث عن القومية العربية أو الوحدة العربية أو حتى «التضامن» العربي، مجرد حديث، كيما يصبح المتحدث «معاديا للولايات المتحدة بالنسبة لكل القضايا الدولية تقريبا».

ولقد كان ذلك كله حريا بأن يفتح العين على حقائق الوضع، لكنه - حتى الآن - لم يفعل، ومتى أخذنا بالفهم الذي تفصح عنه مذكرات محمود رياض، لن يفعل شيئا صوب فتح الأعين خلال المستقبل، وهو مستقبل لن يطول كثيرا إذا ما نفذ المشروع الصهيوني طبقا للخطة الموضوعة له فذلك الفهم التقليدي ظل مسيطرا على تفكير الزعامة المصرية رغم لحظات الوعي التي من هذا القبيل.

«ويكفي أن أشير هنا إلى الفقرة العاشرة من المقترحات الإسرائيلية (التي قدمتها إسرائيل في ٩ يناير/ كانون الثاني ١٩٧١) حول عناصر السلام بين مصر وإسرائيل واشترطت فيها على مصر «عدم المشاركة في تحالفات عدائية ومنع تمركز قوات عسكرية تنتمي لأطراف أخرى تكون في حالة حرب مع إسرائيل». والمعنى العملي لتلك الفقرة هو أن تنسحب مصر من اتفاقية الدفاع المشترك مع الدول العربية، بل ومن الممكن أيضا أن تعتبر إسرائيل أن عضوية مصر في الجامعة العربية عمل عدائي نحوها، وفي النهاية فإن الهدف الإسرائيلي الواضح هنا هو عزل مصر عن الدول العربية كجزء من الحل المنفصل الذي تسعى إليه منذ البداية... وكان ويليم روجرز، وزير الخارجية الأميركية قد بعث إلي برسالة في ١٥ يناير/ كانون الثاني ١٩٧١ (بعد تقديم إسرائيل لمقترحاتها بأيام) طلب مني فيها ألا أنظر «فقط إلى ما تقوله المقترحات الإسرائيلية.. لأنه من المهم أيضا النظر فيما لم تقله». وكان ذلك اقتراحا طريفا من جانبها أصبح محل مناقشة ساخرة في اجتماع لجنة التخطيط بوزارة الخارجية (المصرية)، فقد كان لدينا ملف ضخيم يضم الخطط الإسرائيلية كما وردت على السنة المسؤولين الإسرائيليين فيما يتعلق بالتوسع الإقليمي أو الاستيلاء على مياه الأنهار العربية أو الأهداف الاقتصادية التي ترغب في تحقيقها في العالم العربي. وقد علق أحد أعضاء اللجنة بقوله إننا لو نظرنا، كما طلب روجرز، فيما لم تقله إسرائيل، لتعين علينا أن نعود إلى هذا الملف الضخم، وعندئذ سوف نجد أنفسنا أمام مخطط إسرائيلي كامل للسيطرة على المنطقة»^(١٩).

ورغم ذلك، لم يخطر ببال وزير الخارجية أو أي عضو من أعضاء لجنة التخطيط، وبين أيديهم ذلك «المخطط الإسرائيلي الكامل للسيطرة على المنطقة»، التوقف لحظة للتفكير في طبيعة الدور الأميركي في كل ذلك والسبب الذي جعل وزير الخارجية الأميركي يبعث برسالته إلى وزير الخارجية المصري معربا عن «شدة تفاؤله وتحمسه» للمقترحات الإسرائيلية التي لم يكن لها مؤدى إلا «عزل مصر عن الدول العربية كجزء من الحل المنفصل الذي تسعى إليه من البداية».

ولقد ظل عزل مصر عن «الصراع العربي الإسرائيلي» الهدف الأساسي لكل من الولايات المتحدة وإسرائيل منذ البداية، وطيلة الوقت.

«ففي مؤتمره الصحفي الذي عقده بلندن قبيل مغادرته لها إثر انتهاء مؤتمر «الاشتراكية الدولية» في أواخر يونيو/ حزيران ١٩٧٤، قال اسحق رابين، وجه إسرائيل (الذي كان وقتئذ) جديدا اختير وأعد بعناية ليخلف جولدا مائير ويكون صورة لعهد ما بعد جولدا:

«في رأينا أن أفضل أمل للسلام هو السير في المفاوضات، في المرحلة المقبلة، بنفس الطريقة التي أتتحت حتى الآن، طريقة التفاوض ثنائيا مع كل طرف على حدة. وفي حين كان إنجاز كل الخطوات السابقة على أيدي الولايات المتحدة، قامت بالخطوة الأخيرة إسرائيل، وجها لوجه، مع مصر، ثم مع سوريا. وهكذا هو ما يجب أن يكون إسرائيل ومصر، وإسرائيل وسوريا، وهكذا. وما مؤتمر جنيف إلا مجرد إطار لتلك المفاوضات الثنائية».

«وفي ذلك المؤتمر الصحفي، رَكَرَ رابين على مصر بالدات
«إن التفاوض مع مصر هو مفتاح السلام في الشرق الأوسط ككل إلا أننا، عندما نتحدث عن السلام،
لا يجب أن ننسى أننا لا نتحدث عن أي انسحاب آخر تقوم به إسرائيل في سيناء، بل نتحدث عن التحرك
قدماً صوب السلام فلن تكون هناك أية تنازلات إسرائيلية جديدة فيما يتعلق بالأرض بغير تحرك ذي قيمة
يقوم به الطرف الآخر صوب السلام»^(١٦)

وقد كان رابين واضحاً وصريحاً بما فيه الكفاية فيما قال، وبَيَّن أن:
١ - الهدف الأساسي لكل «الخطوات التي أنجزت على يدي الولايات المتحدة» وتلك التي قامت بها
إسرائيل بنفسها، كان عزل مصر، استفرادها، وإخراجها من ساحة الصراع.
٢ - إن عزل مصر واستفرادها وجرها إلى التفاوض ثنائياً مع إسرائيل هو «مفتاح السلام (الأميركي/
الإسرائيلي) في الشرق الأوسط ككل».

٣ - إن «الأرض» (أي الأراضي المصرية التي أخذت في سنة ١٩٦٧) هي التي استخدمت في إخضاع
مصر وجرها إلى التفاوض (إذ جعلت الولايات المتحدة من المستحيل عليها استرداد تلك الأراضي بالحرب)،
وبذلك القول كشف رابين عن حقيقتين جوهريتين بالغتي الخطورة:

أولاً - أن شرك الأيام الستة الذي استدرجت إليه مصر بالتواطؤ الكامل من جانب الولايات المتحدة
وآخرين كان الهدف الأساسي منه أخذ تلك الأرض لإرغام مصر على التفاوض ثنائياً مع إسرائيل حول
استردادها.

ثانياً - إن حرب أكتوبر حُجِّمت حتى لا تفسد ذلك التخطيط. فرابين كان يقول هذا الكلام بعد سنة كاملة
من حرب أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧٣، و«الثغرة» التي أوقفت الجنود وصغار الضباط المصريين بعد الخط
الذي كان متفقاً عليه عندما أعطي السادات الضؤ الأخضر بالعبور «تحريكاً» للعملية وتلييناً للزعامة
الإسرائيلية.

وقد استطرد رابين، بعد ذلك، فقال

«إننا نريد السلام ونسعى إليه. لكننا لا نفهم السلام كلاماً، ولا تصدقه إلا أفعالاً. إن السلام الذي نفهمه
ونصدقه ونقبل به هو سلام الحدود المفتوحة، حتى تختلط الشعوب وتلتقي وتتعارف وتتعاظم».

وهكذا، فإنه بقفزة كقفزات الحواة والأكروبات في السيرك، عاد كل شيء إلى ما كان عليه أصلاً (قبل
حرب أكتوبر/ تشرين). الإسرائيليون في الوضع الذي يستطيعون أن يملوا منه شروطهم ويمنحوا
ويمنعوا، والعرب - بغتة وبعد كل شيء - في الوضع الذي ينتظرون فيه رحمة إسرائيل. «إننا لا نتحدث
عن انسحابات»، هكذا يقول رابين «إننا نتحدث عن سلام كامل. فلنجلس معاً، كل دولتين على حدة،
إسرائيل ومصر، وإسرائيل وسوريا، ولنفتح الحدود» وربما اشترط رابين عما قليل، كيما ينسحب، أن
ترجع البلدان العربية إلى إسرائيل فتطلب منها الإذن وتسألها النصيح والمشورة والرأي قبل الشروع في
تنفيذ أي خطة من خطط التنمية الوطنية في تلك البلدان عملاً على التنسيق بين الاقتصاد العربي
والاقتصاد الإسرائيلي، حتى لا يكون هناك تضارب أو ازدواج في الإنتاج. «وعلى أي حال، لن يكون هناك
انسحاب إسرائيلي، أي انسحاب، إلا إذا غير المصريون تفكيرهم - ولا أقول غيروا قلوبهم تجاهنا
نحن الإسرائيليين - وغيروا موقفهم تجاه السلام».

«ومنذا الذي يكره السلام؟ ومنذا الذي يستطيع، أن يلوم رجلاً يستमित كل هذه الإستماتة في طلب
السلام؟ وما الذي يريده العرب؟ هل يريدون أن يذبحوا إسرائيل المسكينة البطلة بينما هي تعرض عليهم
السلام السلام السلام؟ ماذا يريد العرب المتوحشون أيضاً»^(١٧).

وبإزاء تلك الخلفية من التدلّ في حب السلام من جانب الإسرائيليين والأميركيين، وحب الحرب والرغبة
في إلقاء الإسرائيليين المساكين في البحر، من جانب العرب الأشرار، سار بخطى ثابتة صوب التنفيذ
الشامل المخطط التوراتي القديم الذي وضعه الإله ذاته للأبء وتعهده لهم بإنجاحه وجعل تحقيقه الهدف

قتل مصر

الذي يتحرك التاريخ صوبه. وفي غمار الهجمة الأميركية الإسرائيلية لتنفيذه، باتت مصر طريدة رئيسية تحلقها ضاربو الطبول الذين يحيطون بالفريسة دافعين إياها بما يحدثونه من ضجيج صوب الصيادين الذين يطلبون دمها.

- (١) «عبد الناصر وما بعده» - كتاب قصايا عربية، بإشراف الدكتور أبيس صايغ - «الدين في فكر عبد الناصر»،
عبد العاطي محمد أحمد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٥٣
- (٢) المرجع نفسه، عبد الناصر وقضية الصلح مع إسرائيل، الدكتور حسن حنفي، ص ١٤
- (٣) المرجع نفسه، الصفحة نفسها، استشهاداً من الجزء الأول من «مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال
عبد الناصر»، الناشر وزارة الإرشاد القومي، مصلحة الاستعلامات، القاهرة (١٩٥٢ - ١٩٥٨) ص ١٢٥ في
١٩/٤/١٩٥٤، ص ١٨٧ في ٢٩/٧/١٩٥٤، ص ٢٢٠ في ١٣/٩/١٩٥٤
- (٤) المرجع نفسه، «تصور القيادة الناصرية لأسلوب تسوية الصراع العربي الإسرائيلي»، يوسف حسن شوقي،
ص ٦٠، استشهاداً من كتاب حاك كوار «من حرب الأيام الستة إلى حرب الساعات الست» ترجمة كمال السيد،
الوطن العربي، بدون تاريخ، ص ١٠٧ وقد عرر ذلك أنور السادات في مصارحاته لموسى صبري، فيما يحص اللوذ
بحص الولايات المتحدة
- (٥) المرجع نفسه، البحث السابق نفسه، ص ٥٧
- (٦) المرجع نفسه، البحث السابق نفسه، نفس الصفحة، استشهاداً من «وثائق عبد الناصر»، الناشر مركز الدراسات
السياسية والاستراتيجية، الأهرام، القاهرة، ص ١٧٢
- (٧) محمد إبراهيم كامل «السلام الضائع في اتفاقيات كامب ديفيد»، الناشر الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، بدون
تاريخ، ص ٢١ و ٢٢
- (٨) «عبد الناصر وما بعده»، المرجع السابق الإشارة إليه، البحث المشار إليه في الهامش رقم (٤)، ص ٥٥
- (٩) محمد حسنين هيكل «عبد الناصر والعالم»، مترجم، دار النهار، بيروت، ص ٥١
- (١٠) موسى صبري «السادات، الحقيقة والأسطورة»، الناشر المكتب المصري الحديث، الطبعة الثانية، ٢ أكتوبر /
تشرين الأول ١٩٨٥، ص ١٩٤
- (١١) Angelo S. Rappaport: «Ancient Israel - Myths and Legends», The Mystic Press, London, 1987, Vol.
II, pp 189/190 (Midrash Tanchuma, section Shemot, Midrash Agadah, section Shemot, Sepher
Hajashar)
- (١٢) Ibid, pp 190/191
- (١٣) «مذكرات محمود رياض ١٩٤٨ - ١٩٧٨، البحث عن السلام والصراع في الشرق الأوسط»، المؤسسة العربية
للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية المصححة، ١٩٨٥، ص ٣٠٧ - ٣١٢
- (١٤) المرجع نفسه، ص ٣٠٠
- (١٥) المرجع نفسه، ص ٣٢٥/٣٢٦
- (١٦) شفيق مقار «باليه السلام الأمريكي على مسرح الشرق الأوسط»، المثقف العربي، بغداد، السنة السادسة، العدد
الثامن، أكتوبر / تشرين الأول ١٩٧٤، ص ١٤٩/١٥٠
- (١٧) المرجع نفسه، ص ١٥١/١٥٢

1
2
3
4

1

1

الباب الأول

شَرِكْ عَرَبِ الْيَوْمِ السَّيِّئَةِ

مصر «عزبة من؟»

استُدرجت مصر إلى مصيدين على مدى عقد واحد، باستغلال دكي ومدرّوس لنفسية جمال عبدالناصر، ونفسية خليفته أنور السادات. ففي سنة ١٩٦٧، كان شرك حرب الأيام الستة وفي سنة ١٩٧٧، كان شرك «الصلح»

وليس هذا الكتاب عن جمال عبدالناصر و«حرب» ١٩٦٧ لكنه لا مهزب، لارتباط الأحداث وتسلسلها، من وقفة متأنية عند تلك «الحرب» والدور الذي لعبه في تنفيذها وحني ثمارها استغلال من استدرجوا مصر إليها لتركيبة جمال عبدالناصر، واستجاباته لما ظلوا يصّبونه باتجاهه من مثيرات «لما دبّ الخلاف بين الرئيس محمد نجيب والضباط الشبان - وعلى رأسهم المرحوم جمال عبدالناصر - استحالة مجلس الوزراء إلى حلبة صراح عنيفة وكان الصراح يتسرب من قاعة الاجتماعات إلى الخارج، فيسمعه الصحفيون وموظفو المجلس. ومن ذلك الصراح أن الرئيس بحيب أبدي يوماريا معينا في أمر من الأمور، فاعترض عليه جمال سالم فحسمها محمد نجيب، وقال «هذا أمر متفق عليه بيني وبين جمال عبدالناصر» فانتفض جمال سالم وصاح صارخا في وجهه «هي عزبة أبوكم أنتم الاثنين»^(١) ومنذ البداية، وحتى اليوم، وإلى المستقبل المعتم المتربص بمصر، سيظل ذلك هو السؤال الأخطر والأهم عزبة من هي؟

وبطبيعة الحال، ليس أحد منا، نحن المصريين، على استعداد لأن يسلم - حتى فيما بينه وبين نفسه - بأن مصر، البلد العظيم العريق الذي أعطى العالم الحضارة وإبتدع العيش المتمتد بينما كانت أمم أخرى كبيرة اليوم وعظيمة شبه قبائل من قرود تعيش في الأشجار والكهوف، يمكن أن تكون عزبة أحد وكثيرون منا ينفون أن مصر عزبة أحد لأن المسألة ليست مسألة عزبة أو تملك، بل مسألة أن الحاكم «يجسد الشعب الذي اختاره، يجسد مصر، يصبح هو مصر، كما أعلن بمبتهى الوقار أحد كبار أساتذة القانون قائلاً

«هذا الرجل (السادات) قد احترباه جميعا زعيما لهذا البلد واختيار رعيم فيه تجسيد للشعب الذي اختاره، وبالتالي فإن كل ما يقال عن الزعيم يعتبر في حقيقته بيلا من الشعب الذي اختاره».

قائل هذه الكلمات أستاذ كبير في القانون، قالها في اجتماع للمجلس الأعلى للصحافة خُصص لمناقشة كتاب محمد حسنين هيكل «خريف الغضب»، ونشرت كلامه جريدة الأهرام في ٢٩ أبريل/ نيسان الماضي والاساس الذي انبنى عليه تفكير أستاذ القانون هو أن الحاكم تجسيد لبلده، ما دامت قد اختارته بإرادتها، ومن ثم فإن أي هجوم من هيكل أو غيره على السادات هو هجوم على مصر كلها»^(٢).

وقد عني الدكتور فؤاد زكريا، الذي أوردنا هذا الاستشهاد من كتابه «كم عمر الغضب»، بمناقشة هذا «المفهوم» مناقشة عقلانية هادئة صبور أملت لها طبيعته كأستاذ فلسفة ومثقف مستنير، فقال:

«هذا النوع من التفكير بلغ، في السنوات الأخيرة، من الانتشار حدا يحتم علينا أنه يتوقف عنده طويلاً فما من أحد منا إلا وتعرض لتلك التجربة المثيرة والمستفزة، تجربة المناقشة مع شخص يؤكد أن أي استقاد للحاكم هو إلتفاف من قدر بلاده، وأن الوطنية الحقّة تحتم على المرء ألا يسيء إل الحكام»
«ولا شك أن عبارة أستاذ القانون السابقة تعبير نموذجي عن وجهة النظر هذه.

أ - فهو يستخدم لفظة «الزعيم» مرتين، وهي نفس الكلمة التي كان يطلقها النازيون على هتلر (الفوهرر)

والفاشيون على موسوليني (الدوتشي). وليس هذا استخداما اعتباطيا، إذ كان يمكنه أن يقول: الحاكم، أو رئيس الدولة لكنَّ إصراره على لفظ «الزعيم» جزء لا يتجزأ من العقلية التي توحَّد على نحو مطلق بين شخص الحاكم وبلده.

ب - وهو يرى هذا الزعيم «تجسيدا» للشعب، ولم يقل «رمزا»، لأن الرمز لا يتعين أن يكون مشابها لما يرمز إليه. أما التجسيد فهو اندماج كامل، بل إن الزعيم يصبح في هذه الحالة «خلاصة» شعبه وأبقى تعبير عنه. وهذا يفترض، بطبيعة الحال، أن الشعب كتلة متجانسة لا تمايز فيها ولا اختلاف ولا تباين في الرأي أو الاتجاه، حتى يستطيع شخص واحد أن يكون تجسيدا له.

ج - وأخيرا، فإن استاذ القانون الكبير يتحدث أربع مرات، في أقل من ثلاثة أسطر، عن «اختيار» الشعب للزعيم. وهكذا فإنه، بكل وقار القانون وهيبة الأستاذية، يعلن ثقته المطلقة وتصديقه الكامل لاستفتاءات ٩٩.٩٪، ويرى فيها أساسا يسمح للمرء بأن يقول باطمئنان تام وضمير مستريح «هذا الرجل قد اخترناه جميعا»^(١).

والحادث دائما أن الإنسان الشريف - إذ ينظر إلى الآخرين - لا يمكن أن يصدِّق إلا أنهم كلهم مثله، إلى أن تعلّمه الخبرة المتكررة أنهم قد لا يكونون كذلك دائما وبالضرورة والخطأ الغريب الذي انقاد إليه كاتب هذا الكلام النظيف أنه تصور الأمر مناقشة حول مبادئ وقيم. ويبدو أنه تصوّر حقيقة أن استاذ القانون قال ما قال لأنه مؤمن بالسادات أو بعيره، ومقتنع حقا بأن هناك شيئا يقام له وزن أو يتوقف المرء عنده وهو مهزول وراء مصالحة، اسمه «الشعب»، وأن ذلك «الشعب» المبارك قد اختار السيد الزعيم وجعله بذلك تجسيدا لمصر، أو بالأحرى جعله مصر.

فذلك الأستاذ الكبير ليس بكل تلك السذاجة، وإلا لما كانت كلمته قد باتت مسموعة في اجتماع للمجلس الأعلى للصحافة أو غيرها وهو عندما قال ذلك الكلام كان، بكل بساطة، يردده وعينه على «الرئيس»، ولسان حاله يقول «سامعني يا رئيس» وأولئك الذين مرّ استاذ الفلسفة بتلك «التجربة المثيرة والمستفزة» إذ حاول أن «يناقشهم» فأكدوا له أن «أي نقد للحاكم هو انتقاص من قدر بلاده، وأن الوطنية الحقّة تحتم على المرء ألا يسيء إلى الحكام»، لم يكونوا - بكل تأكيد - بكل ذلك القدر من العفة والوطنية والسذاجة، بل كانوا - ببساطة - حذرين وحريصين على أنفسهم ومصالحهم لأنه ما أدرهم مع من يعمل ذلك الذي يحاول استدراجهم إلى مناقشات «مشبوهة» حول تصرفات الحاكم وسياسات النظام، وما أدرهم إلى من سيقدم ذلك الذي يحاول «مناقشتهم» تقريرا أو تسجيلا لكل ما يكون قد استدراجهم في غمار «النقاش» إلى قوله «فالعقل من لاذ. العقل من دخل جُحره. وأفضل جُحر هو «الوطنية». الغيرة على سمعة الوطن والتعفف عن «شتيمة مصر». لأن العقل لا يريد أن يضرب، أو ينفخ، أو «يوضع وراء الشمس»، أو تؤخذ منه عملاته الصعبة التي تغرب عن مصر ليحصل عليها. وذلك أدى إلى أن يصبح «لذلك اللون» من «التفكير»، أعني التوحيد بين الحاكم والوطن، وجه آخر ربما كان أشدّ حدّة، هو ذلك الذي يشيع بين المصريين المغتربين على وجه «التخصيص». واعتقادنا أنه ليس ما افترض الكاتب - بحسن نية ونقاء سريرة - أنه «ظروف الاغتراب التي تزيد من قوة التوحيد بين البلد وحاكمها»، وهي الظروف التي تراءى له أنها كانت المتسببة في «ردود الفعل الأكثر شيوعا بين المصريين العاملين في البلاد العربية بوجه خاص (من) استنكار لما كتبه محمد حسنين هيكل باعتباره «شتيمة لمصر»^(٢).

فأستاذ الفلسفة، المثقف، الذي تعامل مع قضايا المصير تعامل الشرفاء، ظل مصرا على أنه، فيما يخص أولئك السادة الذين تحدث عنهم، كان يناقش ضروبا من «التفكير» هي التي أفضت بأستاذ القانون إلى قول ما قال في المجلس الأعلى للصحافة، وجعلت المغتربين المصريين يستنكرون «شتيمة مصر»، بينما ظل تفكيره العقلاني المنطقي وولاؤه لمصر يصطدمان بحائط صلب راسخ من «المصالح»، لا «التفكير»، ومن الإخضاء لأدمية البشر، لا ولائهم المشبوب لمصر.

والغريب، مع ذلك أن كتابه الذي أوردنا هذه الاستشهادات منه، ليس في النهاية إلا استظهارا كاويا للفس، يكسر القلب، لأغراض ذلك الإخضاء.

وهو ما يعود بنا إلى مسألة مصر/ العزبة، التي انفجر التأثير العظيم جمال سالم صائحا في وجه التأثير

الكبير محمد نجيب قائلاً «هي عزبة أبوكم أنت وجمال عبدالناصر»^٩ باعتبار أنها عزبته هو أيضاً فالمحزن في الأمر فعلاً أن المسألة لا هي مسألة توحيد للحاكم ببلد اختاره «زعيماً» له، ولا هي مسألة إدماج لهوية ذلك «الزعيم» أو «الحاكم» وهوية بلده، بل هي - رغم أنف أستاذ القانون وكل «الغيورين» على شرف مصر - مسألة عزبة، تماماً كما قال بصراحته المشهورة الثائر العظيم جمال سالم، رحمه الله والرئيس الراحل محمد أنور السادات عندما تحدث عن «أخلاقيات القرية» وأصدر قوامين «العيب»، كان يجاهر بذلك فعلاً، بأسلوب رجل الدولة الرصين فالقرية هنا، هي العزبة، وهي مصر والعيب كان - في فهم كل من صاحب العزبة وأستاذ القانون الكبير - تجزؤ أحد أفراد القطعان على الحوار في وجه صاحب العزبة وولي النعم الذي يمكنه بإشارة من يده أن يذبح خروفاً أو عجلاً أو بقرة، أو يبيع قطيعاً، أو يأمر باحتجازه في حظيرة بعيدة. فمالك القطعان يفعل بقطعانه ما يريد، وبعمته الكبرى عليها أن يتركها ترعى في الحقول، أو يسمح لها بالذهاب للرعي في حقول بعيدة، وألا يحبسها في الحظائر أو يذبحها. وهكذا، فإن أفراد القطعان، حتى في «العزبة»، تظل حريصة على عدم إتيان ما من شأنه أن يجعل صاحب العزبة يشحذ سكينه ويتربقب وصولها، أو يمنع عنها العلف. وربما جال شيء من هذا كله برأس نجيب محفوظ عندما تساءل على لسان إحدى شخصياته «لماذا تمتليء عيون الأبقار دائماً بالطمأنينة»^{١٠} لكن الأبقار، ربما «لتنتمي مستوى الوعي السياسي والاجتماعي»^{١١} لديها، كما يقول الدكتور فؤاد زكريا، وربما بسبب الإخصاء الذي يسببه العيش في رعب مقيم من «المخابرات» و «المباحث» و «الأجهزة»، وكل تلك الأشياء التي يروض بها صاحب العزبة قطعانه، وربما خوفاً على العلف، أو لكل هذه الأسباب وغيرها، تخطيء تماماً في ذلك الامتلاء بالطمأنينة. لأن صاحب العزبة لا أمان له - إلا إذا انكسر ظهره

عندما بوغت جمال عبد الناصر بوقوع العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦، وهو العدوان الذي ظل حتى اللحظة الأخيرة مطمئناً إلى أنه لن يقع، «أوشك على الانهيار» وقد سمعت - نقلاً عن المرحوم أنور المعتي - أن عبد الناصر قال «لقد انهار ايدن، فاعملوا أقصى ما في وسعكم لكيلا أنهار مثله» وساد اليأس حوله، حتى اضطر إلى أن ينقل أسرته وأولاده إلى إحدى الفيلات التي كانت مملوكة لأحد أمراء البيت المال، بعيداً عن مصر الجديدة، وسمعته يقول لزكريا محيي الدين «الناس تود أن تخرج من القاهرة، فسهلوا لها سبل الخروج»^{١٢} وكان طبيعياً أن تفكر في المصير الذي كانت مصر موشكة على أن تؤول إليه. وكان هناك فريق رأى أن مصر باتت مهددة بالخراب، وبالرجوع إلى الوراء خطوات وخطوات. فقد تدخل جيوش بريطانيا وفرنسا، وربما جيوش إسرائيل، القاهرة. وربما فكر هؤلاء المعتدون أن يعيدوا النظام القديم. وربما تركوا للفتنة المجال لكي تنطلق فتعيث في مصر فساداً، ليكون تأديب مصر على أيدي المصريين أنفسهم، فإن وقع خراب، ونهب، وسلب، كانت أيدي الانجليز والفرنسيين، وحتى اليهود، بريئة منه. هذه الجماعة تداولت، في هدوء وخلوص نية، وانتهت إلى أن أفضل الحلول لهذه الأزمة أن ينزل عبد الناصر عن الحكم ومعه زملاؤه أعضاء مجلس قيادة الثورة وأعدائهم واتباعهم، وأن ينادى بالرئيس السابق محمد نجيب رئيساً مؤقتاً للجمهورية، ليدخل مع الغزاة في مفاوضات الغاية منها ألا يدخلوا القاهرة، وألا يتقدموا في زحفهم، وأن يضمن لجمال عبدالناصر وإخوانه معاملة محترمة، وخروجاً آمناً من مصر، هم وزوجاتهم وعائلاتهم ومن يرغب في اللحاق بهم، (وأن يتفق مع الغزاة أيضاً) على احترام ما كان قد نفذ من إجراءات الثورة وإصلاحاتها، وفي مقدمتها النظام الجمهوري، والإصلاح الزراعي^{١٣}. بلا ذكر لقناة السويس.

وهذا - بأي معيار، ومهما كان الرأي في شخص الحاكم ونوعية نظامه - تأمر صريح على ارتكاب جناية الخيانة العظمى. فمصر كانت في حرب، وحرب بقاء لا أقل لأن أهداف التحالف الثلاثي لم تكن لتتوقف عند إسقاط نظام عبدالناصر واسترداد قناة السويس لحملة الأسهم من المليونيرات اليهود، والأكليين تحت موائدهم.

«ولم تجد هذه الجماعة - التي لا أعلم حتى اليوم ممن تكوّنت، لمجرد كسل في السؤال (١) - رجلاً منحتة السماء شجاعة قلب الأسود، سوى سليمان حافظ، الذي كان نائباً لرئيس الوزراء في حكومة الرئيس

محمد نجيب، ووزير الداخلية، ووكيل مجلس الدولة من قبل. توكل سليمان حافظ - كعادته - على الله، وطلب موعداً من مكتب عبدالناصر، ليأخذ رايه في هذه المحاولة. لكن عبد الناصر رفض أن يحدد له موعداً لأنه - أي عبدالناصر - لم يكن يملك، في تلك الظروف، من الوقت، ولا من الأعصاب، ما يسمح له بأن يلقي رجلاً كسليمان حافظ. ولم يكن عبدالناصر ليتصور أن وراء سليمان حافظ شيئاً ذا بال يخرج به من الأزمة، فأحاله إلى زميله عبداللطيف البغدادي.

«وذهب سليمان حافظ إلى البغدادي.. ورشف فنجان القهوة الذي قُدِّم له، وأخذ يدخن سيجارته المصرية الرفيعة والمتواضعة، ووضع ساقه النحيفة، فوق ساق، وقال بطريقته المعهودة: «أيوه، يا أخ عبداللطيف. عاوزك تسمع كلامي لأخبره. وتفهم أنني جئت من أجل المصلحة العامة. مصلحة البلد كلها، ومصالحكم أنتم أيضاً». واستمع عبد اللطيف البغدادي لاقتراح سليمان حافظ حتى نهايته، ثم قال في حدة: «لولا أنك في بيتي لطردتك». ولم يشأ سليمان حافظ أن يشعر بالإهانة أو يغضب لها، ولم يفقد حلمه، فأعاد الكلام بنفس الهدوء، وكرر العرض، ثم خرج، لا تطرف له عين ولا يهتز فيه عصب.. ولقد كان من حق عبدالناصر، بلا شك، أن يقبض على سليمان حافظ وعلى من أوفدوه. وكان من حقه، بلا شك، أن يحاكمهم محاكمة سريعة بتهمة الدعوة إلى الهزيمة. ولكن عبد الناصر، في تلك الفترة، كان أضعف من أن يقدم على شيء من ذلك. ولعل أعظم ما أضعفه أنه كان يرى الخطر محدقاً به من كل جانب، وربما جال بخاطره أنه قد يحتاج غداً إلى مثل هذه الوساطة المرفوضة الآن.

«ثم زال الخطر، وتدخلت الولايات المتحدة، في الأمم المتحدة، لتضع حداً للغزو الانجليزي / الفرنسي / الإسرائيلي، وذهب الجنرال أيزنهاور، رئيس الولايات المتحدة، بنفسه، إلى مقر الجمعية العامة للأمم المتحدة ليدمغ الحملة الانجليزية / الفرنسية / الإسرائيلية بأقبح النعوت. وتعلمت لندن وباريس، لكنهما أدركتا أن زعيمة الغرب تعمل، في نهاية الأمر، لصالح الغرب، رغم المنافسات داخل المعسكر الغربي، وأن هذه الحماسة يجب أن تنتهي على وجه أو آخر، وأن الباب إذا ما ترك مفتوحاً على عباب تلك الأزمة فإن أول من سيدخل منه سيكون الاتحاد السوفياتي.

«و (بذلك) اطمأن جمال عبد الناصر على مكانه رئيساً لمصر، وزعيماً لشعبها. وعندئذ تذكر أن سليمان حافظ جاءه في غمار المحنة، عارضاً ذلك العرض الذي يتلخص في كلمتين: عبد الناصر يذهب. والقي القبض على سليمان حافظ، وزج به في المعتقل»^(٨).

وقد تكررت عملية انكسار الظهر هذه في يونيو / حزيران ١٩٦٧، ولنسمع للسادات:

«اتصلت بجمال عبد الناصر يوم ١٠ يونيو. قلت له: «لقد أعلنت قرار عدولك عن التنحي في مجلس الشعب». قال لي (وكأنه كان يتكلم من الغياهب، لأنه كان في حالة نفسية منهارة، وكان في قمة الإجهاد): «نعم. سمعت من الراديو». قلت له: «لقد اتصلت بالجميع، وطلبت منهم استقالاتهم، وأنت تبدأ تغييراً شاملاً ولا تكون مقيداً بأي وضع. لا بد من أسلوب جديد. لأن الشعب أسقط كل اللافتات إلا جمال عبد الناصر وأنا قلت هذا الكلام عند اجتماعي بالطلبة قبل ذلك (٩) بأيام». وردَّ جمال قائلاً «يا أنور. العملية ستأخذ شكلاً وكأنه انهيار. أنا شخصياً لم أعثر بعد على نقطة البداية (!) كيف أبدأ؟ وانتهينا من ذلك الحوار إلى أنه لا بد من التغيير ولم يحدث التغيير»^(٩).

بعد خمسة عشر عاماً من امتلاك العزبة، يقول محمد أنور السادات لجمال عبدالناصر لا بد من أسلوب جديد فيرد عليه عبدالناصر قائلاً أنا لم أعثر بعد على نقطة البداية. كيف أبدأ، يا أنور؟

قد نتفق على أنه مهما كان «الزعيم» الذي «اختاره الشعب ليجسده»، رجلاً فريداً وعبقرياً لا نظير له، يظل من الخطر المميت بالنسبة للشعب الذي يجسده ألا يكون زعيمه متواجداً في العصر، متواصلاً مع ذلك العصر. وأول متطلبات التواجد في العصر والتواصل معه أن يكون «الزعيم» مثقفاً، أو مطلعاً على الأقل.

وفيما يخص جمال عبدالناصر، كتب المؤلف الفرنسي فوشيه أن عبد الناصر - طالع - وهو ما يزال طالباً بالكلية الحربية - عدداً من الكتب أورد بها قائمة في كتابه عن عبدالناصر، منها كتاب أرمسترونج عن كمال أتاتورك، وعنوانه «الذئب الأغبر». وقد حدثني الأخ حلمي سلام أن عبد الناصر كان ذات يوم في زيارة له بمنزله، فلما هم بالانصراف، وقف أمام مكتبة الأستاذ حلمي، ثم مدّ يده إلى كتاب «الذئب الأغبر»، في نسخته المترجمة، واستأذن في أخذه ليقراه. ومعنى هذا أن قائمة الكتب التي وردت في كتاب فوشيه، والتي أملت له عناوينها، لم تكن تحوي (بالضرورة) الكتب التي قرأها جمال عبدالناصر فعلاً، بقدر ما كانت تحوي الكتب التي كان عبد الناصر يتمنى قراءتها ولست أعرف مدى قدرة عبدالناصر على القراءة بعد أن وُلِّي شؤون مصر، وراحت أعباؤه، وكبر مقامه. ولكن الذي أستطيع أن أؤكد أنه كان حريصاً أشد الحرص على تثقيف نفسه، وتثقيف الضباط الذين حوله، وأنه كان صاحب فكرة ترجمة وتلخيص كتب ذات أهمية خاصة في السياسة والاقتصاد وطبعتها على الآلة الكاتبة وتوزيعها - بعد نسخها على الرونيو - على الضباط والوزراء، وهي الكتب التي كوَّنت بعد ذلك سلسلة «اخترنا لك». والمتابع لهذه السلسلة يرى تنوع الموضوعات فيها، وشدة اتصالها بمنطقة الشرق العربي، وبتطور الأحداث السياسية الكبرى في زماننا، وبالأفكار والمذاهب الاشتراكية. وأحسب أن هذه الكتب كانت من بين ما قرأه عبدالناصر. ولكن المؤكد أن عبد الناصر كان يقرأ الصحف الأوروبية المحررة باللغة الانجليزية بنهم شديد، وأنه كان حريصاً على قراءة كل ما يكتب عنه في صحف بريطانيا^(١).

ويبدو مما كتبه من كانوا متصلين بعبد الناصر أن مصدراً رئيسياً من مصادر ثقافته كان السينما؛ وأذكر، في صدد السينما... يوم ألفنا وزارة الثورة الأولى في السابع من سبتمبر/ أيلول ١٩٥٢. فقد كان حريصاً على أن يتم تأليف الوزارة في ذلك اليوم، وكان يستبعد كل شيء من شأنه أن يؤدي إلى تأجيل تأليف الوزارة ولو ليوم واحد. فلما اطمأن إلى أن الوزارة ألفت، قال وهو يتنفس الصعداء، حقيقة لا مجازاً، الآن أستطيع أن أذهب إلى السينما! تصور أني لم أر فيلماً واحداً منذ شهرين! وعرفت يومها أن الحرمان من السينما لمدة شهرين هو عقاب شديد بالنسبة له^(٢). «وذاً يوم، فوجئت به ينادي لي زوجته السيدة تحية، وكنا نجلس معا في قاعة السينما (ببيتة بمنشية البكري)، وبالمناسبة السينما كانت تحت أولاً ثم نقلت إلى أعلى حتى لا يستخدم المصعد أيضاً، لأن حالته الصحية كانت لا تسمح»^(٣).

غير أن تلك الثقافة السينمائية التي بدأت منذ وقت مبكر للغاية واستمرت حتى الفصل الأخير، لم تغد كثيراً في إيقاظ وعي حقيقي لدى عبد الناصر بخطر السلاح الذي مكَّن «العدو الغادر» من تحقيق انتصاراته المتتالية على جبهات الحرب الإعلامية. (وهناك ذكرى أخرى عن السينما)، كانت، بالنسبة لعبد الناصر، حرجاً مفرطاً. فقد طلب المخرج السينمائي العالمي سيسيل دي ميل أن تقدّم له تسهيلات هائلة في مصر عند إعادة إخراج الفيلم الضخم «الوصايا العشر»، على أن يبذل سيسيل دي ميل جهوداً خاصة لسرعة إدخال التلفزيون في مصر ونقذ عبد الناصر وعده (لسيسيل ب. دي ميل أحد عمد عملية غسل المخ العالمية التي تمارسها الحركة الصهيونية من هوليوود) وتم إخراج الفيلم الذي يروي قصة خروج بني إسرائيل من مصر، وعلى رأسهم موسى عليه السلام، وعبورهم البحر الأحمر^(٤). ولما عرض

(*) إرجع في شأن هذه الحكايات إلى كتابنا «قراءة سياسية للثورة»، الناشر رياض الريس للكتب والنشر، لندن ١٩٨٨

قتل مصر

الفيلم في الولايات المتحدة، وراه العرب، صاحوا «إنّ هذه أكبر دعاية لإسرائيل، وأخطر دعاية ضد مصر». فاضطر عبد الناصر لإيقاف عرض الفيلم في مصر.^(١٣)

فكما كان رواد الغزوة الاستيطانية للقارة الأميركية ينزلون أرض القارة ومعهم حبات من الخرز الملون وبعض المرايا وزجاجات من الخمر المغشوشة لينصبوا بها على زعماء قبائل الهنود الحمر ويأخذوا الأرض منهم ثم يبيدونهم هم وقبائلهم، نزل «المخرج العالمي» سيسيل دي ميل، الذي كان ينبغي لثقافة جمال عبد الناصر السينمائية الواسعة أن توقفه على أنه صهيوني عضوض، أرض العزبة، مصر، حاملاً إلى «الزعيم» خرزاته الملونة التي تتلاءم ومدى التحضر الذي وصلت إليه العزبة، والمرأة التي لم يغب عن فطنة الزعيم أنها ستعكس صورته في كل لحظات الليل والنهار وتصبها في أدمغة قطعانه: التلفزيون، لينضم إلى الراديو كسلاح بالغ المضاعف في عملية «تهذبة» القطعان وإخضاعها لعملية غسل مخ لا تهدم. وبصرف النظر عن كل الخطب والتصريحات عن غدر «العدو الغادر»، قُدمت للمخرج الصهيوني «تسهيلات هائلة في مصر» ليُخرج فيلمه الذي صُوّر «بني إسرائيل» (باعتبارهم أسلاف يهود هذا الزمان) في صورة الضحية، من قديم، لبغى المصريين وإجرامهم «وقد قلت لعبد الناصر وقتها «أنا مع العرب (الذين اعتبروا الفيلم ضربة دعائية كبرى لإسرائيل)، لأن إظهار شعب مصر - ولو من آلاف السنين - في صورة المضطهد للأقلية اليهودية، وإظهار فرعون مصر في ثوب الطاعة، يُكسب القضية الصهيونية عطفاً، وعرضه الآن ليس عرضاً لعمل فني، فهو عمل سياسي بحت»، وسكت عبد الناصر (ومُنِع الفيلم)،^(١٤). وكاتب هذا الكلام كان الوزير المسؤول، في «حكومة» عبد الناصر، عن الثقافة والإرشاد والسينما وكل تلك الأشياء.

وفي كتابه عن عبد الناصر، المعنون فرعياً بعنوان «وثائق القاهرة»، يقول محمد حسنين هيكل أن الشيء الأهم في حياة عبد الناصر، منذ كان طالباً بالكلية الحربية، وبعدها عندما بات ضابطاً صغير الرتبة، كان القراءة، وأنه كان منسجراً بالتاريخ، بتوحيد ألمانيا وبالأخص بالثورة الفرنسية، وأن «الروايات التي تمكن من قراءتها عن الثورة الفرنسية كان لها أثر بالغ العمق في سلوكه بعد ذلك»، و«قد تأثر تأثراً عميقاً برواية «قصة مدينتين» (لتشارلس ديكنز - ١٨٥٩) وما حاء فيها عن حكم الإرهاب الذي ساد باريس، وربما كان لذلك التأثير الفضل في انقاز الشعب المصري من حمام دم كبير إثر نشوب الثورة التي قام بها عبد الناصر، لأن تلك القراءات جعلته على وعي بخطر الإرهاب الذي تستتبعه كل الثورات».^(١٥)

ولا نملك، نحن قطعان العزبة، إلا أن نشعر بالامتنان العميق لذلك الرجل الطيب تشارلس ديكنز لأنه - في منتصف القرن الماضي، ومن منطلقات ليبرالية مدخولة باعتبارها سياسية بحتة - صوّر الإرهاب الدموي الذي مارسه الثورة الفرنسية تصويراً أنقذنا - كما يقول الأستاذ هيكل - من حمام دم فظيع إثر نشوب الثورة التي قام بها عبد الناصر ولا نملك أيضاً إلا أن نشعر بالامتنان لعمر عبد العزيز أمين، صاحب سلسلة «روايات الجيب» التي أوصلت إلى «الزعيم» تلك الرواية مترجمة تجارية، نعم، لكنّها مترجمة على أي حال فقراها بين «ما تمكن» (كما يقول هيكل) من قراءته من روايات عن الثورة الفرنسية. ومما يفتقده المرء فيما كتبه الأستاذ هيكل أنه لم يعنّ إلا بالإشارة إلى تلك الروايات، ولم يورد - مثلاً - قائمة بعناوين المؤلفات التي تمكّن «الزعيم» من قراءتها منذ كان طالباً بالكلية الحربية وفيما تلا ذلك من مراحل حياته، وبخاصة في مجال التاريخ «الذي إسحرسه»، وعن توحيد ألمانيا، وكل تلك الأشياء المهمة فمثل تلك القائمة كانت حرة - والأستاذ هيكل يؤرح لذلك الرجل العظيم - بأن تكمل الصورة، وتعطي القارئ منفذاً إلى المسارب الفكرية والمنافذ الثقافية التي تواصل الزعيم من خلالها بالعصر وتواجد فيه، غير سلسلة «روايات الجيب».

ففيما يخص «الزعيم» الأول إذن، جمال عبد الناصر، رحمه الله، الرجل الذي نهض بعبء تزعم مصر أخطر وأخرج فترة من تاريخها، وهي مواجهة بعدوان «العدو الغادر»، ومحاطة بمؤامرات ومكائد ذلك الشيء الذي تجعد في أدهاننا، نحن القطعان، تحت الماركة التجارية «الإمبريالية والاستعمار»، فيما يخص هذا الزعيم، ماذا لدينا، على جبهة الثقافة والإطلاع؟

لدينا، بترتيب الأهمية، إن كان لنا أن نصدق ما كتبه المتصلون به المؤرخون لـ «عصره»:

أولاً أفلام السينما، وبالأخص أفلام هوليوود.
ثانياً الروايات المترجمة في سلاسل شعبية كروايات الحبيب وما إليها
ثالثاً قراءات (غير محددة للأسف) في التاريخ، عن توحيد المانيا، والتورة الفرنسية، وما إلى ذلك
رابعاً ملخصات مترجمة (على طريقة «ريدريز دايجست» أو «المختار») في السياسة والاقتصاد مطبوعة على الآلة الكاتبة ومسوحة على الرونيو لتعميمها على الضباط والورراء، وهي المادة الثقافية الدسمة بحق التي كوّنت بعد ذلك سلسلة «اختربا لك»، إشراكاً للقطاع فيما استمتع صاحب العزبة وأعوانه بالاطلاع عليه من علوم الفريجة. وقد كان بعضها مما قرأه الزعيم
خامساً بتقديم الزعيم في تعلم «اللغة»، الصحف الأوروبية المحررة باللغة الانجليزية، وبخاصة ما كانت تنشره تلك الصحف عن الزعيم

وعندما نشبت أزمة تميم قناة السويس، «احتاج عبدالناصر، إثر احتدام المعركة السياسية، إلى استشارة مجلس وزرائه في واقعة محددة هي «هل يسافر إلى لندن ليعرض على الرأي العام العالمي موقف مصر من قناة السويس وحرصها على سلامة واستقرار واستمرار الملاحة العالمية واردةها وكان ذلك في إبان الدعوة التي أعلنتها بريطانيا، والتي كانت العاية منها طرح تصرف مصر على الدول التي وقعت على معاهدة حيايد قناة السويس ١٨٨٨ وكان عبد الناصر تواقاً إلى أن يسافر إلى لندن، حيث «بؤرة التامر السياسي» ضد مصر، وحيث عاصمة الدعاية السياسية لقضية انتزاع قناة السويس من مصر. وكان عبد الناصر شاعراً بثقة بالنفس عظيمة، أوحى إليه بأنه سيكون قادراً، إذا ما وصل إلى لندن، وحوله هالة الشهرة العالمية والضجيج الذي صاحبه منذ خمس سنوات، أن ينزع عن شخصه صورة هتلر الحديث التي الصقت به من أذهان البريطانيين العاديين الذين سوف يرونه إنساناً بسيطاً تهمة مصلحة بلده، ولكن دون أن يدمر مصالح الآخرين، ويعمل على رخاء مواطنيه، دون أن يلقي بالعالم في أتون الحرب، وينزع الفتيل من القنبلة التي أعدها بإحكام انطوني ايدن، رئيس وزراء بريطانيا، ودهاة السياسة العالمية الذين هم في الأغلب ااعم يهود ذوو انياب زرقاء يحسنون الدس والوقيعه والتامر الدولي. ومن هنا كان السؤال المطروح على مجلس الوزراء هو: «هل يسافر عبد الناصر إلى لندن، أم لا يسافر؟»

«وتكلم كثيرون، ولكن بدون أن يكون كلامهم حاسماً. فقد احس الوزراء أن عبد الناصر تواق لأن يسافر، واثق من نتائج سفره، وفرح بهذه الجولة التي أتاحها له تطور الأحداث ليَجْرُب سحره على مستوى عالمي وكان هذا الإحساس وحده كافياً لأن يتحفظ المتكلمون»^(١٦).

في هذه الرواية للأحداث، يقول من يرويها، وقد كان عضواً بـ «حكومة» عبد الناصر، أن «الزعيم» كان تواقاً أشد التوق للسفر إلى لندن لمنازلة إيدن وعتاة السياسة «ومعظمهم يهود زرق الناب» في عقر دارهم، واثقاً من نفسه، أو بالأحرى متصوراً أنه سوف «يجرّب سحره على مستوى عالمي، كما لو كان أخذاً، داخل العزبة، لا في العالم الخارجي، في إعطاء التعليمات لـ «الأخوة المواطنين»، كما كان يسميهم، متوقعاً من كل أخ مواطن منهم أن يصفق ويهتف بأعلى عقيرته وهو يتلفت حوله كيما يتيقن من أن المخابرات قد رآته وأثبت أنه أثار غباراً بحوافره وخار خواراً عظيماً استحساناً لكل ما قاله صاحب العزبة. ورغم أن «السادة» الوزراء فطنوا إلى أن الأمر لن يكون كذلك، في العالم الواقع الخارجي، بعيداً عن العالم الموهوم داخل العزبة، فإن أحداً منهم لم يجرؤ على أن يقول للزعيم، لا تسافر، فتكلموا «ولكن بدون أن يكون كلامهم حاسماً».

غير أن «الدكتور محمود فوزي (الذي كان وقتها وزيراً للخارجية) تكلم. وعلى النقيض مما يقوله عنه خصومه، ويروجونه بكل وسيلة، من أنه رجل يؤثر السلامة (من بطش الزعيم) ويفر من مواقف المسؤولية، ويخفي رأيه إرضاء لصاحب السلطة (صاحب العزبة)، مستعملاً أسلوباً لولبيا في التعبير عن الرأي، على النقيض من هذه الصورة الثابتة، كان محمود فوزي يومذاك حاسماً. فقد أعلن، وبلا تحفظ، أنه ضد سفر رئيس جمهورية مصر (ولم يقل ضد سفر جمال عبد الناصر) إلى لندن.

«وحمدت الله على هذا القول القاطع. ثم اتجه عبد الناصر إليّ، وكانت العلاقات بيننا فاقرة لسبب

نسيته تماماً (!)، وقال بأسلوب خالٍ من الودِّ «ورأي الأستاذ فتحي رضوان»^(١٧) ولم أكن في حاجة إلى أكثر من هذه الدعوة المتحفظة لاندفع قائلاً «يأبى الله ورسوله» وعقد عبد الناصر ما بين حاجبيه، وقال «ماذا تعني؟»، فأجبت قائلاً: «المسلمون يقولون هذا القول عن كل ما هو حرام»، فقال، وقد تحسن مزاجه قليلاً «يعني السفر إلى لندن حرام؟» قلت: «بالتأكيد»، وأضفت «لقد عشنا ندير أمورنا في لندن، وتفرض علينا المعاهدات والفرمانات منها، أو من باريس، أو استنبول، فإدا كان موضوع قناة السويس لا بد أن يناقش هذه الأيام، فليناقش في مؤتمر تدعو إليه مصر، ويعقد في القاهرة»^(١٨) فالأستاذ فتحي رضوان، السياسي المخضرم، يلجأ هنا، قبلنا، في روايته لبعض من تاريخ تلك الفترة الحافلة بالأحداث الجسام، إلى مثل ما لجأ إليه من دهاء ولباقة في ردّه على الزعيم ذلك الرد المهذئ الذي «حسن مزاجه قليلاً» فهو لا يكف عن التلميح إلى أنه، وكل العقلاء كالدكتور محمود فوزي، أفزعته فكرة سفر جمال عبد الناصر إلى لندن وهو يعتبر عن ذلك الفزع الذي خالجه بوضوح، فيقول «وحمدت الله على قول الدكتور محمود فوزي القاطع بأنه ضد سفر رئيس جمهورية مصر إلى لندن» وكما أشرنا في صلب الاستشهاد بين قوسين، عني بأن يقول «رئيس جمهورية مصر»، لا «الرئيس جمال عبد الناصر»، لإعطاء انطباع بأن الاعتراض كان على أن يذهب رئيس جمهورية مصر إلى لندن، بعد أن انتهت الأيام الرديئة التي كانت أمور مصر تدار خلالها في لندن. وتفرض عليها المعاهدات من لندن، إلى آخر هذا الكلام

غير أن هذا الكلام يناقضه تماماً ما ظل فتحي رضوان مصراً على إرساله في ذهن القارئ بالطريقة «اللولبية» التي قال أن أعداء الدكتور محمود فوزي كانوا يتهمون به. والذي ظل فتحي رضوان يحاول توصيله إلى القارئ دون أن يجرج إلى العراء فيقوله بالصوت العالي هو أنه، ومحمود فوزي وكل العقلاء، أفزعته فكرة سفر جمال عبد الناصر إلى لندن ليقارع «أنطوني إيدن ودهاة السياسة العالمية الذين هم، في الأغلب والأعم، يهود ذوو أنياب زرق، يحسنون الدس، والوقية والتآمر الدولي، وعبد الناصر، كما عرفوه، إنسان محدود الثقافة، عظيم الثقة بالنفس، قليل التواجد في العصر الذي أخذ على عاتقه قيادة مصر خوضاً لمهالكه»، «فرح بهذه الجولة التي أتاحها له تطور الأحداث ليحرب سحره (الذي يمارسه على «الآخوة المواطنين») على مستوى عالمي» ويعلم الله إن كانت الواقعة التي ساقها فتحي رضوان صحيحة أم كانت من ابتكاره ليقول بها ما أراد قوله، لكنه يقول أن صلاح سالم، رحمه الله، أخبره بأن «الذي ثنى عزم عبد الناصر عن السفر» في النهاية، لم يكن كلام فتحي رضوان عن الحلال والحرام، أو معارضة محمود فوزي، أولف ودوران السادة الوزراء المرتعبين، بل كان السفير الهندي وإن كانت الواقعة صحيحة، فلا بد أن يدا دبلوماسياً متمرساً كانت قد دفعت ذلك السفير إلى أداء تلك الخدمة الكبرى لمصر ولا يستبعد المرء أن تكون تلك اليد المشكورة يد الدكتور محمود فوزي

والحكاية كما يرويها فتحي رضوان أن السفير الهندي حكى لعبد الناصر أن غاندي «عندما سافر إلى لندن سنة ١٩٢٧، وكانت الكتب التي كتبها الانجليز، والأمريكان، والألمان، والفرنسيون عنه وترجمت إلى الانجليزية، قد بلغت المئات، وكانت الصورة التي رسمتها له تلك الكتب قد أظهرته بأنه التجسيد الحديث للمسيح، ومع ذلك فإن جرائد ومجلات الدوائر الاستعمارية نححت في أن تجعل منه بهلواناً، وبدلاً من أن يبدو للجمهور البريطاني سياسياً متقشفاً زاهداً سلاحه المحبة والدعوة إلى الإخاء الإنساني، اتخذت هذه الصحف من عريه مادة للسخرية به، وترويجه الدعايات عنه، وسرد الوقائع غير الحقيقية والملفقة، وضاع سحر غاندي غير المنكور، وانطفأت أضواء شهرته الساطعة، وعاد مهزوماً مغلوباً على أمره».

«ولقد أشفق عبد الناصر من أن يصل إلى هذه النتيجة، وقد نبّه إلى الفارق العظيم بين قدرة غاندي على استعمال الانجليزية حديثاً، وكتابة، وخطابة، وبين قدرته هو في ذلك المجال»^(١٩)

فتحتي رضوان - وهو محام متمرس من كبار المشتغلين بتلك المهنة أيام كان في مصر مجال لها - «يضرب هنا ويلاقي»، كما يقول المصريون. بمنتهى البراءة والحيدة وأمانة الرواية، يحكي ما دار بين سفير الهند وعبد الناصر من حديث، نقلاً عن المرحوم صلاح سالم، فيوقف القارئ على تفاصيل المناورة الذكية التي لجأ إليها الدكتور محمود فوزي أو غيره باستخدام «المساعي الحميدة» لذلك السفير، في إقناع «الزعيم» ألا يذهب، من فضله، إلى ذلك المكان الفظيع لندن الذي يفترسون فيه الزعماء ويعيدونهم

إلى أوطانهم مهزومين مغلوبين على أمرهم، حتى وإن كاسوا في شهرة غاندي وبمكاته العالمية، دون أن يعرّضوا أنفسهم لمحنة وضع الجرس حول عنق القط كما تقول قصة الفئران والقط الشرس. وفي الوقت ذاته، بمتهى البراءة وحسن الطوية، يصنع فتحي رضوان الدس كله على عاتق اللغة الانجليزية الشريرة التي كان غاندي يجيدها حديثاً وكتابة وحطاة، ولم يجدها عبد الناصر مثلاً أجادها غاندي فهو، في موضع من سرده، يرجع المعارضة العاقلة لسفر عبد الناصر إلى لندن إلى أنه لم يكن يليق إطلاقاً أن يذهب رئيس جمهورية مصر إلى ذلك المكان «لأن مجرد سفر رئيس جمهورية مصر إلى لندن هو نصف الطريق إلى الاعتراف شرعية موقف بريطانيا وفرنسا غير الشرعي، وهو سفر لن ينقذنا من شيء فهو إن اعتبر ملاينة منا وملاطفة، أغراهم بالعدوان، وإن اعتبر تحرشاً ومخاشنة، أعلنوا أن مصر تتحدى العالم»^(١)، وفي موضع آخر من نفس السرد، يضع الوزر على عدم إجادة رئيس جمهورية مصر للغة الانجليزية إحادة غاندي لها وكلا القولين، كما هو واضح، يدرج تحت تصنيف أوصاف الحقائق. فالقول الأول ليس فيه من الحقيقة شيء إلا ما ذكره فتحي رضوان عن «التحرش والمخاشنة»، إذ يبدو أن ذلك بالذات هو ما تحوّل محمود فوزي وغيره من أن يذهب عبد الناصر إلى لندن فيفعله متصوراً أنه يلقي خطبة من شرفة قصر عابدين فيتيح لبريطانيا وفرنسا القول بأن «مصر تتحدى العالم» وما من شك في أن جميع العاملين مع عبد الناصر كانوا قد اكتشفوا فيه خطة الانسياق وراء شهوة القيام بأدوار البطولة إلى حد التكلم أولاً والتفكير فيما بعد، على نحو ما فعل في هذه الواقعة التي رواها الرئيس محمد أنور السادات.

«عندما حطت عبد الناصر وقال للأمريكان إذا ما كانش عاجبكم روحوا اشربوا من البحر الأحمر والأبيض المتوسط، الأمريكان اتصلوا بهيكل هيكل كان صلة الوصل وعبد الناصر قال له الحق يا هيكل روح صالحهم، وطلب من عبد الحكيم عامر أن يذهب مع هيكل لمصالحة السفير الأمريكي، وكان السفير يستعد للسفر. وعبد الحكيم أصر على دهاجي معهم وذهبوا إلى منزل هيكل، واستعربوا إلى ساعة متأخرة من الليل لاسترضاء السفير الأمريكي»^(٢)

وما من شك في أن كثيرين منا، نحن القطعان، ما زلنا نذكر كيف انتشت حمائر الشعب الكادح لحظة أن جلجل صوت صاحب العزبة «وأنا باقول للأمريكان إذا ما كانش عاجبهم يروحوا يشربوا من البحر»! كان هناك شعور بأننا انتصرنا على الأمريكان و«العدو الغادر» وكل أولئك الصهاينة والإمبرياليين والاستعماريين. ألم يقل لهم جمال بالفم الملائن «روحوا اشربوا من البحر»؟ وذلك الانتصار الساحق عينه هو ما كان الدكتور محمود فوري وغيره من أعضاء «حكومة» عبد الناصر يخشون أن يذهب فيحققه لمصر إبان أزمة قناة السويس، فيضئع أهم عمل وطني حقيقي قامت به الثورة بعد اتفاقية الجلاء. ولذلك تنفس فتحي رضوان الصعداء عندما عدل الزعيم عن السفر

أما القول الثاني، عن عدم إجادة عبد الناصر للغة الانجليزية، فنصف حقيقة مضلل. لأنه حتى وإن لم يكن يجيد تلك اللغة أو غيرها، لا يعيبه ذلك إطلاقاً أو يجعله عند كبار معاونيه سواءً يخافون من عرضها على أنظار العالم في لندن أو غيرها. فرؤساء الدول - كنوع من التمسك بالكرامة القومية لبلادهم - يخاطبون المؤتمرات واجتماعات المحافل الدولية بلغاتهم الوطنية، ويتولى الترجمة مترجمون محترفون. وحتى في المحادثات الثنائية بين رؤساء الدول والحكومات يتسع أسلوب التخاطب عن طريق مترجمين محترفين مؤتمنين باعتبار ذلك وسيلة مأمونة لإثبات بصوص المباحثات تماماً كما حرت، بالنسبة للطرفين. وحتى رئيسي القوتين العظميين الرئيسيتين في عالم اليوم، الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفياتي، لا يجد أحداً عيباً في تحادثهما عن طريق المترجمين، بل يعتبر ذلك ضرورة ملزمة فحكاية «اللغة» هذه، وعدم إجادة الزعيم لها حجة واهية. والثابت من الحكاية كلها

أولاً أن كبار معاوني عبد الناصر أفزعهم أن يتصوروا مجرد تصوّر خروج السيد الرئيس إلى الساحة الدولية - «يجرّب سحره على مستوى عالمي»

ثانياً: أنهم، وهم أكبر معاونيه ووزرائه والمشاركين معه في تسير شؤون العزبة، أفزعتهم فكرة التصدي له بالمعارضة، فلجأوا إلى الحيلة، ولو على حساب ماء وجوههم. فما من شك في أن الدكتور محمود فوزي، إن كان هو الذي ساق سفير الهند على عبد الناصر ليخوفه من السفر إلى لندن لئلا يفعلوا به هناك ما قيل لعبد الناصر أنهم فعلوه بغاندي، لقي عنتاً شديداً وإذلاً في اضطراره للجؤ إلى ذلك السفير طالبا منه

قتل مصر

أن يؤدي لمصر ولمحدثه تلك الخدمة التي لا يُعقل - دبلوماسياً - أن يكون ذلك السفير قد أقدم عليها متبرعا من تلقاء نفسه في حديثه مع رئيس الدولة التي مثل بلاده لديها وإراقة ماء الوجه هنا ماثلة في اضطرار من لجأ إلى ذلك السفير، سواء كان محمود فوزي أو غيره، إلى مصارحة السفير بقدر معقول من الأسباب التي دعت إلى الاستعانة به، وهي الخوف من عملية وضع الأجراس حول عنق القط الشرس، أي أن من طلب إليه القيام بتلك الخدمة فأر مذعور من القط، أي رئيس الدولة، والخوف من أن رئيس الدولة، إذا ما سافر، سيتسبب في كارثة باندفاعه، وقلة ثقافته، وانقطاع صلته بالعصر ومعادلاته المعقدة، واعتياده، وهو داخل العربة، أن يقول للشيء كن فيكون

ثالثا أنهم عرفوا - وأشركوا ذلك السفير معهم في تلك المعرفة بحكم لجوئهم إليه - المنفذ إلى عقل الزعيم، والوسيلة الوحيدة لإثباته عن نيته وليس صحيحاً أنهم «خوفوه» بذلك الحديث عما حدث لغاندي، لكن الصحيح أنهم نفذوا إليه من أهم منافذ شخصيته حساسيته الفائقة لكل ما تبذى له كمساس بكبريائه وقد كان ذلك المنفذ المميت عينه هو الذي تسرب إليه منه من استدرجوا مصر ممثلة في شخصه إلى مصيدة حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ عندما أخذوا يدقون بإلحاح وتركيز على وتر تلك الكبرياء الخائفة أبداً - من فرط حساسية - أن يجرحها أحد. فأولئك الذين ساقوا السفير الهندي على عبد الناصر، لم يخوفوه هو، بل أربعوا كبريائه وكان ذلك «كعب أخيل» الذي لم يخف عن المتربصين بمصر.

ذلك إذن كان تقييم أكبر معاوني الزعيم والصق الناس به لقدراته، وثقافته، وما نسميه بـ «تواجده في العصر»، وهو عصر خطر تصدى لقيادة سفينة مصر في مياهه العميقة المتلاطمة فقد ارتعب أولئك الأعوان، وهم يستبصرون ما سوف يحدث إذا ما ترك الزعيم ليذهب خارج العربة، إلى العالم الواقع، فيصبح ملء السمع والبصر - لا وهو في حمى مخابراته وأجهزته التي تلهب ظهور القطعان بسياط الرعب - بل عارياً ممّا قد يكون الله قد أنعم عليه به من حكمة ومهارة وبعد نظر وإلمام بحسابات العصر المعقدة وقدرة على التعامل مع سياسة الأمم الأخرى وحكامها، كما ينبغي للحاكم أن يكون تادراً. ويبدو أن الزعيم نفسه أحس بثقل العبء في بعض لحظات الصحو. فقد «قال جمال عبد الناصر يوماً: أنا أعيش في كابوس طويل لا أدري متى ينتهي. لم أكن أعرف. لم أكن أتصور أن الأمور ستكون هكذا»، وصمت طويلاً وكان ذلك في خلال أزمة من الأزمات التي لم تكن تنتهي الواحدة منها إلا لتبدأ غيرها» (وان تصورنا أنها أزمات متعلقة بمصير مصر وقضاياها، فلنواصل القراءة) «وكانت تدور كلها حول جذب وشد، مع واحد من أقرب الناس إليه (فهو أزمات صراع على السلطة، لا صراع مع وحوش الغاية العالمية) وفي يوم آخر، عين أحد المحامين وزيرا، فقال له «الحكم أكثر صعوبة بمراحل من المحاماة.. إنه عذاب عظيم»^(٢٢)

وكان ذلك - فيما يبدو من تسلسل الوقائع الذي جاء القول في سياقه - قبل أن «تتسبب معاملة من حوله له، وهي معاملة وصلت إلى درجة التآليه في مضاعفة شعوره بذاته.. وهو بشر، على أي حال، فيما حكى السادات^(٢٣). فتآليه الزعيم أوصله إلى التآله، وهو ما عناه السادات بقوله «مضاعفة الشعور بالذات». وإن كان الزعيم - وقد آله فتآله فنظر إلى وزرائه النظرة التي تفصح عنها هذه الواقعة: «ودُعينا لنؤذي اليمين الدستورية في أعقاب تعديل وزارتي.. فلاحظت أن عبد الناصر كان يستمع إلى الوزراء وهم يحلفون اليمين - الواحد في أثر الثاني، وعلى وجهه من آيات الضيق والتبرم ما لا تخطئه العين»^(٢٤)، فكيف كانت نظرتهم إلى «القطعان»؟ ولقد كان ذلك التآله حرياً بأن يغتفر في حالة زعيم ملهم حقيقة وخادم لأمته حقيقة، كغاندي مثلاً، ولو أن غاندي، بدلاً من أن يتآله، تعرّى وسحب وراءه عنزة وتكشف فيات - كما وصف، حقيقة - قديسا زاهدا وظل خادما لشعبه إلى أن أريق دمه. لكن الزعيم الذي آله فتآله في حالة مصر كان هذا شأنه، فيما رواه «خليفته»:

«أخطر حوار جرى بيني وبين عبد الناصر كان في شارع الهرم. وكنا نزور المرحوم جمال سالم في المعادي.. وكان مشلولاً تماماً إلا من رقبته ورأسه. وكان في قمة الوعي. وتدفق في حديث مع عبد الناصر كله صفاء. صفاء الموت. وانتقد كل أعضاء مجلس قيادة الثورة. وقال لعبد الناصر البلد مصيرها خطير، ويجب أن يتركوا لك كل شيء^(١) وخرجنا من هذه الزيارة إلى الهرم لكي نزود الدكتور محمود فوزي وقد كان مريضاً..

وكان عبد الناصر مشّت الدهر في شأن خطوات المستقبل، فقلت له يا جمال، لا تتصور أنك ستحكم بعد موتك ودعك من ترتيبات الأشخاص حاول أن تقيم حكم البلد على قواعد وبعد ذلك اترك كل شيء لمشية الله الله أكثر منا جميعاً. وكان عبد الناصر مرتاح النفس تماماً لهذا الحديث الذي خرج من قلبي إلى قلبي لأنني كنت أشفق عليه من الحسابات المعقّدة.^(٣٧)

كنت أشفق عليه من الحسابات المعقّدة وقد لا نختلف حول كون الحسابات في الداخل غير معقدة، لأن حلّها متاح دائماً، ببساطة بقرار جمهوري، بالاعتقال والتعذيب والقتل متى لزم، وبمجرد التخويف بكل تلك الأشياء بشكل جعل الإرهاب الأميري طريقة حياة لشعب مصر، ابتداء من قاعدة الهرم إلى ما دون القمة المتربع عليها الزعيم. أما في الخارج، في عالم الواقع، العالم الخارجي الذي لا سبيل إلى حل معضلاته عن طريق المخابرات والمعتقلات، فالحسابات دائماً معقّدة تعقيداً بالغاً، ومركّبة، ومتداخلة، ومؤثرة في بعضها البعض بشكل جعل الحكّام من غير أصحاب العزب في ذلك العالم الخارجي على وعي دائم بأن الحاكم منهم، مهما كانت ثقافته رفيعة، ومهما كان نابهاً وعبقرياً و متمرساً بشغلة الحكم، في حاجة دائمة إلى مؤسسات (وهو ما حاول السادات أن يجدد فيتظاهربه في مصر عندما أعلن عما بدا كاختراعه لما أسماه بـ «دولة المؤسسات») وإلى مستشارين ومختصين ووزراء حقيقيين يسترون شؤون بلده، ونواب حقيقيين يمثلون شعبه ولن ينسى المرء ما عاش تلك التجربة الكابوسية التي سبقت «بكرة» ١٩٦٧، وكل أجهزة الدعاية و «الإعلام» في مصر تتابع بانبهار مسيرة أعضاء مجلس القمّة، «نواب» الشعب، وعلى رأسهم أنور السادات رئيس المجلس، وإلى قصر القبة، ليعلنوا أنهم، بوصفهم نواب الشعب المصري، جاءوا يسلمونه مصر ليفعل بها ما يشاء ويذهب بها إلى حيث شاء. وما زال المرء، رغم معاشيته لعملية الإخصاء التي أخضع لها كل من عاش في مصر منذ اقتنيت كعزبة، لا يستطيع أن يتصور كيف أن شعباً يعيش في القرن العشرين لم يرتفع فيه صوت واحد مطالباً بمحاكمة أولئك «النواب» بتهمة الخيانة العظمى بعد أن تمخضت عملية تسليم مصر للزعيم عن كارثة يونيو/ حزيران ١٩٦٧ التي وضعت عنق مصر تحت حذاء إسرائيل اليوم وإلى عقود طويلة مقبلة.

وفي سياق وضع مريض ومهترئ كهذا، كان بوسع السادات أن يقول لعبد الناصر في تلك الليلة، وهما يتناجيان حول مصير العزبة، بعد المشوار الطويل الذي كانت الثورة قد قطعتة (إذا ما أخذنا بتحديد وقت الحديث أيام مرض المرحوم جمال سالم الذي أفضى إلى موته) وقد وجد عبد الناصر «مشّت الذهن في خطوات المستقبل»، ما معناه بالعامية المصرية - التي كانا يتحدثان بها - «يا شيخ! خليها على الله. اضبط الموضوع تماماً، وخليها على الله»، نقول كان بوسع السادات أن يقول ذلك لعبد الناصر لأنه كان يتكلم من منطلق أن البلد عزبته الخاصة، أو أنه هو البلد. وقد قال هيك نفس الشيء للسادات بعدها بسنوات: «أنت يا أفندم.. سيادتك.. أنت البلد.. أنت مصر»^(٣٨) وكان ذلك طبيعياً. فبحكم معاشية هيك لما كان يجري في القمة، كان يتكلم من منطلق أن صاحب العزبة السابق، جمال عبدالناصر، ورثها لصاحبها الجديد، السادات، ولم يتمكن عندما وافاه الأجل أن يغيّر عملية نقل الملكية، وتبعاً لذلك، وبحكم نوعية النظام الذي ظل هيك جزءاً منه، بات السادات هو مصر

فهل كان السادات أكثر تواجداً في العصر من سلفه العظيم الذي جعله خليفة له؟

يخصص موسى صبري ثلاث صفحات كاملة من كتابه الذي أوردنا منه الاستشهادات السابقة، لاستعراض ثقافة السادات، فيخبرنا أنها «بدأت خلال السنوات الثلاث الأولى التي أمضاها في السجن»، مؤكداً أن تلك «كانت سنوات لقاء مع النفس، وكانت سنوات قراءة في فلسفة الحياة وتجارب الإنسان.. وقد أثر في تكوينه مقال قرأه في مجلة «الريدرز دايجست» («المختار») كتبه طبيب عن غنى النفس»^(٣٩).

ومن ملاحق الكتاب، يتبين أن عنوان المقال الذي نشرته مجلة المختصرات، ريذرز دايجست، بطريقتها التبسيطية المعروفة والمفروض أنها تسقي عامة القراء «الثقافة» بجرعات سهلة، كان، بالإنجليزية^(٤٠): «Essential Conditions of a Healthy Life» («How to keep out of the Psychiatrists' Hands») أي . «المتطلبات الجوهرية للحياة الصحية - كيف تظل بمنجاة من أيدي الأطباء المشتغلين بعلاج الأمراض النفسية»، ولم يكن، كما قال موسى صبري في كتابه «مقالاً عن غنى النفس». ولا ندري ما الذي استوقف السادات وهو في زنزانته بالسجن في ذلك المقال، اللهم إلا إذا كان قد شعر بثقل الضغوط

قتل مصر

النفسية الواقعة عليه في تلك الفترة المتجهمه من حياته، التي يقول موسى صبري أنها «كانت سنوات تعبٌ واستهال إلى السماء أن ينقده الله من حبل المشتقة»^(١)

ويخبرنا موسى صبري أن السادات «ظل يذكر هذا المقال طوال حياته وعندما التقى الرئيس السادات مع أحد رؤساء الريدرز دايجست في عام ١٩٧٤ وقد حصرت هذا اللقاء (التاريخي) في المعمورة. كان أول ما طلبه منه موافاته بهذا المقال وحدد له سنة نشره، وأرسلته إليه إدارة المجلة العالمية التي تنشر طبعات في ٢٨ لغة المقال بكل هذه اللغات»^(٢)

وقد عني موسى صبري بأن يذكر بأن المحلة عالمية، وأنها تصدر طبعاتها بعدد كبير من اللغات، ربما عر شعور لم يستطع التخلص منه بأنه - بهذه المصارحة الغربية، والأغرب منها الححم الذي أعطاها إياه في كتابه - لم يكن يؤدي خدمة للسادات لكنه - بغير شك - أدى خدمة للقارىء. فقد أوقفه - عن غير قصد - على ضحالة المنابع «الفكرية» التي «أثرت في تكوين» السادات. وقد يجد المرء توافقاً غريباً في نوعية المصادر الفكرية بين السادات وسلفه فالأول كان يستقي المعرفة ويسقيها لمن حوله - تبعاً لما يحكيه فتحي رضوان* - من المختصرات المكتوبة على الآلة الكاتبة والمطبوعة على الرونيو، بنفس طريقة مختصرات مجلة «المختار»، والثاني بدأ رحلته الفكرية مما تساقط في فمه من فتات «شبه الثقافة» الذي يشكل مادة تلك «المحلة العالمية التي تطبع بكل تلك اللغات»

ويبدو أن هيكمل عندما شعر بأن الأمور كانت قد بدأت تدلهم بطريقة منكرة بالخطر، حاول تدارك ما كان يعرفه من نقص في «ثقافة» السيد الرعيم، تبعاً لما يرويهِ السادات نفسه

«تم حاءت أحداث الطلبة الحامعة في عام ١٩٧١ وهو (هيكمل) كان يريد أن يستحدي الطلبة والشباب وكان الطلبة يذهبون إلى «الأهرام»، وفي مركز الدراسات بالذات الذي كتبت أسميه «مجلس الحكماء»، وكانوا (أي الطلبة) يستمعون إلى تفسيرات خاطئة تشجعهم على الشغب في الجامعة وكان هيكمل يريد أن يجعل رئاسة الجمهورية (أي «يريد أن يجعلني أنا، الزعيم») تابعة (تابعاً) لمركز البحوث والدراسات وقد جاءني في يوم، عام ١٩٧٢، ليقول لي أنهم (أعضاء مركز الدراسات) صفوة المفكرين في البلد. والبلد انتهت، ولا حل إلا أن تحصر وتستمع إليهم فأحسنت. ماذا تقول؟ يا بني دول فقاقيع قال بقى الفتنة الطائفية، والطلبة، وكل ما يحري، وتقول فقاقيع يا سيادة الرئيس» قلت نعم فقاقيع وتفكيرهم محدود على الورق»

وبهذا التعبير الواضح أفصح الزعيم عن تقديره للمعرفة التي على الورق، فقال عن أعضاء مجلس الدراسات أنهم «فقاقيع» والأهم من ذلك أنه أفصح عن نظرة الزعيم إلى مسألة الاصغاء لمشورة الغير «هيكمل كان يريد أن يجعل رئاسة الجمهورية تابعة لمركز البحوث والدراسات» وهيكمل لم يطلب منه أن يصح تابعاً لمركز البحوث والدراسات، ولم يكن يملك، كما لم يكن يملك أي شخص آخر في مصر، أن يجعله تابعاً لأي مركز كان، بل كل ما أراد منه هو أن «يستمع إلى من وصفهم بأنهم صفوة المفكرين في مصر، وهيكمل، في عملية تشكيل مركز البحوث والدراسات هذا، كان يحاول أن يصبح «مصرياً» كالأميركيين والأوروبيين وغيرهم، فيصنع تحت تصرف الحاكم المشورة المتخصصة التي تقدمها المراكز التي من هذا النوع والمسماة عادة في الغرب بالـ «Think tanks» (**). أي «مستودعات الأفكار»، إلى المستغلير شغلة الحكم عند الفرنجة وكان رد الرعيم عليه عندما اقترح أن «يستمع إليهم» أنهم «فقاقيع يا بني تفكيرهم محدود على الورق، وأنا عشت الشارع السياسي منذ شبابي المبكر وأستطيع أن أحس نضر الشعب أنا مؤمن بحكم الشعب» أما حكم الصفوة «الأليت» فلا أعترف به»^(٣)

وبهذا النوع من التفكير الغوغائي أنجرت كل المنجزات الكبرى استدرجت مصر إلى مصيدة ١٩٦٧، ثم استدرجت إلى مصيدة كامب ديفيد «أنا عشت الشارع السياسي» أي أنا «طالع من تحت السلاح»

(*) أنظر الهامش رقم (١)

(**) كاله - Brookings Institution - ، مثلاً الذي كان تقريره عن الشرق الأوسط أول ما اهتم جيمي كارتر بقراءته إثر توليه الرئاسة واتخذ أساساً للسياسات التي توجت بانجازه في كامب ديفيد

كما يقولون في مصر، أو أنا قد تعلمت في مدرسة الحياة، ولا حاجة بي إلى ذلك العلم المكتوب في الكتب و «أنا أستطيع أن أحس نبض الشعب» أي ببض هذا؟ نبض القلوب المتسارعة ضرباتها رعباً من النفخ وخلع الأظافر والكلي والجلد وصدّات الكهرباء، وشبح المباحث والمخابرات وأمن الدولة وكل تلك الهولوات الأفظع من أَمنا الغولة في حكايات الريف وقصص ألف ليلة؟ وأمنا الغولة - بالأقل - كانت تتسامح إذا ما أخذ الضحية يعلّي القمل من فروتها، وكانت تقول «لولا سلامك سبق لكلامك لأكلت لحمك قبل عظامك»، أي أيها، في المخيلة الشعبية، كانت تستحي أحياناً ممن يبادر بها بالسلام. أما الأجهزة فلم يعرف عنها أنها تستحي أو تتورع. والشعب الذي كان السادات قادراً على الإحساس بنبضة كان يموت خوفاً ويدافع عن نفسه بالإبلاغ عن بعضه بعضاً. و «أنا مؤمن بحكم الشعب». طبعاً مؤمن بحكم الشعب، بفصل «نواب الشعب» الذين قطعوا الطريق من القصر العيني إلى قصر القبة بقيادته ليقولوا لجمال رحمه الله خذ مصر يا رئيس. افعل بها ما تشاء، ففعل، ومدّوها تحت نعل موشي ديان، ثم قال سأتنحى، ثم قال لا، لن أتنحى وتصل الصفاقة الوحشية إلى ذروة فجورها عندما يقول الزعيم أنه «لا يعترف بحكم الصفوة، أنه ضد حكم الإيليت!» ثم يقول بعد ذلك، بمنتهى الغيرة والإيثار وحب الوطن المفدى «أنا لا أريد من الصحافة أن تقول للناس قفوا مع أنور السادات. كل ما أريده من الصحافة أن تقول قفوا مع البلد قفوا مع مصر. اصمدوا من أجل مصر»^(٢٢) وهو يقول ذلك لمن؟ يقوله لمن قال له «أنت يا أفندم. سيادتكم.. أنت البلد أنت مصر»، فهو يقول وهو مطمئن تماماً إلى أنه هو البلد، وهو مصر، لأن كل من عداه من تلك الملايين التي تتناطح وتخور وتلوذ بجحورها عند أول بادرة خطر أو هياج من جانبها أو احمرار في عينيه، لا وزن له ولا وجود. وبذلك استطاع - بضمير نقى - أن يقول «لا أريد من الصحافة إلا أن تقول قفوا مع البلد. قفوا مع مصر. اصمدوا من أجل مصر»^(٢٣)

ماذا لدينا إذن، في حالة السادات وحالة سلفه العظيم الذي ورثه العزبة؟ لدينا في كلتا الحالتين ضابط جيش. رجل تعلم أن يكون تعامله مع العدو من فوهة المسدس أو البندقية أو المدفع. وهذا حسن، وفي موضعه تماماً، فقط لو ظل العدو هو من عادى الوطن وأراد بأمنه وأهله شراً كـ «العدو الغادر»، و «الامبريالية»، و «الاستعمار»، وكل تلك العفاريث الشريرة الخارجية وفقط لو أفلح الضابط فعلاً في التعامل بالسلاح مع ذلك العدو، ولم يلق السلاح ويجرأ أمامه، ثم يقعد يسمع أخبار خيبته في الراديو ويبيكي، كما وصف السادات حالة عبد الناصر «وكانت قمة مأساته الشخصية»^(٢٤) في ٥ يونيو وكان يستمع إلى الراديو ويبيكي والغريب أنه كان يستمع إلى كل الإذاعات الشامتة التي تؤله وتثير غيظه. والعواصم العربية شامتة. والقصص عن الجيش المصري الذي عاد جنوده إلى مصر حفاة^(٢٥) لكنه لا يكون حسناً على الإطلاق أن يصبح التعامل من فوهة المسدس أو البندقية أو مدفع الدبابة أو السيارة المصفحة مع «القطعان» المقتناة في العزبة وقد تحوّلت إلى العدو الذي يمارس معه الضابط مهامه العسكرية التي لم يفلح في ممارستها في مواجهة «العدو الغادر»

ولدينا، في كلتا الحالتين، ضابط محدود «الثقافة» محدود التعليم يستقي معلوماته من مجلة المختار والموجزات المماثلة لها المطبوعة على الروليت، ومن أفلام السينما، ومما يُحكى له من بعض المتفجعين عن السياسة والاقتصاد ومشاكل السياسة الخارجية وكل تلك الأشياء المعقّدة، أو «الحسابات المعقّدة» التي قال السادات أنه كان يخشى منها على عبد الناصر. وإن بدت حكاية أفلام السينما كضرب من الافتراء، فلنصغ لموسى صبري:

«وقبل حرب أكتوبر شاهد السادات جميع الأفلام الأجنبية التي صدرت عن الحرب العالمية الثانية. وكان يراجع الحقائق التاريخية العسكرية في هذه الأفلام مع الكتب التي وصفت المعارك. ولذلك كانت لديه ذخيرة ضخمة (من المعارف) عن فنون القتال وأشهر معارك التاريخ»^(٢٦).

ويقول موسى صبري أن السادات قد «يكون أخذ هذه العادة (الولع بالسينما كمصدر للمعرفة) عن جمال عبد الناصر»، وأن «رجال الثورة كانوا، في الأشهر الأولى للثورة، يذهبون إلى دور السينما، ولكن بعد أن عرفت الجماهير صورهم، وبعد أن زادت أعباؤهم، بات ظهورهم في الأماكن العامة مستحيلاً، وبدأ عبد الناصر يشاهد الأفلام في منزله. الأفلام الأجنبية والمصرية وكذلك عبد الحكيم عامر»^(٢٧). ويبدو أن المشير

عبد الحكيم عامر لم يتزود قبل حرب ١٩٦٧ بذخيرة كافية من المعلومات «عن فنون القتال» وكيفية إدارة «أشهر معارك التاريخ» كما فعل السادات قبل حرب ١٩٧٣، فكانت النتيجة سيئة للغاية

وفيما يخص السادات، على أية حال، يبدو أنه كان أشد الجميع ولعا بالسينما وعالم الوهم الذي تختلقه تلك الصناعة المميتة التي أحكمت اليهودية العالمية والحركة الصهيونية قبضتها عليها من مبدأ أمرها باعتبارها أداة خطيرة من أدوات عملية «غسل المخ» العالمية وعملية إعادة كتابة التاريخ فالسادات، كما قال في كتابه «البحث عن الذات» أراد، من شدة ولعه بتلك الصناعة، أن «يكون ممثلاً في شبابه، ولم يُقبل عند اختبار»^(٣٦)، وعندما أطلق العنان للفلاحين المصريين من عساكر وجاويشية وضباط صفار، في حرب ١٩٧٣، فانطلقوا كإعصار أو شوك أن يقلب كل «الحسابات المعقدة» المتفق عليها مع الأصدقاء الأميركيين قبل العبور، مما استلزم «لهم» بفتح الثغرة والتفاف «العدو الغادر» حول مؤخرة الجيش الثالث، وصور «الإعلام» للقطعان في العربة السادات بوصفه «بطل العبور»، اكتمل تواجد السادات السينمائي في العصر، فتمنى «أن يرى فيلماً سينمائياً عالمياً عن نصر أكتوبر. وكان في ذهنه دائماً فيلم «أطول يوم في التاريخ» الذي ظهر عن الحرب العالمية الثانية وبه أكبر عدد من نجوم السينما العالميين»^(٣٧).

لدينا إذن، في كلتا الحالتين، ضابط سينمائي التواجد في العصر، يستقي معلوماته عن فنون القتال وأشهر معارك التاريخ من أفلام هوليوود، وينظر إلى صراع الحياة والموت الذي تصدى لقيادة مصر في غماره مثلاً ينظر المنتج السينمائي، الذي يمثل دوراً في فيلم من إنتاجه، إلى كادر سينمائي

ولدينا، في كلتا الحالتين، ذلك الضابط الممارس لشغلة الصبغة مع «شعبه»، المتعامل مع «العدو الغادر» من منطلقات زودته بها خلفية «ثقافية» فقيرة للغاية ومحدودة وسينمائية بالقدر الأكبر، وقد «أله فتأله» كما قال السادات عن عبد الناصر ولم يقل عن نفسه، وأصبح «هو الدولة»، هو البلد، هو مصر. وهذا ضرب من التطور الارتعاعي، إلى الوراء لا إلى الأمام، يعود بمفهوم الحكم إلى ما قبل الثورة الفرنسية، عندما كان اللويسات يعتقدون بحق في صحة قولهم «أنا الدولة»، وظلوا ممثلني الرؤوس به إلى أن طارت تلك الرؤوس تحت سكين المقصلة وهذا - جنباً إلى جنب مع العياب الثقافي من العصر - عياب سياسي خطر ارتد «الرعيم» على عبايه إلى رؤية لدور الحاكم وعلاقته بـ «الرعية» أو القطعان مماثلة لرؤية الحاكم بأمر الله، مثلاً. والحاكم بأمر الله لم يحكم في النصف الثاني من القرن العشرين. ولم يحكم بلداً مستهدفاً تحلقته «مخططات العدو والامبريالية والاستعمار»، متى استخدمنا كلمات العهدين كليهما

وقد حاول السادات أن يقول أنه لم يكن، وأيم الحق، كذلك، وأن عبد الناصر ربما كان كذلك، لكنه كان له عذره «صحيح أنه كان يريد أن يحكم بخطته وأسلوبه وفلسفته، ولكنه صاحب حق»^(٣٨) ثم تحدث عن معاوني عبد الناصر وقال «وإذا التمسيت لهم بعض العذر في حياة عبد الناصر، وأنهم كانوا مقيدين، محرومين من إبداء الرأي (فإنني لا أستطيع أن التمس لأحد العذر في مخالفتي الآن) ها أنت تراهم الآن، أي قرار اتخذه لا بد أن يهيلوا عليه التراب. لماداً - إن أبسط مواطن في مصر يتمتع (الآن، في عهدي) بالحرية الكاملة.. فماذا يضايقهم؟ هي النفس البشرية وهذا أمر من أسرار خلق الله طبيعة بشرية، ماذا أقول»^(٣٩)

فالذي يبدو من كلام السادات أنه كان مقتنعا اقتناعاً كاملاً بصدق رؤيته السينمائية لما كان يدعوه بـ «الحرية» وهو يؤكد أن «أبسط مواطن في مصر يتمتع (في عهدي) بالحرية الكاملة»، وبخيرية كل تصرفاته ومعقوليتها ولقد كان السادات معذوراً، بطبيعة الحال، وقد قالها قبل الدكتور جوبلز عن تلك الكذبة التي إذا كررتها بما فيه الكفاية ستنتهي بأن تصدقها أنت نفسك وقد ظل كل من حول السادات، وكل الاتباع والأعوان و«صناع الرأي» من صحفيين وكتاب وأساتذة قانون (كأستاذ القانون الذي أشار إليه الدكتور فؤاد زكريا) يؤكدون للمصريين وله (فقد كان يقرأ ذلك الكلام بطبيعة الحال، أو بالأقل يسمع به) أنه يفعل كل ما هو صواب ويقوم بمسؤوليته كاملة من حيث أنه «هو البلد، هو مصر» لا مجرد «صاحب مصر» و«ولي النعم» وكمثال صغير واحد على ذلك، نتوقف عند فقرات من الحديث الصحفي

الذي أجراه رشاد كامل ونشره بمجلة «روز اليوسف» تحت عنوان «موسى صبري يتذكر - السادات.. المعارضة والغضب»:

رشاد كامل ما هي خطايا السادات التي قادت إلى الاغتيال عبر المنصة؟
موسى صبري (بحسم وسرعة) خطايا لا مغيث خطايا للسادات إنما أخطأ ممكن فكل حاكم له أخطاؤه
رشاد كامل ما هي الأخطاء التي تسببت في اغتياله . هل أحسست في حديثه معك بأسف أو أسى لاتخاذ أية قرارات (يكون قد اتخذها)؟
موسى صبري تقصد قرارات تأمين البلد؟
رشاد كامل اقصد قرار سبتمبر ١٩٨١ الذي اعتقل بموجبه حوالي ١٥٣٦ مواطناً من كافة الاتجاهات
موسى صبري ما هي دي القرارات التي اتخذها لتأمين البلد ، لأن الحاكم في اتخاذ قراراته يتجرد تماماً من العواطف
رشاد كامل هل قرأ السادات أسماء الذين اعتقلوا بموجب قرارات سبتمبر؟
موسى صبري بقي معقول السادات حيقراً كل الكشف الطويل العريض ده؟
رشاد كامل كانت بالكشف أسماء لامعة سبق أن أشاد السادات نفسه بها وبماضيها الوطني، بل أن بعضها كان بجواره في أحداث ١٥ مايو ١٩٧١
موسى صبري هناك أخطاء حصلت! وعندما علقت على هذه القرارات بعد ذلك قلت أنه حدثت أخطاء في الأشخاص. مثلاً المرحوم عبد العزيز الشوربجي كان مريضاً المرحوم عبد العظيم أبو العطا كان مريضاً عدد من الصحفيين الذين اعتقلوا لم يكن لهم لا في العيول ولا في النفي، وخرجوا أبطالاً بعده هذه القرارات وكأنهم كانوا منفيين في سيشل. ولا تعقد مقارنة بين عهد عبد الناصر وعهد السادات. يعني في سنوات حكم عبد الناصر، حرت اعتقالات، وحرى تعذيب حتى الموت بالنسبة للشيوعيين بالذات. بل كان المعتقلون يربطون من أرجلهم بالسلاسل في القطار ويسير القطار بهم (يجرهم وراءه) وضرب بعضهم حتى الموت. شهدي عطية الشافعي، مثلاً، مات داخل المعتقل ضرباً بالشوم والعصي. ولكن ما حصلشي شيء من هذا في أيام السادات والقرار الذي اتخذه كان مجرد إجراء وقائي لم يكن سيستمر أكثر من شهرين لتأمين عملية انسحاب إسرائيل بالكامل من سيناء. وفي ذلك الوقت كانت إسرائيل تملك (تماحك) بأي شيء حتى لا تنسحب لم تكن تريد الانسحاب بأي ثمن. فكان الرجل يريد تأمين هذا الانسحاب وتحرير الأرض لا أكثر ولا أقل،^(٤١)

فالصحفي المعروف يقول أثناء كلامه ما معناه أنه كان - بالأقل - على علم بقرار الاعتقالات «كان مجرد إجراء وقائي لم يكن سيستمر أكثر من شهرين»، ويتحدث عن الفظاعات التي ارتكبت، والتي يقول أنها كانت في حق الشيوعيين بالذات، تخفيفاً لفظاعتها، باعتبار الشيوعيين أشرار الحلقة، وينسى تماماً أنه كان من كبار رجالات الاعلام في ظل النظام الذي كان يربط البشر من أرجلهم بالقطارات ليسحلوا وراءها، والذي قتل أناس آخرون لحسابه، كشهدي عطية الشافعي، داخل المعتقل، بالشوم والعصي، كما تقتل الكلاب في الريف.

كانت الثورة نبتة شيطانية في تربة السياسة المصرية. وككل النباتات الشيطانية، لم تكن ذات جذور ضاربة في تلك التربة. وصفت «الشيطانية» هنا لم يُقصد بها أن تكون تعبيراً عن «الشر» أو سوء النية، ولو أن التاريخ علمنا دائماً بأن الطريق إلى جهنم يكون مرصوفاً في أحيان كثيرة بالنوايا الطيبة. والذي لا شك فيه أن جمال عبد الناصر ومن معه كانوا أناساً وطنيين، فليس هناك ما يبرر الشك في تلك الوطنية. لكنهم جاءوا من فراغ، ولم يكن وراءهم فكر أصيل أو رؤية حقيقية لما يتعين على من يتصدى لتخليص مصر مما كانت قد وصلت إليه في العهد الملكي، أو «العهد البائد» كما سمي بشاعرية ما بعد الثورة، أن يتسلح به من فكر، أو إلمام بالأبعاد الحقيقية للمشكلة وما انطوت عليه من «حسابات معقدة».

ولقد كان عبد الناصر متأمرأ جيداً، فوق كونه وطنياً مخلصاً، وكان - فوق هذا وذاك - رجلاً مجدود الحظ وبطبيعة الحال، كان قدر كبير من ذلك الحظ المجدود راجعاً إلى تداعي النظام القديم وتفسخه. فقد كان نظاماً اهتراً ووصل إلى قرب نقطة النهاية، وبات بوسع أي تنظيم مسلح متصف بالتصميم وشيء من التخطيط أن يباغته ويطلق على رأسه رصاصة الرحمة. وكان «عبد الناصر هو الذي بدأ بالعقلية التنظيمية خلايا لا تعرف بعضها البعض، وهو الذي يجتمع بكل خلية على حدة.. واستطاع في عام ١٩٥١ أن يكون الجمعية التأسيسية، وهي رأس التنظيم، أي أنه وصل بالتنظيم إلى أن يشكل له قيادة»^(١) ورغم أن «٦ أجهزة أمن كانت تتعقبنا»^(٢)، لم يتوصل النظام القديم إلى كشف أمر التنظيم رغم ما ظل يرتكب من أخطاء ورغم كل ما كان يدور من صراعات. فمن الواضح من رواية السادات للأحداث أن السرية لم تكن مطلقة «وبعد ذلك (بعد تشكيل الهيئة التأسيسية) قررنا استبعاد عبد الرؤوف لأنه طلب أن ننضم إلى الإخوان المسلمين، وكان له منطق في ذلك هو من الذي يرمى عائلتنا إذا حدث لنا شيء». وكان يقول هذا الكلام عن تجربة لأنه عانى الأمرين بالنسبة لأسرته بعد عملية عزيز المصري لكننا رفضنا ذلك، وكما قلت لحسن البنا على انفراد.. وقاله له جمال عبد الناصر أيضاً أن التنظيم للبلد.. لمصر. وليس لهيئة أو لحزب»^(٣) وبطبيعة الحال، كان وجود عبد المنعم عبد الرؤوف في التنظيم وإلمامه بكل خباياه وضعاً عرض التنظيم لمخاطر كبيرة، كما كان الإنفراد بحسن البنا وإفهامه أن «التنظيم ليس لهيئة أو لحزب»، إجراء أشد خطورة على سرية التنظيم من سابقه. ومع ذلك، وبالرغم من الثغرات الأخرى في نطاق السرية، لم يتمكن النظام القديم من كشف أمر التنظيم الذي كان عبد الناصر أخذاً في تكوينه لقلب نظام الحكم

وكما هو واضح من كل ما كتب عن ثورة يوليو وما سبقها من إعداد للإطاحة بالملك ونظامه الذي كان قد تآكل وتداعت خيامه، كان الهم الأساسي لعبد الناصر تشكيل التنظيم الذي يستولي به على الحكم، بلا أدنى توقف عند أية انتمايات فكرية أو عقائدية تكون لدى من يضمون إلى ذلك التنظيم فقد اتسع التنظيم لضباط كانوا منتسبين إلى الإخوان المسلمين (أقصى اليمين الفاشي) أو متعاطفين معهم، ولضباط منتسبين إلى الشيوعيين (أقصى اليسار العقائدي)، ولغيرهم ممن لم تكن لهم إنتماءات فكرية أو عقائدية، أو كانت لهم انتمايات افترشت الساحة الواسعة الواقعة بين أقصى اليمين وأقصى اليسار.

ومن أولئك الشيوعيين كان يوسف منصور صديق، وخالد محيي الدين. وكان صديقاً معروفاً كشيوعي عامل لأجهزة الأمن، وبالتالي تحت المراقبة، لا من جانب السلطات المصرية وحدها، بل ومن جانب الاستخبارات البريطانية أيضاً

«وعرفني كافرني (السفير الأميركي) بمستقر لیتلاند أو لیکلاند، وهو شاب أعور يعمل ملحقاً في السفارة اكتشفت أنه أقوى موظفيها وأن له نفوذ على كافرني، رغم أنه ملحق صغير فيها، وكان يجيد العربية إحادة تامة، وكان يزورني في مكنتي وببتي باستمرار، واعتقد أن له فصل كبير في التأثير على كافرني وعلى سياسة أميركا بمصر (بحسب نظام عبد الناصر) وشعرت بحكم اتصالي به بأهميته وقوته رغم صغر سنه، وألعت المرحوم صلاح سالم رأيي، وهو أن لیتلاند هو السفير الحقيقي (للولايات المتحدة في مصر)، وعقب ذلك بدأ اتصال مستمر بين لیتلاند وبين الرئيس جمال عبد الناصر وصلاح سالم وبعض رجال الثورة. وكان

تشكيل حكومة ثورية

ليتلايد هو الواسطة بين الثورة والسفير الأمريكي ولست من ليتلاند، خلال اجتماعاتي المتكررة معه، انه كثير الأسئلة، ولاحظت انه يتظاهر بالحواف وبأنه لا قيمة له، بينما شعرت أنه صاحب أكبر نفوذ على السفير، وأكثر علماً بالسياسة الأمريكية من جميع موظفي السفارة الذين اجتمعت بهم وكان - كما قلت - يسألني أسئلة كثيرة جداً، ولكنه كان يبدو متحمساً للثورة ومؤيداً لها، ولم أشعر في علاقتي الوثيقة به انه كان يخدعني أو يصللي أو يستعلي أو يوهمني بأنه مع الثورة بينما هو صدها واعتقد انه قام بخدمات حليلة جداً في شأن علاقات أمريكا مع الثورة في بدء قيامها وكان أهم ما يسأل ليتلاند عنه هل هناك بين قادة الثورة من له ميول شيوعية وعرفت منه ان الإنجليز كانوا يقولون لهم (للأميركيين) باستمرار ان لديهم معلومات مؤكدة بأن عدداً من أعضاء مجلس قيادة الثورة من الشيوعيين، وأن اتجاههم كلهم ضد الغرب، ومن ليتلاند عرفت ان الإنجليز يؤكدون ان يوسف صديق شيوعي، وأن خالد محيي الدين شيوعي^(١٧)

وفي موضع آخر من كتابه، يقول صلاح نصر

في سبتمبر/أيلول ١٩٥٠، كان عبد الحكيم عامر أركان حرب سلاح المشاة، وقد أخبرني أن التنظيم عني بأمر تعيبي في الكتيبة ١٢ مشاة التي كانت متمركزة حينئذ في منطقة أبو عجيل، وكان مقرراً أن تنقل بعد ذلك التاريخ شهرين إلى العريش، كما أخبرني بأنه هو نفسه سينقل إلى الفرقة الرابعة في رفح، وأصدر لي تعليمات بأنني سأنضم إلى خلية رئيسية مقرها العريش، وكانت الخلية تتكون من عبد الحكيم عامر، وصلاح سالم، وكانا يعملان في الفرقة الرابعة في رفح، ويوسف صديق، وكان قائد كتيبة مدافع الماكينة بالعريش، وعند المساء عبد الرؤوف، وكان قائد كتيبة مشاة وحمال سالم قائد الطيران بالعريش، وقائد سرية بالكتيبة ١٢ وهو صلاح إبراهيم سعده، والطيار بهجت وكانت اجتماعاتنا تعقد في منزل يوسف صديق بجوار محطة العريش، وقد سهل ذلك الالتقاءات بعد انتقال الكتيبة ١٢ من أبو عجيل إلى العريش في نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥١، وكنت وقتها أعمل أركان حرب للعمليات والتدريب ومن الطريف أنه التحق بالكتيبة ملارم ثان، قدم من القاهرة منقولاً من المحادثات الحربية، هو كامل نور الدين، وكان من عادته أن يذهب يومياً إلى محطة العريش يسأل عن خطابات خاصة يحضرها مندوب له من القاهرة يصل في القطار، ولح سيارتي الجيب بحوار منزل يوسف صديق، فسألني في أحد الأيام «ماذا تفعل في منزل يوسف صديق» ألا تعرف انه شيوعي؟ وأخبرته ان يوسف صديق قديم، لكي أبلغت رملاني في التنظيم بما حدث فاتخذنا إجراءات أمن شديدة حتى لا يعرف أحد شيئاً عن اجتماعاتنا^(١٨)

فانتماءات أعضاء الخلايا السرية بالتنظيم لم تكن مجهولة، لكنها كانت غير ذات وزن لدى عبد الناصر فكل همّه كان تجنيد عدد كاف من الضباط المتذمرين الناقمين على قيادات الجيش، وبالذات على أذنان الملك، كحسين سري عامر وغيره، وتأمين ولاءهم وما يحتكمون فيه من أفراد وسلاح للقيام بعملية الإستيلاء على الحكم. وفي سبيل ذلك خاطر بإئتمان عدد من العقائدين المرتبطين ارتباطاً وثيقاً بتجمعات سياسية ذات طموح إلى السلطة على أسرار تنظيمه، بل وعلى القيام بعمليات ليلة الثورة التي كان يتوقف على نجاحها من عدمه مصير التنظيم وكل من فيه، مما يقطع بأن الانتماء العقائدي لم يكن له أدنى وزن في صوغ مواقف قيادة التنظيم وتحديد المعايير التي اختارت تلك القيادة على أساسها من ينضمون إليه من ضباط. ولو كان التنظيم قد أنشئ على أساس من خلفية فكرية وسياسية، على أساس الرغبة في هدم النظام القديم وإحلال أي شيء آخر محله، لما أمكن لقيادته أن تجند لعضويته ضباطاً ذوي انتماءات عقائدية متضادة تضاداً هو بمثابة التناطح بالرؤوس، كالشيوعيين والإخوان، بل وتسليم عنق التنظيم وقادته لأولئك الضباط عن طريق تكليفهم بمهام رئيسية حيوية من عملية الإطاحة بالنظام الملكي

«في خضم الظروف التي كانت تسود مصر في ذلك الوقت، نشط تنظيم الضباط الأحرار، وكان من المقدّر أن يستمر التنظيم عاماً أو أكثر حتى يقوم بثورته. لكن الظروف السياسية كانت مواتية لأن تقوم الثورة^(١٩). فحتى توقيت التحرك الذي قام به التنظيم، أملت الظروف السياسية المواتية، وتوافر الفرصة للتحرك نتيجة لتهاك النظام القديم وتخبطه، وقطعاً للطريق على أي تحرك آخر يسقط ذلك النظام الذي كان قد بات كالثمرة العفنة ينتظر أقل هزة ليسقط وينجرف إلى بالوعة التاريخ. فالامر كله، منذ البداية، كان «لعياً بالسماع»، واغتناماً للفرص، واعتماداً على أن المشتركين في التنظيم احتكموا في البنادق والدبابات والأفراد. ولقد ظل ذلك النمط من التعامل مع الأوضاع القائمة من فوهات المدافع لا من الفكر أو الرؤية الواضحة لمستلزمات التغيير واتجاهاته وأساليبه وأهدافه نمطاً سائداً في «العالم

الثالث ، وبسببه ابتلي ذلك العالم وبلدانه حديثة الاستقلال بوباء الديكتاتوريات العسكرية المميت الذي يتبين أنه أفضل خدمة أداها افتقار الشعوب إلى النضج السياسي لسادتها القدامى من المستعمرين وأعوانهم المحليين

وبحسب معرف الآن أن حركة عبد الناصر لم تكن حركة شيوعية، أو حتى يسارية بالمعنى الحقيقي للكلمة. كما لم تكن حركة سلفية. والذي لا يجب أن يكره أحد على عبد الناصر، مهما كان رأيه فيما فعله الرجل وتربل مصر في مخاضته. أن عبد الناصر كان وطنياً مخلصاً، وكان - على الأرجح - يريد الخير لمصر. ومما لا يختلف حوله إلتنا أن إسقاط النظام العفن القديم وتخليص مصر من بقايا الحكم العثماني ثم من الاستعمار البريطاني كانا أعظم خير يمكن أن يطمح إليه وطني مصري. وهذا بالذات هو ما فعله عبد الناصر، وزاد عليه أنه كانت لديه الشجاعة والقدرة على تأميم قناة السويس وإعادة مصر. غير أن وطنية عبد الناصر التي لا حق لأحد في التشكيك فيها، ومنجزات مصر في ظل نجاحه الأول، لا تنفي إطلاقاً كونه ضابطاً محدود الثقافة محدود الفكر استخدم كل ما وجدته في متناول يده من وسائل ليصل إلى السلطة، مؤملاً - فيما بدا - أن يتمكن بعد أن يصل إليها من أن يتمكن من التوقف ريثما يسأل نفسه «إلى أين نذهب من هنا»

والأدلة على ذلك لا تكاد تحصى. لكن كثيرين تعاملوا وما زالوا يتعاملون عنها. فابتداءً، في ليلة الثورة، وجد تنظيم عبد الناصر من الممكن له أن يسند بعض أخطر مهام تلك الليلة لشيوعيين وإخوان .

• كان من المفروض أن تقوم الثورة ليلة ٢٣ يوليو، لكن بعض الإمدادات تأخرت، وكادت مهمة الكتيبة ١٢ (التي كان الاعتماد عليها كبيراً لأنها تصم عدداً كبيراً من الضباط الأحرار) محددة في أربعة نقاط رئيسية * سرية مشاة بقيادة الصاع صلاح إبراهيم سعده، وتحت قيادته «تروب» دنابات لمحاصرة سلاح الحدود بالقنة. لمعه من التضدي لحركة الجيش فقد كان اللواء تحت قيادة اللواء حسين سري عامر الوثيق الصلة بالملك

* سرية مشاة بقيادة البوراشي عمر محمود علي، وعليها واجب محاصرة المنى واعتقال كل من بداخله من القادة، وبحاس السرية. قامت سرية يوسف صديق للمعاونة في هذه العملية، وشامت الظروف أن يجتمع قادة الجيش في هذا المسى للقيام بعمل ما لصر الثورة بعد أن تسربت معلومات عنها في تلك الليلة، وقد سهّل ذلك اعتقال هؤلاء القادة

* فصيلة بقيادة البوراشي جمال القاضي - وواجبها الإستيلاء على الإذاعة • وفي يوم ٢٤ يوليو، صدرت لي التعليمات بالاستعداد للتحرك إلى مدينة الاسكندرية بكتيبتي، بعد أن وُصفت تحت قيادتها مجموعات من المدفعية والمدركات وكانت التعليمات قد صدرت إلى عبد المنعم عبد الرؤوف أن يتولى قيادة مجموعة مماثلة (وفي الإسكندرية) توجه عبد المنعم عبد الرؤوف بمجموعته إلى قصر رأس التين، وكان الملك قد انتقل إليه ليلاً، وأطلقت بعض الأعيرة النارية من حرس قصر رأس التين^(١٨)

ومما يرويه فتحي رضوان، أنه «شامت الظروف أن ينفر يوسف منصور صديق، وهو بطل بكل ما تعنيه الكلمة، بدور حاسم في الثورة»^(١٩) ويبدو أن فتحي رضوان يكن إعجاباً خاصاً لهذا الضابط، فهو يقول أنه «تعرض للموت أو الخطر الجسيم أثناء قيامه بالمهمة التي كلف بها، في وقت لم تكن الثورة قد استقبلت نور الحياة بعد ولم يصدر القدر حكمه في شأنها: تبقى أم تطوى صفحاتها وتنكس رايتها»، إلا أن الذي يعنينا هنا أن قيادة الحركة - وهي لم تكن بكل تأكيد حركة شيوعية أو حتى شبه يسارية، بل مجرد حركة عسكرية بلا فكر أو رؤية لما يمكن أن تجابهه بعد الإستيلاء على السلطة وما يمكن أن تفعله حيال ما قد تجابهه - أسلمت عنقها وأعناق كل من في التنظيم الذي قام بها لضابط كان كل أعضاء التنظيم يعرفون أنه شيوعي، كما بعثت بضابط ذي انتماء إخواني لمحاصرة قصر الملك، والملك بداخله، في رأس التين فالبعد الأيديولوجي، يميناً أو يساراً، غائب تماماً.

ويكمل فتحي رضوان روايته عن الضابط الشيوعي يوسف منصور صديق، فيقول «ومع أنه أدى دوره، واحتمل عبئه، واجتاز بالثورة مرحلة الخطر، فإن بقاءه بين زملائه لم يطل (بعد الإستيلاء على السلطة) ولم يستمتع بالسلطة ويتذوق لذائذ الشهرة (!)، ولم يصعد في مراقبي المجد كما صعد إخوانه وزملاؤه الذين لم يبذلوا بذله، ولم يجاهدوا جهاده، بل كان بعضهم (إلى أن نجحت الحركة) أبعد ما يكون من الخطر، يتلهى في مكان للتسرية وإزجاء الفراغ، أو في خارج القاهرة كلها، بعيداً بمئات أو ربما

آلاف من الكيلومترات ينتظر الأنباء بقلق، ولكنه مع ذلك آمن على حياته.

«كان على يوسف منصور صديق أن يفقد طابوراً ميكانيكياً من معسكر الهاكستب، وكانت ساعة الصفر المتفق عليها هي الساعة الواحدة من صباح يوم ٢٣ يوليو لكن المقدم صديق تصور، لسبب ما أن الساعة الثانية عشرة لا الواحدة كانت الساعة الموعودة، محرك قواته في اتجاه ضاحية هليوبوليس (مصر الجديدة) حيث مقر قيادة الحيش الملكي في كوبري القبة وكان سر الثورة قد كشف، فطلب القائد العام أعوانه وأمرهم بالاحتشام في مقر القيادة والاتصال بمعاونيهم، ليذهبوا إلى مكاتبهم في المعسكرات المختلفة ويراقبوا الأحوال ويتحدوا الإجراءات التي يستدعيها الموقف ولو تأخر الطابور الميكانيكي الذي كلف يوسف صديق بقيادته حتى ساعة الصفر التي كانت محددة له أي الواحدة صباحاً، لكن المعسكر الملكي قد سبق إلى المواقع الرسمية وتمكن من قطع الطريق على الثورة، لكن رحمة الله ووقوع يوسف صديق في الحطأ جعله يعجل بالذهاب إلى مقر القيادة العامة حيث اجتمع كل القادة الرسميين، ولم يكن الوقت قد اتسع لهم بعد ليصدروا الأوامر ويستدعوا رؤساء الفرق والوحدات وهناك فوجيء القادة بالطابور الميكانيكي يحاصرهم، وعلى رأس هذا الطابور بطلنا يوسف صديق»^(١)

ويفيض فتحي رضوان في وصف العمل الذي قام به يوسف صديق في خدمة الثورة، ويصفه بأنه كان عملاً عظيماً، ثم يقول «ولكن يوسف صديق كان يسارياً شديداً الانحياز لليسار، ولذلك لم يكن ممكناً أن يتفق مع عبد الناصر وأخوانه»^(٢)، وبالمثل، لم يكن ممكناً أن يتفق عبد الناصر وإخوانه مع دعوة عبد المنعم عبد الرؤوف إلى الإئتلاف مع الإخوان، فكان أن استبعد من التنظيم، وقام كل من عبد الناصر والسادات بإفهام حسن البنا أن الثورة لم تقم لتكون أداة لحزب أو تنظيم آخر ولقد كان طبيعياً أن تنبذ الثورة يوسف صديق وعبد المنعم عبد الرؤوف على حد سواء، وعلى ما بين أيديولوجيتيهما من تضاد، وتحفظ بصلاح نصر، وحمزة البسيوني، على سبيل المثال.

يقول فتحي رضوان أن

«تاريخ ثورة ٢٣ يوليو إثنان، أحدهما يذكر أحياناً، ولكن دون أن يظفر بما يستحق من الإجلال والتقدير، هو يوسف صديق، وقد حاولت أن أرد إليه بعض حقه ولكني اعتبرت أنني لم أنجح تماماً في ذلك، أما الثاني فإسحاق غريب حقاً، عُرف بين الذين احتكوا بالثورة وعاشوا معها، أو احتكوا بها ولم يخاصموها أو تحاصمهم، ومع ذلك لا يقف أمامه المؤرخون، ولا يحكمون ضده، ولا يحكمون لصالحه كما فعلوا مع أشباهه الذين كانوا من أصحاب الأدوار التي تتم في الخفاء ولا يقع عليها النور، ولا أقول الأدوار الثانوية، لأن دوره كان خطيراً إلى أبلغ الحدود، وهو حمزة البسيوني، الذي وصل إلى رتبة اللواء، والذي أسند إليه منصب مدير السجون الحربية، والذي نسب إليه من الأعمال أو قل الحرائم ما يرفضه الشيطان ذاته، ومع ذلك لم يظفر من الشهرة وديوع الاسم بما ظفر به رميله صلاح نصر مدير المخابرات»^(٣)

فهي ظاهرة ملازمة لا لثورة ٢٣ يوليو وحدها، بل ولنظم عديدة أوجدتها تغيرات عنيفة في العالم الثالث، يحلو للإعلام العالمي أحياناً أن يمارس الإثارة الصحفية قبل جماهيره الأسيرة بإبراز عوراتها وفضح مخازيها، كنظام الجنرال بينوشي في شيلي مثلاً، وتضج الشعوب أحياناً فتفضحها بالتمرد عليها، كما حدث في الفلبين وكوريا الجنوبية في الماضي القريب ونعني بتلك الظاهرة «اختصار الطريق»، والاستغناء عن الفكر والمبادئ والعقائد وكل تلك الأشياء الهوائية التي يتشدد بها الكتاب والمنحرفون والمفكرون الذين كل أفكارهم من الورق كما قال السادات لهيكل، والاستعاضة عن كل ذلك بالحزم العسكري والضبط والربط بتسليط أناس كصلاح نصر وحمزة البسيوني على القطعان لإرهابها وذبح بعضها وتعذيب البعض الآخر ليكون من يذبح أو يعذب عبرة للآخرين إذا ما جنوا وخطر لهم أن يتصوروا مجرد تصور أنهم بشر حقيقة ومواطنون حقيقة ولهم حقوق قبل صاحب العزبة. ولكم كان مغشياً للنفس أن يحاكم النظام صلاح نصر عندما ضرب النظام ضربة قاصمة بهزيمة يونيو ١٩٦٧، وأن يعلن الزعيم «سقوط دولة المخابرات المنحرفة»، وكأن أحداً لم يكن يعلم شيئاً عما كانت تلك «الدولة» تفعله منذ ١٩٥٢. وقد قال صلاح نصر عندما سئل في ذلك: «تلك قضية سياسية بالدرجة الأولى. ولقد قلت لك من قبل أنني لن أخوض في تفاصيلها، وإن كنت قد سجلت هذه التفاصيل وأودعتها.. سجل التاريخ»^(٤).

ونقول أن مسرحية إسقاط دولة المخابرات ومحاكمة صلاح نصر في محكمة رأسها حسين الشافعي كانت مغشية لأنها أنبأت عن مدى ازدياد صاحب العزبة وأعوانه لأدمية «القطعان»، واستهانتهم بعقولها.

فطيلة الوقت، أديرت شؤون العزبة بفضل أنشطة الأعوان الذين من نوعية صلاح نصر وحمزة السيوني، ثم لما انكشف صاحب العزبة بعد أن استدرجه «العدو الغادر» إلى مصيدة «حرب» ١٩٦٧، استدار فجأة ليقول للقطعان أنه لم يكن يعرف، وأن ذلك الزميل العادر عبد الحكيم عامر هو الذي تسبب في الهزيمة، وقد دفع حياته ثمناً لها، وذلك المعاوان الغادر صلاح نصر هو الذي تسبب في كل البشاعات التي ارتكبت في حق القطعان، وها هو يحاكم على ما جنت يداها وكان ذلك مماثلاً لما فعله خليفة الزعيم، السادات، عندما صرب ضربته ضد الشلة المنافسة له فتحول فحاة، بين يوم وليلة، إلى نصير مشتعل بالحما المتوهجة للديمقراطية «المهم صعدوا الصراع وساعة إقالة علي صبري صعدوه بشكل رهيب ووضح من تحقيقات القضية أن علي صبري كان يتصل بشعراوي جمعة يومياً، وشعراوي يقول له: بس سيادتك إدينا وقت يا أفندم وإحنا حنعمل كل حاجة وهو يقول لهم السادات حياخدكم واحد واحد وحيضيعكم واحد واحد ومتخافوش منه. ده ما يخدش قرار. ده يحاف من خياله. كان متصوراً أنني لا أستطيع اتخاذ قرار استدعيت جمعة وأبلغته لقد قررت تصفية الاتحاد الاشتراكي كله وحله وتجري الانتخابات من القاعدة إلى القمة بحيث تبدأ في مايو آخر هذا الشهر.. ويجتمع المؤتمر القومي في ٢٣ يوليو، وبوصفك أمين التنظيم، روح جهر نفسك واستغل»^(٢٦) وكانت تلك «الشوة» الديمقراطية الفائقة التي انتابت «الرئيس» من حيث لا يعلم إلا علام الغيوب بداية لعملية فرم، كما كان السادات يحب أن يقول عن فعله بمن يقف في وجهه أو يزعجه «أنا بابلي طويل صحيح لكنني أهرم في الوقت المناسب»^(٢٧) والتعبير مطابق لمقتضى الحال وصادق تماماً، فالذي «يُفرَم» لحم الصان والماتية، وفي هذا السياق، «يفرم» صاحب العزبة لحم من «يخرج من طوعه» (أي يخرج على طاعته) من أفراد القطعان التي يقتنيها، سواء كان من العامة أو من الأعوان.

وفيما يحص الأعوان، من أكبرهم، «رئيس الوزراء»، إلى أصغر ذيل من ذيل النظام، كان الرعب من غضب «الرئيس» طريقة حياة وقد بدأت طريقة الحياة هذه مبكرة، منذ طرد الرعيم الملك الفاسد، وامتلك العرب «على أن الوزارة التي دعيت للاستتراك فيها (في السابع من سبتمبر/أيلول ١٩٥٢) هي أولى الوزارات التي يمكن أن تحول الثورة التي قامت في مصر - قبل أقل من شهرين من تشكيل تلك الوزارة - من آمال وأحلام إلى حقائق وواقع فهي ليست مجرد وزارة إما هي «نقطة» في تاريخ بلدي، لن تلبث أن تكون نقلة في تاريخ العرب، وربما خطوة في طريق الإنسانية كلها^(٢٨) باعتبار أن العالم مترابط، وأن ما يحدث في جانب منه لا يلبث أن يترك آثاره وصداه في جوارب الدنيا الأخرى فلماذا إذن هذا الشعور بالإنقباض وخيبة الأمل، والملل، لعل المساومات التي شهدتها في الصباح جعلت نظرتي للأمور متسمة بالتشاؤم. فما نحن أولاء في أعقاب ثورة ضخمة، ولكننا - مع ذلك - عندما نتكلم في تأليف وزارة تبدو المطاعم الشخصية والحزبية.. حينما ندعو الناس للوزارة لا نجد مظهراً للمبادئ، وحين نتهى لتشكيل حكومة وطنية نرانا مضطرين إلى جمع عدد من الناس من هنا وهناك دون أن تربطهم علاقة من رأي، ولا صلة من جهاد سابق، بل دون أن يجلس بعضهم إلى بعض ولولمة نصف ساعة يتساءلون فيما بينهم «ماذا سيفعلون» ثم يجيبون على هذا التساؤل، ولو بكلمتين»^(٢٩)

فالمالك الجديد، وقد استولى على العزبة من المالك القديم وطرده، بدا كما لو كان قد بوغت بتلك الواقعة، واقعة كونه قد أصبح مالك العزبة. ونظراً لأنه لم يكن لديه مشروع محدد أو فكر مسبق لما يمكن أن يفعله بها، أولها، أو فيها، حيث كان كل همه فيما سبق أن يستولي عليها ويطرده مالكها القديم دون أن يمتد فكره إلى شيء مما بعد ذلك، أسقط في يده عندما وجد العزبة وقد باتت ملك يمينه، يفعل بها ويقطعها ما يشاء، ولكنه يسأل أيضاً، أمام نفسه على الأقل، عما قد يحدث لها فيفسد الغنيمة أو يضيّعها. وليس هناك ما هو أكثر مهزلية وإيلاماً للنفس من الوصف الذي يورده فتحي رضوان الذي عاش تلك المرحلة وما قبلها وما بعدها من تاريخ مصر.

«في السابع من سبتمبر/أيلول ١٩٥٢، تقرر إقالة علي ماهر (باشا) من رئاسة الوزارة التي أسندت إليه يوم ٢٤ يوليو ١٩٥٢ والثورة لا تزال في يومها الأول وكانت عقلية علي ماهر ملكية وكان الرجل بكل مكوناته وحلفائه أبعد الناس عن أن يمثل ثورة شابة خلعت الملك الذي كان علي ماهر نفسه هو الذي قام بتسريع إجراءات إجلاسه على العرش! وكان الذين حول علي ماهر، ومنهم بعض وزرائه، ممن لا يرقون كثيراً على

تشكيل حكومة ثورية

مستوى الشبهات، ولم يتمتع العديد منهم بالكفاءة التي ترشحهم لتولي مناصب الوزراء في حكومة كان عليها أن تنهي الملكية وأن تدخل في صراع سياسي واجتماعي ضد جميع أفكار ومبادئ وتقاليد المجتمع القديم الذي كان علي ماهر (باشا) واحداً من صانعيه واحداً من كبار ممثليه^(١).

«تدخل في صراع سياسي واجتماعي ضد جميع أفكار ومبادئ وتقاليد المجتمع القديم» ولكن بماذا تدخل الحكومة الثورية الجديدة ذلك الصراع؟ بأية أفكار ومبادئ وتقاليد جديدة تناقض بها القديم وتحل محله؟ هذا ما لم يتوقف عنده فتحي رضوان، وإن كان إبراهيم لكون علي ماهر باشا «أحد صانعي النظام القديم وأحد أبرز ممثليه» فيه الكفاية. فاضطرار الثورة، في اليوم التالي لحاها، إلى إسعاد الحكم لأحد صانعي النظام الذي نشبت لتقضي عليه وتحل نظاماً جديداً محله، يفصح عن أن الثورة كانت لعباً بالسماع، واستهزاءً للفرص، واستفادة من اهتراء النظام القديم الآيل للسقوط، وأنها استولت على مصر بلا أي تحطيط لأي نظام جديد ولا أي فكر يحل محل فكر النظام القديم، ولا أية مبادئ وتقاليد تحل محل مبادئه العفنة وتقاليد المهترئة

ويواصل فتحي رضوان روايته المفجعة

وفي هذا اليوم (٧ سبتمبر/أيلول ١٩٥٢، إثر إقالة/استقالة علي ماهر) كان يجري أول تشكيل وراي من نوعه فقد عانت مصر، منذ احتلها الإنجليز سنة ١٨٨٢، وكانت لجنة الوزارة والوزراء وتشكيل الوزارات وإقالتها مقصورة على الملك وعدد من رجال قصره واستمر الحال يتدهور إلى أن أصبح أحد خدمه صاحب الكلمة الأولى في إقامة الوزراء وحلها. أما في ذلك اليوم فكان يشتغل بالحكومة وسانها صباط صغار لا يريد عمر أكبرهم عن الثانية والثلاثين دخلت القاعة التي كان يشغلها رئيس مجلس قيادة الثورة، لأرى فيها مشهداً عجيباً أناس مدعوون للوزارة، وعلى وجوههم من علامات الخوف والفرع ما لم يعمل وحه مصري دعي للوزارة من قبل فقد تصوروا أنهم مقبوض عليهم! إذ إن الدعوة التي وصلتهم لم تبين لماذا دعوا إلى «مجلس قيادة الثورة المخيف». ولقد رايت أحد المرشحين متجهاً إلى القاعة ومن خلفه صباط من الشرطة العسكرية، والمرشح المسكين يتلفت حوله وكأنه يطلب العوث والنجدة فلما رأيته، وكان يعرفني، هتف باسمي، واندفع نحوي، ولولا الحياء لألقى بنفسه على صدري^(٢).

وكانت عملية الترشيح والمداولة والإتفاق في النهاية على من يُقبل ترشيحه مهزلية ومفجعة في أن معاً «فقد شهدت هذه القاعة مشهداً طريفاً حقاً (١) فعندما كانت المداولات بين الضباط، من جهة، والمدنيين من جهة أخرى، تسفر عن الاتفاق على إسم من الأسماء، يصبح على رئيس مجلس قيادة الثورة الإتصال به تليفونياً ليدعوه للإشتراك في الوزارة. وقد قام الرجل بتلك المهمة، ودعا أشخاصاً لم يكن قد سمع بأسمائهم من قبل، للإشتراك في (حكم مصر) فكان يتلقى الإسم، ثم يُطلب له صاحب الإسم على التليفون، وإذا بهم بالكلام يكون قد نسي الإسم، فيطلب أن يذكر به، فيذكر له الإسم وسط ضجيج القاعة، فلا يسمعه جيداً، فينادي من طلبه في التليفون باسم غير اسمه، فيصحح له الإسم، ويصحح هو بدوره، والمرشح الذي على الطرف الآخر من التليفون مندهش لا يدري منذ الذي يعابشه على هذه الصورة، ويحسب أن الأمر مزاح كله بينما هو، في واقع الأمر، جدّ خالص»^(٣).

جدّ مميت، في الواقع. فالحكومة التي شكّلت بهذه الطريقة الشبيهة بما يفعله المهرجون في حلبة السيرك بين فصول العرض ليضحكوا الناس ريثما يستعد اللاعبون على الحبال أو أكلوا النيران للفصل التالي، شكّلت من أولئك الناس المرتعبين مما قد يفعله بهم ضباط «مجلس قيادة الثورة المخيف»، أو المندهشين لتلك المكالمات التليفونية التي ظنوها مزاحاً عابثاً، وتألّفت من أناس لم يكن بعضهم يعرف أسماء البعض الآخر، بل لعله لم يسمع بها من قبل، وكان بعضهم، لو قيل له قبل الاشتراك فيها بنصف ساعة، أنه سيشغل بالسياسة، (حرياً بأن) يستلقي على قفاه من الضحك، بل وكان منهم من لو قيل له أنه سيشترك - مع بعض الذين زاملهم فيها - في رحلة راحة واستجمام (لا في حكومة تحكم مصر) لرفض مجرد السير معهم في الطريق كما كان منهم من دخل الوزارة لمجرد أن صديقاً (من أصدقاء الضباط) رشحه لدخولها^(٤).

وبطبيعة الحال، لم تنته - بتشكيل تلك الحكومة الثورية الأولى - عمليات الترشيح والاستبدال والإقصاء. «فالبقاء في الوزارة - خصوصاً في أوقات الأزمات - يحتاج إلى قدرة «سياسية» فلا تنفع

الكفاءة الفنية وحدها. ولا ينفع الخلق القويم وحده. فالمرونة التي ترتفع أحياناً، أو تهبط (بالأصح)، إلى الدائرة، ثم المناقشة وضبط النفس حتى لا يندفع السياسي إلى معارضة ومهاجمة كل ما لا يعجبه، قد تتحول، مع الزمن، إلى وصولية تبرر كل خطأ، وتؤيد الحاكم في كل ما يقول ويعمل ولكن الظروف، وأيضاً الحظوظ، لهما دورهما، وكلمتهما، فيما يرفع الناس وما يهبط بهم فقد يكون الفرق بين دخول الوزارة، أو دخول السجن، بل صعود درج المشنقة، مجرد حركة صغيرة، أو دخول زائر غير متوقع، أو تعطل خط تليفوني^(١١).

«ولدي على ذلك أمثلة كثيرة. فمرشح حسن الهضيبي الأول للوزارة في السابع من سبتمبر/أيلول ١٩٥٢، كان كمال الديب، محافظ الاسكندرية في ذلك الوقت. لكنه لم يدخل الوزارة لمجرد وجوده في الإسكندرية يوم تأليفها، وكان جمال عبد الناصر حريصاً على أن يتم تأليف الوزارة في تلك الليلة (حتى يستطيع الذهاب إلى السينما لأنه لم يكن قد شاهد فيلماً واحداً منذ شهرين)^(١٢) رغم أنه كان من الممكن تأليفها وتأجيل حلف اليمين بالنسبة لكمال الديب إلى اليوم التالي»^(١٣).

ولقد كان ذلك كله طبيعياً ومتماشياً مع منطق الأشياء فالثورة قد «أمسكت» العزبة، بالتعبير الذي استخدمه الضباط دائماً، وأمنتها كعزبة خاصة وذلك - من مبدأ الأمر كان الهدف، وقد تحقق. أما من يستخدم كخولي زراعة في العزبة لـ «يمسك» مسائل العلف (وزارة التموين) أو تدريب صغار القطعان (وزارة التربية)، فمسائل ثانوية. وهكذا «استمر اختيار الوزراء وأشباههم من (المسؤولين) للمصادفات»^(١٤) وقد لا يكتمل الكلام إلا إذا ذكرنا مستشاري الرئيس جمال. فالناس كانوا يحكمون على الأمور بظواهرها، فيظنون، مثلاً، أن السيد حسن صبري الخولي، «ممثل الرئيس الشخصي»، هو واحد من أقرب الناس إلى الرئيس، ومن أكثرهم تردداً عليه واختلاطاً به. لكن الواقع كان أبعد ما يكون عن هذا التصور الذي له ما يبرره تماماً. فقد قال الأستاذ حسن صبري الخولي نفسه لصديق مشترك اعتاد أن يفضي إليه بمتاعبه: «هل تصدق أنني لم أر جمال عبد الناصر على انفراد، خلال أكثر من عشر سنوات، إلا مرتين فقط؟ وكأنت مقابلتي له على هذه الصورة في المرتين بناء على طلبي، أما فيما عدا هاتين المرتين، فقد كنت أقابله مع غيري من الزائرين الكبار» وقد قال «مستشار» آخر للرئيس، هو السيد حسين ذو الفقار صبري، لنفس الصديق، وكان حسين قد نقل من منصب وكيل وزارة الخارجية إلى منصب مستشار الرئيس للشؤون الخارجية، وكان قد انقضى على تعيينه بهذا المنصب أكثر من تسعة أشهر: «السؤال الوحيد الذي وجهه إليَّ الرئيس جمال هو سؤاله عن صحتي، حينما التقينا، مصادفة، في حفلة زفاف ابنة أحد كبار الضباط. وأراد الرئيس أن يمر حول مائدة الشاي لسبب ما، وكنت على رأس المائدة، وكان المكان ضيقاً، فالتقي وجه الرئيس بوجهي، فقال لي: إزيَّ صحتك يا حسين؟»^(١٥)

(*) أنظر الهامش رقم (١١).

ليست الديكتاتورية داء طارئاً من ادواء العالم الحديث. فالديكتاتور أو «الطاغية» (Tyrant) بلاء عرفه اليونان والرومان في العالم القديم إلا أن الطغاة في العالم القديم كانوا يعطون سلطاتهم الشمولية لفترات محدودة تحت ضغط ظروف استثنائية واستجابة لحالات طارئة. وفي حالة اليونان، كانت لفظة «طاغية»، أصلاً، لفظة محايدة تعني أن من تطلق عليه رجل استولى على السلطة وحارها بغير حق دستوري مشروع (على العكس ممن ينصب ملكاً، على سبيل المثال)، ولم تكن تعني الحكم على نوعيته كشخص أو كحاكم والواقع أن الطغاة اليونان تباينوا كثيراً، فبعضهم، كبيسيستراتوس في أثينا، حكم حكماً خيراً واحسن سياسة أمور المدينة، فوضع حداً للحرب الأهلية، وساعد على حل المشكلات الاقتصادية وتقدم مدينته في مجالات عديدة «إلا أن السطوة العسكرية غير المتحكم فيها كانت الشر المستطير الذي كمن في بنية تلك النظم الديكتاتورية، وحيثما لم تظهر آثاره في الجيل الأول، تبدت واضحة في الجيل الثاني أو الثالث مما انتهى بالطغاة عادة إلى حيث أصبحوا مستحقين للمعاني التي تنطوي عليها اللفظة الآن»^(١).

ونحن هنا نتحدث عن «دولة المدينة» اليونانية، في تلك الأزمنة البعيدة، لا عن دولة كمصر تتقاذفها الأنواء وتهدد بابتلاعها مياه القرن العشرين في نصفه الثاني المخيف.

ولربما بدأ جمال عبد الناصر - وهو الوطني الذي لا شك في وطنيته - خيراً، وبدأ غير راغب في أن يتحول إلى طاغية معاصر، إن لم يكن لشيء فلعلمه بمدى قدراته وضالّة معارفه في مواجهة المهمة التي تنوء بها الجبال - مهمة إقالة مصر من عثرتها، وإخراجها مما أوصلها إليه العهد الملكي الفاجر. إلا أن الذي حدث - والعبرة دائماً بالخواتيم - أنه، بحكم استعداداته الشخصية، وبفضل جبن المحيطين به وخنوعهم وغشم معاونيه الأقربين من الضباط الذين حملهم إلى السلطة معه، وتملق المنتفعين وتآليههم له، وجد نفسه في النهاية وقد تأله فهو يقول للشيء (في العزبة) كن فيكون، ويفعل بقطعانها ما شاء وقت شاء كيف شاء، بلا معارضة ولا حساب، ويفعل بمن وضعهم حوله في وضع «خولي الزراعة»، من وزراء ومسؤولين، ما شاء وقت شاء وكيف شاء، فلا يترتب على ما يفعله بهم أو ما يعاملهم به من استهانة وازدراء أي رد فعل، لا من جانبهم، ولا من جانب «صناع الرأي» و«الحكماء» (فقائيع القاموس الساداتي)، وبكل تأكيد من جانب القطعان «وما دام النظام الديكتاتوري تحكمه أسود مهيبة وتسامخة، فمن الطبيعي أن يكون هناك، على الطرف الآخر، فئران - وإلا فعلى أي شيء يستأسد الأسد»^(٢).

وبطبيعة الحال، تظل غريزة البقاء أقوى غرائز الكائن الحي. فالجرذان تهرب من القطط، فما بالك بأسد مفترس غير أن غرائز الحيوان تعدلها وتكيفها أدمية الإنسان فحب البقاء لدى الإنسان يظل - ما لم ينحط الإنسان إلى مستوى السائمة - مرتبطاً بالعقل، وبالصمير، وبالروح. والعقل وحده، حتى مع استبعاد الصمير والروح، حري بأن يوقف من لم يتخل عنه على أن اللوذ بجحور الجرذان ليس ضمانة البقاء، وأن التفريط في كل الحقوق طلباً للبقاء (أي النجاة من وحشية الحاكم الفرد أو الطاغية/الآله) يؤدي إلى عكس المقصود منه تماماً، فيتهدد الفرد المتنازل المستسلم، والشعب المتنازل الخانع، في بقائه ذاته، فيكون الفرد أو الشعب قد تنازل عن أدميته وتحول إلى جرد ليبقى، فحكم على نفسه بالفناء.

ولقد تركنا الرئيس جمال عبد الناصر، في آخر الفصل السابق، وهو يلتقي بمستشاره لشؤون السياسة الخارجية حسين ذو الفقار صبري، صدفة، في حفل زفاف كريمة أحد كبار الضباط، فيسأله عن صحته الغالية، ويكون ذلك هو السؤال الوحيد الذي يوجهه إلى مستشاره خلال الأشهر التسعة التي انقضت بين تعيينه في المعية الرئاسية و ليلة ذلك الزفاف الميمور فمن كان «الرئيس» يستشير في شؤون السياسة الخارجية لا بد أنه كان يستشير الدكتور محمود فوزي. لكن هذا ما يحكيه فتحي رضوان .

• حدث أثناء انعقاد اللجنة (التي كانت تناقش بيار الوحدة مع سوريا) وكان معنا بعض الموظفين المصريين في رئاسة مجلس الوزراء ووزارة الخارجية، أن دفع باب الغرفة التي كنا مجتمعين فيها برفق، وظهر من خلف الباب الدكتور محمود فوزي، وزير الخارجية المصرية، فلما رآنا أغلق الباب بسرعة وكأنه أتى أمراً

إدارياً (مستنكراً) " وكانت هذه الحركة من جانب الدكتور فوزي كافية لأن تثير عفيف البردي - وكان على ما أذكر قائد الجيش السوري ووزير الحربية سوريا - فقد صرح «كيف كيف سيدي» وزير الخارجية المصرية يتحرج من أن يدخل عليا وأن يسألنا إلى ما وصلنا ويمسحنا بعض توجيهاته» اليس دوبان بلده في كيان أكبر عملاً من أخص اختصاصات الخارجية» ما يبيح هدا» . فرد عليه البيطار قائلاً «ولكن الدكتور فوزي يعلم أن المجتمعين شكلوا لجنة رباعية لوضع البيان، فلا يحور له أن يقحم نفسه على هذه اللحنة» (وهذا كلام سليم. فالدكتور فوزي لم يكلف بالإشتراك في اللجنة، رغم أن العملية من أخص اختصاصات وزارته، بل كلف بالاشتراك فيها فتحي رضوان وعلي صبري، ولم يحضر علي صبري) . وكان ذلك داعياً لأن يترك البيان لفترة غير قصيرة لمناقشة شخصية الدكتور فوزي وقد انضم إليها في الحديث الموظفون العيون الدين كانوا معنا في الحجرة، وقد بدأوا الحديث أول الأمر على استحياء، ثم لما اطمانوا إلى أن أحداً لم يسمعهم، أقاموا في الحديث عن أسلوب الدكتور فوزي وخطته. وذكروا أنه ترك وزارة الخارجية للسيد حسين ذو الفقار صبري - وكيلها - وأنه تقريباً لا يأتي إلى مكتبه، وأن سكرتيه الخاص نقل في إحدى حركات التنقلات دون أن يعرف الدكتور فوزي فضلاً عن أن يستأذن في ذلك» (١٧)

والمعروف الآن مما كتب عن تلك الفترة من تاريخ العزبة أن الدكتور فوزي كان رجلاً حصيفاً، وأنه بقدر ما استطاع تباعد - لئلا يدهمه قطار أو تصبه قذيفة، فوق أن أحداً لم يسأله. فالزعيم كان «رأيه من دماغه» كما يقول المصريون. ومعارضته وإزجاء النصيح إليه مجازفة حمقاء يمكن أن تترتب عليها عواقب وخيمة

ومنذ البداية، اتضحت آثار كل ذلك جلية فقد اجتمع فقر الخلفية الثقافية، وانعدام الفكر وراء حركة الاستيلاء على السلطة، والعنجهية العسكرية التي تتعامل مع الأشياء والناس من فوهة المسدس، والشعور بالسطوة التي لا تحد أثر الاستيلاء على العزبة واعتبارها غنيمة حرب والاستغناء عن الرأي والاستعلاء على المشورة، ومن جماع كل ذلك ارتكبت الثورة أول أخطائها المميتة . استجارت من رمضاء الاحتلال البريطاني ووعثاء النظام القديم المتحالف مع ذلك الاحتلال، بنار أميركا. ومن وجهه بعينه، يمكن القول أن تاريخ ثورة ٢٣ يوليو تألف من سلسلة من الأخطاء نبعت كلها من تلك «الخطيئة الأصلية»، إن صح التعبير، خطيئة جعل مصر تقفز من المقلاة إلى النار، أي إلى حضن أميركا، وما ترتب عليها من تخبط - عندما بدأت أميركا تطالب النظام بسداد ديونها في عنقه - بين أرجل القوى العظمى، والارتقاء لوقت في حضن أفطع من حضن أميركا، هو الحضن السوفياتي، الذي ما لبثت أن خرجت مولولة منه لتعود فترتمي - لا في حضن أميركا هذه المرة - بل تحت قدميها، وبالتبعية تحت قدمي إسرائيل.

عندما خطط جمال عبد الناصر لحركته، وبعد أن نجحت الحركة واستولت على الحكم، ظل التفكير السياسي لعبد الناصر منحصرأ في بريطانيا. وبطبيعة الحال، كان لذلك ما يبرره - سياسياً ووطنياً. فبريطانيا كانت القوة الأجنبية التي احتلت مصر عسكرياً منذ ١٨٨٢، وعاش في حماها وبالتواطؤ معها النظام القديم الذي نشأت الحركة أصلاً لتنتزع السلطة منه، ومارس فساداً وطفغاناً ما من شك في أنه كان من مصلحة الدولة القائمة بالاحتلال أن تغض الطرف عنه، بل تشجعه وتحميه. وفي أواخر أيام ذلك النظام، كانت مصر تدار علانية وصراحة من دار المندوب السامي البريطاني.

لكن المشكلة، فيما يخص الفكر السياسي للثورة وما تسبب فيه قصور ذلك الفكر، أن التركيز - فيما يخص وضع مصر في عالم معقد متراكب المؤثرات متداخل المطامع والصراعات - انحصر في بريطانيا، وتوقف عندها، كما لو كانت هي كل المشكلة، رغم أن بريطانيا، عندما نشبت الثورة في سنة ١٩٥٢، كانت قد فقدت مكانتها الإمبراطورية القديمة، وتخلت عن معظم دورها في العالم للولايات المتحدة الأمريكية.

والمشكلة الأخطر أن الافتقار إلى فكر سياسي ومستنير لم يكن كل السبب فيما لا سبيل إلى تسميته إلا بخوان أو وسواس عبد الناصر البريطاني. ولعل أنور السادات، في كتابه «قصة الثورة» الوحيد من اللصيقين بعبد الناصر الذي ألقى بعض ضوء - غير مقصود في الواقع - على خلفية ذلك الخوان الذي بدا دائماً كحزاة شخصية بأكثر مما تحدد كموقف سياسي. والحكاية التي رواها السادات في كتابه

من الرمضاء إلى النار

القديم ذاك الذي ألفه ونشره في ظل عبد الناصر، وعلقت معه تلك الحكاية بالذاكرة، أنه زامل عبد الناصر في مستهل الحياة العسكرية بمعسكر من معسكرات الحيش ببلدة مقياد بالصعيد، كان قائده وكبار ضباطه من الإنجليز، وأن ذلك القائد أمر عبد الناصر ذات ليلة بالحروح من «ميس» الضباط بالمعسكر لأنه لم يظهر بالمظهر الذي كان قائد المعسكر يعتبره لائقاً ويطيل السادات في كتابه وصف الليلة الليلية التي قضاها عبد الناصر تحت بخلة أو شجرة في أرض المعسكر وهو يغلي من الإهانة التي لحقت به على يد ذلك الضابط البريطاني المتعريف، متسائلاً المرة تلو المرة «بلد من هي».

ومن كل ما كتب عن عبد الناصر، وكل ما اتضح من تصرفاته السياسية والداخلية، كان الرجل رحمه الله يتمتع بكبرياء عارمة مفرطة في الحساسية والذي لا شك فيه أن مثل هذه المعاملة المتعرفة المتعالية من ضباط أجانب (أو حتى غير أجانب، فيما يتضح من مشكلة «نادي الضباط» وحسين سري عامر) كانت ذات أثر بالغ العمق طويل المدى في تشكيل اتجاهاته ومواقفه وضروب كراهياته. ولقد بدا دائماً في كل تصرفات عبد الناصر وخطبه ومواقفه كما لو كان قد تصرف حيال بريطانيا بالذات بقدر من الكراهية والضغينة جعله شبه مُصرٍّ على استفزازها وتحقيرها كدولة وأمة، حتى ولو على حساب ما تقتضيه متطلبات الحكم والديبلوماسية في مجالات التعامل بين الدول، وإصراره على تغييرها بأنها «الدولة الذليل».

وعبد الناصر، كأبي مصري وطني آخر، لا يلام على تلك الحزاة المبررة تجاه دولة أحبية احتلت بلده وعاملته كمستعمرة واستغلته في السلم والحرب على السواء بقدر كبير من الاستهانة والعجرفة

«ولقد بلغت أهمية مصر بالنسبة للاستراتيجية البريطانية حداً جعل ويستون تشرشل يأمر، في سبتمبر/أيلول ١٩٤٠، ولم تكد تنقضي ثلاثة أشهر على دبرك، والحيوش الألمانية تحشد لغزو بريطانيا، بإرسال تعزيزات، تضمنت أعداداً من الطائرات، أحدث من القوات المدافعة عن الحرر البريطانية، إلى مصر عملاً على الاحتفاظ بمصر وقناة السويس فلقد كان بالوسع التصحية بسعافورة، مثلاً، أما مصر فلم يكر من الممكن التحلي عنها.

«وكانت القاهرة مدينة مشغولة بالنور تصبح بالحركة والنشاط، توافرت فيها كل ما يتطلبه جيش حديث من خدمات للقوات البريطانية، والاسترالية، والهندية، وقوات كينيا، وسيوريلندا، وحسب إفريقيا التي احتشدت فيها. وكان الضباط السادة (Officers and Gentlemen) الذين قادوا تلك القوات الصحة يستقنعون في القاهرة بالأنبذة، والكافيار، وطيور الصيد، وقاعات القمار، وحلبات سباق الحيل، وملاعب الهولو، وكذا بصحة أعداد كبيرة من الصحفيين والساسة والممثلين والممثلات من فرق الترفيه التي كانت تتوافد على مفترق الطرق الإمبراطوري ذاك، مما جعل الحرب أكثر قابلية لأن تطاق

«ولقد كان أمراً طبيعياً بالنسبة للبريطانيين أن يعاملوا الحكام الإسلاميين التقليديين كامراء نيحيريا الشمالية، وأمراء السعودية، وسلاطين الملايو، معاملة متصفة بالإحترام أما مصر، فعلى العكس من ذلك، أدى الاعتقاد على الخنوع للحكم الأجنبي منذ آلاف السنين، والاستعداد للإنحناء، والرفض غير المتعقل - فيما رآه البريطانيون - من جانب القيادات الوطنية للقبول بواقع القوة، وميل الملك والقادة السياسيين إلى التآمر والغدر، إلى جعل كثيرين من البريطانيين يعاملون المصريين بإدراء فبالنسبة إليهم لم تكن مصر بلداً حليفاً في الحرب، إذ لم تعلن مصر الحرب إلا في فبراير/شباط ١٩٤٥، عندما بدا واضحاً من الذي سيكون الرابع المنتصر فيها، بل طلت مجرد تابع وخدام. وبالنسبة لمعظم المصريين، ظلت بريطانيا قوة احتلال مكروهة متصفة بالعجرفة، وبذا كان عدم الاكتراث لما قد تنتهي إليه الحرب الناشئة بين القوى الأوروبية موقفاً طبيعياً ومعقولاً فيما يخصهم»^(٦٧)

وقد وصل ذلك الإزدراء لمصر إلى ذروته في أحداث ٤ فبراير/شباط ١٩٤٢ المشهورة، التي يقول نفس المرجع البريطاني أن :

«مايلز لامبسون تصور أنه حل مشاكله المباشرة، لكنها، كحفلة الإعدام والجلد العلنية في دشواي، كان مقدراً لها أن تؤدي إلى جعل المواجهة التالية بين الإمبريالية البريطانية والوطنية المصرية أشد قسحاً من كل ما سبقها. وقد كتب ضابط مصري شاب كان قد عاد لتوه من الخدمة بالسودان، وهو الملازم جمال عبد الناصر، في رسالة إلى صديق له، قائلاً عن أحداث ٤ فبراير/شباط هذه : «ما الذي يمكن عمله الآن وقد حدث هذا وتقبلناه باستسلام وخنوع؟ . إنني مؤمن بأن الاستعمار، إذا ما شعر بأن بعض المصريين على استعداد فعلاً للتضحية بحياتهم ومقابلة القوة بالقوة، سوف يتراجع كعاهرة»^(٦٨).

فعبد الناصر، الضابط المصري، ابن الشعب، الوطني، الشاب، لم يكن يلام - كالألاف، بل الملايين غيره

من المصريين - على رفضه لكل ذلك الخنوع والاستسلام. ولم يكن يلام على تمرده على النظام القديم العفن الذي حكم في حمى الاحتلال وبفصل ذلك الخنوع والاستسلام. ومما يشرف عبد الناصر أنه كان - كمصريين كثيرين غيره - على استعداد للتضحية بالحياة إنقاذاً لمصر مما كانت فيه لكنه لم يكن مما يخدم مصر وينقدها أن يتصدى عبد الناصر لمشكلتها المخيفة المتمثلة في الضعف والتخلف والفساد في العالم الغابة، ويتصدى لقيادتها عبر مخاضات العصر، بفكر منحصر في بُعد واحد من أبعاد عديدة متداخلة متشابكة، محاصر بحزازة منغلقة على ذاتها وجدت لها منطلقاً في توجّهات كانت - رغم عشوائيتها المرتبكة وقيامها على أسس عاطفية - مفصية إلى نتائج اعتبرت منجزات ضخمة.

وفيما يتعلق بالجلاء عن مصر، كانت تلك عملية من عمليات تصفية الأوضاع الإستعمارية القديمة وإخلاء الساحة أمام الامبراطورية الأميركية الصاعدة. فعندما تولّت حكومة العمال الحكم في بريطانيا بعد أن أحال الشعب البريطاني وينستون تشرشل إلى بدايات الاستبداد السياسي، تمسكت بريطانيا بوجوب إنهاء الوضع الاستعماري القديم في سوريا ولبنان، بالاستقلال عن فرنسا، وفي مصر، بإجلاء القوات البريطانية التي كانت متواجدة إلى برقة، ليبيا. وكانت بريطانيا تتطلع إلى وضع ليبيا تحت وصايتها عن طريق الأمم المتحدة، معتمدة على العلاقات الطيبة التي كانت قد أقامتها مع أسرة السنوسي أثناء لجوء تلك الأسرة إلى مصر إبّان الحرب. وعندما فشل مشروع الوصاية على ليبيا، بفضل المناورات الأميركية في الأمم المتحدة، اتجه تفكير أرنست بيفن، وزير خارجية حكومة العمال، إلى إجلاء تلك القوات من مصر إلى فلسطين، التي كانت ما زالت تحت الإنتداب البريطاني، وإلى أماكن أخرى كقبرص، ومالطة، في البحر الأبيض المتوسط، وشرق الأردن وعرش، في الأراضي العربية. وفي مايو/أيار ١٩٤٦، أعلن بيفن في مجلس العموم أن الحكومة البريطانية مستعدة لسحب القوات التابعة لها من مصر، حتى بدون الاتفاق مع الحكومة المصرية على أية ترتيبات مستقبلية تكفل الدفاع عن أمن المنطقة، مستعيضة في ذلك بتمركز قوات بريطانية في بلدان أخرى بديلة وكان أن هبّ وينستون تشرشل، الذي كان قد بات رئيساً للمعارضة، للقيام بدوره القديم الذي كان العصر قد تخطاه: دور المدافع عن بقاء الامبراطورية، فاشتبك في ساحة مجلس العموم، في شجار برلماني حاد مع أرنست بيفن، أخذ كل منهما، في غماره، يهز قبضته في وجه الآخر، بالخلاف لاسلوب التعامل البريطاني. غير أن بيفن فشل في تحقيق ما كان يرجوه من الاتفاق الذي عقده مع إسماعيل صدقي (باشا)، رئيس وزراء مصر، في أكتوبر/تشرين الأول ١٩٤٦، والذي تعهد بموجبه بسحب القوات البريطانية من المدن المصرية الرئيسية بحلول مارس/آذار ١٩٤٧، وسحبها من منطقة القناة بحلول سبتمبر/أيلول ١٩٤٩. ففي مصر، عارض حزب الوفد الاتفاق باعتباره منقوصاً، وتمسك بأن يشمل الإنسحاب خروج القوات البريطانية من السودان وأن يُعترف بملك مصر ملكاً على مصر والسودان. ولما عجز صدقي (باشا) رحمه الله، عن الوفاء بالمطلبين، رفض البرلمان المصري التصديق على اتفاق صدقي/بيفن، واضطر صدقي إلى الاستقالة. وأثر ذلك، سحب البريطانيون قواتهم من المدن المصرية، وركزوا تلك القوات في منطقة القناة. إلا أنه بدلاً من أن يلتزم البريطانيون بنص معاهدة ١٩٣٦ الذي قضى ألا يتجاوز عدد جنودهم المتواجدين على الأراضي المصرية عشرة آلاف جندي، حشدوا في منطقة القناة ثمانين ألفاً من الجنود.

وبقية القصة ما زالت ماثلة في الأذهان، وبخاصة عملية دفع عساكر الشرطة المساكين بثيابهم المهلهلة وبنادقهم العتيقة، باسم الوطنية، إلى مذبحه قال البريجادير إكسهايم، قائد القوة البريطانية التي اشتركت فيها أنها «كارثة»، أشبه بإطلاق النار على سرب من البط قاعد في برزكته، يوم «السبت الأسود»، ٢٦ يناير كانون الثاني ١٩٥٢، الذي أعقبها، وعرف بيوم حريق القاهرة.

إلا أن غير المعروف وراء كل ذلك - ويبدو من تسلسل الأحداث أنه كان غير معروف ولا متصور، بوجه خاص، لدى الضباط الأحرار الذين أخذوا على عواتقهم تخليص مصر مما كانت فيه - أن وزارة العمال البريطانية التي تولّت الحكم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية لم تكن وزارة خيرية أخذت على عاتقها تحرير الشعوب المحتلة في الشرق الأوسط من الاحتلال البريطاني والفرنسي، وأن أرنست بيفن لم يكن محسناً كبيراً. فتلك كانت مرحلة تغير رئيسي في «تنظيم» العالم بعد تغير أوضاع القوى الكبرى. ولقد كان

المؤشر الأول على ذلك، «ميثاق الأطلسي» الذي صدر على شكل بيان مشترك إثر اجتماعات مطولة عقدت على ظهر السفينة الحربية الأميركية «أوجسطا»، والسفينة الحربية البريطانية «هرينس أوف ويلز»، بخليج أرجنتيا، بنيوفاوندلاند، خلال الفترة من ٩ إلى ١٢ أغسطس/ آب ١٩٤١، قبل دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية بشهور، بين الرئيس الأميركي فرانكلين روزفلت، ورئيس الوزراء البريطاني وينستون تشرشل واتفقت فيه الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى على ما يلي بين ما اتفقتا عليه من مبادئ أخرى تضمنها الميثاق

١ - تعلن كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية تخليهما عن الاتجاهات التوسعية الإقليمية وغير الإقليمية

٢ - تلذان تأييدهما لحق الشعوب في اختيار نظم الحكم الخاصة بهما.

وبطبيعة الحال، لم يكن «ميثاق الأطلسي» تعبيراً عن غيرة الولايات المتحدة وبريطانيا وتجسيدا لرغبة مصاعاة حارة انتابت روزفلت وتشرتشل لمنح البلدان غير المستقلة استقلالها، بل كان رسماً كروكياً للمستقبل ما لبثت خمس عشرة دولة من الدول المشتركة أنضت في محاربة ألمانيا وإيطاليا، على رأسها الاتحاد السوفياتي، أن أيدته. وقد تجسد جوهر ذلك الإعلان عن «شكل الأشياء القادمة»، واتخذ شكله النهائي في «إعلان منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة» الذي أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة في ديسمبر/ كانون الأول سنة ١٩٦٠ تنفيذاً لما نص ميثاق المنظمة الدولية عليه من «الحقوق المتكافئة وحق تقرير المصير لكل الشعوب».

ولقد كان ذلك كله، ابتداء من «ميثاق الأطلسي»، إلى «ميثاق الأمم المتحدة»، إلى «إعلان منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة»، بمثابة تقنين دولي للتغير الذي ترتب على خروج الولايات المتحدة الأميركية منتصرة، من الحرب العالمية الثانية، على الحلفاء قبل الأعداء، وتربّعها على قمة عالم خرجت أمبراطورياته القديمة من الحرب محطمة مهلهلة ومفلسة، وتمتعت الولايات المتحدة فيه بوضع القوة الرئيسية الأعظم والأثرى والأقوى، بغير منافس إلا الاتحاد السوفياتي.

وكان الوضع الذي اتخذته الولايات المتحدة في ذلك العالم وضعاً جديداً في العالم الحديث، لم تكن له سابقة في العالم القديم إلا الأمبراطورية الرومانية، وهو وضع حلت فيه محل الأمبراطوريات الأوروبية القديمة في إدارة شؤون العالم ومحاولة تشغيله لحسابها بغير حاجة إلى الإحتلال العسكري الاستعماري القديم، مستعيضة عن ذلك الإحتلال الأجنبي للمستعمرات بإحتلال «أقاليم الأمبراطورية»، إحتلالاً داخلياً بالوكالة عن طريق النظم «الوطنية» الحاكمة والقوات العسكرية وقوات الأمن التابعة لتلك النظم.

غير أن كل تلك التغيرات في أوضاع الكوكب والقوى المسيطرة عليه كانت أبعد ما تكون عن اهتمامات ضباط شباب لم يكونوا، فيما بدا، يرون أبعد من مشكلة نادي الضباط، والعساكر الإنجليز في منطقة القناة.

ولنصغ إلى ما رواه محمد حسنين هيكل في كتابه «عبد الناصر - وثائق القاهرة»، وقد استخدمنا نسخته الفرنسية التي خاطب هيكل من خلالها العقلية الأوروبية متحرراً من أية محاذير قد تكون مارست «الرقابة الذاتية» باللغة العربية.

«في ليلة الثورة، بعث قائد المعسكرين، الرئيس عبد الناصر والملك فاروق، رسلاً إلى السفير الأميركي جيفرسون كافري فلقد كان من الممكن، كما هو واضح، أن يتدخل الجيش البريطاني المتواجد بمنطقة القناة، لصالح النظام القديم، وكانت لذلك التدخل المحتمل سابقة، نظراً لأن الإنجليز كانوا قد بحثوا جدياً مسألة التدخل من عدمه، بمناسبة حريق القاهرة الذي كان قد وقع قبل خمسة أشهر فقط من الإقلاّب (وقد استخدم هيكل هنا، في النص الفرنسي لفظة «الإقلاّب» لا لفظة الثورة، وهو ما لا يمكن أن يفعله في نص عربي)، وكان سير رالف ستيفنسون، السفير البريطاني وقتها، ضد التدخل، بينما كان الجنرال أرسكين راغباً فيه، وفي النهاية، لم يتدخل الإنجليز. غير أن فرصة جديدة للتدخل كانت قد أتت لهم، في هذه المرة (ليلة الثورة) وكان على الرئيس عبد الناصر أن يأخذها في الحسبان. وهكذا فإنه اتخذ كل الاحتياطات العسكرية بأن بعث بلواء كلف بقطع طريق السويس، كما ارتجل خطأ دفاعياً، ووضع عدداً من القوات كاحتياطي للتصدي لأي هجوم محتمل من جانب البريطانيين.

«غير أن الأمر كان يتطلب جهداً سياسياً يتواءم مع الإحتياطات العسكرية. فقد أراد ناصر أن يعرف العالم أن الثورة مسألة داخلية لا تخص إلا المصريين وأنها لن تؤثر على مصالح الأجانب الذين يعيشون في مصر أو تمس سلامتهم. وكان ذلك السبب في أنه قرر، في يوم الانقلاب، في الساعة الثالثة صباحاً، أن يبعث برسالة إلى السفير الأميركي يشرح له فيها أهداف الثورة

«إلا أن المشروع اعترضته عقبة غير متوقعة. فلم يكن أحد من الضباط الشباب (القائمين بالحركة) يعرف كافري، وقد بدت صعوبة توصيل رسالة كهذه إليه في ساعة متأخرة كهذه جلية للجميع، كما بدا أنه سيكون من الصعب أيضاً أن يصدقها. وإذا قال علي مصري أنه على معرفة بالملحق الجوي الأميركي، فكان أن أركب بسرعة في سيارة انطلقت به إلى منزل الملحق، وبعدها بنصف ساعة كانت رسالة عبد الناصر التي شرح بها موقف الثورة وكونها قضية داخلية ودعا فيها إلى تحذير البريطانيين من التدخل، في يد المستر كافري»^(١).

والطريقة التي يطرح بها هيكل - الصحفي المتمرس في مجال «تلوين» و«تميل» (Slanting) الأخبار ذلك الاتصال الاستهلاكي بأميركا، توحى بأن الغرض منه كان «جهداً سياسياً يتواءم مع الإحتياطات العسكرية» التي اتخذها عبد الناصر لتأمين حركته من تدخل البريطانيين بجزء أو بكل قواتهم التي تجاوز عددها ٨٠ ألفاً من قواعدهم القريبة من القاهرة بمنطقة القناة. وهذا، كما هو واضح طرح يجب التوقف عنده والتفكير فيه. فلواء واحد من ألوية الجيش المصري لم يكن قادراً، بمساعدة عدد من عساكر الخط الدفاعي المرتجل، على صد هجوم بريطاني متصف بالتصميم، لو كان الجنرال أرسكين قد تلقى تعليمات من حكومته بالتدخل. وبذلك فإن الحماية الحقيقية للثورة في ليلتها الأولى جاءت من الولايات المتحدة، وحكومة الولايات المتحدة كانت الجهة الوحيدة في هذا العالم الواسع القادرة على أن تكف الحكومة البريطانية عن إصدار تعليمات لأرسكين بالتدخل عسكرياً لضرب حركة عبد الناصر واجتثاثها بحمام دم صغير. ولقد كان ذلك التدخل الأميركي لدى بريطانيا منعاً لها من التدخل لصالح فاروق، أمراً متماشياً مع طبائع الأشياء في سياق العلاقات الجديدة التي كانت أخذة في التشكل والاتضح في مجال الإدارة الكوكبية لشؤون عالم ما بعد الحرب بين الولايات المتحدة وحلفائها السابقين من البلدان التي كانت تقوم بإدارة شؤون عالم ما قبل الحرب عن طريق أمبراطورياتها التي كان خروج أميركا من تلك الحرب وهي في وضع القوة الأعظم الرئيسية إيذاناً بأفولها. وفي مصر كان القرار الأميركي بعدم التدخل لصالح النظام القديم، ذلك القرار الذي انصاعت له الحكومة البريطانية بلا تملل ولا مناقشة فيما بدا من همود قواتها ليلة الثورة، بداية لعملية تصفية الأمبراطورية البريطانية في ذلك الجزء من العالم، وتسليم المفاتيح للامبراطورية الأميركية.

وبفضل الإفتقار، إن كان الإفتقار يمكن أن يتمخض عن فضل، إلى الوعي بحقائق العصر و«حساباته المعقدة» التي قال السادات أنه ظل يخشى منها على عبد الناصر، كان ذلك البعد الإمبراطوري الأميركي غائباً تمام الغياب من أذهان الضباط الذين تصدوا لقيادة مصر، بل ولقد ظل غائباً من أذهان من «تخصصوا» منهم في شؤون السياسة الخارجية. ولنصغ مثلاً إلى محمود رياض، الذي تحول من ضابط مخابرات، إلى سفير، إلى مستشار للشؤون السياسية لعبد الناصر، إلى مندوب دائم لمصر في الأمم المتحدة، إلى وزير خارجية، وشغل ذلك المنصب الأخير منذ أوائل ١٩٦٤ إلى سنة ١٩٧٢ :

«كانت هناك أسباب للتوتر بين العالم العربي وبين الدول الغربية الكبرى (يعني الدول الأوروبية الكبرى) منذ مطلع القرن التاسع عشر، بسبب أطماع هذه الدول واحتلالها لأكثر البلاد العربية»^(٢).
(و«أطماع الدول الأوروبية الكبرى واحتلالها البلاد العربية» تعني «الوجود الإمبراطوري لتلك الدول، بشكله القديم القائم على الاحتلال العسكري المباشر لمعظم البلدان العربية»)
«وقد ظلت الولايات المتحدة، حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، بمنأى عن هذا الصراع، مستغرقة في بناء مجتمعتها وفي تطوير هويتها الوطنية، وتدعيم وحدتها والسيطرة على أراضيها المترامية الأطراف الحافلة بأسباب الثروة والنماء»^(٣).

وهذا، مع كل الاحترام الواجب لعلم وزير الخارجية السابق وإمامه بالتاريخ، مخالف للحقيقة كثيراً، ويبدو أن الوزير عندما كتبه فانتته السنوات منذ ١٨٥٠ إلى ١٩٤٥، وفاته «قدر أميركا الجلي» الذي بدأ يتضح بعد أن استكملت «تدعيم وحدتها والسيطرة على أراضيها المترامية»، بإعلان الاتحاد وشراء لويزيانا وضم تكساس ونيو مكسيكو وأوريجون وكاليفورنيا، واقتراش أرض القارة الشمالية من أقصاها

إلى أقصاها في القرن الماضي، لا في هذا القرن كما قال محمود رياض، وخروجها إلى العالم كقوة إمبراطورية صاعدة منذ سنة ١٨٩٨. فورير خارجية مصر تصور أن الولايات المتحدة ظلت بمنأى عن الصراع الإمبراطوري رغم أن صعود الولايات المتحدة وروسيا كقوتين إمبراطوريتين عالميتين في أواخر القرن الماضي كان بمثابة البداية الحقيقية للمرحلة الخطرة من السياسات العالمية التي بلغت ذروتها بخروج الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي من الحرب العالمية الثانية كأكبر قوتين إمبراطوريتين متنافستين على سيادة كوكب الأرض ومن خلال ذلك التصور المغلوط لوقائع التاريخ الحديث وما أدى إليه من عدم فهم تاريخ العالم الذي نشبت فيه ثورة ٢٣ يوليو و«حساباته المعقدة»، استطرد الوزير قائلاً، (رغم كل مغامرات الولايات المتحدة الاستعمارية منذ ما قبل منتصف القرن التاسع عشر)

وبالتالي، فلم يكن لها (للولايات المتحدة) مطمع عسكري أو اقتصادي دولي في المنطقة العربية، مما استتبع أن العرب ظلوا رديحاً طويلاً من الزم يتطلعون إلى الولايات المتحدة باعتبارها قوة دولية غير استعمارية لعلها تعيهم في مصالحهم الدامي للتحرر من يدي الاحتلال الأوروبي وخاصة بعد أن أعلن الرئيس الأميركي ويلسون، إثر الحرب العالمية الأولى، مبادئه القائمة على حق الشعوب في تقرير مصيرها^(٧٢)

ومن الواضح أن وزير الخارجية خلط هنا بشكل غير مفهوم بين الفقرة ٢ من المادة الثمانية من ميثاق الأمم المتحدة الذي وقع في سان فرانسيسكو في ٢٦ يونيو/حزيران سنة ١٩٤٥، وهي الفقرة التي تنص على أن مقاصد الأمم المتحدة تشمل «إنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس المبدأ الذي يقضي بالمساواة في الحقوق بين الشعوب، وبأن يكون لكل شعب منها حق تقرير المصير، وكذلك اتخاذ التدابير الأخرى الكفيلة بتعزيز السلم العالمي»، وبين النقطة رقم ١٢ من نقاط ويلسون الشهيرة، وهي التي تنص على «التنمية الذاتية للشعوب غير التركية من شعوب الإمبراطورية العثمانية وحرية المرور في مضيق الدردنيل». وربما تسبب التقارب بين «Self - Determination»، أي تقرير المصير، في الفقرة ٢ من المادة الثمانية من ميثاق الأمم المتحدة، و«Self - Development»، أي التنمية الذاتية، في النقطة ١٢ من نقاط ويلسون الأربع عشرة في ذلك اللبس الذي وقع فيه وزير الخارجية^(٧٣). والذي حدث، على أية حال، فيما يخص ويلسون ونقاطه التي لم يرد في أي منها ذكر لمفهوم «تقرير المصير» (Self - Determination)، والتي أغلبها في خطبة القاها في ٨ يناير/كانون الثاني سنة ١٩١٨ باعتبارها بياناً عن أهداف الحرب العالمية الأولى وظل يضيف إليها «مبادئ» و«تفاصيل» و«إعلانات» عديدة ومتباينة فيما ألقاه من خطب أخرى بين ذلك التاريخ وتاريخ الهدنة^(٧٤) أنها عدلت تعديلات كبرى في مؤتمر السلام. ولعله كان يحسن بوزير الخارجية أن يتوقف طويلاً عند النقطة الأولى من تلك النقاط، وهي الخاصة بـ «حرية البحار»، ليدرك أن وودرو ويلسون، رئيس الولايات المتحدة، لم يكن بكل تلك الخيرية العيرية المحسنة إلى الشعوب، وأن نقاطه الشهيرة كانت بمثابة إعلان من الإمبراطورية الأميركية الصاعدة إلى الإمبراطوريات الأوروبية بأن الولايات المتحدة قد قررت الدخول معها في تنافس على العالم. ولقد كانت نقطة «حرية البحار» هذه هي النقطة التي وقفت في حلق الساسة البريطانيين وانصبت عليها بالقدر الأكبر معارضتهم، من حيث أنهم كانوا قد ظلوا على إيمانهم بمبدأ السيادة على البحار، للأسطول البريطاني، وبمبدأ ميزان القوى الذي وصفه ويلسون - لأنه لم يكن قد بات مواتياً بعد لمرامي الولايات المتحدة - بأنه «لعبة كبرى، غير أخلاقية، قد باتت الآن معيبة ومدانة إلى الأبد»^(٧٥).

غير أن محمود رياض لم يتوقف، للأسف، عند شيء من ذلك، في معرض تلهفه على القول بأنه «ومن ثم، فقد كان جمال عبد الناصر في السنين الأولى بعد ثورة ١٩٥٢، أكثر ميلاً للتعاون مع الولايات المتحدة منه للتعاون مع الإتحاد السوفياتي، فقد قامت الولايات المتحدة، من جانبها، بقبول الثورة والاعتراف بها، وعاونت في تحقيق الاتفاق مع بريطانيا (على) جلاء قواتها عن قناة السويس عام ١٩٥٤»^(٧٦). أي أن عبد الناصر، شأنه شأن سائر العرب، ظل «ردحاً طويلاً من الزمن»، هو الآخر، «يتطلع إلى الولايات

(*) وسنرى كيف اصطاد بيجين السادات والوفد المصري في كامب ديفيد بالخلط بين مصطلحي «Self - Rule» و «Self - Determination».

المتحدة باعتبارها قوة دولية غير استعمارية لعلها (تعيّنه) في نضاله للتحرر من نير الاحتلال الأوروبي». ومن العجيب العريب حقاً أن الوزير ما لبث أن ناقض نفسه لعوره في الفقرة التالية لذلك الكلام، فقال «على أنه أثر الحرب العالمية الثانية شرعت الولايات المتحدة في اتباع سياسة في الشرق الأوسط سيطر عليها عاملان كان لهما أكبر الأثر فيما يتسأ، ثم تفاقم، من توتر في العلاقات العربية الأميركية، كان أولهما «قيام» إسرائيل في المنطقة (والأقواس للمؤلف لا للكاتب المستشهد بكلامه، من حيث أن لفظة «قيام» هكذا وحدها في الخلاء تدعو إلى وضع أقواس حولها، وكان الأصوب والأصدق أن يقول «بعد إقامة الولايات المتحدة لإسرائيل») في المنطقة، والدور الذي مارسه الولايات المتحدة في تأييدها ودعمها بأسباب القوة والمنعة على حساب الشعب الفلسطيني»^(١١)

والتسلسل في كلام محمود رياض هكذا
أولاً توترت علاقات العالم العربي بالدول الأوروبية الكبرى منذ القرن التاسع عشر بسبب ممارساتها
الأمبراطورية.

ثانياً ظلت الولايات المتحدة بمأى عن ذلك الصراع.

ثالثاً نتيجة لتباعد الولايات المتحدة عن ذلك الصراع، ظل العرب، ردحاً طويلاً، يتطلعون إليها باعتبارها قوة دولية لعلها تعينهم في نضالهم الدامي للتحرر.

رابعاً ومن ثم، فقد كان جمال عبد الناصر في السنين الأولى بعد ثورة ١٩٥٢ ميالاً للتعاون مع الولايات المتحدة

خامساً إلا أن الولايات المتحدة شرعت، إثر الحرب العالمية الثانية، في انتهاج سياسة قامت على دعم إسرائيل وتأييدها بأسباب القوة والمنعة.

وواضح من هذا التسلسل أن وزير الخارجية : إما أراد أن يقول أن جمال عبد الناصر لم يكن يعلم، طوال السنين الأولى بعد الثورة بانتهاج الولايات المتحدة لتلك السياسة الجديدة التي قامت على دعم إسرائيل وتأييدها، ولذا ظل طوال السنين ميالاً إلى التعاون مع الولايات المتحدة، وإما أن الحرب العالمية الثانية انتهت بعد السنين الأولى من ثورة ١٩٥٢، وأعقب انتهاءها انتهاج الولايات المتحدة لتلك السياسة تحاه إسرائيل.

لكن الحرب العالمية الثانية انتهت سنة ١٩٤٥، وإثر انتهائها، انتهجت الولايات المتحدة سياستها الإسرائيلية. فكيف أمكن أن يظل عبد الناصر لسنوات بعد ١٩٥٢ ميالاً للتعاون مع الولايات المتحدة على أساس التطلع العربي التقليدي إلى الولايات المتحدة كقوة دولية غير استعمارية لعلها تعينهم؟ لم يوضح محمود رياض هذه النقطة فتركها غامضة ومرهقة للعقل وبخاصة العقل حسن النية الذي يبدأ تعامله مع المشكلة من افتراض «أنهم (الضباط الأحرار) لا بد كانوا يعرفون ما هم بسبيله»، واستبعد أنهم كانوا يلعبون لعباً بالسماع ويسرون على المبدأ الشعبي المصري العريق «اللي تغلب به، إلعب به».

والذي حدث، فيما هو واضح من مسار العلاقة الخاصة التي نشأت بين الثورة والولايات المتحدة من أول ليلة للثورة، أن جمال عبد الناصر وصحبه الكرام كانوا قد راهنوا على أميركا أميركا نقاط ويلسون الأربع عشرة وحق تقرير المصير (الذي لم يكن قد خطر لويلسون ببال)، أميركا القوة العالمية للإستعمارية نصيرة الشعوب، أميركا الغنية القوية التي ستساعدنا وتشد أزرننا وتحميننا من الإستعمار وبقوة ذلك الإيمان، دُفع علي صبري بمنتهى الاستعجال، كما يروي هيك، بكل براءة وهدوء، إلى سيارة انطلقت تنهب به الأرض نهباً إلى بيت الملحق الجوي الأميركي، لتوصيل رسالة الثورة إلى السفير الأميركي فهو تسابق بين النظامين القديم والجديد على «أميركا».

والواضح مما حدث بعد ذلك أن الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا كانتا قد بحثتا موضوع ذلك الإنقلاب العسكري الذي بدأ في مصر، وانتهى بحثهما إلى الأخذ بوجهة النظر الأميركية، وهي أن

بريطانيا كانت في مرحلة تصفية الامبراطورية، وكانت أخذة بالفعل منذ وقت، منذ مبادرات أرنست بيفن(*) ووزارة العمال التي تولت حكم بريطانيا برئاسة كلمنت أتلي، سنة ١٩٤٥، في البحث عن بدائل لمصر لما قد تستبقيه من قوات في منطقة الشرق الأوسط، وأن النظام القديم في مصر كان قد انتهى على أي حال، ولم يعد من الواقعية السياسية المجدية أن يحاول أحد دعمه والإصطدام، نتيجة ذلك، بكل القوى الوطنية في مصر، وأن الاعتبار الرئيسي الذي ينبغي النظر إليه فيما يخص أولئك الضباط القائمين بالإنقلاب على فاروق هو اعتبار الشيوعية. وذلك اعتبار أعطى الضباط الأحرار أفضلية لدى الولايات المتحدة على كل من عداهم. فهم أولاً ضباط، وهم ثانياً قد خرج معظمهم إلى لعبة السياسة والحكم من معمل تفريخ يميني لا شك في يمينيته، هو معمل الإخوان المسلمين.

ويروي هيكل ما حدث خلال اليومين الأولين للثورة بوصفه .

«تسلسلاً للأحداث كان عظيم المغرر بالسببة لوضع أميركا ونعوذها فممثلها (سفيرها) كان آخر من شهد رحيل ما كان قد تبقى من النظام القديم (الملك) وأول من قام بينه وبين النظام الجديد اتصال وقد هبت الولايات المتحدة على الفور لاعتنام فرصة ذلك الوضع، فرادت عدد الدبلوماسيين في سفارتها - وكان البعض منهم (وإن كنا لم نعرف ذلك وقتها) عملاء لوكالة المخابرات المركزية الأميركية - وبرهنت على أنها كانت ممثلة بالنوايا الطيبة تجاه مصر وهكذا بات ثراء العالم الجديد (أميركا) وقوته معدين لمساعدة أحد أقدم بلدان العالم (مصر) على الخروج من شرقة الإستعمار (١)، (٧٥).

فـ «النظام الجديد»، نظام ثورة يوليو، دخل الساحة تحت مظلة أميركا، فرحاً بكون «ثرائها وقوتها قد باتا معدين لمساعدة مصر في ظله على الخروج من شرقة الاستعمار»، وفي غمرة ذلك الفرح والاستبشار بشكل الأشياء القادمة، وثب ذلك النظام الجديد جذلاً من الرمضاء إلى النار، من مقلادة الامبراطورية البريطانية التي كانت أخذة في الانحلال والزوال، إلى نار الامبراطورية الأميركية الفتية المندفعة بكل قواها إلى وضع الامبراطورية الكوكبية.

وبطبيعة الحال، لم يكن بالوسع أن يتوقع أحد من أولئك الضباط «الذين شغلتهم السياسة، وخرجوا من حصار الإنغلاق الذاتي، إلى التفكير في الآخرين، وارتبطوا ببعضهم البعض قبل تشكيل «الضباط الأحرار» بتنظيمات مختلفة الإخوان المسلمين، ومصر الفتاة، والحركة الديمقراطية للتحرر الوطني، والمجموعات الإرهابية» (٧٦) أن يتسع وقتهم ويعلو وعيهم إلى إدراك الأبعاد والحسابات المعقدة الجديدة للعصر الذي شاء حظ مصر أن يكونوا أقدر الجميع - لكونهم مسلحين - على إطلاق رصاصة الرحمة فيه على رأس نظام كان قد مضى عليه وقت طويل وهو يلفظ آخر أنفاسه، ويصبحوا بذلك، وفي حماية أعتى قوة امبراطورية، مالكين لمصر، متصرفين فيها وفي شعبها تصرف صاحب «الإبعاد» في عزبته.

في تسجيلات السادات التي أوردها موسى صبري في كتابه، «السادات، الحقيقة والأسطورة»، ورد هذا القول المفزع بحق «وقد قيل لي أن عبد الناصر، الذي كان من المتأثرين بعلم الأرواح، سمع في إحدى جلسات تحضير الأرواح أن الذي سيخلفه هو أنور السادات» (٧٧)، وهو قول بدا عصبياً على التصديق، بل وبدا أقرب إلى الافتراء. غير أن أحمد حمروش أورد في كتابه «شهود ثورة يوليو»، هذا الكلام الذي شرح

(*) والذي لا يجب أن يغيب عن الذاكرة في شأن إرنست بيفن أنه كان وزير خارجية بريطانيا المسؤول عن «معاهدة بروكسل» (١٩٤٨) وعن القبول الفوري لمشروع مارشال، ودعم إنشاء حلف شمال الأطلسي في إبريل/نيسان ١٩٤٩، وكل هذه خطوات رئيسية على طريق «تسليم المفاتيح» للقوة الامبراطورية الكوكبية التي بزغت بعد الحرب، وكان حزب العمال البريطاني، وإرنست بيفن على وجه الخصوص، سباقاً إلى التسليم بواقعة حلولها محل الامبراطوريات الأوروبية، وفي مقدمتها الامبراطورية البريطانية. وكان ذلك التسليم العمالي من منطلق الـ Realpolitik، فرصة ويستون تشرشل الأخيرة لشن معركة أخرى، كان يعلم أكثر من غيره بأنه كان مقضياً عليها بالفشل، دفاعاً عن «الامبراطورية»، من منطلقات كانت في حقيقتها حزبية وعاطفية أكثر منها واقعية. فتشرشل، بعد كل شيء، كان هو الذي اشترك مع روزفلت في إصدار «ميثاق الأطلسي» في سبتمبر/أيلول ١٩٤١، ولم يفعل بيفن وهو أخذ في تصفية الامبراطورية و«تسليم المفاتيح» إلى الولايات المتحدة أكثر من تنفيذ تعهدات بريطانيا بذلك التسليم.

فيه إبراهيم بغدادي، الذي كان صابطاً برتبة «يوزماتي» وقت بدء الحركة، وكان آخر عمل له منصب محافظ القاهرة، «نشاطه السياسي» قبل الثورة

«كنت متمياً للإخوان المسلمين أقوم بتدريب متطوعهم على ضرب السار حلف السحر الحربي بكويري القبة، كما كنا نعقد جلسات لتحضير الأرواح عام ١٩٤٦ و١٩٤٧»^(١١) وبعد نجاح الثورة، يقول نفس الضابط الحر إبراهيم بغدادي

«نقلت إلى المحاضرات التي كان الصباط يحتارون لها ساء على بحاحهم السابق وتعوقهم في أعمال المحاضرات، وبدأت دراستي (المتقدمة) مع حسن القهامي»^(١٢) وحسن بلبل وفريد طولان وعند المحيد عريد في مدرسة المحاضرات التي أقيمت بقصر الأميرة فائزة في حديقة الزهرية، وكنا نستمع فيها إلى محاضرات من رجال وكالة المحاضرات المركزية الأميركية»^(١٣)

والسؤال هنا، بعد تلك النقلة من جلسات تحضير الأرواح إلى أنشطة المخاضرات، هو من الذي كان محاضرو مدرسة المخاضرات من رجال وكالة المحاضرات المركزية الأميركية يدرسون إبراهيم بغدادي وحسن القهامي وكل أولئك الضباط الشباب على تقنيات وأساليب التحسس ليتحسسوا عليه، إسرائيل، والسؤال نفسه يتور عندما يقرأ المرء هذا الكلام لهيكل

«وكان ذلك هو الحو (حو الاستشعار) «ثراء العالم الحديد وقوته ناتا معدين لمساعدة مصريي طل الثورة» على الحروح من شريقة الاستعمار» الذي قام عبد الناصر في سياقة بالتصرف الذي ترتبت عليه أشياء كثيرة فطلب السلاح من الأميركيين»^(١٤)

والسؤال هو من الذي تصور عبد الناصر أن الأميركيين كانوا سيروونه بالسلاح ليحاربه، إسرائيل، وما لم يكن قد فقدنا صوابنا أو قررنا التنازل عن العقل، يتحتم أن يكون الحواب على السؤالين من الذي درب رجال السي أي إيه إبراهيم بغدادي وحسن القهامي إلح للتحسس عليه، ومن الذي كان يمكن للأميركيين أن يرودوا عبد الناصر بالسلاح ليحاربه، - يتحتم أن يكون الحواب الشعب المصري، قطعان العزبة التي مكنت الولايات المتحدة عبد الناصر من حيازتها. ولنعد إلى هيكل

«وقد قال عبد الناصر للأميركيين أن أحد الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة أن مصر كانت ذات جيش ضعيف، وأن ذلك الجيش هرم في فلسطين سنة ١٩٤٨ لأنه كان يحارب بدحار فاسدة، ودحار كان قد اشتراها بأسفار خرافية من بعض البلدان الأوروبية وتسست في قتل أعداد من الحنود المصريين أكثر بكثير من مكنت المصريين من قتلهم من حنود الأعداء»^(١٥)

فمن الساذج في كل هذا، ومن الذي يبيع الهرم لمن «هيكل» أم الشعب المصري، أم جمال عبد الناصر، لأنه من هم الأعداء الذين كان المصريون يريدون قتلهم في ١٩٤٨ «الإسرائيليون» فهل كتب هذا الكلام ولعابه يسيل على ذقنه، أم تصور أن كل المصريين سيسمعونه ولعابهم سائل على ذقوبهم، أم ترى ما قاله عبد الناصر للسفير كافري ولم يكن قد فطن بعد إلى أن كافري كان سفير القوة العظمى التي أوحدت إسرائيل على أرض فلسطين، وأيدتها ودعمتها بأسباب القوة والمنعة، كما قال محمود رياض، فتصور - حقيقة وواقعاً - أن تلك القوة العظمى ستمده بالسلاح لجعل جيش مصر قوياً ويقتل من الأعداء (الإسرائيليين) أكثر مما يقتلون هم من جنوده

(*) يحكي محمد إبراهيم كامل أنه خلال إقامة الوفد المصري بكامب ديفيد «كان الوقت يمضي ثقيلاً مملأً حتى يعرج حسر التهامي من حولاته المجهولة وينصم إلينا في الإستراحة وكان الوحيد من بين أعضاء الوفد الذي يبرل في استراحة معمره» فما أن يعرج التهامي مدخل الإستراحة حتى يتلاشى في لحظة جو الملل والتناؤب والقلق، وكأنه صغط على زر الكترول، ويقلب إلى جو من البهجة والمرح والدعابة، وتدب الحياة في المجتمعين، ويشد انتباههم، ويصحو سمعهم، وبدأ ناجر الأحبار فيقول مثلاً أن موشي دايان قد وافقه منذ ساعة على عودة القدس إلى العرب ثم يتكلم عن التصوف وتفسير الأحلام وينقل إلى القصص والروايات ويحكي كيف أنه حل مشكلة المسلمين في العليبيين، وكيف استطاع أن يؤجل الثورة في الملايو لمدة ثلاث سنوات، وكيف عالج نفسه من السم الزعاف الذي دس له في الطعام أثناء إحدى رياراته لبعض الدول العربية فانسحب إلى غرفته وهو يتلوى من الألم وأغلق عليه الباب بالملزاح لمدة ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب بينما هو يعالج نفسه بترياق السموم الذي يحمله معه دائماً. ثم يتكلم عن فوائد العنبر ومزايا غسل ملكات النحل، ثم يتوقف فجأة ويتكلم عن القدس، ويقول لي «القدس أمانة في عنقك يا أخ محمد، فحذار أن تفرط فيها»

(محمد إبراهيم كامل «السلام الضائع» ص ٥٢٨)

من الرمضاء إلى النار

ويستطرد هيكمل، جذلاً غير عابىء فيروي أن عبد الناصر

«شرح (للسفير الأمريكى) أنه وإن كانت الثورة ثورة شعبية، فإن رأس حريتها عناصر من الجيش، وإن الجيش هو الذي يقود ولما كان الصباط لم يسوا مصيحة الأسلحة الفاسدة سنة ١٩٤٨، فإنهم قرروا أن يكون لديهم جيش قوي فوق أنهم بحاجة إلى أن يكونوا أقوياء نفسياً (سيكولوجياً) وكذا على الصعيد العملي، حتى تتمكن مصر من الدفاع عن نفسها وقال عبد الناصر لكافري أنه إذا ما رعب الأمريكيون في بيع السلاح لمصر، سيكون ذلك عملاً يرفع كثيراً من مكانة الولايات المتحدة، وتعهد له بأن تلك الأسلحة لن تستخدم إلا في الدفاع المشروع عن النفس»^(*)

وبطبيعة الحال، لم يكن بوسع عبد الناصر أن يطلب من الأمريكيين سلاحاً ويقول لهم أنه سيستخدمه في ضرب بلد آخر، وكان من المقضي به أن «يتعهد بألا يستخدم ذلك السلاح إلا في الدفاع المشروع عن النفس». غير أن تلك هي المشكلة بالذات الدفاع عن النفس ضد من؟ لم تكن ليبيا القذافي قد ظهرت في ذلك الوقت كـ «خطر» يتهدد مصر. ولم تكن مصر معرضة لهجوم من جانب أي بلد أوروبي، أو أفريقي، أو أي بلد من آسيا - إلا إسرائيل. فإسرائيل البلد الوحيد الذي كان يمكن لمصر أن تتوقع منه هجومه وترغب في أن يكون لديها جيش قوي حتى تتمكن من الدفاع عن نفسها في مواجهة هجومه. وبذلك فإن ذلك الدفاع المشروع عن النفس الذي تعهد به عبد الناصر لكافري كان - في قاموس الاندماج الأمريكى الإسرائيلي - صنواً للعدوان الدفاع عن النفس ضد إسرائيل = العدوان على إسرائيل. وحقيقة أن ذلك النظر الأمريكى لم يكن قد اتضح في ذلك الوقت بمثل ما يتضح اليوم في تسمية أي دفاع عن النفس ضد إسرائيل بـ «الإرهاب»، إلا أن جون فوستردالاس قننه بعد تلك المناجاة بين عبد الناصر وكافري بوقت قصير في مبدأ «من ليس معنا فهو علينا»، وبطبيعة الحال «من ليس مع إسرائيل فهو علينا»، ومن يدافع عن نفسه ضد إسرائيل يعتدي عليها وعلينا. فكيف أمكن أن تتوقع الثورة التي جعلت من نفسها رأس حربة وجعلت الجيش هو الذي يقود وقررت أن يكون لديها جيش قوي أن تتمكنها الولايات المتحدة من أن يصبح لديها جيش قوي وتمكنها من الدفاع ضد إسرائيل؟. ذلك ما تعين على عبد الناصر والضباط الأحرار أن يكتشفوه لأنفسهم بأنفسهم قبل أن ينقضي وقت طويل من ذلك اللوذ بحضن الولايات المتحدة «القوة العالمية التي ستخرج مصر من شرنقة الاستعمار». إلا أن حكومة الثورة ظلت، إلى أن أشرق ذلك الوعي بأن أميركا لم تكن بكل تلك الخيرية وطيبة القلب، في الحضن الأمريكى^(*)، وظلت أميركا مفتوحة الذراعين

(*) «كنت أقوم» بمحاولة لتجميع الإخوان والشيوعيين للعمل تحت قيادة الثورة، وخاصة في الجامعة ففوجئت بأن جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر يحضران لي في منزلي بثكنات العباسية في الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل ليبلغاني أن السفارة الأمريكية لم تنم الليل قلقاً من تكوين جبهة متحدة (وطنية) للطلبة في الجامعة. بل وأذكر أنني أقيت خطبة مرة في بني سويف، وكان معي يومها الوزيران عبد العزيز علي وفتحي رضوان، فقلت إن «الثورة لا شرقية ولا غربية، بل ثورة مصرية». وسجلت الإذاعة تلك الخطبة، لكنها لم تدع. وبالليل جاءني عبد الناصر بنفسه متسائلاً «إيه ده اللي عملته في بني سويف؟» أهى السفارة الأمريكية متصابقة؟!

(شهادة يوسف منصور صديق، عضو سابق بمجلس قيادة الثورة. كتاب أحمد حمروش «شهود ثورة يوليو» ص ٤٨٣). «وكان قد رُشح للوزارة الدكتور السنهوري. لكن علي صبري قال إن تعيين السنهوري سوف يثير الأمريكان حذراً، لأن السنهوري كان قد وقع ميثاق استكهولم الذي كنت قد وقعت مع روجتي عام ١٩٥١ وقد وجدت التيار في المجلس (مجلس قيادة الثورة) حذراً من إغضاب أمريكا التي اعترضت على تعيين فتحي رضوان ونور الدين طراف باعتبار أن الوطنية المتطرفة تلتقي مع الشيوعية. وفي لقائي بمنزل عبد المنعم (أمين) (وقد رأس المجلس الذي حكم على العاملين خميس والبكري بالإعدام في قضية كفر الدوار) بسباركس، مستشار السفارة الأمريكية، قال لي هذا الأخير أن الوطنية المتطرفة تلتقي مع الشيوعية، وكان يشير بذلك إلى فتحي رضوان ونور الدين طراف».

«وأذكر أن الحذر من إغضاب الأمريكيين بدأ منذ مارس ١٩٥٢ (أي منذ ما قبل نجاح الحركة بشهور) عندما بدأت تشور مناقشات حول استخدام كلمة الاستعمار «الأنجلو - أمريكى» في المنشورات، والرغبة في اقتصار الحديث على الإستعمار البريطانى».

(شهادة خالد محيي الدين، العضو المؤسس بحركة الضباط الأحرار. كتاب أحمد حمروش «شهود ثورة يوليو» ص ١٥٠).

«فخلال السنوات الأولى من وصوله إلى الحكم، لقي عبد الناصر تشجيعاً كبيراً من الولايات المتحدة، حيث اعتبره صانع السياسة الأميركيون معتدلاً. ورعيماً من المعك كصديق للعرب (لأميركا) وعندما أزاح عبد الناصر محمد نجيب وحل محله، عين كيرمت رورفلت، رجل المحادثات الأميركية، مستشاراً دائماً لرئيس وزراء مصر (عبد الناصر)، هو مايلر كوبلاند، في المكتب المحاور لمكتب الرئيس. وحتى بعد أن عقد عبد الناصر صفقة الأسلحة مع روسيا، سنة ١٩٥٥، ظل المتخصصون في الشؤون العربية بوزارة الخارجية الأميركية ووكالة المحادثات المركزية الأميركية متشككين بالآمل في أن يظل عبد الناصر، بالأساس، موالياً للعرب (للولايات المتحدة) والواقع أن كيرمت رورفلت صرح للصحفي البريطاني ستيفن باربر، من صحيفة الصنداي تلغراف أنه، إذ يستعيد ذكريات تلك الأيام، يشعر بأن «عبد الناصر كان قد بدأ يفسد». وقت عقد الصفقة الروسية وعندما صحح باربر كلامه قائلاً «تقصّد التشيكية»، أجاب قائلاً «كلا، كلا إنها لم تكن صفقة تشيكية على الإطلاق» وأنا الذي احترعت حكاية التشيكية هذه وقد حدث الأمر هكذا كنت جالساً مع عبد الناصر في مكتبه ذات صباح، عندما دخل أحد معاونيه وقال أن السير همفري تريفيليان، السفير البريطاني في مصر وقتئذ، والمدرب السامي في عدن حالياً (وقت حري الحديث بين رورفلت وباربر) كان بالمنى وقد جاء طالباً مقابلة عبد الناصر فسألني عبد الناصر «ماذا تطبه يريد»، وقلت أنه جاء ولا شك بشأن الشائعات التي كانت قد بدأت تظن في الحو حول الصفقة الروسية فقال عبد الناصر «وما الذي سأقوله له»، وقلت عفواً الحاطر «أوه قل له أنها ليست صفقة روسية بل تشيكية» فذلك حري بالأ يجعلها تبدو بكل ذلك السوء. فالسياسة الأميركية اتصفت بالتناقض مع نفسها بشكل غريب، وربما كان ذلك راجعاً إلى التنافس على صنع السياسات بين وزارة الخارجية ووكالة المحادثات المركزية^(٨٦).

ويفسر محمود رياض ذلك التراوح في العلاقات الأميركية بالثورة بقوله أنه «رغم ما بدا من رغبة الإدارة الأميركية في تقبل الثورة في مصر ومدّ يد العون لها، كانت هناك أيضاً رغبة مستترة في تطويعها وترويضها لتكون في خدمة الأهداف الأميركية في المنطقة»^(٨٧)، وكان في ذلك ما يدعو إلى الدهشة والاستغراب أو الاستهجان لـ «غدر الأميركيين». ويستطرد وزير الخارجية قائلاً:

«وقد ظلت السياسة الأميركية تتأرجح بين هذين الاتجاهين (أي «تقبل الثورة ومدّ يد العون لها»، و«الرغبة المستمرة في تطويعها وترويضها لتكون في خدمة الأهداف الأميركية بالمنطقة»)، وكان هناك تعارضاً بين التقبل للثورة والرغبة في ترويضها، وكان التقبل للثورة ومدّ يد العون لها لم يكن إلا لترويضها ووضعها في خدمة تصدّي الرئيس الأميركي دوايت أيزنهاور للعدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦، وخلال سنوات حكم كندي (١٩٦٠ - ١٩٦٣) وكلما تغلب عامل الضغط والتهديد، توترت العلاقات كما حدث عندما سحبت الولايات المتحدة عرصها لتمويل السد العالي عام ١٩٥٦، ثم بعد ذلك خلال حكم ليندون جونسون بسبب انحيازه البالغ لإسرائيل^(٨٨) وممارسته لأسلوب شت فشله من قبل في التعامل مع عبد الناصر فقد قرر قطع المعونة الاقتصادية عن مصر سنة ١٩٦٥، ولم تكن تتجاوز مائة مليون دولار تستخدم في إمداد مصر بالقمح بشروط ميسرة في السداد وكان دافعه في هذا الإجراء المتعسف موقف عبد الناصر المعارض لبعض سياسات الولايات المتحدة سواء في الشرق الأوسط، أو الكونغو، أو في فيتنام وفي الليلة التي علم فيها جمال عبد الناصر بهذا القطع، كنت معه في منزله، عندما قال لي معلقاً «متى يفهم جونسون أن متاعب أميركا في المنطقة ليست بسبب شخص جمال عبد الناصر أو بلد اسمه مصر ولكن متاعب أميركا هي بسبب سياسة أميركا نفسها أنهم لا يجيدون التعامل إلا مع عملاء مثل كميل شمعون الذي أنزلوا قواتهم بسببه في لبنان (١٩٥٨) ومثل شاه إيران الذي جعلوه يتحالف مع إسرائيل ضدنا إن المجتمع الأميركي مجتمع قوي وعظيم. ولكنهم جاؤوا لنا برئيس يتعامل بمسطق قطاع الطرق مع شعوب تعيش في القرن العشرين (١) ثم خرج عبد الناصر ليلقي خطاباً حماسياً في بورسعيد في ٢٣ ديسمبر/كانون الأول ١٩٦٥ أعلن فيه موقفه من قطع المعونة الأميركية عن مصر بعبارة المشهورة «فليشرب الأميركيون من البحر، وإذا لم يكفهم البحر الأبيض، فليشربوا من البحر الأحمر»^(٨٩).

وقد أسقط وزير الخارجية - ربما لدواعي الدبلوماسية المهدبة - تفصيلين هامين من هذه الحكاية، أولهما أن عبد الناصر أعلن أنه، رداً على قطع المعونة، لن تسدد مصر ما عليها من ديون لأميركا، وإذا لم يعجب ذلك الأميركيين، فليذهبوا ويشربوا من البحر. أما التفصيل الثاني فهو واقعة المبادرة بالاعتذار للأمريكيين، وهو تفصيل لم يقترب منه محمود رياض إلا بمقدار قوله:

«إن مثل هذا التعبير كان قاسياً بالطبع في التعامل مع قوة عظمى كالولايات المتحدة ولكن عبد الناصر كان رجل ثورة، وكان يرى أن قوته الأساسية لا تكمن في مركزه الرسمي كرئيس للجمهورية ولكن في إيمان رجل الشارع في الوطن العربي به، وفي قدرته على استثارته وتعبئته على مستوى شعبي مما كان يفرض عليه

من الرمضاء إلى النار

مصارحته (مصارحة رجل الشارع) تماماً بحقائق الموقف دون اللجوء للدبلوماسية الهادئة داخل المكاتب المغلقة التي كانت تفيد الولايات المتحدة وتصّر بموقفه هو^(٨٦).

فوزير الخارجية، تماماً كما جعل استجابات عبد الناصر للسياسة الخارجية الأميركية ذات البعدين المتكافئين «تقبل الثورة ومد يد العون لها» و«ترويضها لتكون في خدمة الأهداف الأميركية» تبدو كما لو كانت «تأرححاً للسياسة الخارجية الأميركية بين هذين الاتجاهين»، بقوله أن «العلاقات كانت تزدهر» (من جانب مصر) متى تغلب عامل «التفهم» (من جانب أمريكا)، وكانت تتوتر (من جانب مصر) متى تغلب عامل الضغط (من جانب أمريكا)، قال إن عبد الناصر استجاب لقطع المعونة بتحدي أميركا علناً، في محاطبته للشارع المصري والعربي باعتبار ذلك التحدي «الذي كان قاسياً بالطبع في التعامل مع قوة عظمى كالولايات المتحدة»، شيئاً كان يفرضه على عبد الناصر واجب «مصارحة الشارع بحقائق الموقف» وتناسي وزير الخارجية تماماً أن تلك لم تكن «مصارحة» للشارع، بل جعجة غوغائية قصد بها التمويه عن اللطمة التي وجهتها أميركا إلى مكانة «الرعيم» في أعين الشارع، وأن «الدبلوماسية الهادئة داخل المكاتب المغلقة» بدأت بعد تلك الجعجة أمام الشارع، عندما سارع عبد الناصر بإرسال هيكمل وعبد الحكيم عامر والسادات لمصالحة السفير الأميركي والاعتذار له على النحو الذي اعترف به السادات في معرض هجومه على هيكمل في تسجيلات موسى صبري «مثلاً عندما خطب عبد الناصر وقال للأمريكان إذا ما كانش عاجبكم اشربوا من البحر الأحمر والبحر الأبيض، الأمريكان اتصلوا بهيكمل، وكان هو صلة الوصل، وعبد الناصر قال له الحق يا هيكمل روح صالحهم. وطلب من عبد الحكيم أن يذهب مع هيكمل لمصالحة السفير الأميركي وكان السفير يستعد للسفر، وعبد الحكيم أصر على ذهابي معهم. وذهبنا إلى منزل هيكمل واستمرينا إلى ساعة متأخرة من الليل لاسترضاء السفير الأميركي»^(٨٧) وبطبيعة الحال لم يتسع واجب «مصارحة الشارع تماماً بحقائق الموقف» ليشمل تلك الجلسة الليلية الطويلة لاسترضاء السفير الأميركي

لكن ذلك كله لم يتمخض في النهاية عن «مد يد العون للثورة». ففيما يخص الأسلحة، يقول هيكمل «والواقع أن الأسلحة النارية الوحيدة التي وردتها الولايات المتحدة لمصر كانت روجاً من المسدسات كوت عيار ٢٨ مطعماً بالفصه حاء به دالاس إلى مصر لتقدمه هدية إلى الحنرال بجيب. وعندما سمع وينستون تشرتشل بأمر هدين المسدسين، تلقن ثانية إلى الرئيس الأميركي أيربهاور محتجاً على المغرر الرمزي لتلك الهدية فقد كانت تلك، فيما قاله لأيزنهاور، علامة سيئة سيكون من شأنها أن تشجع المصريين (وكان قد تلقن إلى أيربهاور قبل ذلك محتجاً على فكرة قيام الولايات المتحدة بتزويد المصريين بأي جزء من الأسلحة التي طلبها عبد الناصر، لأن المصريين سيقتلون بها الجنود الإنجليز الذين سبق أن قاتلوا تحت إمرة أيزنهاور في الحرب العالمية الثانية)»^(٨٨).

وبعدها بقليل، سحب الأمريكيون عرض تمويل بناء السد العالي.

(*) ارجع إلى الهامش رقم (٢١)

منذ نجحت حركة الضباط الأحرار في الاستيلاء على الحكم، لم يتوقف الحديث عن ذلك الشيء المبهر المسمى بـ «الديمقراطية». غير أن النشاط البالغ الذي اتصف به «المتقنون» و«صناع الرأي» و«الأمناء على شرف الكلمة وعفة الرأي» وكل تلك الأشياء السامقة، أضر كثيراً بالأشياء التي من هذا الصنف المستورد من المفاهيم فالاستماتة في «الإلتزام» (بالزعيم وبالنظام - لا بـ «البلد» ومصالح الملايين التي تزحمه)، والتفاني في الولاء (طلباً للرزق أو خوفاً من «الأجهزة»)، والتفكير في الدفاع والتبرير والتمويه، تمخضت جميعاً عن ضرب غريب من التميع، من السيولة، أصاب اللعة، وضيع مضامينها، وشوه المفاهيم التي تعبر عنها الألفاظ ومن أخطر تلك المفاهيم الديمقراطية، والعدالة الاجتماعية، والقانون وسلطته، والحرية الفردية والكرامة الإنسانية فكل تلك مفاهيم لا تستقيم حياة إنسانية بدونها بل ولا يبقى للحياة صبر متى حرم الكائن الإنساني منها وفيما يخص الديمقراطية بالذات، كانت لمصر معها

تجربة فريدة بحق. فبعد القرن التاسع عشر كانت هناك مجالس نيابية، حاول حكام مصر في ذلك الحين، وهم أترار وبصف أترار، أن يستغلوها لحسابهم، وحدوا بالفعل عدداً من الأعوان والأدباء، ولكن كان هناك دائماً من يتصدون للقهر والطغيان، وشهدت تلك المجالس مواقف محيدة كان يواب الشعب فيها يدايعون عن الدستور ضد سلطة الحاكم، ويؤكدون سيادة الشعب ويحمون حقوقه. كانت تجربة ديمقراطية منكورة، سبقت بطيراتها في كثير من البلدان الأوروبية، وكانت شادة بالغة الدلالة على أن الشعب يستطيع أن يحيي من الديمقراطية مكاسب هامة، مهما كانت قوة التيارات التي تقف هي وحده تطوره. ولقد كانت تلك التيارات قوية غير شك. فقد كان هناك القصر (الخدوي في البدء، ثم الملوك بعد ذلك)، وكان هناك الانحطاط، وكان هناك أعوان يستطيع الحكام شراءهم بالوعود والمصالح. ولم يكن الطريق سهلاً على الإطلاق. ومع ذلك، كان الشعب يؤكد حقوقه ويدافع عن حرياته في كل فرصة تتاح له.

وحيث قامت الثورة سنة ١٩١٩ في مصر، لم تكن الثورة التي عمت البلاد من اقاصها إلى اقاصها، والتي شاركت فيها الطبقات الدنيا والوسطى وكثير من شرائح الطبقة العليا، ولم تعرف تفرقة بين مسلم وقبطي في الكفاح من أجل الوطن - لم تكن ثورة ١٩١٩ كفاحاً ضد المحتل الأجنبي محسب، بل كانت في الوقت ذاته جهاداً من أجل تأكيد الديمقراطية والحقوق الدستورية. وكان من أبرز مظاهر البصيص السياسي في ذلك الحين وجود وعي كامل بأن الكفاح من أجل الاستقلال والكفاح من أجل الديمقراطية لا ينفصلان.^(١٨)

وهناك ما هو أهم من الكفاح من أجل الاستقلال الكفاح من أجل أن يكون للاستقلال معنى لأنه أي قيمة هناك لاستقلال تنعبد يتخلص من احتلال أجنبي ليحد نفسه في قبضة احتلال داخلي من جانب قواته المسلحة التي تعتبر أنها استولت على البلد كغنيمة حرب، وتعامل الشعب بعد ذلك باعتباره شعباً هزيم أمامها في معركة وبات متعيناً عليه أن يخضع ويستسلم ويفقد ما يؤمر به. وكل ما هنالك من فرق بين مثل ذلك الاحتلال الداخلي والاحتلال الأجنبي أن المحتل الأجنبي يعتبر من يقاومونه «وطنيين متحمسين»، أو إذا كان احتلالاً كالاحتلال النازي، إبّان الحرب العالمية الثانية، للبلدان المحتلة، أو الاحتلال الإسرائيلي، بعدها، للأرض المحتلة، يعتبرهم «محررين وإرهابيين»، بينما يعتبر الاحتلال الداخلي من لا يخضعون ويستسلمون «خونة» و«عملاء».

وفي حوار مع صلاح نصر، ظل الصحفي عبدالله إمام يدور حول ذلك السؤال، وأميراطور دولة المخاضات الذي أنزله النظام عن عرشه وحاكمه كإجراء ضرورة يراوعه ويفلت من بين أصابعه، المرة تلو المرة، كالرئيق

«س - سؤال أحرثورها عن مهمة المحابر مهمتها حماية من؟ الوطن أم النظام السياسي القائم فيه، وبمعنى آخر، هل هي عين الوطن أم عين الحاكم؟

ج - إذا نظرتنا بطريقة موضوعية (١٩) فإنه يمكننا أن نقول أن النظام والحاكم في أي دولة هو الممثل الشرعي أمام دول العالم وقانون المحابر العامة الذي كُتبت أعماله على أساسه صدر من «مجلس الأمة».

(أي «صدر من البرلمان»، من الهيئة التشريعية، كما لو كان لمثل تلك الأشياء وجود حقيقي متحسد في «مجلس الأمة») ويص على أن من بين مهام المحابر حماية نظامها الاشتراكي ودعى اتساع من هم أعداء النظام الاشتراكي، ومن هو عدو الأساسي (بمعنى أن كل عدو للنظام «الاشتراكي» = العدو الأساسي.. إسرائيل؟) إذن لقد أصبح من وحي في خدمة الأمن القومي للدولة بموجب القانون الذي أقره ممثلي الشعب في مجلس الأمة أن أحمي أرض الوطن من أعدائه، وأن أحمي النظام الاشتراكي، وهذا لا تكون المحابر عيباً ولا أدباً للحاكم، بل وأدباً للوطن الذي ارتضى النظام الاشتراكي. (١) (٢)

فالجلاذ القديم، قرين هيمر في النظام الهتلري، وبريا في النظام السوقياتي في عهد ستالين، يتحول فجأة إلى ديماغوج ويلوذ بأساليب السوفسطائيين التي قد يكون قرأ عنها في أحد التقارير السرية أو سمعها أثناء جلسة من جلسات التعذيب، ويضع المقدمة، وهي أن الحاكم هو الدولة، وينتهي إلى «النتيجة المنطقية»، وهي أن «المخاطر» عندما تحمي الحاكم، لا تكون عيناً له وأذنأ (ومخلاً وأنياباً) فحسب، بل وأذنأ وعينا للوطن المفدى الذي تحميه من أعدائه الخارجيين والداخليين على السواء، باعتبار أن كل من خالف الحاكم الرأي عدو للوطن

وعندما سأل عبد الله إمام عن «قضية حرية المواطن، وأين تقف المحابر من هذه الحرية - أو بمعنى آخر، ما هو مفهوم حرية المواطن من وجهة نظر المخبرات؟»، قلب السؤال، في إجابته، إلى «حرية المعلومات»

«إنها فعلاً قضية هامة. ولكن لنبدأ بأرضية نظرية سريعة الواقع أن هناك احتفادات ونظريات تعبر عن مدى السرية التي يجب أن تتميز بها أعمال المخبرات هناك من يقول أنه يجب أن يعرف المواطن الحقيقة بأكملها. إسألنا لا نسي الهجوم العيف - في الستينيات - على المخبرات المركزية الأميركية التي وضعها كتاب العرب بأنها «حكومة خفية أو مستترة» تمثل أحياناً أهمية قصوى في رسم السياسات والاستراتيجيات (٣) (٤)

وبالطبع، لم يتهور الصحفي فيسأله أن يجيب ولا يتوارى وراء ذلك الهراء. ولم يكن بوسعها أن يجيب، لأنه، فيما يخصه، أية حرية تلك التي كان يتحدث عنها ذلك الصحفي؟ وأي مواطن؟

وعندما عاد الصحفي، فسأله «هل معنى ذلك أنكم لم تقوموا بالتعذيب؟»، أجاب

«إن الحرب النفسية المسعورة التي تعرض لها الجهاز، سواء سنة ١٩٦٧ لأسباب سياسية محضة ساكشف النقاب عنها قريباً بإذن الله (وكان عبد الناصر نفسه هو الذي أعلن بعد هزيمة ١٩٦٧ عن «سقوط دولة المخبرات المنحرفة») وهنا نريد أن نقول أن المخبرات العامة ليست عصاة من الأفراد تتابع المواطنين وتقبض عليهم وتعذبهم ليعترفوا، إنما هي جهاز علمي أنشئ على أساس علمي مستقيماً من كل الخبرات في الدول التي سبقتنا.. المخبرات جهاز منظم تنظيماً علمياً على أساس التخصص وتوزيع المسؤوليات على الأفراد كل فيما تؤهله له قدراته، وليست المخبرات مجموعة من ضباط الجيش أو الشرطة كما يتصور البعض، بل هي تضم كفاءات ومؤهلات علمية من خريجي الجامعات في مجالات متعددة، فبهم القاسويون، وخريجو العلوم السياسية والآداب، والألسن، وكلية العلوم، والمهندسين إلخ (والمصريون يطورون نظرية إعلاء واحترام لأمثال أولئك «المتعلمين» ولا يمكن أن يتصوروا أنهم يفعلون شيئاً رديئاً) وهذا تختص إدارتي التجسس والأمن بمكافحة التخابر والتآمر وهذا اللذان قاما بجميع العمليات التي اكتشفتها المخبرات وهل من المعقول أن ينشئ قسم للتعذيب يرأسه رئيس الجهاز وهو بدرجة نائب رئيس وزراء وهو المسؤول عن المنشآت الضخمة التي شربتها لك والتي تعد هذه القضايا (عمليات التعذيب وما إلى ذلك) جزءاً أصيلاً منها هل من المعقول أن يتفرع رئيس الجهاز هذا ومعه نائب وزير ووكيل وزارة التحقيق في بعض القضايا ومعهم جندي حراسة كما نشرت بعض الصحف؟» (٥) أي أنه «كان أرفع من تلك القضايا الصغيرة كالتعذيب وما إليه، وإن كان قد وقع تعذيب فالذين قاموا به كانوا مسؤولين من خريجي الجامعات والمتخصصين الساهرين على حماية الوطن المفدى من التخابر (العدو الخارجي) والتآمر (العدو الداخلي)».

وفي تسجيلات موسى صبري، يسأل السادات قائلاً «إذا كان عبد الناصر بهذه القيم، لماذا قبل إجراء التعذيب للمعتقلين. بل وصل التعذيب إلى حد القتل؟» فأجاب السادات، الذي لم يكن بوسعها إلا أن يجيب كما أجاب وإلا ورط نفسه في مسؤولية تلك «التجاوزات»، متى استخدمنا التعبير الرقيق المهفوف الذي استخدم في الصحافة المصرية «إنني أقول أن هذه العملية (عملية التعذيب إلى حد الموت) مرت بمراحل عديدة.. ولا أعتقد أنهم كانوا يوصلون إليه عمليات التعذيب، وربما بعد ما تقع.. ويقنعونه أنهم اضطروا إليها لكي يعترف المتهم.. أو المعتقل.. إلى آخر هذه المبررات» (٦) غير أن السادات ما يلبث أن

يعود إلى الحكاية من زاوية أخرى .

«حلاصة القول أن عبد الناصر بعد ١٩٦٥ وقع في قبضة الصراع ولم يستطع الإفلات . ولكن الأهم كانت قد أحدث مداها في امتهاان الكرامات («امتهاان الكرامات، والحديث عن التعذيب والقتل) تحت بند الأمن والأمان وشهادة الله أما دخلت على عبد الناصر في فبراير ١٩٦٧ في حجرة مكتبه ووجدته واضعاً رأسه بين يديه وهو يقول لي «البلد يا أنور تحكمها عصاة» (١) كان Conscious (مكذا بالانجليزية، بمعنى «كان واعياً» حتى يتجنب القول «كان يعرف») ولكنه كان عاجزاً عن اتخاذ أي قرار مع عبد الحكيم وجماعته (أي أن أشرار الحلقة كانوا عبد الحكيم عامر - الذي صعد إلى بارئيه وهيل منتحراً - وبطانته، لا عبد الناصر والسادات) وكان عبد الناصر يعلم مدى ما وصلت إليه القوات المسلحة من تفكك وخاصة بعد حرب اليمن، وكان الهدف أن تكون هذه الحرب لتدريب القوات المسلحة لكنها تحولت إلى شراء ثلاثيات وجمع ذهب (الرصيد الذهبي للجنيه المصري من خزائن البنك المركزي) وكلام فارغ...» (١٣)

لكن السادات، في النهاية، لم يواصل التمويه

«أقول مرة أخرى . كل هذه العوامل . الصراع . والعوامل الشخصية (التربح والصراع على السلطة وجمع المذهب والكلام الفارغ) واستغلال نقطة الأمر (أمن الرعيم وبقاء النظام) أدت إلى ذلك الوضع . كثرة الاعتقالات . ثم وقائع التعذيب» (١١)

وأثر ذلك، عقد موسى صبري مقارنة بين أسلوب عبد الناصر وأسلوب السادات في التعامل مع من شكلوا خطراً على «أمن الزعيم وبقاء النظام»، قال خلالها

«... ومعروف تاريخياً أن عبد الناصر كان يقول دائماً الحل في يدي، قرار باعتقالهم في ٢٤ ساعة» (١٤). ثم قال كلاماً مبهماً معناه أن تلك لم تكن طريقة السادات، لكنه، في حديثه إلى رشاد كامل بمجلة روز اليوسف، الذي أشرنا إليه قبلاً، قال بمنتهى البساطة أن السادات لم يعن حتى بإلقاء نظرة عابرة على كشف من ١٥٢٦ لمصريين اعتقلوا في سبتمبر/أيلول ١٩٨١ خلال ٢٤ ساعة، تماماً كما كان عبد الناصر يقول دائماً، لأنه - حسب كلام موسى صبري - لم يكن معقولاً أن يقرأ الرئيس كل ذلك الكشف الطويل العريض!

فالإعتقالات والتعذيب وكل صنوف إرهاب الدولة المكونة أساساً من أناس مسلحين تحولوا إلى «عصاة» كما شكوا عبد الناصر إلى السادات ورأسه يكاد ينفجر بين يديه اشتغلت بـ «جمع الذهب»، كما قال السادات، للمواطن الذي لم يستطع صلاح نصر أن يتذكره أو يتذكر شيئاً يخص «حريته»، فتحدث عن «حرية المعلومات» التي قرأ عنها في الصحف الأميركية، باتت طريقة حياة تصحو مصر و«تكدر» وتنهم وهي تمارسها. وعندما يتعرض النظام لنكسة أو هزة أو يرتعب من شيء، يسارع بـ «تطهير» نفسه وتنظيف سمعته، كما حدث عندما أعلن عبد الناصر وهو جريح حتى الموت بعد «نكسة» ١٩٦٧، وكما فعل السادات بعده في مناسبة تلو مناسبة، عن «سقوط دولة المخابرات»، وزوال عهد «مراكز القوى»، واللوز بالديمقراطية المقدسة والشعب «مصدر السلطات». وفي غمار تلك التشنجات التي ظل النظام يصاب بها، كان أبطاله يسارعون بتبرئة أنفسهم من كل «التجاوزات». مثلاً، أحمد أنور، قائد الشرطة العسكرية بالجيش، ثم الوزير برئاسة الجمهورية، سارع بالرد عندما سئل «أنت متهم بتعذيب المعتقلين.. ما هي أقوالك»، فقال :

«لم يحدث تعذيب للمعتقلين مطلقاً بواسطة البوليس الحربي. كان ذلك يتم في السجن الحربي، بمعرفة حمزة البسيوني . وعندما علمت بما يحدث (١) طلبت حمزة البسيوني لمقابلتي فرفض الحضور، وأبلغت جمال سالم (متوئي) بذلك، ثم تخلت عن وضع السجن الحربي تحت إشرافي. إن جميع الضباط والسياسيين الذين وضعوا في المعتقل تحت إشراف البوليس الحربي لم يعذبوا إطلاقاً . بل إن محمود عبد اللطيف الذي اعتدى على جمال عبد الناصر أمضى أيامه بعد الاعتداء في غرفة ملحقه بمكتبي ولم يدخل السجن. كان الجو غير ملائم لاجتماع المشية في الإسكندرية، وقد فوجئنا بإطلاق النار على جمال عبد الناصر، وتم اعتقال محمود عبد اللطيف، وقد اعتدى عليه بعض الضباط بالضرب، لكنه رفض الاعتراف رغم أن كمال رفعت هدهد بضرب الطبنجة حوله . وعندما أمرت بتغيير هدمه وغسيل وجهه بدأ يعترف بجراة وشجاعة وكان مثلاً للمصري الذي لا يخشى في الحق شيئاً. وقد قال صراحة أنه اعتدى على عبد الناصر مقتنعا أن اتفاقية الجلاء لم تكن لصالح البلد وأن معاهدة ١٩٣٦ أحسن منها.. وبعد مناقشة طويلة معه اقتنع بخطأ رأيه ونقم على المصامي هنادوي دوير الذي ضلله. وعندما فكرت في إرسال عشرة جنهات لزوجته، قال لي جمال عبد الناصر «خليهم ١٥ جنية كل شهر»...» (١١).

غير أن كل ذلك «التنظيم العلمي وتوزيع المسؤوليات على الأفراد» الذي تحدث عنه صلاح نصر، وكل ذلك السباط المحموم المتصف بالتصميم والحزم في حماية «وحدانية» الحاكم، لم يكن - في النهاية - في مصلحة الحاكم/الإله الواحد الأحد، أو في مصلحة «عباده»/رعاياه/قطعانه، أو حتى في مصلحة جلاليته. فبعد أن نزلت إسرائيل بالقبضة الأميركية الماحقة على رأس الزعيم/الإله الواحد في سنة ١٩٦٧، كان الزعيم يستمع إلى الراديو ويبيكي.. ويستمتع إلى الإذاعات الشامتة. والعواصم العربية الشامتة.. والقصص عن الجيش المصري الذي عاد جنوده إلى مصر حفاة، ويبيكي^(١٧).

وكان الزعيم قد عقد مؤتمراً صحفياً وعد الإعلام العالمي فيه بأننا «سنسدمر إسرائيل على كل الجبهات» ولم يكن الزعيم يصدق أنه سيدمر إسرائيل على كل الجبهات لكنه كان محاصراً. كان قد أصبح «كعب أخيل» الذي تضرب منه مصر، الذي تستدرج إلى المصيدة بفضلها وتدمر. يوضع عنقها تحت نعل إسرائيل، بلا مخرج إلا الاستسلام.

وفي كتاب موسى صبري الفاجع، تحت عنوان «شهادتان للتاريخ»، يورد «شهادة الفريق محمد فوزي» أمام «لجنة تسجيل التاريخ» في اجتماعها المطلق «ويقول أنها شهادة استمرت تسع ساعات، وأن السادات صرح له بالإطلاع عليها ليوقف منها على أسباب هزيمة ١٩٦٧ الماحقة تلك الشهادة التي تكسر القلب كشفت، ربما أكثر من أي شيء آخر، عن الكيفية التي أصبحت «وحدانية» عبد الناصر بها مقتل مصر وإن كان هناك من لا تزال لديه الحراة والصفاقة على القول بأن مصر لم تتلق في بداية العقد الرهيب الذي بدأ بمصيدة يونيو/حزيران ١٩٦٧، وانتهى بمصيدة كامب ديفيد، طعنة في مقتل طرحتها أرضاً، وأسلمتها لأعدائها ذبيحة معدة لتقطيع الأوصال، فليتنظر إلى ما هو حادث لمصر اليوم، ويقفل فمه ويسكت أو يتكلم فيشير على المخرج من الجب الذي تدحرج إليه الذبيحة بإصرار. وفيما يلي النقاط الرئيسية من شهادة الفريق فوزي كما أوردها موسى صبري :

١ - «فيما يحص أحداث النكسة ومسبباتها من ناحية الحكم (أي فيما يتعلق بمسؤولية الحاكم) ومن ناحية الوضع في القوات المسلحة لا وجود للكثير من الوثائق الرسمية فهناك موضوعات (مسائل) بالغة الأهمية تاريخية ومصرية، بعض هذه الموضوعات الخطيرة كانت تصدر (الأوامر في شأنها) من فرد، أو كانت تصدر شفوية»^(١٨).

٢ - «وأقر أن قادة القوات المسلحة - وأنا منهم كرئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة - كانوا يعيدون كل البعد عن الأمور السياسية التي لها علاقة بتحديد الاستراتيجية العسكرية للقوات المسلحة (أي يعيدون كل البعد عن عملية اتخاذ القرار السياسي الذي تتحرك بموجبه القوات المسلحة)، وسبب ذلك البعد الكامل قمة الحكم السياسي والعسكري (عبد الناصر وعبد الحكيم عامر)، وهذا أدى إلى وجود ابتعاد فكري بين القيادة السياسية والعسكرية وبين القوات المسلحة كحمار من أجهزة الدولة»^(١٩).

٣ - «والسؤال الهام هو كيف أمكن القيام للقيادة السياسية (عبد الناصر) أن تتجرا على المغامرة بإحجام القوات المسلحة وهي في الحالة التي كانت عليها في صراع مسلح مع عدو جهر قواته وشعبه على مدى عشر سنوات قبل ١٩٦٧» والحوار على هذا السؤال هو أن القائد لا يعرف قواته تماماً كما لا يعلم قدرة عدوه تماماً»^(٢٠).

٤ - «وأحب أن أثير هنا نقطة عسكرية صرفة خاصة بقواتنا إن حجم قواتنا لم يكن يسمح بفتح محاور جديد (بعد حرب اليمن والتدخل في الكويت) وبتكبير المهمة العسكرية أمام القوات المسلحة في ذلك الوقت. وقد عقدت جلسة استمرت ٤ ساعات في ١٨ مايو/أيار سنة ١٩٦٧ وكان موضوع الجلسة توفير وتدبير القوات المطلوبة لأن العمليات (التي كانت ستترتب على ما كان يجري التفكير فيه) ستكون عمليات مشتركة بحرية ووحوية وبرية وكان كل جهد القادة في هذه الجلسة مقصوداً على تدبير القوات فقط.. ولم تشمل الجلسة باقي الواجبات المعروفة أن تناقش " كان يجب أن يكون جاهزين.. بمعنى أنني إذا أردت أن أرجع (أرد) العدو فيجب أولاً أن أطمئن على عضلاتي وأطمئن على مقدرتي وأطمئن على إمكانياتي، لا أن تكون المسألة مجرد تهويز. التهويز يضر ولا ينفع والمطبوع في ذهني أن حسابات الرئيس جمال عبد الناصر كانت تتجه إلى أن لا يتم شيء في موضوع الخليج أي لا يغلق ولا حاجة أبداً»^(٢١).

هذا تقييم رئيس أركان حرب القوات المصرية المسلحة لما كان الزعيم يرمي إليه : التهويز. فما الذي جعله يلجأ إلى ذلك؟.

العدو الذي قال عنه الفريق أول فوزي أنه كان يعد جيشه وشعبه لعشر سنوات قبل مذبحة ١٩٦٧

قتل مصر

كان قد عمل على أساس الحقيقة الحلية الظاهرة لكل دي عيين فيما يخص مصر، وهي أن مصر كانت قد أصبحت عند الناصر، ولا أحد غيره، وعند الناصر كان قد أصبح مصر. ولقد يبدو ذلك كما لو كان شيئاً حميداً جميلاً تنتابنا هرة الشعر فيما يخصه، باعتبار توحد الزعيم بالامة وتوحد الامة بالزعيم بالمفهوم الرومانسي الذي وضعه توفيق الحكيم في «عودة الروح» لكن ذلك الذي يقول أن المتربصين بمصر العاملين على استدراجها إلى المصيدة فطنوا إليه كان شيئاً آخر غير ذلك التوحد كان إلغاء لكل من في مصر وما في مصر، كل البشر وكل المؤسسات، وإحلال شخص الزعيم محلها وحتى الفريق فوزي فطن إلى ذلك فيما يخص القوات المسلحة بوصفها «جهازاً من أجهزة الدولة» الغي الجميع وألغيت كل المؤسسات، وبات التعامل سهلاً ميسراً، غاية في السهولة واليسر في الواقع، لأنه مع فرد واحد لا مع أمة فيها أصوات متباينة وعقول عديدة وأفكار تتصادم وتناقش وتحذر وتحاذر، ولا مع دولة حديثة فيها مؤسسات تشير وتناقش وتبحث وتعترض وتحذر وتحاذر، وحتى «مجلس العمدة» سارت قطعاة تخور من القصر العيني إلى قصر القبة لتقول للزعيم إفعل ما تراءى لك. وبفضل تلك الوجدانية، بفضل تلاشي الأمة بأفرادها وعقولها وحرصها على مصيرها ومصير بلدها جنباً وحنوعاً أو غفلة أو انقياداً للتضليل المتواصل اللوح من جانب «المثقفين» و«صناع الرأي»، وتلاشي الدولة بمؤسساتها، لم يعد على العدو الرابع في استدراج مصر إلى حيث يجهز عليها إلا أن يبحث عن كعب أحيل في ذلك الزعيم/الإله/الامة/الدولة، ويتعامل معه من خلاله وكان كعب أخيل جمال عبد الناصر كبريائه، فنفذ إليه العدو من كبريائه، واستدرجه إلى مصيدة ١٩٦٧ وكان الزعيم قد خرج حريحاً قبل ذلك بسنوات من خرة الوحدة مع سوريا وما يترتب عليها من انفصال كان بمثابة طعنة نافذة في الجناح العربي لوحدانيتها، وإحباطاً لطموحه إلى أن يصبح زعيماً/إلهاً لكل العرب من المحيط إلى الخليج ولنعد إلى شهادة الفريق أول فوري

«سؤال هل يعني هذا أن عبد الناصر كان يريد مظاهرات (مجرد التظاهر) كما قلت من قبل»
 «جواب أقول أن اللعبة سياسية كانت ربما في رأس القائد السياسي (عبد الناصر) أن تحري المظاهرات في شمال سيناء فقط، لكن لا تحققت المظاهرات، ولا تحقق التجمع»
 «سؤال قيل أن الرئيس عبد الناصر كان يعاني من الصعق الذي كانت تقوم به إداعات بعض الدول بالنسبة لعملية قتل المصيق وبالسنة لمورد الملاحه فيه (وتعبيره) بأن مصر لم تكن لها سيادة على أرضها»
 «جواب هذا صحيح وفي رأيي أن الأهداف السياسية الحقيقية وراء هذا الموضوع انحصرت في نقطتين: إرالة قوات الطوارئ الدولية، والسيطرة على خليج العقبة لا علق المصيق ولم يكن علق المصيق هدفاً لعاية تاريخية

«سؤال من في رأيك صاحب فكرة هذه الأهداف»
 «جواب استنباطاً مبني، كان الدافع السياسي في رأس الرئيس جمال عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر، والإثنين معاً

«سؤال ولكن من صاحب الفكرة منهما»
 «جواب في تحليلي للشخصيتين الإشتين، أقول إن الإشتين كانا متفقين عاطفياً ووطنياً، متفقين على تحقيق أهداف الثورة، متفقين على تحقيق أهداف قومية، محتلفين ومتصارعين في قيادة القوات المسلحة صاحبة الثورة وباقي أجهزة الدولة والسؤال هو لو كان قد حدث زوال قوات الطوارئ الدولية وحدثت السيطرة على الخليج فقط، هل كان يمكن اعتبار الهدف السياسي قد تحقق أم لا؟

«كانت إداعات الدول العربية في ذلك الوقت، عام ١٩٦٧، في السعودية وفي عمان، توحهان ضغطاً على كلمة السيادة المصرية بأنها ناقصة، وكانت معاييرة (تعبير) إعلامية بأن قوة الطوارئ الدولية هي التي تحمي القوات المصرية ولا سيادة ولا سيطرة لمصر على الخليج

«فذهب القوات الدولية من شرم الشيخ كان يحقق هدفاً سياسياً موحوداً في رأس كل من الرئيس جمال عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر، وبمعنى آخر أنه لو كانت المظاهرة العسكرية وصلت إلى هذا الحد فقط فقد كان هذا ما يرجى أن تنتهي عنده. لأنه حدث بعد ذلك تراجع عسكري في التخطيط لقد ابتدا بتصرف محدود حتى يوم ٢٨ (مايو/أيار) ثم بدأ يتراجع وأنا أسميه تراجعاً لأن الهدف السياسي منه كان إيقاف الصراع وانتهائه عند هذا الحد وإذا ما خللت الموقف الآن كتاريخ أقول أنه ما دامت قد تمت السيطرة على الخليج دون غلق كان ممكناً إصدار إعلان دولي استجابة للمنطق العالمي بأن مضيق تيران يصبح ممراً

دولياً وأخيراً أقول أن أي تحرّك يجب أن يكون معداً له وحاهراً، واحتيار التوقيت كان غير موفق خاصة وأنني «عارر» (محول) في اليمن

«سؤال ما السر، في رأيك، في احتيار ذلك التوقيت بالذات لكي تبدأ القاهرة تحركها»

«جواب استطيع القول إنه صراع سياسي وإعلامي تم من إسرائيل (استدراج قامت به إسرائيل) وارجع بالفكر إلى موقفنا بعد الانفصال لقد حصل انحسار لرعاية الرئيس جمال عبد الناصر عربياً هيئة القاهرة (هيئة عبد الناصر) زعامة القاهرة (زعامة عبد الناصر) ، القومية العربية كلها انحسرت بعد عملية الانفصال، وكانت هناك رغبة في إعادتها»^(١)

هذا على الجانب المصري كبرياء جريئة وزعامة منحسرة بعد محنة الانفصال التي نجمت عن رفض السوريين لأن تعامل سوريا كعزبة ملحقة بالعزبة المصرية، ومغامرة عسكرية في اليمن كان الدافع إليها

«أن كل مناسبة تأتي لإعادة الوضع إلى ما كان عليه (بالنسبة لزعامة العالم العربي) كانت مصر تستثمرها (= كان عبد الناصر يستثمرها) لكسر الحصار السياسي والاقتصادي... ولقد دفعنا قوات جنوباً كذا ميل لكسر ذلك الحصار وكان هذا معناه «يا أمزيكا مصر قادرة (= عبد الناصر قادر) على كسر حصاركم وكان هذا يوضح أيضاً أن مصر قادرة (= عبد الناصر قادر) على نقل جهد كبير بإمكانات كبيرة من مصر إلى اليمن وهذا ما أظهرته السياسة الإعلامية المصرية عن مقدرة مصر على التحرك خارج البطاق المضروب حولها (حول زعامة عبد الناصر بعد عملية الانفصال) وهو ما تذكرنا به ماشتات الصحف الكبيرة عن قدرة مصر، علماً بأن مسرح اليمن لم يكن في حاجة إلى كل هذا المجهود وكل هذا الحجم»^(٢)

وكان من نتيجتها، تلك المغامرة الإعلامية الاستعراضية التورط في صراع عربي ذي «حسابات معقدة» للعاية من نوع الحسابات التي قال السادات أنه كان «يحشى على عبد الناصر دائماً منها»، وبالتالي استجلاب رد فعل عربي تمثل فيما أشار إليه الفريق فوزي بشأن حملة الإداعات العربية التي ظلت تدق على الوتر الحساس في نفس عبد الناصر وتجرح كبرياءه بكثرة الكلام عن «السيادة المصرية المنقوصة»، والاحتفاء من إسرائيل بقوات الطوارئ الدولية، وكما قال الفريق فوزي، استجاب عبد الناصر لذلك بـ «التهويش». لكنه كان تهويشاً مميّثاً، مميّثاً بكل معنى الكلمة، له - فقد مات بسببه - ولصر، فقد وقعت في المصيدة بسببه، وكنتيجة لوقوعها استدرجت، في عهد خليفته السادات، إلى المصيدة النهائية، كامب ديفيد، فدخلت الجبّ الذي تقضي كل «الحسابات المعقدة» بألا تخرج منه بعد أن وقعت فيه وثعبان الطريشة^(*) في عباها إلا مسمومة ميتة مقطعة الأوصال

أما على الجانب الإسرائيلي، فكان إعداد وترتيب بهدوء وبرود وضعينة وسوء نية لا حدود لها لأنها وليدة كراهية خاصة تعود إلى ما قبل عبد الناصر وكبريائه بالآلاف السنين.

وقد قلنا أن عبد الناصر كان مصرياً وطنياً لا شك في وطنيته ولم يكن تابعاً لأحد أو عميلاً لأحد كما حاول كثيرون أن يقولوا عنه رغم أن بعضهم كان من أشد المعجبين الموالين له وهو في عنفوان قوته. لكن عبد الناصر لم يكن «ثائراً» بالمعنى الحقيقي للكلمة لم يمسه بزماس السلطة لينفذ خطة أو يعمل على أساس فكر أو عقيدة، بل قام بحركته ليتخلص هو وزملاؤه من قيادات عسكرية وأوضاع في الجيش كانوا يكرهونها، وقد تطلب ذلك منهم أن يسقطوا النظام القديم كله الذي كانت تلك القيادات والأوضاع جزءاً لا يتجزأ من وجوده. ولم تكن تلك مهمة صعبة، بل كانت، كما قلنا، وكما تشير أحداث ليلة الثورة واليومين اللذين بعدها، مهمة تجار طالبة من يقوم بها فيطلق رصاصا الرحمة على رأس نظام فاسد منحل منهار ظل يثخن نفسه بالجراح منتحراً ومن فرط خيبتة لا يفلح حتى في وضع حد لحياته بيده. وبعدها، عندما وجد الضباط الأحرار أنفسهم وقد استولوا على الحكم، بدأ ما أسميناه «اللعب بالسماع». وقد حاول كثيرون «تقنين» فكر الثورة، وترقيع أيديولوجية لها. ومن أولئك أستاذ فلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة، كتب يقول أن «رؤية الزعيم تكشف عن بواعثه»، ثم لما بحث عن مصادر يخرج منها بـ «رؤية الزعيم» لم يجد إلا الخطب السياسية التي ظل عبد الناصر يلقيها في المناسبات، وقال «فالساسة أحياناً إحياء وبث في الردع وهو ما يسمى باللغة النووية «سلاح الردع»^(٩١) الخطابة السياسية ليست مجرد

(*) الطريشة ثعبان سام صغير الحجم يقضي على ضحيته في ثوان.

ديماغوجية، «بل هي قناعات وجدانية لجيل بأكمله بالرغم مما يشوبها من حدة الإفعال ونقص التصور النظري»^(١) (والاستاذ يقول كل ذلك من مطلق التأييد لفكر «مؤسس نهضة مصر الحديثة ورائد القومية العربية»، فهو لا يهاجم كما قد يبدو من معنى كلامه ومعنى كلامه أن عبد الناصر كان يمارس الردع «الذي يسمى باللغة النووية الردع النووي»، ويمارس التفكير عن طريق الخطابة السياسية التي «تعبّر عن قناعات وجدانية لجيل بأكمله رغم ما فيها من حدة الإفعال ونقص التصور النظري») وفي تتبعه لمراحل فكر عبد الناصر يجد أن ذلك الفكر «يتضح من سلسلة المعارك المتتالية. مثل ربطه بين الصهيونية والشيوعية إبان أزمة مارس/أذار ١٩٥٤ والصراع على السلطة، والأكثر خارجياً مثل ربطه أيضاً بين الصهيونية والشيوعية إبان خلافه مع قاسم العراق في ١٩٥٩. إلا أن محاولة الصهيونية الوقيعة بين الثورة والغرب لمنع اتفاقية الجلاء سنة ١٩٥٤، ومعركة كسر احتكار السلاح وصفقة السلاح التشيكي في ١٩٥٥، والعدوان الإسرائيلي على غزة في ١٩٥٥، والعدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ هي ما جعل عبد الناصر يربط بين الصهيونية والاستعمار»^(١)،^(١)

فعبد الناصر، في تشكل مراحل فكره، حسب ما يقوله هذا الأستاذ، ظل يكتشف حقيقة الصهيونية من خلال المعارك المتتالية التي خاضها، فربط بينها في مبدأ الأمر وبين الشيوعية، لأسباب داخلية مرة (الصراع على السلطة ١٩٥٤) وأسباب خارجية مرة (الصراع مع عبد الكريم قاسم الذي بدا كما لو كان في محاولة الوحدة العراقية المصرية قد أراد مزاحمة عبد الناصر على الزعامة العربية سنة ١٩٥٩)، ثم ما لبث أن اكتشف - بعد فشله في الحصول على السلاح من الغرب - أن الصهيونية مرتبطة بالاستعمار

ويبدو أن عبد الناصر لم يصل إلى تلك القناعة إلا متأخراً، لأنه حتى بعد عقد صفقة السلاح «التشيكية» كان ما زال يأخذ المشورة من كيرمت روزفلت، ولأنه - فيما روى فتحي رضوان - غير مصدق أن عدواناً على مصر كان سيقع سنة ١٩٥٦، حتى اللحظة التي بدأ فيها الضرب فعلاً «لم يحل وقار بريطانيا وفرنسا، وكونهما دولتين شابت رأساها في تدبير أمور السياسة دون أن تعلن الحرب على مصر وتأمراها وتأمرا إسرائيل في نفس الوقت بأن تبتعد جيوش كل منهما عشرة كيلومترات عن قناة السويس والعجيب أن جمال عبد الناصر لم يفزع من كل هذا، ولم يصدق أن بريطانيا وفرنسا يمكن أن تتسركا في حرب ضده، وأن الخطر الوحيد الذي يعتبر احتمالاً قوياً هو أن تشن إسرائيل الحرب على مصر، وكان يعتقد أن مصر كفء لها، ولا خوف من حرب معها (وقد قال الفريق أول فوزي أن «القائد لم يكن يعرف تماماً مقدرة العدو ولم يكن يعرف قواته هو ومدى قدرتها»).. ولم يقل عبد الناصر هذا الكلام باللسان، بل قاله بأفعاله (ففي الليلة التي تلقى فيها) أخطر الأنباء وأكثرها إرعاجاً، ومنها تقدم الأسطول البريطاني على شكل مروحة صوب ميناء الاسكندرية، أقام عبد الناصر حفلاً لوفود الدول العربية التي اشتركت في اجتماع مجلس الجامعة العربية في استراحة الهرم.. وكان معاونو عبد الناصر يبدون دهشة ممزوجة بالاحتجاج لكونه يتلقى مثل تلك الأنباء بأعصاب باردة ومزاج حسن، وأنه لا رغبة لديه في فض تلك الحفلة ليتفرغ لتلقي تفاصيل تلك الأنباء ودراستها، وتمحيصها واتخاذ قرار بشأنها. وقد (عرف الجواب على كل ذلك بعد شهر) عندما انتهت أزمة القناة كلها وأذاع عبد الناصر ذلك السرليبين للعالم كيف أنه استبعد تماماً ونهائياً أن تهبط بريطانيا وفرنسا إلى مستوى ذلك العبث الصبباني وأن يشركا معهما إسرائيل في مؤامرة حقيرة (١).. لكن الذي حدث بعد ذلك (الإطمئنان) بدد اطمئنان عبد الناصر، وبذل بالسكينة جزعاً، فقد أقدمت بريطانيا وفرنسا فعلاً على غزو مصر (على عكس القناعة الثابتة للزعيم) دون أن تقيماً للأمم المتحدة ولا للرأي العام العالمي أي وزن، ولم تقفا عند حد التهديد بإنزال جيوشهما على أرض مصر، بل ذهبتا إلى أبعد من ذلك، فأنزلتا هذه الجيوش بالفعل.. ثم اتضح (!) أن للدولتين العظيمتين خطة كاملة للاستيلاء على (منطقة) القناة ومدنها، وأن هذه الخطة درست تماماً إلى حد أن الحليفتين طبعتا أوراق بنكنوت مصرية، مزيفة بطبيعة الحال، لتوزيعها في بورسعيد والاسماعيلية والسويس وما حول هذه المدن، لا لشراء البضائع والسلع ومواد الطعام فقط، بل وليشتروا أيضاً الذم والرضاء السياسي.. وخيل لعبد الناصر أن كل أحلامه قد طارت في الهواء.. لكنه بقي يؤمل، فأرسل إلى السفير الأمريكي وإلى السفير الروسي يسأل كل منهما ماذا سيكون موقف بلديهما من هذا الغزو هل

سيكون مجرد «الفرجة» (بضم الفاء) والاكتفاء بالإعلان عن الاحتجاج والاشمئزاز والرفض» وذهب السفير الأمريكي بوعده أنه سيتصل بحكومته ثم يعود. لكنه لم يعد بخير ولا بتر. أما السفير الروسي فكان أكثر صراحة، إذ قال

«إن وقفنا مع مصر معناه دخول الاتحاد السوفياتي في حرب عالمية ثالثة ولا احسب ان الاتحاد السوفياتي على استعداد لذلك والقرار فيما اقصيت به إلي الآن لا تتحده إلا الرعامة السوفياتية على أعلى مستوياتها. والزعامة السوفياتية بطيئة في مثل هذه الأمور غاية في البطء لأنها تعنى بأن تدرس كل التفاصيل وتحري كل الحسابات والحسابات، في مثل هذه المواقف كثيرة ومعقدة وتأتي من مصادر مختلفة قد تتناقض مع بعضها البعض» ثم مضى وترك عبد الناصر وحده^(١).

ترك عبد الناصر وحده، وجهاً لوجه مع التفاصيل والحسابات المعقدة التي اكتفى - بدلاً من إتيان الرأس في دراستها وتمحيصها وإمعان النظر فيها على ضوء فكر متكامل ملم بأبعاد ما هو بسبيله وما يفكر فيه العدو ويدبره - بكنسها تحت السجادة بمكنسة الاقتناع المريح بأن «بريطانيا وفرنسا لا يمكن أن تنحطا إلى مثل هذا المستوي الوضع من التآمر مع إسرائيل»^(٢) وواضح طبعاً أن ذلك الاقتناع استمد من عدم الإلمام بطبيعة العلاقة بين إسرائيل و«أصدقائها»، وعدم الربط «بين الصهيونية والاستعمار» الذي قال الأستاذ المعتذر المصري أنه توافر بعد خطبات محاولة تخريب اتفاقية الجلاء سنة ١٩٥٤، وعدم قيام أميركا بتنفيذ ما كان مأمولاً من تسليح مصر «ليكون لديها جيش قوي تدافع به عن نفسها» فيما أوضحه عبد الناصر لكافري، والعدوان الإسرائيلي «الغادر» على غرة سنة ١٩٥٥، والعدوان الثلاثي «الغاشم» سنة ١٩٥٦، الذي كان مفاجأة مزعجة للغاية للزعيم ومصدر استغراب شديد من جانبه وكما قال ذلك الأستاذ الباحث كان عبد الناصر مضطراً في النهاية إلى أن يفتن له «العلاقة بين الصهيونية والاستعمار» نتيجة للخبرة العملية «على الموقع» (In Situ) بما ظل الاستعمار يفعله من أشياء غير متوقعة :

«لم يترك الاستعمار لعبد الناصر فرصة لالتقاط الأنفاس وجره إلى معارك متتالية داخلية وخارجية لإنهاك قواه مما اضطره إلى الدخول في عدة معارك متتالية فرضتها الظروف (١) كل معركة تولد أخرى (ومن هنا) أدرك عبد الناصر بالفعل أن محاربة الاستعمار هو في نفس الوقت محاربة لإسرائيل لأنها كما اتضح له «رأس حسر» الاستعمار ومخلف القطر له (١)»^(٢).

هذا النوع غير المسموح به للحاكم - خاصة في هذا العصر الرهيب - من شرود الذهن، من عدم العلم ومن تشوّه الرؤية لما حوله، اتضح بشكل مهلك في شأن مصيدة ١٩٦٧، وكل ما سبقها من إعداد لها. وقد بدأ الإعداد لاستدراج عبد الناصر، ومصر من خلال زعامته الواحدانية لها، إلى تلك المصيدة في أعقاب الانفصال. واتخذ الجهد الإسرائيلي في مجال ذلك الإعداد مسارين رئيسيين المسار الأميركي، وهو الأخطر والأهم، والمسار المصري، وهو التكميلي. وفي معرض قيامها بذلك الجهد المنظم المدروس، ظلت إسرائيل تستخدم القضية ونقيضها استخداماً فعالاً بالغ الأذى لمصر والعرب. ولقد برعت إسرائيل باستمرار في استخدام المحاولات الخائبة لصالحها على حساب من خابت محاولاتهم. فمفاعل أنشاص الهزيل (٢٠٠٠ كيلواط) استخدم كمبرر لبدء برنامج نووي ضخم عندما «اكتشفت» إدارة ايزنهاور انخراط إسرائيل في ذلك البرنامج^(٣). كما استخدمت في ذلك أيضاً مهزلة «القاهرة» و«الظافر» وحكاية «صنعنا كل شيء»، من الإبرة إلى الصاروخ، ولعبة «الخبراء الألمان»، بادعاء أن مصر قد حصلت بذلك على قدرة إنتاج القذائف الحاملة لرؤوس نووية! ذلك رغم تقارير المسؤولين الأميركيين إلى الرئاسة الأميركية في ذلك الشأن، ومنها - على سبيل المثال - التقرير الذي وضعه جورج بول للعرض على الرئيس الأميركي ليندون جونسون قبيل زيارة ليفي اشكول، رئيس وزراء إسرائيل، لواشنطن سنة ١٩٦٤، بشأن «قدرات» مصر النووية وفي مجال القذائف.

«يشير تقييمنا إلى أن إسرائيل ستظل متمتعة بتفوقها العسكري الراهن على العرب لسنوات طويلة مقبلة. وبالرغم من ادعاءات إسرائيل المبالغ فيها بالنسبة للمستقبل المرئي، ستظل قدرة الجمهورية العربية المتحدة في مجال القذائف، بالدرجة الأولى، مسألة سيكولوجية، أما قدرتها النووية فتستظل صفراً».

وقد حث جورج بول، الذي كان وزيراً للخارجية بالنيابة آنئذ، الرئيس الأميركي جونسون، في ذلك

التقرير على أن يضغط على ليفي اشكول «لتجنب كل ما من شأنه حفز سباق تسلح في الشرق الأوسط عن طريق حيازة إسرائيل لقذائف وأسلحة نووية»^(١٠) غير أن إسرائيل كانت آخذة في ذلك فعلاً وجاهدة في حفر سباق التسلح الذي أراد المسؤول الأميركي إقناعها بتجنبه، عمداً ففي اجتماع عقد بوزارة الخارجية الأميركية في مايو/ أيار ١٩٦٥، طلب السفير الإسرائيلي أفراهام هارمان التعجيل بتسليم كميات ضخمة من دبابات إم - ٤٨ الأميركية إلى إسرائيل وكانت إسرائيل قد بدأت في ذلك الوقت بتنفيذ المرحلة الأولى من مراحل استدراج مصر، فأخذت تحرك دباباتها إلى داخل المنطقة منزوعة السلاح بينها وبين سوريا، وواصلت عمليات إطلاق النار بشكل متكرر واستقراري سافر على مشروعات الري المدنية السورية ووقتها وصفت الخارجية الأميركية الوضع بأنه «متفجر» وفي اجتماع مايو/ أيار ١٩٦٥، ذكر المسؤولون الأميركيون السفير الإسرائيلي هارمان بمعارضة الولايات المتحدة «لاستخدام القوة في المسائل المتعلقة بالمياه» إلا أن السفير الإسرائيلي تجاهل ذلك تماماً، وتمسك بوجوب الإسراع في تسليم الدبابات الجديدة، مما أدى إلى انعكاس الاحتجاج بغير اتفاق في الرأي^(١١)

غير أن ذلك لم يفت في عضد السفير الإسرائيلي فقد عاد بعد شهر واحد، في يونيو/ حزيران ١٩٦٥، وكان شيئاً لم يحدث في اجتماع مايو/ أيار، طالباً التصريح لإسرائيل بشراء طائرات الفانتوم اف - ٤ التي كانت أحدث ما لدى سلاح الجو الأميركي آنئذ من طائرات حربية، إذ لم يكن قد انقضى عام على حيازة سلاح الجو الأميركي لها، وكانت متفوقة على ما لدى الاتحاد السوفياتي من طائرات، أو - بالأقل - على أي شيء يكتسبونه قد أعطوه للعرب ولما كان إعطاء ذلك الطراز من الطائرات حرياً في أن يتسبب في تصعيد خطير لسباق التسلح في الشرق الأوسط، فإن وزارة الخارجية الأميركية رفضت التصريح بذلك، خاصة وأن تقارير الاستخبارات الأميركية وتحليلات وزارة الخارجية الأميركية لوضع إسرائيل الأمني ظلت تؤكد أن قدرات إسرائيل العسكرية ظلت تفوق القدرات العسكرية للدول العربية مجتمعة^(١٢) غير أن الأميركيين لم يتقاعسوا، بطبيعة الحال، عندما جد الجد، وبدأ الضرب، في إعطاء الإسرائيليين كل ما كانوا قد طلبوه وأكثر، من طائرات الفانتوم (ببساطتها الأميركية)، وغيرها من أحدث الأعتدة.

وبطبيعة الحال، لم يكن ذلك التعفف الوقتي عن تسليح إسرائيل قد أدى إلى إيقاف التدفق العادي للسلاح الأميركي^(١٣)، فبحلول نيسان/ أبريل ١٩٦٧، كانت قوة إسرائيل، العسكرية قد تعاضلت - بفضل ما حصلت عليه من سلاح من الولايات المتحدة التي كان عبد الناصر يريد أن تمكنه من جعل جيش مصر قوياً وقادراً على الدفاع - إلى الحد الذي مكنها، وهي على مشارف المصيدة المعدة لمصر، من التفاخر علناً وبطريقة استفزازية صارخة بعظمتها العسكرية، مدركة تمام الإدراك من دراستها لشخصية عبد الناصر، تأثير ذلك عليه ففي احتفال «يوم الاستقلال»، بالقدس، في ذلك العام، تعمدت إسرائيل أن يكون الاحتفال مظاهرة عسكرية ضخمة حشدت فيها الدبابات الحديثة وغيرها من آخر مستحدثات العتاد الذي حصلت عليه من الولايات المتحدة. ولقد بلغ من استفزازية العرض أن اضطرت الولايات المتحدة - مراعاة لعلاقاتها بـ «الأصدقاء العرب» - إلى أن تأمر سفيرها والورث باربور، على عجل، شفاهة، بمكالمة من دين راسك، وزير الخارجية، بعدم حضور الاحتفال وبطبيعة الحال، زعر السفير المسكين و«خاف على مستقبله»، فسارع - تغطية لنفسه - بإرسال برقية إلى الخارجية إثباتاً لصدور تلك التعليمات إليه من دين راسك^(١٤)

تلك بعض ملامح المسار الأميركي الذي اتخذته إسرائيل في إعدادها لمصيدة ١٩٦٧. أما المسار المصري، فتركز أساساً على طموح الزعامة العربية لدى عبد الناصر. وقد قلنا أن إسرائيل ظلت تستخدم في ذلك القضية وضدها. فهي، من وجه، ظلت تتعلل لدى أميركا والغرب بعامة بتجربة الوحدة بين مصر وسوريا، مؤكدة أنها - وإن خابت في هذه المرة لأسباب كانت تكون كلها شخصية بحتة - تشير إلى خطر حقيقي يهدد إسرائيل هو أن يتوصل أولئك العرب إلى الوحدة حقاً. ورغم أن تقديرات أجهزة التحليل

(*) وفي ١٩٦٥، مثلاً، زود جونسون إسرائيل بكميات ضخمة من السلاح المتطور، منها صواريخ هوك المضادة للطائرات، وبعث برسالة إلى عبد الناصر يخبره فيها بأن تلك الصواريخ أعطيت لإسرائيل «للتصدي لقاذفات القنابل الروسية الصنع التي تسلمت بها مصر» (مذكرات محمود رياض - ص ٢٢)

بوكالة المحاسرات المركزية الأميركية أشارت باستمرار إلى أن «العرب لن تتحقق بينهم وحدة حقيقية لسنوات طويلة قادمة، وأنه - حتى إن تحققت تلك الوحدة التي لن تكون إلا شكلاً من أشكال الفدرلة (federation) - فإنها لن تؤدي بحال إلى الانتقاص من تفوق إسرائيل العسكري على العرب»^(*)، فإن إسرائيل تمكنت، باستحداث «خطر الوحدة العربية» وضرورة الاستعداد لاحتمال ظهوره، من أن تظل تحصل على كميات متعاضمة من أحدث الأسلحة والأعتدة وغير ذلك من أشكال الدعم. وفي الوقت نفسه، استخدمت إسرائيل، بنفس الفعالية، بقبض قصية الوحدة، أو بالأحرى، خيبة مصر وسوريا في تحقيقها، في الإيقاع بالاثنتين معا ويروى لنا محمود رياض ما حدث

«بدأت سنة ١٩٦٦، وكل حسود التعاهم التي بناها دوايت ايرنهاور وحيث كندي مع مصر تنهاوى واحدا بعد الآخر. وعبد الناصر قد يشع تماماً من تحسين العلاقات مع جوبسون في ظل احياره المسبق لإسرائيل ولم يعد الأمر قاصراً فقط على الصعق الاقتصادي الأميركي المباشر على مصر، وإنما امتد إلى الدعم العسكري المباشر لإسرائيل وهو الموضوع الملتهم، والمتحذر دائماً، في الوعي العربي ولم تكن قيمة الصفقة الأميركية لإسرائيل فقط في حجمها العسكري، فإسرائيل لم يقصها التعوق العسكري في أي وقت، وإنما كانت تكتم بالدرجة الأولى في قيمتها السياسية. فما هي الولايات المتحدة تقرر لأول مرة أن تتولى بنفسها امداد إسرائيل بالسلاح في وقت لا توجد فيه أية أخطار أو توترات على الحدود العربية لإسرائيل ولقد حادت هذه الصفقة بعد صفقة عسكرية كبرى كانت إسرائيل قد عقدتها سراً مع ألمانيا الغربية، أدت إلى قيام معظم الدول العربية بقطع علاقاتها مع ألمانيا الغربية سنة ١٩٦٥، وكان المسؤولون الألمان يقولون لي بصراحة إننا لم نرم تلك الصفقة إلا بتعليمات أميركية (والواقع أن بن حوريون توصل إلى عقد تلك الصفقة مع كوبراد اديناور في عمار الصحة الكبرى التي أقامتها إسرائيل حول العلماء الألمان الذين كانوا يصنعون القذائف (صواريخ الطائر) و «القاهرة» لعبد الناصر»^(*).

«وهكذا كان الموقف بالمنطقة في مطلع سنة ١٩٦٦، كما يلي علاقات متصاعدة بين الولايات المتحدة وإسرائيل في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية علاقات متدهورة بين مصر والولايات المتحدة، قيادة عسكرية عربية موحدة ما زالت في دور النمو تقابلها متاعب سياسية ومالية عديدة، اشتعال حزم من القوات المصرية في اليمن قيام حلافات عربية تؤثر على الحبهة الشرقية، وبدأ أصبح المسرح السياسي والعسكري مهياً لإسرائيل لتصعيد عملياتها العسكرية

«وفي ١٢ نوفمبر/ تشرين الثاني سنة ١٩٦٦، قامت إسرائيل باستخدام قواتها الجوية والبحرية في الهجوم على قرية السموع الأردنية، وهي قرية صغيرة تضم أربعة آلاف نسمة معظمهم من اللاجئين الفلسطينيين، وأنزلت بهم حسانر حسيمة في الأرواح وأعلنت إسرائيل أنها تقوم بهذه الغارة الانتقامية في الأردن رداً على أعمال فلسطينية بدأت من سوريا»

«وأثناء وجودي في مطار القاهرة للاشتراك مع عبد الناصر في استقبال أحد رؤساء الدول، تحدثت مع عبد الحكيم عامر عن توقعي استمرار الاعتداءات الإسرائيلية، وأشارت إلى الاتفاقية العسكرية التي كنا قد وقعناها مع سوريا مؤخراً، وقلت إننا قد نحد أنفسنا فجأة في حرب مع إسرائيل. وطعأني عبد الحكيم عامر إلى الاستعدادات المصرية

(*) «في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٦٦ أثارت حكاية وجود علماء ألمان يعملون بمصر لصنع «صاروخ عربي» ضجة كبرى. وقام بن حوريون بنفسه بتوجيه أقدع السساب إلى الألمان وأشرف على شن حملة إعلامية عالمية النطاق اتخذت، كما وصفها أحد المراقبين، سرية معادية للألمان بالغة العنف وكانت المحابرات الإسرائيلية تعرف منذ سنوات، بطبيعة الحال، كل شيء عن ألمان عبد الناصر أولئك، بل وتمكنت في سنة ١٩٥٤ من الزج بأحد عملائها بين أولئك الألمان تحت ستار كونه مهندساً ألمانيا، فحصلت عن طريقه على تصميمات الصاروخ. وكانت إثارة الضجة من جانب إسرائيل حول تلك الحكاية المعروفة للإسرائيليين من وقت طويل محفوفة بالمكاسب والخسائر فعلى جانب المكاسب، أعطت الضجة التي أقيمت حول المسألة مبرراً قوياً للتعجيل بتنفيذ برامج إسرائيل النووية باعتبار ذلك الرادع الوحيد لدى إسرائيل لإحباط استعدادات عبد الناصر لإبادة إسرائيل بالصواريخ التي يصنعها له الألمان. أما في جانب الخسائر، فقد أدى عنف الحملة المعادية للألمان التي شنها بن حوريون نفسه إلى تهديد تدفق العون الضخم الذي طلعت ألمانيا الغربية تقدمه لإسرائيل في المجالات الاقتصادية، ومجال التسليح ومجال البحوث العلمية، وكان استمرار ذلك العون أهم بكثير من أي شيء كان أولئك الألمان يقومون به لعبد الناصر في القاهرة. وفي عمار الصحة، تكشف أن بن حوريون والمستشار الألماني كوبراد اديناور كانا قد عقدا صفقة سرية أمدت ألمانيا الغربية بموحيها الجيش الإسرائيلي بما بلغت قيمته آنذاك ٨٠ مليوناً من الدولارات من الدبابات وزوارق الطوربيد والمدافع المضادة للدبابات والقاذفات المقاتلة»

Stephen Green «Taking Sides», P. 161.

«وعقد مجلس الدفاع العربي اجتماعا بالقاهرة في شهر مارس سنة ١٩٦٧، برئاسة برياستي، للنظر في الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة، واستمرت اجتماعاتنا من الصباح حتى منتصف الليل وكان الوفد السوري يلح على دعم سوريا بأسراب من الطائرات وبمفاع مصادرة للطائرات تحسبا لهجوم إسرائيلي على الحبهة السورية وشعرت بمدى قلق السوريين من وقوع مثل هذا الهجوم قبل أن تستكمل استعداداتهم الدفاعية وتحقق مخاوف سوريا ففي ٧ أبريل/ نيسان، تحولت إسرائيل إلى الحبهة السورية، فهاجمت الحدود السورية، واستخدمت في هجومها سلاح الطيران، وأسفرت المعارك الحوية عن سقوط ست طائرات ميج سورية وواصلت إسرائيل تهديداتها لسوريا ففي ١٢ مايو/ أيار ١٩٦٧، أعلن إسحق رابين، رئيس أركان حرب القوات الإسرائيلية قائلاً «إننا سوف نشن هجوما خاطعا على سوريا، وسنحتل دمشق لنسقط الحكم فيها ثم نعود». وجاءت تلك التصريحات الإسرائيلية بعد يومين من طلب أنا أيبان من سفراء إسرائيل أن يعلنوا عن أن إسرائيل قد تحد نفسها مضطرة لاستخدام القوة ضد سوريا كما أعلن ليفي اشكول، رئيس وزراء إسرائيل، أن «إسرائيل مستعدة لاستخدام القوة ضد سوريا»^(١١١)

هذا تسلسل الأحداث، كما رواه محمود رياض، بصدق واضح وبغير خطابات، من الجانب المصري لننصغ أذن إلى رواية الباحث الأميركي ستيفن جرين:

«في مطلع ١٩٦٧، اتهمت كل من إسرائيل والجمهورية العربية المتحدة الأخرى بحشد القوات على الحدود السورية. وتبادل جمال عبد الناصر وممثلو الحكومة الإسرائيلية الاتهامات، طعة خطابية مشتتة، حول تحركات تهديدية نسبها كل جانب إلى الجانب الآخر، محذرا من العواقب الوخيمة التي سوف تترتب عليها بالنسبة للسلم في المنطقة وكان أعرب ما في الوضع كله أن تلك الاتهامات المتبادلة كانت من قبيل الاحتلاق على كلا الجانبين ففي ١٩ مايو/ أيار ١٩٦٧، قدم يوثات، أمين عام الأمم المتحدة، تقريرا إلى مجلس الأمن قال فيه إن «تقارير مراقبي الأمم المتحدة تقطع بعدم وجود أي حشد ذي قيمة للقوات أو تحركات كبيرة لها على كلا الجانبين» إلا أن يوثات، عزاء، في كلمته أمام المجلس، تصريحات صدرت عن مسؤول إسرائيلي على مستوى عال متسعة بالتهديد إلى درجة تجعلها مثيرة للمشاعر بشكل خاص^(١١٢). وبإزاء ذلك، لم يكن قد بات بوسع عبد الناصر أو أي زعيم عربي آخر من رمضاء «خط المواجهة» التراجع على ساحة تلك الهجمات الكلامية، سواء كانت هناك حشود للقوات على الحدود أو لم تكن وفي النهاية استجاب عبدالناصر فقد طلب رئيس الأركان المصري سحب قوات الطوارئ الدولية التي كانت تفصل ما بين المصريين والإسرائيليين بامتداد الحدود بينهما، بما في ذلك استحكامات شرم الشيخ المطلة على مصيقي تيران»^(١١٣) وكما نستوضح حقيقة ما طلبته مصر، نعود إلى ما رواه محمود رياض.

«توالت التقارير عن الحشود العسكرية الإسرائيلية على الحدود السورية وكانت موسكو أحد مصادر تلك التقارير، حين أبلغ السوفييت وفد البرلمانيا مصريا برئاسة أسور السادات كان في زيارة للاتحاد السوفياتي، بوجود هذه الحشود.

«وفي ١٦ مايو/ أيار، رأى عبد الحكيم عامر^(١١٤) القائد العام للقوات المسلحة المصرية أن يتخذ خطوة أخرى في الضغط على إسرائيل، فطلب من الفريق فوزي رئيس أركان الحرب أن يرسل خطابا إلى قائد قوات الطوارئ في قطاع غزة وشم الشيخ، الجنرال ريكي، جاء فيه «أحيطكم علماً بأنني أصدرت أوامري للقوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة بأن تكون مستعدة لأي عمل ضد إسرائيل في نفس اللحظة التي ترتكب فيها إسرائيل أي عمل عدواني ضد أي دولة عربية وطبقا لهذه الأوامر، فإن قواتنا تحتشد الآن في سيناء وعلى حدودنا الشرقية وحرصاً منا على سلامة القوات الدولية التي تتخذ مواقعها على حدودنا الشرقية، فإنني أطلب منك أن تصدر أوامرك بسحب هذه القوات من مراكزها على الفور وقد أصدرت أوامري إلى قائد المنطقة العسكرية الشرقية حول هذا الموضوع، وطلبت أن يبلغني تنفيذ هذه الأوامر.

«وعندما أرسل إلى الفريق فوزي صورة من هذا الخطاب الذي كان قد سلم فعلاً إلى قائد القوات الدولية، أصبح واضحاً لدي أن الأمر بدأ يتحول إلى مواجهة مع إسرائيل يحاول كل طرف فيها أن يضغط على الآخر مما قد يجرنا إلى مواجهة عسكرية. وحيث أننا نتصرف طبقاً لحقوق والتزامات السيادة المصرية على أراضيها، فإن العامل الجوهر في الموضوع يعتمد على قدرتنا الفعلية عسكرياً في مواجهة التهديدات الإسرائيلية «وقد طلب يوثات، السكرتير العام للأمم المتحدة، عندما علم بالأمر، أن توجه مصر خطاباً إليه، وليس إلى قائد القوات هذا من الناحية القانونية. أما من الناحية الموضوعية، فإنه رأى أنه لا يستطيع أن يسحب قوات الأمم المتحدة من منطقة الحدود المصرية مع إسرائيل، ويبقى تلك الخطوات في شرم الشيخ وقطاع غزة، وأنه مضطر إلى سحب كافة القوات من غزة وسيناء بكاملها وإبلاغ الجمعية العامة بذلك

(*) وربما كان يشير هنا إلى تصريحات إسحق رابين التي أوردها محمود رياض عن إسقاط الحكم في دمشق.

«وعندما أبلغني الفريق هوري بن الحبرال ريكي قائد قوات الطوارئ، يطلب توجيه الخطاب إلى السكرتير العام للمنظمة الدولية عن طريق وزارة الخارجية المصرية، تحدثت مع عبد الناصر تليفونيا، فوافق على توجيه نفس الخطاب إلى يوثانت عن طريقى ولقد كان الخطاب الذي أرسلته وأصحا للعاية فحن لم يطلب سحب قوات الطوارئ الموجودة في عرة أو شرم الشيخ، وكان طلبا قاصرا على سحب القوات الموجودة على الحدود المصرية مع إسرائيل وعندما رفض يوثانت إجراء انسحاب حربي لقوات الطوارئ، لم يعد في استطاعة مصر التراجع عن طلبها، ولم يكن أمامنا إلا أن نطلب الانسحاب الكلي لقوات الأمم المتحدة، وهذا يتصمر بالطبع القوات الموجودة في عرة وشرم الشيخ وقد أدى انسحاب قوات الأمم المتحدة من شرم الشيخ إلى دخول قواتنا العسكرية إليها وهذه الخطوة، بدورها، فرصت علينا العودة إلى المشكلة القديمة الخاصة بملاحاة إسرائيل في خليج العقبة»^(١)

ومن وصف محمود رياض لتسلسل الأحداث، يكاد المرء يرى رأي العين الخيبة الإسرائيلية وهي تضيق تدريجيا حول عبد الناصر/ مصر بعد حرب الإذاعات وتغيير عبد الناصر بأنه حائف ومحتبيء وراء قوات الطوارئ ومفرط في سيادة مصر على أجزاء من أراضيها، الاستفراوات الإسرائيلية المتكررة لسوريا والتهديدات السافرة بغزو سوريا، التي كانت مصر متحدة معها منذ سنوات قليلة، وعقدت معها اتفاقية عسكرية مؤخرًا، والدق بتلك الاستفزازات المتصاعدة وشائعات الحشود الإسرائيلية على الوتر الخطر في شخصية عبد الناصر، كبريائه بالغة الحساسية، وصورته كزعيم لكل العرب وكما توقع الإسرائيليون تماما، ابتلع عبد الناصر الطعم والصنارة معا كما يقولون، وتصرف بالطريقة التي أنبأت دراسة الإسرائيليين لشخصيته أنه سوف يتصرف بها لا محالة أشاح بوجهه عن كل الحسابات المعقدة، وهب للدفاع عن كبريائه الحريجة يقولون أي محتبيء وراء قوات الطوارئ الدولية؟ إن تذهب قوات الطوارئ الدولية يقولون أي خائف من مواجهة الإسرائيليين؟ إذن سأقول لهم. وفي المؤتمر الصحفي العالمي الذي عقد يوم ٢٨ مايو/ أيار، قال لهم إذا جرؤت إسرائيل سبصرها، وسبدمرها على كل الجبهات. وأذهب يا عبد الحكيم ولقن أولادك درسًا.

وكما فات عبد الناصر أن يدرك أن يوثانت لن يقوم بالانسحاب جربي، وأنه سيجد نفسه متورطا في المشكلة القديمة، مشكلة مرور سفن إسرائيل من مضيق تيران وملاحاة إسرائيل في مياه خليج العقبة، فاته، كما قال محمود هوري، أن يجري حسابات دقيقة يوازن بها بين قدرات قواته وقدرات قوات العدو، وفاته - بالقدر الأهم والأخطر - أن يحري الحسابات الدقيقة التي كانت كفيلة بأن توقفه على الحلفية السياسية للأحداث في كل من إسرائيل والولايات المتحدة. وإذ فاته ذلك، تصوره حقيقة أن المسألة لن تتجاوز «التهويش» كما قال الفريق هوزي، وتصور أن إسرائيل سوف تتراجع أو أن الولايات المتحدة ستلجمها وتمنعها من الهجوم، تماما كما ظل متصوراً إلى أن نزل المظليون البريطانيون في بور سعيد سنة ١٩٥٦ أن بريطانيا وفرنسا لا يمكن أن تقدا على غزو مصر بالتواطؤ مع إسرائيل ويبدو أنه فاته أيضا أن يوثانت، وهو هناك في نيويورك، قد يتصرف بما يرضي إسرائيل، لا بما يرضي الله وميثاق الأمم المتحدة ومن كلام محمود رياض، يبدو أن نظام عبد الناصر اعتبر يوثانت رجلا «طيبا» لكنه «غشيم» فورير الخارجية يقول «ولم يكن هذا التصرف من جانب يوثانت (إصراره على توريط عبد الناصر بالانسحاب أيضا من شرم الشيخ وغزة اللتين لم يطلب إليه الانسحاب منهما) منطلقا من سوء بية، بل كان ينطلق ببساطة (١) من عدم معرفته بالمنطقة، وبحقيقة التوترات القائمة فيها»^(٢) وربما لو كان محمود رياض قد كتب هذا الكلام بعد ما فعلته الصهيونية بكورت فالدهايم، أمين عام الأمم المتحدة، في وقتها هذا، لأنه وهو أمين عام لم «يمش على الصراط»، لما افترض كل ذلك القدر من حسن النية لدى يوثانت، ولا افترض لديه قدرا من الحيطة وبعد النظر أكبر مما تحلى به فالدهايم. إلا أن المهم في كل ذلك أن محمود رياض يقول أن قرار المطالبة بسحب قوات الطوارئ (وهو يعرؤه إلى عبد الحكيم عامر) «كان قرارا متسرعا يفتقر إلى أي قيمة عسكرية ولا يشكل أي ضغط على إسرائيل»^(٣) وهذا حقيقي ولكن القرار كان محتوما، كما كان محمود رياض مدركا بغير شك وهو يقول هذا الكلام، لأن عبد الناصر قيل له على موجات الأثير أنه محتبيء وراء قوات الطوارئ الدولية. والدليل على أن كل ما سبق استخلاص ذلك القرار الأحق من عبد الناصر كان بغية استدراجه على عباب الكبرياء إلى المصيدة ما يقوله محمود رياض ذاته بعد تأكيده بأن «القرار كان متسرعا ومفتقرا إلى أي قيمة عسكرية ولا يشكل أي ضغط

عسكري على إسرائيل»، من أن إسرائيل لم تكد تتوصل إلى ذلك التطور الجديد حتى حولت «الآزمة التي بدأتها بتهديداتها لسوريا بالغزو العسكري واحتلال دمشق إلى قضية أخرى تماما وهي حرية الملاحة في خليج العقبة» وأن الآزمة، في صيغتها الجديدة «بدأت تحتل مكان الصدارة في عواصم عديدة، في مقدمتها واشنطن بالطبع»^(١١٨) فالآزمة الأولى كانت طريقا إلى الآزمة الثانية.

ومن واشنطن، بعث دين راسك، وزير الخارجية الأمريكية، برقية إلى كل سفراء الولايات المتحدة بالعواصم العربية طلب منهم فيها أن «يوجهوا أذهانهم إلى البحث عن حلول ممكنة يمكن أن تؤدي إلى منع نشوب الحرب»، محذراً إياهم، والدول العربية التي كانوا يمثلون الولايات المتحدة لديها بطبيعة الحال، من أن الإسرائيليين قد «يكونون موشكين على اتخاذ قرار باستخدام القوة» وأنه «لا جدوى من محاولة جعل إسرائيل تقبل باستمرار الوضع الراهن في المضيق، لأن إسرائيل ستقاتل ولن نستطيع نحن الأمريكيين كبح جماحها كما أننا لن نستطيع، إذا ما نشب القتال، أن نهز أكتافنا ونقول دعهم يتقاتلون وسنظل نحن على الحياد. فنحن، كمبدأ، لا نستطيع التخلي عن حق السفن التي ترفع الراية الإسرائيلية في عبور المضيق»^(١١٩).

وفي مذكراته، كتب الرئيس الأمريكي ليندون جونسون يقول

«لقد شعرت دائما بتعاطف عميق مع إسرائيل وشعبها الذي يبني ببسالة دولة حديثة ويدافع عنها في وجه صعاب شديدة وفي ظل الخلفية المأساوية للخبرة اليهودية وبوسعي طبعا تفهم الواقع الماثل في أن البشر قد يقررون التصرف بإرادتهم المنفردة عندما تجتمع عليهم وتتكاثر على حدودهم قوى معادية وتقفل في وجوههم مباء رئيسيا، وعندما يملأ الزعماء السياسيون المعادون لهم الهواء من حولهم بالتهديدات بتدمير أمتهم ورغم كل ذلك، لم استطع أبدا أن أحفي أسفي لكون إسرائيل قررت أن تتحرك (سنة ١٩٦٧) في الوقت الذي تحركت فيه وفي الوقت نفسه، أوضحت للروس ولكل أمة أخرى من أمم العالم أنني لم أسلم أبداً بالاتهام الممعن في التبسيط الموجه للإسرائيليين بالعدوان. فالتصرفات العربية في الأسابيع التي سبقت نشوب الحرب من طرد لقوات الطوارئ الدولية، إلى إغلاق ميناء العقبة، إلى حشد القوات على حدود إسرائيل، تجعل مثل ذلك الاتهام لإسرائيل بالعدوان اتهاما مفرطا في السخف»^(١٢٠)

يدعوننا ما ألف في الغرب وغير الغرب من ملاحم، ووضع من «تقارير صحفية» وتواريخ ودراسات عن الانتصار الإسرائيلي فيما دعي بـ «حرب» الأيام الستة، وما أفصحت عنه الملاحم من جذل وتهلل ونطقت به التقارير والتواريخ والدراسات من فرح وشماتة، فاقت كلها ما جاشت به الصدور للانتصار على هتلر والتخلص من ورطة النازية الأوروبية سنة ١٩٤٥، يدعوننا كل ذلك للتوقف عند الخطر الذي مثله جمال عبد الناصر بالنسبة لقوى كثيرة عاتية، وما مثله احتمال نجاح مصر في ظله وبفضل جاذبيته لكل العرب في التوصل إلى مواجهة تلك القوى بأمة واحدة متماسكة متصفة بالتصميم على المقاومة والإصرار على البقاء كان عبد الناصر يحلم بها مفترشة الأرض من المحيط إلى الخليج

ولسنا هنا بمعرض اجترار المראה والتحسر على ما كان أو التوجع على ما كان يمكن أن يكون لكن الضراوة التي حوصرت بها مصر وخطة التآمر الذي استدرجت بفضلها إلى الشرك، والجذل والشماتة اللذين اندفقا بعد ترديها فيه، توقفنا جميعاً على ما كانت مصر قادرة على أن تحققه، لها ولكل العرب، ولا وجود لها إلا بهم ولا وجود لهم إلا بها، لو كان عبد الناصر قد استثمر الحب الغامر الذي أعطي له من القلوب والثقة التي بلا حدود التي منحت له، لا منا نحن المصريين فحسب، بل ومن عشرات الملايين من العرب في كل مكان، في قيادة حكيمة مستنيرة واعية بمهالك العصر و«حساباته المعقدة»، بدلاً من الانجراف على تيار الجبن والارتزاق والتربح والانتفاع ممن حوله، والتحول - لصالحهم ومصاب مصر - إلى زعيم إله واحد لا شريك له، ولا ناصح أو معترض أمامه أو تحت قدميه

ولا يتسع المجال هنا لإيراد نماذج مما كتب وقيل بعد الهزيمة الوحشية في يونيو/ حزيران ١٩٦٧، لكنه قد يكفي، على سبيل التذكرة، وسعياً إلى الفهم، أن نتوقف عند اندفاعه كهذه

«كثيرون من الفاتحين العظام وطأوا بأقدامهم مياني سياء، من الاسكندر الأكبر في طريقه لاحتلال مصر، سنة ٣٢٢ ق م، إلى نابوليون بوناپرت، الذي قاد جيشه إلى عكا بعد معركة الاهرام التي ذكر حنوده فيها بأن «عشرين قرناً أطلت عليهم من فوق الهرم». وفي مياني سياء أيضاً تاه بنو إسرائيل أربعين سنة قبل أن يدخلوا أرض الميعاد، وفيها تلقى موسى الوحي والشهادة اللذين تصمنا التقنين الأخلاقي لكل من اليهودية والمسيحية، وهو التقنين الذي قامت على أساسه الحضارة العربية. وفي سنة ١٩٥٦، كانت سياء هذه مسرحاً لأول معركة بين المصريين ومؤسسي إسرائيل الحديثة. وفي سنة ١٩٦٧، كان مقدراً لها أن تصنع ساحة أعظم صدام مدو بين قوى الصهيونية والقومية العربية»^(١)

وكاتباً هذا الشعر المتوقد بنيران الحماس ليسا يونانيين، وليسا - بكل تأكيد - فرنسيين، وليسا إسرائيليين، بل وليسا يهوديين ولكن تفكر قليلاً فقط في كل تلك الضراوة، وتفكر في الربط بين غزو اليونان القدماء (الذين اعتبرهم الغربيون منشأ لأسس حضارة الغرب)، وغزو الأوروبيين المحدثين، حتى وإن كان على يدي نابوليون، الخصم التاريخي لقوم الكاتين، وبين مؤامرة ١٩٥٦ الوضيعة التي وصفت بأنها أول معركة بين المصريين (أشرار الحلقة) و «مؤسسي إسرائيل الحديثة»، وانتصار قوى الصهيونية على قوى القومية العربية في سنة ١٩٦٧. وتفكر أيضاً في الربط بين غزو مصر والانتصار الأوروبي الذي حققه نابوليون باطلاق قذيفة مدفع على أنف أبي الهول وتصوره أن ذلك كان انتصاراً على القرون الأربعين التي أطلت على عساكره من فوق الهرم، وبين غزو فلسطين ممثلة في عكا وتفكر أكثر فأكثر في جعل اليهودية والمسيحية ديانة واحدة انبنت عليها أسس الحضارة الغربية ثم تأمل في الجذل والتشفي وقد وصلنا إلى حد الانجذاب وانجاس اللعاب زبداً يغطي الأشداق. فكل هذا حري بأن يستوقفنا ويجعلنا نفكر فيما يبدو أن من كتبوا هذا الكلام وكل من كتبوا كلاماً مثله قد فطنوا إليه من حقائق لم نلفظ نحن إليها وهي أن مصر التي تأمر الكل عليها، كانت قادرة، رغم تكاثر الأعداء، ورغم الحزاة الممرورة المتربصة بها من قديم صارخة من صفحات «العهد القديم»، أن تقلب موازين كثيرة، وتغير مخططات عديدة وتفسدها، فقط لو أصغى من تصدوا لقيادتها لما ظلت تحاول أن تقول لهم بما أعطتهم إياه من حب وثقة، وسمحوا لها أن تتوحد بهم، وتستوعبهم، وتلهمهم، وتشد أزهم، بدلاً من أن ترتعب منهم، وتخضع لهم وقد عاملوها

قتل مصر

كضيعة، وعاملوا أهلها كقطعان الوعي بذلك هو ما ينبغي أن يستوقعنا ويجعلنا نمعن النظر والفكر طويلاً في كل ما بذل من جهود وأنفق من مال، وكل ما هو مبذول اليوم ببذخ ودأب وإصرار، بغية الإجهاز على مصر وتقطيع أوصالها والوعي بذلك هو ما ينبغي أن يجعلنا نتساءل من الحاني؟ من الذي جنى على مصر عسكرياً، يبدو أن هناك أحصاءاً من جاسد المسؤولين المصريين الذين «أرخوا» لما دعي، على سبيل التهوين، بـ «بالنكسة»، على القول بأن الحاني كان عبد الحكيم عامر، لأنه كان قائداً عسكرياً خائباً ومنقاداً لطغمة احاطت به وانتفعت من سلطانه وتربحت وأبعدت من طريقها كل من كانوا قادرين على أن يقودوا القوات المسلحة قيادة عسكرية سليمة.

ولنعد إلى الحكاية كما رواها محمود رياض

«كان موقعنا يتلخص في وقف التهديدات الإسرائيلية ضد سوريا والحيلولة دون استمرار الاعتداءات الإسرائيلية ضد الدول العربية، وهي الاعتداءات التي وصلت إلى أقصاها خلال السنتين الأخيرتين»^(١٣١) وقبل ذلك بقليل، قال «كان هدف عبد الناصر من الأزمة كلها امتصاص التهديد الإسرائيلي ضد سوريا»^(١٣٢)

ويبدو أنه تصور أن «الأزمة» التي استدرجته إسرائيل بتعاون صادق من الرئيس الأميركي ليندون جونسون إلى إثارتها كانت ستنتج، كعملية «تهويش»، كما وصفها الفريق أول فوزي، في تخويف الإسرائيليين. ثم، لما تبين أن الحرب قد تنشب فعلاً.

«حاول تجنب الحرب، واتسع في ذلك خطين الأول هو الموافقة على مقترحات يوثانت الخاصة بشرم الشيخ وخليج العقبة، وكذلك إعطاء تأكيدات رسمية لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والرئيس الفرنسي شارل ديغول والسكرتير العام للأمم المتحدة يوثانت، وكذلك الصحافة العالمية في مؤتمر معهم يوم ٢٨ مايو ١٩٦٧ بأنه لن يبدأ الهجوم والثاني إصدار الأمر بتعبئة القوات المصرية وإرسال بعض الفرق عبر قناة السويس إلى سيناء، تصوراً منه أن هذا الإجراء سوف يحول دون الهجوم الإسرائيلي على سوريا»^(١٣٣)

ومما يقطع بصواب تقييم الفريق أول فوزي للعملية أن يوثانت، أمين عام الأمم المتحدة، عندما

«جاء إلى القاهرة، واستقبلته، فشعرت بأنه مع هدوئه كان يشعر بالانزعاج الشديد، جاء حاملاً معه مشروعاً أخطرنا سفارتنا في واشنطن بأن الولايات المتحدة (تسانده)، مما أضفى جدية إضافية على المشروع وكان يعتمد على أفكار لتهدة الموقف، وهي تتلخص في نقاط ثلاث. أولاً، يطلب من إسرائيل ألا ترسل أي سفينة عبر خليج العقبة ثانياً، يطلب من الدول التي ترسل سفنها إلى ميناء إيلات ألا تحمل مواداً استراتيجية لإسرائيل ثالثاً، يطلب من مصر عدم مراوغة حق التفتيش على السفن التي تمر عبر مضيق العقبة، ووافق عبد الناصر عليه وعندئذ وجه يوثانت سؤالاً إلى عبد الناصر «سيادة الرئيس. إن الإسرائيليين متخوفون (١) من قيامكم بهجوم عسكري ضدهم. هل تستطيع أن تعدني بأن مصر لن تهاجم إسرائيل؟»^(١) فرد عليه جمال عبد الناصر قائلاً «نحن لم نعلن في أي وقت أننا سنهاجم إسرائيل. إن إسرائيل هي التي هددت رسمياً بعزو سوريا. وما نفعله هو إجراء دفاعي لمنع مثل هذا التهديد من أن يصبح حقيقة وعلى ذلك فلن نكون نحن البادئين أبداً بالهجوم»^(١٣٤).

وإلى هنا، ظلت التصرفات سياسية بحتة، وظلت التحركات العسكرية تحركات أجريت بقرارات سياسية من عبد الناصر. ثم ينتقل محمود رياض إلى دور عبد الحكيم عامر:

«وفي يوم ٢٨ مايو/ أيار ١٩٦٧ دعاني عبد الناصر لتناول الغداء معه وآخرين وحضر المشير عبد الحكيم عامر متأخراً بعض الوقت، وقال ضاحكاً وهو يجلس أن إسرائيل قد أصيبت بالذعر قبل الظهر فقد أرسل طائرتي ميغ ٢١ للاستطلاع فوق بنر سبع، وأن الطائرتين التقطتا إشارات إسرائيلية تدل على مدى الذعر الذي أصابهم من وجود الطائرتين المصريتين. وقد أزعجني هذا الحديث كثيراً لأن بنر سبع لا تبعد عن الحدود المصرية أكثر من أربعين ميلاً، أي أن الطائرتين المصريتين لم تمكنا في الأجواء الإسرائيلية أكثر من بضع دقائق، وهو إجراء لا يقدم الدليل على مدى قوة سلاح الطيران المصري.

«وفي اليوم التالي، زرت عبد الناصر في منزله بعد الظهر، وكان يوماً قائظاً الحار، فاقترح أن نتمشى في الحديقة وأثناء سيرنا، أشرت إلى موضوع الطيران، وذكرت له أنه لو (لو) اعتدت إسرائيل علينا، فإن كفاءة سلاح الطيران المصري عندنا ستكون هي الفصل الحاسم في المعركة. وسألته عن مدى استعداداتنا في ذلك المجال، فكان رد عبد الناصر أن عبد الحكيم عامر أكد له أن استعداداتنا كاملة»^(١٣٥).

ويتعين أن يستوقفنا في رواية محمود رياض أولاً، كون الأزمة اديرت، حتى عندما بدأت تقترب من الصدام العسكري، من دوار العربة، من بيت الرئيس، والاحتماعات تعقد، لا في مركز القيادة، بل على موائد العداء، أو أثناء النزهة في حديقة الدوار وحتى عندما ادلهمت الأمور تماماً، ظل عبد الناصر يدير المسائل من منزله ويعترف محمود رياض، فيما يحص ذلك «حالني شعور بالقلق. فقد كان عبد الناصر يتحدث وهو في منزله وليس من مقر القيادة العسكرية حيث يتوافر له متابعة سير القتال»^(١٢٠) وثانياً، أن عبد الناصر ذاته ظل يتسقط الأنباء ويستدر المعلومات عما كان جارياً حول مصر من كل وادي مصدر إلا المصدر الذي كان ينبغي أن «يضعه في الصورة» دقيقة بدقيقة، بل ثابته بثابته، وهو «المخابرات» وهذا الغياب الكامل للمخابرات واضح وضوحاً لافتاً للنظر في الأزمة كلها فلم يرد في مذكرات أي مسؤول مصري ما يشير إلى أن القيادة السياسية أو حتى العسكرية علمت بشيء مما كان يدره «العدو العادر» لمصر أو للنظام، من تقرير نير مليء بالمعلومات والتحليلات وضعته مخابرات النظام، أو حتى من حرق من معلومة وكما قال الفريق أول محمد فوزي «لم يكن عبد الناصر يعلم شيئاً عن قدرات العدو، ولم يكن يعرف حقيقة قدرات قواته هو». وكانت كل تقديرات عبد الناصر عما يحتمل أن تفعله أو لا يحتمل أن تفعله إسرائيل، والولايات المتحدة، والعرب، والشرق، بل والعرب الآخرون، مجرد تخمينات واجتهادات شخصية. ويروي محمود رياض واقعة مفزعة تشير إلى الطابع المسرحي، الطابع التمثيلي للعملية كلها، فيقول

ويبدو أن عبد الناصر تحدث مع عبد الحكيم عامر ونقل إليه مدى قلقي (فيما يحص استعداداتنا) فقد فوجئت، بعد اجتماع لنا بقصر القبة، بعد الحكيم عامر ينتحي بي حاساً ويقول «يبدو لي أن هناك ما يقلقك، فما هو» وأحبته قائلاً «إني أرى أن الموقف يزداد توتراً وليس لدي أية معلومات عن مدى استعداداتنا العسكري. وصطك عبد الحكيم عامر قائلاً «اسمع لو حدث (١) وقامت إسرائيل بأي عمل صدياً، فإبنا نستطيع بثلاث قواتنا فقط أن نصل إلى بير سبع ولكي نتأكد بعسل، ما راك أن تروري في القيادة لكي تطلع على الموقف العسكري»^(١٢١)

ومن الواضح من الكلام أن القائد العام للقوات المسلحة المصرية لم يكن يعرف، حتى ذلك الوقت المتأخر، أي شيء عن نوايا العدو الغادر وتحركاته، فظل يخمن «لو حدث وقامت إسرائيل بأي عمل ضدنا»، وأنه لم يكن يعرف شيئاً عن قدرات العدو وحجم قواته «نستطيع بثلاث قواتنا فقط أن نصل إلى بير سبع»، وأن الاستعدادات العسكرية لم تبحث أو تناقش أو تستعرض في اجتماعات مجلس حرب أو وزارة حرب، وأن وزير الخارجية عندما سأل عنها، قيل له أن يتفضل بزيارة القائد العام في مكتبه ليرى بنفسه. والمفزع في كل ذلك ما يقوله محمود رياض بعد ذلك مباشرة «ولقد وعدته بأن أفعل، فازوره في القيادة. لكنني لم أذهب لأنني كنت أعلم أنني سوف أرى مجموعة من الخرائط واستمع إلى بيانات وخطط لكنني لن أكتشف أبداً مدى صحة البيانات ولا مدى قدرتنا على تنفيذ هذه الخطط»^(١٢٢).

والادعى للمفزع ما يقوله المسؤول الكبير الذي كان وزيراً لخارجية مصر في تلك الفترة «التاريخية». فهو يذكر أن أحد الوزراء (استجمع شجاعته فيما يبدو) ووجه سؤالاً في اجتماع لمجلس الوزراء

«إلى وزير الحربية شمس بدران عن الموقف إذا ما تدخلت الولايات المتحدة عسكرياً لصالح إسرائيل عن طريق الأسطول السادس الأمريكي في البحر الأبيض المتوسط بعد أن أعلن لبني اشكول، رئيس الوزراء الإسرائيلي، أن الأسطول السادس هو الاحتياطي الاستراتيجي لإسرائيل وقد أحاب شمس بدران بار القوات المصرية كفيلة بمواجهة الموقف. ولقد كان الرد مؤشراً خطيراً على التصور الخاطيء لدى القيادة العسكرية وقد اعتقد بعض الوزراء أن وزير الحربية، الذي كان قد عاد لتوه من زيارة إلى الاتحاد السوفياتي، لا يمكن أن يكون قد أعطى ذلك الرد لو لم يكن متأكداً بأن لديه السلاح الذي يواحه به الأسطول السادس الأمريكي»^(١٢٣).

وبطبيعة الحال، لم يكن لدى شمس بدران، «السيد الوزير» الذي كان المصريون تبذل سراويلهم كلما ذكر اسمه أو اسم أي من الآلهة الصغار أمثاله، أي «سلاح» أو أي علم بأي شيء يمكن أن يواجه به الأسطول السادس الأمريكي. كل ما في الأمر أنه رد على ذلك الوزير الجريء الذي تجاسر وسأله بأن «القوات المصرية كفيلة بمواجهة الموقف»، وضمناً بأن «هذه مسائل تخص أصحاب العزبة، أي العسكريين، وأن ذلك الوزير عليه أن يصمت أو - إن شاء أن يخور - أن يذهب فيخور بعيداً، هناك في

الحظائر، مع سائر مواشي العزبة
أما «الموقف» في حقيقته، فكان هكذا

«كانت هناك أشكال من المساعدة تطلبها الإسرائيليون من الحكومة الأميركية - لا ليكسوا الحرب التي كانوا قادرين على كسبها بغير عون من أحد، بل لتمكينهم من تحقيق الأهداف الإقليمية التي حددوها لأنفسهم من مبدأ الأمر فأولاً، كان الإسرائيليون بحاجة إلى أن يتيقنوا من أن السوفيات لن يتدخلوا في قتال كانوا يعرفون من مبدأ الأمر أنه سيكون من جانب واحد وهكذا، فإنه في صبيحة يوم ٥ يوليئ/حزيران، عندما بدأت الهجمات الجوية الإسرائيلية على أربع بلدان عربية، بعث ليفي اشكول برسالة إلى ليدور حوسون طالبا فيها، تحديداً، من الولايات المتحدة، أن تحمي إسرائيل إذا ما خطر للسوفيات أن يتدخلوا وفي يوم ١٠ يوليئ/حزيران، بات ذلك ضرورياً فعندما قامت إسرائيل بعروها الصبح لسوريا صباح يوم ٩ يوليئ/حزيران، بعد أن قبل عبدالناصر رسمياً قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار وكان قوله لوقف إطلاق النار باسم الجمهورية العربية المتحدة التي كانت سوريا جزءاً منها، بات الوضع غير مقبول حتى بالنسبة لليكسي كوسيجين، رئيس الوزراء السوفياتي، الذي ساد باستخدام «الحط التليفوني الساحن» بين موسكو وواشنطن، في صباح اليوم التالي (١٠ يوليئ/حزيران) ليقول لحوسون أن الإسرائيليون قد تهادوا كثيراً، وأن الاتحاد السوفياتي سيصطد الآن إلى التدخل بشكل مباشر وبعد اجتماع قصير عقده حوسون بالبيت الأبيض لعريق الحرب المحصن للسرق الأوسط، صدرت التعليمات للأسطول السادس بمرته أن يستدير عائداً إلى شرق المتوسط وكان ذلك عملاً استغرائياً صريحاً محفوفاً بمخاطر ضخمة يمكن أن تترتب على رد فعل السوفيات، لكنه اتخذ فوراً وبغير أدنى تباطؤ عندما دعت إليه الحاجة كيما تمكن «قوات الدفاع الإسرائيلية» من اتمام المهمة التي كانت قد اصططعت بها في سوريا

«وفيما بعد، قال هاري ماكغرسون، أحد معاوين الرئيس الأميركي «كانت الحالية اليهودية الأميركية تعتقد أن جوسون لم يفعل شيئاً لها، وأنه كان في الواقع مستعداً لأن يتزل إسرائيل عرصاً لمعاونة قطيعة ولم يكن يوسعنا (في الرئاسة الأميركية) أن يقول شيئاً عن إعادة الأسطول السادس إلى شرق المتوسط ولم يكن يوسعنا أن يقول علناً شيئاً مما قلناه للسوفيات على الحط الساحن من أنه كان من الأسلم لهم أن يرفعوا أيديهم عما كان حادثاً في الشرق الأوسط، لأن ذلك كانت ستصبح له آثار بعيدة على علاقاتنا بالروس، ولأننا كنا معيين بتسوية الوضع في الشرق الأوسط»^(١٢)

فالسيد الوزير شمس بدران لم تكن لديه ضمانات من الروس، ولم يكن يعلم شيئاً عن نوايا الروس، ولم يكن لدى عبد الناصر نفسه أي تقييم واقعي حقيقي لما يحتمل أن يكون عليه موقف الأميركيين، أو موقف السوفيات، أو موقف أحد

وقبيل الصرب بأيام ظل يسأل محمود رياض عن «تقييمه لاحتمالات الهجوم الإسرائيلي» ولاحظ رياض أن «قلقه كان يزداد يومياً (بذلك الخصوص، لأنه لم يكن يعرف) ومن المضحك المبكي أن وزير الخارجية قال لرئيس الدولة في معرض رده أن «إسرائيل كانت لديها حالياً ولا شك صورة واضحة عن توزيع قواتنا العسكرية (وأنه أن) كانت البيانات التي سمعها من عبد الحكيم عامر ومن وزير الحربية عن استعدادات قواتنا المسلحة حقيقية فإن إسرائيل بعير شك سوف تتردد في القيام بأي عدوان علينا»^(١٣) فورير الخارجية في حكومة تدير شؤون بلد على شفا الحرب كان واثقاً موقناً من أن العدو لا بد قد تكاملت لديه صورة واضحة عن القوات المصرية وتوزيعها، لكنه لم تكن لديه، لا هو ولا رئيس الدولة، أية معلومات، أو حتى مؤشرات يركز إليها، عن قوات العدو وتوزيعها، ولم يكن مطمئناً إلى أن المعلومات التي قدمها القائد العام ووزير الحربية عن استعدادات القوات المصرية «حقيقية» وبطبيعة الحال، لم يكن لديه ما جعله يتصور أن القائد العام أو وزير الحربية كانت لديه أية معلومات، حقيقية كانت أو نصف حقيقية، عن استعدادات قوات العدو.

وهذا وضع غريب في الواقع، والأغرب منه أنه - حتى في غيبة أي معلومات متيقنة - كانت التكهنات معلومة

«كانت مقابلاتي مع عبد الناصر قد تعددت يومياً في تلك الفترة، وقد ذكر لي في إحدى المقالات أن عبد الحكيم عامر أكد له أن سلاح الطيران المصري على استعداد كامل لمواجهة الموقف، وأضاف قائلاً أن عبد الحكيم أبلغه أنه أرسل سرباً من طائراتنا إلى العردقة على شاطئ البحر الأحمر لمواجهة «الهجوم الإسرائيلي على شرم الشيخ» ومرة أخرى، لم استرح إلى هذا التفكير المنفي على أن إسرائيل ستترتك مثل هذا الخطأ بتوجيه هجومها الرئيسي، في حالة قيامها بالحرب، إلى شرم الشيخ»^(١٤).

ومصدر الغرابة فيه أن دولة حديثة منظمة ذات قوات عسكرية وقيادات وكل ذلك يمكن أن تدير أزمة خطيرة كهذه يمثل هذا التخطيط والتكهن والافتقار إلى المعلومات، وأن دولة يديرها صباط متخصصون يمكن أن تدير أمورهم في مسائل الحياة والموت يمثل ذلك الأسلوب الأعمى، وأن دولة يجلس على قممتها ضابط كان «أستاذ التحركات في كلية أركان الحرب» وعلم التحركات هو أعقد علم وكان يرسم فيه الضباط كثيراً مرة أو مرتين وأربع مرات هذا العلم هو عمل جدول مواعيد تحركات الجيوش وتموين مختلف الأسلحة وضبط تحركات القوات البرية مع البحرية مع الجوية.. علم معقد جداً، واستاذ هذا العلم عبد الناصر^(١٢٢) يمكن أن تنجرف على عباب الكبرياء والاعتبارات العاطفية الناجمة عن فشل الوحدة مع سوريا التي «كانت صدمة شديدة لعبد الناصر، فقد خلالها سوريا في غمضة عين وهو الذي كان يعشقها عشقاً خاصاً ولا تضيق من ذاكرته استقبالات الشعب السوري له وحمل عربته فوق الأكتاف في حلب» وكانت ولا شك أول هزيمة سياسية تعرض لها عبد الناصر، فقد أفقدته الكثير من شعبيته التي كانت قد تدعمت بانتصارات متتالية، وأوضحت له أن طبيعة نظامه لم تكن مستقرة على أسس راسخة^(١٢٣).

ومصدر الغرابة أيضاً أن هذه دولة عصرية استكملت عدتها اللازمة لمواجهة تحديات العصر بأجهزة مخابرات باتت - باعتراف عبد الناصر نفسه بعد الهزيمة - دولة داخل الدولة. وعندما سئل امبراطور تلك الدولة، بعد انزاله عن عرشه (لمقتضيات سياسية كما أكد هو) لأن أحداً لم يكن يجزؤ على الاقتراب منه دع عنك توجيه الأسئلة إليه أيام كان محتكماً في رقاب المصريين وأرواحهم وعقولهم وأجسامهم، هذا السؤال «هل للمخابرات ضرورة؟ ألا يمكن لأي دولة أن تستغني عن المخابرات؟»، أجاب على ذلك من بحر علم واسع: «الرد على ذلك بسيط للغاية. فالدول تعيش اليوم في عالم أشبه بغابة مليئة بالوحوش ويبدو عملياً أن قانون الغابة هو الذي يتحكم في العلاقات الدولية «عش لتأكل أو تؤكل». فقد ازدادات الصراعات والخلافات بعد أن سادت المعمورة مذاهب ونظم جديدة.. كل طرف يحاول أن يدمر الطرف الآخر بلا هوادة ولا رحمة مستغلاً في ذلك أرقى ما وصلت إليه التكنولوجيا الحديثة من أدوات الدمار ووسائل الإبادة وهكذا أصبحت ضرورة جوهريّة لأي دولة عصرية أن تحمي نفسها عن طريق المعرفة. والمخابرات، في سبيل تحقيق تلك المعرفة تحوي بين دروب نشاطها عملية ضخمة باهظة التكاليف، نتيجة لتلك الحروب.. ونحن في مصر وفي أية دولة عربية عشنا وما نزال نعيش ما يزيد على نصف قرن من الزمان نواجه عدواً شرساً له أطماع توسعية، كما تترصد بنا دول كبرى قاسينا من بعضها الاستعمار لحقبات من الزمان كل منها تتصارع الآن لفرض نفوذها في المنطقة محافظة على مصالحها، وعدونا الأول هو إسرائيل. ومن أولى المبادئ في أي حرب أن يعد كل جانب نفسه ليكون أقوى وأكثر تقدماً (وأوفر معلومات بطبيعة الحال) من الجانب الآخر..»^(١٢٤) وهذا عظيم. ولكن أين كانت المخابرات وكل تلك المؤامرات الشريرة تحاك والشراك تدبر ضد مصر، فإن لم تكن مصر مهمة، فبماذا النظام، وإن لم يكن النظام مهماً، فبماذا الزعيم؟ الأغلب أنها كانت منشغلة بالعدو الحقيقي المصريين. أوروبما كانت في تلك الحال التي جاء وصفها - بطريقة غريبة في الواقع - على لسان صلاح نصر عندما قال «لنذكر ما جاء على لسان الملك جون بطل المسرحية التي كتبها وليام شكسبير حيث عبر عن رأيه في المخابرات بعد أن تخلّى عنه عملاؤه وجواسيسه بقوله: هل كان رجال مخابراتنا سكارى؟ هل كانوا نياماً؟»^(١٢٥).

ومما يرويه من عاصروا تلك الأيام المعتمدة في تاريخ مصر من داخل دهاليز السلطة، لا في الشوارع أو بجوار أجهزة الراديو، يتضح أن شخصاً واحداً ممن كانوا محيطين بعبد الناصر أو مقعنين تحت قدميه جرو على طرح السؤال الذي كان لا بد أن يطرح:

«قال لي صدقي سليمان أن اجتماعاً (للجنة التنفيذية العليا) عقد في ٢١ مايو/أيار ١٩٦٧، برئاسة جمال عبد الناصر، حضره المشير عبد الحكيم عامر، وزكريا محيي الدين، وأنور السادات، وحسين الشافعي، وصدقي سليمان رئيس الوزراء، وقال لي أن الاجتماع عقد في صالون منزل جمال عبد الناصر دون جدول أعمال أو تحضير، وأنه عندما عرض عليهم عبد الناصر قراره باغلاق خليج العقبة، لم يعترض أحد منهم مطلقاً، وكان الصمت تعليقهم الوحيد (١) فلم يتكلم إلا صدقي سليمان الذي تسامح بحسن بية عما إذا

كانت تقارير المعلومات والمخابرات^(*) تظهر الصورة واضحة وعمما إذا كانت احتمالات قفل خليج العقبة قد درست دراسة عميقة واقعية وكان الحواب من جمال عبدالناصر مختصرا بالايجاب ويقول صدقي سليمان انه يلوم نفسه لوما شديدا على عدم دحوله في مناقشة صريحة حول القرار وقد أكد حقيقة ما رواه لي صدقي سليمان ما قاله جمال عبد الناصر نفسه بعد الهزيمة للشهيد عبدالخالق محسوب، سكرتير الحرب الشيوعي السوداني، عندما سأل هذا الأخير عن السر وراء قفل خليج العقبة، فقال له عبدالناصر أن الوحيد الذي ناقش الأمر معه كان صدقي سليمان وقد أكد لي ركزيا محيي الدين حقيقة ما دار في هذا الاجتماع، وفسر عدم تساؤلهم أو مناقشتهم للقرار بأنهم كانوا على ثقة من جمال عبد الناصر، وأن حضور المشير ومواقفته دلا على الاطمئنان لقدرة القوات المسلحة^(**).

- (*) يستعرض أحمد حمروش دور المحابر (الحربية) في المكسة، فيقول
- ثقة المشير عامر المطلقة بمعلومات المخابرات الحربية التي تبين أنها كانت خاطئة ومضللة منذ ١٥ مايو/أيار ١٩٦٧ ويدلل على ذلك (الخطأ والتضليل) أن المخابرات قدمت تقريراً يوم ٢٧ يونيو/حريان ١٩٦٧، بعد انتهاء العدوان كشفت فيه عن أن قوات العدو (التي قامت بالعدوان) كانت تزيد ٥٠٪ كما جاء في تقاريرها السابقة (١)
- كما أن تحليل المخابرات الحربية لعملية احتلال العدو لبعض المواقع الأمامية في الساعة الواحدة من صباح ٥ يونيو/حزيران ١٩٦٧ استعداداً (للهجوم) كان محرد إجراء من جانب العدو - تدعيم وتقوية دفاعاته في الحط الأول، وكان وصول أساء (احتلال تلك المواقع المتقدمة) متأخرة، إذا لم يعرضها علي شقيق على المشير إلا في الساعة السابعة صباحاً، أي بعد ٦ ساعات من (احتلال العدو للمواقع)، وثقة المشير في ذلك التحليل (الحاطي) للمحابر، وتحدي قيادة القوات الحوية لـ «راي» عبد الناصر في موعد الهجوم، كل ذلك أدى إلى أن يطير المشير في الثامنة من صباح ذلك اليوم ويترك القوات المسلحة بلا قيادة فعالة (وصدور التعليمات للدفاع الحوي بعدم اطلاق الطيران لأن السيد المشير في الجو) في أدق لحظات الخطر
- وأنوقف قليلاً هنا لأنقل ما رواه الفريق أول محمد هوري حول تقارير المخابرات الحربية وكشف فيه عن أن تكل التقارير كانت من أهم نقاط الضعف التي زيفت الحقيقة وخدعت القيادة العسكرية والقيادة السياسية معاً، يقول الفريق أول محمد هوزي
- «دعونا نستعرض ما كانت ترسله المخابرات الحربية من يوم ١٥ مايو/أيار ١٩٦٧
- ١ - يوم ١٥ مايو/أيار «ما رالت هناك تجمعات عسكرية إسرائيلية في المنطقة الشمالية من ٥ إلى ٧ لواءات» وهذه معلومات خاطئة
 - ٢ - يوم ١٧ مايو/أيار «الروح المعنوية للشعب الإسرائيلي منخفضة وهناك حالة منتشرة من الخوف والتساؤل في إسرائيل».
 - ٣ - يوم ١٩ مايو/أيار «الأحداث التي جرت في المنطقة قد قللت من فرص إسرائيل في تحقيق المبادأة، ودفعتها إلى اتخاذ موقف التريث والانتظار».
 - ٤ - يوم ٢١ مايو/أيار «ظهر نشاط نقل حوي إلى الجنوب. الظروف ليست مناسبة لشن عمليات شاملة نظراً لفقد عامل المبادأة والمفاجأة، علاوة على حاجتها للدعم العسكري الخارجي».
 - ٥ - يوم ٢٤ مايو/أيار الفريق صلاح مرتضى، قائد الجيش الميداني، يقرأ تقرير المخابرات عن مقارنة قواتنا بقوات العدو «تفوقنا على العدو في المدرعات ٢ إلى ١ - تفوقنا على العدو في المشاة ٣ إلى ١ - التفوق الشامل لقواتنا على قوات العدو ٣ إلى ١».
 - ٦ - يوم ٢٦ مايو/أيار أخطر تقرير مضلل من المخابرات عن اهتمام إسرائيل بمنطقة ايلات ووصل قوات إضافية إلى تلك المنطقة مؤلفة من ٢ لواءات مدرعة، لوائي مشاة، وكتيبة دنابات».
 - ٧ - يوم ٢٧ مايو/أيار تقارير عن زيادة نشاط العدو تجاه الجنوب وتعزيز حشوده بلواء. وهذا استمرار في الخطأ.
 - ٨ - يوم ٢٨ مايو/أيار موضوع عن أسر مجموعة عمليات مدفعية. كانوا ثلاثة ضباط أو اثنين، تاهوا فأسروا (وهل استحووا؟)
 - ٩ - يوم ٢٩ مايو/أيار المشير عبد الحكيم عامر يأمر بفتح مركز قيادة متقدم في الميدان، وتحريك عربات القيادة كلها إلى هناك وكانت عربات ضخمة. (ولا بين أن كل ذلك القرار قد اتخذ بناء على تقارير المخابرات، كما لا بين المأخذ عليه)
 - ١٠ - يوم ٣٠ مايو/أيار تأكيد (من المخابرات) عن نشاط العدو في وادي الحران ووادي نصاب المعين، أي المحور الجنوبي، (وبالتالي) تعليمات من هيئة عمليات قيادة الجيش الميداني بتأمين الاتجاه التعبوي الجنوبي.
 - ١١ - يوم ١ يونيو/حزيران. مكتب المخابرات في العريش يؤكد أن «عزم العدو وشيك على القيام بعمليات تعرضية ضد الاتجاه الحوبي، واحتمال اسقاط جوي معاد جنوب الكنتيلاء ويؤكد التقرير شن عملية هجومية ضد الاتجاه الجنوبي».
 - ١٢ - يوم ٢ يونيو/حزيران: (المخابرات تؤكد) أن «إسرائيل لن تقوم بأي عمل عسكري تعرض لأن الصلابة العربية الراهنة ستحصر العدو ولا شك على أن يقدر العواقب المختلفة التي سوف تترتب على اندلاع الحرب بالمنطقة (١)». (فتقرير المخابرات تحول إلى خطابات إعلامية من قبيل ما كان يصبه «صوت العرب» مثلاً، وتمجيد الـ «الصلابة العربية الراهنة» = «صلابة الرئيس والمشير» يقدر تقرير المخابرات أن إسرائيل لن تجرؤ على الهجوم!)

من الجاني^٩

ومعنى الكلام واضح، وهو أن الجميع لم يناقشوا رغم إدراكهم لكون القرار لا بد مؤد إلى الحرب، وأن وجود المشير وموافقة كانا دليلاً على أن القوات المسلحة قادرة على القيام بما سوف يؤدي إليه ذلك القرار من اشغال لنيران الحرب - هكذا بغير مناقشة لقدرات القوات المسلحة وقدرات العدو وحسابات الأوضاع الدولية. على بركة الله هيا يا ريس منصوراً بإذن الله ويستطرد أحمد حمروش قائلاً

«ويشير أمين هويدى في كتابه «أصواء على أسباب بكسة ١٩٦٧». إلى حديث دار بينه وبين صدقي سليمان أثناء عمله معه وزيراً للدولة، فيقول «أنديت قلقي الشديد من تصعيد الموقف، بل وأنديت عدم ثقتي في بعض القيادات العسكرية الموحدة، وعدم قدرتها على مواجعة الموقف، فكان رد صدقي سليمان، رئيس الوزراء، بهدوئه المعروف عنه «والله يا أمين الرئيس شايف ان وحوود قوات الطوارئ الدولية (التي عبرته حرب الإذاعات بأنه كان محتسناً وراءها) ري الدم لارم يفتح».

ولا شك أن اتخاذ هذا القرار الخطير، في هذا الوقت الحرج، وبمثل هذا الأسلوب المنعزل البعيد عن حيوية المؤسسات السياسية والديموقراطية يدل على أن نظام الحكم كان أوتوقراطياً يعتمد على جمال عبد الناصر اعتماداً كاملاً، وأن الثقة به - عن قناعة أو مبالاة - كانت مطلقة حتى من أقرب زملائه إليه وهم الذين تقاعسوا عن مناقشته وارتضوا قراره بلا تعقيب بينما هم الذين كانوا يملكون وحدهم أو قبل غيرهم، بحكم الدستورية في السلطة، وبحكم الزمالة القديمة في العمل، فرصة الحوار معه أو مناقشته»^(١٢٨).

تلك «الثقة المطلقة» في صواب رأي عبد الناصر، وحكمة عبد الناصر، والتنازل له عن الحق في أن يتخذ من القرارات ما يشاء دون حوار أو مناقشة أو معارضة أو بصح أو مشورة، بل ودون «معلومات ومخبرات» كما تجرأ صدقي سليمان فذكر وأسكته الرئيس برد مقتضب، ثقة لم تخدم مصر، ولم تخدم - في النهاية - عبد الناصر نفسه، بل قد يقول التاريخ أنها ثقة عمياء - عن قناعة أو مبالاة أو تربح أو خنوع - كانت من العوامل التي دفعت عبد الناصر إلى المزلق الخطر الذي أوقعه في الشرك المعد له عن دراسة متعمقة لشخصيته واستجاباته ونقط الصعف عنده وطبيعة نظامه الفردي وبوعيات المحيطين به وتنازلهم حتى عن أول حقوق النقاش والاستفسار عن الحقائق. ولنصغ إلى عبد الناصر نفسه «وهو يفسر رد فعله على تصريحات أشكول ورايين (التي أطلقت لاصطياده) والتي ذكرها فيها أن إسرائيل ستقوم بعمليات حربية ضد سوريا من أجل احتلال دمشق واسقاط النظام السوري، فقد قال «إن هذا التصريح - الذي صدر يوم ١٢ مايو/ أيار ١٩٦٧ - تصريح وقح جداً الواحد لما يقرأه يعتقد أن هؤلاء الناس قد وصل بهم التبجح والغرور إلى الحد الذي لا يمكن السكوت عليه» (خاصة وأنه تعلق بدمشق) «المدينة العزيزة عند عبد الناصر التي ألهمت قلبه بالحب يوماً وما زالت طبيعته المصرية الأصيلة ترفض الرضوخ للتصريحات المهينة للكبرياء»^(١٢٩) فاشكول ورايين لم يصدرا تصريحاتهما اعتباطاً، بل أصدرهما اعتماداً على «الطبيعة التي ترفض الرضوخ للتصريحات المهينة للكبرياء، وجعلها «وقحة

= ويعلق الفريق أول محمد فوزي على ذلك (المسلسل المهرلي) بقوله

«إنني أقول أن هذه التقارير (من المخابرات) مصللة جداً وقد انتشر هذا التخريب بين القوات في ذلك الوقت وتأثيره طبعاً في الاتجاه المعاكس، خداع وتضليل تقاعس وبلبلة إسرائيل لن تهجم وبالتالي، تقليل درجة الاستعداد (لدى القوات المصرية) تلقائياً، وقد حدث ذلك فعلاً من جانب بعض القوات وقادتها (اعتماداً على تقارير المخابرات). وهنا يجب أن نلاحظ ملاحظة سامة وهي أن تقارير المخابرات الحربية كانت موضع الثقة الكاملة من المشير والمخابرات قالت في ٢ يونيو/حريير أن إسرائيل لن تهجم! ويضيف أحمد حمروش إلى كلام الفريق أول محمد فوزي قوله أنه «لم تكن هناك طلعات استطلاع جوي متوافرة كثيرة لتتفني أو تؤكد كلام المخابرات الحربية. خرجت طلعة استطلاع واحدة أو طلعتان في الجنوب لتعرض (لقتطلع) موضوع الحشد، وجاءت منها صور عن العقبة لا عن إيلات (١) والطلعة الثانية لم تؤكد التأكيد المصبوط. ومن ذلك تم التصديق على تقرير المخابرات بأن هناك حشداً موجوداً كما قدره التقرير، ثلاثة لواءات مدرعة، و٢ لواء مشاة ميكاسيكي وكتيبة دبابات ثم قالت المخابرات أنه عزز بلواء آخر».

(أحمد حمروش «خريف عبد الناصر» ص ١٤٦ - ١٤٨)

جدا» وملاها بـ «التبجح والغرور اللذين بلغا حدا لا يمكن لتلك الطبيعة ذات الكبرياء أن تسكت عليه» وجعلها مدارها سوريا التي ظل عبد الناصر يتوجع من انفصالها عنه، ودمشق المدينة التي ألهمت قلبه بالحب يوما. فكأننا نشهد مأساة رومانسية تحدث فيها العواطف وتحيش وتصطبغ وتعربد الكبرياء الحريجة، فتضيق العقل وتخرس صوت المنطق وهذا، في الحياة الفردية أقصر السبل إلى الدمار، وفي حياة الأمم أقصر السبل إلى وضع العنق تحت حذاء العدو العادر، خاصة إذا ما تواكب احتدام العواطف وعربدة الكبرياء مع الافتقار إلى المعلومات وضلال الأحكام «ويفسر عبد الناصر لضباط القوات الجوية التطور السريع للأحداث فيقول «أنه لم يكن هناك تفكير قبل يوم ١٢ مايو/ أيار ١٩٦٧ (الذي جُلجلت فيه تلك التصريحات من إسرائيل) في اتخاذ أي إجراء، على أساس أن إسرائيل لم تكن تجرؤ على مهاجمة أي بلد عربي»^١ تماما كما كان عبد الناصر مقتنعا وظل مقتنعا حتى لحظة نزول المظليين البريطانيين في بور سعيد سنة ١٩٥٦ بأن «بريطانيا وفرنسا لن تنزلا إلى مستوى التآمر الوضيع مع إسرائيل ضد مصر». وفي كلتا المرتين كان الحكم العاطفي مسبيا على غياب كامل للمعلومات السليمة وافتقار للرؤية

وإلا فعلى أي أساس انبنت القناعة بأن «إسرائيل لم تكن لتجرؤ على مهاجمة أي بلد عربي» وقد هاجمت صباح ٥ يونيو/ حزيران ١٩٦٧ أربع بلدان عربية، لا بلداً واحداً، إن لم يكن ذلك الأساس المظلم تصور أن إسرائيل، هي الأخرى، كانت قد باتت مثل مصر، «تخاف من الرئيس وأجهزته»، أو القناعة التي تولدت عن التأليه المفضي إلى التآله بأن الرئيس كان قد بات قادرا على أن يقول للشيء كن فيكون، أو يقول له لا تكن فلا يكون، فلا بد أنه - ذلك الأساس - كان الحهل الكامل بأبعاد الموقف، والافتقار الكامل إلى صواب الرؤية، والانخداع الكامل بالتأكيدات المغلوطة والمكذوبة من جانب السادة المسؤولين الكبار السيد المشير عن مدى قدرة القوات المسلحة المصرية، في مقابل قدرة قوات العدو، والسيد وزير الحربية شمس بدران عن تأكيدات الروس، والمستشارين السياسيين، إن كان لهم وجود، عن نوايا الأميركيين.

وفيما يحص قدرات القوات المسلحة المصرية وقدرات قوات العدو، وهي من أهم «الحسابات المعقدة» التي كان يجب أن تحري قبل الدخول في أي تناطح مع إسرائيل حتى بالخطب والتصريحات استعدادا لما قد يعصي إليه ذلك التناطح و «استعراض العضلات»، لا حاجة بأحد للدخول في تفاصيل كثيرة، فقد حسمت تلك الحسابات عسكريا بالهزيمة الماحقة والطعنة النافذة التي لم تندمل في جسد مصر وروحها أما تأكيدات الروس، فقد أكد مصريون مسؤولون كثيرون، وأكد السوفييات أنفسهم أنها لم تعط ويبدو أن السيد وزير الحربية شمس بدران عالج مسألة «تأكيدات الروس» بنفس الأسلوب الذي كان هو والسيد المشير يعالجان به مسألة «قدرات القوات المسلحة المصرية»

ففي يوم ٢٥ مايو/ أيار ١٩٦٧، طار شمس بدران، وزير الحربية المصري، إلى موسكو وطار أنا إيبان، وزير خارجية إسرائيل، إلى باريس ولندن وواشنطن وعاد إيبان إلى تل أبيب، وهو الوزير الحبير المتمرس، بعد أن تعرف على حقيقة مواقف الدول العربية من قضية المساندة للحكومة الإسرائيلية

«وكانت زيارة شمس بدران لموسكو، في هذه الفترة الحرجة، ذات أهمية قصوى، مما يدعو إلى مناقشة نتائجها بتركيز شديد وإذا ما تعاصيا عن قدرة شمس بدران على تحمل مسؤوليته كوزير لحربية مصر، في وقت كان أعد ما يكون فيه عن متابعة التطورات العلمية الحديثة لوسائل القتال، وفي مستوى محدود وصلت إليه خبراته ودراساته، فإسما مع ذلك يجب أن نقف عند هذه الزيارة لما أحاط بها قاله شمس بدران في مجلس الوزراء بعد عودته من علامات استفهام وتعجب

«وقد قال لي الدكتور مراد غالب، سفير مصر في موسكو آنذا، والذي حضر مباحثات شمس بدران مع حريتشكو وكوسيجين، أنه أرسل تقريرا شخصيا إلى جمال عبد الناصر عن نتائج الزيارة وما ورد فيها من تحفظ سوفياتي على بعض الخطوات التي اتحدت، والتي قد تؤدي إلى التورط في حرب غير محسوبة النتائج» «وقد أرسل مراد غالب ذلك التقرير مع حمدي عاشور، محافظ الاسكندرية، الذي كان يقوم وقتها بزيارة للاتحاد السوفياتي، وذلك خشية من أن يكون شمس بدران لم يعط تماما إلى الموقف السوفياتي على حقيقته، وتقديرا من السفير المصري لما أحاط بالموقف من أخطار.

من الجاني»

«ويذكر أن شمس بدران أحاب على تساؤل في مجلس الوزراء المصري عما إذا كانت مصر قد أدخلت في حساباتها وجود الأسطول السادس الأميركي في شرق البحر الأبيض المتوسط، بقوله أنه «إذا تدخل سنحطه»^(١١١)

والذي حدث في زيارة شمس بدران لموسكو أن

«القيادة السوفياتية أكدت له أكثر من مرة أملها في عدم تصعيد الموقف، والاكتفاء بما حصلنا عليه من انتصارات. وهذه حقيقة لا حدال فيها وكان السفير الروسي في القاهرة يقوم بمثل هذا التأكيد أيضاً أما ما قيل عن أن الاتحاد السوفياتي وعد السيد شمس بدران بالتدخل في حالة (وقوع) أي عدوان على مصر، فبعيد عن الحقيقة، بل وتؤكد الصحافة السوفياتية أن الكسي كوسيحيين، رئيس الوزراء السوفياتي، أكد المرة تلو المرة على (وجوب) عدم تصعيد الموقف، والعمل على تعزيز الانتصارات السياسية التي حصلنا عليها دون التورط في القتال»^(١١٢)

«الأمر المؤكد أن خطأ ما قد حدث فيما نقله شمس بدران (عن موقف الاتحاد السوفياتي كما أوضحه له السوفيات على أعلى المستويات في ريارته لموسكو)، وفي عدم اطلاق جمال عبد الناصر على المحصر الرسمي للمحادثات»^(١١٣)

ويروي القصة الفريق أول محمد هوري

«كان الوزير شمس بدران قد كلف بمهمة للسفر إلى موسكو في الأسبوع الأخير من شهر مايو ١٩٦٧ ومعه وكيل وزارة الخارجية أحمد حسن الفقي، وانضم إليهما في موسكو سفيرنا هناك الدكتور مراد عالب. وتم اللقاء كالمعتاد، والهدف هو دعم جديد، أسلحة للقوات المسلحة والمهمة انتهت سريعاً، مثل باقي المهام الأخرى وأثناء عودة الوزير شمس، كان وزير الدفاع السوفياتي حريتشكو يودعه، فحصلت منه لفظة تقليدية بكلمة محاملة حبط على كتف شمس بدران للمجاملة وشدوا حيلكم احنا معاكم حاجة من هذا القبيل»
«وعاد الوزير شمس ومعه زميله وكيل وزارة الخارجية ومعهما المظروف الذي به محصر المباحثات الوزير شمس اتجه رأساً من المطار إلى الرئيس جمال عبد الناصر، وقال له حملة ما معناه أن الحكومة السوفياتية والقوات المسلحة السوفياتية معنا فذلك هو ما فهمه شمس بدران من اللفظة العاطفية التقليدية، لفظة المجاملة من وزير الدفاع السوفياتي في توديعه بالمطار ثم اتضح بعد ذلك أن الطرف الرسمي الأكيد الذي احتوى جلسة موسكو لم يطلع عليه الرئيس جمال عبد الناصر إلا في ١٢ يونيو/ حزيران ١٩٦٧ (أي بعد الحرب) لم يقرأه جمال عبد الناصر إلا في ١٢ يونيو/ حزيران ١٩٦٧ الطرف ظل مقللاً وكان قد سلم من وكيل الوزارة أحمد حسن الفقي لمكتب عبد الناصر وفيه محصر جلسات الوزير شمس مع القيادة السوفياتية، ومكتوب على الطرف «عاجل جداً ويسلم» ولم يفتح الظرف. ولما فتح الطرف وقرئ (بعد الهريمة) لم يوجد بالمحصر الرسمي أي إشارة سياسية أو معنوية أو أدبية عن المساعدة أو التأييد في الصراع الي حاصل في ذلك الوقت إطلاقاً كله كلام عن التسليح حتاحدوا كذا حيدروا كذا. حاجة زي كدة وأقول هذا للتدليل على الارتجال الشفوي غير الدقيق وتأثيره على الدهن وعلى الفكر»^(١١٤)

فعبد الناصر، وهو في المنزل الخطير الذي استدرج إليه، لم يكن يعرف شيئاً عن حقيقة ما سوف يكون عليه موقف الاتحاد السوفياتي، ولم يعرف إلا في ١٣ يونيو/ حزيران ١٩٦٧.

ورغم كل المؤشرات، ورغم الانحياز الكامل الصارخ المستمر من البداية حتى النهاية إلى جانب إسرائيل ضد مصر، من جانب الولايات المتحدة، ظلت الزعامة المصرية

«في حيرة شديدة من موقف الولايات المتحدة فما نحن لدينا في القاهرة مبعوثان من الرئيس الأميركي، معروف عنهما الموضوعية وعدم التحيز^(١)، ليؤكد ما جاء في رسالة حونسون (الرئيس الأميركي) من أن الولايات المتحدة لن تقبل بعدوان أي طرف على الآخر، وفي نفس الوقت فما هو السفير الأميركي في القاهرة يقول أنه يرى أن احتمال أن تبدأ إسرائيل الحرب قائم بسنة خمسين في المائة»^(١٤٥)

فتلك «الحيرة الشديدة» - غير المفهومة إطلاقاً نظراً لمواقف الولايات المتحدة التي لا تقبل التأويل أو تبجح الشك - في شأن مواقف الولايات المتحدة كانت، في النهاية، من أخطر العوامل في استدراج عبد الناصر إلى شرك ١٩٦٧، وشل يده عن التصرف حتى وقد استدرج إلى بداية المنزلق. وفي تقدير محمود رياض أن «الأمر الذي لا شك فيه أنه لو كان عبد الناصر قد بادرتوجيه ضربة «إثراقيا» إسرائيل بالتعبئة كان حرياً بأن يحول دون كارثة ١٩٦٧، لأنه كان سيمكّن سلاح الطيران المصري من تدمير جزء من سلاح إسرائيل الجوي ويحول دون تدمير الطائرات المصرية وهي على الأرض في مطاراتنا العسكرية

قتل مصر

صباح الخامس من يونيو/ حزيران^(١١٦)

والذي يقوله وزير الخارجية في مذكراته أن ما أقعد عبد الناصر عن محاولة انقاذ نفسه وإنقاذ مصر من الكارثة، وتخفيف قصاء إسرائيل المحموم عن طريق المبادرة بتوجيه «ضربة وقائية» كان الانخداع بموقف الولايات المتحدة والاتسياف المريح للنفس إلى تصديقها عندما ادعت أنها «لن تقبل بعدوان أي طرف على الآخر» رغم ما ذكره محمود رياض من تشكك عبد الناصر في صدق نوايا ليندون جونسون. وفي النهاية، يقول محمود رياض عن تقاعس عبد الناصر عن توجيه ضربة وقائية والهمود في انتظار بدء إسرائيل بالضرب مع ما ترتب عليه من تدمير سلاح الطيران المصري وبالتالي القيام بما أسماه بعض المسؤولين الأميركيين «عملية صيد الديكة الرومية الكبرى» (The Great Turkey Shoot) في سيناء «وهنا تبدو أهمية الدور الذي قام به الرئيس الأميركي ليندون جونسون في عملية الخداع الكبرى، بل وبجأه في إشراك الاتحاد السوفياتي في السيناريو»^(١١٧).

ومما يشير إلى وحشية عملية الخداع التي يحكي عنها محمود رياض بعد الكارثة، هذه الردود التي رد بها نيكولاس كاتزنباخ وكيل وزارة الخارجية الأميركية اليهودي في إدارة جونسون الذي كان من أوائل المسؤولين عن العملية على الجانب الأميركي على الأسئلة التي وجهت إليه في عملية «تسجيل التاريخ» لمكتب ليندون جونسون

«سؤال وماذا عن احتمالات الموقف لو كان القتال قد سار لصالح العرب؟ فأنا أعلم أن لديكم (في الإدارة الأميركية) خطط طوارئ لكل الاحتمالات وسؤالي هو هل نظرت الإدارة في أي حطة من تلك الخطط بقصد وضعها موضع التنفيذ حدياً، على مستوى الرئيس (الأميركي)؟
كاتزنباخ كلا واعتقد أنه لم يوجد أحد على الإطلاق توقع أية إمكانية لأن يسير القتال لصالح العرب.

سؤال بمعنى أن ذلك كان احتمالاً بعيداً للغاية
كاتزنباخ كانت كل تقارير المحاربات مجمعة أجمعاً كاملاً على الحقيقة الماثلة في أن الإسرائيليين سوف «يمسحون الأرض بالعرب» وأن ذلك لن يستغرق منهم وقتاً يذكر ولهذا هاننا لم تكن بحاجة في الواقع لأن نقرر ما الذي كان سيتعين علينا أن نفعله إذا ما سارت الأمور على عكس ذلك»^(١١٨).
وفي الوقت الذي كانت الإدارة الأميركية مطمئنة فيه كل ذلك الاطمئنان القاطع إلى أن «الإسرائيليين سوف يمسحون الأرض بالعرب» وأن ذلك «لن يستغرق منهم وقتاً يذكر»، بعث الرئيس الأميركي ليندون جونسون رسالة إلى جمال عبد الناصر مع ريتشارد نولتي، السفير الأميركي الجديد الذي كان قد قدم إلى القاهرة ليقدم أوراق اعتماده، يوم ٢٣ مايو/ أيار ١٩٦٧. وقد أورد محمود رياض نص الرسالة والمذكرة المرفقة بها، بترجمة الخارجية المصرية^(١١٩).
قال جونسون لعبد الناصر، في الرسالة:

«لقد قصيت معظم الأيام الماضية أفكر في الشرق الأوسط وفي المشاكل التي تواجهونها والمشاكل التي يواجهها في المنطقة وقد ذكر لي عدد من أصدقائنا المشتركين بمن فيهم السفير لوشيبوس باتل أنكم قلقون لأن الولايات المتحدة قد أبدت اتجاهات غير ودية تجاه الجمهورية العربية المتحدة وأود، بصورة مباشرة، أن تعلموا أن هذا أبعد ما يكون عن نوايانا
«ولقد راقبت من بعد جهودكم لتعمية بلادكم والنهوض بها، وأظنني أفهم كبرياء شعبيكم وأمانيه وتصميمه على أن يدخل العالم العصري ويشارك بدوره الكامل فيه بأسرع ما يمكن وأمل أن نتمكن من إيجاد الوسائل العامة والخاصة على السواء للعمل معا بطريقة أوثق.
«كذلك فإني أفهم القوى السياسية التي تعمل في منطقتكم وأفهم المطامع وأسباب التوتر وكذلك الذكريات والأمال

«وبطبيعة الحال، فإن من واجبك وواجبي في الوقت نفسه ألا ننظر إلى الوراء، وإنما ننقذ الشرق الأوسط - والمجتمع الإنساني كله - من حرب اعتقد أنه هناك من يريدها. ولست أعرف الخطوات التي سيتقترحها عليكم السكرتير العام للأمم المتحدة يوثانت، ولكنني أحتكم على أن يكون واجبك الأول تجاه أمتكم وتجاه منطقتكم وتجاه المجتمع العالمي كله هذا الهدف السلمي: وهو تجنب أعمال القتال.
«إن المنازعات الكبرى في عصرنا هذا يجب ألا تحل بالاجتياز غير المشروع بالحدود بالسلاح والرجال». وفي الرسالة، لوح جونسون لعبد الناصر، عملاً على المزيد من التهدئة، بأنه «كان يتوقع أن يطلب إلى نائب الرئيس، هيوبرت همفري (أحد أشد أتباع إسرائيل في المؤسسة الأميركية ولاء وضراوة) أن يتوجه إلى الشرق الأوسط لأجراء محادثات معكم ومع غيركم من الزعماء العرب وكذلك مع الزعماء الإسرائيليين، ووعدته بأن

من الجاني؟

يقوم هيوبرت همفري بتلك الزيارة الميمونة «إدا ما حرحا من هذه الأيام (اواخر مايو/ ايار ومطلع يونيو/ حزيران ١٩٦٧ بدون قتال»

وفي المذكرة الشفوية الملحقة بالرسالة، قال جونسون ما يلي «ليس لدينا أي سبب للاعتقاد في هذا الموقف الحالي بأن أحدا من أطراف اتفاقات الهدنة بين الدول العربية وإسرائيل لديه النية في ارتكاب عدوان». وعاد فأكّد أن «حكومة الجمهورية العربية المتحدة والحكومات العربية الأخرى تستطيع - في الموقف الحالي - أن تتأكد بيقين وأن تعتمد على أن حكومة الولايات المتحدة الأميركية تعارض معارضة صارمة أي عدوان في المنطقة من أي نوع» ويقول محمود رياض «وكان عبد الناصر قد سألني أكثر من مرة طوال الأيام العشرة السابقة (من ١٢ إلى ٢٣ يونيو/ حزيران ١٩٦٧) عن الموقف الأميركي، لأن هذا العامل وحده هو الذي سيثبّج أو لا يثبّج إسرائيل على بدء حرب جديدة في المنطقة. وهكذا فإنني عندما تسلمت رسالة الرئيس الأميركي جونسون، توجهت على الفور إلى عبد الناصر»^(١٠٠).

وبعد أن قرأ عبد الناصر الرسالة، سأل محمود رياض قائلاً «ولكن، هل تعتقد أن هذه الرسالة تمثل موقفاً حقيقياً من جونسون؟» فقال رياض «بالتأكيد فأننا لا أتخيل أن يخدعنا رئيس الولايات المتحدة في رسالة رسمية موقعة بامضائه يقترح فيها إفاد نائبه هيوبرت همفري إلى المنطقة (١)». «وسكت عبد الناصر قليلاً قبل أن يقول معترضاً: «أنا ما زلت أشعر بعدم الاطمئنان بل إنني أشك في صدق هذه الرسالة من جونسون. فإذا كانت لديه كل تلك النوايا في الانحياز الكامل لإسرائيل ومعاداتنا لحسابها طوال السنوات السابقة، فهل سيتنكر فجأة لكل ذلك ويتخذ موقفاً عادلاً بيننا وبين إسرائيل؟» ويضيف محمود رياض قائلاً: «ولم تمر سوى أيام قليلة قبل أن أتبين خطئي في التقدير، وصحة شكوك عبد الناصر. بل إن الأحداث سرعان ما أثبتت أن تلك الرسالة من جانب جونسون كانت في الواقع أكبر عملية خداع يقوم بها رئيس أميركي على الإطلاق لصالح بلد، وضد بلد آخر»^(١٠١).

وربما تصور محمود رياض أنه أدى خدمة لذكرى عبد الناصر عندما أبرز «شكوكه» و «عدم اطمئنانه» في مقابل انخداعه هو كوزير خارجية، فيما يخص رسالة جونسون. والحقيقة أن الموقف كله - رغم الشكوك وعدم الاطمئنان - مفصح عن سوء الفهم الجوهرى والمميت الذي وقعت فيه الثورة من أول ليلة لها عندما تصورت أن الولايات المتحدة الأميركية، بتركيباتها السياسية وتبعية سياستها وحكامها ومشروعها لليهودية العالمية وحرص كل رئيس أميركي، أو عضو كونجرس أو وزير أو مسؤول حكومي على بقائه السياسي ومستقبله وازدهاره المالى بل وسمعته في حياته وبعد مماته، ذلك الحرص الذي جعل رئيس القوة العظمى الرئيسية في عالم اليوم، ليندون جونسون، لا يتورع عن النزول إلى مستوى الاحتيال والنصب لصالح أكبر استثمار لليهودية العالمية الحاكمة للولايات المتحدة خارج الولايات المتحدة وهو إسرائيل.

والذي فعله جونسون لسادته في تلك الأيام التي كان سادته أخذين خلالها في استدراج عبد الناصر إلى شرك الحرب التي لم يكن يريد لها ولم يكن مستعداً لها أو قادراً عليها، أنه - بمناوراته السياسية ورسالاته إلى عبد الناصر وتلويحه بإرسال هيوبرت همفري - كان يعطي الإسرائيليين مزيداً من الوقت ليكملوا استعداداتهم ويحكموا الخناق حول عنق مصر والبلدان العربية. وقد كانت رحلة يوثانت ومقترحاته جزءاً من هذه الجهود الأميركية. فعند وصول يوثانت إلى القاهرة، أخطرت سفارة مصر في واشنطن وزارة الخارجية المصرية أن «الولايات المتحدة تساند مهمة يوثانت» مما أعطى «المشروع جدية إضافية بوصفه بداية لحل الأزمة». وبعد أن حققت رحلة يوثانت أغراضها المتمثلة في مزيد من التخدير لعبد الناصر، ومزيد من كسب الوقت، أهملت الولايات المتحدة مشروعه وكأنه لم يكن. والواقع أن الولايات المتحدة استغلت يوثانت استغلالاً عديم التورع في عملية استدراج عبد الناصر. فمنذ البداية، كان ذلك الأمين العام المطيع سبباً من أسباب تدهور الموقف لصالح الخطة الإسرائيلية الأميركية. وقد كشف عبد الناصر نفسه عن ذلك، كما يقول أحمد حمروش، «بعد فوات الأوان، في حديث أدلى به إلى الصحفي الفرنسي مصري المولد إريك رولونشرته الموند يوم ١٩ فبراير سنة ١٩٧٠، وقال فيه:

«أنا لم أرد شن الحرب سنة ١٩٦٧، والقادة الإسرائيليون يعرفون ذلك جيداً. ولم يكن في نيتي إغفال خليج العقبة في وجه السفن الإسرائيلية. ولم أطلب إلى يوثانت أن يسحب قوات الطوارئ من غزة وشرم الشيخ

المشرف على خليج العقبة، لكن فقط من جزء من الحدود الممتدة من رفح إلى إيلات إلا أن الأمين العام للأمم المتحدة قرر - بناء على نصيحة موظف أميركي كبير في المنظمة الدولية (المرجح الآن أنه كان رالف ناش، المساعد الأميركي بيوثان الذي أوحى إليه بأن يرد على طلب عبد الناصر قائلاً أن «عمل القوات الطوارئ» مهمة سلام لا تتحراه) - سحب جميع تلك القوات ليصغي في موقف المحذر على إرسال القوات المصرية إلى شرم الشيخ وفرض الحصار وهكذا وقعنا في الفخ الذي نصب لنا،^(١٢٢) وبطبيعة الحال، لم يقتصر الدعم الأميركي لعملية «مصيصة الديكة الرومية الكبرى» على مباورات الرئيس الأميركي ليندون حوسون وحداغه للمصريين واستخدامه بيوثان في توجيه الأمور - استغلالاً لكبرياء عبد الناصر التي جرحتها حرب الإذاعات - الوجهة المطلوبة فبينما حوسون أخذ في الغمغمة مهدئاً في أذن عبد الناصر، وهذا الأخير مورع بين «اسمع كلامك أصدقك، أشوف أمورك أستعجب»، وبينما الإسرائيليون من نيويورك، ومن عواصم الغرب، ومن تل أبيب قد استدرجوا عبد الناصر إلى «موقف المجبر على إرسال القوات المصرية إلى شرم الشيخ، وفرض الحصار على خليج العقبة»، كما قال هو للموند، لأنه كان «صعباً، بل شديد الصعوبة أن يتراجع عبد الناصر بعدما استدرج، لأنه عندئذ كان سيخسر كل شيء، وتنهال على رأسه الاتهامات (والإهانات)» كما قال أحمد حمروش^(١٢٣)، كانت الولايات المتحدة أخذاً في تقديم هذا الضرب الحيوي من الدعم للعملية الإسرائيلية

«في الساعات الأولى من صباح ٢ يونيو/ حزيران ١٩٦٧، أوقف طيارو سرب الاستطلاع التكتيكي الثامن والثلاثين، التابع لجناح الاستطلاع التكتيكي السادس والعشرين من سلاح الجو الأميركي، مبكراً من مضاحفهم، وظهرت لهم طائراتهم على عجل، ثم صدرت إليهم التعليمات بالإقلاع إلى مورون بأسبانيا، ووقتها تصور الطيارون أنهم كانوا في طريقهم إلى عملية تدريب في الجو الصحراوي من عمليات حلف الناتو. وكانت طائراتهم الـ RF-4 C طرازاً مطوراً لأغراض الاستطلاع من مقاتلات العانتوم اف - ٤، وكانت - في ذلك الوقت من سنة ١٩٦٧ - أحدث وأفضل الأعتدة الاستطلاعية الجوية، ولم يكن قد انقضى على استخدامها في سلاح الجو الأميركي أكثر من ثلاث سنوات وقد أفلتت أربعة من تلك «الطيور» من مطار رامستاتن بألمانيا الغربية في ذلك الصباح (٢ يونيو/ حزيران) متجهة إلى قاعدة السلاح الجوي الأميركي بمورون، بأسبانيا، ولحقت بها طائرة أخرى ضخمة طراز سي - ١٤١ المخصصة للشحن الجوي، من مطار أبر هايفورد، بالقرب من أكسفورد ببريطانيا حاملة منظومة كاملة من أحدث منظومات الاستطلاع الحوي دابليواس. ١/٤٣

«وفي مورون، حطت الطائرات في ركن قصي من المطار الذي كان محجراً بمعهاط طولها ١٠ آلاف قدم لهبوط قاذفات القنابل الضخمة من طراز بي - ٥٢. وفي المطار، علم الطيارون والفنيون أنهم كانوا في طريقهم إلى ركن قصي من صحراء اللقب للقيام بأعمال الاستطلاع الجوي دعماً لقوات الدفاع الإسرائيلية ضد العرب، وأن مهمتهم على أعلى درجة من السرية، ويجب أن تظل كذلك. ورود الطيارون والفنيون الذين كانوا سيقومون بالطلعات بجوازات سفر مدنية وملابس مدنية، بل وسحبت من الطائرات مراجع تشغيل المعامل الطائرة التي تحمل علامات السلاح الجوي الأميركي واستبدلت بمراجع تشغيل مدنية تحمل شعار شركة «ايرو - تك كوربوشن» الأميركية، وطلبت الطائرات باللون الأزرق ورسمت عليها نجمة داود باللون الأبيض، لتصبح طائرات «إسرائيلية»، وسحبت من الطيارين والفنيين بطاقات الهوية العسكرية وكل المتعلقات التي قد تكشف عن كونهم من رجال سلاح الجو الأميركي، ولم يسمح لهم باستبقاء شيء من ثيابهم العسكرية إلا أحذيتهم وجواربهم وفي حالة إسقاط أي طائرة من تلك الطائرات، كان على أولئك الطيارين والفنيين الأميركيين أن يقرروا أنهم مستخدمين مدنيين لدى الشركة الأميركية يعملون بعمود لدى الحكومة الإسرائيلية «وفيما بعد، علم من اشتركوا في تلك العملية بالاتهامات التي وجهها العرب خلال الأيام الأولى من الحرب، بينما كانوا هم يقومون بعملهم في خدمة القوات الإسرائيلية، عن قيام الأميركيين بتقديم دعم للعمليات الإسرائيلية تمثل في طلعات استطلاعية متواصلة قامت بها طائرات أفلتت من حاملات الطائرات التابعة للأسطول السادس وكان العرب، بتلك الاتهامات، قد وفقوا صدفة إلى حقيقة ما وقع، لكنهم أخطأوا في تحديد المكان الذي قامت الطائرات الأميركية منه بذلك الدعم الاستطلاعي لإسرائيل. فالذي حدث فعلاً أن الطائرات لم تقلع من الأسطول السادس^(*). وقد أثارت تلك الاتهامات غضباً عارماً في العالم العربي، واضطر الرئيس

(*) يروي أحمد حمروش هذه الواقعة التي تكشف - على ضوء ما أورده الكاتب الأميركي في هذا الاستشهاد - عن مدى افتقار القيادة المصرية إلى المعلومات الدقيقة والصحيحة عما كان يجري حولها وفوق رأسها، فيقول «جاءت تقارير من القوات المسلحة تؤكد أن طائرات أميركية قد حطت فوق الأرض المصرية (سيناء) وأن اتجاه الهجوم للغارات»

من الجاني»

حوسون إلى أن يبقى علناً تقديم أي مساعدة من أي نوع إلى إسرائيل، مما جعل تلك العملية التي وصفناها أشد حساسية مما كانت

ولهذا طلت العملية في طوايا السرية وعند انتهائها في ١٢ يونيو/حزيران، بعد أن حولت من الحبهة المصرية إلى الحبهة السورية، عاد الرجال إلى مطار موريون بأسبانيا حيث شرحت لهم الحساسية السياسية البالغة للخدمات التي أدوها لإسرائيل

«مخلال الساعات الأولى من الحرب، ركز سلاح الجو الإسرائيلي على تدمير أكثر عدد ممكن من الطائرات العربية على الأرض وجعل معظم المطارات العربية غير صالحة للاستخدام، مما أفضى بالحيوش العربية إلى قتال دار بين المدرعات والطائرات الإسرائيلية في الصحراء وتنفيذاً لذلك، ركزت طائرات الاستطلاع الأميركية خلال المراحل الأولى من القتال على القواعد الجوية العربية وقد تطلب ذلك أن تقوم الطائرات بطلعات متوالية ليلاً ونهاراً وعندما دمرت القوات الجوية العربية، بات العرب مضطرين إلى تحريك قواتهم ليلاً بالقدر الأكبر عملاً على تجنب هجمات الطائرات الإسرائيلية - التي لم تعد لديهم طائرات تتصدى لها - قدر الإمكان وبوقوع ذلك التحول، تغيرت مهام الطائرات الأميركية القائمة بعملية الاستطلاع الحوي للإسرائيليين من قاعدتها في صحراء النقب، فتركزت على طلعات ليلية لاكتشاف تجمعات القوات العربية وتحركاتها وإبلاغها للإسرائيليين، مما مكّن سلاح الجو الإسرائيلي من القيام بهجمات مدمرة على تلك القوات بمجرد طلوع النهار كما أدى ذلك التحول في مهام طائرات الاستطلاع الأميركية في يومي ٨ و ٩ يونيو/حزيران إلى تمكين قادة قوات الدفاع الإسرائيلية من أن يقيموا على وجه الدقة القدرات العسكرية التي كانت قد تنقلت لدى المصريين والأردنيين، مما يسرّع كثيراً اتخاذ قرارات توحيه القوات الإسرائيلية شمالاً لمهاجمة سوريا، وعدم الاحتفاظ في مواجهة المصريين والأردنيين إلا بالقدر الكافي من القوات الإسرائيلية وبتحول التركيز في القتال على سوريا، تغيرت مهام طائرات الاستطلاع الأميركية، وتركز نشاطها على المواقع السورية فوق مرتفعات الحولان وشمالها

= الحوية كان من الشمال لا من الشرق، مما يعني مشاركة الاسطول السادس وكان الفريق عبد المنعم رياض أحد الذين أبلغوا عبد الناصر باشتراك طائرات أميركية وبريطانية في العدوان على مصر، خلال مكالمات تليفونية من عمان وقد تحاوت هذه المعلومات مع تفكير عبد الناصر الذي استبعد تماماً أن تكون القوات الجوية الإسرائيلية قد تمكنت بمفردها من تدمير القوات الجوية المصرية في مدة لم تتجاوز ثلاث ساعات، فأحرى اتصالاً هاتفياً مع الملك حسين يوم ٦ يونيو/حزيران، سجلته مخابرات ياريف الإسرائيلية وفي المكالمات اتفق الاثنان على توحيه الاتهام إلى أميركا، وقد أدعت إسرائيل تسجيلات لذلك الشريط في مؤتمر صحفي بعد يومين من التقاطه. وقد أكد ذلك لعبد الناصر ما سمعه من السفير السوفياتي خلال مقابلة جرت بينهما على غير موعد يوم ٧ يونيو/حزيران، أبلغه السفير خلالها بأن كوسيجين كان قد تلقى مكالمات من حوسون على الخط الأحمر تقول أن طائرتين أميركيتين اضطرتا للمرور فوق المواقع المصرية لإنقاذ الباقية الأميركية «ليبرتي» التي هاجمها الإسرائيليون، وأن حوسون طلب من كوسيجين أن يبلغ ذلك إلى عبد الناصر.

(أحمد حمروش. «خريف عبد الناصر»، ص ١٦١/١٦٢).

وقد أورد الإخوان تشرشل نص المكالمة في كتابهما، «حرب الأيام الستة» وعلقا عليه بقولهما أنه «مهما كان عدم تصديق عبد الناصر لواقعة تدمير قواته الجوية على يدي إسرائيل، فإن هذه المكالمة تجعل من الواضح تماماً أنه كان أخذاً في طبع مزاعم ملفقة ضد بريطانيا والولايات المتحدة، وتوريط الملك حسين في تلك المحاولة العشية وقد كان يكذب أيضاً على حليفه فيما يتعلق بنشاط طائراته (فوق إسرائيل) وقد أعلن الملك حسين بعد انتهاء الحرب في لندن أنه لم يعد يصدق هذه الحكاية وبعدها بيومين، في ٤ يوليو/تموز ١٩٦٧، سأل مراسل التايمز في القاهرة محمود رياض، وزير خارجية مصر، السؤال التالي «هل تعتقدون حقيقة أن القاذفات البريطانية والطيارين البريطانيين أغاروا على الشعب العربي أثناء القتال؟»، وقد أجاب محمود رياض على ذلك السؤال بقوله أنه ليس لديه دليل على وقوع مثل هذه الغارات، وأضاف قائلاً أن العرب لا يعتبرون هذه المسألة مسألة هامة، لكنها يجب أن تكون هامة للغاية لدى الناس العاديين في بريطانيا»

(Randolph and Winston Churchill. «The Six Day War», pp 90/91)

والإخوان تشرشل يكذبان هنا بصفاقة. فقد كانت هناك طائرات أميركية - لم تشترك في إلقاء القنابل حسب رواية الكاتب الأميركي الذي أوردنا الاستشهاد السابق من كتابه، لكنها قامت بدور أهم كثيراً من إلقاء القنابل وكان ذلك الدور القيام بعمليات الاستكشاف لحساب سلاح الجو الإسرائيلي ضد الأهداف المصرية والعربية، من قاعدتها السرية بصحراء النقب، وتمكين الإسرائيليين من تحقيق النصر المبهر الذي أصيب الإخوان تشرشل بالحمل من فرط انتشاء به، ثم أخذت بعد ذلك ترصد لهم تحركات التشكيلات والوحدات المصرية ليلاً، كيما تحصّد طائراتهم عشرات الآلاف من المصريين نهاراً وبدون ذلك الدور الحيوي للطائرات الأميركية، كان النصر الإسرائيلي المبهر سيصبح عسيراً، نظراً لأن الإسرائيليين لم تكن لديهم مثل تلك الإمكانيات المتقدمة في مجال الاستطلاع الجوي وبخاصة ليلاً ومن حق الأخوين تشرشل، بطبيعة الحال، أن يخفيا الحقيقة، ولكن هل كان من حق الزعماء العرب أن يجهلواها؟

«ولقد كانت عمليات الاستطلاع التي قامت بها تلك الطائرات الأميركية للإسرائيليين عمليات لا سبيل إلى المبالغة في تقدير قيمتها الكبرى بالنسبة إليهم، متى علمنا أن إسرائيل لم تكن تحتكم في سنة ١٩٦٧ في أية قدرات للاستطلاع الليلي»

«وعندما انتهت المهمة بنجاح، وعاد الطيارون والعسكريون إلى قاعدة سلاح الجو الأميركي بمورون، صدرت التعليمات مشددة إلى كل منهم، وإليهم في مجموعات، بالحرص على سرية العمليات التي قاموا بها خلال الأسبوع المقتصر، وعدم التحدث عنها مع أي مخلوق وتحت أي ظروف، حتى فيما بينهم عندما يعودون إلى رامستايين وأبرهايفورد. وكان الصباط الذين قاموا بعملية استحصال المعلومات (debriefing) من الطيارين والعسكريين العائدين إلى مورون من صحراء النقب غير معروفين لأي منهم، وقد شعر الجميع بأنهم أوفدوا من واشنطن خصيصاً للقيام بذلك»

«وفي ركن من المطار، خلع الطيارون والفنيون ملابس الطيران المدنية وكوموها أرضاً ومعها بطاقات الهوية وحوارات السفر المدنية ومراحع التشغيل التي تحمل شعار شركة «ايرو - تك كوربوريشن» وسار الرجال عرايا إلى الجاس الأحرار من القاعدة حيث استعدوا وملاسهم العسكرية وبطاقات هويتهم وعادوا من حديد ضباطاً سلاح الجو الأميركي وقد وصل الحرس على سرية العملية إلى حد منع الطيارين والعسكريين من أخذ صور تذكارية أو أية تذكارات أخرى من إسرائيل أو من إسبانيا»

«والسؤال الآن هو هل كان ذلك الاستطلاع الحوي هو الشكل الوحيد من أشكال الدعم الذي قدمته الولايات المتحدة لإسرائيل في مجال العمليات العسكرية الواقعة أن مؤلف هذا الكتاب علم بوجود أشكال أخرى من الدعم، وبخاصة في مجال الاستخبارات وفي مجال الشوشرة لحساب القوات الإسرائيلية باستخدام أفراد القوات المسلحة الأميركية والمعدات الأميركية على اتصالات القواد العرب بقواتهم وفيما بينهم في الميدان وتشويهاها، إلا أنه لم يتسن التيقن من صحة ذلك بشكل قاطع أو الحصول على تفاصيل العمليات في ذلك المجال»

«إلا أنه، مما أورده ميخائيل بارزوهار في كتابه «سفارات في أرمه» يسير أن أركان حرب القوات المسلحة الأميركية وضعت في أواخر/ أيار مايو ١٩٦٧ خطط طوارئ للتدخل العسكري الأميركي المباشر في الحرب التي كانت مرتقبة وقتئذ، إذا ما سار القتال لغير صالح إسرائيل وقد ابطوى ذلك على وضع خطط لسيناريوهين محتملين، تعلق أحدهما بإزالة ضخمة للمظليين الأميركيين والقصف المكثف من الأسطول الأميركي لشبه جزيرة سيناء، أما السيناريو الآخر فتعلق بنقل قوات أميركية سريعة الحركة حوا إلى إسرائيل مباشرة لضرب حزام عازل حول السكان المدنيين في إسرائيل وتجميعهم وسط الأرض الإسرائيلية غير أن القيادة الأميركية صرحت بطرا عن خطط الطوارئ هذه، فيما يقوله بارزوهار، عندما بدأ واصفاً لهيئة الأركان الأميركية والمحاورات الأميركية أنه لم تكن هناك، تبعاً لتقارير الأركان والاستخبارات - أية إمكانية لأن يكسب العرب الحرب أو حتى من أن يتمكنوا من إطالة أمدها ومن المحتمل جداً أن عملية الاستطلاع الحوي التي أوردت تفاصيلها فيما سبق كانت - أصلاً - عنصراً من عناصر خطة أميركية أكثر للقيام بتدخل أميركي مباشر، وعندما صرف بصر عن الخطة، استتقت عملية الاستطلاع الحوي (وربما أيضاً الشوشرة على إشارات القواد العرب في الميدان و«طرحها» أي تشويهاها) عملاً على دعم القوات الإسرائيلية»

«والسؤال الآخر هو هل كان ليندون حوسون ومعاونوه على علم بالطائرات الحربية الأميركية التي أعيد طلاؤها ورسعت عليها نجمة داود وقامت بذلك الدور الحيوي من صحراء النقب والحوار على ذلك أن حوسون ومعاونيه كانوا، فيما هو مرجح للغاية، يعلمون لأن هذه عملية كان سماح أي قائد متأمر في الأركان أو سلاح الجو الأميركي بالقيام بها دون علم الرئاسة الأميركية وأعلى السلطات في الإدارة الأميركية حرياً بأن يصبح عملاً من أعمال الانتحار فيما يحسن مستقبله العسكري، خاصة بعد اتهامات العرب بدعم الأميركيين لعمليات إسرائيل في اليوم الأول من أيام القتال ونفي الرئيس الأميركي القاطع لوجود أي دعم»

«فالاحتمال الأعظم ترجيحاً أن الرئيس الأميركي وعدداً من معاونيه المقربين في البيت الأبيض كانوا جميعاً على علم بالعملية التي وصفتها، وأن تلك العملية كانت جزءاً من «سيناريو» أكبر كانت المشكلة في تنفيذه إخراج السوفييات عن طريق تمكين الاسرائيليين من تحطيم الجيوش العربية والاستيلاء على مساحات من الأراضي العربية تمكنهم من إرغام العرب على التفاوض معهم مباشرة حول قضايا أكبر وأهم»

«والذي تنبني ملاحظته، حتى في زمن بتنا فيه قلبي الإكتراث، من فرط الاعتقاد، لإساءة الحكومات استخدام سلطاتها، أن أولئك الذين سمحوا بالقيام بتلك العمليات وقاموا بتنفيذها بغير علم الكونجرس أو الشعب الأميركي، خاطروا في سبيل تقديم الدعم لإسرائيل مخاطرة كبرى بحياة الأميركيين وممتلكاتهم في العالم العربي. لأنه لو كان أمر عملية الاستطلاع هذه عرف للعرب في وقت كان الآلاف من الجنود والمدنيين يموتون فيه تحت وطأة الحرب الخاطفة التي مكنت إسرائيل من شنها عليهم، لتعرض الإسرائيليون في الشرق الأوسط للانتقام لا يصعب تصوره ولا يملك المرء إلا أن يتساءل كيف ولم أكن السماح بالمخاطرة بشيء من

ذلك رغم التعوق العسكري الإسرائيلي التام على العرب في يونيو/ حزيران ١٩٦٧، وعلم وزارة الدفاع الأميركية الكامل بذلك التفوق^(١٧١)

على ضوء كل ما سبق، ماذا لدينا؟ لدينا جهل كامل بالأبعاد الدولية للصراع، أو تجاهل كامل لها. فموقف القوة العظمى الرئيسية، الاتحاد السوفياتي، لم يتضح لعبد الناصر على حقيقته إلا بعد الكارثة بأيام. لأن محضر مباحثات وزير حربيته شمس بدران، الذي أفهم مجلس الوزراء أن «الأسطول السادس الأميركي ليس مشكلة» استناداً إلى أن وزير الدفاع السوفياتي ربت على كتفه مشجعاً وهو يودعه بمطار موسكو، ظل في ظرفه مقفلاً لدى مكتبه برئاسة الجمهورية، فلم يفتحه ويطلع على ما فيه إلا يوم ١٢ يونيو/ حزيران، رغم أن ما فيه - وما في تقرير سفير مصر مراد غالب - كان حرياً بأن يحذره من الانسياق على عباب الفروسية الإذاعية والإعلامية إلى «حرب غير محسوبة النتائج»، حاول السوفيات بكل قواهم - حرصاً على مصالحهم هم قبل مصالح مصر - التحذير من الانزلاق إليها، وأوضحوا بجلاء أن أحداً لم يكن ينبغي له أن يتوقع منهم أن يستدرجوا إلى التورط والدخول في مواجهة مع الولايات المتحدة الأميركية من أجل خاطر مصر.

وموقف الولايات المتحدة الأميركية ذاته - وقد كان واضحاً تماماً للسوفيات ولغيرهم - لم يتضح لعبد الناصر، فيما بدا من تصرفاته، إلا بعد أن وقع في الفخ وحطمت قواته (ومات آلاف من شباب المصريين والعرب) ودمرت دفاعاته (وضاعت في بالوعة التاريخ كل تلك الأسلحة السوفياتية التي ما زالت مصر مدينة بسببها حتى الآن)، وضربت مصر في ظله ضربة قاصمة من أعدى عدولها، ما زالت عواقبها تتعاقب وتتراكب وتتداخل وتتعاظم من يوم إلى يوم.

وقد حاول محمود رياض القول بأنه هو الذي أخطأ ولم يتبين حقيقة الانحياز الأميركي بينما فطن عبد الناصر إليه «ولم تمر سوى أيام قليلة قبل أن أتبين خطئي في التقدير، وصحة شكوك عبد الناصر (في مدى صدق موقف الرئيس الأميركي)^(١٧٠). وبدأت أشارك مع عبد الناصر لأول مرة في شكوكه حول مدى صدق الرئيس الأميركي جونسون وجدية تعهده الرسمي (بأن الولايات المتحدة «لن تقبل بعدوان أي طرف على الآخر»)^(١٧١).

لكنه فات محمود رياض - في معرض تحمسه للدفاع عن «الراجل» - فيما يبدو، أن إدراك عبد الناصر لحقيقة الموقف الأميركي يكون - في ظل إقدامه على ما أقدم عليه - ذنباً أعظم. لأنه إن كان عبد الناصر قد فطن إلى مدى «الانحياز» الأميركي (بتخمين أو بحدس من عنده، لأن وزير خارجيته ذاته لم يكن يعرف مدى ذلك «الانحياز») ثم ترك نفسه، رغم ذلك الحدس الصائب، يستدرج إلى حرب قال هو نفسه «أنه لم يكن يريد»، أدرك أن القوة العظمى الرئيسية، الولايات المتحدة الأميركية، ستتحاز فيها «انحيازاً كاملاً» إلى جانب إسرائيل استمراراً لما ذكر هو وزير خارجيته به من «انحيازها الكامل لإسرائيل، ومعاداتنا لحساب إسرائيل طوال السنوات السابقة»^(١٧٢) ولم يكن لديه ما يطمئنه إلى أن القوة العظمى الرئيسية الأخرى، الاتحاد السوفياتي، ستقف إلى جانبه فيها - لا بانحياز كامل إلى مصر يماثل ويقابل انحياز الولايات المتحدة الكامل إلى إسرائيل ويوازنه بل حتى بقدر من الاستعداد للدفاع عن مصر إذا ما شرعت الولايات المتحدة في افتراسها لحساب إسرائيل - أكثر مما قاله شمس بدران عن جريتشكو وكيف أنه ربت على كتفه وهو يودعه وقال له ما معناه «شدوا حيلكم»، نقول أن عبد الناصر، إن كان قد ترك نفسه يستدرج إلى الفخ رغم كل ذلك، فلا شك في أنه أساء إلى نفسه كثيراً، وسبب لمصر مصاعب شديدة. لأن إدراكه لمدى الانحياز الأميركي، وبالتالي تقييمه لما يمكن أن يؤدي ذلك الانحياز إليه، ثم انزلاقه - رغم ذلك - إلى الحرب على غير رغبة منه تحت تأثير «الدعايات والإذاعات العربية التي اتهمته باتباع سياسة ناعمة تجاه إسرائيل، وما سببته له تلك الإذاعات من «معاناة ضاعف من أثرها أيضاً شعوره بأنه لا يمكن أن يلتزم الصمت إلى الأبد (لا يمكن أن يقف بلا حراك؟) وهو مرتبط مع سوريا بمعاهدة دفاع مشترك - وسوريا (كما أخرج السيناريو الذي وضع لاستدراج عبد الناصر) معرضة لهجوم إسرائيلي كبير، وضاعف من أثرها أيضاً حرصه على أن يبقى في موقعه التاريخي أملاً للأمة العربية في معركتها التحريرية (أي حرصه على الاحتفاظ بوضعه كأكبر زعيم عربي)^(١٧٣)، إن كان عبد الناصر قد ترك نفسه - رغم إدراكه

قتل مصر

لمدى الانحياز الأميركي وما يمكن ان يترتب عليه - يستدرج، تحت تأثير الإساءة إلى كبريائه وجرح متاعره في عمار حملة الإذاعات، وحرصه على عدم التفريط في رعايته للعالم العربي، إلى حرب ١٩٦٧، وهو ما رآه عاروا (أي موحولا) في البحر كما قال الفريق اور محمد فوزي، وبغير علم حقيقي ودقيق بمدى قدرات مصر وقدرات العدو، فإبه يكون قد أقدم على عمل من اعمال الانتحار، له ولمصر وذلك هو ما حدث فعلا فقد قتلت هزيمة ١٩٦٧ عبد الناصر، وطرحت مصر على ظهرها حريجة متقيحة مكسورة الساقين في الطير تحت أقدام إسرائيل

وليس أحد بحاجة إلى القول هنا بان معنى ما سبق قوله عن إدراك مدى الانحياز الأميركي لإسرائيل ليس القول بان عبد الناصر كان عليه، إدراكا منه لذلك الانحياز ومداه، أن يسلم أو يستسلم أو يبيع أو يهادن لكن معناه، ما دمنا نتناول ما حدث في سياق ما كانت تقتضيه سلامة مصر ويتطلبه الحرص على بقائها، أنه كان على عبد الناصر - ما دام قد اتخذ من مصر وضع الحاكم الفرد الواحد الوحيد صاحب القرار الذي يحسم المصير - أن يجري حسابات كثيرة، ويتصر بما كان مقدما عليه، ويعالج الموقف كرحل دولة (ما دام قد أخذ على عاتقه القيام بدور رحل الدولة)، وفي أضعف الإيمان ألا ينساق، مجررا مصر وراءه كالديبحة، فداء لكبريائه وخوفا على مستقبله كزعيم أوحد لمصر ولكل العرب، إلى شرك مميت لكن عبد الناصر - فيما يبدو - كان يعيش في عالم يحصه وحده، في شريقة صبغت حوله الزعامة ووحشية الأجهزة والحبس العام وهكذا فإنه «إلى ما قبل ٢٦ ساعة من الهجوم الإسرائيلي كان موقف عبد الناصر يدل على استعداده للمعركة، ويدل أيضا على توافر «قدر من الثقة» لديه في القوات المسلحة» (١) وعندما قال أنطوني باتينج، قبل ٢٦ ساعة من الهجوم الإسرائيلي أن لديه معلومات تلقاها من ليدن تفيد بأن إسرائيل قادرة على أن تقوم وحدها بما قامت به طائرات كاسيرا البريطانية سنة ١٩٥٦، رفض عبد الناصر تصديق ذلك، مشيرا إلى أن طائرات النقل الإسرائيلية ظلت طوال الأسابيع الماضية تواصل نقل قطع عيار طائرات الميراج من مصانع داسو بفرنسا لتركيبها في إسرائيل، وأوضح عبد الناصر لباتينج أن أجهزة المخابرات المصرية أكدت له أن طائرات الميج والسوخوي أفضل من كل ما لدى إسرائيل من طائرات ويقول رودولف وويستون تشرشل في كتابهما «حرب الأيام الستة» إن «عبد الناصر كانت لديه فكرة خاطئة عن قوة إسرائيل الحربية نظرا للمعلومات غير الأكيدة التي كانت ترددها محاوراته المتهالكة» وأنه ليس هنا من الأسباب ما يشير إلى أن عبد الناصر كان يسعى فعلا للتسبب في شتوب صراع مسلح»

وفي نفس اللحظة التي كان باتينج يحذر فيها عبد الناصر، قبل ٢٦ ساعة من بدء الهجوم الإسرائيلي، وعبد الناصر يقول له إن «الميج والسوخوي أحسن من كل ما لدى إسرائيل»، كان قرار الهجوم على الدول العربية قد اتخذ في ساعة متأخرة من الليل، في مجلس الوزراء الإسرائيلي، يوم ٢ يونيو/ حزيران، أي قبل ٢٦ ساعة من الهجوم، حسما جاء في رواية الواشنطن بوست الأميركية لتسلسل الأحداث وفي صباح ٥ يونيو/ حزيران ١٩٦٧، عندما بدأت أبعاد الموقف تتضح، وتبين أن الهزيمة كانت محققة وأنها ستكون كارثة حقيقية، حدث تطور عريب «حرج عبد الناصر من القيادة العامة للقوات المسلحة»

«ولم يكر خروج عبد الناصر من القيادة موقفا انفعاليا، بل كان بتيحة طبيعية لما استقرت عليه الأمور» (٢) وما كان عبد الناصر قد ارتضاه من صمت على (ما كان يعلم أنه) يدور في القوات المسلحة (٣) وعندما رار عبد الناصر ورئيس الوزراء صدقي سليمان المشير عبد الحكيم عامر ووزير الحربية شمس بدران في مقر القيادة العامة، و«استمع عبد الناصر إلى الأخبار من المشير»، وقال «يلا بينا حلينا سيب المشير يتصرف» وبعد خروجه، التفت إلى المشير، وقال له «طلع حاجة للجرايد». ويقول الفريق أول محمد فوزي أن شمس بدران وعلي شفيق (ياور المشير) كانا يصدران البيانات والتعليمات، لا إلى القيادات العسكرية، بل للإذاعة وهكذا، أذاعت الإذاعة، في العاشرة والنصف من صباح ٥ يونيو/ حزيران (بعد أن كان المشير قد قال لعبد اللطيف بغدادى أن «الحالة رعت، وكل الطائرات راحت في ضربة واحدة») إبا أسقطنا من طائرات العدو (الغادر) ٢٢ طائرة وفي الحادية عشرة وعشر دقائق، ارتفع عدد الطائرات التي أسقطناها للعدو إلى ٤٢ طائرة وفي بيان الحادية عشرة وتسع وثلاثين دقيقة، أعلن عن

استنك أاضي، وارتفع عدد الطائرات التي أسقطت للعدو ليصبح ٤٤ طائرة، بينما لم تسقط لنا أكثر من طائرتين اثنتين بجاطياراهما وفي الحادية عشرة وثلاث وخمسين دقيقة أديع أول بيان من القيادة العليا للقوات المسلحة تحدث عن عزو إسرائيل شامل بدأ في التاسعة صباحا، وذكر أن الطائرات الإسرائيلية هاجمت مطارات سياء والقناة وعرب القاهرة، وقال إن إسرائيل قد بدأت هجوما شاملا في كل الميادين وأن تلك كانت قد باتت حقيقة واضحة

«وفي الواحدة وثلاث وأربعين دقيقة، أديع بيان وصل عدد الطائرات المسقطة فيه إلى ٧٠ طائرة. وفي الثامنة و ١٧ دقيقة مساء، أديع بيان حدد إجمالي عدد طائرات العدو التي أسقطت بـ ٨٦ طائرة. كانت المبالغة الشديدة هي المحور الرئيسي للبيانات، وقد حجت تلك البيانات الحقيقة عن الشعب بالتمويه والحداع. وإن كانت الحقيقة قد حجت في البداية عن القائد الأعلى (عبد الناصر)، فقد كان طبيعيا أن تحب عن حماهير الشعب أيضا (١)»^(١١).

فعبد الناصر لم يكن يعرف «في البداية»، لأن الحقيقة حجت عنه والشعب هو الآخر لم يعرف، لأن «القيادة العسكرية المنهارة، التي يمكن إلقاء المسؤولية كاملة عليها لم تواجه الأمور بجدية ومسؤولية وطنية بعد مؤتمر ٢ يونيو الذي حدد فيه عبد الناصر موعد الهجوم (الإسرائيلي) وخشيت مواجهة القائد الأعلى بما يحمل لها الخري والعار»^(١٢).

أما فيما يخص «الشعب»، نحن المصريين، قطعان العزبة، فبالمنافضة لهذا الكلام عن تضليل القيادة العسكرية المنهارة له، قال نفس المؤلف قبل ذلك بصفحات «أما بالنسبة للشعب، فإن الأمر كان غريبا وشاذًا. فمعروف أن الحروب الحديثة لا تشبع بعيدا عن الإنسان المدني في القرية أو المدينة، وأنه من الواجب تجهيز أفراد الشعب للدفاع عن وطنهم في أماكن إقامتهم أو مراكز عملهم. لكن شيئا من ذلك لم يتحقق فأفراد الشعب ظلوا يتابعون الأخبار في الصحف والإذاعة، وهم نهب القلق، في جو مشحون بالتساؤلات، وليس لديهم من عمل يقومون به، أو جواب على تساؤلاتهم يهدىء صدورهم.

«والمناطق الحيوية، حلوان، وشبرا الخيمة والمحطة الكبرى، وكفر الدوار، والموانيء، تركت بلا حماية شعبية (وهذا طبيعي لأسباب عديدة منها أن عبد الناصر ظل مقتنعا إلى قرب النهاية بأن إسرائيل لن تقدم على شن الحرب) وجاء تعيين زكريا محيي الدين قائداً للمقاومة الشعبية متأخراً فقد ظهر القرار في صحف يوم الأحد ٢٨ مايو/ أيار ١٩٦٧، وكان زكريا قد سبق له الاضطلاع بذلك الواجب إبان عدوان ١٩٥٦، ولكن الوقت الآن قد بات متأخرا للغاية.

«وكان مراسلو الصحف الأجنبية يلحون في السؤال عن التناقض الهائل بين تصريحات المسؤولين التي تؤكد قيام الحرب، والحياة العادية للناس في المجتمع، وكأنهم لا يواجهون خطرا رهيبا. وكان أولئك المراسلون الأجانب يتساءلون عن الفرق بين الحالة في إسرائيل، والحالة في مصر حيث ترك الشباب بلا واجب ولا مسؤولية. وفي ٢٧ مايو/ أيار ١٩٦٧، نشرت الصنداي تايمز اللندنية رسالة لمراسلها في القاهرة قال فيها أنه «ليس هناك في القاهرة ما يوحي بأن هذه دولة على حافة الحرب. فزيارات السياح اليومية للإهرامات لم تنقطع. والمقاهي والمطاعم مكتظة بروادها وكثير من المصريين في نادي الجزيرة الرياضي يلعبون الجولف ويسبحون ويستمتعون بالشمس»

«وبالمقابل، نشرت الصحيفة نفسها، في اليوم نفسه، رسالة لمراسلها في تل أبيب جاء فيها أنه «تكتيكيا، ما تزال إسرائيل أخذة في القيام بتوازن على حافة الحرب. إلا أن الزائر الأجنبي لتل أبيب يمكنه أن يتصور أن الحرب قد نشبت بالفعل. ففي مراكز جمع الدم، يقف المتطوعون على النواصي في طوابير طويلة. وفي الضواحي، يقوم تلاميذ المدارس بحفر الخنادق».

«فالجماهير في مصر كانت بعيدة تماما عن جو المعركة وروحها. وكان الاتحاد الاشتراكي سادرا في عقد اجتماعاته غير المثمرة. وكانت أمانة طليعة الاشتراكيين التي كان مفروضا أنها قلب الحركة السياسية في الاتحاد الاشتراكي وجهازه السياسي (غائبة من الصورة)، لم تجتمع ولم تناقش الموقف. ولم توضح أبعاد الأخطار التي كانت تتهدد مصر. وعندما عدت من ندوة الاشتراكيين العرب في الجزائر، هرعت إلى شعراوي جمعة، أمين ذلك التنظيم، وإلى زملائي أعضاء الأمانة فوجدت أنهم يتوقعون الحرب، لكنهم

قتل مصر

حيارى لا يعرفون ماذا يفعلون»^(١١٦)
ولا يدري المرء - بعد كل ما حدث - بأي صمير وأي عقل استطاع كاتب هذا الكلام المفرع أن يجد المبرر «المشروع» له في أن «هذه الصورة توضح، بكل تأكيد، أن جمال عبد الناصر لم يكن راغبا تماما»^(١١٧) في تس الحرب أو تدمير إسرائيل، وإنما كان يقوم بهندسة نصر سياسي عامر فيه بالوصول إلى حافة الهاوية (أي مارس كالخواجات عملية الـ «brinkmanship») ولم يستطع أن ينقد نفسه (وماذا عن مصر) في اللحظات أو الأيام الأخيرة فقد كانت المؤسسة العسكرية الإسرائيلية بصقورها المتعطشة للحرب قد أعدت المصيدة للنظم التقدمية في مصر وسوريا بالتعاون مع المخابرات المركزية الأميركية^(١١٨) ومن «الشطارة» إلى العهولة «وكانت رغبة جمال عبد الناصر أن «يلهف» شرم الشيخ، على حد تعبيره لزملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين»^(١١٩)

وهذا الولاء لذكرى الزعيم الراحل محمود طبعاً لأحمد حمروش الذي كان من «رجال» العهد الناصري لكن الولاء لمصر يقتضي شيئاً من الصدق والأمانة حقيقة أن ما وصفه من بقاء الشعب خارج الصورة تماماً قد يكون راجعاً، جزئياً لكون «عبد الناصر لم يكن راغبا» تماماً «في شن الحرب أو تدمير إسرائيل»، ولو أن المرء يحق له التساؤل عن الكيفية التي يمكن أن يقدم بها رئيس دولة في النصف الثاني من القرن العشرين على مغامرة كهذه وهو غير راغب «تماماً» في الحرب هل كان راغباً، مثلاً، نصف رغبة، في الحرب؟ أربيع رغبة؟ أم تراه لم يكن راغباً فيها كلية وإذ ذاك، فيما كانت قرقعة السلاح وفيما كان صليل السيوف في هذه الساحة الخطرة المليئة - كما ذكرنا صلاح نصر - بالوحوش والتي يسودها قانون الغاب ومبدأ إما قاتل أو مقتول^(١٢٠)

كما قد يكون ترك الشعب خارجاً، تائها في الشوارع والمقاهي، متشمساً في نادي الحزيرة أو في أرقعة الإمام الشافعي، أخذاً في تسقط الأنباء (ومعظمها مكذوب ومحرف) من الإذاعة والصحف، راجعاً إلى أن عبد الناصر ظل إلى ما قبل ٥ يونيو/ حيران ١٩٦٧ بقليل غير مصدق أن إسرائيل ستصرب، أنها ستجروا على الضرب.

وقد يكون هذا وذاك، ويكون عبد الناصر، رغبة منه في «هندسة نصر سياسي» و «لَهْف» شرم الشيخ من إسرائيل، قد قام بعملية brinkmanship أفسدتها له، بغدورها المعهود، المؤسسة العسكرية الإسرائيلية ذات الصقور المتعطشة للحرب ولو أن ذلك الإدعاء يناقض تماماً ما قاله حمروش عن المصيدة بمعنى أن الذين كانوا يلعبون اللعبة كانوا الإسرائيليين، وكان عبد الناصر، فيما قد يرى المرء، تلك الساكوديا، الحمامة، التي أطلقوا اسمها على العملية

غير أن شيئاً من كل ذلك لا يخفي أو يطمس أو يموه أو يخفف الواقع الذي يصرخ من تفاصيل الصورة كما قدمها أحمد حمروش نفسه، وهي أن «جماهير الشعب» (قطعان العزبة) كانت خارج اللعبة تماماً، ولم يكن لديها رأي يؤخذ، أو اعتبار يقام، أو مصلحة - حتى الحياة ذاتها - يقام لها وزن فيما يتخذه صاحب العزبة من قرارات، وظل دورها قاصراً على أن تحشد في الشوارع لتخور وتعوي وتهتف للزعيم، أو تساق للذبح على أرض سيناء، عندما يلعب صاحب المزرعة لعبة الـ brinkmanship، ويحاول أن «يلهف» شيئاً من العدو الغادر يرد به اعتباره الذي جرّحته حرب الإداعات، ويؤمن به زعامته التي باتت مهددة، وشعبية التي بدأت تبرد. وليس هناك ما هو أدل على أن الشعب المصري كان خارج اللعبة، وبزته العسكرية، ولبس جلبابه وحاول أن يعود مهرولاً إلى قريته أو حارته

والمصريون ليسوا جبناء، وليسوا كما يحاول الإعلام الغربي أن يصورهم بصفاقة وإلحاح، من طينة أقل آدمياً من طينة الإسرائيليين، يشهد بذلك ما فعله العساكر المصريون بـ «الأبطال الإسرائيليين» سنة ١٩٧٣ قبل أن «يلمهم السادات» ويحاول إعادتهم إلى الحظائر، ثم وقد بدأ يستعصي عليه ذلك، استعان بأرييل شارون، ويشهد به أيضاً عبد الناصر نفسه، عندما تذكر فجأة بعد النكسة، «رجولة» الصعايدة والفلاحين، ونخوتهم وحاول أن يستجير بها. لكن أولئك الصعايدة والفلاحين كانوا قد ذهبوا إلى سيناء سنة ١٩٦٧ لأن «الرئيس» أراد لهم أن يذهبوا، وأراد لهم أن يذهبوا بعد مغامرة نابوليونية لم يفهمها أو

يبتلعها أحد منهم في اليمن، سرقت في غمارها أموال مصر وكُدست سبائك الذهب التي تغطي عملتهم، في بعض البيوت، وبعد مغامرة أغرب وأشد نابوليونية، في بلد آخر لم يكن للمصريين فيه غير ولا نفير، هو الكونغو(*) الذي كان ساحة صراع معقد بين القوى الكبرى، فكان أن ذهب الفلاحون والصعايدة، الذين هم مصر، ليقاتلوا الإسرائيليين لأنهم خافوا من غضب الرئيس وجبروت أجهزته، إن هم عصوا أمره، أكثر مما خافوا من الأخطار المميتة والحقيقية للغاية التي تهدد بقاءهم ذاتها بها وجود إسرائيل على حدودهم وفي قلب منطقتهم. فتلك الأخطار المميتة لم يفهمهم إياها أحد أو يشرحها لهم أو يفكر في بحثها معهم كبشر لهم ذلك الحق على من يحكمونهم وكل ما علموه فيما يخصها أن «اليهود» أعداء الله وأعداء الرئيس ويساعدون الامبريالية والاستعمار. وهذه، بطبيعة الحال، أشياء سيئة. لكن الألسن منها بحياة «النفر» من الفلاحين والصعايدة وأبناء الشعب ظل البقاء العاجل، بالنجاة من غضب «الحكومة» وعمليات النفخ والتعذيب والحبس والاختفاء وراء الشمس وخراب البيوت التي يمكن أن تحل كقضاء الله المحتوم متى غضب الرئيس. ولهذا لم تكد سلطة «حضرة الضابط» ممثل الرئيس وممثل النظام تنهار تحت وطأة الإسرائيليين، حتى خلع الفلاحون والصعايدة بزاتهم العسكرية وأحذيتهم الأميرية، وارتدوا جلابيبهم، فعادوا فلاحين وصعايدة «ظل الوف منهم يتساقطون على رمال سيناء من رصاص الإسرائيليين أو العطش

(*) وكانت مغامرة الكونغو، بكل ما كبته لمصر من حسائر في الأرواح والأموال والعتاد وما جرتها إليه من تورط في صراعات دولية أكبر من قدراتها لم تكن بها حاجة إلى التورط فيها، مغامرة لم يفكر - مجرد تفكير - أي رعيم من زعماء بلدان العالم الثالث وحركة عدم الانحياز وأصدقاء لومومبا الاشتراك فيها بالسلاح وإن اشترك فيها باللسان والمشاعر القلبية وكل ذلك أما مصر، فجرت إليها جراً، تحقيقاً لهدفين.

أولاً «تبرئة عبد الناصر من تهمة التواطؤ مع الأمريكان التي وجهتها إليه الدعايات»، و
ثانياً «تعزيز دور مصر (دور عبد الناصر) القيادي البارز في أفريقيا».

ولنصنع إلى الدكتور مراد غالب

«وجاءت أحداث الكونغو في يوليو ١٩٦٠ وسرعان ما تحولت الساحة الكونغولية إلى المركز الرئيسي للساحع عالمياً وإفريقياً الذي تركزت حوله جميع الصراعات، وعلى رأسها الصراع بين القوتين الأعظم

«وكما في تلك المرحلة، نمر بفترة خلافات مع الاتحاد السوفياتي وكانت الدعاية ضد جمال عبد الناصر قد أهدت تتسع على أساس أنه متواطئ مع الأمريكان وأنه تحلى عن سياسته الثورية لكن أحداث الكونغو (توريط مصر في الصراعات الناشئة حول الكونغو) أثبتت عكس ذلك (١)

«ولقد كان أمام عبد الناصر خياران

الأول أن يهادن الاستعمار (في الكونغو) باعتباره المعركة مكسوبة فيه للدول الغربية لا محالة، وكان ذلك يعني تأكيد الاتهامات الموجهة إليه (بالتواطؤ مع الأمريكان) دون الحصول على مكاسب تذكر (أية مكاسب؟)

والثاني تأييد حركة تحرير الكونغو وموازرة لومومبا والاستمرار في دور مصر (دور عبد الناصر) القيادي البارز في أفريقيا.

وقد اختارت مصر (١) الطريق الثاني»

(شهادة الدكتور مراد غالب. كتاب أحمد حمروش «شهود ثورة يوليو»، ص ٤٦٥/٤٦٦).

ومع كل الاحترام الواجب للدكتور غالب، يقع كلامه عن خياره مهادنة الاستعمار أو عدم مهادنته موقعاً غريباً من الأدن. فعلى أي أساس من المنطق أو من مبادئ السياسة الخارجية للدول، والدكتور غالب كان سفيراً ووكيلاً ووزيراً للخارجية المصرية، كان متعينا على عبد الناصر أن يظل يبرهن باستمرار، المرة تلو المرة، أنه لا يهادن الاستعمار في أي مكان من العالم، وتحت أية ظروف، وبأي ثمن؟ ألم يكن يكفي أن يبين أنه لا يهادن ذلك الاستعمار فيما يتعلق بمصالح مصر والعالم العربي ومتطلبات البقاء وتحدياته التي فرضتها الهجمة الاستعمارية الاستيطانية التي بدأت على أرض فلسطين؟ وبأي معيار من المنطق، أو حتى رجاحة العقل العادية يمكن القول بجواز انخراط بلد صغير محاصر بكثرة المشاكل مشتبك في صراع حياة أو موت مع عدو شرس مفترس متربص به على حدوده في مثل تلك المعامرات النابوليونية الجانبية تدليلاً على عدم مهادنة الاستعمار. وبأي معيار، حتى المعايير الخيالية التي يمكن أن يملأها الاضطرار إلى البرهنة على كذب ما تقوله الدعايات كان سيصبح من الممكن لتلك الدعايات أن تدعي أن عدم إشراك مصر في تلك الصراعات «الساحنة عالمياً وإفريقياً» الدائرة حول الكونغو (البليجيكي - كينشاسا)، إشراكاً فعلياً بالقتال، وهو ما لم يقدم عليه أحد سوى عملاء القوى الكبرى المشتبكة في الصراعات، كان دليلاً على أن عبد الناصر «متواطئ مع الأمريكان»؟ أليست الحقيقة، في النهاية، أن هذا التوريط لمصر في ذلك الصراع كان إجراءً اعتسافياً آخر اتخذ برعونة وبغير تدبّر لما كان ينبغي من «حسابات معقدة»، من جانب الزعيم، بلا اعتبار لمصالح العزبة (مصر) وشعبها، تحقيقاً لأحلام يقظة انصبت على تزعم أي شيء وأي مكان، مصرياً، أو عربياً، أو إفريقياً؟

وضربة الشمس وكان الأحياء يتعرضون لمهانة الهريمة على أيدي القوات الإسرائيلية التي صورت كل ذلك في أفلام سينمائية كانت ترسلها يوميا إلى تلفزيونات أوروبا لتعرض على الجماهير التي بهرها النصر السريع المفاجيء (الذي كانت قد) سبقته دعاية ضخمة مدروسة أظهرت إسرائيل في مظهر الدولة الوديدة المعرضة (لوحشية) العرب المصممين (تبعاً لما ظل قادتهم وزعماءهم يعلنونه) على تدميرها وإلقاء اليهود (المساكين) في البحر»^(١١٥)

والمؤسف، فيما يخص أحمد حمروش، الذي توخى القدر الممكن من الموضوعية لرجل من «رجالات» عهد عبد الناصر «يؤرجح» لخريف ذلك العهد، أنه - وإن لم تفته حقيقة إبقاء الشعب خارج اللعبة، ولم يفعل عن العجوة الهائلة، التي حفرها تأليه الزعيم وتقديس النظام وعمقتها ضرورات تأمينه عن طريق أعتى ممارسات إرهاب الدولة تجاه «السادة المواطنين»، بين صاحب العزبة، الزعيم، والشعب الذي عومل كقطعان - لحاً وهو الضابط «اليساري التقدمي» إلى التفسير الطبقي. فبعد أن تحدث عن «أهمية الحافر والشعور الوطني عند المقاتلين (أي الصعايدة والفلاحين الذين يقاتلون ويموتون)» وقال أنه حافر «لا يحوز التهوين من أهميته»، مال فاستند بظهره فوراً، في تفسيره لما قاله ضمناً من افتقاد ذلك الحافر لدى المقاتلين المصريين، إلى «الثغرة الاجتماعية الهائلة التي ظلت باقية بين صباط الرتب العليا وبين صغار الصباط والجنود» وقال إن «الثورة لم تنجح في تضيق تلك الثغرة (الطبقية) إلا بأمور ثانوية وشكلية، سواء في الناحية الفكرية أو الناحية الاجتماعية»، وأضاف قائلاً أنه بالرغم من أن «نوعية صغار الضباط (الطبقية) تحددت خلال حكم الثورة، إذ بات ممكناً لأبناء الطبقة العاملة والفلاحين أن يدخلوا الكلية الحربية، فإن عملية «التجديد»^(٩) لم تصل إلى القيادات العسكرية العليا التي تحولت مع الوقت ورسوخ المصالح إلى فئة لا تهتم كثيراً بواقع المجتمع وتطوره (إذ) ظلت عقلية ضباط الرتب العليا جامدة وغير مستنيرة من الناحية الاجتماعية أو السياسية، ولم تصل مطلقاً إلى المستوى الذي وصلت إليه القيادة السياسية للثورة كان جمال عبد الناصر أكثر استنارة ووعياً. لكنه لم يفلح في رفع مستوى القيادات العسكرية إلى الحد المطلوب في قيادة معركة تحرر وطني ضد الامبريالية»^(١١٦).

وهذا، مع كل الاحترام الواجب لتنظير أحمد حمروش وعلمه وما حاول التحلي به من موضوعية، شيء أقل ما يقال فيه أنه غريب. ودع عنك أنه ناقض نفسه في طرحه عندما تحدث عن «القيادات العسكرية التي تحولت مع الوقت ورسوخ المصالح». وقال إنها قيادات «ظلت عقلية أفرادها من الرتب العليا جامدة وغير مستنيرة». وهذه القضية تلغي تلك، كما هو واضح. لأنه إن كانت عقلية ضباط القيادات العسكرية قد ظلت جامدة وغير مستنيرة، فذلك يعني أنها ظلت ولم تتحول بسبب الزمن ورسوخ المصالح. أما إذا كانت قد تحولت بمضي الزمن ورسوخ المصالح، فذلك يعني أنها لم تكن قبل مضي الزمن ورسوخ المصالح جامدة غير مستنيرة، وأن الجمود وعدم الاستنارة طرأ مع التحول بفعل رسوخ المصالح ومضي الزمن.

وبصرف النظر حتى عن ذلك التناقض، لم يدع أحد أن «ضباط الرتب العليا» أولئك كانوا من بقايا العهد الملكي أو أبناء الأرستقراطية القديمة فأولئك كانت الثورة قد طهرت الجيش منهم. وكل الضباط من الرتب العليا كانوا ضباطاً من رجالها أو أقاربهم أو أصدقائهم أو أنسبائهم أو أصهارهم أو أتباعهم، وكان معظمهم - باستثناءات محدودة للغاية، بحكم حذر عبد الناصر من تسلسل مجتمع النصف بالمائة القديم إلى الثورة ليخربها - من أبناء الشعب العامل، كعبد الناصر نفسه، وكانوا قد رقوا إلى تلك الرتب العليا بقرارات ثورية، كعبد الحكيم عامر الذي كان يحمل، وقت نشوب الثورة، رتبة صاغ (رائد)، فرقي إلى رتبة لواء، ثم أصبح مشيراً فخيماً وتولى منصب القائد العام للقوات المسلحة المصرية اعتباراً من ١٨ يونيو / حزيران ١٩٥٢، فقادها كـ «صاغ» في حاجة لمن يقوده.

ولما لم يكن أولئك الضباط العظام من أبناء الأرستقراطية أو الطبقات الاقطاعية القديمة، فإنهم لم يكونوا - في مبدأ الأمر - ذوي عقليات جامدة غير مستنيرة، بل كانوا ثوريين، يشهد بذلك اختيار زعيم الثورة لهم ليضعهم في أعلى مناصب القيادة العسكرية. لكن الذي حدث - تماماً كما قال حمروش - أنهم

تحولوا «مع الوقت ورسوخ المصالح»، أي مع حلول الثوريين محل السادة القدامى وتحولهم إلى «هنة ذات مصالح» فباتوا غير ثوريين إطلاقاً «لا يهتمون بواقع المجتمع أو تطوره»، وباتت عقلياتهم - بسبب ذلك - جامدة وغير مستنيرة، واستكانوا، كما وصفهم حمروش داته، «إلى حياة بعيدة عن الروح العسكرية» وكان الأصوب أن يظل صادقاً مع النفس ومع القاريء حتى يصدق القاريء، فيقول أنهم. بمضي الوقت ورسوخ المصالح، استكانوا إلى حياة بعيدة عن «الثورية»، باتوا على عيابها سادة صر الحد وأرسقراطيتها الجدد بحكم مشاركة الزعيم صاحب العزبة في ملكية العزبة، أو بالأقل بحكم حمايتهم إياه ضد تمرد القطعان وكان ذلك، وليس «البعد عن الروح العسكرية الصادقة» (لأنه ما دخل الروح العسكرية، صادقة كانت أو غير صادقة، في ذلك التحول الطبقي^٩)، هو السبب في أن قيادات الجيش ورتبه العليا، كما قال حمروش، فقدت حسها الوطني، بل واستعدادها لأداء الواجب العسكري ذاته

وبطبيعة الحال، كان ذلك «الرسوخ» في المصالح الجديدة قد بات طريقة حياة للضباط وللمجتمع المصري كله في الواقع، بحيث أصبح كل من دخل الكلية الحربية من أبناء الفلاحين والعمال يدخلها وعينه على ما يرفل فيه السادة الضباط من نعم وخيرات أغدقها عليهم النظام.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، أي شيء كانت تلك «القيادة السياسية للثورة»^٩ ولم كانت قد وصلت إلى مستوى من الاستنارة لم تصل إليه القيادة العسكرية؟ هل كانت تلك القيادة السياسية (باستثناء بعض من ركبوا الموجة من «منظرين» و «أكاديميين» و «صناع رأي») من غير الضباط؟ أم تراه أراد أن يقول من مفهوم الحاكم الإله الواحد الأحد، أن القيادة السياسية كانت قاصرة على عبد الناصر الذي وصفه بأنه كان أكثر استنارة ووعياً، أو أراد أن يقنعنا بأن عبد الناصر كان سياسياً ولم يكن صابطاً^٩

والمرء - بطبيعة الحال - مدرك للصعوبة المرهقة التي واجهت حمروش وغيره في تصديهم لعملية التبرير والطلاء باللون الأبيض والاعتذار. إلا أن الوصف الذي قدمه حمروش نفسه للهزيمة وما أدى إليها وما لحقها (وهو على قضاوته أخف من فظاعة الواقع بكثير) هو بالذات ما يحتم مواجهة المسألة وحها لوحه، بغير مراوغة

والمسألة أن الشعب المصري عومل في عزبة الثورة التي تحولت إليها مصر كقطعان فاستجاب كقطعان. وقد أريق مداد كثير في محاولة استخلاص ما يتيح الادعاء بأن الشعب كان هناك فعلاً من واقعة المطالبة الشعبية - إثر إعلان عبد الناصر لقرار التنحي - ببقاء عبد الناصر. ورغم أن تلك، لم تكن في الأغلب مطالبة هندسها وحشد الجماهير لها الاتحاد الاشتراكي وغيره كما قيل، فإنها - للأسف - لا تشير إلى أكثر من أن القطعان وجدت نفسها فجأة، وقد جردت من كل ممارسة سياسية، وجردت من كل من يمكن أن يتصدى لقيادتها، وحدها في العراء، إثر تهديد صاحب العزبة بإخلاء الدوار والخروج من السلطة، فانتابها ذعر، وقالت للزعيم «لا تتنحي، لا تتنحي».

وبعد ذلك، برغم كل المناورات وتمثيلات الإصلاح والتجديد، عاد الشعب إلى الحظائر، وظل - كما جعلته الثورة وكما كان قبل الكارثة - خارج اللعبة، منشغلاً بـ «لهف» رزقه من بعضه البعض، كما يلهف الكبار الثروات من لحم مصر، و «لهف» بقائه وسلامته وسلامة صغاره من ضراوة الضباط والأجهزة. ولم يكن من قبيل القحة الشعبية أو الاستجابة الشعبية أن ظل الشارع المصري، طوال الأيام التي أعقبت الهزيمة وفقد الضباط طوالها توازنهم، يتعامل معهم كلما انفرد بواحد منهم في الطرقات بالبصق عليه، حتى اضطر كثيرون وقتها إلى خلع البزات العسكرية على سبيل التخفي) والتعامل معهم كفتة، بالطريقة الوحيدة التي يعرف المصريون كيف ينفثون بها عن شقائهم: النكات.

وهذا كله فيه ظلم صارخ بغير شك لضباط مصريين شرفاء كثيرين من مختلف الرتب كانوا طيلة الوقت وظلوا دائماً رجالاً وضباطاً ومصريين وشرفاء، وقدم منهم من قدم حياته ثمناً لقيامه بواجبه في الميدان، وظل منهم من بقي بمنجاة من الغيلان بعد النكسة وطنياً ونظيفاً، وبمعايير طريقة الحياة التي خلقتها الثورة فقيراً. غير أن ذلك الظلم الحق بهم «الثوار» الذي تحولوا في ظل السلاح المشتري بدماء المصريين

وخبزهم إلى حيش احتلال داخلي عامل مصر كما لو كانت غيمة حرب، وأحقوه هم بأنفسهم، تماماً كما فعل معظم المصريين الشرفاء، بكونهم سكتوا

وهذه كلها حقائق كريمة وكاوية إلا أنه لا يجدي في التعمية عنها أي تنظير أو تفلسف أو تبرير أو طلاء باللون الأبيض أو الأحمر ولا يجدي مسح الذنوب في جثة «المشير»/ الصاغ عبد الحكيم عامر أو جثث غيره ممن لحقوا به في العالم الآخر ليحاسبهم الله على ما فعلوا بمصر المسكينة، ومن ماتوا وظلوا يسيرون بين الأحياء. تماماً كما أنه لا يجدي مسح ذنوب التسوية وكامب ديفيد في جثة السادات وجثث معاونيه الذين لم يلحقوا به بعد إلى دار البقاء.

لأنه - في النهاية - من الذي مكنهم من مصر من الذي سلطهم على مصر من الذي جعل «المشير» مشيراً وشمس بدران وزيراً وأوشك أن يجعله خليفة له ومن الذي جعل «جحا»، كما قيل أن الزعيم كان يدعو السادات في لحظات التجلي، نائباً للرئيس؟

ليس الشعب المصري، بكل تأكيد. لأن الشعب المصري ظل، من مبدأ الأمر، خارج اللعبة.

وليست، بكل تأكيد، أية مؤسسات يمكن الإدعاء بأنها كانت قائمة. لأنه لم تكن لدى الشعب المصري مؤسسات. كان كل شيء يحدث بـ «قرار جمهوري». وبمجرد صدور قرار الزعيم، كان كل من في مصر، من الرجل الذي يمثل دور رئيس الوزراء، إلى أصغر «نفر» من الصعايدة والفلاحين، يقول أمين. وحتى زملاء «الكفاح» من الضباط الأحرار القدامى ما لبثوا أن «ركلوا إلى فوق»، وبات وجودهم شرفياً، وباتوا يخافون من مناقشة الزعيم أو الاعتراض على شيء يراه. وكذلك بات العسكريون أيضاً.

ففي المؤتمر «العسكري السياسي» الذي رأى عبد الناصر عقده «مساء يوم ٢ يونيو/ حزيران ١٩٦٧، وحضره معه المشير عبد الحكيم عامر، وذكرياً محيي الدين، وأنور السادات، وحسين الشافعي، وعلي صبري، وقادة القوات المسلحة قال عبد الناصر أنه قرر ألا تكون مصر البادئة بتوجيه الضربة الأولى لأن الظروف الدولية تحتم عدم اتباع استراتيجية (!) عدوانية حتى لا نضحي بموقف أميركا وباقي الدول الكبرى معنا^(*)، ولا سيما بعد أن أعلن الجنرال ديغول أن فرنسا سوف تقف ضد البادئ بالعدوان.. (وتبعاً لذلك القرار الذي اتخذته بعدم توجيه الضربة الأولى حتى لا يخسر موقف أميركا معه) طلب من العسكريين الاستعداد لتلقي تلك الضربة مع اتخاذ اللازم لتقليل خسائرها إلى الحد الأدنى حتى يمكننا بعدئذ توجيه ضربة رادعة ضد قوات العدو الجوية^(١٦٧).

في ذلك المؤتمر «العسكري السياسي»، «ساد الوجوم غرفة الاجتماع، واعتري العسكريين نوع من القلق والصمت»^(١٦٨).

وكان الوجوم مبرراً، كما أثبتت الأحداث. فنتيجة لذلك القرار «السياسي» بانتهاج «استراتيجية غير عدوانية حتى لا نخسر أميركا والدول الكبرى»، دمرت على الأرض ٣٠٠ طائرة من بين ٣٤٠ طائرة عسكرية صالحة للعمل. ولم تقتصر الخسارة على الطائرات وحدها، بل لحقت بالطيارين أيضاً الذين تدربوا فترات طويلة وقام بعضهم بعمليات بطولية رائعة.. وفي مساء ذلك اليوم (٥ يونيو/ حزيران ١٩٦٧)، كانت ٤١٦ طائرة حربية لأربع دول عربية قد دمرت وهي جميعاً رابضة على أرض المطارات، عدا ٢٤ طائرة أسقطت أثناء المعارك في الجو. (وبالمقابل) خسرت إسرائيل ٢٧ طائرة فقط (خلافها لبيانات القيادة العامة المصرية في الإذاعة).. وكان ضياع القوات الجوية مؤشراً على نتيجة المعركة^(١٦٩).

(*) ومما يشير إلى أن الولايات المتحدة أدخلت السوفيات أنفسهم في اللعبة، ما يقوله محمود رياض: «ولقد كانت لدى موسكو قناعة مبكرة بأن إسرائيل تعد لهجوم شامل على الدول العربية، وخصوصاً مصر وسوريا، وهو الأمر الذي ثبتت صحته فعلاً. ومع ذلك فإن سفير الاتحاد السوفياتي بالقاهرة كان هو الذي أيقظ عبد الناصر من نومه في فجر يوم ٢٧ مايو/ أيار ١٩٦٧ لإبلاغه برسالة عاجلة من القادة السوفيات يطلبون منه فيها ألا تكون مصر البادئة بإطلاق النار. وفي تلك الليلة ذكر السفير السوفياتي أن الرئيس الأميركي جونسون أبلغ الكرملين بأن مصر ستقوم بالهجوم على إسرائيل في فجر ذلك اليوم. لكن الأمر اللات للنظر هنا هو أن السوفيات طلبوا «ألا تكون مصر هي البادئة بإطلاق النار».

(مذكرات محمود رياض: ص ٧١).

من الجانب؟

وهكذا تمخض القرار السياسي عن ضياع القوات الجوية. ولم يتمخص عن توجيه ضربة مضادة، ولم يكسب (أو بتعبير عبد الناصر في المؤتمر العسكري السياسي «لم يستبق») موقف الولايات المتحدة والدول الكبرى في صف مصر، فيما كشفت عنه مواقف تلك الدول الكبرى من مصر بعد الهزيمة. ونتيجة لضياع القوات الجوية، بدأ ما وصفه والت روستوفي تقريره اليومي الأول إلى جوبسون عن سير العمليات بـ «عملية صيد الديكة الرومية الكبرى».

«Mr. President:

Herewith the account, with map, of the first day's turkey Shoot».

Walt W. Rostow. (١٧٠).

بدأت قوات الدفاع الإسرائيلية، تماماً، كما كان بن جوريون يحثها كلما خطب فيها، «تعيد أمجاد يشوع بن نور» السفاح التوراتي الأشهر فأخذت تصطاد المصريين «الفلاحين والصعايدة» من الجو بالآلاف وقد ساعدها على ذلك قرار الانسحاب الذي «اتخذ دون الرجوع إلى المستشارين والمحترفين الذين ظلوا جاهلين به فترة من الوقت، حتى أحسوا برد فعله عن طريق المصادفة، فحاولوا الأخذ بزمام الموقف دون حدوى وقد قال لي ضابط كبير مسؤول في هيئة العمليات أنهم سمعوا أن قرارا بالانسحاب صدر دون أن يعلموا به وأنهم كتبوا مذكرة (١) للمشير بوجهة نظرهم (١) لكنه لم يطلع عليها إلا بعد ساعات نتيجة لتعذر مقابله وهو في غرفة لا تبعد عنهم أكثر من أمتار قليلة (١) والمتشير عبد الحكيم عامر لم يصدر قرار الانسحاب وحده دون الرجوع إلى القائد الأعلى جمال عبد الناصر، بل اتفق الاثنان على ذلك. والمعروف أن الانسحاب مرحلة من أعقد مراحل القتال وهي تحتاج إلى دقة وثبات في التنظيم. لكن الحالة النفسية التي سادت القيادة العامة، وانفراد المشير بإصدار القرار أدى إلى «مرحلة» تنظيمية جعلت الأمر بالانسحاب يصل إلى بعض القادة المقربين من المشير قبل أن يصل إلى القيادات المسؤولة. وبعد ذلك جاءت بلاغات من سيناء وطريق العريش عن إجراء انسحابات فردية وارتجالية ويقول الفريق أول محمد فوزي «ثم علمت بتدخل كل القيادات وأجهزة الأمن، شمس بدران، علي شفيق، الشرطة العسكرية، المخابرات الحربية. كلهم تدخلوا في تبليغ أوامر فردية بالانسحاب، كل حسب هواه وبأسلوبه، إلى غرب القناة». وحدث انهيار لجميع القادة والأفراد الموجودين في القيادة بعد انهيار المشير. لقد فقدت السيطرة تماماً على القوات المسلحة، كما فقدت الاتصالات. حصل انهيار. بدأت الوحدات والتشكيلات تنسحب وحدها دون تنسيق تعتمد كل وحدة على أوامر قائدها. تضاربت الآراء والأوامر وانسحبت الوحدات والتشكيلات في ظروف شديدة القسوة من الناحيتين المادية والنفسية. ولأقوى الجنود عذاباً أثناء انسحابهم عبر سيناء في شمس يونيو/ حزيران الحارقة. وتعرض الجيش لمهانة حقيقية من العدو الذي تحقق له انتصار أضخم كثيراً مما كان يحلم به» (١٧١).

هذا ما كان من أمر العسكريين لم يكن هناك وجود حقيقي لهم، ولم يكن له «المستشارين والمحترفين» دور. ولم يكن بوسع كبار الضباط المسؤولين في هيئة العمليات إلا أن يغطوا أنفسهم في ظروف بالغة الخطر داعية إلى التصرف الفوري بـ «مذكرة» يثبتون فيها «وجهة نظرهم» ولا يقدرّون على توصيلها للسيد المشير إلا بعد ساعات.

ولكن ماذا عن «مجلس الغمة» (ومعذرة، فلا سبيل إلى تسميته بهذا الاسم)؟ ماذا عن «الهيئة التشريعية» و«ممثلي الشعب»؟

(*) ويؤكد ذلك ما قاله الفريق أول محمد فوزي في شهادته أمام «لجنة تسحيل التاريخ» «مجلس الدفاع الوطني لم يجتمع (في ظل عبد الناصر) ولم يقرر أي شيء أصبح جهازاً على الورق فقط ومن الناحية العملية، ترك اختصاص مجلس الدفاع الوطني لجهاز آخر اسمه المخابرات وانتهى هذا الوضع إلى نتيجة الطبيعية وهي ما أسميته بخروج القوات المسلحة عن الإطار الطبيعي لأجهزة الدولة. خرجت بزة. وبدأت السيطرة الفردية والجبرية على القوات المسلحة.

(موسى صبري. «السلطات - الحقيقة والاسطورة»، ص ٢٧٠/٢٧١).

«في يوم ٢٩ مايو/ أيار ١٩٦٧، توجه أعضاء مجلس الأمة، برئاسة أنور السادات، إلى قصر القبة، لإعطاء عبد الناصر تفويضاً كاملاً بمواجهة الموقف (على النحو الذي يراه) وكان هذا حدثاً جديداً في تاريخ الحياة السياسية، إذ ينتقل ممثلو الشعب جميعاً من قاعتهم إلى قصر الرئيس، ثم يقدمون إليه تفويضاً كاملاً كان كل فرد منهم (بالضرورة) مسؤولاً عنه (عما يتخذ بموجبه) مسؤولية صمنية، بدلاً من المطالبة بمناقشة الموضوع من كافة حواشيه ومحاولة التعرف على حقيقة الأخطار التي يتعرض لها الوطن»^(١٠١)

وماذا عن زملاء الكفاح القدامى الذين «ركلوا إلى فوق»^(١٠٢)

«وفي نفس اليوم، توجه عبد اللطيف البعدي وكمال الدين حسين وحسن إبراهيم لمقابلة عبد الناصر، وهم أعضاء مجلس قيادة الثورة الذين قدموا استقالاتهم خلال السنوات الثلاث السابقة وقد قال لي كمال الدين حسين أن المقابلة لم تطل ثلث ساعة فقط، وأنه اتضح خلالها أن عبد الناصر كان يعرف حقيقة الجيش المصري، ولذا فقد اعتقد كمال الدين حسين أنه (عبد الناصر) لن يجرؤ على إعلان الحرب

«وقال لي حسن إبراهيم أن جمال عبد الناصر كان واثقاً من أن شبح الحرب ما زال بعيداً (وكان ذلك في ٢٩ مايو/ أيار ١٩٦٧) فقد قال لهم «أنا لن أحارب» وقال أيضاً «لست أنا الذي سيأخذكم إلى تل أبيب، إنه من سيأتي بعدي» (والذي جاء بعده كان أنور السادات الذي لم يأخذ أحداً إلى تل أبيب، بل جاء من القدس وكامب ديفيد بالطريشة ووضعها في عب مصر) لكنه قال «أنا س غاير الهف شرم الشيخ» (رغم أن سحب قوات الطوارئ من شرم الشيخ لم يكن بطلب منه، بل كان مناورة قام بها رالف بانس عن طريق يوثانت لتمكين إسرائيل من تنفيذ خطة اصطياده هو ومصر)

«وعندما سأله حسن إبراهيم عما إذا كان سيتترك الإسرائيليين يوجهون إلينا الصربة الأولى، قال إن «أمامهم ستة أسابيع» (وقد وجهت إسرائيل الضربة الأولى والأخيرة في تلك الحرب بعد سبعة أيام) وقد عاد حسن إبراهيم معدل ذلك في كتابه «الصامتون يتكلمون» فقال إن عبد الناصر قال إن إسرائيل أمامها (لن تضرب قبل) ستة أو سبعة أشهر

«وقال لي عبد اللطيف البعدي أن المقابلة أثبتت أن جمال عبد الناصر لم يكن يدخل التحرك السريع نحو الحرب كعامل رئيسي (في حساباته) وأنه كان يعتقد أن الحرب ليست قريبة، وأن البعدي وزملاءه كانوا يجسمون له الأخطار

«ويقول ناتينج، في كتابه «ناصر»، عن هذه المقابلة (بين عبد الناصر وزملاء الكفاح) أن عبد الناصر أفهم زملاءه أنه ليست هناك مناسبة لمثل حديثهم الانهزامي الذي ركز على نقاط الضعف في القوات المسلحة المصرية، وأنه عندما سأل البعدي عبد الناصر عما سيكون عليه موقف السوفييت، ردد له عبد الناصر ما كان شمس بدران قد قال له عن استعداد السوفييت لمساعدة مصر حتى النهاية حتى وإن أدى ذلك إلى تورط السوفييت في حرب عالمية (ولم يكن عبد الناصر قد قرأ بعد محضر اجتماع شمس بدران والقادة السوفييت

(*) وتوضح معنى ركل زملاء الكفاح القدامى إلى أعلى، نفس شهادة الفريق أول محمد هوري، وتحكي كيف حدث ذلك «زعامة عبد الناصر تأثرت بعد الانفصال وأقول أنه حدث انحسار لهذه الرعاية بتيجة الانفصال، سببه أن الانفصال هو فشل للجمهورية العربية المتحدة في تحقيق أول هدف قومي وهو الوحدة ولذلك، صدر اقتراح من الرئيس عبد الناصر بإعادة تنظيم الهيكل القيادي والتنظيمي للدولة على أساس ثلاث نقاط

النقطة الأولى يتكون مجلس قيادة الثورة القديم بشكل جديد ليصبح مجلساً آخر يسمى بمجلس الرئاسة وتكون وظيفته التخطيط والمتابعة فقط

النقطة الثانية تعتمد السلطة التنفيذية على كفاءات مسؤولة أمام مجلس الرئاسة

النقطة الثالثة تكون القوات المسلحة داخل الإطار الطبيعي لأجهزة الدولة.

وفيما يخص النقطة الثالثة من ذلك المخطط الجديد، يقول محمد هوري أنها لم تنفذ لأن عبد الحكيم عامر بعد أن قبلها عاد فرفضها وبعث بشمس بدران إلى عبد الناصر ليقول له «المشير يبلغك أنه رجح في كلامه وغير موافق» أما النقطة الأولى والنقطة الثانية، فيقول محمد فوزي أن معناهما الصريح «هو أن الأعضاء القدامى في مجلس قيادة الثورة، يطلعوا فوق» (يركلوا إلى أعلى) ولا يتولون أي سلطة تنفيذية على الإطلاق» (نفس المرجع السابق، ص ٣٦٩)

وواضح أن عبد الناصر، بعد نكسة الانفصال، كان قد قرر الانفراد بالسلطة تماماً، وعملاً على ذلك حاول القيام بـ «انقلاب قصر» وقد قبل زملاؤه القدامى بعملية ركلهم إلى أعلى خارج دائرة السلطة الفعلية، إلا أن عبد الحكيم عامر، بعد أن قفل بإخصاص القوات المسلحة لـ «الإطار الطبيعي للدولة» تمرد ورفض، وحتى لا يصطدم عبد الناصر به، «ترك له» القوات المسلحة كمزرعة خاصة له وفي إدارته لمزرعة القوات المسلحة، فعلى عبد الحكيم عامر ما كان عبد الناصر يفعله في إدارته للمزرعة الأكبر مصر، فأصبح القائد الفرد الواحد الأوحى، وبالضرورة استبعد كل العسكريين الحقيقيين من محترفين ومتخصصين، وأحاط نفسه بزمرة من المنتفعين كالزمرة التي أحاط عبد الناصر بنفسه بها وقال السادات أنه اشتكى له منها قائلاً: «يا أنور البلد بتحكمها عصابة»!

من الحاني^٩

لأنه لم يجد وقتاً لفتح مخطوطه وقراءته إلا في ١٢ يونيو / حزيران، ووقتها أدرك أن شيئاً من ذلك لم يقله السوفييات لشمس بدران، بل قالوا له العكس بالحاح)

«وقال لي حسس إبراهيم أنه (لم يكتف بالمقابلة، فـ) أرسل مذكرة إلى عبد الناصر بتاريخ أول يونيو/ حزيران.

وقد كانت تلك المقابلة من المقابلات النادرة التي أتيح لجمال عبد الناصر أن يسمع فيها آراء صريحة بلا خوف أو تردد من زملاء قدامى أتيحت لهم فرصة العمل معه ١٢ عاماً وأكثر قبل أن يبتعدوا عن المسؤولية والحياة العامة، لكنها ظلت - مع ذلك - كنوع من الاستشارة فقط»^(١٧٧)

فحتى رملاء الكفاح القدامى من الضباط الأحرار، كانوا يحجمون، عن خوف، ويترددون في إبداء الرأي وتقديم المشورة ولقد كانت تلك مناسبة بادرة استجمعوا فيها شجاعته، وذهبوا ليليدوا رأيهم، فاستمع إليهم الزعيم، ثم قال لهم أن حديثهم انهزامي

فإن كان ذلك وضع من «خرجوا» من الحياة العامة وابتعدوا عن المسؤولية من زملاء الكفاح القدامى، فماذا كان وضع «كبار المسؤولين» العاملين مع الزعيم؟

يقول أنور السادات (الذي قاد «نواب الشعب» من شارع القصر العيني إلى قصر القبة ليعطوا «الرئيس» تفويضاً كاملاً بأن يفعل بمصر ما شاء) «أنا شخصياً أعطيت صوتي لجمال عبد الناصر في جيبه. لقد رأيت أنه رجل في قمة الكفاءة efficient تمام! يحضر ويعرض الموضوع بعد دراسة كاملة وتحليل مستفيض. وتجدينا، بعد مناقشات كانت تستمر ١٧ و ٢٠ ساعة - كنا شباب - نعود إلى الرأي الذي عرضه عبد الناصر في أول الأمر. وهكذا، قلت له «صوتي معك دائماً»^(١٧٨).

وعندما سأل موسى صبري السادات «هل اختلفت مع عبد الناصر؟»، أحاب السادات «من جانبي، لم اختلف أبداً»^(١٧٩) وهذا غريب حقاً، في سياق كل ما فعله السادات بعد أن أصبح رئيساً فالأصح والأصدق «أنا لم أعارض عبد الناصر أبداً».

وقد وصف أحمد حمروش حالة «الاتحاد الاشتراكي» (التنظيم السياسي للنظام) وأمانة طليعة الاشتراكيين التي قال أنها كانت - حسبما كان مفروضاً - «قلب الحركة السياسية في الاتحاد الاشتراكي وجهازه السياسي» في أواخر مايو/ أيار ١٩٦٧، بأنها كانت حالة غياب من الصورة. «فالالاتحاد الاشتراكي سادر في عقد اجتماعات غير مثمرة، والأمانة لم تجتمع ولم تناقش الموقف ولم توضح بعد الأخطار التي كانت تتهدد مصر وعندما هرعنا إلى شعراوي جمعة، أمين التنظيم الطليعي، وإلى زملائي أعضاء الأمانة، وجدت أنهم يتوقعون الحرب، لكنهم حيارى لا يعرفون ماذا يفعلون». وقد كان ذلك طبيعياً، وما من شك في أن أحمد حمروش أدرك أنه كان طبيعياً. فالزعيم لم يكن لديه وقت لذلك الاستعراض الجانبي، وكان منشغلاً بالدفاع عن زعامته وكرامته. وفي غيبة تعليمات أو مؤشرات واضحة تبين للاتحاد والأمانة «خط الزعيم» ونواياه (التي لم يكن الزعيم يعرفها بوضوح أو على وجه اليقين، إذ ظل يتعامل مع الأحداث لعباً بالسماع من لحظة لأخرى) لم يكن هناك بطبيعة الحال من تحلي بالشجاعة أو الرعونة إلى حد المجازفة بعنقه وقول شيء أو إتيان فعل قد يكون متناقضاً مع ما يريده الزعيم ويفكر فيه، ومن هنا كان الكل في الاتحاد والأمانة «حيارى لا يعرفون ماذا يفعلون»!

وتبقى بعد ذلك ثلاثة السلطات وأهمها. القضاء. وتاريخ الثورة مع القضاء معروف. فقد أقال الزعيم ذات يوم الهيئة القضائية كلها عن بكرة أبيها بجرة قلم، وأعاد تشكيلها حسبما تراءى له. وقد بدأت علاقة الزعيم ونظامه بالقانون والقضاء هذه البداية:

«... جاءت أنباء رحف مظاهرة إلى دار مجلس الدولة، وأن المتظاهرين أحاطوا بالدار ويمنعون من فيها من الخروج، وعلى رأسهم رئيس المجلس الدكتور عبد الرزاق السنهوري. فاقترحت أن يذهب في الحال عضو من أعضاء مجلس القيادة يكون معروفاً للجماهير، ليعرض المظاهرة بسلام. واقترحت أن يندب صلاح سالم لهذه المهمة التي قبلها بارتياح وقد سمعنا - بعد أن عادر صلاح سالم المنزل - أن المظاهرة يقودها ضابط مخابرات يدعى «حسين عرفة»، وأن السبب في المظاهرة وفي اتجاه المتظاهرين إلى مجلس الدولة نبأ نشر في جريدة الأخبار بأن الجمعية العمومية لمجلس الدولة منعقدة للظفر في الشؤون العامة، وتسربت إلى الناس إشاعة بأن المجلس سيصدر قرارات تؤيد عودة الحياة السيادية ورجوع الضباط إلى ثكناتهم.

«ولقد كذب كثيرون ممن كتبوا عن هذه الواقعة، فيما بعد، هذه الإشاعة، وقالوا إن مصدرها كان مجلس

قتل مصر

قيادة الثورة ليتخذ منها دريعة لضرب الدكتور السهوري، والاعتداء على مجلس الدولة كصورة من صور القاديب للقضاء والقضاة، والمؤسسات التي تقف في وجه الثورة..

«وقد أورد الرئيس نجيب في كتابه «كلمتي للتاريخ» «أن» «مجلس الدولة انعقد فعلاً، وأصدر قراراً بتأييد الديمقراطية والحياة النيابية وقرارات ٥ و ٢٥ مارس/ آذار» وقال، بالحرف الواحد «وقد اعتدى المتظاهرون على الدكتور عبد الرازق السهوري وعلى باقي الأعضاء بالضرب الشديد، ومزقوا القرار الذي اتخذ» (١٧٧)

ففي ذلك اليوم، أطلقت بعض القطعان من الحظائر، وسيقت وعلى رأسها ضابط من المخابرات، لتبدأ عملية هدم السلطة القضائية وقد استخدمت القطعان أيضاً في تحويل البرلمان إلى مجلس غمة واستخدمت لتخوّر وتنطح في الطرقات كلما أراد صاحب العزبة لها أن تخوّر وتنطح وبذلك الولاء لصاحب العزبة، ذلك الغناء فيه، تحولت مصر إلى عبد الناصر، وأصبحت من بعده السادات، تماماً كما قال هيكل لذلك الأخير «أنت يا أفندم. أنت البلد. أنت مصر»! وكانت تلك أعظم خدمة أداها الزعيم وأديناها، نحن المصريين، عندما قبلنا بأن يصبح هو البلد، هو مصر، ونصبح نحن قطعاناً، لـ «العدو الغادر» فقد يسرنا لذلك العدو اصطلياد مصر عن طريق اصطلياد زعيم كان قد أصبح هو كل شيء وكل إنسان ويات كل من عداه غير كائن وغير موجود.

وبتأديتنا تلك الخدمة الكبرى، التاريخية بحق، لـ «العدو الغادر»، لم نوّد في الواقع خدمة حقيقية للزعيم أولاً لأنفسنا. فقد حطم العدو الزعيم، وبعث به إلى القبر كسير القلب مكسور الظهر. والواقع أن عبد الناصر كإنسان بدأ موته من ذلك الوقت

«وفي الساعة التاسعة مساءً (٨ يونيو/ حزيران ١٩٦٧) طلّسي الرئيس عبد الناصر تليفونيا في مكالمة لن أنساماً مطلقاً، وبدأ يحدثني بنبرة مؤلمة ومعجزة في صوته كانت في حد ذاتها كافية لتصوير الموقف كله لقد أخطرتني بأن الانهيار في القوات المسلحة كان كاملاً وفوق أي تصور، وأنه لم يعد في إمكاننا مواصلة القتال، وأنه يجب إبلاغ مجلس الأمن بموافقتنا على وقف العمليات العسكرية» (١٧٨)

«كانت قمة مأساته الشخصية في يونيو/ حزيران. كان يستمع إلى الراديو ويكي والعريب أنه كان يستمع إلى كل الإذاعات الشاملة التي كانت تؤله وتشير غيظه والعواصم العربية شامته والقصاص عن الجيش المصري الذي عاد حبوده إلى مصر حفاة هيا ارتفع السكر ارتفاعاً خطيراً، وراحت كمية الأنسولين التي كان يتعاطاها وادكر أبي، وفي أغسطس/ آب ١٩٦٧، رأيت صفرة الموت على وجه عبد الناصر كنا في رأس التين، وكان يزورنا تيتو رأيت صفرة الموت كما رأيتها على وجه أمي وصهري، والاثنا مائتا أمامي وبدأ يعاني الآلام المرحجة لأن مرض السكري كان أملاً حياً بين العصب والشریان، وأي حركة تسبب الآلام في الجسم كله أربع وعشرون ساعة والالام مستمرة، وكان سكاكين تعرق حسده ومن هنا جاءت أزمة القلب» (١٧٩)

ومصر أيضاً العزبة والقطعان المصريون المساكين الذين أعطوا الحب كله والولاء كله فعمولوا كما لو كانت مصرهم قد أخذت منهم في معركة مع المسلحين ولبات غنيمه حرب، أنشب العدو أنيابه في أعناقهم ولم يخلها. فلم يغنموا، بالاستسلام للزعيم، السلامة، ولم يغنموا لبلدهم النجاة والذي مكن المصريون سلالة يشوع بن نون من أن تفعله بهم أبسع من أن نجتره فليس الكتاب نواحا على ما حدث أو إعمالاً لمبضع الذاكرة في الجراح. فالزعامة التي أسلموها أعناقهم ومستقبل بلدهم لم تكف بجرهم إلى مصيدة كان بوسع حاكم أمي، أو أعشى، أو فاقد الصواب، أن يراها، بل أسلمتهم كالدبائح للعدو بانهارها وتفككها وجبنها وتخطبها وتعاملها مع العالم من خلال الخطابييات. فعندما صدر الأمر يوم ٦ يونيو/ حزيران ١٩٦٧، أي بعد ٢٦ ساعة فقط من بدء القتال، بالانسحاب إلى غرب القناة، أي الانسحاب الكامل من سيناء، قبل صباح اليوم التالي، ٧ يونيو/ حزيران، أي خلال ١٢ ساعة، كان

«تنفيذ ذلك الانسحاب مستحيلاً، لوجود آلاف الدبابات والعربات ووحدات المدفعية وعشرات الآلاف من الجنود في سيناء بينما الطرق محدودة، والأرض وعرة، والعنارات في قناة السويس قليلة العدد ولو أريد تنفيذ ذلك الانسحاب خلال ثلاثة أيام، لا ١٢ ساعة، تحت يراا الطائرات لإسرائيلية، لبات عملية شاقة أما الانسحاب خلال ١٢ ساعة، فهو بمثابة حكم إعدام على القوات المنسحبة. ومثل ذلك الأمر لا يمكن أن يصدر من شخص في حالة

طبيعية. ونتيجة لذلك الأمر العشوائي بالانسحاب، اكتظت الطرق القليلة في سيناء بالدبابات والمعدات، وتعطل العديد منها على الطرق، ولم يكن هناك من ينظم سير الوحدات، فتداخلت مع بعضها، توقف التحرك تماماً «وهكذا وجد سلاح الطيران الإسرائيلي تحته على أرض سيناء صيدا سهلاً، ففتح نيرانه على العربات والجنود المكتظين على طرق سيناء، ووصلت خسائرها في ذلك اليوم وحده إلى ما لم يقل عن عشرة آلاف جندي، ودمرت كافة المعدات والعربات الموجودة شرق المضائق. وعاد الكثيرون من الجنود مشياً على الأقدام في حالة سيئة للغاية. ومات بعضهم في الصحراء جوعاً وعطشاً، الأمر الذي جعل طائرات الصليب الأحمر تواصل العمل طوال أيام بعد الحرب بحثاً عن الأفراد الباقين على قيد الحياة لإبقائهم. «فقدت مصر جيشها وأصبح ميسراً لإسرائيل، من الناحية العسكرية البحتة، أن تعبر قناة السويس وتتقدم صوب القاهرة»^(١٨٦)

فالخنوع والادارة والاستسلام لم تجد في النهاية شيئاً، ولم تعد على مصر إلا بالدمار. وحقيقة أن إسرائيل التي اعتبرت مصر دائماً أكبر خطر تهددها في سعيها لإقامة بداية امبراطوريتها على أرض الشرق الأوسط لتكون تلك الأرض منصة انطلاق لها، وإسرائيل التي انطوى كتابها الديني على أفضع الحزاة لمصر، لم تغتنم فرصة ما كان قد بات ميسراً لها، ولم تعبر القناة فتتقدم صوب القاهرة. لكنها لم تفعل ذلك لأنها تتحرك عبر مخططات مدروسة ومعدة سلفاً على أساس من حسابات كثيرة معقدة. ولم تكن حرب ١٩٦٧ حرباً استدرجت إسرائيل عبد الناصر إليها لتحتل مصر عسكرياً. لكنها كانت حرباً أريد منها أن تضع مصر الموضع الذي استدرجت إليه بعد عشر سنوات من حرب ١٩٦٧. وعندما انتهت حرب ١٩٦٧، غرق العرب في الظلام، كما قال أحمد حمروش:

«استطاعت دولة صغيرة يسكنها مليونان ونصف مليون من السكان أن تهزم جيرانها العرب، بعد أن تحولت إلى أكبر ترسانة للأسلحة في المنطقة. «ضاعت إسرائيل مساحتها (في ستة أيام) أربع مرات بما احتلته من الأراضي العربية، واحتوت مليونا ونصف مليون من المدنيين. وضمت داخل حدودها أباراً من البترول (أبار سيناء) تكفيها للاستهلاك والتصدير معاً.

«(وثننا لذلك الكسب الإسرائيلي) سقط أكثر من ٢٥,٠٠٠ جندي عربي قتيل، وأخذ ٥٩٢٠ من الجنود العرب أسرى، بينما لم يسقط إلا ٦٧٩ جندياً إسرائيلياً قتلى، و ٢٥٦٣ جرحى، ولم يؤخذ منهم إلا ١٨ جندياً أسرى، تسعة منهم في مصر.

«وفي مقابل ١٣٠ دبابة دمرت لإسرائيل، فقدنا ١١٠٠ دبابة و ١٥,٠٠٠ عربة نقل والهزيمة بشعة، والخسائر جسيمة»^(١٨٧).

غير أن العقل يجب أن يتوقف عند لجؤ أحمد حمروش، وهو المطلع على كل خبايا الهزيمة، بحكم كونه من «رجال العهد» (الثوري)، إلى الخطابات، وتأكيد «بأن الهدف الرئيسي من العدوان لم يتحقق، ولم تستطع الخطة (الإسرائيلية) «الحمامة»، رغم روعة انتصارها، أن تسقط النظام التقدمي في مصر. نجحت الخطة عسكرياً، لكنها لم تحقق بعد أهدافها سياسياً (١)»^(١٨٨).

ومعذرة. لكن «الحمامة» أسقطت. ومصر أدخلت، والعرب من حولها، الدرب الوحيدة التي تمثلت فيها الأهداف السياسية للخطة العسكرية. درب كامب ديفيد.

وفي النهاية، لا يمكننا أن نختم هذا البحث عن الجاني، بغير استشهادين كاشفين من مذكرات محمود رياض:

«(وقد) أكد عبد الناصر أن عبد الحكيم عامر هو الذي كان يقود المعركة العسكرية، وأنه هو أيضاً (عامر) الذي أصدر الأمر العشوائي بالانسحاب الشامل من سيناء، وهو القرار الذي كان، كما ذكرت قبلاً، بمثابة حكم بالإعدام على قواتنا ومعداتنا المنسحبة من الجبهة.

«وبالطبع فإن هذا لا ينفي الخطأ الفادح في التقدير السياسي (لعبد الناصر)، ليس فقط فيما يتعلق بنوايا إسرائيل نفسها، ولكن أيضاً فيما يتعلق بالطرفين الأكثر أهمية في الأزمة، وهما الاتحاد السوفياتي، والولايات المتحدة»^(١٨٩).

أما في الاستشهاد الثاني، فيقول وزير الخارجية:

«... وفي الوقت الذي كان يوجين روستو يستدعي فيه السفير المصري في واشنطن ليؤكد له أن الولايات المتحدة سوف تناهض العدوان بالقوة، ويؤكد له - باعتباره وكيلاً لوزارة الخارجية الأميركية - أن إسرائيل لن تبدأ الحرب مطلقاً، وفي الوقت الذي يحدد لنا فيه الرئيس الأميركي جونسون يوم ٥ يونيو/ حزيران بالذات

قتل مصر

موعداً لاستقبال زكريا محيي الدين في واشنطن، كان جونسون وكنار معاونيه يعرفون على وجه الدقة أن إسرائيل ستشن الحرب علينا يوم ٥ يونيو/ حزيران، بل ويتفاوض مع رئيس المخابرات الإسرائيلية على محرى «الحرب»^(١٨)

وقعت مصر في الشرك، أخذها اليه من يدها حاكم تصوّر - من فرط ما انصاع له شعب مستسلم - أنه مستطيع، بغير مخاطرة، وبلا عواقب سيئة، أن يفعل في العالم الواقع الخارجي ما ظل يفعله طوال سنوات حكمه في العالم الموهوم الداخلي، مصر، فينفذ مشيئته، أيا كانت مشيئته، بقرار جمهوري، وإذا ما استعصى عليه ذلك، سلط المخابرات والأجهزة، فنفذتها له، بالإرهاب، بالاعتقال، بالتعذيب، باهدار الأدمية، أو بالقتل إذا ما اقتضى الأمر ولم يكن ما أشار اليه الفريق أول محمد فوزي عندما تحدث مغتافاً عن «إعطاء اختصاصات الدفاع الوطني إلى جهاز يدعى المخابرات» مجرد إجراء عفوي اعتسافي آخر اتخذ عشوائياً أو اتخذ لأن مصلحة فئة أو أخرى من فئات النظام اقتضت، بل كان استمراراً منطقياً للممارسة التي أثبتت فعاليتها المطلقة داخلياً بما حققت من إخضاع للمصريين بكل فئاتهم، وتصوراً لامكانية وجدوى توسيع نطاق تلك الممارسة الإرهابية الفجة الممكنة في سياق التعامل مع شعب طيع بات أشبه بشعب بلد محتل وظل كل همه أن يغنم السلامة (كما قال الدكتور فؤاد زكريا، يحصل على «الستر») واستخدامها في ساحة العلاقات الدولية.

وقد قال محمود رياض، في مذكراته أن قرار الانسحاب الشامل الذي كان بمثابة حكم بالاعدام على عشرات الآلاف من الصعايدة والفلاحين الذين أخرجوا من حظائر العزبة وحشدوا فوق رمال سيناء لم يكن مما يمكن أن يتخذه أي إنسان في حالة طبيعية. ولقد كانت تلك - طيلة الوقت - مشكلة النظام: أنه ظل في «حالة غير طبيعية» وظل الكثير من قراراته التي اتخذها فرد واحد لا راداً لقضائه، غير طبيعي. وليس هناك ما هو أبعد عن السوية من الانزلاق إلى حرب - رغم العزوف عنها ورغم وجود ٧٠ ألفاً من الصعايدة والفلاحين بأسلحتهم وعتادهم «غارزين» في اليمن - حرصاً على الزعامة الأخذة في الانحسار، ومداداة للكرامة الجريحة، ودرءاً لاتهامات حرب الإذاعات. وليس هناك ما هو أبعد عن السوية من إسناد مسؤولية الأمن الوطني، في سياقه العسكري المتعلق بحياة أو موت المصريين، وحياة أو موت مصر كبلد وكأمة وكدولة، إلى جهاز انحصرت كل خبرته في ممارسة إرهاب الدولة تجاه مواطنيها والتحكم فيهم، ولم يكن له أي دور حقيقي في تزويد العسكريين المحترفين أو القادة السياسيين بما لا سبيل إلى الدخول في منازعة دولية - دع عنك خوض غمار حرب - بغير توافره من المعلومات والتحليلات. ولقد أوضح كل من كتب عن «حرب» ١٩٦٧ من مصريين وأجانب كما أوضح محمد فوزي في «شهادته للتاريخ»، أن سبباً من أخطر أسباب كارثة ١٩٦٧ كان جهل الزعامة السياسية والقيادات العسكرية على السواء بحقيقة قدرات العدو ونواياه ومواقف الأطراف الدولية الأخرى المتصلة بالنزاع، وأن ذلك الجهل المهلك نجم عن عجز المخابرات وعدم قيامها بمهمتها الحيوية والحقيقية وهي تزويد صانعي القرار السياسي والقرار العسكري بما يمكنهم من صنع القرار على ضوء خلفية متكاملة - وصادقة - من المعلومات والتحليلات الدقيقة عن كل ملابسات الصراع واحتمالاته وما يحف به ويؤثر فيه ويترتب عليه. إلا أن الزعيم، فيما بدا، رجحت لديه كفة نجاح المخابرات في تأمين بقائه داخلياً واحكام قبضته على مصر ومن فيها، وتصور أنها - ما دامت نحتت في ذلك - سوف تنجح في تأمين بقائه واستمرار زعامته في مواجهة العدو الخارجي. فلا تفسير هناك إلا هذا لإسناد اختصاص الأمن الوطني في سياقه العسكري إلى «جهاز يدعى المخابرات».

ولقد كان ذلك في الواقع عرضاً من أعراض مرض الموت الذي ابتلي به النظام نتيجة للخنوع الغريب من جانب شعب مصر. وهو ما وصفه السادات بأنه «التأله» الذي أصاب عبد الناصر، فحوله من ضابط وطني ناثر، إلى حاكم مطلق، إلى آله واحد أحد، لا رأي لأحد سواه، ولا قرار لأحد غيره، ولا وجود لمصر إلا به وفيه وله.

وفيما كشفت عنه بشكل متواصل النكسات الخطيرة التي تعرضت لها مصر في سياق ذلك الخنوع، أدى التنازل من جانب المصريين عن أبسط وأول حقوقهم كبشر وكمواطنين إلى تحويل الحياة في مصر إلى حياة موهومة أشبه بما تخلقها صناعة السينما على أفلام السليويد. وقد ساعد على ذلك مساعدة ينبغي

قتل مصر

أن يتحاسب كثيرون من الصحفيين والمشتغلين بالاعلام من المصريين مع ضمائرهم عليها، ما ظلت الصحافة والاداعة والتلفزيون سادرة فيه من كذب متواصل لحوح صفيق لم يتوقف لحظة، حتى في أشد المواقف حطورة، والصقها بالبقاء داته وقد رايا الاذاعة والصحف ابان مذبحة «حرب» ١٩٦٧ تواصل باصرار وبلاهة خلق ذلك العالم الموهوم، بحيث تحولت الحرب الحقيقية المخيفة التي كانت جارية في العالم الواقع الحارحي الى حرب «سينمائية» موهومة انقلب فيها الخراب الى انتصار وتدمير طائرات مصر الى تدمير اعداد مهولة من طائرات العدو ولقد كانت هذه اللحظة البشعة في تاريخ مهنة الصحافة وشغلة الاعلام طبيعية ومحتومة. فعملية اختلاق عالم موهوم لـ «السادة المواطنين» استمرت حتى اللحظة الأخيرة، لتكون اختلاجة قمينة لنظام محتصر أقام دعائمه على الكذب وطمس الحقيقة حيثما لم يتيسر لوي عبقها

ومن الحقائق الموجهة التي تكشف عن تلك الطبيعة الملازمة للنظام حتى في أشد الاوقات مدعاة لمواجهة الواقع، ما جاء في المكالة التليفونية التي دارت بين عبد الناصر والملك حسين في الساعة الرابعة والنصف من صباح يوم ٦ يونيو حزيران ١٩٦٧ والتي التقطتها المخابرات الاسرائيلية وأذاعت تسجيلها على العالم، ففي تلك المحادثة، وهو يعلم أن سلاح الطيران المصري دمر على الأرض، وجد الزعيم المصري من المناسب أن يقول للملك حسين

«لا تياسوا اسامعكم بكل قلوبنا وطائراتنا الآن فوق اسرائيل طائراتنا اخذة في ضرب مطارات اسرائيل
مد هذا الصباح» (١)

وبطبيعة الحال، كان ذلك مستحيلاً وكان عبد الناصر يعلم أنه مستحيل. وعندما قاله للملك حسين لم يكن يقوله للشارع المصري ليرفع معنوياته، بل كان يقوله لرئيس دولة مسؤول أخذ على عاتقه مهمة الحرب بجانب مصر، وكان بذلك يخدعه لكن ذلك كان خداعاً للنفس في الوقت ذاته. كان من قبيل استمرار عالم الوهم الذي أودى بالزعيم الى تلك الكارثة. فالطيران المصري كان قد دمر صباح الاثنين ٥ يونيو/حزيران، ولم يعد قادراً على تقديم أي غطاء جوي للقوات المصرية ذاتها. ومع ذلك، أكد عبد الناصر للملك حسين في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي أن ذلك الطيران كان أخذاً في تلك اللحظة في ضرب مطارات اسرائيل.

وحتى يتضح الفرق بين الوهم والواقع، ويتضح الاختلاف بين أناس يذهبون الى الحرب وهم في حلم يقظة طويل لا يبدون راغبين في الاستيقاظ منه حتى بعد كارثة ماحقة، وبين عدو ذهب الى تلك الحرب التي استدرج أولئك الحالمين اليها ليكسر ظهورهم، مسلحاً بيقظة حادة واستعدادات طويلة، نصفي الى هذا الكلام الذي قد يكون موجعاً، لكنه - بغير شك - مفيد

«فكيف استطاع الاسرائيليون تحقيق مثل ذلك النجاح المطلق في مثل ذلك الوقت القصير للغاية؟ قدم الجنرال هود الاسباب التالية

١ - ١١ سنة من التخطيط والاعداد استثمرت في تلك الدقائق الثمانين الأولى من الحرب. «لقد عشنا الخطة نمنا والخطة في رؤوسنا، وصحبنا وهي في رؤوسنا. وأكلنا الخطة مع طعامنا، وباستمرار عملنا على ايصالها الى حد الكمال.

٢ - الاستخبارات وتوافر المعلومات عن تحركات العدو الجوية، ومواقع قواعده الجوية وكل التفاصيل المتعلقة بها، وتوزيع طائراته، ومواقع راداراته وقواعده التي يطلق منها الصواريخ المضادة للطائرات. كل هذه كانت استخبارات حيدة

٣ - ادارة العمليات، والقدرة على استيعاب كل ما يرد من معلومات جديدة وادماجه في الخطة وإبلاغ الطيارين، حتى وهم في الجو، بتلك المعلومات وبالاهداف الجديدة كل ذلك لعب دوراً حيوياً في نجاح العملية.

٤ - تنفيذ الطيارين للخطة وفي احدى الطلعات، تمكنت طائرتان اسرائيليتان من تحطيم ١٦ قاذفة مصرية على الأرض خلال أربع دقائق

وكان الاسرائيليون قد ظلوا يتدربون على ذلك السوع من الهجمات طوال سنوات. وهناك أربع اماكن تدريب في صحراء النقب القيت عليها عدة آلاف من القنابل خلال الغارات التدريبية وكان الاسرائيليون يغيرون على تلك المواقع في صحراء النقب غارات شاملة، مرة في السنة على الاقل، وهكذا فإنه عندما أصبح

خلاصة

الامر حقيقة واقعة لا مجرد تدريب، لم تكد تقصر طائرة واحدة عن الوصول الى هدفها المحدد لها في اللحظة المحددة لضرب ذلك الهدف»^(١٢٦)

والذي يعنينا في كل ذلك ما سبق الضربة من تخطيط واعداد وتدريب (جعله ممكناً بطبيعة الحال الكرم الأميركي في تزويد اسرائيل بأحدث الطائرات وببلك العشرات من آلاف القنابل التي استخدمت في طلعات التدريب غير ما استخدم منها فعلاً في ضرب المصريين عندما أن الاوان لوضع كل ذلك التدريب موضع التنفيذ)، يقول القائد الاسرائيلي للمراسل البريطاني المنبهر أنه استمر لأكثر من عشر سنوات كانوا خلالها «يعيشون الخطه، ينامون الخطه، ويأكلون الخطه»، بينما العدو المسكين في مصر يعيش حلم يقظة طويل تغذيه هستيريا الاذاعة ونفاق الصحفيين وجبنهم وارتزاقهم أو - فذلك البديل الوحيد - جهلهم المطبق، والانشيد الحماسية التي يجأر بها المطربون وتتأوه المطربات عن «المجد والخلود» وهيا هيا هيا يا عرب.

والمحزن أن النظام الذي صنع للمصريين ذلك العالم الموهوم ليعيشوا فيه مخدرين، انتهى بأن استوعب هو نفسه في الوهم، وصدق، وبات يتعامل مع العالم الخارجي المحفوف بالمهالك على أساس خبرته وهو تحت تأثير تهاويم ذلك العالم الداخلي الخرافي الذي حُولت اليه مصر وانقلب كل شيء فيه الى خطابيات وموضوعات انشاء وتطريب حماسي.

ومثلما فطن الاسرائيليون وهم آخذين في «ايصال الخطه الى حد الكمال» طوال سنوات من الاعداد والتخطيط كان ذلك التدريب المتواصل لسلاحهم الجوي مجرد جزء من أنشطتها، الى «كعب أخيل» عبد الناصر، وهو كبريائه وحساسيته الفائقة تجاه زعامته للمصريين ولكل العرب، وأدركوا أنهم مستطيعون اصطياده بطعنة في ذلك الكعب الحساس، وأنهم متى اصطادوه سيكونون قد اصطادوا مصر كلها، لأنه قد بات هو مصر، فطنوا أيضاً الى أن عبد الناصر ونظامه وكل المنتفعين بنظامه كانوا قد نوموا أنفسهم مغناطيسياً وهم آخذين في تنويم الشعب المصري، فصدقوا عالمهم الموهوم الذي صنعوه للمصريين، وغفلوا تماماً عما يتطلبه التعامل مع العالم الواقع من حسابات معقدة.

- (١) فتحي رصوان «٧٢ شهراً مع عبد الناصر»، كتاب الحرية ٢، الناشر دار الحرية للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٩٥
- (٢) الدكتور فؤاد ركريا «كم عمر العضب - هيكل وازمة العقل العربي»، الناشر شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، الكويت، ١٩٨٣، ص ص ٢٤/٢٥
- (٣) المرجع نفسه، ص ص ٢٥/٢٦
- (٤) المرجع نفسه، ص ٢٧
- (٥) شفيق مقار «الحس بالعيب في عالم نجيب محفوظ»، الاقلام، بغداد، السنة السابعة، العدد ٩، ١٩٧٢، ص ص ٤ - ١٢
- (٦) «كم عمر العضب»، ص ٢٧
- (٧) «٧٢ شهراً مع عبد الناصر»، ص ص ٨٩ - ٩١
- (٨) المرجع نفسه، ص ص ٩١ - ٩٣
- (٩) «السادات، الحقيقة والأسطورة»، ص ٢٤٩
- (١٠) «٧٢ شهراً مع عبد الناصر»، ص ص ١٤٧/١٤٨
- (١١) المرجع نفسه، ص ١٤٩
- (١٢) «السادات، الحقيقة والأسطورة»، ص ٢٧٣
- (١٣) «٧٢ شهراً مع عبد الناصر»، ص ١٥٠
- (١٤) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (١٥) Heikal, Mohammed Hassanein «Nasser, les documents du Calre», Editions J'ai Lu, Flammarion, 1972, p 363.
- (١٦) «٧٢ شهراً مع عبد الناصر»، ص ص ٨١/٨٢
- (١٧) المرجع نفسه، ص ص ٨٢/٨٣
- (١٨) المرجع نفسه، ص ٨٣
- (١٩) المرجع نفسه، ص ٨٣
- (٢٠) المرجع نفسه، ص ٨٣
- (٢١) «السادات، الحقيقة والأسطورة»، ص ٢٨٢
- (٢٢) «٧٢ شهراً مع عبد الناصر»، ص ١٩٣
- (٢٣) المرجع نفسه، ص ١٩٣
- (٢٤) «السادات، الحقيقة والأسطورة»، ص ٢٨٠
- (٢٥) المرجع نفسه، ص ٢٨٦
- (٢٦) المرجع نفسه، ص ٢٥٦
- (٢٧) المرجع نفسه، ص ٢٠٢
- (٢٨) المرجع نفسه، ص ٧٧٠
- (٢٩) المرجع نفسه، ص ٢٠٢
- (٣٠) المرجع نفسه، ص ٢٠٣
- (٣١) المرجع نفسه، ص ٢٥٨
- (٣٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- (٣٣) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- (٣٤) المرجع نفسه، ص ٢٨٤
- (٣٥) المرجع نفسه، ص ص ١٩٥/١٩٦
- (٣٦) المرجع نفسه، ص ١٩٥
- (٣٧) المرجع نفسه، ص ١٩٣
- (٣٨) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (٣٩) المرجع نفسه، ص ٢٨٠
- (٤٠) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (٤١) رشاد كامل، «موسى صبري يتذكر - السادات المعارضة والعضب»، روز اليوسف، ص ص ٢٣/٢٤

- (٤٢) «السادات، الحقيقة والأسطورة»، ص ٢٧٧
- (٤٣) المرجع نفسه، ص ٢٧٨
- (٤٤) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (٤٥) عبد الله امام «صلاح نصر يتذكر - المخبرات والثورة»، الناشر مؤسسة روز اليوسف، القاهرة، ١٩٨٤، ص ص ١٦٠ - ١٦٢
- (٤٦) المرجع نفسه، ص ص ١١/١٠
- (٤٧) المرجع نفسه، ص ١٢
- (٤٨) المرجع نفسه، ص ص ١٢ - ١٥
- (٤٩) ٧٢ شهراً مع عبد الناصر، ص ١٧
- (٥٠) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (٥١) المرجع نفسه، ص ص ١٨/١٧
- (٥٢) المرجع نفسه، ص ص ١٩/١٨
- (٥٣) المرجع نفسه، ص ص ١٧/١٦
- (٥٤) «صلاح نصر يتذكر - المخبرات والثورة»، ص ١٣٥
- (٥٥) «السادات، الحقيقة والأسطورة»، ص ص ٢٦٨/٢٦٩
- (٥٦) المرجع نفسه، ٢٠٩
- (٥٧) ٧٢ شهراً مع عبد الناصر، ص ١١١
- (٥٨) المرجع نفسه، ص ص ١١٦/١١٥
- (٥٩) المرجع نفسه، ص ١١٧
- (٦٠) المرجع نفسه، ص ٥٢
- (٦١) المرجع نفسه، ص ١١٩
- (٦٢) المرجع نفسه، ص ١٢١
- (٦٣) المرجع نفسه، ص ١٢٤
- (٦٤) Finley, M. I. «The Ancient Greeks», Penguin Books, Peregrine Edition, 1986, p. 40
- (٦٥) «كم عمر العضب - هيكل وأزمة العقل العربي»، ص ٤٩
- (٦٦) ٧٢ شهراً مع عبد الناصر، ص ص ١٠٧/١٠٦
- (٦٧) Lapping, Brian: «End of Empire», Granada Publishing Ltd London, 1985, p. 241
- (٦٨) Ibid, p. 243
- (٦٩) Heikal: «Nasser», op. cit. p. 13.
- (٧٠) «مذكرات محمود رياض»، ص ٢٩
- (٧١) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (٧٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (٧٣) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (٧٤) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (٧٥) Heikal: «Nasser», op. cit. p. 15
- (٧٦) أحمد حمروش «قصة ثورة ٢٣ يوليو - الجزء ٤، شهود ثورة يوليو»، الناشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٧، ص ٧.
- (٧٧) «السادات، الحقيقة والأسطورة»، ص ٢٨٥
- (٧٨) «شهود ثورة يوليو»، ص ١١
- (٧٩) المرجع نفسه، ص ١٢
- (٨٠) Heikal: «Nasser», op. cit. p. 15.
- (٨١) Ibid, P. 16.
- (٨٢) Ibid, p. 16.
- (٨٣) Churchill, Randolph S. & Winston S. «The Six day War», Heimann, London, 1967, pp. 19/20.
- (٨٤) «مذكرات محمود رياض»، ص ٣١
- (٨٥) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (٨٦) المرجع نفسه، ص ٣٢
- (٨٧) Heikal. «Nasser», op. cit. p. 24 & p. 20.

قتل مصر

- (٨٨) «كم عمر الغضب - هيكل وائمة العقل العربي» ص ٧٢ ٧٣
- (٨٩) «صلاح نصر يتذكر - المخابرات والثورة» ص ٥١ ٥٢
- (٩٠) المرجع نفسه، ص ٦٠
- (٩١) المرجع نفسه، ص ٨٥ / ٨٦
- (٩٢) «السادات، الحقيقة والأسطورة» ص ٢٧٩ و ٢٨١
- (٩٣) المرجع نفسه، ص ٢٨١
- (٩٤) المرجع نفسه، ص ٢٨١
- (٩٥) المرجع نفسه، ص ٢٨٨
- (٩٦) أحمد حمروش «شهود ثورة يوليو» ص ٢٣
- (٩٧) «السادات، الحقيقة والأسطورة» ص ٢٨٤
- (٩٨) المرجع نفسه، ص ٢٦٨
- (٩٩) المرجع نفسه، نفس الصفحة
- (١٠٠) المرجع نفسه، ص ٢٨١
- (١٠١) المرجع نفسه، ص ٢٨٦ / ٢٨٧
- (١٠٢) المرجع نفسه، ص ٢٨٧ / ٢٨٨
- (١٠٣) المرجع نفسه، ص ٢٨٩
- (١٠٤) «عبد الناصر وما بعد» «عبد الناصر وقضية الصلح مع اسرائيل» الدكتور حسن حنفي، ص ٩
- (١٠٥) «٧٢ شهراً مع عبد الناصر» ص ٦٥ - ٦٨
- (١٠٦) «عبد الناصر وما بعد» «عبد الناصر وقضية الصلح مع اسرائيل» ص ٢٨
- (١٠٧) «Secret» memorandum of conversation between Ben Gurion and the President of the United States (D Eisenhower) dated March 10, 1960, in record of the White House Office, Office of the Staff Secretary, Box No 8, International Series, Folder: Israel, Dwight D Eisenhower Library, quoted by Stephen green in «Taking Sides».
- (١٠٨) «Secret» memorandum for the President from Acting Secretary of State, George Ball, subject: «Visit of Israel Prime Minister Levi Eshkol», undated, in Carrolton Press Declassified Documents Reference System, 1979x193D
- (١٠٩) «Secret» Department of State memorandum of conversation by H Earle Russell Jr., dated May 19/ 1965 NSF Country File Israel, Vol. 4, Memos Miscellaneous 2x65, Lyndon Johnson Library
- (١١٠) «Secret» memorandum for the President from Robert W Komer, dated January 18, 1966, NSF Country File. Israel, Vol. 5, Memos 12/ 65 to 9/ 66, Lyndon Johnson Library.
- (١١١) «Unclassified» State Department telegram 3419 from US Embassy T Tel Aviv to Secretary of State, dated April 28, 1967, NSF Country File: Israel, Vol. 6, Memos 12x66 to 7x67, Lyndon Johnson Library, (Re: Dean Rusk's instructions to Walworth Barbour, American Ambassador to Israel).
- (١١٢) «Secret» White House Memorandum for McGeorge Bundy from William H Burbeck, dated May 9, 1963, in Carrolton Press Declassified Documents Reference System, 1979/193B.
- (١١٣) «مذكرات محمود رياض» ص ٣٦ / ٣٣
- (١١٤) Green, Stephen: «Taking Sides - America's Secret Relations with a Militant Israel», William Morrow & Co. Inc., New York, 1984, p. 195.
- (١١٥) «مذكرات محمود رياض» ص ٣٨ / ٣٦
- (١١٦) المرجع نفسه، ص ٣٨
- (١١٧) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (١١٨) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (١١٩) Spiegel, Stephen L.: «The Other Arab - Israeli Conflict - Making America's Middle East Policy, from Truman to Reagan», The University of Chicago Press, 1985, pp 148/149.
- (١٢٠) Ibid, p. 149.
- (١٢١) Churchill & Churchill, «The Six Day War», op. cit , p. 101.
- (١٢٢) «مذكرات محمود رياض» ص ٤٢

- (١٢٣) المرجع نفسه، ص ٢٨
- (١٢٤) المرجع نفسه، ص ٥١/٥٢
- (١٢٥) المرجع نفسه، ص ٤٢/٤٣
- (١٢٦) المرجع نفسه، ص ٤٤
- (١٢٧) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (١٢٨) المرجع نفسه، ص ٤٤/٤٥
- (١٢٩) المرجع نفسه، ص ٤٥
- (١٣٠) Green, Stephen: «Taking Sides», op. cit. pp 200/201 - Oral History Project, Lyndon Johnson Library, first interview, with Harry McPherson, recorded December 5, 1968
- وقد انتهج الأسلوب نفسه في تسجيل التاريخ في مصر تحت اسم لجنة تسجيل التاريخ، ومن تسجيلاتها شهادة الفريق أول محمد فوزي المستشهد بها، عن كتاب موسى صبري «السادات»
- (١٣١) «مذكرات محمود رياض»، ص ٤٥
- (١٣٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (١٣٣) «السادات، الحقيقة والأسطورة»، ص ٢٧٧
- (١٣٤) أحمد حمروش «قصة الثورة، الجزء ٥» خريف عبد الناصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٨، ص ٥٨
- (١٣٥) «صلاح نصر يتذكر، المحادثات والثورة»، ص ٢٧/٢٨
- (١٣٦) المرجع نفسه، ص ٢٧
- (١٣٧) «خريف عبد الناصر»، ص ١١٩/١٢٠
- (١٣٨) المرجع نفسه، ص ١٢٠
- (١٣٩) المرجع نفسه، ص ١٢١
- (١٤٠) المرجع نفسه، ص ١٢١
- (١٤١) المرجع نفسه، ص ١٢٢
- (١٤٢) أمين هويدي «أضواء على أسباب نكسة ١٩٦٧»، استشهد به أحمد حمروش، «خريف عبد الناصر»، ص ١٢٢
- (١٤٣) «خريف عبد الناصر»، ص ١٢٦
- (١٤٤) أورد رواية الفريق أول محمد فوزي لهذه الواقعة أحمد حمروش في كتابه «خريف عبد الناصر»، ص ١٢٤/١٢٥
- (١٤٥) «مذكرات محمود رياض»، ص ٥٠
- (١٤٦) المرجع نفسه، ص ٥٢
- (١٤٧) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (١٤٨) Green, Stephen «Taking Sides», op. cit. document referred to in footnote 130 above.
- (١٤٩) «مذكرات محمود رياض»، الرسالة ص ٢٩/٤٠، والمذكرة ص ٤٠/٤١
- (١٥٠) المرجع نفسه، ص ٤١
- (١٥١) «خريف عبد الناصر»، ص ١١٧
- (١٥٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (١٥٣) Green, Stephen «Taking Sides», op. cit. pp 204 - 211.
- (١٥٤) «مذكرات محمود رياض»، ص ٤٢
- (١٥٥) المرجع نفسه، ص ٥١
- (١٥٦) المرجع نفسه، ص ٤٢
- (١٥٧) «خريف عبد الناصر»، ص ١١٤
- (١٥٨) المرجع نفسه، ص ١٢١/١٢٢
- (١٥٩) المرجع نفسه، ص ١٥٢
- (١٦٠) المرجع نفسه، ص ١٥٣
- (١٦١) المرجع نفسه، ص ١٥٣/١٥٤
- (١٦٢) المرجع نفسه، ص ١٤٣/١٤٤
- (١٦٣) المرجع نفسه، ص ١٤٤
- (١٦٤) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (١٦٥) المرجع نفسه، ص ١٦٧
- (١٦٦) المرجع نفسه، ص ١٦١

قتل مصر

- (١٦٧) المرجع نفسه، ص ١٤١
 (١٦٨) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
 (١٦٩) المرجع نفسه، ص ١٥٧/١٥٦
 (١٧٠) «Secret» note to the President from Walt Rostow, dated June 5, 1967, National Security File, NSC History - Middle East Crisis, May 12 - June 19, 1967, Vol 4, Tabs 111 - 127, Lyndon Johnson Library.

THE WHITE HOUSE
 WASHINGTON

SECRET

Monday, June 5, 1967
 9:05 p.m.

Mr. President:

Herewith the account, with a map, of the first day's turkey shoot.

Walt Rostow

SECRET

RESTRICTED TO PERSONS
 AUTHORIZED BY THE SECRETARY
 OF DEFENSE

(الصورة الركونغرافية للوثيقة)

- (١٧١) «خريف عبد الناصر»، ص ١٥٧ - ١٦٠
 (١٧٢) المرجع نفسه، ص ١٢٧
 (١٧٣) المرجع نفسه، ص ١٢٧/١٢٨
 (١٧٤) «السادات، الحقيقة والاسطورة»، ص ٢٧٩
 (١٧٥) المرجع نفسه، ص ٢٨٧
 (١٧٦) المرجع نفسه، ص ٣١٢
 (١٧٧) «٧٢ شهراً مع عبد الناصر»، ص ٤٨
 (١٧٨) «مذكرات محمود رياض»، ص ٦٤
 (١٧٩) «السادات، الحقيقة والاسطورة»، ص ٢٨٤
 (١٨٠) «مذكرات محمود رياض»، ص ٦٨
 (١٨١) «خريف عبد الناصر»، ص ١٧٠
 (١٨٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
 (١٨٣) «مذكرات محمود رياض»، ص ٧٠
 (١٨٤) المرجع نفسه، ص ٥٧
 (١٨٥) Churchill & Churchill: «The Six Day War», op cit p 90
 (١٨٦) Ibid pp 91/92

الباب الثاني

معية كالمب ولا يفيد

العمدة يرث العزبة

ما زال اختيار جمال عبد الناصر لأنور السادات «خليفة» له يرث مصر من بعده، من أكثر تصرفات عبد الناصر مدعاة للحيرة. فابتداءً، لم يكن أنور السادات من أعضاء «الحلقة الداخلية» التي دبرت لحركة عبد الناصر كان، بتعبيره هو، «خارج الحلقة، أو خارج الميدان» فيما يخص ذلك التنظيم الذي انبثت عليه حركة «الضباط الأحرار» من أواخر ١٩٤٢ أو أوائل ١٩٤٣، حسب روايته هو، ولم يدخله عبد الناصر «الجمعية التأسيسية» التي شكلها للحركة سنة ١٩٥١، وبالتالي في «الحلقة الداخلية» لمدبري الحركة، إلا بعد ذلك التاريخ. فهو - بذلك المعيار - دخل على الحركة، بالأقل في نظر أناس كعبد اللطيف بغدادى، وخالد محي الدين وغيرهما من القدامى المؤسسين وانتهاءً، يبدو أن رأي جمال عبد الناصر في السادات لم يكن مما يرجح اختياره وتفضيله على غيره لشغل منصب نائب الرئيس. فالشائع أن عبد الناصر كان يدعوه «جحا»، وكان يطلب استدعاءه ليضحكه، على النحو الذي سجلته في «قطار الملك» الذاهب إلى بلدة المنصورة عدسة المصور الصحافي المشهور محمد يوسف. وقد أرجع السادات - في مصارحاته لموسى صبري - تأخر جمال عبد الناصر في تعيينه نائباً لرئيس الجمهورية إلى «الأرواح».

* * *

تعامل أنور السادات مع مشاكل الحكم، من مبدأ أمره، تعامل رجل ريفي لديه مجموعة أساسية من «القيم» والمبادئ يتصرف على هديها، ولديه أيضاً كمية لا يستهان بها مما يسميه المصريون «الخبث الريفي». ولعل شيئاً في تاريخ رئاسة السادات لمصر لا يفصح عن تلك الطبيعة الريفية قدر ما يفصح عنها تشريعه الغريب الذي عرف باسم «قانون العيب»^(١) والواقع أن الرجل عندما تحدث عن وجوب التحلي «بأخلاقيات القرية»، كان يعني تماماً ما قال، وعندما ركز في خطبه وأحاديثه على دور «كبير العائلة» (باعتبار «الرئيس» أبا لبلده)، كان يفصح عن تصور باترناليستي^(٢) (أبوي) لعلاقة الحاكم بالمحكومين يماثل تصوراً يضع عمدة القرية في مكانة الأب ممن فيها من فلاحين باعتبار القرية «أسرة واحدة» متكافلة في السراء والضراء. وبهذا الفهم، أصدر السادات تشريعه الغريب الذي لا مؤدى له إلا أن حرونة الأبناء (المحكومين = القرويين) على الأب (الحاكم = العمدة) عيب، وضد أخلاقيات القرية.

وهذا شيء رومانسي وجميل، لكنه - كما قد لا نختلف - لا يصلح لحكم بلد حديث في الثلث الأخير من القرن العشرين، بل وغير مأخوذ به في العالم الواقع - كما يعرف أي قروي - في إدارة شؤون قرية صغيرة من «دوار» العمدة

وقد أورد موسى صبري في ذكرياته عن السادات وصفاً أراد به أن يعبر عن «شعبية» السادات وعدم تعلّقه بـ «المظاهر»، وما إلى ذلك، فقال.

«وكان يفضل الإقامة معظم الوقت في استراحة القناطر لأن حولها فضاء كبيراً من الزرع، وهو يحب الهواء الطلق لكنه كان يحب منزله في (قرية) ميت أبو الكوم أكثر من أي مكان آخر، وفي حجرة نومه في استراحة القناطر التي كان يقضي بها معظم أيامه وضع كسّة (أريكة) تشبه المصطبة في القرية، ويبدأ من السابعة (صباحاً) في مباشرة أعماله (كرئيس للجمهورية)، بقراءة التقارير والاتصال بالمسؤولين»^(٣)

وفي موضع آخر، يقول موسى صبري وهو في منتهى التأثر أن «شعور الأبوة تصخم في قلب السادات حتى أنه سرح بحياه في الحلم بالشعب المصري كعائلة واحدة هو كبيرها وهو المسؤول عن كل أسائها مهما احتلفت دياناتهم ومشاربهم وطوائفهم ومراتبهم»^(٢) ورغم أنه عني بأن يقول «دياناتهم»، فاته أن يقول «ومهما تضاربت مصالحهم» ورغم أن موسى صبري صحفي، ومفروض - بحكم اشتغاله بتلك المهنة - أن يكون أميل إلى التشكك منه إلى سرعة التصديق، وأقرب إلى امعان النظر واعمال الفكر منه إلى سرعة التصديق، ومفروض أيضاً أن يكون «واعياً» وملماً بما يتعلق بما يكتب عنه من عبر التاريخ، فاته - مثلما فاته أن تباين المصالح وتضاربها بين أفراد المجتمع من أهم وافعل العوامل في مجالات السياسة والحكم - أن الهمهمة عن مشاعر الأبوة وتضخمها في قلب الحاكم (وهو الذي استقر الرأي في مصر، بمسطق الأغاني «الوطنية»، من أيام عبد الناصر، على أنه «الرئيس كبير القلب»^(١))، والحكي بجدية عن أن شعلة الحكم يمكن أن تمارس من منطلق «الحلم بأن الحاكم أب لشعبه وكبير الأسرة» وأنه عندما يحكم يدير شؤون «أبنائه المواطنين»، كلام قد يبدو جميلاً وأخلاقياً في دروس الانشاء بالمدارس، بل وقد يمس شعاف القلب وتدمع له العين من عظم التأثر والانفعال بكل ذلك الحذب الأبوي وكل ذلك العطف وتلك المحبة، لكنه كلام يظل هراء فارغاً فيما يتعلق بلعبة السياسة وشغلة الحكم والذي يقوله التاريخ وتقننه العلوم السياسية أن الموقف الأبوي (الباترناليستي) في الحكم، وهو الموقف الذي ينبني على الادعاء بخيرية الحاكم المطلقة وقدرته الكاملة على التوفيق بين كل المصالح على قدم مساواة لأنه «أب لكل المحكومين» عليه التزام توفير كل احتياجاتهم، وبالمقابل، ضبط سلوكهم في كل ما يؤثر على حياتهم كأفراد وما يشكل علاقتهم بالدولة وعلاقة الدولة بهم، وكل ما يحكم علاقاتهم ببعضهم البعض كأفراد وكطبقات، موقف برهن - المرة تلو المرة - على أنه الوصفة الأكيدة المؤدية إلى قيام أعتى أشكال الحكم الفردي المطلق (لأنه منذ الذي يعصى أباه) وأقصر الطرق إلى جهنم الحكم الشمولي.

وذلك بالذات هو ما حدث لمصر وأودى بها فترك عنقها تحت نعل إسرائيل فـ «ثورة» ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لم تكن، كما استوضحنا في الباب الأول، أكثر من «حركة» لم تكن تجسداً لـ «عقيدة»، أو «مذهب» أو «أيديولوجية»، أياً كانت تلك الأيديولوجية وحتى «الأيديولوجية» الوحيدة (ان جار أن تدعى كذلك) التي خرج من تحت أبطها معظم ضباط الحركة، وهي دعوة الاخوان المسلمين، ما لبثت «الثورة» أن انسلخت منها وانقلبت عليها فاشتعلت بينهما حرب لا هوادة فيها. أما الأيديولوجية الشيوعية، فقد تخلصت «الثورة» بسرعة وحسم من أي ضابط اشتبهت في أنه كانت له علاقة بها، ثم ظلت بعد ذلك تتربح من «الأمريكان» بافتراس «الحرر» لحسابهم.

(١/١) - الخصومة مع الديموقراطية النيابية

ومن وجه بعينه، يمكن القول أنه خيراً فعلت «الثورة» بمحاولتها التباعد عن كلتا الشموليتين. شمولية اليمين السلفية، وشمولية اليسار «التقدمية» غير أن مشكلة «الثورة» ظلت، بعد ذلك التباعد، أنها بقيت مفتقرة إلى المحتوى، إلى ما يملأ الفراغ الذي تركه في بنيتها التخلص من نزوعاتها الاخوانية الأولى، ونكوصها عن نزوعات بعض ضباطها المؤسسين، كيوسف صديق، صوب الماركسية، بل وتخلصها من نزوع محمد نجيب صوب الديموقراطية البرلمانية. وفي تخلصها من كل ما له علاقة بكل تلك التوجهات، ظلت «الثورة» حركة، مجرد تحرك مسلح تعامل مع كل الظروف وكل الاتجاهات. (١) استناداً إلى قوة السلاح، (٢) بالتخفف من كل فكر أو محاولة لايجاد فكر أو «مذهب» أو «عقيدة»، و(٣) عن طريق اللعب - كما أسلفنا - بالسماع، أخذاً بالمبدأ الشعبي المصري القائل «اللي تغلب به اللعب به». وفي كل ذلك، ظل رد «الثورة» على كل «الافكار»، و«المذاهب»، و«الأيديولوجيات»، رداً انبنئ على ما قد يكون بدا للمصريين وقتها كما لو كان رفضاً حميداً لكل المعتقدات والافكار الدخيلة المستوردة من الخارج، أو المستوردة من الماضي. وما من شك في أن ذلك بدا جميلاً وحميداً لكثيرين لم يتوقفوا ليفكروا، فيما يحتمل، في تلك الحقيقة المزعجة المتمثلة في أن «الثورة المباركة» لم يكن لديها ما تحله محل تلك الأشياء المرفوضة،

بدليل أنها لم تطرحه، وأن ردها على كل ما رفضته طل عشوائياً من قبيل التبجح والتظاهر بالشجاعة واصطناع موقف من لديه ما هو أفضل مما يرفضه

«دات يوم، زار الرئيس محمد نجيب وحدة من وحدات الجيش، وتحدث هناك عن صيغة ساجراءات الكبت التي تعاني منها البلاد، وقال انه «مؤمن بوجود اطلاق الحريات» وبلغ أمر ذلك الحديث مسامع زملائه الصباط (في مجلس قيادة الثورة)، فلم يكذب نجيب يصل الى قاعة مجلس الوزراء، ويهم بأن يجلس، حتى وقف جمال سالم وصاح في وجهه

«اهلاً أهلاً بميرابو اريك، ياسي ميرابو حرية؟ حرية ايه اللي انت عايرها؟»^(١)

وميرابو، كما نعلم، هو «الكونت» أونوريه جابرييل دي ميرابو «الثائر» الذي اعتبرته الثورة الفرنسية مرتداً لأنه طالب باعادة الملكية على أسس دستورية تحد من سلطة الملوك، فاتهم بأنه كان مديناً بمبالغ كبيرة من المال للعناصر المعادية للثورة وأن معتقداته السياسية كانت مرتبطة أشد الارتباط بمصالحه المالية، وفي النهاية، أعدمته الثورة.

ولا نعلم ان كان جمال سالم قد قرأ تاريخ ميرابو أم أنه سمع به سماعاً من شخص كان قد سمع عنه. لكن المؤكد ان التلميح الى وجود أي شبه بين ميرابو ومحمد نجيب المسكين كان، بلا أدنى شك، ظلماً صارخاً لمحمد نجيب. فالرجل لم يطالب باعادة الملكية. ولم يكن مديناً لأحد، ولم يكن يملك شيئاً، وقد مات عن اثني عشر فداناً ونصف فدان^(٢)، فكل ذنبه أنه جرؤ على التحدث عن «الحرية».

وقد ظل التحدث عن «الحرية»، و«الديموقراطية»، وكل تلك الأشياء، سلاحاً استخدمه أعضاء مجلس قيادة الثورة في اغاظة بعضهم بعضاً والابتزاز من عبد الناصر في غمار صراعاتهم الداخلية على نصيب كل منهم من الغنيمة، مصر:

«عبد الحكيم عامر أراد ان يثبت نفسه في البلد، وليس في القوات المسلحة فقط، (ولذا فإنه) في ١٩٦١ كتب استقالة (مسببة) بشرها له أصدقاؤه، ألح فيها على ما يشير غيظ عبد الناصر، أي الديموقراطية والأحزاب وطبعاً هذا كلام تهديدي وعن غير ايمان، وقد رأينا عبد الحكيم يرأس في ١٩٦٦ و١٩٦٧ لجنة الاقطاع، يعني لا ديموقراطية ولا أحزاب. (كل ما في الأمر) أنه أراد أن يسجل موقفاً ضد جمال عبد الناصر»^(٣)

(٢/١) - البديل: الصيغة الفاشية

هذا هو الموقف إذن من «الديموقراطية»، وقد لجأت «الثورة» في محاولتها ايجاد البديل لها الى الصيغة التي استخدمتها الفاشية، صيغة ائتلاف المصالح المتعارضة قسراً تحت ضغط ما أملاه «الفكر» الأساسي الجوهري للفاشية. «الايمان، الطاعة، النضال». وقد حاولت «الثورة» تجسيد تلك الصيغة، مصرياً، في «تحالف قوى الشعب العامل»، و«الاتحاد الاشتراكي». وقد حددت «امانة الدعوة والفكر» أهم أهداف الاتحاد الاشتراكي بـ «تسليح الشعب بوعي سياسي عميق يساعده على فهم الأحداث التي تمر به سواء في حياته أو في حياة العالم من حوله»^(٤). أي أن الاتحاد الاشتراكي أداة تثقيف وتلقين سياسي هدفها صوغ «الوعي» السياسي للشعب المصري حتى يتعامل من خلال ذلك الوعي مع مجريات الأمور داخلياً، في مصر، وخارجياً، في العالم من حولها.

وقد كان «الاتحاد الاشتراكي»، في الواقع، تنظيماً فريداً لا مثيل له في أي مكان من العالم الا التنظيم الفاشي الذي حاول موسوليني أن يحول به الشعب الايطالي، ابتداء من سنة ١٩١٩، الى حزمة واحدة متماسكة - برغم كل التناقضات - في كل واحد تتوسطه بلطة الزعيم أو القائد، على النحو الذي نطق به شعار التنظيم

وبطبيعة الحال، لم يرد ذكر في محاولات التنظيم المتعالم التي حاول عدد من المنتفعين من حملة القلم والاكاديميين أن يتربحوا بها، من ناحية، عن طريق استجلاب رضاء الزعيم وما يستتبعه ذلك الرضى السامي من نعم، وأن يوجدوا لأنفسهم، من ناحية أخرى، مستقراً ثابتاً ومواقع مأمونة ومربحة في ظل النظام، لم يرد ذكر في تلك الضروب من «الفهلوة» المتشحة بوقار العلم وهيبة الاكاديمية المتخمة بالعبارات والمصطلحات ثقيلة العيار، لكون ذلك التنظيم الفريد الذي لم يكن له مثيل في الشرق أو الغرب، مجرد شبح باهت متهاك، وفقير كالشعب الذي أنشئ له «يقوده»، للتنظيمات الفاشية التي استشرت في أوروبا

من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٤٥، وتلبث بعصها الى ما بعد ذلك، كنظام فرانكو في اسبانيا والذي قاله المنظرون «للاتحاد الاشتراكي»، انه «في أي تنظيم سياسي في الشرق أو الغرب، ينبع (التنظيم) دائماً كتعبير عن مصالح طبقة أو فئة معينة في المجتمع تنظم صفوفها وتناضل حتى تصل الى مواقع السلطة، ويكون أعضاء هذه التنظيمات السياسية في العادة منتمين الى الطبقة أو الفئة التي يعبر التنظيم عنها وعن مصالحها بغض النظر عن مصالح الطبقات الأخرى التي لا ترتبط بذلك التنظيم السياسي»^(١)

وكل اللغو الديماجوجي الذي فاض في تلك الآونة حتى غطى العقول في طوفان من القبيء الفكري لفضلات بصف مهضومة، هذا كلام من قبيل نصف الحقيقة. فالأحزاب السياسية في الديمقراطيات البرلمانية تمثل مصالح هذا لا شك فيه وقد قلنا أن تناقض المصالح (الذي غفل عنه أو أغفله مفهوم «الحاكم/الأب» كبير العائلة) من أهم وأفضل العوامل في الساحة السياسية لأي بلد ولشغلة الحكم فيه لكن ادعاء منظري «الاتحاد الاشتراكي» (أخذاً من دعاوى الماركسية التي رفضوها هي الأخرى لكنهم لم يروا مانعاً عندما احتاجوا للتظاهر بوضع «تنظيم علمي» الى الاستعارة منها) بأن «أي تنظيم سياسي» يعبر عن مصالح طبقة أو فئة بعينها وحسب، مخالف للحقيقة فحزب العمال البريطاني، مثلاً، يمثل ائتلافاً واسعاً لمواقف سياسية معبرة عن مصالح اقتصادية واجتماعية، تفتش الساحة السياسية البريطانية من يسار يسار الوسط الى يمين ذلك الوسط. وبالتالي، لا سبيل الى الادعاء الى أن ذلك الحزب «يعبر عن مصالح طبقة بعينها»، بمفهوم «الطبقة» كتكتل لأفراد ذوي مصالح متماثلة

فحزب العمال البريطاني، منذ ظهر الى الوجود في ١٨٩٢، ظهر بدخول عضوين عماليين، هما جون بيرنز وكير هاردي، مجلس العموم، مع ١٢ نائباً آخرين حددوا هوياتهم السياسية آنئذ بأنها «عمالية/ليبرالية». وفي سنة ١٩٠٠، ضم الحزب الاتحاد العام لنقابات العمال، وحزب العمال المستقل، والجمعية الفابية، جنباً الى جنب مع الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي.

ونفس الشيء يقال عن حزب المحافظين البريطاني فهو - على خلاف ما قد يوحي به تنظيم منظري الاتحاد الاشتراكي - ليس حزباً يعبر عن مصالح طبقة، باعتبار تلك الطبقة طبقة تضم الارستقراطيين الذين كان حزب الـ Tories، الذي حل محله حزب المحافظين، يمثلهم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وتضم كبار الصناعيين وكبار الممولين فحسب، فـ «الطبقة» التي تنتخب حزب المحافظين وتسلمه زمام السلطة في بريطانيا «طبقة» أوسع من ذلك بكثير إذ تشمل قطاعات من المجتمع البريطاني لا سبيل بأي معيار الى حشرها في وعاء سياسي واحد مع الارستقراطيين وكبار الممولين وكبار الصناعيين. ومن تلك القطاعات أعداد كبيرة من «طبقة» العمال، وأعضاء نقابات العمال، والطبقات متواضعة الدخول. والواضح طبعاً أن الحزب بذلك يفتش رقعة من الخريطة السياسية للمجتمع البريطاني تمتد من يمين الوسط الى الحافة الخارجية ليسار الوسط.

وقد سبقنا هذا عملاً على ايضاح الخلط الذي وقع فيه منظرو ذلك الاختراع الفريد الذي لا مثيل له في شرق أو في غرب، «الاتحاد الاشتراكي»، عندما تحدثوا عن «الطبقة» بمفهومها المستعار من التنظير الماركسي دون أخذ بذلك التنظير الماركسي، مما أدى بهم الى جعلها مرادفاً لـ «الفئة» (٢) من فئات المجتمع.

ومن المضحك أن المنظرين وجدوا بوسعهم القول، باعتبار ذلك من مآخذ النظام الديمقراطي البرلماني، أن تلك التنظيمات السياسية التي «تعبّر عن مصالح طبقة أو فئة معينة في المجتمع»، تنظم صفوفها «وتناضل حتى تصل الى مواقع السلطة». ونحن نعرف أن الأحزاب في الديمقراطيات البرلمانية «تتناضل» حقيقة للوصول الى السلطة. وهذا يشرفها ولا يعيبها. لأنها لا تفتصب السلطة أو تستولي عليها من أعلى بانقلابات مسلحة، بل تناضل لتصل اليها عن طريق الانتخابات العامة، فإذا ما انتخبها أغلبية جمهور الناخبين، وصلت الى السلطة، وإذا ما خذلتها تلك الأغلبية، خرجت من السلطة وأفسحت المجال للحزب الذي انتخبه الناخبون بملء حريتهم. وان كان ذلك النوع من الديمقراطية قاصراً عن بلوغ الكمال، فإنه خير ما أمكن التوصل اليه حتى اليوم، وهو - بغير شك - أفضل من

الوصول الى السلطة على عربات مسلحة
وفي صميم النظام الديمقراطي البرلماني، تظل هناك تلك المسلمة الجوهرية التي لا خلاف عليها، وهي
ان المصالح في المجتمع الواحد تتضارب وتتناقض وتتصارع، وأن المجتمع مطالب، كيما لا يتحول الى غابة
تقتل فيها المصالح ويتسيدها الأقوى والأشرس، بالتوصل الى ما يظل حوهر الديمقراطية البرلمانية
توافق الراي الممكن بين أصحاب تلك المصالح (Consensus)، وبذلك التوافق للأراء، والقوى
(Consent) من جانب أغلبية جمهورر الباحين، يتولى حرب بعينه، أو ائتلاف من مجموعة أحزاب، الحكم،
ويعارضه ويأقضه ويحاسنه حساب الملكين حرب أو مجموعة أحزاب المعارضة في البرلمان، عملاً على
إرام الحرب أو الائتلاف الحاكم بقواعد اللعب ومنعه من ركوب متن الشطط أو التماذي في تغليب مصالح
على مصالح والحكم بين الحكومة والمعارضة، في النهاية، هو جمهورر الناخبين، الذين يتعلق الأمر، في
النهاية، بمحاولة التوفيق بين مصالحهم في مجتمع متحضر منظم، وهم يصدرون حكمهم بالتصويت انتخابياً
غير أن شيئا من ذلك لم يشفع للديموقراطية البرلمانية عند منطري «الاتحاد الاشتراكي». وبطسعة
الحال، ظلت الممارسة الفحة للديموقراطية والحياة السياسية في ظل العهد الملكي - وقد كانت فاسدة ككل
شيء آخر في ذلك العهد، باستثناء بعض محاولات حرب الوفد للتعامل مع الواقع السياسي لمصر من خلال
حكم بياني سليم - الحجة التي لا تدحض لدى أولئك المنظرين على أن «الديموقراطية النيابية قد جربت
في مصر وثبت أنها لا تصلح»^(١) وفي مكان تلك الديمقراطية (المستوردة على أي حال) طرح المنظرون
الجهابذة صيغة «الاتحاد الاشتراكي»، باعتباره التنظيم «اللاطبقي» المثالي (فهم قد وصلوا الى ما طمحت
النظرية الماركسية الى بلوعه في خاتمة المطاف بعد قرون وقرون من «ديكتاتورية البروليتاريا»، في غمضة
عين، بوثة «فكرية» واحدة) وعلموا المصريين بأن ذلك التنظيم اللاطبقي الفريد هو «الذي سيجمع «قوى»
الشعب العاملة و«فئاتها» (فئاتها بدلاً من طبقاتها) المختلفة «وهو الذي» «ستنصر فيه وتعمل معاً تلك
«القوى» لحل التناقضات والمشاكل التي «قد تظهر» (وقد لا تظهر) فيما بينها، وتسير فيه معاً،
وترتبط ببعضها البعض مصلحياً ومصيرياً في تحالف شرعي»^(٢)
ولقد كان من المحتم أن يتعثر أولئك المنظرون الجهابذة عند مسألة التناقضات. غير أنهم - ببساطة -
وجدوا لها الحل في التأكيد القاطع على أن «الاتحاد الاشتراكي» من حيث أنه «تنظيم فريد في نوعه يضم
كافة «قوى» الشعب العاملة بتناقضاتها وعلى اختلاف «فئاتها»، من المحتم، حتمية تاريخية، أن يؤدي الى
«تدويب» تلك التناقضات «فوقاً لفلسفة ثورة يوليو (١) ليست هذه التناقضات تناقضات رئيسية
(أساسية» جوهرية»، أي أنها لا تتسم بالعداء ولا تؤدي الى الصدام، وإنما هي تناقضات فرعية
يمكن اذابتها بالعمل السياسي المنظم في إطار الاتحاد الاشتراكي، لأن مصلحة (بصيغة المفرد، لا
مصالح بصيغة الجمع) «قوى» الشعب العاملة تتجسد في النهاية في التحول الاشتراكي»^(٣)
أي أن «قوى» الشعب العاملة، على اختلاف فئاتها، وتناقض مصالحها، ستجد من الممكن، متى نورها
العمل السياسي في إطار «الاتحاد الاشتراكي» ووعاها، التنازل عن مصالحها والتغاضي عن تناقضات
المصالح لأنها ليست «رئيسية» بل «فرعية»، لأنها، تلك الـ «قوى»، ستجد أن لها مصلحة واحدة تعلو على
كل مصالحها الأخرى الفرعية، هي أن تترك الدولة تحقق لها «التحول الاشتراكي»، ولذا فإن ادراكها
لتلك المصلحة «الرئيسية» سيجعلها تكف عن وضع مصالحها «الفرعية» وما يترتب عليها من تناقضات
لتصبح الدرب ميسرة أمام التحول الاشتراكي بغير عثرات.

(*) يقول خالد محي الدين، وهو بغير شك من أكثر مؤسسي حركة الضباط الأحرار نضجاً ووطنية وأبعدهم - في النهاية -
نظراً «كنا نطالب بعودة الحياة البرلمانية والديموقراطية. وعندما قلت أنني أطلب بعودة الحياة النيابية دون شروط،
صور المجلس ذلك بأنه ردة الى ما قبل حركة الجيش.. والجماهير كانت ترحب بالديموقراطية، لكن حملة الصحافة
أعطت إحياء بأن ذلك يعني عودة الأحزاب القديمة على حساب الثورة، ولم يوضحوا أن المطلوب كان ديموقراطية
حديثة مغايرة تماماً - نتيجة لتطور الظروف - للديموقراطية القديمة».

(شهادة خالد محي الدين - أحمد حمروش «شهود ثورة يوليو» ص ١٥٨)

وهذا، بطبيعة الحال، كلام أناس يهومون في سحب الدخان الأزرق، ويحلمون كما حلم أنور السادات بأن يصبح الشعب المصري بكل طبقاته، معذرة، «فئاته»، أسرة واحدة متحابية متوائمة، ويصبح هو أبا لذلك الشعب وكبيراً لأسرته.

ولقد كان من الضروري أن تقع «أحداث ١٨ و ١٩ يناير» التي أدت إلى «الانتفاضة الشعبية»، وقد أسماها السادات «انتفاضة حرامية»، لكنه قال في الوقت ذاته أنها «مثل عملية استيلاء لينين على موسكو ووثوبه إلى السلطة سنة ١٩١٧»^(١) كيما يتبين، على الموقع، في الممارسة العملية، أن كل ذلك الصرح من التلغيفات شبه الأيديولوجية الفريدة في نوعها حقاً والمبتكرة بكل تأكيد كان تكتلاً كتيفاً لكل ذلك الدخان الأزرق، وأن تناقضات المصالح لم تكن «فرعية» إطلاقاً، ولم تكن قابلة للتذويب عن طريق العمل السياسي في إطار الاتحاد الاشتراكي بل كانت، وظلت باصرار وصفاقة رغم كل الوعود بحنان التحول الاشتراكي العظيم، تناقضات أساسية حذرية جوهرية بالغة الضراوة مفعمة بأشد العداء ومؤدية إلى أشد أشكال الصدام ضرراً

ولقد كان ذلك شيئاً بما فيه الكفاية، لأنه بعد سنوات وسنوات من الاستماتة في احتواء المصريين في ذلك العالم الموهوم الذي أقامته «الثورة» لهم ولها، تبين أن التناقضات لم تكن قد اذبيت، وأن هناك، تحت السطح الذي دكته المخابرات والأجهزة بأقدامها الثقيلة فجعلته يبدو مستوياً ورائقاً، كان سم يغلي وحقد يتوقد

لكن الأسوأ من ذلك أن أحداً في السلطة لم يظن إلى تلك الحقيقة، وحاول الزعيم باستماتة تعليق الذنوب على مشجب الشيوعيين الأشرار، ربما استجلاباً لرضاء الأميركيين، وامعناً منه في التشبث بالعالم الموهوم الذي ورثه عن سلفه. أما الأشد من كل ذلك سوءاً، فيما يخص مصر، فهو أن الذي فطن إلى حقيقة الوضع كان «العدو الغادر»، بيقظته المعهودة، واذ فطن إليه، أدمجه بسرعة وكفاءة، من قبل «أحداث ١٨ و ١٩ يناير» بوقت طويل، في خطة مصيدته الثانية لاستدراج مصر، ممثلة في شخص، صاحبها، مالكها، زعيمها، إلى مصيدة جديدة مميتة، كانت النتيجة المحتومة لشرك «حرب» ١٩٦٧، هي مصيدة «السلام». مصيدة «الصلح» لأن هذه سنة الكون، ليس كذلك بعد الشحان يكون وئام وبعد الحرب يكون سلام. والمثل عندكم، يا مصري، (كما دأب جنود إسرائيل على مناداة المصريين عبر الاستحكامات) يقول أن «الصلح خير»^(٢).

(٢/١) - رفض صيغة الديمقراطية الشعبية

هذا، إذن، ما كان من شأن الديمقراطية البرلمانية، وما انتهت إليه محاولة «الثورة» الاستعاضة عنها بصيغة «تذويب التناقضات» عن طريق «الاتحاد الاشتراكي» وإعطاء عرض ديموقراطي عن طريق «الانتخابات» لعضوية مجلس الغمة الذي أصبح مجلس الشعب، وباستخدام نظام «الاستفتاءات» فماذا كان شأن الديمقراطية الماركسية؟ هل نجحت «الثورة» في أي وقت إلى إقامة «ديموقراطية شعبية»؟ الجواب الواضح القاطع هو، بالطبع، لا. فهذه «ثورة» جرت من فوق، لا من تحت. قام بها مسلحون من النظام الحاكم خرجوا على ذلك النظام، وانتزعوا السلطة منه، وظل دور «ال جماهير» كما يدعوها الماركسيون، قاصراً على التفرج من بعيد، بتوجس، أو الاشتراك في «مظاهرات» يسيرها المسلحون ويدفعون لمن ينظمون اشتراك الجماهير فيها ويسيرونها بعض النقود.

«كان الملك سعود قد حضر في زيارة لمصر، وانتبه أعضاء المجلس انشغال محمد نجيب معه فدبروا مظاهرات قابلتنا أثناء السفر لاسكندرية في محطات بنها وطنطا ودمنهور هاتفة «لا أحزاب، ولا برلمان!» وقد قال لي جمال عبد الناصر فيما بعد أن كل المبالغ التي صرفت على تلك المظاهرات والتي دفع معظمها لصاوي أحمد صاوي لم تتجاوز مبلغ ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) جنيه»^(٣)

فمنذ البداية، كانت «ال جماهير» غائبة، وقد ظلت غائبة حتى النهاية، وعندما قتلها الغياب، لاذت بالغيبيات.

«إن أحداث يوليو/تموز ١٩٥٢ في مصر دفعت بالتطور أشواطاً فتخطى الشكل القديم المهترئ والمتخلف من الديمقراطية (التي كانت قائمة في العهد الملكي). لذا لم تكن المسألة المطروحة على الثورة هي العودة إلى

تلك الديمقراطية، بل كانت ايحاد شكل جديد من التنظيم الديمقراطي لسلطة جماهير الشعب ولقد كان مطلب الجماهير ديموقراطية أسلم وأمتن وأكثر حداثة، ديموقراطية تلجم الرجعية وتكون تعبيراً جماعياً للمسؤولية الشعبية في الوقت نفسه. ان مطامح الجماهير كانت تتجه الى شكل جديد للديموقراطية أوسع وأعمق وأكثر جدوى الا ان الثورة اكتفت بمحدد الرخص للشكل القديم واخذت تدور حول نفسها في حلقة مفرغة وهي تمضغ وتردد افكاراً تنتقد الديمقراطية البرلمانية، صحيحة من حيث المبدأ، الا انها تحولت مع الزمن الى دعاوى ديماجوجية لستر مشل الثورة في ساء ديموقراطية شعبية جديدة «الثورة لم تنق، ممثلة بقياداتها، بقدرة الجماهير على حمل عبء الثورة وتطويرها وحمايتها، ولذا عجزت عن تلمس كلمة السر في أزمة بناء ديموقراطية جديدة وكلمة السر هذه هي الايمان بالجماهير، وامتناد ذلك الايمان هو الذي منع وسيمنع خلق أي شكل جدي للديموقراطية الشعبية

ولقد كان لعشل الثورة في اقامة ديموقراطية شعبية نتيجة هامة وواضحة، الا وهي سرور الطابع الفردي للحكم. واذا كانت الصفات الشخصية لعبد الناصر وما تميز به من ثورية وايمان بالعروبة وحب عميق للشعب وامكانية للتطور وانفتاح على التيارات الاساسية وفهم للواقع واستيعاب لروح العصر اذا كانت هذه الصفات قد أهلته للقيام بدور ايجابي في تاريخ تطور مصر خاصة، وتطور الأمة العربية بعمامة، إلا ان لهذه الطامرة مظاهرها السلبية أيضاً، لأن مقتضيات النضال الثوري (الذي لا بد ان يكون شعبياً مظلماً) اكبر واعظم وأعمق واشمل من ان يهض بها فرد مهما امتلك من صفات ايجابية خارقة، لأن حكم الفرد . يحول الثورة الى عارة تحمل طابع المعامرة المهتد دوماً بالتطويق والانداء»^(١١)

والواقع أن أهم «اختراع» وفق اليه منظرو الكواليس الذين أمّدوا الضباط على مسرح الأحداث بما بدا كـ «فلسفة» للثورة، كان لفظة «اشتراكية». فتلك اللفظة ضللت كثيرين وخلقت ضباباً كثيفاً تسرب داخل العقول وأعمى العيون. ولولا متاهة «التطبيق الاشتراكي»، ولولبيات «التحول الاشتراكي»، لبدا الوجه الفاشي للتجربة كلها واضحاً فلم يغلفه ذلك الضباب. وفي النهاية، كيف يمكن الخلط بين «الاشتراكية» ورأسمالية الدولة؟ أو، متى اتصف القائمون بالعملية بالتصميم، واتصف من يروجون لهم بالقدر الكافي من الكلبية (Cynicism)، كيف يمكن للواقفين خارجاً (الشعب) التمييز بين ما هو اشتراكي وما هو رأسمالية دولة؟

(٤/١) - الربط بين «الديموقراطية» و«الاشتراكية»

والمشكلة ان «التغيير الاجتماعي ليس حصيلة دعاية أو اثاره أياً كانت قوتها، إذ ينبغي للجماهير ان تقتنع، انطلاقاً من واقع تجربتها، لا بامكانية التغيير فحسب، بل وبضرورته كما ينبغي للجماهير ان تمتلك خبرتها السياسية الخاصة بها. واذا سارت الأمور على خلاف ذلك، فمن الممكن أن يضع كل شيء»^(١٢).

والمشكلة الأخطر أن «الثورة» لم تكن، عندما نشبت، ثورة «اشتراكية». ففوق أنها ظلت حركة قام بها من أعلى ضباط كان كل همهم «الدفاع عن وجودهم»: «وفي هذا الاجتماع قال جمال عبد الناصر: يجب أن نتكفل كضباط دفاعاً عن وجودنا حتى لا نساق الى حرب أخرى (كحرب فلسطين سنة ١٩٤٨) وندخل في لعبة السياسة»^(١٣)، ولم يكن لمن تدعوهم الماركسية بـ «الجماهير» أي دور فيها، لم تكن لدى من قاموا بـ «الثورة» فكرة عن ذلك الشيء المسمى بـ «الاشتراكية» الا فيما بعد، وهم في الحكم. «لقد تحقق اعتناق الأفكار الاشتراكية من قبل القادة الثوريين، عندما كان هؤلاء يمسون زمام الحكم، ومن هنا تظهر أولوية الحركة التي تقوم بها الدولة (الانقلاب من أعلى) على حركة الجماهير ويكفي أن نتذكر أن جهاز الدولة يخضع للقيادة السياسية التي تتولى تسيير الأمور، وأن كثيرين لا يرالون مصرين على الدفاع، علانية، عن الفرضية القائلة أن الدولة ينبغي عليها أن تكون في خدمة الجميع، دون تمييز طبقي. والواقع أن هذه الفرضية ليست سوى الفرضية الخاطئة التي تقول بحياد الدولة» (على ساحة تناقضات المصالح وما ينجم عن تلك التناقضات من صراع)^(١٤).

وهو ما يعود بنا الى الحاكم قائماً بدور الأب كبير العائلة ويسير الأمور فيذيب كل التناقضات. وفي ظل هذا التصور الذي لقن للمصريين بالحاح، واستسلم له المصريون تجنباً لأذى الأجهزة وشر المخابرات، الغول الذي يمضغ اللحم ويسحق العظام، أمكن للنظام «الثوري» الذي أخذ مكان النظام الرجعي القديم

أن يعلن ملء الفم رفضه للديموقراطية البرلمانية (الغربية) والديموقراطية الشعبية (الشرقية) على حد سواء لماذا؟ لأن «الديموقراطية الغربية اقترنت منذ نشأتها بالنظام الرأسمالي، وأصبحت بالتالي الوجه السياسي للرأسمالية، وفي ظلها سيطر الرأسماليون على أداة الحكم وتحكموا في الأحزاب السياسية والانتخابات البرلمانية، وتمكنوا بذلك من استصدار القوانين المختلفة التي تحافظ على السيطرة الطبقية، وبذا فإن الديموقراطية لا يمكن أن تتحقق في ظل النظام الرأسمالي . (ولأن) المفهوم الماركسي التقليدي للديموقراطية الذي يقوم على ديكتاتورية البروليتاريا لا يتسق مع الواقع العملي في الدول الماركسية (بدليل) عدم تحقق ما قالت به الماركسية من ذبول الدولة مع تقدم النظام الاشتراكي. فالعكس هو الذي حدث، إذ ظهرت أداة الدولة الماركسية كأكثر ما تكون قوة بلا أي شيء يشير إلى ذبولها، (ولهذا) يتعين أن تسير الديموقراطية السياسية جنباً إلى جنب مع الديموقراطية الاقتصادية والاجتماعية في المجتمعات الاشتراكية (التي اعتبرت مصر مثلها الناصع) كضمان لعدم الوقوع في براثن الديكتاتورية»^(١٦)

وليس هناك ما هو أشد صفاقة وتبجحاً من ذلك: أن تسير الديموقراطية السياسية جنباً إلى جنب مع الديموقراطية الاقتصادية والاجتماعية كضمان لعدم الوقوع في براثن الديكتاتورية! وهذا الكلام يقال لشعب رازح تحت نير ديكتاتورية عسكرية شرسة وفجة من أبشع ما عرفه العالم الثالث في عصر ما بعد الاستعمار. لكنه كلام قاله من قالوه وسمعه من سمعوه وهم في تهاويم عالم الوهم الذي حولت إليه مصر وبات من الممكن فيه التحدث ملء الفم عن وجوب الحرص على الديموقراطية، والادعاء بأن «ثورة يوليو تعد نموذجاً مثالياً للربط بين الديموقراطية والاشتراكية»^(١٧) بل وبات من الممكن لـ «الميثاق»، الذي وصفه السادات بأنه كان مجرد مناورة سياسية «الهدف منها امتصاص كل آثار الانفصال»^(١٨)، أن يقنن لما هو ديموقراطية وما هو ليس بديموقراطية، ويتحدث عن «ديموقراطية الواجهات» ويطلب بـ «نوع جديد» من الديموقراطيات لم يعرفه الأقدمون ولا المحدثون ولم يوفق إليه نبوغ المعاصرين «لا يتحقق إلا بـ «تذويب» الفوارق الطبقية وضمان حرية التصويت (١)»، بل ويتحدث، بلا خجل أو تورع عن «جماعية القيادة وحرية النقد ووجوب ممارسة النقد الذاتي»^(١٩) فالأقلام الشاطرة المرتزقة الدؤوبة كانت تتسلق صوب حذاء الزعيم باستماتة، مستخدمة في ذلك كل مفهوم تكون قد التقطته في الطريق أثناء مرور أصحابها بمكتبة «الشرق» التي كانت أرففها قد بدأت تكتظ بالكتب المترجمة المستوردة من موسكو. وفي عالم الوهم، ظل ذلك ممكناً، وظل بالوسع طرحه كما لو كان أولئك الناس يفكرون حقيقة، ويتوقون إلى تلك الأشياء الخطرة التي من قبيل «جماعية القيادة» وحرية النقد، حقيقة، وكما لو كان هناك وجود حقيقة لذلك الشيء المسمى في الكتب الماركسية بـ «الجماهير»^(٢٠)، أو ذلك الشيء الذي لا ينقطع الكلام عنه باسمه القديم: الشعب. وبطبيعة الحال، لم يتوقف أحد من «المنظرين» والملتزمين لبحث عن ذلك الشعب، عليه يعثر له على أثر في الجحور حيث دفعه النظام وردمه بقدمه، ولم يفكر النظام في إخراجه منها إلا بعد أن تهشم رأسه اثر «النكسة»، فتحول ذلك الشيء الحبيس في جحوره إلى «الشعب القائد»، و«الشعب المعلم».

وكان قد ظل بالوسع التحدث عن الشعب في غيبته وهو قابع في جحوره، والادعاء المتواصل بوجوده، انطلاقاً من وضع شبه ميتافيزيقي غريب أشبه بما كان توفيق الحكيم يلغوبه في «عودة الروح» وهو يتحدث عن «الكل في واحد» (وهو مفهوم ربما بدا مؤثراً للغاية في غيبوبة رومانسية الفكر لكن الأرجح أن

(*) «وقال عبد الناصر لأكرم الحوراني في مناقشة بينهما لا تحدثني عن الشعب، فأنا أعرف كيف تتحرك الجماهير» (والحكاية) أنه عندما خرجت جماهير الشعب في فبراير/شباط ١٩٥٤ مؤيدة لمحمد نجيب بعد استقالته، في محاولة لاجبار مجلس قيادة الثورة على اعادته، تمكنت هيئة التحرير وبعض الضباط المواليين للمجلس قبل انقضاء اسابيع من خروج تلك المظاهرات من تحريك جانب آخر من الجماهير بمساعدة صاوي أحمد صاوي سكرتير اتحاد عمال النقل حتى وصل الأمر إلى حد التظاهر والاضراب، الأمر الذي سهل لهم انتزاع محمد نجيب من موقعه والرجوع عن قرارات مارس المعروفة. وهذا الحدث في ذاته، ورغم دور الجماهير في دعم وجود المجلس واستمراره، ترك تأثيراً مباشراً في جمال عبد الناصر، إذ أشعره بأنه يمكن التلاعب بالجماهير وأنها أمام القوات المسلحة يصبح دورها محدوداً. «وقد قال جمال عبد الناصر لعدد كبير من أصدقائه ومنهم خالد محي الدين أن الخروج من أزمة مارس لم يكلفهم سوى بضعة آلاف من الجنيحات دفعت للمتظاهرين والمضربين».

(أحمد حمروش: «مجتمع جمال عبد الناصر»، ص، ص ١٢٥/١٢٦).

توفيق الحكيم التقطه بمهارة من قول الكساندر ديماس في روايته المشهورة «الفرسان الثلاثة» «الكل للواحد، والواحد للكل»^(١).

(٥/١) - «الكل في واحد»

وكان ذلك الوضع شبه الميتافيزيقي هكذا الأمة = الدولة. الحكومة هي الدولة. إذن الأمة (الشعب) هي الحكومة. الزعيم هو الدولة. إذن الزعيم = الشعب = الحكومة وهذا، أن بدا لمن درس العلوم السياسية كهذيان المصاب بالحمى أو هيمان من امتلا رأسه بضباب أزرق، هذيان فعلاً، لكنه - في الوقت ذاته - التقنين الثوري الاشتراكي التقدمي الذي لا هو غربي ولا هو شرقي بل «ديموقراطية الشعب العامل التي التزمتها ثورة يوليو». الكل في واحد. الكل في الزعيم. الزعيم هو الكل.

وانطلاقاً من ذلك، بات بالوسع، مثلاً، القول دون أن يطرف لأحد رمش «أن نقل ملكية الصحف للشعب من أبرز مظاهر الديموقراطية». وبطبيعة الحال، لم تنقل ملكية الصحف الى الشعب، بل نقلت - بلا لف ولا دوران - الى الزعيم^(٢). بات الزعيم مالكاها الحقيقي والمتصرف في ضمائر وأقلام المخلوقات التي تأكل عيشاً فيها. وبات لكل من الزعيم، ولخليفته من بعده، «محتسب» على «أبعادية» الصحافة. هيكل في ظل عبد الناصر، وموسى صبري، في ظل السادات وبطبيعة الحال، لم يرأس هذا ولا ذاك تحرير كل الصحف والمجلات في مصر، إلا أن ما كان هيكلاً يكتبه في الأهرام في عهد عبد الناصر، وما كان موسى صبري يكتبه في الأخبار في عهد السادات، ظل «الفنار» الذي استرشد بضوئه كل من أراد أن يغنم السلامة ويظل طليقاً ويأكل عيشاً في خدمة الشعب الذي انتقلت اليه ملكية الصحافة وسائر وسائط الاعلام وفي مصارحاته لموسى صبري، يقول السادات ببساطة:

«اتخذت قراراً باخراج ١٢٠ صحافياً وكاتباً ونقلتهم الى هيئة الاستعلامات لانهم مصدر التشهير بحقيقة الأوضاع في البلد، وكانوا يتصلون بالمراسلين الأجانب (١) ويقدمون اليهم معلومات كاذبة، وهم من اليسار واليمين ومن اتباع هيكلاً وهيكلاً، في ذلك الوقت، كما ذكرت لك، كان مؤمناً بأن الأوضاع قد انتهت، بدليل أنه جاء لي وطلب مني أن أستمع الى آراء «مجلس الحكماء» آياه... لكي يحل لي ذلك المجلس مشاكل البلد! كلام غريب كما اني أخرجت أحمد بهاء الدين مع هذه المجموعة. وقيل لي وقتها أن له مكانة بين الصحافيين العرب، فقلت عرب عجم هذا شيء لا يهمني»^(٢).

وبطبيعة الحال، لم يتجن الزعيم عندما قال «عرب عجم أنا لا يهمني». لأنه الشعب، ولأنه الحكومة، ولأنه الدولة، والشعب هو الذي يمتلك الصحافة، أليس كذلك؟ والسادات قد أكد باصرار أنه «مؤمن بحكم الشعب، أما حكم الصفوة، «الايليت»، فلا أعترف به»^(٣).

وقد كان السادات على حق فيما يخص «الصفوة الايليت»، لأنه لم تكن هناك صفوة. كل ما كان هنالك طغمة من المنتفعين، يقول السادات أن عبد الناصر شكاه من أنها «عصابة»، وأنها «تحكم البلد»! إلا أنه لم يكن هناك «شعب» أيضاً. كان هناك «الزعيم» فقط.

ولقد كانت تلك، منذ البداية، مشكلة «الثورة»، ومصيبة مصر. وفيما يخص «الثورة»، تمثلت المشكلة في أن حركة عسكرية استولت على الحكم لصالح أفرادها من الضباط بلا عقيدة ولا فكر ولا تصور مسبق، تحولت الى نظام حكم، ما لبث - بحكم انقطاع الصلة بينه وبين أية جذور شعبية حقيقية - أن تحجر على شكل نظام فاشي عسكري. وفي فترة رئاسة عبد الناصر، اتخذ الزعيم - ووجدانيته مطلب جوهري في أي نظام فاشي - صورة البطل. أما في فترة رئاسة السادات، فاتخذ صورة الأب، كبير العائلة.

وأوجه التطابق بين النظام الذي تحجرت فيه «الثورة» التي قامت بها حركة الضباط الأحرار، وبين النظام الفاشي تجعل من «الثورة» والنظام الفاشي شبه نسختين من رسم هندسي واحد.

يمكن تركيز الخصائص الأساسية للنظم الفاشية فيما يلي.

أولاً: الحكم الفردي المطلق الذي يمارسه «الزعيم».

(*) «كان اهتمام جمال عبد الناصر بالسيطرة على أجهزة الاعلام والصحافة أمراً ملحوظاً، بل إن تعييناته في مجال الصحافة كانت تعتبر (مؤشراً) للتنبؤ بحركته السياسية مستقبلاً».

(أحمد حمروش. «مجتمع جمال عبد الناصر»، ص ١٢٢)

ثانياً: الادعاء بأن الزعيم دائماً على حق. وقد كان أهم شعار رفعتته الحركة الفاشية الإيطالية شعاراً ادعى أن (Mussolini ha sempre ragione) «موسوليني دائماً على صواب».

ثالثاً: الادعاء بإمكان دمج كل المصالح والقضاء على ما بينها من تناقضات مولدة للصراعات عن طريق الانصياع لما يعليه الزعيم، والايان به، والعمل بمقتضاه. وكان الشعار الذي رفعتته الفاشية في ذلك الخصوص شعاراً دعا الإيطاليين جميعاً، على اختلاف طبقاتهم وتباين مصالحهم، الى «الايان، والطاعة، والنضال».

رابعاً: تحويل العدوان من جانب المحكومين الى أهداف داخلية وأهداف خارجية.

خامساً: اعطاء وهم مشاركة الشعب في السلطة، في الوقت الذي يستبعد فيه الشعب تماماً من العملية السياسية اللهم الا في دوره كقطيع «الشارع السياسي» الذي تحركه وفقاً لمراميها السلطة الحاكمة.

(٦/١) - ملامح التطابق مع الفاشية

«في مبدأ الأمر، كانت الفاشية تفاخر بأنها «حركة لا عقيدة»، وقد أكد موسوليني أن «الفعل هو المهم، أهمية تعلق على كل ما عداها، حتى وان أدى الى ارتكاب أخطاء، وأن التنظير أو الهدف من وراء العمل غير ذي موضوع»! فالمعركة هي الأهم وهي ما له قيمة، بصرف النظر حتى عن القضية التي تشن المعركة من أجلها. وكان شعاره الأساسي للإيطاليين «أمنوا، أطيعوا، ناضلوا» الشعار الأهم المكرس في المادة الرابعة من دستور الحزب الفاشي. غير أن الايمان الذي تحدث عنه لم يكن الايمان بعقيدة أو بمبدأ، بل الايمان بشخص، هو الزعيم.

«وقد كان نجاح الفاشية في إيطاليا خلال السنوات من ١٩١٩ الى ١٩٢٢، راجعاً الى الفراغ الذي خلفه في الساحة السياسية الإيطالية فشل الأحزاب الأخرى، أكثر مما كان ناشئاً عن أي ميزة أو جدارة أو منطق امتاز بها الحزب الفاشي على غيره من أحزاب. ومن هنا، لم يكن الفاشيون بحاجة الى فكر أو عقيدة أو مذهب، بل ويمكن القول في الواقع أن افتقار الفاشيين الى أية «فلسفة» كان مما ساعدهم على النجاح، من حيث أن افتقارهم ذاك الى المبادئ والمواقف المحددة أنقذهم من إثارة حفيظة أو مخاوف أحد. ولقد كانت حياة بنيتو موسوليني في الواقع سلسلة من المواقف السلبية، ضد الدولة، وضد الاشتراكيين، وفيما يخص الحرب الليبية، وفيما يخص القانون والنظام، وفيما يخص حوادث الشغب، والبرلمان، والليبرالية، ومعاهدة فرساي، وعصبة الأمم، والبلشفية، والديموقراطية. وعندما طلب منه أن يضع في مكان تلك المواقف السلبية شيئاً ايجابياً، لجأ الى المراوغة ووقع في التناقض، لأنه لم تكن في رأسه أية معتقدات جادة تخصه نابعة من تفكيره، فوق أن أي تصريح ايجابي محدد يصدر عنه كان حرياً بأن يغضب حليفاً ممكناً ما قد يحتاجه في وقت ما. وبهذه الطريقة، وصل موسوليني الى الحكم دون أن تكون لدى أحد أية فكرة واضحة عما يمثلته. والواقع أنه ان كان مفكر ليبرالي كبير كبنيتو كروتشي وجد بوسعه أن يقتنع بأن الفاشية، نظراً لأنها مفرغة من أي محتوى فكري، كانت لا ضر فيها، فإن ذلك الافتقار الى الفكر والعقيدة كان عاملاً قوياً أدى الى تحييد ما كان يمكن للفاشية أن تصطدم به من معارضة قوية.

«ألا ان موسوليني تمكن، من تلك البداية غير الواعدة، من أن يناور بمهارة بحيث وصل خلال بضعة سنوات الى الوضع الذي مكنه من أن يدعي أن الإيطاليين كانوا قد أعطوا العالم من خلاله، لأول مرة في تاريخهم الحديث عقيدة، وفلسفة، وأسلوباً جديداً للحياة. وقد توصل الى ذلك بترقيع خليط من نتف وأشتات جمعها من هنا وهناك، من أفكار الأصدقاء وأفكار الخصوم على السواء. وكان قد تعلم النظرية والممارسة الثورية من الاشتراكيين، بينما أخذ من القوميين، حرفياً، سياسته الخارجية، ومن الليبراليين استمد مصطلحاته شبه الفلسفية، كما اكتشف مما كانت تفعله أحزاب شمولية في بلدان أخرى كيف يمكن استخدام الدين (الكاثوليكية في حالة إيطاليا) كركيزة ترسخ دعائم دولة شمولية تقوم على النظام الصارم والطاعة العمياء.

«ولم يكن ذلك الخليط المتنافر يتراكم ويتكامل لدى موسوليني حتى أخذ الزعيم، قبل أن يتماسك خليطه ويتخذ شكلاً محدداً، في الاضافة اليه بتصريحات وأقوال عديمة المعنى من قبيل الكلام المزدوج الذي

تعني اللفظة من الفاظه الشيء ونقيضه والقضية وضدها. ولحظتها، بدأ الزعيم يتحول عن كون الفاشية حركة لا عقيدة، الى الادعاء بأنها، في حقيقة الأمر، عقيدة، بقدر ما هي حركة. وقد كان سنده الأكبر ميل الناس الى سرعة التصديق وسرعة النسيان. وبالاتماد على ذلك، أمكنه أن يقول عن بريطانيا أنها بلد صديق، وفي اللحظة نفسها يصف نفسه بأنه ألد عدوها، وأمكنه أن يدعي لنفسه صفة النصير المنزه عن الهوى لعصبة الأمم، وفي نفس الوقت يقوم بدور العدو المدمر لها، وعلى الحالين يفاخر بالشيء ونقيضه ولبصغ الى بعض تعاليمه

«أما يمثل مدناً حديداً تمام الحدة في العالم فحسب (الفاشيون) يمثل النقيض الحاصل المصفى النهائي والقاطع للديمقراطية، والبلوتوقراطية (حكم القلة الثرية).»

«أن الفاشية أنقى وأخلص أشكال الديمقراطية.»

«أن الروح الفاشية هي الإرادة، لا العقل، ولذا فإن المثقفين الفاشيين لا يجب أن يكونوا عقلانيين، بل فاشيين محضين.»

«أن سلطان الدولة وحرية الفرد المحكوم متكاملان ولا انفصام بينهما.»^(٢٢)

(ومن هذا الخليط من «التعاليم» والأفكار المستعارة من كل حذب وصوب) أمكن في النهاية «الادعاء بجساسة أن الفاشية لديها عقيدة وفلسفة، وأن العقيدة والفلسفة تجسداً في مفهوم «الدولة الأخلاقية» التي تصنع لنفسها نسق الأخلاقيات الخاص بها والتي لا تدين بالولاء لأي شيء سوى ذاتها». ولنقارن الآن هذه الملامح المميزة للفاشية في صورتها الأصلية التي تفرعت عنها النازية وغيرها من النظم الشمولية في أوروبا من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٤٥، بالكثير الجوهري من ملامح «الثورة» التي قامت بها حركة الضباط الأحرار وتمخضت عن النظام الذي حكم مصر منذ يوليو ١٩٥٢.

(١/٦/١) - حركة لا عقيدة

قال جمال عبد الناصر، في مناقشات اللجنة التحضيرية، يوم ٢٥ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٦١:

«لم يكن مطلوباً مني في يوم ٢٣ يوليو/تموز ١٩٥٢ أن أطلع ومعي كتاب مطبوع وأقول أن هذا الكتاب هو نظرية مستحيل! كان يقدر ينزل مع سيدنا حبريل كتاب مطبوع ومجلد ويقول هذه هي النظرية، هذا هو القرآن. ابتدأ الإسلام بأشهاد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمداً رسول الله. الإسلام ابتدأ بهذا جملتان لم يبدأ بكل ما هو موجود في القرآن.»^(٢٣)

«كتاب فلسفة الثورة»، إذا جاز لنا أن نعتبر ما فيه فلسفة، يشخص حالة المجتمع بكلمات عبد الناصر: «اننا نعيش في مجتمع لم يتبلور بعد، وما زال يفور ويتحرك ولم يهدأ حتى الآن أو يتخذ وضعه المستقر ويواصل تطوره التدريجي مع باقي الشعوب التي سبقتنا على الطريق» ثم يتساءل «أذن ما هو الطريق؟ وما هو دورنا على هذا الطريق؟ أما الطريق فهو الحرية السياسية والاقتصادية. وأما دورنا فيه فدور الحراس فقط، لا يزيد ولا ينقص. الحراس لمدة معينة بالذات موقوتة الأجل»

«لكن الحراس أصبحوا حكاماً، والأيدولوجية غائبة. و«فلسفة الثورة» ليست أكثر من خواطر شاب وطني يحمله الأمل الى آفاق محلية وعربية، ولكنه لا يقدم دليلاً للعمل أو نظرية للتجمع. الكتاب يتحدث عن دوائر عربية وإفريقية وإسلامية كمجال لاهتمام مصر، ولكن ولا كلمة عن القومية العربية كتأصيل للفكرة، ولا كلمة أيضاً عن الاشتراكية»^(٢٤). فخواطر «القومية العربية» و«الاشتراكية»، التقطت فيما بعد على الطريق. وسوس بها مرتزق ما من مرتزقة «الفكر» طمعاً في الرضا والنعم. قال للزعيم يا زعيم هناك أشياء مفيدة يمكن استخدامها هناك شيء اسمه القومية العربية. هناك شيء اسمه الاشتراكية. وكل الأشياء كانت التقاطاً، خطفاً هكذا، على الطريق. الإصلاح الزراعي كان التقاطاً من كفاح محمد خطاب ومشروعه الذي قدمه الى مجلس الشيوخ في العهد الملكي، وتأميم القناة كانت فكرته قد طرحها من قبل «الثورة» مصريون كثيرون، كفتحي رضوان^(*) الذي يذكر في كتابه «٧٢ شهراً مع عبد الناصر» بأنه دعا الى

(*) «فكرة تأميم قناة السويس لم تكن طارئة، ولم تكن رد فعل فورياً، وإنما كانت فكرة تعيش في رأس جمال عبد الناصر امتداداً لنداءات رفعها مصريون آخرون من قبل، وتعبيراً عن مشاعر مكبوتة في نفوس المصريين منذ عشرات السنين. فبرنامج الحزب الشيوعي المصري كان يدعو صراحة الى تأميم قناة السويس وأحمد حسين، رئيس الحزب الاشتراكي بدأ حملة مطالبة =

تأميم القناة من قبل «الثورة». «ونشرت في صحيفة «اللواء الجديد» عنواناً بعرض الصفحة عن «تأليف لجنة وطنية لدراسة تأميم قناة السويس»، ويقول أنه ذكر لعبد الناصر «لقد أصدرنا كتيباً بعنوان «أضواء على قناة السويس» انتقدنا فيه بشدة ما تروحه دوائر العرب من أن مساهمة مصر في حفر وملفات حكومة مصر دراسة كاملة من الناحيتين الهندسية والطبوغرافية لمشروع حفر قناة السويس وضعت في عهد محمد علي، وساهم فيها المهندسون والمساحون المصريون مساهمة علمية ذات شأن»، وأن عبد الناصر «سرح بخاطره، وقال «وأي هذه الدراسة» فأجبت «عندنا هنا في مصر، وقد عرضناها للبيع وراجت كثيراً» فقال «حسناً، أرسل لي نسخة منها فقد نحتاج إليها في المستقبل»..»^(٢٦).

فمنذ البداية، «كانت الأيديولوجية غائبة، وكانت الحيرة طابع التصرفات، والتجربة أساس الحركة»^(٢٧). ومنذ البداية «كان الجيش في خدمة نفسه، ليثبت سلطته ويؤكد دوره. وكانت حركته تمثل تقدماً إلى الأمام، ولكن في خط متعرج غير مستقيم، يميل أحياناً إلى اليمين وأحياناً إلى اليسار فغياب الأيديولوجية كان يخفي الطريق، ويجعل من التجريب السبيل الوحيد لمجابهة الأمور الحيرة كانت تتجسد كثيراً أمام المشاكل، والاختيار كان يبدو صعباً. والقوة السياسية الوحيدة المتوافرة كانت قوة العسكريين. والمجتمع الطيع في يد الزعيم لم يتشكل سياسياً أو اقتصادياً بطريقة مستقرة ثابتة ويصدق خلال هذه المرحلة قول ابن خلدون: «ثمة بلدان لا يعرف القلق منها سبيلاً إلى قلب السلطان لندرة الثورات فيها ففي مصر، مثلاً، لا تجد غير السيد المطاع، والرعية المطيعة». والسيد المطاع، الزعيم، قد سمح بزحف العسكريين إلى مراكز السلطة تاركاً الرعية المطيعة بلا تنظيمات حية تطلق طاقاتها وتعبر عن ارادتها»^(٢٧).

فباختصار، كانت «ثورة يوليو» حركة عسكرية بلا فكر ولا عقيدة ولا توجه سياسي واقتصادي محدد رغم الوعي بوجوب تحقيق «الحرية السياسية» بمعنى التحرر من الاحتلال الأجنبي و«الحرية الاقتصادية»، بمعنى التخلص من السطوة الاقتصادية للطبقات التي كانت تدير المجتمع قبل نجاح الحركة في انتزاع السلطة السياسية منها.

«ولقد كانت الفرصة متاحة وكاملة أمام جمال عبد الناصر لاختيار الطريق الذي يمضي فيه المجتمع (بعد الاستيلاء على السلطة، وانتهاء الاحتلال، وبعد التحييد والعزل والابعاد للطبقات والفئات التي كانت المسيطرة على المجتمع في العهد الملكي) وسلوك الأسلوب الذي تستقر عليه القيم الجديدة، وتنمية الأفكار والأيديولوجية التي يقتنع بها. كان ممكناً لزعامة عبد الناصر أن تحقق كل ذلك، لو كانت هناك أيديولوجية واعية مدركة لحركة التاريخ، مؤمنة بالتفاعل العلمي للعوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ولو كان هناك تنظيم سياسي»^(٢٨).

(١/٦/ب) = الزعيم يختار خليفته

لم ينقض وقت طويل على وصول حركة الضباط الأحرار إلى الحكم حتى بدأ اتجاه وحدانية الزعيم يتضح في التخلص من كل من اعتبر وجوده تهديداً لتلك الوحدانية. وكان أول ضحايا ذلك الاتجاه - كما هو معروف - محمد نجيب (*).

= بتأميم قناة السويس فوراً أثناء حركة الكفاح المسلح في القناة، وخطب مبادياً بذلك، وكتبت مجلة «الاشتراكية» داعية إلى ذلك في الكثير من أعدادها، كما نشرت الدعوة في كتاب فتحي رضوان «الأرض الطيبة». وكان محور تفكير الدكتور مصطفى الحفناوي وكتابات في مجلته الدعوة إلى تأميم قناة السويس وقد أكد جمال عبد الناصر نفسه ذلك فيما بعد بتصريح لمجلة «لوك» الأميركية يوم ٢٤ يونيو/حزيران ١٩٥٧، قال فيه «لقد كنا ندرس مسألة تأميم القناة، لكننا لم نكن قد وصلنا إلى قرار، فجعلتمونا أنتم نستقر على قرار».

(أحمد حمروش «مجتمع جمال عبد الناصر»، ص ٩٠)

(*) وتكاد مأساة محمد نجيب مع حركة الضباط الأحرار تتطابق، في أحداثها ومسبباتها الحقيقية المتعلقة بتأمين وحدانية الزعيم، بل وعواقبها بالنسبة لمحمد نجيب ذاته، مع محنة القائد العسكري الألماني أريك لودندورف، الذي تعاون مع النازيين واستخدمه هتلر ببراعة في مرحلة الوصول إلى السلطة، ثم تخلص منه كمنافس بإرغامه على التقاعد والانسحاب، لا من الحياة السياسية فحسب، بل ومن الخدمة العسكرية. (ارجع في ذلك إلى Alan Bullock: «Hitler - A Study in Tyranny», pp 122 - 128)

وقد استخدمت في التخلص من محمد نجيب - الذي كان قد بدأ يكتسب شعبية هددت مشروع وحدانية الزعيم - تكتيكات الساراع التي استخدمها الفاشيون الايطاليون والنازيون الالمان بكفاءة وفعالية، فنظمت الاضرابات والمظاهرات الممولة من «مجلس قيادة الثورة» والتي قادها «عملاء محرّصون» (Agents Provocateurs) من ضباط المخابرات كما حدث في المظاهرة التي اعتدت على مجلس الدولة ومزقت قراراته وضربت بالنعال كبار رجال القانون في مصر كالدكتور السهوري وقد تكون «الثورة» تمكنت من استخدام تلك التكتيكات دون أن تنزلق الى اللوغ في الدماء، وهو ما يحسب لجمال عبد الناصر بالذات الذي عارض - بقدر كبير من الحكمة وبعد النظر - الاتجاه الدموي لدى زملائه حتى من قبل نجاح الحركة^١، إلا أن ذلك التعفف لا يفي التماثل الواضح بين استخدام «الجماهير» غوغائياً لتحقيق مرامي النظام لدى الفاشيين والنازيين وفي حالة «ثورة» يوليو

وربما لم يكن الطموح الى الزعامة والوحدانية قد راود عبد الناصر في مبدأ الأمر، وربما كان تصوره لدور الحركة أنها ستخلص مصر من عفن العهد الملكي، فتقوم بدور وطني ثم تنسحب أو لا تنسحب. إلا أنه ما من شك في أن السلطة مفسدة، ولا شك أيضاً في أن السلطة المطلقة أفسدت دائماً، على مر عصور التاريخ، كل من حازها - حتى وإن كان ملاكاً - فساداً مطلقاً والشاهد، على أية حال، أن عبد الناصر بعد أن ذاق طعم السلطة بات غيوراً عليها

«حدث ونحن بتناقش في أحد اجتماعات المؤتمر المشترك الذي كان يصم الوزراء المدنيين والوزراء العسكريين، أن قلت عبارة لا أدكرها الآن بالضبط، لكنني أدكر أنني استخدمت فيها كلمة «لواء»، وكان ما قلته أن كل حركة تحتاج الى وعاء يصم افكارها ويحتوى رجالها ولا بد لها من «لواء» يرمر اليها ويشير عليها، فتحفر عبد الناصر وسأل «لواء» (ذلك اللواء) «قلت أنني لم أع أحد لواءات الجيش (وكان عبد الناصر في رتبة نكباشي) إنما قصدت بلغة «لواء» العلم، الراية، الرمر، فقال، وقد استراح «أه مفهوم»^٢»

ورويداً، بدأت الغيرة على السلطة تتحول الى غيرة من الزملاء

«لم تكن العلاقة بين عبد الناصر ورميله عبد اللطيف البغدادي حسنة معظم الوقت (ومما يكشف عن خلفية ذلك) أنني أعددت يوماً الخطاب السنوي الذي يلقي في مساء يوم ٢٢ يوليو/تموز من كل عام، وقد جرت العادة في اعداده أن يبني على سرد الأحداث الكبرى التي وقعت في العام المنصرم. ولما كان انشاء كورنيش النيل من أكبر الأحداث التي شهدها العام الأسبق، فقد ذكرته في الخطاب، ووصفته بأنه «نافذة عريضة تطل منها القاهرة على النيل»، فأمسك عبد الناصر بالقلم وكاد يشطب تلك الجملة فسألته «لماذا تود أن تشطب هذا الكلام؟» فقال «لقد سنم الناس الحديث عن الكورنيش بعد أن أسرفت الصحافة في الكلام عنه وفي التحدث عن «عصا البغدادي السحرية» ومشروعات البغدادي». «فقلت «وهذا سبب ادعى للإبقاء على هذه الجملة. إذ ما دام الناس تكلمت عنه كثيراً، فهي تنتظر أن تقرأ أو تسمع عنه في الخطاب السنوي، ولو جملة فإذا حلا الخطاب من مثل هذه الحملة، كان التفسير الوحيد لذلك أنك غير راض عن المشروع أو عن القائم به».

«ولم أرد أن أقول المعنى الذي عييته بالضبط، وهو أن الاصراب عن الإشارة الى المشروع يمكن أن يعسر بأنه نوع من الغيرة منه، ومن نحاحه ومن صاحبه لكن عبد الناصر فطن الى ذلك المعنى دون أن أقوله، فبقي ممسكاً بالقلم فترة، ثم قال «وهو كذلك لبدعها ولو أنني غير مرتاح لها». وبعد ذلك قال لي «هل تصدق أن بغدادي كان مقاطعني وبعيداً عن تنظيمنا الى ما قبل الثورة بستة أشهر فقط، وأنه كان يقول دائماً أنه أسبق في الحركة لأنه أسس، من قبل، تنظيماً سابقاً على تنظيم الضباط الاحرار»^٣».

بدأ عبد الناصر، بعد الاستقرار في السلطة، يشعر بأنه «قائد الثورة وزعيمها». بدأ يتذوق طعم السلطة، وتقرأى لعينيه الآفاق التي لا تحد لما يمكن أن تنطوي عليه حيابة تلك السلطة بلا شريك أو منافس. وبدأت الأزمات والمشاحنات تنبجس من ذلك الشعور وما أوقده من طموح، وكانت:

(*) «لقد حاولوا مثلاً توريط عبد الناصر واقتروا القيام بعمليات اغتيال (قبل القيام بالحركة)، وانتظر عبد الناصر عودتي من الأجازه، وسألني رأيي.. وكنا قد تناقشنا في إحدى المرات هل تسبق الثورة عمليات تسخين أم لا؟ وقلت له رأيي. وكان رأيي عدم القيام بأي عمليات قبل الثورة والتركيز كله يكون على (إسحاق) الثورة (وعندما سألني رأيي عن الاغتيالات)، وكان الموضوع محل خلاف (بينه وبين زملائه)، قلت له. يا حملاً الجهد الذي يبذل في عملية الاغتيالات مثل الجهد الذي يبذل في (القيام) بالثورة إذن نأخذ الأصح. ثم، ما هي القيمة لو نجحت الاغتيالات أو فشلت؟»

(مصارحات السادات لموسى صبري في كتاب «السادات - الحقيقة والاسطورة»، ص ٢٧٨)

«الأزمات لا تكاد الواحدة منها تنتهي إلا لتبدأ غيرها، وكانت تدور كلها حول جذب وشد مع واحد أو آخر من أقرب الناس إليه. ولقد كانت أول أزمة من ذلك القبيل أزمة الرئيس محمد نجيب وقد حدث قبل أن تتفجر تلك الأزمة لتصبح زلزالاً تهدد الثورة من أساسها. كنت جالساً بجوار عبد الناصر في نادي السيارات بعد تناول العشاء في الحفل الذي أقيم على شرف الرئيس السوري شكري القوتلي وكان الرئيس نجيب يجلس في الطرف الآخر من الدائرة التي انتشر فيها الصيوف والمصيفون، فرأيت عبد الناصر ينظر صوب محمد نجيب طويلاً، ثم سمعته قائلاً: «لم أعد أطيق النظر إلى وجه مطر» ولم أكن أعرف أن المقصود باسم مطر كان الرئيس محمد نجيب، فسألت: «ومن يكون مطر؟» فضحك عبد الناصر ضحكة خالية من البهجة، وقال: «أنت لا تعرف» إنه نجيب بقدر ما كنت أحبه واثق فيه أصبحت لا أطيق محدد النظر إليه»^(٣١).

بدأ الاتجاه إلى وحدانية الزعيم يتبلور في ذهن عبد الناصر ويتحدد في تصرفاته منذ ما قبل ١٩٥٤. ثم تضافر نجاح ضربة تأميم قناة السويس وفشل مؤامرة العدوان الثلاثي ضد مصر سنة ١٩٥٦ على (١) تغيير صورة الحركة من انقلاب عسكري إلى «ثورة»، و(٢) اكساب عبد الناصر شعبية ضخمة، لا في مصر وحدها، بل وفي الوطن العربي كله، و(٣) ترسيخ قبضة العسكريين على السلطة.

ولعب النظام تلك الورقة الرابعة بمهارة، وفي الوقت ذاته، بالأسلوب التقليدي للنظم الفاشية. فأجرى «استفتاء» كان جمال عبد الناصر المرشح الوحيد فيه لرئاسة الجمهورية، وفاز فيه «الزعيم» بالنسبة التقليدية من الأصوات ٩٩,٩٪، يوم ٢٥ يونيو/حزيران ١٩٥٦. وانتهت بذلك المرحلة الانتقالية لـ «ثورة يوليو».

«وكانت مواقف أعضاء مجلس قيادة الثورة، بعد انتهاء المرحلة الانتقالية في ٢٣ يوليو/تموز ١٩٥٦، متباينة. وكان قد حدث تجمع داخل مجلس قيادة الثورة عام ١٩٥٥ من ضباط الطيران الثلاثة فيه، جمال سالم، وعبد اللطيف البغدادي، وحسن إبراهيم، وانضم إليهم صلاح سالم، وقرروا - حسبما يروي حسن إبراهيم - عدم الاشتراك في الحكم بعد انتهاء المرحلة الانتقالية، ولا يستقيلوا قبل انتهائها، وكانوا يستهدفون فكرة الاستقالة الجماعية تنبيه الجماهير لانفراد جمال عبد الناصر بالسلطة، مما مثل في نظرهم معاً لحكم الفرد غير أن ذلك الترتيب لم ينفذ بسبب استقالة صلاح سالم قبل الموعد المتفق عليه، وبسبب اعتقاد البغدادي (الذي احتوى فيما بدا) أنه كان سيقدر من موقعه كرئيس لمجلس الأمة - حسب ما تم اتفاقهم عليه - على خلق روح وحياة ديمقراطية وهكذا طويت صفحة مجلس قيادة الثورة، وطويت معها أيضاً صفحة الفرصة المتاحة للمناقشة المحدودة في مركز إصدار القرار، وانتهت بنهايته إمكانية مراجعة المواقف من وجهات نظر مختلفة، وتحول الأمر من سلطة المجلس إلى سلطة الفرد»^(٣٢).

وكان لذلك التطور أثره الواضح في

(١) ترسيخ وحدانية الزعيم، على النمط الفاشي التقليدي الذي ينفرد الزعيم فيه بالرأي وصنع القرار، فلا يستبعد من الوجود السياسي الشعب المحكوم وحده، بل وكل من عدا الزعيم، حتى أكبر معاونين له والموكلين بتسيير شؤون الحكم وقد اتضح ذلك في استبعاد أعضاء مجلس قيادة الثورة، وفي التبعية الكاملة للزعيم وخلق فجوة واسعة بين مركز السلطة المتمثل في جمال عبد الناصر، الزعيم، وبين (أكبر المسؤولين) كالوزراء

«وقد كان بعض أولئك الوزراء أبعد ما يكونون عن السياسية، ولم يكن وصولهم إلى مناصب المسؤولية الوزارية عن طريق النضال السياسي بل عن طريق الاختيار الشخصي لهم (من قبل الزعيم) وبذا أصبحت تبعيتهم كاملة لشخص الزعيم وخاصة في غيبة التنظيم السياسي الفعال»^(٣٣).

(٢) جنوح الزعيم، تأمينا لاستمرار وضعه المهيمن، إلى انتقاء من يضعهم في «المناصب العليا»، كمنصب نائب الرئيس، مثلاً، من العناصر التي يرى أنها لا يمكن أن تشكل منافسة له أو تحدياً لزعامته. وهو ما يقودنا إلى اختيار عبد الناصر لأنور السادات نائباً له. ويفسر السادات الأمر تفسيراً ربما كان مختلفاً عن عمد، فيقول

«وقبل لي أن عبد الناصر - وقد كان من المتأثرين بعلم الأرواح - سمع في إحدى جلسات تحضير الأرواح أن الذي سيخلفه هو أنور السادات. وربما اقتنع بذلك، واقتنع أيضاً بأنني لن أخلفه إلا بانقلاب (١)»^(٣٤). والسادات، بذلك القول، يسيء إلى نفسه في الواقع، وربما لم يفتن إلى ذلك، ولم ينبهه أو ينتبه إليه موسى صبري فقله أن «عبد الناصر اقتنع بأنه لن يخلفه، عندما قالت له الأرواح أنه سيخلفه، إلا بانقلاب، معناه الوحيد أن عبد الناصر كان لا يتصور - من معرفته بشخصية السادات ومدى قدراته - أن يخلفه

السادات، فيصبح رئيساً لجمهورية مصر بعمل ارادي من جانب عبد الناصر، وأن الطريقة الوحيدة التي يمكن للسادات بها أن يخلفه هي أن يقوم بانقلاب. ويواصل السادات كلامه لموسى صبري، دون أن يفتن إلى هذه المعاني، فيقول

«ولعل ذلك اثر فيه من ناحية تأخير تعييني نائباً للرئيس الجمهورية إلى ما قبل وفاته بسبعة اشهر فقط، وفي هذه الاشهر السبعة الأخيرة لم يكن يفتقر ليل بهار»^(٣٦)

ومما يقوله موسى صبري بعد ذلك الكلام عن الأرواح والاستيلاء على الخلافة بانقلاب، يتبين مما بين السطور أن عبد الناصر كان يعامل السادات باستخفاف ولا يأخذه مأخذاً جدياً، فهو يقول أن السادات «كان يحب عبد الناصر (لأنه) كان يرى فيه قائداً فذاً، رغم علمه بعيوبه الشخصية وأهمها الشك (فيمن حوله) و«الدوران حول الذات» (التأله)» ولم يفض موسى صبري في وصف تلك العيوب، لكنه يتضح من قوله أن السادات «لم يكن يأخذ من تلك العيوب ما يجعله يشعر بكراهية أو حقد تجاه عبد الناصر حتى لو أساء معاملته»^(٣٧) أن المعاملة التي تمخضت عنها عيوب عبد الناصر كانت من القسوة والامعان في الاساءة بحيث كان من الممكن أن يشعر السادات من جرائها بالكراهية والحقد تجاه عبد الناصر، لولا أن السادات، فيما يقوله موسى صبري «كان يرى زعامة عبد الناصر أشمل وأكبر وأقوى»، وأنه كان «شخصاً عاطفياً في أعماقه الانسانية، وكان لا يميل أبداً إلى الإيذاء (١)»^(٣٨) وأنه «كان يتمتع بميزة الصبر الطويل والاحتمال والقدرة على التحكم في أعصابه، بدليل أنه أمضى هذا الوقت الطويل مع عبد الناصر في قمة أزمات الصراعات»^(٣٩).

وربما كانت الأرواح هي التي وجهت تفكير عبد الناصر إلى اختيار أنور السادات نائباً للرئيس، وتركه في ذلك المنصب بينما الرئيس يقترب من الموت، مما كان يستتبع أن يصبح نائب الرئيس رئيساً. لكن الذي لا شك فيه أن عبد الناصر، خلال تلك الأشهر الأخيرة من حياته، كان في أضعف حالاته، صحياً وسياسياً، وكان «الروس»، حسب ما يقول السادات، «يعرفون حقيقة حالته الصحية، وكانوا يعدون لمن يخلفه، علي صبري ولذلك فإنني أعتقد أن الروس، وهم يعلمون بمرض عبد الناصر، كانوا مخططين لمن يخلف عبد الناصر وطبعاً أنا لا أرضيهم»^(٤٠) ويقول السادات أن علي صبري، وسامي شرف، وشعراوي جمعة، علموا من الروس بخطورة مرض عبد الناصر، وأن «الهجوم بدأ على عبد الناصر في بعض اجتماعات الاتحاد الاشتراكي وهو مريض، وكانهم يعدون العدة لمن يخلفه»^(٤١).

وكان مرض عبد الناصر قد أصبح خطيراً ومنذراً بقرب نهايته في سبتمبر/أيلول ١٩٦٩ ويبدو أن المناورات كانت قد بدأت في قمة النظام للفوز بزعامة العزبة من بعده ومما يرويه الجميع عن عبد الناصر أنه لم يكن ممن يستسلمون بسهولة، حتى للمرض فالسادات يحكي أنه، بعد الأزمة القلبية الخطيرة، والآلام المبرحة التي كان يعانيها «كان يتحدى نفسه» (وربما كان يتحدى من حوله ممن شعر بأنهم ينتظرون موته) ويذهب إلى الاجتماعات العامة للخطابة. وكان يسير بصعوبة، وكان يشعر بالآلام. لكنه بمجرد أن يبدأ خطابه وتلتحم مشاعره مع الجماهير (يتوهج شعوره بالزعامة) ينسى كل شيء، ويخطب وكأنه معافى مائة بالمائة»^(٤٢).

ويقول السادات ما معناه أن عبد الناصر كان قد بدأ يشعر بما دار حوله من تهافت على الزعامة، وأنه عني بأن يعطي اشارات واضحة لمن كانوا حوله بأنه لم يكن ينوي أن يذهب ويترك مصر لهم «وفوجئت به يوماً في استراحة المعمورة يمشي بخطوة الأوزة المشهورة، وكان سعيداً بذلك، وبدأ يمارس رياضة التنس ٤٥ دقيقة يومياً بعد حالة العجز الكامل (التي كان فيها قبل الاستشفاء في الاتحاد السوفياتي). لكن هذا أثر على القلب»^(٤٣). ولم يعن السادات بأن يفسر المعنى الذي أراد عبد الناصر الإيحاء به عندما اختار أن يبين لمن حوله أنه كان قد عاد سليماً معافى بأن أخذ يمشي «بخطوة الأوزة المشهورة»، مع ما في ذلك من ايماءة نازية واضحة. هل كان يريد القول أن الزعيم قد عاد، وعاد ليبقى؟ وعاد ليبطش؟

وفي سياق مثل هذه الرؤية لحالة الزعيم النفسية وهو يعاني المرض، ويستبصر النهاية، ويشعر بأن من حوله كانوا قد بدأوا يتقاتلون على الزعامة، ليس من غير المنطقي الافتراض أن اختيار عبد الناصر لأنور السادات نائباً للرئيس قبيل وفاته بسبعة أشهر، كان اجراء أمنياً بالقدر الأكبر، اطمئناناً منه إلى خصال

السادات التي جعلته مطمئناً الى أن هذا الأخير كان سيصبر وينتظر قضاء الله فلا يحاول ازاحته، وهو حي، بالقوة. وربما كان في ذلك الاختيار أيضاً قصد انتقامي لدى الزعيم تجاه الطامعين في خلافته من زملائه القدامى، تمثل في اختيار السادات، الدخيل، «وححاً» كما كان يسميه، نائباً للرئيس بدلاً من أي منهم وإن كان ذلك القصد الانتقامي قد راود عبد الناصر وكان من عوامل اختياره للسادات، فقد تحقق، لأن السادات نكل بعد موت عبد الناصر بكل أولئك الزملاء القدامى فمنذ اللحظة الأولى لرحيل الزعيم، كان من المحتم أن يشب الصراع، وأن ينكل الأشد شراسة وإصراراً والأقدر على التآمر، بكل الباقين، ويربح الجولة. وهذا، في الواقع، ما قاله السادات «بعد موت عبد الناصر. كنت أدرك أن هناك صراعاً مقبلاً وكان يهمني أن أصل الى كل تفاصيل الموقف حتى أكون مستعداً للصراع»^(*) وقد قيل الكثير في محاولة تبرير اختيار عبد الناصر لأنور السادات نائباً للرئيس وتركه في ذلك المنصب حتى اللحظة الأخيرة

(١ / ٦ / ج). عوامل أثرت على اختيار الزعيم لخليفته

والواقع أن المتدبر لكل ما قيل، وبخاصة ما قاله محمد حسنين هيكل في الكتاب الذي اختار له عنواناً ميلودرامياً، «خريف الغضب»^(*)، لا يملك إلا أن يشعر، بعد أن يمتليء حلقه بكل ذلك الكلام الذي لا يبتلع، أن «الزعيم» كان يتصرف في مصير العزبة بالاستهانة التي عولجت بها كل قضايا الحياة والموت المتعلقة بالعزبة وقطعانها. ولعل خير من عبّر عن طبيعة الفترة التي وقع اختيار الزعيم خلالها على «الدخيل» ليورثه العزبة، أحمد حمروش، وبخاصة في قوله أن

«جميع الأقوياء، في ذلك الوقت، لم تكن الأرض ثابتة تحت أقدامهم فلم يكن أحد منهم يستمد سلطته إلا من الزعيم الذي كثيراً ما كان يوجه اليهم كلمات النقد سواء في حضورهم أو غيابهم.. وكانت الخلافات التي بدأت تظهر بين (الكبار) على مسرح الثورة خلافات لم تحذب الجماهير اليها، ولم ينفعل بها أحد من المشاهدين مكل (المشتكين فيها) كانوا يتحركون من موقع السلطة دون اعتماد على الجماهير أو ارتباط بها»^(**) وذلك تحديداً كان السياق الذي قرّر قرار الزعيم فيه على اختيار السادات خليفة له. ولم يكن الزعيم جاهلاً بماضي السادات السياسي أو الشخصي، والأغلب أنه كان مستطيعاً أن يخمن بقدر كبير من الدقة المسار الذي كان من المحتم - بحكم ماضيه وتركيبته الشخصية - أن يتخذه السادات عندما يمتلك مصر غير أن شيئاً من ذلك لم يثنه عن اتمام فضله على مصر والمصريين بتمليكهم للعمدة. لصفية «جحا» الذي كان يستقدمه ليحكى له النكت ويقوم في حضرته بدور «مهرج الملك». وقد اقترب محمد حسنين هيكل كثيراً من مصارحة قرائه في «خريف الغضب» بهذه الخاصية في السادات، عندما ذكر أن بيت السادات في الهرم كان المكان الوحيد الذي ظل عبد الناصر مستطيعاً الذهاب اليه بين الحين والحين للراحة، لقضاء ساعات مع صديق لم يكن يرهقه بالمناقشات والمعارضة وقد أكد السادات نفسه ذلك المعنى في مصارحاته لموسى صبري عندما قال أنه كان يشفق على عبد الناصر «من الحسابات المعقدة» وأنه كان يريجه بحديث القلب للقلب.

وقد قلنا أن السادات كان متمتعاً بقدر كبير - انبأت عنه تصرفاته - من ذلك الشيء الذي يسميه المصريون «الخبث الريفي». والذي لا شك فيه أنه التقى وعبد الناصر في تلك الخاصية التي جعلت من كل منهما «متآمراً» بالسليقة. وكان السادات يسمي الطبيعة التآمرية «هذه لعبة عبد الناصر»، وعلى سبيل البراعة، أسماها موسى صبري «المنورة»، وقال «أما السادات المناور السياسي فقد كانت تغلب عليه طبيعة التدبير الخفي بعيد الأجل، خاصة في الشؤون الخارجية، وكان يعتقد أن عبد الناصر من قمم المناورين السياسيين في السياسة الخارجية ولقد كانت حسابات السادات باللغة الدقة في المناورة السياسية»^(**). وفي موضع آخر من كتابه، يقول موسى صبري «هذا الحب (لعبد الناصر) أورث السادات شيئاً ربما لم

(*) وقد رد عليه وقام بمهمة تشريحه بما لم يدع ريادة لمستزيد الدكتور فؤاد زكريا في كتابه «كم عمر الغضب» هيكل وأزمة العقل العربي.

يحس به السادات طوال حياته، لكنني أحسست به من لقاءاتي وأحاديثي معه، وهو أنه كان في شخصيته - أي السادات - جزءاً مستتراً (النَّصْب لموسى صبري) هو عبد الناصر. ولذلك، ورغم دعوته للديموقراطية وإيمانه بأنها الطريق الوحيد لاستقرار الحكم في مصر، فإنه عندما أراد أن يواجه المعارضة لجأ - ولو مضطراً - إلى أسلوب عبد الناصر، وهو الاعتقال على الرغم (ولو أنه) كان مقرراً أنه اعتقال لفترة محدودة حتى يتم الانسحاب الاسرائيلي من سيناء»^(١٦)

السادات، المتآمر البارع، «طويل البال»، الصبور، «حمل الآسية» حمل المكاره هذا، كما يصفه موسى صبري بوله ظاهر، لم يكن ساذجاً من مبدأ الأمر، وقف على خصال الزعيم، ومن فوره، تأقلم لها، ولعب اللعبة تبعاً لقواعدها التي لا تحدث اصطداماً بالزعيم

«في أحد الاجتماعات الأولى للثورة، اشتد الحوار بيني وبين عبد الناصر، فقال لي انك تتحدث وكأنك رئيس المجلس (مجلس قيادة الثورة). وبعد ذلك تفهمت شخصيته وتفهم شخصيتي ولم أطلب أي منصب رسمي وعندما رشح عبد الناصر عبد اللطيف بغدادي رئيساً لمجلس الأمة (أثر مشروع الاستقالة الجماعية الذي أحضره عبد الناصر بتلك المناورة) قبلت أنا بدون تردد أن أكون وكيل المجلس (تحت العدادي)»^(١٧)

وفي موضع آخر، يقول السادات لموسى صبري

وقد حدثت واقعتاً (خلاف) مع عبد الناصر من ناحية المنصب، لم أقصدهما «الواقعة الأولى» التي اقترحت عليه أن أتولى رئاسة الاتحاد الاشتراكي لتحويله إلى حزب سياسي وكنت مخلصاً في ذلك الاقتراح لسابق خبرتي في الشارع السياسي لكنه تجاهل اقتراحي، وقال لي «لماذا لا تذهب إلى نور سعيد لتستريح مع أسرته بعض الوقت؟» (بمعنى أن عبد الناصر ينفاه بغيماً داخلياً) وفعلت ما أمرت في نفس اليوم على أول طائرة إلى نور سعيد، ولم افتح ذلك الموضوع معه ثانية أبداً. أما الواقعة الثانية، فكانت بعد الهريمة طلبت منه أن «يطلق يدي»^(١٨) في الجهاز التنفيذي (يعني «يسيسي على الجهاز التنفيذي»، بالعامية المصرية البليغة) لمدة ٦ أشهر فقط وكنت قد درست الوضع الداخلي، ورأيت أنه من الممكن إصدار قرارات شعبية تنفيذية هامة^(١٩) تصلح الأوضاع، بعد أن اجتمعت بالوراء فرادى وعلى هيئة مؤتمرات صغيرة وتقبل عبد الناصر الفكرة في مبدأ الأمر، لكنه عاد فقال لي «نرجى ذلك إلى ما بعد إزالة العدوان (العاشم)»^(٢٠)

ويفسر السادات رضوخه الفوري لارادة الزعيم، وعدم اقدمه على إثارة أي اقتراح يتبين أنه لا يروق له مع الزعيم «ثانية أبدأ»، بزهده الطبيعي في المناصب: «لم أجد في ذلك أي حرج لأن المناصب لا تهمني»^(٢١) وعندما تذرع موسى صبري (على الأرجح بالاتفاق مع السادات كيما يتيح له قول ما قال) بصفاقة الصحفي، فسأله: «إذا كان ذلك منطلق عبد الناصر (فيما يخصك) فما الذي جعله يرفض بعد ذلك أن تكون أمين الاتحاد الاشتراكي وتشكل له حزباً سياسياً بحكم خبرتك السياسية؟»، أجابه السادات قائلاً: «هنا تدخلت وبمرور الوقت متاعب السلطة. والدسائس وحسد الزملاء. والله، وأنا أتحدث اليك بهذا الصفاء (وكان يتحدث إليه وقد بات رئيساً للجمهورية)، لم تعد السلطة تهمني في حياتي إطلاقاً. ولم تعد زينة الحياة لها قيمة. لا سلطة ولا غير سلطة. أنا دائماً أقول لمن حولي «السيارة الفيات الصغيرة التي ركبناها سنة ١٩٣٩، ألم تكن تقوم بمهمة التوصيل مثل الكاديلاك؟ دي بتوصل، ودي بتوصل، أيه الفرق؟»

ويتحمس السادات لموضوعه التقشفي، فيستطرد قائلاً:

«والله ما عرفت في حياتي أكلة أطعم وأروع من شوربة العدس عندما ينتهي يوم العمل مع الصعايدة (ها هو الزعيم يتذكر الصعايدة ثانية - وكانت المرة الأولى عندما تذكرهم عبد الناصر بعد هزيمة ١٩٦٧) أيام كنت هارباً واشتغل نغمات. كنا نعمل من طلوع الشمس حتى الغروب، وكان ذلك في الشتاء في يناير. وفي آخر اليوم، كنا نجتمع في مطعم قذر في قرية مزغونة على الطريق العام، بقعد ونشرب شوربة العدس والله في حياتي ما عرفت أطعم منها تقول لي ديك رومي والاحفلات في البيت الأبيض، والا كافي. كل هذا لا مذاق له أمام شوربة العدس هذه»^(٢٢)

والمرجح أن هذه الموهبة الكوميديّة والقدرة على التهريج خفيف الظل كانتا من الأسباب التي جعلت عبد الناصر يدعو السادات «جحا» ويطلب استدعاءه ليرفه عنه كلما ضاقت الدنيا في وجهه^(٢٣). إلا أن

(*) ولعل ذلك هو ما حدث أيضاً فيما يخص علاقة السادات بحسن التهامي الذي وصف بخفة الظل واشاعة جو من البهجة حوله =

التهریح، مهما كان خفيف الظل، لا يستطيع أن يطمس الحقيقة والحقيقة - كما قد لا نختلف - ليست أن السادات كان زاهداً في المناصب متقشفاً لا يحب حفلات الغداء في البيت الأبيض، أو الكافيار والفودكا على موائد السوفيات، وشعبياً يموت حباً في شورية العدس وفحل البصل مع الصعايدة في المقاهي القدرة، ويعشق العربات الفيات الصغيرة مفضلاً إياها على الكاديلاك، بل هي أن السادات كان ذكياً ومتآمراً بارعاً وصبوراً و«حمال أسية» كما وصفه موسى صبري، وكان فاشياً متمرساً عارفاً بقواعد اللعبة ومتطلبات البقاء البدني والسياسي في ظل زعيم يستطيع أن يفعل به، مثلما ظل يفعل بغيره، فيرسله الى «ما وراء الشمس»، أو يسلمه لمن يفعلون به أشياء غير مستحبة اطلاقاً في السجن الحربي أو في القلعة أو في الواحات، أو «يفرغه» كما ظل السادات يقول أنه يستطيع أن يفعل بمن يعصاه عندما أصبح مالكا للعزة وقطعانها، وبالنظر الى تلك الحنكة الفاشية والدراية بأصول الشغل في عمليات الاستيلاء على بلد بأكمله وتحويله الى ضيعة خاصة للزعيم ومن حوله من مسلحين، خضع السادات، وأطاع، وهادن، ولابن، واكتفى شر أنياب الزعيم ومخالبه، فنجأ، وبقي، وناور، وتسلق، فوصل. وعندما ذهب الزعيم الى بارث، ورث عنه العزة ومن فيها وقد كان ذلك الارث، لا شورية العدس، أو الزهد في المناصب وعدم الاكتراث لزينة الحياة الدنيا، هو الذي مكن السادات من النجاة والبقاء والنجاح، لأنه لم يتوقف عن التفكير فيه لحظة، ولم يرفع عينيه عن أفقه الباهر ولو ثانية واحدة، فوضع نفسه تحت قدم الزعيم، وعاش، وبات زعيماً يضع الآخرون أنفسهم تحت قدمه ليعيشوا. والارث، بطبيعة الحال، مصر والذي يحكي عن السادات أنه عندما دعاه الأميركيون لزيارتهم سنة ١٩٦٦، وذهب الى نيويورك، أصابته لومة، فظل شاخصاً بعينين ذاهلتين الى قمم ناطحات السحاب وهو لا يكف عن الغممة. «يا سبحان الله! يا سبحان الله!» والذي لا شك فيه أن السادات طيلة هموده تحت نعل عبد الناصر، ظل شاخصاً بعينيه الى العزة، مصر، وهو يغمغم كلما تراءت له صورته وهو مالك لها بمن فيها وما فيها: «يا سبحان الله! يا سبحان الله».

وبذهاب عبد الناصر وخلافة السادات له، أمنت الفاشية استمراريتها وبقائها وإن كان الملكيون يهتفون عندما يموت ملك ويصعد الى العرش ملك جديد «مات الملك، يحيا الملك» تعبيراً عن الاستمرارية والبقاء للنظام الملكي، فما من شك في أن النظام الذي ملكته «الثورة» مصر كعزة له، هتف هو أيضاً «مات الزعيم، يحيا الزعيم» حقيقة أن الصورة تغيرت، فقد مات الزعيم الذي اتخذ صورة البطل مصارع الجبابرة، وأمتلك العزة الزعيم الذي أفصح منذ أول لحظة له عن كونه لا أكثر من عمدة لا يتورع. لكن ذلك، في عرف النظام وعند المنتفعين ببقائه واستمراره، لم يعن أكثر من تغيير الثياب المسرحية، وتغيير بعض الشعارات، واستبدال بعض المقاطع التي كانت تتغنى بالحرب وبالبطل «الذي يهد الأرض بالطول والعرض»، بمقاطع جديدة تغنت بمباهج السلام، وبالعمدة الذي لبس لبوس البطل لحظات ثم تحول الى حاصل على جائزة نوبل للسلام بالتشارك مع الارهابي مناحم بيجين، رأس حربة الحركة التي تعد لتقطيع أوصال جثة مصر.

(٥/٦/١) - الزعيم دائماً على حق

غير الاقتصار على الحركة دون الفكر، واللعب بالسمع، والادعاء بإمكان «تذويب» التناقضات ودمج «قوى» الشعب في كل واحد متناغم متآزر يجسده الزعيم، والحرص شبه الديني على وحدانية الزعيم، تطابقت حركة الضباط الاحرار مع الفاشية في الايمان - الذي ما لبث أن اتخذ هو الآخر طابعاً شبه ديني جعل من الممكن لـ «محاكم تفتيش» النظام، أي أجهزته الأمنية، أن تحرق كل من جنح الى الهرطقة والكفر بـ «مرد التشكك» - بأن الزعيم دائماً على حق، وأن الزعيم يعرف، ودائماً على صواب، ويكاد يستبصر الغيب، ولذلك فإن الرأي يجب أن يكون رايه، والكلمة كلمته، والقرار قراره، وأن كل ما يخرج من فمه يتحول بمجرد الخروج من فمه الى نصوص مقدسة.

وهذه سمة من أوضح سمات النظم الفاشية. فالزعيم، لأنه على حق دائماً، يرسى القانون. ولما كانت

= انظر ما يقوله عنه محمد ابراهيم كامل في «السلام الضائع». (انظر الهامش بأسفل ص ٧٤).

الحركات الفاشية دائماً حركات استهازية تخرج من فراغ لتستولي على السلطة بالديماجوجية والغوغاة بغير فكر حقيقي ولا عقيدة، فان «فلسفاتها» ومذاهبها وقوانينها وشرائعها تظل تستمد ويضاف اليها يوماً بعد يوم مما يجد به الزعيم من جوامع الكلم وما يتساقط من فمه من درر الفكر وجواهر الحكمة خلال ما يلقيه من خطب وما يتصايح به من شعارات، و«فلسفة» الفاشية الايطالية تكونت، بهذه الطريقة العوغائية من خطب بنيتو موسوليني، الزعيم، وسفسطائيتها التي تلقفها باستمرار «منظرو» الحزب الفاشي الايطالي كجيو فاني جنتيلي وغيره من «الاساتذة»، وجعلوا منها «فكراً وفلسفة» ونظرية شاملة جامعة، بل وصنعوا منها دائرة معارف بأكملها من ٢٥ مجلداً فخيماً نشرت في ميلانو فيما بين سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٣٧ وكذلك فلسفة النازية التي أنبتت على كتاب هتلر الرومانسي «كفاحي»، وخطبه وأقواله وتصريحاته وأوامره التي كانت في معظم الأمر ملتاة. ولنصغ، فيما يخص «الفكر الثوري المصري»، لهذا الكلام «ولا خوف أيضاً من الوقوع في (شرك)»^(٩) الخطابة السياسية فهي، على كل حال، قد شكلت مفاهيم جيلنا ورؤيته للصراع وقد لعبت (تلك الخطابة السياسية) دور الأيديولوجية لدى الجماهير العربية نظراً لغياب أيديولوجية نظرية محكمة بديلة. وقد كانت خطب عبد الناصر، وتصريحاته، وأحاديثه، ومؤتمراته الصحفية، أحداثاً في عالمنا العربي وعلى الصعيد الدولي لذلك اعتمدنا أساساً على هذه المادة (الخطب والتصريحات الخ) لتحليل رؤيته لقضية الصلح مع اسرائيل. ورؤية الزعيم تكشف عن بواعثه، وتبين دوافع قراراته السياسية وليست مجرد موضوع نظري لا صلة له بالأحداث السياسية. فالسياسة هي البواعث. والبواعث هي التي توجه الرؤية وتبين «الحالة النفسية». فالسياسة أحياناً أحياء وبحث في الردع وهو ما يسمى باللغة النووية «سلاح الردع»^(٩) الخطابة السياسية ليست مجرد ديماجوجية، بل هي قناعات وجدانية لجبل بأكمله بالرغم مما يشوبها من حدة الانفعال ونقص التصور النظري. وقد اعتمدنا على المجلدات الخمس التي نشرتها وزارة الارشاد القومي، مصلحة الاستعلامات، القاهرة، بالجمهورية العربية المتحدة، بعنوان «مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر»، ومجلدي مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام بعنوان «وثائق عبد الناصر - خطب، أحاديث - تصريحات»^(١٠)

وكاتب هذا الكلام الذي له وزنه أستاذ فلسفة.

ذلك على المستوى «الفكري»، صاغ الزعيم الفكر للمصريين، حتى الاكاديميين منهم، في خطبه الموجهة الى الشارع، وتصريحاته التي كان جلها استعراضياً الهدف منه تعميق أسس زعامته. أما على الصعيد العملي، صعيد تسيير شؤون المزرعة

«ربما كانت الآراء تختلف يميناً ويساراً، وربما كانت الآراء تتنافر حول القضايا المعروضة لكن الأمر في نهايته كان يقتضي من القائد (عبد الناصر) اما تطويع زملائه لأرائه وأفكاره، والصبر على مناقشاتهم حتى تتوافر لهم في النهاية وحدة فكرية (مع أفكاره) في القضايا الاستراتيجية الكبيرة، واما (إذا لم يتسن ذلك) التخلص منهم لينفرد برأيه سواء كان رأيه صواباً أو أكثر ادفاعاً وكانت الشعبية الجارفة التي رفعت عبد الناصر الى القمة قد جعلته في مركز الائق من سلامة رأيه وصحة رؤيته»^(١١).

تلك الشعبية الجارفة، مضافاً إليها الخنوع التقليدي للمصريين تجاه الحاكم، مضافاً اليهما «معاملة من حوله له.. التي وصلت إلى درجة التآلية»^(١٢) جعلت «عبد الناصر يحكم» بخطته وأسلوبه وفلسفته (ينفرد برأيه) وجعلت معاونيه ووزرائه «مقيدين محرومين من أبداء الرأي»^(١٣).

وفي حضرة الزعيم، وهو الحاضر في كل مكان وكل صعيد من أصعدة الحياة العامة، لم يعد هناك مكان لأحد. فالشعب مستبعد تماماً من ممارسة أي نشاط سياسي حقيقي خلا النشاط المزيف المتمثل في تصرفات الواجهة السياسية للنظام، «الاتحاد الاشتراكي»، وليس له أي دور في تسيير شؤون، اللهم الا من خلال الادعاء بوجود تمثيل نيابي له بفضل وجود البرلمان المزيف الذي عرف باسم «مجلس الأمة» ثم «مجلس الشعب». وبهذا الغياب الكامل للجماهير، كما سميت دائماً بورع بالغ، تركزت في قبضة الزعيم كل سلطات الجهاز التنفيذي (الحكومة)، وكل شرعية وصلاحيات السلطة التشريعية (البرلمان). ولم يبق الا السلطة الثالثة، السلطة القضائية، والسلطة الرابعة، الصحافة.

(١/٦ هـ) - مجلس الغمة

كان مجلس الغمة (الامة - ومعذرة من القاريء لاصرار على تلك التسمية مرجعه الوعي بور الخديعة المتمثلة في الادعاء بأن ذلك المجلس شكل تمثيلاً نيبياً) ضرورة فاشية من ضرورات النظام استخدمت في اختلاقه صيغة تحالف قوى الشعب العاملة وهي نفس الصيغة التي انبنى عليها الفاشي الايطالي والنظام النازي الالماني، وكان لكل منهما مجلس عمته الخاص به، مجلس النوار حالة النظام الايطالي، والرايخستاغ، في حالة النظام الالماني وبطبيعة الحال، ليس من المقبول ان يسمح نظام ديكتاتوري قائم على اشد أشكال الحكم الفردي ضراوة وتمسكاً بوحداوية الزعيم من أناس يمكن أن يركبوا رؤوسهم ويخالفوا الزعيم الراي أو يجنوا فيتصوروا أن من حقهم كممثلين لا أن يناقشوا الزعيم أو يحاسبوه. فمن المحتم أن يكون «النواب» في ذلك الضرب من التهريج الفاشي تحركها خيوط من قمة النظام

ويحكي لنا أحمد حمروش ما حدث عندما بدأت مسرحية تشكيل «برلمان» لمصر بعد «ثورة يوليو»

«زرع الضباط في أول برلمان منتخب بعد ٢٢ يوليو/ تموز صدرت التعليمات لعدد من الضباط من أنفسهم في دوائر معينة، حتى في الدوائر البعيدة مثل الوادي الجديد (محمد اسو مار) (١)، وسياء (رق)، ومرسي مطروح (فؤاد المهداوي)، وشكلت لجنة خاصة من العسكريين صممت ركيزاً محي الدين صبري، وعدداً من ضباط المخابرات (١) لقرار الترشيحات للمجلس واستبعاد الدين لا يتلاءمون مع السلطة العسكرية (الحاكمة) وقد استبعدت نتيجة لذلك عدد كبير من المرشحين ولم تكن المسألة ادخال الضباط في المجلس، بل ادخال الضباط الموالين والسائرين في ركب السلطة، تحسباً للمعارضة قصى، منذ البداية، على فرصة وجود معارضة، واستخدم في ذلك الحق الذي اعطاه «الدستور» للاتحاد بالاعتراض على المرشحين وقد اعترض على ١١٨٨ مرشحاً من حملة ٢٥٠٨ مرشحين (اي على ٤٧/ حازوا بترشيح أنفسهم)

وكان عدد الدوائر التي أغلقت ٤٣ دائرة، وعدد الضباط من الجيش والبوليس الذين دخلوا مجلس ٥٩ ضابطاً، وانتخب عبد اللطيف البعدادي رئيساً للمجلس، وأبور السادات وكيلأ له وقد أصغى مجلس الامة شرعية ديموقراطية على نظام الحكم، لكنه ظل في مصمومه عسكرياً والعسكريون فيه على زمام السلطة التي اصحت مركزة في يد جمال عبد الناصر (٢).

وفيما بعد، عندما ورث أنور السادات وضع الزعيم وسلطته الشاملة الكاسحة، ظل يتحدث بورع، عن مدى ولعه بالديموقراطية وشدة حرصه عليها، وكان السادات هو الذي كشف عن بوعية الديموقراطية الممثلة في مجلس من الأذنان والتوابيع والمنتفعين ذهب هو على رأسه يوم ٢٩ مايو/ ١٩٦٧ الى قصر الزعيم ليعطيه تفويضاً كاملاً من «نواب الامة» بأن يفعل بمصر ما قد يتراءى له.

وعندما تحول مجلس «الامة» الى مجلس الشعب، وخرج الشعب الى الشوارع صارحاً من الفقر أسماء السادات بـ «انتفاضة الحرامية»، يخبرنا مؤرخ السادات وصفيه والناطق بلسانه، موسى صبي أن «أعضاء مجلس الشعب تهربوا من مواجهة الموقف ولم يقابلوا أي مسيرة» (من مسيرات الش الجائع الذي وضعهم تحت قبة «البرلمان»). ويصيف موسى صبري الى ذلك قولاً كاشفاً آخر يفصح أن تلك المسيرات التي تهرب من مقابلتها نواب الشعب، وضربتها السلطة بالنار وسلطة الشرطة، كحركة شعبية خطيرة على النظام جعلت «قيادات الأمن تهتر، وجعلت أحد كبار المسؤولين عن الأمر القاهرة يقول لوزير الداخلية «العملية راحت خلاص»^(٣) وعندما نوقشت فكرة الاستعانة بالقوات المسلحة اجتماع بين رئيس الوزراء ووزير الداخلية (بينما السادات لائذ باستراحته بعيداً في الجنوب، بأسو استعداداً للهرب الى أميركا عن طريق السودان اذا ما تبين أن العملية راحت فعلاً وأن العزبة خرجت يد الزعيم) كانت هناك خشية أن ينضم أفراد من القوات المسلحة أو الشرطة الى المتظاهرين^(٤).

وفي غمار ذلك، لاذ «نواب الشعب» بجحورهم فهم يعلمون جيداً أنهم لا يمثلون أحداً^(٥). ويدرك

(*) «كانت قيادة الثورة على حذر دائم من ناحية حرية العمل السياسي والتنظيمي للعمال والفلاحين فقيادات الع استمرت في أماكنها عدة سنوات دون انتخابات للتجديد خشية ظهور عناصر تكون أقل التزاماً وخصوعاً للثورة وأكثر حي وتعبيراً عن مصالح الطبقة العاملة

هم مجرد خدم وتوابع تزحف تحت مائدة الزعيم. وقد كان الزعيم في أسوان. ولم يقل لهم أحد ما الذي أن عليهم أن يفعلوه أو يقولوه فلا يطأهم الزعيم بحذائه وهم تحت مائدته، ولذلك «تهربوا من مواجهة موقف».

(١/٦/و). مذبةة الهينة القضاية

أخطر عدو لقوى الفوضى والطفغان هو القانون. وفي البلدان التي نضجت سياسياً، يقتزن الحرص على ديموقراطية دائماً بالحرص على سيادة القانون. وليس في الأمر ما يتطلب الاكثار من الحجج أو سوق براهين. فالسد المنيع ضد الغابة ظل، على مر عصور التاريخ، القانون وكلما ضعف ذلك السد أو انهار أصابته تفسخات، تسربت الغابة وافتششت الأرض، واجتاحت كل تمدين وحرية. فبغير القانون لا جود لحياة انسانية متحضرة تستحق أن تعاش.

لكن قوى الفوضى والطفغان عندما تستولي على السلطة وتتربع في مقاعد الحكم، تصبح محتاجة الى قانون. وذلك هو ما فطن اليه هتلر من قبل استيلائه على السلطة، فأصر باستمرار على وجوب اصطناع شرعية.

«عندما أعيد تشكيل الحزب النازي في فبراير/شباط ١٩٢٥، حدد هتلر لنفسه هدفين. كان أولهما فرص سيطرته المطلقة على الحزب بطرد كل من لم يبد استعداداً للقبول برعامته بلا أدنى تساؤل وكان الهدف الثاني بناء الحرب بشكل يجعله قوة لها وزن في الحياة السياسية لألمانيا. في إطار الدستور ويروي لسودكه * حديثاً دار بينه وبين هتلر وقت أن كان سجيناً في سجن لاندزبرج، قال هتلر أثناءه «عندما استأنف العمل في بناء الحرب سيصبح من المتعبر انتهاج سياسة حديدة مغايرة لما كنا مفكر فيه قبلاً فبدلاً من العمل على الوصول الى السلطة بانقلاب مسلح، سيسعى عليا أن نسد أبوابنا بأصابعنا (اتقاء لرائحة الشرعية الكريهة) وندخل الرايخستاج ضد النواب الكاثوليك والشيوعيين عن طريق الانتخاب وان استغرق الانتصار عليهم انتحائياً أطول مما قد يستغرقه التغلب عليهم بالعنف، فإن النتيجة ستكون مكفولة بحكم دستورهم ذاته فالعملية القانونية بطيئة، لكنها - طال الزمن أو قصر - ستصبح الأغلبية، وبعد ذلك ستصبح ألمانيا لنا» (٢٧)

ويعلق آلان بولوك على ذلك بقوله:

«غير أن كلام هتلر عن الشرعية كان من قبيل اصناف الحقائق. فالشرعية، فيما يخصه، كانت مجرد جيلة للاستيلاء على السلطة ثم بخرس، وخدعة تقع الجبرالات وغيرهم من حماة الدولة بتسليمه السلطة بدلاً من أن يضطر الى انتزاعها قسراً. فالذي كان هتلر يتحدث عنه كان تكنكة بالشرعية. لأن كل ما تعلق بحركته كان مفصلاً بجلاء عن ازراء صفيق للقانون» (٢٨)

وقد فسر هتلر، في خطاب مفتوح بتاريخ ١٢ ديسمبر/كانون الاول سنة ١٩٢١، تصوره للشرعية وحكم قانون، وكان الخطاب موجهاً الى هاينريش برونينج، مستشار الرايخ في ذلك الوقت:

«انك، ايها الهر المستشار، ترفض - كرجل دولة - التسليم بأنا ادا ما وصلنا (بحر الازايين) الى الحكم عن طريق الشرعية، سيصبح من حقنا أن نخترق حاجز الشرعية. وانت في ذلك تنسى يا سيدي المستشار أن القضية الجوهرية للديموقراطية تقوم على أن «الشعب مصدر كل السلطات». والدستور ذاته يحدد الطريقة التي يمكن بها لأي مفهوم أو فكرة، وبالتالي أي تنظيم، الحصول على الشرعية من خلال قبول الشعب بتحقيق أهداف المفهوم أو الفكرة أو مرامي التنظيم. ولا يجب أن ننسى أن الشعب، في التحليل النهائي، هو الذي يملئ الدستور» (٢٩).

كذلك ترك الفلاحون يمارسون دورهم التاريخي الذي امتد آلاف السنين في فلاحه الأرض، دون أن تتاح لهم فرصة التجميع تنظيمات ونقابات واتحادات معبرة عن مصالحهم الحقيقية تحت قيادات شرعية منتخبة منهم في ديموقراطية كاملة رغم حرص قيادة الثورة على وجود نسبة ٥٠٪ من العمال والفلاحين في مجلس الأمة وبعض مستويات الاتحاد الاشتراكي تنظيمية. إلا أن هذه العناصر لم تكن مفرزة بطريقة ديموقراطية، ولم تكن تحتل مواقعها بإرادة الجماهير، وإنما برضاء سلطات العليا في الاتحاد الاشتراكي أو أجهزة الدولة، وبذا فهي لم تكن تؤدي دوراً معبراً عن مصالح طبقتها. يلاحظ أيضاً أن الاتحاد الاشتراكي بقي، منذ تشكيله عام ١٩٦٢، إلى ما بعد صدور بيان ٣٠ مارس/أذار ١٩٦٨، وهو ير لجنة مركزية أو لجنة تنفيذية عليا. كانت هناك أمانة فقط لا تصدر أي نوع من القرارات، بل تثير أسئلة فقط يرد عليها بال عبد الناصر وينتهي الموضوع. «وكانت خطب جمال عبد الناصر ومناقشاته هي مؤشر التوجيه».

(احمد حمروش «خريف عبد الناصر»، ص ٧٠/٧١).

Kurt Ludecke: «I Knew Hitler» London, 1939. (

قتل مصر

وبهذه الإشارة الى كون «الشعب مصدر كل السلطات»، سبق هتلر في الواقع شعارات «الشعب القائد» و«الشعب المعلم» بأجيال، وبحديثه عن الشرعية و«اختراق حاجز الشرعية»، وضع الأساس «الفقهي» للفاشية فيما يخص علاقتها بالقانون

وفيما يخص «تورة يوليو»، لم تلجأ المجموعة العسكرية التي قامت بها الى تكتيكات الشرعية التي لجأ اليها النازيون للاستيلاء على السلطة، بل ذهبت الى غايتها رأساً واستولت على السلطة بانقلاب عسكري. غير أن «مجلس قيادة الثورة» لم يكد يستقر في مقاعد الحكم حتى بدأ يفتن الى ذلك الغريم الخطر المسمى بالقانون وكان أول اصطدام بالغريم في واقعة مجلس الدولة التي قامت خلالها عناصر من «الشعب مصدر السلطات» بقيادة ضباط من المخابرات بتأديب الدكتور السنهوري وأعضاء مجلس الدولة تأديباً شعبياً أصيلاً. أما الاصطدام التالي، فلم يأخذ ذلك الشكل الشارعي (سبة الى الشارع) بل اتخذ الشكل «الدستوري»، إذ أخرى عن طريق ممارسة السيد الرئيس لسلطاته التي منحها لنفسه في الدستور الذي أعطاه للشعب شكل الرئيس لجنة عليا «لجنة من قمة السلطة، برئاسة أسور السادات، وعضوية شعراوي جمعة، وأمين هويدي، وسامي شرف، وعمر الشريف، المستشار القانوني لرئاسة الجمهورية.. وفوجيء الناس يوم ٢١ أغسطس/ آب ١٩٦٩ بصدور أربعة «قوانين» باعادة تشكيل الهيئات القضائية، وتعديل قانون مجلس نادي القضاة. وعندما أعيد تشكيل الهيئات القضائية من جديد، تجاوز التشكيل ١٨٩ من رجال القضاء من بينهم رئيس محكمة النقض و١٥ مستشاراً بمحكمة النقض، وكل أعضاء نادي القضاة»^(١).

فصل الزعيم بجرة قلم، بإشارة من أصبحه، كل قضاة مصر، وعندما أعاد «تشكيل السلطة القضائية» طرد من جناته ١٨٩ من كبار رجال القضاء. ويقول أحمد حمروش، رغم ما يديه من استغراب واستياء واضح لهذه الواقعة الملتاثرة بجنون القوة، أن الزعيم قد يكون استشير «واعتبر أن ما يقوم به بعض القضاة نوع من التخريب الذي كان قد صبر عليه سنة كاملة»^(٢).

وكانت أعمال التخريب متمثلة في جنوح بعض القضاة الى إصدار أحكام أملاها القانون والضمير رغم تعارضها مع رغبات السلطة الحاكمة ومصالحها وسمعة بعض أعضاء النظام. وبطبيعة الحال، لم يشر أحد في كل ذلك الى «حادث سقوط» المستشار لطف الله من فوق سطح العمارة التي كان يقيم بأحد مساكنها بشارع الخليفة المأمون بمشية البكري، على بعد أمتار من بيت الزعيم، وتهشم جسده المسكين ورأسه العنيد المتسمك بقداصة القانون على أرض الشارع. لكن البعض، كحمروش، أشار الى ما جاء في بيان لنادي القضاة تلي على الحاضرين في اجتماع الجمعية العمومية للنادي يوم ٢٨ مارس/ آذار ١٩٦٨، واستقبله القضاة أعضاء النادي بالتصفيق الشديد:

«وبعض كلمات البيان لا يمكن أن يعترض عليها أحد، فقد دعت الى أن «ما أحد بالقوة لا يسترد إلا بالقوة» (لكن البيان أكد أيضاً) أنه لا بد من صون مبدأ الشرعية الذي يعني بالدرجة الأولى كفالة الحريات لكل المواطنين وسيادة القانون على الحكام والمحكومين على السواء، وضرورة سيادة القانون واستقلال القضاء»^(٣).

وهذا كلام حطر ما من شك في أن الرئيس استشير بسببه وربما كان من أسباب استياء الرئيس وغضبه أيضاً أن أولئك القضاة قالوا في بيانهم أن «ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة» وهذا هو الشعار الذي رفعه الزعيم عالياً بعد الهزيمة في سنة ١٩٦٧ ليؤكد أنه كان جاهداً في استرداد ما ضاع وأخذه الاسرائيليون. الا أن عقلية الزعيم التأميرية وحساسيته الأمنية قد تكونان سبباً في أنه تصور أن استخدام القضاة لذلك الشعار، وهم رجال قانون وليسوا رجال طعن ونزال وأسوداً في حومة الوغى، كان ضرباً من «اللؤم» وتحريضاً للسادة المواطنين على اعلان العصيان وشق عصا الطاعة لاسترداد ما أخذ منهم بالقوة وهو الحرية وسيادة القانون والمساواة أمامه بين الحاكم والمحكوم وكل تلك الاشياء المربية التي تحدث عنه أولئك القضاة الخبيثاء في بيانهم المشبوه

ومن المحتمل كثيراً أن يكون ما قاله القضاة في بيانهم عن «رفض منح سلطة الحكم الى غير القضاة المتخصصين المتفرغين» قد قوي الشعور لدى الزعيم بأن أولئك القضاة كانوا يعدون له «ثورة مضادة ويمارسون ضرباً مستكناً خبيثاً من التخريب وينخرون في أسس النظام. ومن الغريب أن أحمد حمروش

جنح في كلامه عن هذه النقطة بالذات الى نوع من «الاستعباط» الغريب. فقد قال أن هذا الكلام في بيان القضاة مثير للجدل لأنه بمثابة «رفض لمبدأ اشراك الشعب في القضاء، ذلك المبدأ المعروف في بعض دول الغرب بنظام المحلفين والمعروف في الدول الاشتراكية وكذلك رفض الانضمام الى الاتحاد الاشتراكي»^(١٢) و«الاستعباط» أو ادعاء العبط واضح هنا في أن «المحلفين» في بعض دول الغرب لا يمارسون «سلطة اصدار الاحكام»، وكل دورهم أنهم يصفون لما يقدمه الاتهام والدفاع من أدلة ثم يستمعون جيداً لتلخيص القاضي، ويقررون ما اذا كان المتهم مذنباً أو غير مذنب. وذلك ما يعرفه أحمد حمروش جيداً، ويعرفه بغير تلك القضاة المصريون الذين يعرفون أيضاً أنه لا مكان له في النظام القضائي المصري المنبني على أسس تشريعية لا تأخذ بنظام المحلفين وتبعاً لذلك، لم تكن بالقضاة المصريين حاجة لقطع الطريق على نظام يعرفون سلفاً أنه لا مكان له في التشريع المصري أما الذي عناه القضاة واعتبره الزعيم «ثورة مضادة» وتخريباً، فكان متعلقاً بميل الثورة الى تجاوز القضاء والدوران حول القانون باختلاق «محاكم خاصة» غوغانية في الواقع لنظر ما دعاه حمروش بـ «القضايا التي تحتاج الى رؤية وأحكام سياسية - من وجهة نظر الثورة - وقد أوكلت تلك القضايا الى محاكم خاصة رأسها بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة، مثل «محكمة الثورة» برئاسة عبد اللطيف بغدادى وعضوية أنور السادات وحسن ابراهيم، و«محكمة الشعب» لمحاكمة الاخوان المسلمين، برئاسة جمال سالم، وعضوية أنور السادات، وحسين الشافعى، ثم المحاكم العسكرية التي حاكت الشيوعيين وغيرهم من السياسيين ورأسها ضباط من الجيش كان أشهرهم الفريق محمد فؤاد الدجوي»^(١٣)

فالذي أراد القضاة في بيانهم الشجاع تحريمه، وربما تجريمه لو استطاعوا، كان أسلوب تشكيل ما يعرف في الغرب باسم محاكم القنغر ('Kangaroo Courts')، المحاكم الغوغائية التي «تأخذ القانون في أيديها» وتصدر «أحكاماً» ليس من حق أحد من المستركرين فيها أن يتصدى لإصدارها وفي كل تلك المحاكم الغوغائية، كما نلاحظ، كان الرئيس الديموقراطي المؤمن بشرعية القانون و«دولة المؤسسات» (فيما بعد)، محمد أنور السادات، عضواً دائماً ونجماً ساطعاً من نجم تلك المحاكم التي كانت تعمل على نسق الانتاج بالجملة (Mass Production) في تصفية خصوم الزعيم وأعداء النظام ورغم ما كتب دائماً - عن حق فيما تنبىء مواقف عبد الناصر - عن عروفه عن إراقة الدماء، فإن تلك المحاكمات العوغائية (والتي لم يكن هناك ما يدعو الى اجرائها أمام «محاكم خاصة» لو تكاملت للادعاء العناصر القانونية التي تنتهي المحاكم الحقيقية من النظر فيها الى إصدار احكام بالادانة) تمخضت عن كمية لا بأس بها من الدماء.

فقد وحد أولئك الضباط أنفسهم فجأة في وضع سمح لهم بممارسة سلطة الحياة والموت على رقاب المصريين، وطاش صواب عدد منهم لذلك الشعور بالقوة التي لا تحد ويروي خالد محي الدين، الذي ظل من تلك الزمرة العسكرية كلها أقرب افرادها الى التعامل السوي مع الواقع، كيف «شكلت» محكمة الثورة «بعد أن أعلن صلاح سالم أمر وثيقة ثبت أنها مدسوسة من المخابرات البريطانية»، وكيف أن تلك المحكمة «أعلنت حكمها الأول، برئاسة عبد اللطيف البغدادي، باعدام ابراهيم عبد الهادي»، وكيف تباعد محمد نجيب «ذهاباً الى الاسكندرية رافضاً التصديق على الحكم الذي لم أوافق عليه أنا أيضاً ولم يوافق عليه جمال عبد الناصر» وكيف أن عبد الناصر «اختلف مع صلاح سالم بسبب اعلانه تلك الوثيقة (المدسوسة) قائلاً أن ذلك سيخرج الحركة كلها»^(١٤).

ومن هذه الشهادة، يتبين مرة أخرى عزوف عبد الناصر، بقدر كبير من الحكمة وبعد النظر، عن السير على خط العنف وإراقة الدماء، ويتبين أيضاً وجود تيار قوي بين الضباط الذين قاموا بالحركة صوب ذلك الخط، كما يتبين أن أنور السادات - الذي اتخذ بعد استيلائه على الرئاسة صورة الحاكم المستنير غير المستبد المحب للحرية والديموقراطية وكل تلك الأشياء التي يستجلب التشديق بها رضاء الأميركيين - كان هناك دائماً في قلب كل تلك المحاكمات العوغائية، بحكم عضويته في «محكمة الثورة» و«محكمة الشعب».

وقد يكون عبد الناصر عازفاً عن العنف - عن حكمة وبعد نظر كما قلنا، فروبسيير نفسه أكلته المقصلة التي حول فرنسا بها الى بحر من الدماء في عهد الارهاب - لكنه، بغير شك، لم يكن عازفاً عن

جعل مشينته قانون مصر وجعل كلمته الفيصل في كل شأن من شؤونها ولذلك كانت «مذبحة القضاء» التي لم تتمخض عن إراقة دماء، لكنها - بغير شك - أريقت فيها دماء العدالة ذاتها وأهدر سلطان القانور ومرغت وجوه القضاة الدين لم يقولوا «أمين» في التراب

(١/٦ ز) - الاستيلاء على السلطة الرابعة

وبإخصاء القضاء وإهدار سلطان القانور، وضع الزعيم السلطات الثلاث تحت مقعده السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية. والسلطة القضائية، وتحققت له بذلك الوحداية المطلقة، بات هو الدولة، وهو الشعب. وهو الحكومة، وهو القانور وبقيت «السلطة الرابعة»، كما تسمى أحياناً على سبيل التساعر، أي الصحافة وغيرها من وسائط الاعلام وأدوات صنع «الرأي» والتعتيم والتضليل وهتك العقل. ولقد كانت النظم الفاشية والنازية في أوروبا سبابة الى الوعي بأهمية تلك الوسائط والأدوات. فالفاشية والنازية وكل نظم الحكم الاستبدادي المطلق لا سبيل الى أن تقوم لها قائمة الا بخلق عالم من الوهم يغمس الشعب فيه ويظل واقعاً تحت وطأة حملة لا تهدأ من العوغة والتضليل والكذب واستثارة أحط النوازع وأقربها الى الغرائز الحيوانية. فمهما كان النظام من النظم ضارياً وقوياً عسكرياً ومسلحاً بأجهزته الأمنية، لا سبيل له الى البقاء والاستمرار الا بتحويل جماهير الشعب وكل السكان في الواقع الى قطعان شبه منومة مغناطيسياً شبه مخدرة بجرعات متلاحقة من الكذب والغوغة والتضليل تضخها وسائط الاعلام في عقولها ليل نهار بلا انقطاع. وكما قلنا قبلاً، واصل النظام تلك العملية - بحكم الاندفاع الذاتي ربما، وبحكم الحيرة والارتباك والتحبط أيضاً - في عنفوان مذبحة ١٩٦٧، وبدلاً من أن تعلن الحقائق ولو على دفعات، تساقطت طائرات العدو كالذباب، على موجات الأثير.

لهذا كان من المتعين على «الثورة» أن تستولي على «السلطة الرابعة» وكانت الصحافة ما زالت حتى ذلك الوقت ملكاً لأصحابها حرة في تصرفاتها وتوجهاتها بعد أن ألغيت الرقابة تماماً بعد سنة ١٩٥٦ (اطمئناناً الى ما حققه اندحار مخطط العدوان الثلاثي من شعبية فائقة للزعيم) لكنه لم يكن مرضياً لطبيعة النظام أن تنفرد بعض الصحف باتجاهات لا تسير رغبة قيادة الثورة في «تغيير المجتمع». وكان الوضع مثيراً للدهشة فعلاً فكل أجهزة الدولة تعرضت للتطهير مع بداية الثورة، حتى الحيش نفسه، وأخرج الذين أحاطت بهم الشبهات أو اعتبروا في موقف عداء (من الثورة) لكن الصحافة ظلت ملكاً لمن كانوا يملكونها قبل الثورة، فلن تحدث مصادرة ولا تأميم خارج نطاق قانون الاصلاح الزراعي.. غير أن قيادة الثورة تريد أن تشق طريقاً خاصاً، وأجهزة الاعلام والصحافة هي مدفعيتها الثقيلة. وكانت الصحافة المصرية التي تعتبر من «أجهزة الدعاية» (١) شديدة التأثير في العالم العربي قد ظلت بعيداً عن التجاوب الحقيقي الفعال مع «أفكار الثورة المتوهجة» (١)، خاصة وأن الرقابة كانت قد ألغيت تماماً عام ١٩٥٦.. لذلك لم تكتف الثورة بما أصدرته من صحف ومجلات أسبوعية وشهرية*، فتقرر تنظيم

(*) أصدرت «الثورة» عدداً من الصحف والمجلات وضعت رئاستها وتحريرها في أيدي الصباط الذين ظهر ببوعهم الصحفي وتفتحهم الثقافي مجاة «الشعب» - التي ضمت فيما بعد الى «الجمهورية» - تولى رئاستها صلاح سالم، و «المساء» رأس تحريرها خالد محي الدين و «الجمهورية»، تشرفت برئاسة أنور السادات لها. وبذلك «الاشتغال بالصحافة»، التقى مسار السادات بمسار بيتوموسوليني، الذي عمل هو الآخر «صحفياً» قبل أن يستولي على ايطاليا ديكتاتوراً، وبعد السادات، تولى «الجمهورية» برعايته الصاغ محسن عبد الحالق، ثم القانمقام عبد الرؤوف نافع، ثم الصاغ صلاح سالم

ومن المحلات، أصدرت «الثورة» مجلة «التحرير»، وتشرفت برئاسة السيد الأستاذ الدكتور ثروت عكاشة، ومن بعده - بعد ضمها الى دار الجمهورية - أنور السادات كما صدرت مجلة «الثورة» لتكون لسان حال «منظمات الشباب»، ورأس تحريرها الصاغ وحيد الدين جودة رمضان كما أصدرت «بناء الوطن»، ورأسها الضابط أمين شاكر، و «الفجر» ورأسها الضابط أحمد حمروش

ويقول حمروش أن «كل الصحف والمجلات التي صدرت عن الحكومة رأسها عسكريون» وأن «العسكريين تولوا المراكز الحساسة في توجيه الرأي العام، لأن جمال عبد الناصر حرص دائماً على وضع العسكريين في رئاسة مجالس إدارات الصحف ورئاسة تحريرها. وربما حطر لدارس جاد لتطور الصحافة في مصر أن يعد بحثاً أكاديمياً عن الدور الذي لعبه العسكريون في تدمير الصحافة في مصر، والمجرات التي حققوها في إفساد العقل المصري وتشويه رؤية السادة المواطنين لما ظل يحدث لهم وللغربة التي اقتنوا فيها قطعاناً

الصحافة في سبتمبر/أيلول ١٩٦٠، أي تملكها للاتحاد القومي واعطائه «سلطة الاشراف عليها»^(١)، وكان ذلك من مؤشرات التأميم المبكرة مثل بنك مصر الذي أمم أيضاً هو والبنك الأهلي في ١١ فبراير/شباط (١٩٦٠)^(٢).

والغريب أن حمروش الذي أصر في كل تاريخه لـ «الثورة» على أن يندب «غياب الأيديولوجية والافتقار الى الفكر، والذي وصف المرحلة التي «أمت» فيها الصحافة بأنها «اتسمت بعدم توافر الوضوح لشيء، وغلبة الحيرة على كل شيء، واختلاط الأمور الفرعية بالأمور الرئيسية، وغلبة الوعي بصراع القوى الاجتماعية»^(٣) وجد من الممكن الحكم عن «أفكار الثورة المتوهجة» التي قصرت الصحافة دور التجاوب معها، ثم وضع «تأميم» الصحافة على قدم مساواة مع تأميم بنك مصر والبنك الأهلي

وكانت الأسباب التي تعللت بها «الثورة» في عملية «تنظيم الصحافة» متعددة ومتضاربة فعبد الناصر عقد اجتماعاً لرؤساء تحرير الصحف وانتقد الصحافة بشدة لأنها «دأبت على نشر أخبار الطبقة البورجوازية في نوادي القاهرة وانصرفت عن نشر أخبار الفلاحين والكادحين» وكانت المجلات - ككل مجلات العالم، والمجلات المصرية والعربية الآن - تنشر صفحة «اجتماعيات» ولم يكن لـ «الفلاحين والكادحين» أي دور أو تواجد سياسي أو اجتماعي في ظل «الثورة» يجعلهم مادة اخبارية فوق أن الصحف والمجلات التي اهتمت بأخبار «الكادحين» و«الفلاحين»، من زاوية يسارية أغلقت وصودرت. وبذلك بدا واضحاً لما كان قد بقي دون اطلاق أو مصادرة من الصحف والمجلات أن أخبار الفلاحين والكادحين هذه خطيرة للغاية، فتجنبها رؤساء التحرير اتقاء لارتكاب خطأ ما أو اغضاب أحد من «السادة المسؤولين» لكن ذلك لم يدخل في حساب الزعيم الذي كان قد قرر «تأميم» الصحافة ونقل ملكيتها الى «الشعب» أي اليه هو، لهذا السبب الوجيه: «ان بلدنا هي كفر البطيخ والي عايز يكتب عن بلدنا يروح هناك ويشوف الناس اللي لابسين برانيط قش الأرز طول النهار علشان يعيشوا كنت أفضل بدلا من الكلام اللي من هذا النوع عن السيدات أن يكتب عن العاملات فقط فيه عاملات طلوعوا يأكلوا عيش بعرق جبينهم ويكافحوا بشجاعة وشرف»

ونظراً لعدم اهتمام الصحافة بكفر البطيخ والعاملات اللواتي خرجن ليأكلن عيشاً بعرق جبينهن ويكافحن بشجاعة وشرف، شكلت مجالس ادارات جديدة للصحف بعد «نقل ملكيتها الى الشعب». وعين محمد حسنين هيكل رئيساً لمؤسسة الاهرام، ومؤسسة دار الهلال بعد ضمها الى مؤسسة الاهرام، وتولى رئاسة مؤسسة أخبار اليوم. وتولى منصب العضو المنتدب للمؤسسات الصحفية ضباط القانمقام عبد الرؤوف نافع في دار الهلال، ويوسف السباعي في روز اليوسف وكانت روز اليوسف هي التي فجرت تحت عرش الملك قضية الاسلحة الفاسدة، فلم تكن من «صحف العهد البائد»، بل كانت - على طول تاريخها - متصفة بطول اللسان والجرأة وعدم المهادنة في نقد السلطة، لكنها - كما يقول أحمد حمروش - كانت داراً صحفية «لا يمكن - بأرائها السياسية وأسلوبها الصحفي المتميز بالنقد أن تكون تابعة (للزعيم والنظام) في سكون»^(٤). وحمروش على حق. فالمعيار الجوهري كان «التبعية في سكون». وينقل ملكية الصحافة الى «الشعب» وتمليكها للزعيم ووضع الضباط على رأس اداراتها وتحريرها، أمنت «الثورة» السلطة الرابعة، كما أمنت السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية، وبات كل شيء في يد الزعيم، وباتت ارادة الزعيم القانون المطلق لكل مصر. «وكان الجميع قد باتوا ينظرون الى جمال عبد الناصر نظرتهم الى الزعيم الذي أصبحت المسافة بينه وبينهم شاسعة»^(٥). فالبعد بينه وبين الجميع كان قد أصبح كالمسافة ما بين السماء، حيث الإله الواحد الأحد الذي لا مشيئة الا مشيئته ولا كلمة الا كلمته، وبين الأرض، حيث المخلوقات الفانية التي تأتمر بأمره وتستسلم لمشيئته ولا تطلب الا عدم. اثارة غضبه.

ولقد كانت مشكلة «حرية الصحافة» دائماً مشكلة بالغة الأهمية بالنسبة لأي زعيم واحد أحد. فالزعيم يتطلب من رعيته، كيما تكتمل زعامته وتحقق، أن تكون به كتلة هلامية مدمجة في بعضها البعض، منضبطة انضباطاً عسكرياً صارماً، ومطيعه. لأن الزعيم لا وقت لديه يضيعه على محاولة الاستجابة لما تمليه اختلافات المصالح بين المحكومين، والأهم من ذلك أنه لا فكر لديه ولا أيديولوجية يتعامل بها مع تلك

المصالح. «وكان جمال عبد الناصر يعتمد على «تأييد الشعب» (على انضباط الشعب) كما يعتمد على (انضباط) الجيش ولم يجد في ذلك تناقضاً فالجيش طيع بين يديه، والشعب مؤمن به (مطيع له) ولقد كان بوسع جمال عبد الناصر في هذه المرحلة أن يفتح الطريق أمام القوى الوطنية والديموقراطية، وأن يبني أسس النظام على حريات تؤمّن مستقبه، وكان متاحاً له أن يستوعب الطبقات المختلفة في جبهة وطنية (موحدة) بعد الاعتراف بكياناتها المستقلة على غير الأسس الحزبية القديمة. كان (الزعيم) قادراً خلال هذه المرحلة على تجميع القوى مختلفة الاتجاهات والمواقع السياسية والاجتماعية والطبقية، وله في ذلك تجربة ناجحة هي قيادته لتنظيم الضباط الأحرار وهم من اتجاهات سياسية واجتماعية مختلفة. لكنه أثر أن يطور المجتمع بأجهزته الخاصة وشعبيته الهائلة. وقد وصل (الزعيم) الى براعة تكتيكية في مواجهة المتناكر والمواقف اليومية، لكنه لم يحدد بعد خطأ استراتيجياً، ولم يضع برنامجاً نظرياً. والموقف الداخلي في المجتمع ليس مستقراً بما يعرض أيديولوجية معينة، والقيادة (الزعيم) في حركتها اليومية تختار الطريق البسيط (الأسهل والأيسر) ولا تعتبر غياب الأيديولوجية قضية رئيسية»^(٧).

وذلك - تحديداً - هو ما حدث لهتلر عندما استولى على السلطة وبدأ يفكر في تنظيم ألمانيا. فالتاريخ يوقفنا على أن ذلك الزعيم اعتبر الدولة أداة للسلطة من أهم خواصها خواص «الانضباط، والوحدة، والتضحية» وأن المثال الذي وضعه نصب عينيه لتنظيمها كان تجييشها، أي تحويلها الى فيالق يحكمها الانضباط العسكري

وتبعاً لرؤية هتلر، تمثل ضعف الديمقراطية في أنها تترك اتخاذ القرارات للأغلبية المجهولة المبهمة، وتتجنب بذلك مسؤولية اتخاذ من بالسلطة للقرارات الصعبة أو التي لا تتقبلها الجماهير. وتبعاً لتلك الرؤية، مثل نظام تعدد الأحزاب ومثلت حرية الصحافة وحرية المناقشة أخطر العوامل التي أدت الى استنزاف وحدة الأمة في أي بلد أخذ بالنظام الديموقراطي. وقد وصف هتلر عملية مناقشة الآراء والقرارات بأنها عملية لا نتيجة لها الا التآكل والتحات. وعلى هذا الأساس، كان قوله لمنظمات الشباب الهتلري «يجب علينا أن نتعلم هذا الدرس، وهو أننا يجب أن تسودنا ارادة واحدة، يجب علينا أن نندمج كلنا في وحدة واحدة، ويجب أن ينتظمنا جميعاً انضباط واحد، ويجب أن تملأنا طاعة واحدة وخضوع واحد، لأننا، كأفراد، تعلو علينا الأمة»^(٨).

وقد كتب أكثر رجالات القانون في ألمانيا النازية، الدكتور هانز فرانك، قائلاً: «إن دستورنا هو ارادة الفوهرر (الزعيم)». وفي ظل ذلك المفهوم، استمتع هتار بقدر من السلطة الفردية المتطرفة فاق أي شيء حازه نابليون، أو ستالين، أو موسوليني، نظراً لأنه عني بألا يسمح بظهور أو بقاء أي مؤسسة يمكن أن تشكل - عند أي طارئ - حراً على سلطته غير أن هتلر عني دائماً، في الوقت، نفسه بالاصرار على أن سلطته نبعث من الشعب. وبذلك الاصرار حكم ألمانيا بديكتاتورية «شعبية» قائمة على الاستفتاء باعتبار ذلك الاستفتاء مهجاً ديموقراطياً أصيلاً وقد أصر هتلر دائماً على أن الرايخ الثالث امتاز بذلك على ألمانيا الامبراطورية «ففي ذلك العهد (البائد) لم يكن لمن قادوا ألمانيا أية جذور شعبية، اذا كانت الدولة دولة طبقية»^(٩) والمشاهد أنه عني، بعد كل خبطة من خبطات سياسته الخارجية باخضاع ما كان قد، اتخذه من اجراءات وما أقدم عليه من تصرفات «لحكم الشعب» في استفتاء وفي الحملة الانتخابية التي أعقبت الغاء معاهدة لوكارنو واعادة احتلال الراينلاند، أعلن هتلر

«إن الرماح في ألمانيا لا ترهب الشعب. فهنا تقوم الحكومة على دعامة الثقة الكاملة التي يوليها اياها الشعب كله. وأنا (الزعيم) حريص على ما فيه خير الشعب الألماني ولقد ظللت أعمل طوال خمسة عشر عاماً وأصعد الى السلطة مع هذه الحركة فأنا لم يعرضني أحد على الشعب. فأنا من الشعب، وقد ظهرت من قلب الشعب، وظللت في الشعب، والى الشعب أعود. ومصدر فخري أنني لا أجد رجل دولة في العالم كله يستطيع أن يدعي لنفسه حقاً حقاً أعظم من حقي في أن يعلن ما أعلنه أنا من أنني ممثل شعبي»^(١٠).

ويعلق الآن بولوك على هذا الكلام بقوله: «أن مثل هذا الكلام يمكن أن يبدو كمبالغة، الا أنه من الواضح أن هتلر كان يشعر - وكان لديه ما يبرر ذلك الشعور - بأنه بالرغم من الجستابو ومعسكرات الاعتقال كان زعيماً قامت سلطته على شعبية هائلة ودعم شعبي حاول الكثيرون انكاره، وما زالوا يكرهون»^(١١).

والى اليوم، ما زال كثيرون مصريين، فيما يخص عبد الناصر، لا على انكار شعبيته، بل على تأكيدها وعلى القول، كما قال حمروش، أن عبد الناصر اختار أن يفعل كل شيء بنفسه، وبطريقته الخاصة التي تمخضت «عن اشتراكية مستعارة للتغيير الداخلي»^(١١) وبأجهزته الخاصة (= الجستابو ومعسكرات الاعتقال والقرارات الجمهورية ومجلس الغمة واخصاء القضاء وامتلاك الصحافة ووسائل الاعلام) معتمداً على «شعبيته الهائلة»

(١١/٦) - تمليك مصر للعسكريين كغنيمة حرب

وإن كان هتلر، اعتماداً على شعبيته، قد عمل على «تحريض» الشعب الألماني وجعل الطاعة والانضباط والتضحية فضائله العليا، فإن الذي حدث في ظل «الثورة» في مصر كان العكس. ففي الوقت الذي ظل الزعيم يؤكد فيه على أن سلطته مستمدة من تأييد الشعب له، استبعد الشعب تماماً من العملية السياسية، وفي محل ممارسة الشعب لحقوقه وسلطاته، وضع ما أسماه «الشيخ عاشور» بـ «مشرح مجلس شعب»^(١٢)، وما قاده أنور السادات يوم ٢٩ مايو/أيار ١٩٦٧ كالخراف من القصر العيني الى قصر القبة لإعطاء تفويض وصك على بياض للزعيم ليفعل بمصر ما تراءى له، واختلق وهم مشاركة «الشعب» في الحياة السياسية عن طريق الاتحاد القومي والاتحاد الاشتراكي وكل تلك التنظيمات «الواجهة»، وهو وهم عمقته ورسخته عمالة «الملتزمين» من «المثقفين» وأكلة العيش من الصحفيين. وبينما «الشعب» الذي بسى الزعيم وحدانيته على طاعته وخضوعه يركل خارجاً بأصرار، وجد الزعيم أن «الجيش ظل مؤسسته الرئيسية، رغم انتصاراته الشعبية، ورغم أنه كان قد بدأ يخلع، مع زملائه، ملابسهم العسكرية بعد انتهاء فترة الانتقال»^(١٣).

وجنباً الى جنب مع دبابات الجيش ومدافعه الرشاشة ومصالح ضباطه، أحاط الزعيم نفسه، زيادة في تأمين موقعه في مواجهة شعب مستسلم خاضع، بالأجهزة والاعتقال. «كان الاعتقال بلا تحقيق، بمجرد أمر اداري بسيط كاد من فرط تكراره (يصبح طريقة حياة). وأجهزة الأمن - ابتداء من ٢٣ يوليو/تموز - بدأت تنمو وتزدهر. ومنذ اللحظة الأولى، قدم الأميركيون خبرتهم ومساعداتهم لتنظيم المخابرات بعد أن كانت في عهد الملك محدودة الأثر محصورة في البوليس السياسي. فقبل ٢٣ يوليو/تموز، لم يكن هناك جهاز أمن يعرف باسم المخابرات العامة، وكان عدد ضباط المخابرات الحربية في الجيش ١٥ ضابطاً فقط، أما عدد ضباط القسم المخصوص بالبوليس السياسي فلم يكن يتجاوز ٢٤ ضابطاً (من الشرطة). وقد استعان زكريا محي الدين بعدد من الخبراء الألمان (وكانوا من بقايا العهد الهتلري) الى جانب (خبراء) وكالة المخابرات المركزية الأميركية.. وفي سنة ١٩٥٥، تحول ضباط المخابرات العامة الى مدنيين، وأنشئ في نفس العام «المعهد الاستراتيجي» بجوار برج القاهرة الذي دفعت وكالة المخابرات المركزية ٢ ملايين دولار ثمن انشائه. وكانت تدرّس في «المعهد الاستراتيجي» محاضرات وكالة المخابرات المركزية عن طريق شركة بوز ألف وهاميلتون، لضباط المخابرات والمباحث وضباط أمن الوزارات وبعض أعضاء السلك الدبلوماسي بوزارة الخارجية، وذلك حسب رواية فريد طولان مدير المعهد في ذلك الوقت.

«وقد كان النموذج الأميركي هو المثال الذي تهتدي به أجهزة المباحث والمخابرات في ذلك الوقت (منتصف الخمسينات)، وقد تسربت أجهزة المخابرات الأميركية الى بعض ضباط هذه الادارات (كيف «تسرب» وهي التي تحاصروهم وتدريبهم؟ - لا يقول).. وقد حدث «التسرب» الأميركي رغم أن وزارة الداخلية لم تحتفظ في المباحث العامة سوى بأربعة ضباط فقط من رجال البوليس السياسي السابقين، ورغم أن العسكريين فرضوا إشرافهم على وزارة الداخلية منذ الايام الأولى (لاستيلاء «الثورة» على الحكم) بل وتولاهما جمال عبد الناصر نفسه اثر اعلان الجمهورية في ١٨ يونيو/حزيران ١٩٥٢. وكان جمال عبد الناصر يعتمد على أجهزة الأمن (رغم أنه) كان يشك في موقعها وخلصها للثورة بل ويشك في احتمال وجود صلة بين بعض ضباطها وأجهزة المخابرات الأجنبية. وقد كانت تلك الشكوك تعيش في نفسه وتنمو مع الوقت ولعل هذا هو الذي دفعه الى الموافقة على تعدد أجهزة الأمن والمخابرات بقيادات مختلفة على أن تصب كافة معلوماتها في النهاية عنده وحده، بل انه أنشأ في مكتبه فيما بعد جهازاً خاصاً للمخابرات والعمليات والاتصالات الخاصة، كان يشرف عليه سكرتيره الخاص للمعلومات سامي شرف دون أي تبعية لأي جهاز آخر من أجهزة الأمن»^(١٤).

والذي يحكي هذا كله كان من ضباط النظام ومن كبار المسؤولين فيه عن بعض أوجه الحياة الثقافية

قتل مصر

والصحفية في مصر وهو يحكي بأمانة، ويروي ما حدث (أو على الأرجح بعض ما وجد من الممكن أن يقول أنه كان يعلم أنه كان يحدث في مصر ولمصر) لكنه في نفس الوقت (١) لا يتوقف ليتساءل تساؤلات تفرض نفسها فرضاً، و(٢) يعتمد مضطراً إلى التلمويه واختلاق الأعذار وفي بعض المواضع إلى إرباك الصورة.

وفيما يخص التساؤلات، يبرز بالقدر الأكبر هذا التساؤل فيم كان اهتمام وكالة المخابرات المركزية الأميركية بتبني عملية إيجاد أجهزة مخابرات لمصر إلى الحد الذي جعلها تتبرع بثلاثة ملايين من الدولارات لبناء برج اتصالات (برج القاهرة) وتبعث بخبرائها تحت سائر شركة مصرية أميركية لالقاء المحاضرات على ضباط تشكل منهم أجهزة النظام هل يمكن الادعاء بأن وكالة المخابرات المركزية الأميركية كانت تفعل كل ذلك لتزود القوات المسلحة المصرية والنظام الحاكم في مصر بإمكانية القيام بنشاط المخابرات العسكرية على العدو، إسرائيل؟ لا نظن أحداً مهما بلغت به الصفاقة سيجد بوسعه الادعاء بشيء كهذا. وما دامت تلك الاستخبارات لن تكون على العدو الخارجي، فعلى من كانت الرد غير حاجة إلى كثير لف ولا دوران على «الشعب»، على المصريين، على قطعان العزبة. فحقيقة أن النظام استمتع بـ «شعبية الزعيم الهائلة» لدى المصريين، واستفاد - ككل من حكم مصر - بخنوع المصريين التقليدي للسلطة وميلهم إلى تأليه الحاكم إلا أن «الزعيم» كان بطبيعته شكاكاً لا يطمئن إلى أحد، والنظم بطبيعتها تعرف - حتى وإن استنامت القطعان - أن ما تفعله بتلك القطعان قد يجعلها تحزن في النهاية وتتمرد. ولهذا كان لا بد للنظام، وللزعيم، وللمخابرات المركزية الأميركية، من «تأمين» استمرار الوضع القائم الذي كانت الولايات المتحدة قد قبلته وراحت عليه، عن طريق تزويد النظام والزعيم بسلاح «ارهاب الدولة»، الأجهزة

أما فيما يخص التلمويه واختلاق الأعذار وتعتمد إرباك الصورة، فالكاتب يعتمد إلى افهامنا بأن الزعيم قبل بوجود الأجهزة على مضض، باعتبارها «شراً لا بد منه»، وأنه ظل يشك فيها وتتعاظم شكوكه إلى الحد الذي جعله يكثر منها حتى تتجسس على بعضها البعض مثلما تتجسس على الرعية و «تصب كافة معلوماتها» (حصيلة كل ذلك التجسس المتبادل والتجسس الشامل على «الشعب») عنده وحده، «وفي النهاية لم يجد بداً من خلق نظام تجسس مركب لم يكتف فيه بالأجهزة التي دربتها له المخابرات الأميركية بل أنشأ جهازاً للتجسس خاصاً بـ «رئاسة الجمهورية» ويقول الكاتب بعد ذلك أن «عدم ثقة عبد الناصر الكاملة في تلك الأجهزة خلقت ازدواجية متكررة وكبدت الدولة تكاليف باهظة» ويضيف أنه بالرغم من «إيمان عبد الناصر واعتقاده بأن أجهزة الأمن لم تسر في خط متوافق مع أفكاره»، وبالرغم من أنه كان يقول ساخراً - حسب رواية أحمد أنور وحسين عرفه «لولا أنني رئيس الجمهورية وقلت كذا أو كيت لكنت المباحث وضعتني في السجن»!، فإنه لم يبدل، مع ذلك، جهداً إيجابياً لـ «تسييس» أجهزة الأمن، بل تركها تنمو وتزدهر ويتسع نفوذها بـ «إيديولوجيتها» (١) الحامدة المتخلفة (الفاشية؟) ووسائلها الوحشية وأطماعها الذاتية.. فقد أخذ نفوذ أجهزة الأمن المختلفة ينمو ويستشري (حتى) في الجيش حيث أصبح الضباط مطاردين بعناصر منهم (زملاء لهم) مبيته في صفوفهم، تدفع الجميع إلى الحذر والحرص ثم إثارة السلبية والبعد عن السياسة وكان تنظيم الضباط الأحرار قد انتهى تماماً، وانفصت الرابطة التنظيمية لأعضاء مجلس القيادة (انتهت محاولة «القيادة الجماعية») وأصبحوا أفراداً.. وأصبح جمال عبد الناصر هو القوة الوحيدة القادرة على إعطائهم فرص العمل التي يراها مناسبة لهم سواء في الوزارة أو خارجها،^(٧٨)

وجنباً إلى جنب مع ممارسات ارهاب الدولة عن طريق «الأجهزة»، استخدم النظام بكفاءة أسلوب تحويل العدوان، موجهاً نوازع العدوان التي كان من المحتم أن تنفجر في قلوب القطعان وأدمغتها - برغم كل ما مارسه الاذاعة والصحافة ووسائل الترفيه من عمليات التنويم والتخدير واغراق «السيادة» المواطنين، في عالم موهوم - بفعل الاحباط والحسد الاجتماعي والهوة المتعاطمة بين الفقر الطاحن للكثرة والثراء الفاحش للقلة، بعيداً عن النظام والزعيم وفيالق المنتفعين بالنظام المتربحين من «الولاء» للزعيم. وفي هذا التحويل للعدوان، استخدمت بالحاح شعارات الديمقراطية والعدالة الاجتماعية ودعاوي

«الاصلاح»، واستثيرت كراهيات الاكثرية تجاه «القوى المعادية للثورة» التي عملت على احباط وتخريب جهود «الثورة» لتحقيق العدالة الاجتماعية، وتنفيذ «التحول الاشتراكي» لصالح الشعب وحددت تلك القوى بالاقطاع، والرجعية، والبورجوازية، وعملاء الاستعمار، وبطيعة الحال، «العدو الغادر»، والامبريالية والاستعمار، ومجتمع النصف في المائة.

وبوضع كل تلك القوى المعادية كالغيلان مصطفى في طريق «الشعب الكادح»، توصل النظام الى تحويل العدوان صوب كل الأعداء الأشرار الذين تهددوا ما كانت «الثورة» قد حققتة من مكاسب لـ «جماهير الشعب». وذلك الأسلوب عينه متبع ومجرب في «تهدئة» (pacification) الشعوب المحكومة حكماً يستبعتها من العملية السياسية ويضعها موضع «الرعية» التي تتلقى التعليمات من القمة وتنفذها بغير مناقشة وبغير نظر فيما اذا كانت تلك التعليمات محققة لمصالحها أم مؤدية الى الحاق أفضع الضرر بها. وفي هذا السياق من تحويل العدوان كان الموقف الأساسي للنظام من اسرائيل، التي سميت دائماً بـ «العدو الغادر»، والصراع العربي الاسرائيلي الذي لم يحاول أحد أن يشرح لـ «الحماهير» ابعاده الحقيقية أو يوقفهم - رغم التصايح من حين الى حين وحسب الظروف بالشعارات المعادية لـ «أميركا» واطلاق بعض القطعان من الحظائر لتتصايح في الشوارع «والأمريكان، يا رئيس، ولا يهتموك يا رئيس» - على ارتباطه العميق المميت بكيان الأمة الأمريكية والتركيبة السياسية للمؤسسة الحاكمة الأمريكية وبنتيجة لذلك، ظل هناك ذلك «العريب العجيب» الذي يشير اليه هذا الباحث العربي

«والغريب العجيب، والذي لا يفهمه ابن الشارع العربي، هو هذا «التعامي» العربي، أو هذه «الغفلة» العربية عن الحقائق التاريخية والسياسية التي تحتويها طبيعة العلاقة الاستراتيجية الأمريكية الاسرائيلية. وطريقة التعايش العربي مع هذه الحقائق، وتحويلها من حقائق سلبية - من وجهة النظر العربية - الى حقائق حيادية، ومن ثم ايجابية «في صالح» القضية العربية. ولقد طرح شعار «تحييد» أميركا في الستينات كشعار عربي، خاصة بعد حرب يونيو/حزيران ١٩٦٧. ولكن هذا «التحييد» لم يتحقق حتى الآن، لأن مضمون الشعار كان مضموناً سياسياً عاطفياً، أكثر من كونه مضموناً سياسياً علمياً عقلانياً. فـ «التحييد» الذي طرح في الستينات كان خالياً من أي خطة أو تخطيط استراتيجي عربي موحد. فلم يتعد شعار «التحييد» أن يكون شعاراً رومانسياً، أدواته «الرجاء»، و«المناشدة»، و«التوصية»، و«الطلب»، أكثر من أن يكون خطة عربية موحدة تتسم بالواقعية السياسية، والعقلانية السياسية، والعبرة التاريخية»^(١٠).

وقد قال عبد الناصر في خطبه أنه «لم يدرك أن اسرائيل مسألة حيوية للدول الغربية»^(١١) إلا قبل ذهابه الى مؤتمر باندونج (ابريل ١٩٥٥) ولم يدرك قبل ذلك المؤتمر أن الغرب يريد حماية اسرائيل قبل كل شيء»^(١٢).

وهيما يحص «أميركا»، قال ان العرب راعبون في اقامة علاقات المودة معها، لكنهم ينتظرون أن يعاملوا نفس المعاملة التي تحظى بها اسرائيل^(١٣) وأكد «للأمريكان» ان العلاقات بين مصر وأمريكا لن تتحسن حتى توقف أميركا انحيازها الى اسرائيل، وأنه «لن يحدى في ذلك أن نبدي النوايا الطيبة من ناحيتنا أو من ناحيتكم، وأما الحقائق العملية هي وحدها التي يعتد بها»^(١٤).

وفي نفس الوقت، «ربط عبد الناصر بين الصهيونية والشيوعية فالاستعمار واحد بصرف النظر عن مصدره، من الغرب أو من الشرق. وقد ظهر ذلك الربط بين الصهيونية والشيوعية في أوح معركته مع الشيوعيين سنة ١٩٥٤ في مصر، وسنة ١٩٥٩ في مصر والعراق. فالشيوعيون، في رأي عبد الناصر أكبر عون للصهيونية، كما ان الصهيونية تعمل على ايجاد تنظيمات شيوعية تخدع الناس تحت بعض الأسماء الخلابية البراقة مثل الحرية والديموقراطية وتخدع الناس بكلام معسول عن المساواة ورفع مستوى العامل والفلاح والأخذ بيد الفقير.. وهم (الشيوعيون المصريون) يثيرون بعض الشغب ويسببونه الى الشعب باسم الشيوعية وهم في الحقيقة جماعة صهيونية قامت بعمل حرائق في بعض المدن والمنشآت الوطنية»^(١٥).

فالزعيم، وقد اشتبك مع الشيوعيين في معركة لتأمين وحدانية زعامته، مماثلة للمعركة التي اشتبك فيها

مع الأخوان لتأمين تلك الوجودانية وإبعاد أي شريك عن حيازة السلطة المطلقة، قد أسقط صراعه المحلي الداخلي على العروة الاستيطانية اليهودية للعالم العربي والشرق الأوسط كله بدءاً بفلسطين، منصة القفز إلى ما بعدها وفي نفس الوقت ظل يعري أمريكا التي أعلن مؤسسوها منذ ظهرت إلى الوجود بأنهم «إسرائيل هذا الرمال وتبعه الله المختار الحديد» * بأن تقيم علاقات مودة وإخاء مع المصريين والعرب وتعاملهم نفس المعاملة التي تحظى بها إسرائيل، غير مدرك أن إسرائيل لا «تحظى» بمعاملة مميزة أو غير مميزة من «أمريكا» بل أنها (إسرائيل) جزء من لحم «أمريكا» الحي، وفي الوعي القومي الأميركي تنمة واستكمال المشروع الأميركي الذي بدأ بالعروة الاستيطانية للقارة الأميركية وأبادت سكانها الأصليين، واتخذ تحققه الأعلى وذيوته باقامة ملك إسرائيل القديمة على أرض الميعاد، فلسطين لتكون بداية التنفيذ الحرفي لميثاق الآله وتعهدهاته لإبراهيم ويعقوب واسحق باعطاء «شعبه المختار» كل الأرض من النيل إلى الفرات كما هو مصور بالبحث البارز على حيطان الكنيست

فكل ما يعي الزعيم هنا، في هذا «التنظير الفلسفي» عن الصهيونية والشيوعية، وهو الذي قال أنه لم «يدرك» أن إسرائيل مسألة حيوية بالسبب للدول الغربية، أي الولايات المتحدة وتوابعها، أن يوسع نطاق تحويل العدوان ليضم من كان مستنكاً معهم في صراع لتأمين وحدانية رعايته، أي التسيوعيين فإسرائيل ظلت، من البداية إلى النهاية، ورقة مربحة في يد النظام يلعبها على أي وجه رأى أنه توازم مع مصالحه ومنطلقاته في أي مرحلة بعبها وقد قيل دائماً أن «فلسطين ظلت الشاغل الأول والهم المقيم» للزعيم. وهذا حقيقي، ولكن كنصف حقيقة فقط فالنظام كله، ابتداءً من الزعيم إلى أصغر المروجين الصحفيين و«المثقفين» له، لم يكف لحظة عن ذكر فلسطين غير أن فلسطين هذه ظلت العذر لكل إجراءات الطوارئ، وكل أنواع العنف واعداد الحريات حيث لا «يعلو صوت على صوت المعركة»، كما قال الزعيم في وقت ما من أوقات الاستخدام المفيد لتلك الورقة الفلسطينية، وظلت تنتقل على رقعة شعارات النظام، وتنتقل معها بطبيعة الحال إسرائيل. من مكانة إلى مكانة تبعاً لمتطلبات اللحظة وضرورات المرحلة فبعد هزيمة ١٩٦٧ الماحقة، استخدم «الصراع العربي الإسرائيلي» كبرهنة على (١) أن في مصر «ثورة»، بل و«ثورة اشتراكية»، و(٢) أن تلك «الثورة الاشتراكية» في مصر بلغت من الجدية حداً جعلها تشكل خطراً على العدو الغادر، و(٣) أن قيام العدو الغادر المتحالف مع الامبريالية والاستعمار بـ «عدوان» ١٩٦٧ كان لضرب تلك الثورة الاشتراكية واجهاضها، و(٤) تبعاً لذلك تكون كل العواقب السوخيمة (أو ما أسمى بـ «آثار العدوان») التي ترتبت على اندفاع الزعيم حرصاً على زعامته إلى شرك يونيو/حزيران ١٩٦٧، عواقب لم تترتب على ترك الزعيم نفسه يستدرج إلى الشرك، بل حتمية تاريخية تمثلت في ضرورة قيام العدو الغادر بضرب «الثورة الاشتراكية» في مصر لحساب الامبريالية والاستعمار، و(٥) تأسيساً على ذلك يكون التسعيب، لا الزعيم، هو الذي استهدفته الضربة، وتكون «آثار العدوان» هي الثمن الذي تعين على الشعب الباسل أن يدفعه ثمناً لـ «ثورته الاشتراكية المجيدة»

وقد قال عبد الناصر ذلك تحديداً في خطاب القاه بجامعة القاهرة يوم ٢٣ يوليو/تموز ١٩٦٧، بعد أسابيع من كارثة يونيو/حزيران من ذلك العام، وأوضح فيه أننا «إذا سألنا أنفسنا أيه كان القصد الحقيقي لعملية العدوان المرتبة التي تعرضنا لها أخيراً، إذا سألنا أنفسنا هذا السؤال، الرد يكون أن القصد الحقيقي كان القضاء على الثورة الاشتراكية الموجودة في مصر» وبعد أن شرح الزعيم لمستمعيه في الجامعة أبعاد ذلك المخطط الشيطاني لضرب «الثورة الاشتراكية» وحرمان الشعب المصري الباسل المناضل من مكاسبها الثورية الكبرى، أكد لسامعيه أن هدف المصريين المباشر، تأسيساً على ذلك، «لا ينبغي أن يكون إزالة آثار العدوان فحسب، بل وينبغي أن يكون أيضاً حماية نظامنا الثوري (الابقاء على النظام) وتعميق نظامنا الثوري (المزيد من الإيمان بالزعيم والتسليم بمشيئته)».

ويفسر أحد المظنرين ذلك بقوله (الذي جاء كاشفاً عن غير قصد منه لعملية استخدام «الغيلان» المختلفة في تحويل العدوان

(*) ارجع في ذلك إلى دراستنا عن البعد الأميركي للمشروع الصهيوني. المرجع السابق الإشارة إليه

«وبطرية العدو (أي بطرية من هو العدو) ارداد رسوحها البطري عند عبد الباصر بعد بكسة ١٩٦٧، (وتلك البطرية قامت) على العلاقة بين الاستعمار الامريالي والثورة المصادة، ولكن ما حدث بعد ١٩٦٧ هو اعادة ترتيب الأعداء ومصادر الخطر، فأصبحت الصهيونية واسرائيل على قمة مصادر الخطر، وفي المكانة التالية لهما يأتي الاستعمار الامريالي. أما بشأن الثورة المصادة، فعبد الناصر، ادراكياً، لم يتهاون معها، بل كان ذلك على مستوى الحركة التكتيكية» (١) (١١) وسنعود الى استظهار الأبعاد الكاملة لمشكلة النظر من جانب النظام والزعيم الى اسرائيل والصهيونية والصراع معهما باعتبار كل ذلك ورقة مفيدة في خلق أوضاع تأزم وطوارئ دائمة، وتحويل العدوان، مع عدم العزوف في الواقع عن التصالح و«التسوية» (متى أزيلت آثار العدوان وأعيدت الأراضي التي أخذت في غمار عدوان ١٩٦٧)، في معرض استظهارنا لخلفيات كامب ديعيد وكون السادات عندما انساق الى مصيدته لم يكن ناشزاً ولا مرتداً بل كان عمدة استكمل ما ورث عندما ورث العزبة ومشاكلها من الزعيم. أما الذي يعنينا هنا، فاستظهار المستفيدين الحقيقيين من «الثورة الاشتراكية» التي أكد الزعيم في خطابه بالجامعة يوم ٢٣ يوليو/تموز ١٩٦٧ أن القضاء عليها وحرمان الشعب المصري من مباحثها كان الدافع والقصد الحقيقي وراء عدوان العدو الغادر في يونيو/حزيران وقد استعرضنا فيما سبق كيف ركر الرعيم كل السلطات في يده وكيف وضع تحت مقعده أو في درج مكتبه سلطات أي دولة متواحدة في العصر حقيقة، التنفيذية، والتشريعية، والقضائية، وكيف نقل اليه (= الى الشعب) ملكية «السلطة الرابعة» كما تسمى، أي الصحافة والاعلام وأدوات صنع الرأي

وكما لاحظ القارئ، اعتمدنا في استظهارنا للحقائق مهجاً قام على الاصغاء بدقة لما قاله «تجوم» من النظام عايشوا الأحداث من الداخل عن كثب، وعاشوا كل التيارات وشهدوا كل الصراعات ولم يكن من سبيل لمباحث أو دارس لأن يقف على شيء من ذلك الا من خلال ما شاءوا الافضاء به، بالقدر الذي سمحت لهم مصالحهم وأدوارهم السابقة واللاحقة مصارحة القراء به، من أحداث وتطورات ومواقف واتجاهات

ومن أهم أولئك «النجوم» في الواقع، أحمد حمروش فهو - فيما بدا من كتبه - رجل مثقف ومستنير، ورغم كونه ضابطاً من صباط النظام، اتخذ لنفسه موقفاً فكرياً ناقداً، وانتهج نهجاً ظل في معظم الوقت متشبهاً بضرورة أن يكون موضوعياً، بازاء خلفية فكرية يظل يذكرنا بأنها يسارية ماركسية. ومع الوعي بأن الانتماء الى مثل ذلك الموقف العقائدي أملي مطلقات معينة وفرض حدوداً وخطوطاً لم يكن لحمروش مهرب منها، فإن مصارحاته - التي خلت لحسن الحظ من التقعر الأيديولوجي الذي اصطنعه كثيرون - ومشاعره الوطنية التي نطقت دائماً من بين سطوره، تجعله مصدراً حديراً بالثقة لقدر هام من المعلومات عما كان يجري داخل النظام

وفيما يخص «الثورة الاشتراكية» التي قال الرعيم أن ضربها واجهاضها كانا القصد الحقيقي من عدوان ١٩٦٧ العاشم الذي قام به العدو الغادر، يقول حمروش أن

«الاشتراكية هي أكثر الكلمات سريفاً واعراء (للشعوب) في محال التقدم الاجتماعي، لكنها استخدمت أحياناً في غير محالها فهتلر (مثلاً) أطلق على حكمه الناري اسم «الاشتراكية الوطنية» (وفيما يخص مصر) لم تتحول كلمتا الديمقراطية والتعاونية الى حناجر. تطلق بهما الاشتراكية في مصر الى أفان حديدة رغم قول جمال عبد الباصر في «المؤتمر التعاوني» بجامعة القاهرة يوم ٥ ديسمبر/كانون الأول ١٩٥٧، «أنا بهدف الى إقامة مجتمع اشتراكي ديمقراطي تعاوني متحرر من الاستغلال السياسي والاستغلال الاقتصادي والاستغلال الاجتماعي» فقد كان الموقف يرداد صعوبة أمام قيادة طموح، وكان الذين بشروا بالاشتراكية في مصر من قبل الثورة معتقلين في السجون من ليلة رأس السنة لعام ١٩٥٩ تلاحقهم الاتهامات بأنهم شيوعيون وأنهم عملاء غير أن تلك الحقيقة لم تقف عقبة في وجه عبد الباصر، فقد أبقي الشيوعيين، أو «الاشتراكيين الحقيقيين» في المعتقلات وبدأ يدرث ثورة جديدة سرية كاملة، بصورة تختلف قليلاً عما حدث قبل ٢٣ يوليو/تموز، ثورة اجتماعية تدير من السلطة (من أعلى، أي انقلاب حديد لكنه «اجتماعي») بعيداً عن المناقشة الحرة المفتوحة، والذين اشتركوا في تدبيرها عددهم محدود ويقول زكريا محي الدين وعبد اللطيف المعدادي أن تأميمات ١٩٦١ لم تعرض على أعضاء مجلس القيادة السابقين في جلسات عمل رسمية، وإنما أثير الموضوع للمناقشة في جلسة واحدة خاصة بالاسكندرية حضرها جمال عبد الناصر، وعبد الحكيم عامر،

قتل مصر

وعبد اللطيف البغدادي، وركريا محي الدين، وكمال الدين حسين فقط ولم تكن الصورة واضحة عن المدى الذي كان عبد الناصر يراه في موضوع التأميم» (١) (١١)

وهكذا جاءت الاشتراكية الى مصر. قرر الزعيم بين يوم وليلة أن «يقلبها» اشتراكية سمع الزعيم من صديقه جوزيب بروز تيتو عن «الاشتراكية»، وعابن بنفسه كيف كانت تلك «الاشتراكية» تتيح لحوزيب بروز تيتو أن يكون رب اليوغوسلاف الأعلى، والههم الوحيد الواحد الأوحده «ولم يكن هناك يساري واحد مقرب من عبد الناصر خلال هذه الفترة يوسف صديق وخالد محي الدين كانا بالمعاش في المنزل، وأحمد فؤاد لم يكن مقرباً» (١٢) ولم يكن مشروع «الاشتراكية» قد خطر للزعيم ببال أو يدخل في تخطيطه لـ «الثورة» أو اتضح في أي مسار اتخذته «الثورة». لكن المصادرة والتأميم كانا سلاحاً لم يفعل الزعيم عن مضائه. وقد نجح في تحطيم سطوة «القطاع» بمصادرة المال والأرض في ظل القانون الذي كان آخرون قد دعوا اليه بإلحاح من قبل الثورة، تحديد الملكية الزراعية و«الاصلاح الزراعي». والآن جاء دور «البورجوازية المصرية»، وكانت «تحاول أن تفرض حول عبد الناصر حصاراً وتقيد به، فهي لم تكتف بالاستقرار الذي كان الحكم العسكري يثبت دعائمه، بل وأرادت المشاركة في السلطة ووقف تدخل الدولة» (١٣) وبذلك وقعت في «الخطيئة الأصلية»، تطلعت الى ما اعتبره الزعيم عدواناً على وحدانيته، وطمعت في المشاركة في السلطة، فبات من المحتم أن تضرب بالمصادرة ونزع الملكية ومن ذلك الباب دخلت «الاشتراكية» دماغ الزعيم، وقعدت هناك. فـ «اشتراكية» نظام «الثورة» لم تتعد حدود استيلاء الدولة (والدولة هنا = السلطة العسكرية الحاكمة التي جسدها شخص الزعيم) على أموال «البورجوازية». فهي لم تتعد التأميم، وخلق ابعاديات اقتصادية كابعاديات الممالك عرفت باسم «القطاع العام»، ولم تذهب الى ما وراء تحول الدولة الى الرأسمالي الأكبر والأقوى، فلم تشمل اعطاء أي دور حقيقي لمن جرت المصادرة باسمهم، أي الشعب. كل ما حصل عليه «الشعب» كان نصاً في قوانين التأميم المحيدة وعد الشعب بأن تكون له نسبة ٢٥٪ من أرباح الشركات تصرف للموظفين والعمال. وكل من عايش ابعاديات «القطاع العام» في مصر يعرف ما الذي كان «الكادحون» يحصلون عليه اعمالاً لذلك النص البراق، ويعرف أيضاً ماذا كان دور «أعضاء مجالس الادارة المنتخبين من الموظفين والعمال»

فالمستفيد الحقيقي من «الثورة الاشتراكية» التي أحدثها الزعيم «فجأة، وبلا أي تمهيد، ودون حشد للجماهير أو تعبئة للأفكار» (١٤) لم يكن «الشعب الكادح»، بل أتباع الزعيم من الضباط والمتسلقين المدنيين، وقد «رتب جمال عبد الناصر قوانين التأميم مع عبد المنعم القيسوني وحسن عباس زكي، وكلاهما غريب عن الاشتراكية بعيد عن الاقتناع بها» (١٥). ونتيجة لتلك «القوانين» وقعت مذبحة الاقتصاد المصري التي لم ينج من أثارها المدمرة حتى اليوم. فبعد مذبحة الديمقراطية البرلمانية، ومذبحة القضاء، ومذبحة الصحافة، كانت مذبحة الاقتصاد. أمت ١٤٩ شركة منها ١٧ مصرفاً و١٧ شركة تأمين، فباتت ملكاً للدولة، ووعدت الدولة مساهميتها بتعويضهم بسندات اسمية لمدة ١٥ سنة بفائدة ٤,٥٪، ودخلت الدولة شريكاً بحصص لم تقل عن ٥٠٪ في رساميل ٩١ شركة. وبدأ كابوس المؤسسة العامة والشركات التابعة، وكابوس «السيد الأستاذ رئيس مجلس الادارة» وأعوانه وأجهزته «الأمنية» في كل ركن وثقب من أركان وثقوب الحياة الاقتصادية لمصر وبدأ الخراب وكدست ثروات، وأفلست شركات وراء شركات، وتكاثرت الحسابات السرية في بنوك سويسرا، ورويداً رويداً، اكتشف الزعيم، كما قال أنور السادات لموسى صبري، أن البلد كانت قد أصبحت تحكمها عصابة، يا أنورا.

ونترك الضابط أحمد حمروش يروي ما حدث:

«خلال أربعة أيام بدأت من ١٩ يوليو/تموز ١٩٦١ وانتهت يوم الاحتفال بعيد الثورة التاسع، كانت قد صدرت قوانين التأميم التي تمت بطريق الصدمة وغيرت من واقع المجتمع وتلقاها الناس المسؤولون والبسطاء كمفاجأة سعدت لها الأغلبية وصدمت منها الأقلية. وقد سميت هذه القوانين باسم القوانين الاشتراكية فمن هم الذين سيقودون المجتمع بعد هذا التغيير؟ قال عبد الناصر في مناقشات اللجنة التحضيرية «من الذي سيقوم بالقيادة؟ عندما نقول اشتراكية لا بد لها من اشتراكيين. أنا أريد للاشتراكية أناساً لا هم رجعيون ولا هم رأسماليون مستقلون». فجمال عبد الناصر يريد أن يعزل الرجعيين والرأسماليين، لكنه لا يريد التعاون مع الاشتراكيين الحقيقيين، ولا يريد للاشتراكية كادراً من الاشتراكيين، اكتفاء منه بمن هم في السلطة

فالاشتراكية يبدأ تطبيقها بالمجموعة الحاكمة المسيطر عليها العسكريون (ببما) الاشتراكيون الحقيقيون في معتقل الوادي الحديد يرسلون برقيات التأييد لحمال عبد الساصر على خطواته التقدمية الثورية، والمديرون والمسؤولون يتحولون فجأة إلى اشتراكيين مبعوثين أفكارهم كما يعيرون تباينهم، والاتحاد القومي ما زال التنظيم المساعد للتغيير الحادث في المجتمع مهتدياً بفكرة المصالحة بين الطبقات، والرعيم يعلن أن «السلام والتعاون بين الطبقات قد تحقق لأول مرة في التاريخ»^(١)

ولقد كان الزعيم مخطئاً في ذلك الادعاء فـ «السلام والتعاون بين الطبقات» كان قد تحقق بقوة تحت وطأة الرعب النازي والفاشي في بلدان أخرى كثيرة بأوروبا خلال سنوات عيمة الحكم الفردي المطلق التي أظلمت بها القارة من ١٩١٨ إلى ١٩٤٥ ولقد كان حرياً بالرعيم أن يعطى إلى وشائج الرحم التي ربطت نظامه بتلك الأنظمة، أن لم يكن يتمثل الوسائل والأساليب والدعاوي والمنطلقات، فبكون نظامه، كنظم الفاشيين جميعاً، تألف من عناصر من البورجوازية الصغيرة، وطل - في حقيقة أمره وفيما اتصف به من كراهية للطبقات الاجتماعية الأخرى التي كانت فوقه (القطاع والبورجوازية الكبيرة) وتحتة (العلاحيون والعمال) وما أظهره من ضراوة في الاستيلاء لا على السلطة وحدها بل على كل ما مكنته السلطة من الاستيلاء عليه

فالتبقة المتوسطة الدنيا التي أحبت الرعيم وكل من عاوبه من صباط كانت تقليدياً معمل تفريخ اسد العناصر والحركات السياسية رجعية وفي الوقت ذاته أشدها ادعاء للرجعة في التغيير والإصلاح وبحكم وجود مجموعة متدمرة من أبنائها (الضباط الأحرار) في مواقع عسكرية أتاحت لهم في ظل نظام محتصر القيام بانقلاب من أعلى للاستيلاء على السلطة، تمكنت تلك الطبقة من أحداث انقلاب في الهرم الاجتماعي، فتربعت على قمته ورغم القوانين «الاشتراكية» التي أصدرها النظام الحاكم بعد سنوات من استيلائه على السلطة وهدم الارستقراطية الاقطاعية القديمة، بغية هدم البورجوازية الكبيرة، «ظل النظام الحاكم عازفاً عن تفجير أي صراع طبقي، لأن النظام كان قد بدأ يعبر فعلاً عن واقع (ومصالح) البورجوازية الصغيرة (التي أحبته) والتي أخذت في ظله تنمو وتتدعم، ذلك لأن تفجير الصراع الطبقي كان حرياً بأن يغلب فرصة الطبقة العاملة النامية والمتعاونة مع العلاحيين في تحقيق منع الاستعلال (حقيقة) ونهائياً (والأخطر من ذلك) المشاركة في السلطة»^(٢)

وبلغة «التحول الاشتراكي» الذي ظل وعداً تساعد باستمرار مسحاً إلى الأفق البعيد لكنه ظل في نفس الوقت - كوعد الانتصار على الصهيونية والامبريالية والاستعمار واستعادة فلسطين الحبيبة والأرض السليبة - ورقة مفيدة ومربحة في ادامة أوضاع طوارئ دعمت قصة الرعيم على عبق مصر ووطدت سلطة النظام وأمنت مكاسب ضباطه والمستفيدين من المدنيين منه، بتلك اللعبة البارعة التي أوجت بها للرعيم أوضاع يوغوسلافيا في ظل زعامة جوزيب بروز تيتو (الذي ظهر بعد موته أنه ترك تروية لا يستهان بحجمها بفضل كل تلك الاشتراكية)، أحكم وثاق المصريين احكاماً لم يكن منه أدنى فكاك فخارجاً، العدو الغادر متربص بالثورة الاشتراكية والثوار الاشتراكيين يريد أن يحض الثورة ويطيح بالثوار، وذلك يتطلب أن تظل اليد العليا للعسكريين المتصدين لذلك العدو الغادر والذين لولا وجودهم لدخل ذلك الغول مصر وأكل لحوم المصريين وهشم عظامهم وداخلا، الرجعية والقطاع والثورة المضادة وعملاء الامبريالية والاستعمار وبقايا مجتمع النصف بالمائة متربصين جميعاً بمكاسب الشعب العامل التي حققتها له ثورته الاشتراكية العظيمة، وبالمستقبل الزاهر الذي تعد تلك الثورة جماهير الشعب الكادح به، فقط اذا ما تركت لتواصل مسيرتها المظفرة، وتأمين الثورة، وتأمين المكاسب، وتأمين المستقبل الوضي الذي ينتظر الأجيال القادمة يقتضي أن تظل لأجهزة الأمن التي تدافع عن الثورة وتحمي الوطن اليد العليا والقول الفصل فيما يحدث داخل الوطن المفدي.

وفي ظل هذه الأوضاع، أوضاع العدو أمامكم والرجعية وعملاء الاستعمار وراءكم، أصبح الجيش «المصدر الرئيسي لتوريد الوزراء والمحافظين ورؤساء مجالس الادارات ووكلاء الوزارات والسفراء وغيرهم من أصحاب المناصب الرئيسية.. معظم المراكز القيادية والوزارات أخذت تسقط بالتدريج في أيدي العسكريين وأصبحوا هم الكادرات التي اعتمد عليها النظام ويقول مكسيم رودنسون أن «الأمر احتاج إلى وقت طويل ليتبين أن الجيش (الضباط) جماعة أنانية متلهفة إلى الاستمرار في السلطة والزيادة في

امتيازاتها وأنها بعيدة عن الطبقات العاملة وغير جديرة لأن تهب نفسها لأهداف تلك الطبقات». (والحقيقة) أن التفكير في الطبقات العاملة (جماهير شعبنا الكادح التي لم ينقطع التشدق باسمها) لم يكن وارداً حتى هذه اللحظة (لحظة اصدار قوانين التأمين وبدء عملية «التحول الاشتراكي») وكان الادعاء بأن العسكريين يعبرون عن أهداف الطبقات العاملة (عن مصالحها) تصوراً بعيداً عن الحقيقة والواقع. فالجيش ظل السيد الرئيسي للنظام وتبعاً لذلك منح ضباطه كثيراً من الامتيازات»^(١٢).

ولقد كان ذلك الوضع العسكري للنظام محتوماً منذ البداية فالنظام وصل الى السلطة عسكرياً، واستولى على مصر - كما قلنا - بعير فكر أو هدف أو خطة خلا التخلص من القيادات العسكرية القديمة التي تطلبت التخلص منها التخلص من النظام الملكي المنهار كله وعندما استقر في السلطة، استقر فيها عسكرياً، وتعامل مع كل ما اعترض طريقة عسكرياً. وعندما انفرد الزعيم بالسلطة، ظل سنده الحقيقي عسكرياً متمثلاً في الضباط الذين وجدوا أنفسهم، في ظل الزعيم، قد استولوا على غنيمة حرب، على بلد كسبوه عسكرياً بعير قتال، وأسلم لهم شعبه، عن انبهار بالزعيم وخوف من أسلحة الضباط واتقاء لشرور الأحقرة، رقائه وسوا بعد وقت أن ذلك البلد كان بلدهم وأن شعبه كان شعبهم وليس شعباً هزموه واحتلوه وبطبيعة الحال، ظل متعيباً طمس ذلك الواقع الغريب - واقع احتلال جيش لبلده عسكرياً وإدارته كما لو كان غنيمة حرب - عن طريق عالم الوهم الذي عاون العسكريين على خلقه واغراق «جماهير شعبنا الكادح» فيه كتبة الصحافة وأرتال كثيرة من أساتذة الجامعات والفلسفين والمنظرين وأكلي العيش ومرترقة الصحافة والاعلام ممن لم يحدوا عيباً في التواطؤ على ترسيخ ذلك الاحتلال واعطائه صورة اجتهاد في حماية البلد من العدو وتحسين ظروف معيشة أهله وكما قلنا، كانت لعبة «التحول الاشتراكي» من أبرع الحيل التي لجأ اليها النظام في مجال خلق ذلك الوهم وفي ظل عالم الوهم، بدأ «السيادة الصباط» يتحولون الى أرسقراطية جديدة تمارت - لكونها محدثة نعمة - فتجاوزت كل تجاوزات الارسقراطية القديمة وقد اجتهد كثيرون ممن أرخوا لتلك الأيام في القول بأن ذلك نجم عن «طيبة قلب السيد المشير»

«كانت شخصية (الصاع) عند الحكيم عامر الذي حصل على رتبة المشير في أول يونيو/حزيران ١٩٥٨، بعد الوحدة (التي لم تطل) مع سوريا وأصبح نائباً لرئيس الجمهورية، مساندة لذلك الاتجاه فهو بحكم تكوينه ودود يعقد على كل من يلحاً اليه من الصباط (يعقد عليهم من مال من؟) ويهتم بالمسائل الاجتماعية أكثر من اهتمامه بالمسائل العسكرية - وكانت «الحاشية» (= حاشية الملك أو سلاطه) التي أحاط بها المشير نفسه قد عرفت فيه هذه الحصال فتمادت في سلوكها اللاأخلاقي واستعلت أموال الدولة أسوا استغلال وكان كل من اقترب من رجال مكتب المشير تأخذهم الدهشة من الجموح المكشوف في مجال اللهو والبدخ المبالغ فيه، الأمر الذي أثر تأثيراً شديداً على قمة القيادة العسكرية وانعكس على بقية مستويات الضباط - وطهرت فئة جديدة من الصباط المؤهلين حريجي الجامعات وخاصة المهندسين الذين تدفقوا على الأعمال المدنية بعد بداية الحركة ثم وصلوا الى المناصب الرئيسية - وقد بدأ هؤلاء الصباط «التكنوقراط» يشكلون فئة جديدة من فئات السلطة العليا كما بدأ الصباط يتولون أعمالاً بعيدة عن اختصاصاتهم ولا تدخل حتى في محال العمل السياسي وأما تحتاج الى تخصص وتأهيل - وقد كانت استعانة مركز السلطة (زعامة النظام) بالعسكريين اختياراً للطريق الأسهل بدلاً من الطريق الصعب وهو تكوين كادرات من خارج الجيش عن طريق الانفتاح على الجماهير وإتاحة الفرصة لظهور العناصر ذات الطاقات والمواهب (من صفوف الجماهير) ومن الطواهر الأخرى التي لارمت اختيار الصباط لمناصب السلطة العليا كون معظمهم ضباطاً في المخابرات العامة أو المخابرات الحربية، بحيث يعكس القول أنه باستثناء التكنوقراط أمثال صدقي سليمان ومحمود يونس وعند الوهاب النشري كانت بقية العسكريين الذين وضعوا في المناصب العليا من المدربين في أجهزة المخابرات المتحريين منها، الأمر الذي انعكس على أسلوبهم في الحكم والإدارة حيث اعتمدوا على السرية والانغلاق والتقارير ولم يفتحوا اسفناً حقيقياً على الجماهير وكانت أجهزة الأمن والمخابرات تزداد عدداً وامكانيات بصفة مستمرة وكان طريق الوصول الى السلطة كثافة التقارير (عن الغير) فهي معيار الاخلاص وميزان الولاء (للزعيم) وقد كان مطلوباً من الجميع في مراكز السلطة أن يسهموا في ذلك كل على قدر طاقته وكان هذا دافعا الى اهتمام أجهزة العمل السياسي على مختلف تشكيلاتها (من هيئة التحرير، الى الاتحاد القومي، الى الاتحاد الاشتراكي) بكتابة التقارير (الاستخباراتية عن الناس) مساندة لأجهزة الأمن في عملها ولم يقتصر هذا الأسلوب على الصباط وحدهم بل وامتد أيضاً الى المدنيين، فقد كان عدد من الوزراء المدنيين يعملون في المخابرات أصلاً أو يتعاونون معها (وقد امتد ذلك النشاط الى الصحافة) ويبدو أنه كان قد أصبح

قاعدة طبيعية (طريقة حياة) وعملاً مطلوباً من كل من يعهد اليه بعمل مسؤول فعندما عهد جمال عبد الناصر للصاع لطفي واكد برئاسة تحرير حريدة «الشعب»، قال له أنه عندما طلب بعض المعلومات عن عدد من الورراء، أحضرها له مصطفى أمين في نصف ساعة، بينما اقتضى ذلك من المحابر أكثر من أسبوع، وقال (الرعيـم لرئيس التحرير) أن هذا دليل على أن مصطفى أمين كان عبده جبار معلومات قادر وشيـط وهكذا كان بعض المسؤولين عن الصحف يلعبون دور أجهزة الأمن للمعلومات أيضاً (في خدمة الزعيم) وكانت بعض المؤسسات الصحفية تؤدي هذا الدور أيضاً، وكانت تلك التقارير سلم الترقى وقد طلب الزعيم من لطفي واكد أن يعد جباراً خاصاً في صحيفته للحصول على مثل هذه المعلومات

«وهكذا تمت أجهزة الأمن والمعلومات (المحابر) واتسعت شباكهـا حتى كادت تستوعب المجتمع كله وفقد المصريون الثقة في بعضهم البعض (فالكل بات يتحارب على الكل)، وبدر الحوف في قلوبهم، فاعتقدت السنتهم وأثروا الصمت والسلبية والبعد عن المحاطر

«وفي هذا الحو أعليت فكرة تغليب الولاء على الكفاءة والاحلاص على الحبرة، ولم يعد غريباً ظهور عنصر العسكريين وخاصة المرتططين منهم بأجهزة الأمن والمحابر في مواقع تعد تماماً عن طبيعتهم وخبراتهم ومعارفهم وكما حدث في مناصب الحكم حدث في الكثير من المناصب الأخرى الحساسة»^(١٢).

(١ / ٦ ط). كيف حقق العمدة اختراقه؟

ذلك اذن كان المجتمع الذي أوجدته «الثورة» والذي جعل من الممكن أن يحقق رجل كأندور السادات فيه اختراقاً يوصله الى أن يصبح رئيساً لجمهورية مصر

وكما قلنا، كان أندور السادات، منذ البداية، مدركاً لقواعد اللعبة ولم يكن في ذهنه ما يضلله من الأوهام كان يعرف تماماً أي انسان هو، ومن الاحتكاك اليومي بعبد الناصر، عرف تماماً أي انسان كان عبدالناصر، ووطن إلى ما كان يجعله يتك (What made him tick) كما يقول الأميركيون. وكما قال عن نفسه لموسى صبري، كان السادات يعرف جيداً كيف «يفكر» وكيف يحرك الشارع السياسي المصري. فقد عاش بين أفقر طبقات المجتمع وعمل معها ووقف على «التركيبة» الاجتماعية والانسانية لنماذج متعددة من الناس العاديين الذين يتكون منهم ذلك «الشارع»، كما عاش في السجون، وعاش في جو الصحافة الذي ما من شك في أنه يفتح العينين على حقيقة الأوجه التي تواجه الناس العاديين متخفية وراء أقنعة عديدة كان رجلاً من عامة الشعب، تربى - كما يقولون - في «مدرسة الحياة»، مدرسة الشارع ثم مدرسة «الثورة» والزعيم، ووعى كل ما تعلمه من دروس جيداً.

«لم يكن السادات، طوال السنوات التي قضاها قابعاً في ظل عبد الناصر يضيق وقته هباء. كان لديه الوقت والفرصة للاختلاط بالناس والتعرف على مشاعرهم. وكان يدرس ويحلل في صمت صدى اعمال وتصرفات عبد الناصر لدى المصريين، ويعرف ما يثير شكواهم وما يبعثهم على السخط، وكان يختزن كل ذلك في رأسه بهدوء»^(١٣).

وقد كان الهدوء والطاعة منفذ السادات الى المكان الذي «قبع فيه» في ظل الزعيم. في مصارحاته لموسى صبري، قال

«عبد الناصر له دين في رقبتي ما هو دين عبد الناصر الذي في رقبتي؟ لقد خرجت من الجيش في منتصف ١٩٤٢ وبقيت خارج الحلقة أو خارج الميدان في اعتقال وسجن وهرب (أي كنت خارج الحلقة، لكنت كنت مناضلاً وتحملت الكثير) وكل هذا استغرق من منتصف ١٩٤٢ الى ١٩٥٠. عدت الى الجيش في ١٥ يناير/كانون الثاني ١٩٥٠ عدت ولا أحد يعلم عني شيئاً في القوات المسلحة سنوات طويلة دفعت جديدة والأمور تطورت. عبد الناصر طوال سبع سنوات ونصف وهو ينظم. عبد الناصر هو الذي بدأ بالعقلية التنظيمية. أما أنا فلم يكن لدي وقت لعمل تنظيم محكم كنت أريد أن أنتهر فرصة الأحداث لعمل أي شيء. (أما عبد الناصر) فشكل خلايا لا تعرف بعضها. وهو الذي يجتمع بكل خلية على حدة. كان ضابطاً محترماً جداً. ليس له أصدقاء ولكن له هيئة ودائماً يضع فاصلاً بينه وبين الآخرين صداقاته قليلة، وله كلمة (مسموعة) وهكذا استطاع في عام ١٩٥١ أن يكون الجمعية التأسيسية، وهي رأس التنظيم أي أنه وصل بالتنظيم الى أن يشكل له قيادة وفي كل هذه المراحل أنا بعيد عن الجيش. وأجيال جديدة تدخل كل عام الدفعة من ألف على الأقل. أي سبعة آلاف على الأقل. ولذلك لم يكن لي مكان في هذا الوضع الجديد. وكان من الممكن أن يخشاني عبد الناصر. كيف يضع في تنظيمه شخص له ماض سياسي وماص في التنظيمات؟ كان من الطبيعي أن يشك. ورغم أن هذه كانت طبيعة عبد الناصر (الشك فيمن حوله) فإنه لم يشك في، وأدخلني قيادة

التنظيم وأنا لم يكن لي أي مطلب قلت له أنا معاكم وحلاص ولم أسأل عن أي شيء وعندما جاء وراربي هو وعند الحكيم (عامر)، وطلب مني عدم التحرك أو القيام بأي نشاط، قال لي أنت معروف لدى جهات الأمن وهم يتعقبونك الآن بعد عودتك للجيش وقلت له صح واستمررتا بعد ذلك في لقاءات، نتحدث عن الخطوط العامة للحركة الدين الذي لعبد الناصر في رقتي هو أنه أولاً أطلعني على أن هناك تشكيل هيئة تأسيسية، ولو لم يقل لي، لما عرفت كما أنه صممي إلى الهيئة التأسيسية ولم يكن لي مطلب من هذا النوع وكان يهمني علاقتي معه وهو القائم بكل شيء وكنا نتقابل ونتشاور باستمرار قلت له أنا معك في هيئة أو غير هيئة المهم أن تقوم الثورة وأنا أثق فيك كأخ وصديق ووطي مصري وكل بصيحتي يا جمال أن تعمل عملية متكاملة هذه المرة لا انصاف عمليات ولا انصاف حلول واللي يعيش يعيش واللي يموت يموت لأن الناس (المصريين) سوف تواجه بهدلة إذا أقدمنا على عملية حربية وهشلت»^(١٢)

وفي روايته لكيفية التقائه بالسادات، يقول محمد إبراهيم كامل أنه اشترك مع عدد من الشباب المصري من أقربائه وأصدقائه في تكوين جمعية سرية سنة ١٩٤٣ للقيام بعمليات ضد القوات البريطانية في شوارع القاهرة كان من زعمائها ابن خالته حسين توفيق، وأن حسين توفيق عرض على الجمعية في سنة ١٩٤٥ اقتراحاً بالتعاون مع جمعية سرية أخرى .

«ولم تعص أيام قلائل حتى تم اللقاء في أحد المقاهي الكائنة بميدان الأوبرا، حيث قابلنا أنا وحسين توفيق الشخص الذي كان قد فاتحه في الانضمام إلى تلك الجمعية الأخرى، وقدم لنا ذلك الشخص شاباً كان يرافقه لفت نظري أنه كان يكرها في السر، كان أسمر اللون، معشوق القوام، ذا شارب صحم وصوت أحش عميق النبرات، إلا أنه كان يلبس ثياباً عربية إذ كان يرتدي بدلة رمادية داكنة، وتحتها صديري فاتح اللون به مربعات حمراء، وربطة عنق فاقعة اللون، وحذاء أبيض، وقدمه لنا الشخص الأحر باسم «أنور السادات»^(١٣) .

ذلك كان أول لقاء لمن أصبح وزير خارجية مصر في مرحلة كامب ديفيد بزعيمة المقبل أنور السادات. وكان اللقاء في سنة ١٩٤٥، أي قبل أن يدخله عبد الناصر في الجمعية التأسيسية لتنظيم الضباط الأحرار بست سنوات، وكان وقتها هارباً من الشرطة وأجهزة الأمن بعد إحالته إلى التقاعد في سنة ١٩٤٢، وكان - تبعاً لمصارحاته لموسى صبري - يشتغل «نفرأ في المقاولات» ويعمل من طلوع الشمس حتى الغروب وفي آخر النهار يشارك بقية الانفار طعامهم في «مقهى قذر في قرية مرزغونة»^(١٤) وفي ذلك اللقاء الأول بمحمد إبراهيم كامل، كذب عليه أنور السادات وعلى ابن خالته حسين توفيق كذبتين «استمر اللقاء نحو ساعة ونصف ساعة تبادلنا فيها الحديث عن أوضاع البلد، وافهمنا السادات بطريقة غير مباشرة أنه ينتمي إلى جمعية من رجال القوات المسلحة، وأنه كان (يوزباشي) بالجيش وأحيل إلى التقاعد للشك في ميوله المتعاطفة مع الألمان، وأنه «يعمل» الآن في المقاولات والنقل»^(١٥) وفي سنة ١٩٤٥، لم يكن السادات قد اتصل بجماعة الضباط الأحرار التي ضمه عبد الناصر إلى جمعيتها التأسيسية في ١٩٥١ كما لم يكن يعمل في المقاولات والنقل بالمعنى الذي يفهمه أي مصري من قول القائل «أنا اشتغل حالياً بالمقاولات والنقل» أي أنا مقاول. ويبدو أن تغيير الواقع تحقيقاً لمتطلبات اللحظة ظل سمة ملازمة للسادات طوال حياته. فهو في مصارحاته لموسى صبري وهو رئيس جمهورية يقول أنه نصح عبد الناصر بالابتعاد عن فكرة الاغتيالات التي كان بعض زملاء عبد الناصر من الضباط الأحرار يحاولون توريطه فيها، وقال له «يا جمال! الجهد الذي يبذل في عملية الاغتيالات مثل الجهد الذي يبذل في الثورة. إذن نأخذ الأصح. ثم، ما هي قيمة أن تنجح الاغتيالات أو تفشل؟»^(١٦) لكن محمد إبراهيم كامل يقول «أدخل السادات على تفكيرنا. تعديلاً لم يكن وارداً. وهو أن الطريقة الفعالة لتحقيق أهدافنا هي القضاء على الزعماء المصريين المتعاونين مع الانجليز، وأننا إذا تمكنا من اغتيال عدد منهم فسيأتي اليوم الذي لن يجد فيه الانجليز مصرياً واحداً يتعاون معهم في حكم البلاد»^(١٧) وهكذا فإنه - بالمناقضة للموقف الذي يقول السادات في مصارحاته لموسى صبري أنه نصح عبد الناصر باتخاذ عزوفاً عن أسلوب الاغتيالات، كان هو - طبقاً لرواية المسؤول الذي أصبح وزير خارجيته - الذي نصح حسين توفيق وجماعته من الشباب الوطني بانتهاج ذلك الأسلوب «الذي لم يكن وارداً في تفكيرهم» إلى أن اقترحه عليهم السادات.

ويروي محمد إبراهيم كامل هذه الواقعة الكاشفة فيما يخص الطريقة التي تصرف بها السادات بعد أن أقنع حسين توفيق باغتيال النحاس باشا رحمه الله

«تم وضع خطة لتحقيق تلك العملية عهد فيها بالدور الرئيسي الى حسين توفيق الذي كان يتمتع بأعصاب مولاذية، ويشترك فيها من جمعيتنا سعد الدين كامل وأنا، ومن الجمعية الأخرى أنور السادات وعمر أبو علي كمساعدين لتغطية العملية

«وكان دور السادات أن يحصر سيارة وينتظر بها حوار مبنى الجامعة الأميركية في القاهرة الذي يقع بالقرب من مكان تنفيذ العملية، وكان أنور السادات قد زودنا بطرد يحوي مسدسين ماركة برتا عيار ٩ ملليمتر وبعض الطلقات، وقنبلتين يدويتين من طراز انجليزي

«وبالفعل، تمت المحاولة، الا أنها فشلت.. فلم يصب أحد من راكبي سيارة النحاس باشا التي فرت بسرعة، الا أن حسين توفيق عندما توجه الى المكان المتفق على (أن ينتظره السادات فيه بالسيارة بعد محاولة الاعتداء) لم يجد لأنور السادات أو السيارة أثراً حسبما كان متفقاً، وعدنا جميعاً الى منازلنا دون أن يتطرق الشك الى أي منا»^(١).

أي أن السادات: (١) بعد أن أقنع أولئك الشبان الوطنيين بأنه كان «منتزحاً الى تنظيم بالقوات المسلحة»، (٢) أقنعهم بأن أسلوب النضال الوطني كان الاغتيالات، (٣) ووضع لهم خطة لاغتيال مصطفى النحاس باشا رئيس حزب الوفد والزعيم الوطني الكبير، (٤) زودهم بـ «عدة» الشغل: بمسدسين وبعض الطلقات وقنبلتين يدويتين، (٥) اتفق معهم على أن ينتظرهم بسيارة الهرب من مكان الجريمة، (٦) لكنهم عندما ذهبوا الى المكان الذي كان متفقاً أن ينتظرهم فيه بالسيارة لم يجدوا لأنور السادات ولا للسيارة أثراً، (٧) ويقول محمد ابراهيم كامل أنهم عادوا الى منازلهم «دون أن يتطرق الشك الى أي منهم».

وبعد نجاح حسين توفيق في اغتيال أمين عثمان، قبض على الجميع، واعترف الجميع إلا أربعة كان السادات في مقدمتهم. وكان السادات أذكى الجميع وبالتالي أعظمهم استفادة من الجريمة. فهو في السجن استفاد من كون محمد ابراهيم كامل ابناً لنائب رئيس محكمة الاستئناف الذي يقول كامل أنه «كان يتمتع بشخصية قوية ومحبوبة في أوساط القضاء والنيابة العامة، مما كفّل لي بعض الامتيازات، (منها) السماح لي بأن ألتقى الطعام من منزلي، فكانت والدتي ترسل لي طعاماً يكفيني والعديد من زملائي في القضية حيث كنت أقوم بتوزيعه بيننا بالعدل. وكان أنور السادات شغوفاً بالطعام، فكان يطلب مني أن أبلغ والدتي بأعداد أصناف معينة مثل طواجن الحمام بالأرز.. وكان هناك تعاطف شعبي واسع النطاق مع المتهمين حيث كانوا من طلبة الجامعات الشبان صغيري السن، وكان الشعور الوطني ضد الانجليز فياضاً، وقد ظلت القضية وما حفلت به من مفاجآت تشغل الصفحات الأولى في جميع الصحف المصرية على مدى سنتين استغرقتهما القضية، ولمع فيها اسم أنور السادات واشتهر حيث كان التركيز عليه لأنه كان ملفتاً للنظر بصوته الجمهوري وحركاته، فضلاً عن تصديه لمرافعة النائب العام بالهتاف بشعارات وطنية أثناء المحاكمة.. (وعند صدور الحكم، قضى بالحكم غيابياً على حسين توفيق بالأشغال الشاقة عشر سنوات، وعلى باقي المتهمين بالسجن مدداً تراوحت بين خمس سنوات وثلاث سنوات، وبراءة كل من أنور السادات وسعد الدين كامل ونجيب فخري وأنا»^(٢).

وبميزان الأرباح والخسائر من هذه العملية، كان السادات أعظم كسباً من أي شاب آخر من الشبان الجامعيين صغار السن الذين جرهم اليها وتخلّى عنهم باختفائه لحظة أن احتاجوه ليهربوا بتلك السيارة التي وعدهم بأن ينتظرهم فيها. فهو في السجن تمتع بالطعام «الذي كان شغوفاً به»، من بيت محمد ابراهيم كامل، وفي قاعة المحكمة اكتسب شهرة وشعبية وتركيزاً من جانب الصحف عليه، ولم يكلفه ذلك إلا التصايح ببضعة «شعارات وطنية»، ثم خرج من القضية «كما تخرج الشعرة من العجين»، كما يقول المصريون، وقد بات «ثورياً وطنياً، معترفاً به. ولا غرو أن ظلت تلك القضية الموضوع المحبب لدى السادات بعد توليه رئاسة الجمهورية، وظل يتلمس الفرص ليشير اليها في عشرات من خطبه العامة واحاديثه مع الصحافة كبرهان عملي على كفاحه الوطني من أجل مصر والذي بداه وهو في شرح شبابه. وقد خصص في كتابه «البحث عن الذات» الذي نشره وهو رئيس للجمهورية عام ١٩٧٨ عدة فصول عن تلك الحادثة»^(٣).

فالرجل، من مبدأ الأمر، كان - كما وصفه موسى صبري - «حيواناً سياسياً» بكل معاني الكلمة، ومؤهلاً - بتلك الكلبة Cynicism التي لا تقيم وزناً لشيء أو لقيمة الا لتحقيق مصلحة من يتصف بها -

لأن يصح «الزعيم» الأوحده الذي يخلف عبد الناصر وفي طريق ذلك التحقق للذات، لم يكن يقف شيء فممد «شرح شبابه»، كان على استعداد لارتكاب أي فعل، حتى خيانة «العيال» الذين لم يتورع عن حرهم الى تلك الساحة المميتة، وعلى استعداد للقيام بأي دور مسرحي، وبخاصة دور «الشباب الوطني المتحمس الذي لا يتورع عن شيء في سبيل مصر»، وعلى استعداد لأي كذب واختلاق ويبدو أن محمد إبراهيم كامل راوده شك قوي في أن السادات كان «يتحلى» بتلك القدرة على اختلاق الوهم وجعله واقعاً كيما يتواءم وما أراد أن يقنع الآخرين، ويقنع الذات في النهاية، به فهو يقول

«رغم الصلة الوثيقة التي ربطت بيني وبين السادات في السجن، إلا أنه لم يصح لي بشيء عن الجماعة (التي قال) أنه ينتمي إليها، أو عن أي من أعضائها، وإن كان قد نقل إلي إطباعاتاً عامصاً بأنها جماعة كبيرة تصمم العديد من صباط الحيش من مختلف الأسلحة وكثيراً ما كانت تملكني الحيرة في أمره (واتساءل) هل هو حقيقة عضو حقيقي في مثل تلك الجماعة أم أنه شخص يعمل بمفرده (ويدعي وجود مثل ذلك التنظيم)»^(١٠)

وبطبيعة الحال، هناك العذر الأبدي وجوب التمسك بالسرية وعدم الكشف عن أفراد التنظيم لشباب في السجن قد يفضض بما يقال له تحت الاقناع أو التعذيب لكن كلام السادات نفسه في مصارحاته لموسى صبري وقوله أنه كان، بعد ١٩٤٢، قد ظل

«خارج الحيش، خارج الحلقة أو خارج الميدان ولا يعلم أحد شيئاً عني في القوات المسلحة سنوات طويلة دفعات جديدة والأمور تطورت»^(١١)

وبهذه التركيبة، بهذا النوع من التعامل الخيالي مع الواقع والقدرة على تطويع الواقع المعاكس باختلاق وهم يكسوه ويحتويه ويبتلعه فيحل محله، كان أنور السادات، نفر المقاولات الذي ادعى أنه مقاول، الشاب الذي صدم محمد إبراهيم كامل إذ رآه في ثيابه الغريبة الشبيهة بما يرتديه البلطجية في أفلام العصابات الأميركية، والمتآمر الذي يتصيد الشباب الوطني المتحمس الغرليد فعه الى خضم الاغتيالات ويتخلل عنه ساعة الحاجة فيهرب تاركاً إياه لمصيره ثم يعود فيستغل محنته في المحكمة ليتصايح بالشعارات الوطنية ويرسم لنفسه صورة المناضل الوطني الذي يموت جوى في حب مصر، كان ذلك «النفر» الآتي من فراغ، السادر في خلق عالم موهوم حول نفسه واختلاق شخصية موهومة لنفسه، خير من يرث العالم المفتعل المكذوب القائم على الادعاء والتلفيق الذي تمخضت عنه «ثورة» يوليو/تموز والأهم من كل ذلك، كان السادات متمتعاً بتلك الخاصية الثمينة التي لا غنى عنها لـ «الزعيم» في كل نظام يقوم على الحكم الفردي المطلق ووحدانية الحاكم الذي لا شريك له ولا معارض له ولا مقاوم له، خاصية «الكلبية»، نسبة الى الفلاسفة الكلبين Cynics الذين تشككوا وشككوا في كل القيم والمواضع، وراجت تعاليمهم في القرن الثالث قبل الميلاد، وبخاصة في الاسكندرية، فتحوّل الى نوع وضع من «الكلبية الشعبية» نجد صدى غريباً له في كلام السادات عن الادعاء بتمجيد «الحياة الفقيرة البسيطة» والتلذذ بتسوية العدس أكثر من الديك الرومي في البيت الأبيض ولا نريد أن ندعي للسادات أنه كان فيلسوفاً، كلبياً أو غير كلبى إلا أنه مما لا شك فيه أن الرجل كان ديماجوجاً من الطراز الأول، جعجاعاً من طينة فريدة، و«حيواناً سياسياً» أصيلاً جمع بين خصائص «الكلبي الشعبي»، والديماجوج، والانتهازي، والحالم وتلك تركيبة مميتة، له ولبن حكمهم.

ولعل طبيعة «الحالم» كانت أخطر مكونات ذلك الزعيم. ففي كل تصرفاته مواقفه المعروفة عنصر واضح وقوي من «الحلم» و«التمني» وربما كانت لنشأة السادات المتواضعة يد في ذلك. فتلك النشأة الموجهة للنفس اقترنت بطموح عارم ظل محبطاً بشكل متواصل لسنوات طويلة

وقد ربط علماء النفس باستمرار بين الاحباط والعدوان، من جانب، وبينه وبين أحلام اليقظة والميل الى تغيير الواقع المعاكس المحبط عن طريق التفكير بالتمني والحلم بواقع أفضل وأكثر ملاءمة للنوازع والتطلعات، من جانب آخر وبطبيعة الحال، تتوقف أي استجابة نفسية على شخصية من يتعرض للمثير. فالشخص الشره الى الطعام، مثلاً، يكون أكثر استعداداً للعدوان كاستجابة لاحتباط شهيته للطعام والشخص الطموح الى الشهرة أو السلطة يكون أكثر استعداداً للعدوان متى اعترضت طريقه الى الشهرة أو السلطة صعاب أو عقبات أو أناس. ومن الطبيعي في مثل تلك الحالة أن يكون ذلك الشخص

الطموح المحبط طموحه أكثر استعداداً للعنف كيما يزيل العقبات والصعاب وللقتل (الاغتيال) كيما يزيح الأشخاص من طريقه الى تحقيق الطموح.

ويختلط بذلك الميل الى العدوان، ميل الى الحلم والتفكير بالتمني استعجلاً لتغيير الواقع المعاكس، وربما أيضاً، تعويضاً عما يشعر به الحالم من أنواع الضعف أو الجبن أو الخوف التي قد تعرض تحقيق طموحه للاحباط حتى وان جنح الى العنف - خاصة متى كانت ممارسته للعنف بالوكالة، أي بدفع الآخرين الى ارتكاب العنف لحساب طموحه، والهرب بنفسه مما قد يترتب على ذلك من مخاطر.

وليس هذا مبحثاً في علم النفس، وليس مجالاً للاطالة في محاولة «تحليل» شخصية السادات - على ما لتلك الشخصية من أهمية في استظهار ما نحن بسبيله، أي استظهار الكيفية التي تصيد بها الاسرائيليون والأميريكيون مصر من خلال استغلال ذكي ومدروس لشخصية الزعيم. ولذلك قد يجدينا أن نتوقف قليلاً عند بعض ملامح تلك الشخصية التي لا شك في أنها كانت فريدة.

يحكي لنا موسى صبري أن «السادات كان يحب أن يقرأ ما (ظل) يكتب عنه في صحافة العالم ومن كل كبار الكتاب في المؤلفات التي صدرت عنه»^(١٠٦) وأنه «كان سعيداً بالمكانة العالية الشامخة التي وصل اليها وكذلك بشعبيته داخل مصر بعد قرارات الروس (اخراج الخبراء السوفيات) والحرب (حرب أكتوبر/تشرين) والسلام (كامب ديفيد) وفتح قناة السويس»^(١٠٧).

وهذا كله طبيعي. وليس هناك سياسي أو رجل دولة أو انسان مشهور الا وفيه قدر من النرجسية وعبادة الذات والاقتنيات داخلياً على ما يكتب عنه. الا أن ذلك الضرب من النرجسية اتخذ دائماً في حالة الزعماء الفاشيين وممارسي الحكم الفردي المطلق طابعاً مرضياً جعله أشبه بالورم الخبيث في الروح والعقل والضمير. والورم الخبيث يلتهم كل ما حوله ويبتلع فيتورم أكثر. ولقد كان واضحاً باستمرار للمحيطين بالسادات، مما سمحوا لأقلامهم أن تدعه يفلت من انطباعاتهم عنه، أنه عانى دائماً من ذلك الورم بدرجة غير عادية من الالتهاب بسبب نشأته المتواضعة. فلا شك أن وجوده وسط زعماء الدول وتعامله معهم فيما بدا له (وأوهموه هم به) كتعامل الند للند، أشبع لديه ضروباً من الجوع الداخلي الذي لم يكن يشبع، وعوضه كثيراً عما ظل يعانيه (كاظماً الغيظ متحملاً لكل الاساءات) وهو «قابع في ظل عبدالناصر ومضطهد من ضباط الثورة الآخرين الذين نظروا اليه دائماً نظرتهم الى الدخيل الذي اقتحم دائرتهم المقفلة عليهم بغير وجه حق.

وهذه، هي الأخرى، خاصية من خواص شخصية أنور السادات وعاما الاسرائيليون والأميريكيون جيداً وعرفوا كيف يستغلونها أفعل استغلال في تعاملهم مع ذلك «الزعيم» المنهوم الى اشباع الذات.

«كان الأميريكيون الذين تحدثت معهم مقتنعين بأن شخصية السادات، بقدر ما يقل عن تفكيره وحساباته، كانت عاملاً هاماً في عملية صنع قراراته. فقد كان شديد التفرد والاستقلال، وكان - متى اختار درباً معيناً - يظل متشبثاً بها بقدر عظيم من التصميم، حتى عندما كان أكبر معاونيه ومستشاريه والمقربين اليه في أعلى هرم السلطة يخالفونه الرأي. كما كان لا يقيم أدنى وزن لوجهات نظر الزعماء العرب الآخرين. فلم يكن ينسى لدى لحظة أنه رئيس جمهورية مصر التي تفخر بحضارة تعود الى خمسة آلاف عام مضت، ولا سبيل لأن تضاهيها ثقافة أو قدرة على الفهم السياسي الدول العربية الأخرى حتى أغناها بالنفط أو تلك المزودة بأحدث الأسلحة السوفياتية»^(١٠٨).

قائل هذا الكلام موسى ديان، وهو - بطبيعة الحال - لا يكون موشى أن لم يستغل فرصة كهذه، وهو يعرف أن بعض العرب قد يضيعون وقتهم في القراءة، للدس والوقية بين مصر والدول العربية الأخرى حتى أغناها بالنفط وأعظمها تسليحاً بالأسلحة السوفياتية، بتصوير مصر كبلد يعتبر نفسه متحضراً وغيره همجاً. الا أن ما قاله ديان، غير ذلك صحيح، وهو أن السادات كان معتداً أكبر اعتداد بأنه «رئيس جمهورية مصر»، كان لا يصدق أنه قد أصبح فعلاً، في النهاية، رئيس جمهورية مصر، وكان مقتنعاً بأنه ما دام قد أصبح كذلك فإنه بات من حقه ألا يكون هناك رأي الا رأيه ولا تكون هناك درب غير دربه، وأن مشورة المستشارين والمعاونين مهددة بجانب رأيه، ووجهات نظر الزعماء العرب الآخرين غير متواجدة طالما كانت وجهة نظره مخالفة لها. فالسادات قد لا يكون طمح كعبد الناصر الى وضع «زعيم كل العرب»، الا انه - بغير شك - تصور أنه، وقد انضوى منذ بداية أمره تحت ابط «أمريكا، يا سبحان الله»،

كان قد بات «في غنى عن أولئك العرب» وذلك ضرب من التفكير بالتمني وتغيير الواقع بالحلم والوهم فمصر لا وجود لها في هذا العصر الوحشي الا كجزء حي متفاعل متكامل من الجسم العربي كله، وذلك الجسم العربي كله لا بقاء له بغير مصر ولقد كانت تلك بالذات الضربة الاسرائيلية الأميركية التي بدأت باستدراج مصر عن طريق كبرياء عبد الناصر الى هزيمة ١٩٦٧ الماحقة، واستدراجها عن طريق شخصية العمدة وتفكيره في بنية السادات الى صلح كامب ديفيد المميت، وهي ضربة تمثلت في انتزاع مصر، كما ينتزع اللحم الحي بجلده وعضلاته وانسحته وعظامه وشرايينه وأوردته، من الجسم الحي، حتى تضمصر مصر وتذوي وتسمم وتمرقق فتموت، وحتى يضرب الجسم العربي ضربة مميتة في الصميم بانتزاع مصر منه تحت وهم الصلح تتيح تمريقه وتسميمه وافتراسه هو أيضاً.

وكما كان السادات متعاملاً مع الواقع بالحلم والوهم والتفكير بالتمني في اختلاقه لما ظل يحكيه لم استدرجهم من شبان وطنيين، وما ظل يورطهم فيه وينجو بنفسه، مسبغاً على نفسه من خلال ذلك الخداع والهرب والتلفيق صورة المناضل البطل شديد المراس، وكما تطلع دائماً، في مسار آخر من مسارات التفكير بالتمني، الى تصور نفسه كصحفي وحامل قلم («كم أتمنى أن أعيش لأكتب فقط انها اسمى مهنة في الوجود، كتبت في شبابي مسرحية لم اكملها لي ذكريات تملأ مجلدات يا بختكم يا من تنفرغون لمهنة القلم»)^(١) وهو الوهم الذي حققته له «الثورة» بجريدة «الجمهورية»، ظل متعاملاً مع الواقع المحيف لمصر - بغير توقف للتفكير، بغير تنصر، بلا وازع من الصمير أو حتى رجاحة العقل - بنفس الأسلوب الضيق بصلابة الواقع ومناوآته لطموح من عودته تركيبته الشخصية وعززت ذلك الاعتقاد في نفسه ممارسته للسلطة الفردية المطلقة التي تقول للشيء كن فيكون، بالتصميم على تغيير الواقع حيثما بدا صلباً ومعاكساً وغير طيع اما بالتفكير بالتمني واختلاق الوهم، وإما بالهرب من مواجهة حرونته والتعامل بنفاد صبر مع تفاصيله ومتطلباته وتعقيداته ومساربه الخطرة المتشابكة ورغم ما لا شك في أنه كان متوافراً لرؤوس المنظمة الصهيونية ومعاونيها الأميركيين من معلومات وتحليلات وافية عن شخصية السادات، دهش موسى دايان لذلك الضرب الأحق من نفاد الصبر والتأفف من مواجهة الواقع وجهاً لوجه والهرب مما يتطلبه التعامل معه بجدية.

ففي أول لقاء بالسادات في القدس المحتلة «أبدى مناحيم بيحن عدداً من الملاحظات العامة، فقال انه ان الألوان لإحلال السلم، لكن المشاكل التي يتعين حلها كثيرة ومعقدة، ولذا يجب وضع اجراءات واشياء آليات تتيح بحث تلك المشاكل عن طريق المناقشة فكان أن بدت حبة الأمل على وجه السادات وقال انه لم يأت (الى القدس) للتباحث في وضع اجراءات، فهو لا يريد اجراءات بل يريد المضمون وأوراق العمل لا تثير اهتمامه، كما انه لا يعتقد ان ذلك «الاعداد المناسب» الذي تحدث عنه بيحن ضروري وقد كانت كلمات السادات واضحة بما فيه الكفاية روحاً، الا أنها لم تكن كفيلاً بالتوصيل الى أي معنى محدد لأنه ما الذي كان يقترحه تحديداً، على الصعيد العملي؛ لذلك، سألته ان كان - بما قال - يعني أنه يريد مناقشة المسائل المضمومية، كالمشكلة الفلسطينية، ومرتفعات الجولان، والاتفاق مع الأردن، للتو واللحظة، أثناء الزيارة الراهنة؟ وكان جوابه قاطعاً بالإيجاب. قال أن ذلك - تحديداً - كان ما جاء الى القدس لأجله. واذ داك قلت أنه ما دام الأمر كذلك، الا يرى أننا يجب أن نتفق على ما يتخذ من اجراءات تنفيذاً لما جاء لأجله، كان بنشئ هيئة خاصة مشتركة تكفل استمرار المحادثات؟ فكان جوابه القاطع بالرفض قال ان مثل تلك الهيئة لا لزوم لها لأن المضمون هو ما ينبغي أن يبحث، لا أية اجراءات، وكل ما يريده منا هو أن نوقعه على ما نحن على استعداد لتقديمه، وما نحن على غير استعداد لتقديمه

«ولحظتها بدا واضحاً ان رئيس جمهورية مصر كان قد تملكه الغضب وأنا أيضاً. لذلك أحبته بخشونة قائلاً انه، ان كان قد جاء لبحث المسائل الأساسية، يجب ان يكون مدركاً لكون برنامج الزيارة المشحون لن يتيح لأحد وقتاً لذلك. وعندئذ بدأ يلين وقال اذن ينبغي أن يبدأ المحادثات العملية على الفور ونواصلها بعد عودته الى القاهرة فإلهم هو ان نذهب الى مؤتمر جنيف ببرنامج متفق عليه

«وعندئذ سألته من الذين سيكونون الاطراف التي تضع ذلك البرنامج المتفق عليه؟ هل سيكونون السوريون؟ الأردنيون؟ الفلسطينيون؟ الولايات المتحدة؟ ومرة أخرى، عيل صبره ومرة أخرى لم يجر جواباً واضحاً قال فقط «أنا لا يهتمني من يكونون. ولا يهتمني من الذي سيحضر ومن الذي لن يحضر كل من أراد الحضور يمكنه ان يحضر. وكل من لم يجد لديه الرغبة في الحضور يمكنه أن يظل حيث هو فبوسعنا ان

بواصل بحث المسائل بدونه «كلام مبهم» (١١)

افعل العمدة واحمق. استثاره موسى الخبيث - الذي فطن لتوه الى نفاق صبره فيما يتعلق بمتطلبات التعامل مع الواقع - بالحاحه على مسائل «الاجراءات» وما الى ذلك. ففي مصر، لم يكن السادات يتوقف كثيراً عند أية اجراءات أو نقاش للآراء كل الاجراءات والآراء كانت تنسحب وتتوى مرتعبة تحت وطأة نظره أو «غضبه المفزعة» التي تحدث عنها موسى صبري وكأنه يتحدث عن غضب الله «كانت للسادات عصباته المفزعة داخل منزله وفي الاجتماعات السياسية الضيقة.. وهو اذا غضب فإن صوته الجمهوري يعلو ويطلق اتهاماته الهادرة» (١٢) ووقتها، في مصر، كان الكل يدخل الجحور. أما في القدس المحتلة، فكان الوضع مختلفاً. ومع ذلك لم يكذ السادات يتمكن من أن يكظم غيظه ويلجم صوته الجمهوري الا بشق الأنفس وبعد أن أغلظ له موسى دايان القول.

وقد لاحظت تلك الحصلة المتمثلة في نفاق الصبر لدى الزعيم المعتاد على أن تكون كلمته أشبه بكلمة الإله (Fiat) تخرج من فمه فيكون الشيء، كل من احتك به من «الأميركيين الساعين في الخير»:

«وكانت أول محطة في رحلة فاس (سايروس فانس وزير خارجية كارتر) الاسكندرية وهناك اجتمع بالسادات هو وحده ناهد الصبر، غير معني حتى بأن يصغي لما قيل له عن افكار بيجين، لأن رأسه كان معتلناً بأفكاره هو التي كان يريد وضعها موضع التنفيذ» (١٣)

وقد قال فانس عن السادات أنه

«كان بارعاً في خلق المواقف الدرامية وذا حس قوي بدوره في التاريخ ومنظور استراتيجي عريض، وأكثر اقياداً للحدس منه الى استخدام المنهج، مفصلاً السبولة واستمرار الحركة في دبلوماسية. وكان نافذ الصبر فيما يخص التفاصيل أكثر اشعاعاً بالمبادئ منه بالتنفيذ وقد بدا دائماً كما لو كان قد توقع أن تتدفق الحلول الملموسة تلقائياً بشكل أوتوماتيكي من مجرد الاتفاق على نقاط جوهرية» (١٤).

وذلك ما يعززه قول محمود رياض أنه عندما حاول الرئيس السوري حافظ الأسد تبنيه السادات الى رد الفعل العربي العدائي الشديد لاقدامه على زيارة القدس عندما ذهب السادات الى دمشق محاولاً اقناع الرئيس السوري بجدوى مشروعه اعلامياً وسياسياً، كان جواب السادات «أنه حتى ولو حدث مثل ذلك العداء لخطوته، فإنه سوف يرول قطعاً قبل أقل من ثلاثة أشهر (حيث أنه توقع) حل الصراع العربي الاسرائيلي برمته بمجرد قيامه بتلك الزيارة لأن اسرائيل لن تجد بعد ذلك ما تتعلل به للاستمرار في احتلال الأراضي العربية» (١٥).

وفي هذا القول الممعن في السذاجة الريفية الغشيمة التي تصورت أنها انقلبت الى شطارة دبلوماسية واقتدار لا يرقى اليه الا رجل الدولة العظيم، تلخص فهم النظام الحاكم في مصر «للمسألة». فالسادات تصور أنه بـ «تحركه الجريء البارع» سيخرج اسرائيل، ويضع حداً لـ «الصراع العربي الاسرائيلي» ويحلّه نهائياً لأنه، بمجرد أن يزور القدس ويراه العالم وقد ذهب بنفسه الى القدس وخطب في الكنيس وأعلن رغبة مصر (= رغبته هو) في تنفيذ القول الريفي «الصلح خير يا رجاله» لن تجد اسرائيل بعد ذلك ما تتعلل به للاستمرار في احتلال الأراضي العربية. فالعمدة قد ورث العزبة، وسيذهب الى العزبة المجاورة ليحرج المعتدين الذين يهاجمون عزبته منها ويردعهم عن العدوان بشهامته، ويفهمهم أن الصلح خير، ويقبل تلك المرأة جولدا مائير على وجنتيها.



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliothèque d'Alexandria

من الأمراض المميتة التي تصاب بها الأمم بفعل فيروس الحكم الفردي المطلق مرض ينشأ عن التواطؤ على تحويل الحياة إلى أكذوبة، تحويل الواقع اليومي المعاش إلى وهم يومي فالنظام يكذب باستماتة وإصرار، مجتهداً في إعطاء مبررات مشروعة وأسانيد أخلاقية لأجراءاته وتجاوزاته، واختلاق أهداف وطنية حميدة لكل ما يفعل وكل ما يتخذ من قرارات، والشعب المحكوم يتواطأ مع النظام على تصديق كل ذلك، أو بالأحرى التظاهر بتصديقه من حيث أن الكل يعرف أن النظام يكذب بصفاقة وأنه لا يهدف إلا لإدامة سلطته، وتأييد زعامة زعيمه ومزايا معاوني الزعيم والمنتفعين من زعامته لكن الشعب المحكوم - تحت وطأة الحكم المطلق، في غيبة الديمقراطية وحكم القانون، وفي ظل سيادة قانون القوة وفي مواجهة الصلاحيات التي لا تحد للأجهزة والشرطة بل والقوات المسلحة، ونتيجة لاغتيال النظام للسلطتين التشريعية والقضائية - ليس أمامه إلا أن يعلن العصيان ويتمرد فيمحق، أو يستسلم وينصاع فيتواطأ مع النظام على اغتيال حقوقه وأهدار أدميته كشعب من البشر لا قطعان من الماشية، والتضحية بكل مصالحه في سبيل مصالح الزعيم ونظامه بحجة أن تلك المصالح هي الخير الأعظم والمصلحة الحقيقية للوطن المفتى.

وبشكل ما، يمكن تلمس العذر للشعب المحكوم، خاصة متى كان نظام الحكم فردياً مطلقاً قائماً على تحالف الزعيم مع العسكريين. فذلك تحالف يضع الشعب المحكوم موضع الشعب الذي انهزم بلده في حرب لم يخضها، وبحكم تلك الهزيمة بات شعب بلد محتل احتلالاً عسكرياً. حقيقة أن محتليه لا يكونون جنود عدو خارجي، بل أبناءه الذين علمهم وسلحهم ودرّبهم على نفقته كيما يؤمنوه من أن يحتله عدو خارجي، فظلوا ينهزمون أمام العدو الخارجي ويهربون، ولا يجدون من يستأسدون عليه إلا الشعب الذي أعطاهم أسلحتهم ومزاياهم كيما يحموه ويتعاملوا مع أعدائه وفق ما تقرره أغليبيته، فيفعلون بذلك الشعب ما كان مفروضاً أن يفعلوه بالعدو فعجزوا عن فعله - حقيقة أن محتلي الشعب يكوسون - بذلك الانقلاب البذيء للأدوار - أبناءه أولئك، لكن احتلالهم له يظل في النهاية احتلالاً عسكرياً ولو كان ذلك الاحتلال بقوات عسكرية أجنبية لأمكن للشعب أن يقاوم مستعيناً بقواته الوطنية وشرطته وحكومته، كما قاوم الشعب المصري قوات الاحتلال البريطاني، مثلاً لكنه ما حيلة الشعب في احتلال تمارسه قواته الوطنية ويدعمه - بدلاً من «تحالف قوى الشعب العامل» الذي كان ينبغي أن يقف هو وقواته الوطنية في جبهة واحدة - تحالف العسكر والشرطة والأجهزة و«السادة المسؤولين» والجهاز البيروقراطي؟

عندما مات عبد الناصر، في ٢٨ سبتمبر/أيلول سنة ١٩٧٠، مُتّمما فضله على مصر بترك أنور السادات نائباً لرئيس الجمهورية كيما يخلفه عليها، كانت مصر قد أخضعت للحكم الفردي المطلق قرابة عقدين من الزمان، وبحكم التواطؤ استنامت إليه، وأغرقت في حياة موهومة مكذوبة أشبه بحياة من يظل - طوال ساعات صحوه - ممتليء الرأس بدخان الحشيش، فلا يفيق منه لحظة.

وكان السواد الأعظم من صحفيي مصر ومثقفّيها بل ومربيّها وأكاديميّها قد قاموا - أما ابتغاء للسلامة أو ابتغاء للربح - بدور قيادي رائع ومشرف حقيقة في ملء رؤوس المصريين من كل الأعمار والفئات والمشارب بذلك الدخان الأزرق، وتحويل الحياة في مصر إلى سيناريو «أوبرا صابون» ضخمة لم تكن تتوقف لحظة.

وعندما يكتب تاريخ الفكر والثقافة في مصر بعد ١٩٥٢، قد يتضح - تبعاً لآمانة وشجاعة من قد يتصدون لكتابة ذلك التاريخ - مدى الاسهام القيم الذي قدمه كثيرون من المصريين من حملة القلم و«صناع الرأي» في ذلك المجال الخطر.

فبفضل تواطؤ أولئك الكتاب والمفكرين الذين تحولوا في خدمة النظام إلى كتبة ومزيفي فكر ومفسدي رأي ومشوّهي رؤية، تمكن النظام من أن يضع موضع التنفيذ العملي الخلاق، قبل سنة ١٩٨٤ بوقت طويل، أسلوب الحكم الشمولي المنبني على أشياء من قبيل الحرب هي السلام، والجحيم هو النعيم،

والكذب هو الصدق، والطغيان هو الحرية، والوهم هو الواقع. وبفضل جعل الشيء نقيضه، أمكن لنظام قائم على الغياب الكامل للديموقراطية وحكم القانون أن يدعي لنفسه صفة الحكم النابع عن ارادة الشعب القائد والشعب المعلم، وأن يدعي لنفسه المشروعية. وعندما مات عبد الناصر وورث مصر تركة لأنور السادات، بات بوسع السادات الذي شارك مشاركة نشطة ومستمرة في كل ما فعله النظام منذ استولى على حكم مصر أن يدعي أنه جاء ليحقق الديموقراطية ويعيد حكم القانون.

(١/٢). إعادة القانون من عطلته

وفي حقيقة الأمر، لم يكن السادات قد أصيب بلوثة أو لحقه عطب كل ما في الأمر أنه أراد أن يخرج من ظل عبد الناصر، ورغب في أن يجعل من نفسه - هو الآخر - زعيماً. وكان السادات قد بدأ حكمه «شخصية باهتة مهتزة بالنسبة لشخصية عبد الناصر الحبارة، وتراوحت التقديرات (حول امكانية) بقاءه في منصبه كرئيس للجمهورية (وقد قدرها البعض) بعدة أسابيع (والبعض الآخر) بعدة شهور. وكان هنري كيسنجر مستشار الرئيس الأميركي نيكسون للأمن القومي من بين من راهنوا على ذلك. فقد كان السادات طوال حكم عبد الناصر - الذي دام ١٨ عاماً - قابلاً في الظل ولا يكاد أحد يعرف عنه شيئاً خارج مصر، رغم اشتراكه في ثورة ٢٣ يوليو/تموز ١٩٥٢ وعضويته في مجلس الثورة وشغله لمنصب رئيس مجلس الأمة ثم لمنصب نائب رئيس الجمهورية»^(١١٥). ترك عبد الناصر السادات في مركز نائب رئيس الجمهورية وبطبيعة الحال، كانت تلك صدمة مفزعة لكل معاوني عبد الناصر و«رفاق نضاله» الكبار الذين لا شك في أن كلا منهم راودته أحلام تملك العزبة بعد رحيل الزعيم. والذي لا شك فيه أن كل رفاق عبد الناصر من الأعضاء المؤسسين لـ «الحركة» بل ومن سبقوه الى التخطيط لحركة يقوم بها الضباط، كعبد اللطيف البغدادي، كانوا يعتبرون السادات دخيلاً على دائرتهم المقفلة عليهم أو التي رأوا - بحكم «الأقدمية المطلقة»، بالتفكير البيروقراطي الذي ما من شك في أنه يشكل أساساً جوهرياً من أسس التفكير لدى المصريين بمختلف فئاتهم - أنها كانت لا تتسع الا لهم، وهم كثر. والذي يقوله محمد حسنين هيكل في كتابه المحزن «خريف الغضب» أن السادات، عندما أدخله عبد الناصر في الجمعية التأسيسية لتشكيل الضباط الأحرار سنة ١٩٥١، قوبل بمعارضة شاملة وقوية من كل أعضاء التنظيم. ويقول هيكل أن تلك المعارضة لدخول السادات واقتحامه الدائرة المقفلة كان منشؤها المام الضباط الأحرار، بما فيهم عبد الناصر، بـ «سجل السادات». وهيكل يؤكد أن ذلك السجل لم يكن يشرف أحداً، لكنه لا يفسر السبب في أن عبد الناصر تغاضى عنه، منذ سنة ١٩٥١، في وجه معارضة قوية من جانب كل زملائه والسادات، في مصارحاته لموسى صبري، لا يذكر بطبيعة الحال شيئاً عن معارضة سائر الضباط الأحرار دخوله الجمعية التأسيسية، مقتصرأ على الضابط عبد المنعم عبد الرؤوف. «وقال لي جمال أن عبد الرؤوف اعترض على دخولي»^(١١٦)، لكنه، في تلك المصارحات ذاتها، يفصح - وإن لم يقل ذلك صراحة - عن أنه، منذ اللحظة الأولى، وجد نفسه في جانب، والضباط الأحرار زملاء عبد الناصر ومؤسسي الحركة، في جانب آخر مضاد، ويصور الأمر كما لو كان - بحكمته وحنكته وتمرسه بـ «العمل السياسي» - قد أنقذ عبد الناصر من مشاكل كثيرة كان أولئك الضباط الأحرار سيوقعونه فيها بـ «غشمهم» وتهورهم. «مثلاً حاولوا أن يخرجوا عبد الناصر واقترحوا القيام بعمليات اغتيال».. «ومرة أخرى، حدثني عبد الناصر عن صراعات في اللجنة التأسيسية سببها جمال سالم والبغدادي».. «وكان جمال سالم يتحدى دائماً جمال عبد الناصر بل ويتناول في الكلام (لكننا) اضطررنا الى قبوله»..^(١١٧) وفي موضع آخر، عني بأن يصور الأمر كما لو كان «بحكم ماضيه السياسي» قد شكل خطراً على عبد الناصر «وكان من حق عبد الناصر أن يتشكك. انني بحكم ماضيه السياسي يمكن أن أضعف معه وأعمل انشقاقاً في الحركة»^(١١٨) لكنه لم يوضح - بطبيعة الحال - من الذي كان سينضم اليه من ضباط الحركة ليحدث به ذلك الانشقاق وهو الذي تحدث بعد ذلك مباشرة عن «الدسائس وحسد الزملاء».

فبصرف البطر عن اتهامات هيكل للسادات بماض مشبوه كان خلاله عضواً في «الحرس الحديدي» في خدمة فاروق، وعرضه خدماته على القصر في مجال تصفية خصوم الملك من الساسة المصريين بالاعتقالات، وقبول «رشوة» من يوسف رشاد، أحد أذنان فاروق، لمساعدته على تأييد بيت وشراء سيارة، ظل من الواضح - بعد حاجة إلى ماض مشبوه أو غير مشبوه - أن السادات كان، منذ اللحظة الأولى، «الخروف الأسود» لحركة الضباط الأحرار، وأنه ظل مرفوضاً من أصحاب الحركة الأصليين وأتباعهم والمنتفعين بهم حتى النهاية.

لذلك، كان من «الحتمية التاريخية»، أن حاز استخدام هذا المصطلح ثقيل العيار في هذا المجال القمي، أن يقوم السادات، بعد رحيل الزعيم، بحركة تطهير بـ Putsch من نوع ما ظلت الحركات الفاشية تقوم به لتحقيق عملية نقل السلطة داخل صفوفها من طغمة إلى طغمة. وفي قيامه بذلك الانقلاب الداخلي في صفوف النظام، استفاد السادات كثيراً من عبد الناصر. فعبد الناصر، اكتشف كبش فداء جيد في «مراكز القوى». و«مراكز القوى» هذه لم تعد كونها الشلل التي تحمعت حول كل شخصية ذات نفوذ قوي من شخصيات النظام للتربح من النظام. ولم يكن بوسع النظام أن يستمر بدورها ما لم يكن الزعيم واثقاً من «الجماهير» إلى الحد الذي كان حرياً بأن يجعله يغير نظام الحكم من نسقه الذي استقر عليه في ظل وحدانية زعامته إلى «جمهورية شعبية» شمولية على غرار الجمهوريات الشعبية الأكثر تخلفاً بكثير عن الاتحاد السوفياتي أو نظم أوروبا الشرقية، كاليابان، مثلاً. وحتى آنذاك، كان الزعيم سيظل محتاجاً إلى «مراكز القوى» التي تشكلها قيادات أجهزة الأمن. لكن عبد الناصر وجد التحدث عن ذنوب «مراكز القوى» سفيداً في تحويل نقمة الجماهير بعيداً عن شخصه اثر خيبات النظام الكبرى.

وعندما وجد السادات نفسه على أبواب العزبة وفي يده ورقة من الزعيم الراحل تقول أنه اختاره نائباً له وخليفة - بحكم ذلك - لزعامته، ووجد في طريقه إلى «دوار العمدة» الذي سيحكم منه العزبة ويمتلكها أولئك المنافسين الأقوياء الكارهين الرافضين له من قديم، خفت إلى نجدته حكاية «مراكز القوى» - وكان فاتحة الأعمال (التي قام بها السادات لتعزيز مركزه الداخلي) قضاؤه على ما كان يعرف بمراكز القوى في عهد عبد الناصر (والتي كان أعضاؤها) قد ناصبوه العداء منذ أول لحظة لتوليته منصب رئيس الجمهورية» (١١).

وفي اللحظة نفسها التي قام فيها السادات بذلك التحرك الذي تكاملت له كل مقومات الـ Putsch الفاشي من سرية ومباغثة وانقلاب كامل في حيابة السلطة في صفوف النظام الحاكم، مستفيداً من استخدام عبد الناصر لحكاية «مراكز القوى» في عنفوان أزمات النظام، استخدم السادات بذكاء أيضاً أهدار حكم القانون طوال حكم عبد الناصر، فضرب عصفورين بحجر تخلص من خصومه أعضاء النظام الأصليين، وكسب شعبية كبيرة، وفي الواقع بدأ يتحرك خارجاً بتؤدة من ظل عبد الناصر

«في يوم واحد، استطاع السادات أن يتخلص من مراكز القوى، حيث باغتها بمناورة سريعة وألمح في شلها، رغم أنها كانت تمثل قوة هائلة، إذ كان خصومه يضمون السيد علي حسري، الساعد الأيمن لعبد الناصر، والذي كان يسيطر على «الاتحاد الاشتراكي العربي»، الحرب الوحيد في مصر في ذلك الوقت، والسيد شعراوي جمعة، الذي كان وديراً للداخلية ومسيطرأ على أجهزة الأمن، والفريق محمد فوزي وزير الحربية، والسيد محمد فائق وزير الإعلام وغيرهم، إذ تم اعتقالهم وتقديمهم للمحاكمة وإيداعهم في السجون وفي ملح البرق، حصل السادات على شعبية كبيرة، وبدأ الناس يتعاطفون معه ويعلقون الآمال عليه. وقد اتبع تلك الخطوة بالافراج عن المسجونين السياسيين وإغلاق المعتقلات وأعلن أن حكمه سيستند إلى سيادة القانون بعد أن كان بعض المسؤولين في مصر في وقت عهد الناصر يصرحون علناً بأن «القانون في إحارة» (١٢).

نجم السادات اذن في أول مغامرة كبيرة قام بها للتحول من منبوز النظام، و«جحا» مضحك الملك، والتابع الخاضع المطيع للزعيم. «وقد حدث عندما أخرجنا محمد نجيب أنني لم أكن موجوداً عندما صدر قرار عودته. كنت في منزلي وسمعت قرار مجلس الثورة بعودة نجيب أصدر عبد الناصر القرار ولم يرجع إلي لأنه يعلم أن صوتي معه وحتى في تشكيل الوزارات وغير ذلك من القرارات، لم أدخل معه في نقاش

أبدأ، وكنت أفرح على الصراعات من بعيد وأتألم^(١١١)، وتمكن بفصل الـ Putsch المحكم من أن يبدأ في التحول خروفاً من تحت الحذاء الناصري المخيم فوقه إلى حيث أمكنه أن يتطلع إلى ملء الفراغ الذي تركه الزعيم فهو وإن غير التسلل المستفيدة من النظام الممارسة للسلطة الشمولية على العزبة، لم يعير في الحقيقة شيئاً من نوعية النظام، بل حرص منذ اللحظة الأولى على إبقائه نظاماً قائماً على احترام الزعيم، على قداسة الرعيم، وعلى وحدانية الرعيم، وكأبت براعته التي تفوق بها على عبد الناصر في ذلك المضمار أنه لم يعن بترسيخ وحدانية الزعامة مستتراً وراء «الكلام» عن «الحماسير» و«الشعب المعلم»، و«الشعب القائد» كما فعل عبد الناصر، بل عمل على ترسيخ تلك الوحدانية مع القيام بأفعال ملموسة، بدلاً من مجرد الكلام، أمكن إيهام الشعب بها بأن القانون قد أعيد من عطلة، وأن «الديموقراطية» توقظ من سباتها أو بالأحرى عيوبها الطويلة، وأن العدل يأخذ محراه، عن طريق سلسلة من الإجراءات لرفع والغاء الحراسات التي أوقعت ظلماً فادحاً بالكثيرين ومحاكمات لم يسب اليهم القيام بأعمال التعذيب، كما بدأ الحديث يتواتر عن الاتحاد نحو حكم ديموقراطي (١).

غير أن شيئاً من أساسيات النظام لم يتغير كل ما تغير استخاض الممسكين بأعنة السلطة المسيرين لشؤون العزبة في ظل العمدة وبطبيعة الحال، لم تتغير قداسة الرعيم فالسادات كان، كسلفه تماماً، مؤمناً إيماناً كاملاً عميقاً بضرورة تلك القداسة، تلك الوحدانية في كلامه عن «صراعات» ما قبل الثورة، وجدناه قائلًا عن جمال سالم أنه كان كثيراً ما يحتلف مع عبد الناصر ويناقشه، بل ويتناول عليه ولم يكن عبد الناصر وقتها رئيس جمهورية أو حتى قائد ثورة. كان فقط منشيء تنظيم سري ينوي القيام بحركة انقلابية لكن السادات وحد في محرد اختلاف أحد أعضاء التنظيم معه ومناقشته أياه «تطاولاً» عليه وقد تساءل، في مصارحاته لموسى صبري كيف (يمكن أن تسول لأي منا نفسه) الصراع مع عبد الناصر؟ اليس هو الرجل الذي ظل يعد للثورة طوال عشر سنوات؟ اليس هو الذي كوّن الخلايا السرية؟ اليس هو الذي جمع الجمعية التأسيسية؟ فلماذا الصراع (وهو الزعيم)؟ اليس هو الذي استطاع أن يحول الهزيمة العسكرية في معركة ١٩٥٦ إلى انتصار سياسي؟ لا على مستوى مصر أو مستوى الأمة العربية فحسب بل وعلى مستوى العالم كله؟ (وحتى أن كان ذلك) الانتصار قد أثر على شخصيته (فجعله يتأله) ولو فهو صاحب هذا النصر فلماذا الصراع معه؟ (١٢٢).

النظام إذن ظل قائماً، استمرت مصالح الفئات المستفيدة من النظام. واستمرت مكوناته الأساسية. واستمرت وحدانية زعيمه بعد أن أمنها السادات بضربة «مراكز القوى»، واستمرت أيضاً «مراكز القوى». فذلك شيء لم يستطع حتى موسى صبري أن ينكره

«لقد استعاد السادات من تجربة الصراعات التي شأت حول عبد الناصر، ونجح في أنها لم تتكرر (في عهده) إلا في نطاق ضيق جداً، دون أن تكون حوله مراكز قوى، إذا ما استثنينا وضع أشرف مروان الذي تحول فعلاً إلى مركز قوة، وكذلك وضع عثمان أحمد عثمان الذي كان أقرب صديق إلى السادات في سنواته الأخيرة لكن الفرق هنا أن السادات كان مقتنعاً تماماً أنه كان يستخدم أشرف مروان في أمور هي في صالح مصر، وأنه كان يستفيد من عثمان أحمد عثمان في خلق رواج اقتصادي بمشروعات تنفذ فعلاً لا مجرد مشروعات على الورق»^(١٢٣)

وبطبيعة الحال، لم يذكر شيئاً عن كل تلك المحاكمات التي جرت بعد زوال عهد السادات لغير هذين من «مراكز القوى» ومراكز التربح ومراكز الانتفاع.

ففي النهاية، لم يتغير شيء إلا شخص الزعيم وأشخاص أتباعه الذين أحاط نفسه بهم تأمياً لاستمرار ملكيته للعزبة. وفي مصارحاته الذكية لموسى صبري، حاول السادات أن يعطي انطباعاً بأن الصراع بينه وبين «مراكز القوى» نشب بسبب رغبته في إعادة القانون من عطلة الطويلة، وتصفية الحراسات. وكان اختياره التركيز على تصفية الحراسات كمثار للصراع مع «مراكز القوى» بمثابة القول، بغير جهر، أن الصراع نشب لأن النظام في ظله تحول إلى نظام «نظيف» يرفض الأشياء الرديئة التي من قبيل النهب. لأنه لماذا تدخل «مراكز القوى» في صراع مع رئيس الجمهورية حول تصفية الحراسات، ما لم يكن ذلك متعلقاً بالمكاسب المادية؟

«أول قرار اتخذته بعد أن توليت رئاسة الجمهورية كان قرار تصفية الحراسات وطلبت من سامي شرف

أن يكلف لبيب شقير وضياء الدين داود أن يعدا لي مشروع قرار بتصفية الحراسات (علم يحدث) فقلت له بكل أسى أريد من الدكتور جمال العطيبي أن يكتب قراراً بتصفية الحراسات من ثلاث نقاط الأولى كلام واضح عن تصفية الحراسات. والثانية أنه لا تفرض حراسة إلا بحكم قضائي واحراءات قضائية والثالثة تعيين مدعي اشتراكي»^(١٢٤)

وهكذا فإن شيئاً لم يتغير كل ما هنالك أن الزعيم الجديد رأى أن يضرب منافسيه على السلطة من ذلك المنفذ الضار بهم الحراسات، فيشهر بهم، ويحرمهم في الوقت ذاته أما سلاح الحراسات فباق، وكل ما هنالك أن القضاء (الذي كان قد اكتمل اخصاؤه في ظل الزعيم الراحل) سيدفع الى مقدمة الصورة، فيصبح فرض الحراسات بحكم قضائي واجراءات قضائية (يمليها بطبيعة الحال النظام وينفذها القضاء العادل)، ويظل هناك ذلك المنصب القضائي المفيد، منصب المدعي العام «الاشتراكي»، حتى بعد انتهاء موضة «الاشتراكية».

ويواصل السادات حكايته، فيقول «ومن هذا التاريخ، بدأ الصراع يشتد ويتطور، ولكن من ناحيتهم. أما من ناحيتي أنا، فأنا قاعد مستني على حافة التربة لغاية ما تفوت الجثث قدامي واحدة واحدة، ولا يوجد شيء يهزني»^(١٢٥).

والواضح مما يحكيه السادات أن المسألة بينه وبين زملاء عبد الناصر ومعاونيه القدامى كانت قد تحولت، اثر توليه لرئاسة الجمهورية الى صراع مكشوف على السلطة، وأن كل جانب من الجانبين في ذلك الصراع كان على وعي بأنه، كما يقول المصريون، «يا قاتل يا مقتول»، أي اما سباقاً الى قتل خصمه أو مقتولاً بيد الخصم

«الصراع بدأ في اللحظة العليا المركزية قبل شهرين وعلي صبري تجاوز حدوده وكذلك ضياء داود (أي تطاولا على الرعيم كما كان جمال سالم يتناول علي عبد الناصر).. فبعد الصراع حول الحراسات، نقلوا التركيز الى عمليات الوحدة خلال الاجتماعات التي بدأت في نوفمبر/تشرين الثاني، وديسمبر/كانون الأول ١٩٧٠ أولاً مع ليبيا والسودان، ثم مع سوريا وكانت الأصوات في اللجنة العليا ضد الوحدة خمسة ضد ثلاثة، وتصوروا أسى سأراجع، لكنني صممت على دعوة اللجنة المركزية المهم صعدوا الصراع وساعة اقالة علي صبري صعدوه بشكل رهيب . وفي صباح ١٢ مايو ١٩٧١ زرت الجيش واتخذت قراراً في المساء، كان مفروضاً أن أنور مديرية التحرير يوم ١٢ مايو، واتضح أنهم كانوا قد دبوا لي «كميناً» هناك.. وكنت أتوقع معركة (معهم) لأن الأمن المركزي - المسلح من المانيا الشرقية - يتبع شعراوي جمعة وهو القوة الوحيدة الموجودة في القاهرة والجيش خارج القاهرة. والفريق فوري معهم وكان لا بد أن استعد لمواجهة. وقد قال لي الليثي، قائد الحرس الجمهوري، أنه حاضر تماماً وكل تفصيلات الخطة عنده، ومعدة قبل شهرين، والواجبات موزعة دون أن يشعر أحد وكان أساس الخطة حماية القاهرة، ودخول معركة سواء كانت مع الأمن المركزي أو القوات المسلحة»^(١٢٦).

فحقيقة الصراع أنه لم يكن صراعاً حول إعادة القانون من العطللة، أو إلغاء الحراسات، أو الدخول في وحدة مع ليبيا أو السودان أو سوريا، بل كان صراعاً بين قمم النظام حول حيازة السلطة وبالتالي حول ملكية المزرعة، وقد وصل ذلك الصراع الى حد اقامة كمين لرئيس الجمهورية في مديرية التحرير، واستعداد رئيس الجمهورية وحرسه للدخول في معركة مع قوات الأمن بل والقوات المسلحة. فهو صراع تقليدي من صراعات السلطة في النظم الفاشية، وبين عائلات المافيا.. وقد كتب النصر فيه للاكتر دهاء والأقدر على السرية والأشد ضراوة في القيام بما اقتضته الضربة على النسق الفاشي التقليدي، وتحقيق ذلك النصر للسادات لأن كافة القوى المستفيدة من استمرار النظام واستقرار الأوضاع في مصر تأمينا لمصالحها مالت الى جانب السادات، بوصفه ممثل «الشرعية»، وبوصفه أيضاً، وبلا أدنى شك، المفضل لدى عزابي النظام الخارجيين، وبالذات الولايات المتحدة الأميركية التي قد يتكشف يوماً ما دور مخابراتها ونفوذها في ترجيح كفة السادات على كفة أناس كعلي صبري وبطانتته ممن اعتبرتهم الولايات المتحدة اتباعاً للسوفييات.

(٢/٣) - العمدة يدخل تحت ابط أميركا

وكانت علاقة غرام توطدت بمرور الوقت قد نشأت بين السادات و«أمريكا» منذ دعاه الأميركيون لزيارة الولايات المتحدة سنة ١٩٦٦، وانسحر هناك بناطحات السحاب ومظاهر البذخ والثراء والقوة فظل طوال

العمدة يحاول أن يصبح زعيماً

الزيارة فاتحاً فاه معمعماً «يا سبحان الله» يا سبحان الله»
ومنذ بداية رعامته، أوضح السادات أنه كان قد راهن على «الأصدقاء الأميركيين»، وهو رهان دام حتى آخر لحظة في حياته

ومن الظلم للسادات أن يصور ذلك الميل الأميركي لديه كنوع من التدوؤ أو «الخيانة» أو الخروج على خط النظام الحاكم في مصر وربما كان السادات أكثر ميلاً إلى الاستعراضية في تصريحاته وتحركاته، إلا أنه لا شك في أنه عندما اتخذ المسار الأميركي لم يكفر أو يتنذ أو يأتي بجديد فالنظام - منذ بدايته المبكرة - كان قد احتار ذلك الحط وعندما أرغمت الحروسة الأميركية عبد الناصر على لعب الورقة السوفياتية كان عبد الناصر مرعماً في ذلك لا بطل، ولم يكن سعيداً لا هو ولا النظام باضطرابه إلى لعب تلك الورقة أصلاً فالنظام لم يكن شيعوياً ولم يكن اشتراكياً وإن كان للنظام لون سياسي أو ميل أيديولوجي فهو، بلا شك، صوب الفاشية لا الديموقراطية ولا الاشتراكية ولا الديموقراطية الشعبية

وبطبيعة الحال، لم يكن في شيء من ذلك ما يفرر الولايات المتحدة من النظام أو يجعلها ترفضه وتعاديه، خاصة وأنها هي التي راهنت عليه من مبدأ الأمر وأقنعت البريطانيين بعدم ضربه عسكرياً وواد حركته بما كان متوافراً لهم من قوات عسكرية ضخمة في منطقة القناة عندما نشبت «الثورة». إلا أن كون النظام في مصر، وبالتالي كونه داخل في دائرة النتائج المترتبة على العروة الاستيطانية الصهيونية البادئة بفلسطين، حرم عبد الناصر وبطامه من الاحتضان الأميركي الكامل الذي يتمتع به أناس ككبيوشيه في شيلي، أو الذي تمتع به ماركوس في الفلبين، أو النظام العسكري في اليونان، أو أي نظام حكم فردي مطلق آخر قائم على أوضاع الاحتلال الداخلي لأي بلد من بلدان العالم الثالث بقواته الوطنية ونتيجة للمشاكل التي ظل يسببها المشروع الصهيوني في الشرق الأوسط والتزام الولايات المتحدة بتنفيذه وإنجاحه، ونتيجة لشخصية عبد الناصر وطموحه إلى وضع الرعامة لا على مصر فحسب، بل وعلى العالم العربي كله، ظلت تحدث تلك «المتاعب» بين النظام في مصر والولايات المتحدة

وبحكم تواجده في قمة النظام - حتى وإن ظل تحت مقعد عبد الناصر - لم يعب شيء من ذلك عن فطنة السادات، ولم يفعل عما يمكن للزعيم أن يحققه من مكاسب إذا ما عمل من تحت إبط أميركا بدلاً من أن يظل يتظاهر بمباطحتها في العلن ويحاول استرضائها في السر، كما فعل عبد الناصر في حالات كثيرة، أو «يخرج على طاعتها» ويفعل ما من شأنه أن يستثير بقمته، كما فعل عبد الناصر في حالات معينة، وعلى ضوء ذلك الوعي، وبفضل تلك «القطبة» اختار السادات لنفسه أن يكون «رحل أميركا»، خاصة وأن الروس فضلوا عليه علي صبري فقد سأل موسى صبري قائلاً: «لقد سألت الدكتور مراد غالب عن أثر زيارتك للاتحاد السوفياتي في ١٩٦٧، قال لي إن الروس يرتاحون للتعامل مع علي صبري، «وكان رد السادات ببساطة «هذا طبيعي» (١٢٧)

وكان تولي السادات رئاسة الجمهورية في مرحلة كانت الدبلوماسية الأميركية حاهدة خلالها، ومنذ ما قبل وفاة عبد الناصر، في القيام بتجربة جديدة في الشرق الأوسط عرفت آنئذ باسم «مبادرة روجرز» ويصور موسى صبري الوضع آنئذ على الوجه التالي.

«مات عبد الناصر بعد أن كان قد وَّخه بداء إلى الرئيس الأميركي نيكسون، في خطاب علي^(٩)، «بأن تحدث

(*) الخطاب الذي القاه عبد الناصر في عيد العمال ووجه فيه الكلام إلى الأميركيين مباشرة
«أني أتوجه إلى الرئيس نيكسون، وأقول له أن الولايات المتحدة الأميركية توشك أن تقوم بخطوة بالغة الخطورة ضد الأمة العربية (بتزويدها إسرائيل بشحنات جديدة من الطائرات) فالولايات المتحدة، بخطوة أخرى على طريق تأكيد التفوق العسكري لصالح إسرائيل، سوف تعرض على الأمة العربية موقعاً لا رجعة فيه، موقعاً يتعين علينا أن نستنتج منه ما هو ضروري، وذلك سوف يؤثر على كل علاقات الولايات المتحدة الأميركية بالأمة العربية لعشرات السنين
«أني أقول له أن الأمة العربية لن تستسلم ولن تعرط، وهي تريد سلاماً حقيقياً ولكنها تؤمن بأن السلام لا يقوم على غير العدل

«أريد أن أقول إذا كانت الولايات المتحدة تريد السلام، فعليها أن تأمر إسرائيل بالانسحاب من الأراضي العربية المحتلة. إن ذلك في طاقة الولايات المتحدة التي تأمر إسرائيل بأمرها لأنها تعيش على حسابها، وأي شيء غير ذلك لا يجوز علينا. ولن =

أمريكا موقعها (١) وبعد أن كان قد أعلن قبوله لمشروع روجرز اثر مباحثات فاشلة له مع رعماء الكرملين في موسكو

«وكان عبد الناصر يجري اتصالات سرية مستمرة مع حكومة الولايات المتحدة الأمريكية كان رسوله فيها محمد حسين هيكل ولم يكن السادات - حتى بعد تعيينه سائناً لرئيس الجمهورية - يدري شيئاً عن هذه الاتصالات لكن السادات كان على يقين تام بأن عبد الناصر كان يتحين الفرصة للاتجاه الى العرب» (١٢٨)

وسواء كان السادات قد علم أو لم يعلم في حياة عبد الناصر بالاتصالات السرية مع الولايات المتحدة، فإنه بمجرد أن تولى رئاسة الجمهورية استجاب لـ «مبادرات» أمريكا استجابة ايجابية للغاية

«وقد استجابت مصر، تحت رئاسة رعيمها الحديد، أمور السادات (الذي كان مطوراً اليه اند شكل كاد يكون عاماً بأنه رئيس مرحلي مؤقت) ايجابياً لمبادرة ياربع بأن تات أول دولة عربية وافقت رسمياً على توقيع اتفاقية صلح مع اسرائيل متى تمت عملية صنع السلام» (١٢٩)

(١/٢/٢) . البعد الايراني

في أعقاب حرب ١٩٦٧، «تزايدت عزلة الولايات المتحدة في العالم العربي، وتصاعد الشعور العدائي ضدها الى أبعاد لم يبلغها من قبل. وفي محاولة لاحتواء هذا العداء المتزايد، حاول ويليم روجرز، وزير الخارجية الأمريكي القيام بجولة في المنطقة، خصوصاً في الدول التي تعتبرها الولايات المتحدة «معتدلة» فزار المغرب وتونس في ٩ و ١٠ فبراير/شباط (١٩٧٠)، ليسمع نقداً شديداً للسياسة الأمريكية، وامتدت جولته الى عدد من العواصم الأفريقية» (١٣٠)

ولقد كان ذلك العداء المكشوف المتعاظم للولايات المتحدة، حتى من جانب «المعتدلين» العرب شيئاً جديداً على الأميركيين وفي وزارة الخارجية الأميركية بدأ على وجل اتحاه الى القيام بما يدعوه الأميركيون «Spin»، أي محاولة احتواء الضرر وتحجيم المشكلة

وكان التصور الذي أخذ يتضح على مهل في خلفية «مشروع روجرز» قائماً على ما أسمى وقتها بـ «كفوا عن اطلاق النار، وابدأوا في التحدث معاً» (stop - shooting, start - talking project)، أي وقف اطلاق النار بامتداد القناة، لمدة تسعين يوماً، وأجراء محادثات مصرية/اسرائيلية غير مباشرة عن طريق السفير يارنج. ووقتها، استمات هنري كيسنجر في محاولة نسف المشروع عن طريق القول بأن مبادرات الخارجية الأميركية لم تتجه الى معالجة المشكلة الرئيسية والمتعاضمة المتمثلة في وجود قوات سوفياتية مقاتلة في مصر، وكان كيسنجر يحاول من موقعه في مجلس الأمن القومي، افساد كل ما كانت الخارجية في ظل روجرز تحاول فعله إلا أن نيكسون، الذي لم تكن الصهيونية قد فجرت تحت مقعده فضيحة ووترجيت بعد، ولم يكن بالتالي قد وقع تحت اصبع هنري كيسنجر بعد، كان قد جاء الى الحكم بتصورات لسياسة كوكبية تواءمت خطوطها مع الموقف الذي اتخذته الخارجية الأميركية وتبناه ويليم روجرز بتأييد واسع من كبار المسؤولين بالوزارة في مواجهة كيسنجر ومجلس الأمن القومي

وهكذا، كما يقول محمود رياض:

«قدر نيكسون أن يتحرك أخيراً استجابة لنداء الرئيس جمال عبد الناصر؛ وجاء تحركه في شكل رسالة

= يجور هذا حل

«والحل الثاني، إذا لم يكن في طاقة أمريكا أن تأمر اسرائيل، فنحن على استعداد لتصديقها إذا قالت ذلك، مهما كانت أراؤنا فيه ولكننا في هذه الحالة نطلب طلباً واحداً، هو بالتأكيد في طاقة أمريكا. ذلك الطلب هو أن تكف عن أي دعم جديد لاسرائيل طالما هي تحتل اراضينا العربية أي دعم سياسي أو دعم عسكري أو دعم اقتصادي وإذا لم يتحقق الحل الثاني، فإن على العرب أن يخرجوا بحقيقة لا يمكن المكابرة فيها بعد الآن، وهي أن الولايات المتحدة تريد لاسرائيل أن تواصل احتلال اراضيها حتى تتمكن من فرض شروطها علينا بالاستسلام أن ذلك، ولا أزال أتوجه بالحديث الى الرئيس نيكسون في محاولة أخيرة، لن يحدث أن كل المؤامرات التي تجري الآن ضد الأمة العربية وضد جبهة التحرير لن تنجح اني أقول للرئيس نيكسون أن هناك لحظة فاصلة قادمة في العلاقات العربية الأميركية إما أن تتركس القطيعة الى الأبد، وإما أن تكون بداية أخرى جادة ومحددة أن التطورات القادمة لن تمس العلاقات العربية الأميركية وحدها، وإنما ستكون لها تأثيرات خطيرة أوسع من ذلك وأبعد»

العمدة يحاول أن يصبح زعيماً

كتبها ويليم روجرز في ١٩ يونيو/حزيران ١٩٧٠ وأبلغها لي دونالد برجس في القاهرة في اليوم التالي وقد بدأ روجرز رسالته بالاشارة الى أنه قرأ بحرص وتمعن خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في أول مايو، وقال أنه يوافق على أن الموقف في الشرق الأوسط يجتاز نقطة حرجية، واعتقد أنه من مصلحتنا المشتركة أن تحافظ الولايات المتحدة على روابط الصداقة مع كل شعوب ودول المنطقة وتقويها واننا نأمل أن يكون هذا ممكناً، ونحن مستعدون للاسهام بنصيبنا،^(١٢١)

وبذا بدأ التحرك الأميركي الذي نبع من تبصر الخارجية الأميركية، من جانب، بمغبة التوحد، لا مجرد الانحياز، الأميركي الكامل بالمشروع الصهيوني، كما نبع أيضاً من قناعة الرئيس الأميركي الجديد، نيكسون، بأنه ظل بوسع الولايات المتحدة أن «تخلع» السوفيات من المنطقة بسحب «السجادة» من تحت أقدامهم، أي بتجريدهم من اضطرار العرب الى الاستعانة بهم، عن طريق تخفيض حدة الصراع، ونزع الفتيل من «برميل البارود» كما أسمى نيكسون الشرق الأوسط، واجراء تسوية بين العرب واسرائيل تغنيهم عن الاحتياج لـ «الروس»

وبطبيعة الحال، استماتت اسرائيل والحركة الصهيونية في معارضة ذلك التوجه بكل الطرق، ومن بينها معارضة كيسنجر من موقعه بالغ التأثير كمستشار الرئيس الأميركي للأمن القومي وغير اعتبارات التربح المادي لجامعي التبرعات لاسرائيل في الولايات المتحدة، وهي اعتبارات بالغة الأهمية والفعالية في العمل على أدامة الصراع، كان وراء استماتة اسرائيل والحركة الصهيونية في ضرب الاتجاه الذي نبعت منه تحركات روجرز واصرارهما على اجهاضه، ما انزعجت له الزعامة الصهيونية من بدايات الوعي لدى خبراء السياسة الخارجية الأميركية بأن مصالح الولايات المتحدة الإقليمية، في الشرق الأوسط، والكوكبية على صعيد العالم وبخاصة في ساحة التنافس مع السوفيات، باتت معرضة فعلاً لمخاطر كبيرة من جراء الاندماج الكامل في تنفيذ المشروع الصهيوني بلا أدنى توقف عند مصالح أحد وبالأخص المصالح الحقيقية للولايات المتحدة

ونتيجة لذلك، ظهر ذلك التوجه الذي أزعج اسرائيل ومؤيديها في المؤسسة الحاكمة الأميركية، لدى وزارة الخارجية في ظل روجرز الذي حاول أن يوفق بين اعتبارات ثلاثة هامة هي

١ - المحافظة على بقاء اسرائيل ومواصلة دعمها اقتصادياً وعسكرياً وديبلوماسيةياً، أي عدم التخلي بحال عن الالتزام الأميركي بانجاح المشروع الصهيوني، مع تغير في التكتيك عملاً على.

٢ - المحافظة على علاقات ودية معقولة مع العالم العربي بابعاد اسرائيل مرحلياً عن القيام بدور «رجل أميركا القوي» أو قبضة أميركا الحاكمة في المنطقة، واجراء تسوية مع اسرائيل يقبلها العرب.

٣ - اعطاء دور القبضة الحاكمة في الشرق الأوسط لبلد اسلامي لا يستجلب ما تراءى للاميركيين أن اسرائيل استجلبته من عدااء بكونها دولة يهودية، مما يعفي اسرائيل مرحلياً من تصدّر الساحة بتلك الصفة، أي كـ «شرطي» أميركا

وكانت أولى علامات ذلك التوجه الجديد في السياسة الخارجية الأميركية اتجاه الدبلوماسية الأميركية الى تفسير لقرار مجلس الأمن ٢٤٢ انبنى على أنه في حين تؤمن أميركا بوجوب تعيين حدود سياسية معترف بها توافق عليها كل الأطراف المشتبكة في صراع الشرق الأوسط، فإن أي تغيير في الحدود التي كانت قائمة قبلاً لا ينبغي أن يكون انعكاساً لوزن الغزو (Should not reflect the weight of conquest)، وأن ذلك التغيير يجب أن يقتصر على تعديلات طفيفة تتطلب. ادواعي الأمن المتبادل. فالولايات المتحدة لا تؤيد التوسع.

أوردنا هذا الكلام، سنة ١٩٧٤، في دراسة تحليلية مطولة لتحركات «السلام» الأميركية في الشرق الأوسط آنئذ، قلنا فيها.^(١٢٢)

والذي نعتقد أنه الولايات المتحدة كانت قد قررت، منذ ما قبل حرب أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٣، القيام بعملية «أسلمة» أشبه بما قامت به من فتمة (Vietnamization) للحرب في الهند الصينية، وذلك بتغيير الدولة التي تقوم بدور القبضة الحاكمة لحساب الولايات المتحدة في المنطقة، فتستبدل اسرائيل بدولة أخرى لا تستجلب كل هذا القدر من العدااء الذي قد يوجد - من وجهة النظر الأميركية بالأقل - ما يبرر

القول بأن قدراً كبيراً منه يرجع الى الكراهية الدينية بأكثر مما يرجع الى الوعي بأي خطر حقيقي لإسرائيل على البلدان العربية المحيطة بها حضارياً وعسكرياً واقتصادياً وسياسياً ومصيرياً ولقد حفلت صحف الغرب دائماً بأحاديث وتصريحات وأقوال لزعماء عرب (وخاصة من ذوي المكانة الروحية) تعزز ذلك الفهم لكراهية العرب لإسرائيل.

وقلنا أيضاً

«فالذي نعتقد أنه، قبل نشوب حرب أكتوبر/تشرين الأول بوقت طويل، كانت الولايات المتحدة قد قررت أن تقوم بعملية «عزال» استراتيجية من إسرائيل. ولا نقول طبعاً أن أحداً في الولايات المتحدة كان قد قرر «التخلي عن إسرائيل» أو «الغدر بإسرائيل»، لأن ذلك غير ممكن، وغير مطلوب من وجهة النظر الأميركية والغربية عامة، بل وضد المصالح العليا - على المدى الطويل - للعالم المتقدم الذي تجري العملية برمتها لحسابه (صوب ازاحة الشعوب من أراضيها والاستيلاء عليها). والذي تهدف اليه الديبلوماسية الأميركية الجديدة يحقق ذلك بغير حاجة الى استمرار تورط إسرائيل والذي يغلب على الظن أنه اذا ما ترك العرب العملية الديبلوماسية الأميركية الحالية تتم فصولاً، وتركوا قبضة أميركا الحاكمة الجديدة، إيران، التي تهدف العملية الى إحلالها مرحلياً محل إسرائيل، تقوم بدورها في تصفيتهم، ستؤول المنطقة كلها، بعد أن يكون قد تم تخليصها من العرب جميعاً، أغنياء وفقراء، إلى إسرائيل، أرضاً خالية غير ملوثة غنية بالموارد الطبيعية والتربة الخصبة والمساحات الشاسعة، لتديرها إسرائيل لحساب العالم المتقدم (فيما يأمل ذلك العالم المتقدم) بعد أن تكون القبضة الحاكمة المرحلية، إيران، وحكامها المتآمرون، قد ألحقت بضحاياها في الملاء الأعلى»

وتحت عنوان «شمس الأكاسرة تبرز من جديد»، قلنا في تلك الدراسة:

«لم تكد إسرائيل تخرج مطرودة من إفريقيا، حتى بدأت إيران تعمل على شغل مكانها في القارة المنكوبة بأطماع الأقوياء، و«ملء الفراغ» الذي خلفه خروج إسرائيل. وقبلها، خرجت بريطانيا من منطقة الخليج، فاستماتت إيران في محاولة فرض وصايتها على منطقة الخليج و«ملء الفراغ» الذي خلفه خروج بريطانيا. وفي الجنوب الأفريقي، «تملأ إيران الفراغ» الذي خلفه تخرج بريطانيا من المزيد من التعاون المكشوف مع أعتى دول العالم عنصرية مفضوحة، جنوب إفريقيا، فيتعاون الشاه مع تلك «الدولة». وفي ظفار، تخوض إيران حرباً قدرة ضد من يدعوهم الشاه بـ «المتوحشين» وربما سمعنا عما قريب - اذا ما قررت الولايات المتحدة أن تسحب يدها من جنوب شرقي آسيا - أن الشاه قد قام بـ «ملء الفراغ» هناك أيضاً فهو قد عقد العزم، فيما يبدو، على القيام بمهمة حفظ «القانون والنظام» في العالم بأسره

«وعندما ظهر على شاشة التلفزيون البريطاني منذ شهر في أعقاب صفقة مجزية كان قد تفضل بها على بريطانيا، وجلس واضعاً ساقاً على ساق مرتاحاً مطمئناً وأخذ يقول لمحدثه البريطاني الذي أوشك أن ينشق غيضاً «أن الغرب سينفجر الى الداخل (Implode) ما لم تكف شعوبه عن الكسل والامعان في الترف وتكف حكوماته عن التساهل ازاء المجتمع المتساهل» - عندما ظهر الشاه بهذه الصورة المتعالية، واعظاً منذراً مصدرراً هذه التعليمات للأوروبيين شعوباً وحكومات ومجتمعات، قامت قيامة حقيقية في بريطانيا التي كان وزيران من وزرائها في حكومة ادوارد هيث السابقة قد ذهبا الى سان موريتز فوقفا بباب الشاه انتظاراً لصفقة نفطية، وقال بعض كتاب الصحف في سليل الأكاسرة ما قاله مالك في الخمر. غير أن الضجة احتويت بسرعة.. فالذي لا شك فيه أن إيران الشاه قد بدأت تتخذ في هذه الآونة مكانة «طفل المتقدمين المدلل الشقي» (L'enfant Terrible) في الشرق الأوسط وغيره من المناطق المحيطة.. وهي قد غنمت عقداً مع الولايات المتحدة والعالم المتقدم تبدو الآن أخذة في ظله في بسط نفوذها على المنطقة ونعني بالمنطقة ما هو أوسع من الخليج. ولولا تصدي العراق، الذي بات - بحكم ذلك التحول المرحلي من إسرائيل الى إيران - القوة العربية الأولى في خط المواجهة الأول، لكانت إيران قد حققت الكثير في وقت قصير، لأن أحداً في المنطقة لا يتوقع منها شراً فيما يبدو، باعتبار أنها ليست إسرائيل. ذلك رغم أن الشاه لم يحاول في أي وقت اخفاء تعاونه مع إسرائيل ومع عزابي إسرائيل، ورغم أنه يتسوق المفاعلات النووية مثلما فعلت إسرائيل قبله بسنوات. ورغم أنه أخذ في التسلل الى إفريقيا ليقوم بالدور الذي كانت إسرائيل

تقوم به فيها إلى أن طردت ورغم أنه يصرب بلا توقف على حدود العراق وفي ظفار. ورغم تهليل الصحف العربية بأن مصادمات الحدود الإيرانية بالعراق وترحيبها بدور قوات الشاه في «تثيت» القوات العراقية في أماكنها بتلك الساحة وكف تلك القوات عن الاسهام بدورها في الصراع العربي مع إسرائيل وفي قلاقل الشمال والتأمر على نطف العراق وسلامة أراضيه، كانت يد الشاه واضحة حلية في يد إسرائيل والولايات المتحدة، بينما تسحنت السلاح الأميركي إلى إسرائيل تحول، لأول مرة منذ استتت إسرائيل، لتصب حيث تصب امدادات السلاح الآتية من عند الشاه ونفس عملية العزل، والتفتيت، والاحتاطة، والاحتواء، التي تمارسها الولايات المتحدة تجاه البلدان العربية استفراداً، لحساب إسرائيل، باسم التحرك صوب السلام، تمارسها إيران لحساب الولايات المتحدة في الخليج باسم الحفاظ على «مصالح العالم» والحرص على «الحضارة»، وتأمين خطوط تموين العالم بالنفط

وهكذا تقيم الولايات المتحدة سلامها الأميركي على قاعدة عريضة تمتد من ساحل المتوسط في قوس يخيم على المنطقة ليستقر طرفه الآخر على ساحل الخليج ورويدا رويداً تعمل الولايات المتحدة على سحب إسرائيل من ساحة الحرب المكشوفة للتفرع لدخول ساحة الاغتيال الاقتصادي والتفاهم والحدود المفتوحة والتطبيع، بينما داخل كل بلد على حدة من خلال دعاوى السلم والانفتاح والتفاهم والحدود المفتوحة والتطبيع، بينما يوكل دور إسرائيل القديم إلى إيران، دور القبضة المدرعة الحاكمة التي تهوي - لحظة صدور الإشارة من واشنطن - على رأس من لا يدعز وعلى مهل، تدفع الشعوب إلى ساحة الموت الحماعي والابادة الشاملة ولن تكون حاجة لأحد لا للشاه، ولا لإيران، ولا لغيرها من البلدان التي يضربها المتقدمون ببعضها البعض ويطلقونها لتقتل بعضها البعض لحسابهم. لن يحو أحد»

ووقتها قال لنا كثيرون أن هذا امعان في التشاؤم، وامعان في اساءة الظن بالجميع، وافتراس للوحشية الدموية في الأميركيين غير أن الأحداث ما لبثت - قبل أن يمر وقت طويل على نشر الدراسة - أن برهنت على أن ما جاء بها لم يكن تشاؤماً أو اساءة ظن، بل كان رؤية واضحة لم تشوشها حشية من مواجهة الواقع ولم يصللها تفكير بالتمني، وقراءة صائبة لما جرى من أحداث بالمنطقة بعد شرك ١٩٦٧

والذي حدث أن الولايات المتحدة، من خلال وزير خارجيتها، أثار قلقها ما لمس روجرز من عداء متعاطم للأميركيين في العالم العربي وفي نفس الوقت، كانت الولايات المتحدة متجهة، منذ نجح نيكسون في انتخابات الرئاسة في أواخر ١٩٦٨، إلى قناعة جديدة - نعت من رؤية الرئيس المنتخب الكوكبية لأبعاد الصراع الأميركي السوفيياتي على تسيد العالم - تمثلت في أن «حلع» الاتحاد السوفيياتي من الشرق الأوسط يجب أن يمثل هدفاً أساسياً من أهداف السياسة الخارجية الأميركية، وأنه هدف ممكن التحقيق بغير مواجهات عسكرية أو تصادم، عن طريق اجراء تسوية تكون مقبولة لكل الأطراف.

ففي حين لمس المسؤولون الأميركيون الحد ذلك العداء المتعاطم للولايات المتحدة لدى شعوب المنطقة ومعظم الأنظمة الحاكمة فيها، لم يجدوا بالمقابل أي حب مشبوب للسوفييات أو تعلق باستبقائهم، لدى العرب بعامه، وإن تفاوتت بطبيعة الحال مواقف الحكومات العربية تجاه السوفييات تبعاً لنوعية النظام الحاكم، من بلد لآخر. كما بدا واضحاً للمسؤولين الأميركيين أنه حتى عبد الناصر كان يصدر في علاقاته بالسوفييات، التي أثارت نقمة الإدارات الأميركية السابقة، عن الحاجة التي لم يكن لديه مهرب من الاستجابة لها إلى موازنة ما أبدته الولايات المتحدة من انحياز مطلق إلى إسرائيل.

وفي مذكرات ريتشارد نيكسون واقعة قد تلقي ضوءاً على ذلك وتتعلق الواقعة بـ «حديث ليس للتشر»، أو ما يسميه المصريون «دردشة» لهنري كيسنجر مع بعض الصحافيين الأميركيين، قال مستشار الرئيس الأميركي للأمن القومي خلالها أن «هدف الإدارة الأميركية الأول» طرد الطيارين السوفييات وغيرهم من العناصر القتالية السوفيياتية من منطقة الشرق الأوسط». واذ وقف نيكسون على تلك «الدردشة» عني بأن يثبت في يومياته «للاستخدام في أول مؤتمر صحفي لاحق» أنه «بالوسع طرد السوفييات من الشرق الأوسط عن طريق عقد تسوية سلمية بين العرب وإسرائيل»^(١٢٢)

ووقتها، كتب نيكسون في يومياته ما يلي

«إن على المسر ماثير، وراي، والآخرين، أن يولوا ر (ريتشارد نيكسون) ثقة كاملة وعليهم أن يفهموا

حيداً أنه لا رعية لديه إطلاقاً في إسقاط إسرائيل في البالوعة، وأنه ملتزم التزاماً تاماً بأن يتكفل بأن تظل لإسرائيل دائماً الأممية والتفوق على غيرها (ensure that Israel always has «an edge») لكنهم يحب أن يدركوا أيضاً أنه يتعين عليه، من جانب آخر، الحصول على تأييد الـ ٦٠٪ من الناخبين الأميركيين الذين يشكلون ما يدعى بـ «الأغلبية الصامتة» التي جاءت به إلى الحكم والتي لا عسى عن الاعتماد عليها إذا ما اضطرت الولايات المتحدة إلى اتخاذ موقف قوة تصدياً للتوسعية السوفياتية في الشرق الأوسط، لا أن يحصل فقط على رضا الناخبين اليهود في نيويورك، وبسلفانيا، وكاليفورنيا، وربما أيضاً في اليسوى، وهم الذين صوتوا بأغلبية ٩٥٪ ضده في انتخابات الرئاسة. ولن يصبح بوسع الرعماء الاسرائيليين أن يتمتعوا بأي أمر يمكن الركوب اليه الا اذا أدركوا هذه الحقيقة ووعوها حيداً. نحن سنظل في الحكم لسنوات ثلاث مقبلة، وستظل هذه سياسة هذا البلد وما لم يفهم رعماء إسرائيل ذلك ويتصرفوا كما لو كانوا قد فهموه، فليعلم الرعماء (They are down the tubes) (١٢١).

وكانت تلك الفصاحة التي تهوّر نيكسون فانزلق إليها شيئاً مفتقراً إلى الحكمة تماماً بلغت عواقبها الوخيمة ذروتها بفضيحة ووترجيت التي أجهزت عليه و«ضيعت مستقبله»، كما يقول المصريون. غير أنه، عندما كتب ذلك الكلام الذي أفصح فيه عن حقيقة تفكيره، كان في مستهل عهده، ممثلاً ثقة بالنفس وبقيناً بتأييد «الأغلبية الصامتة» الأميركية له، فوق أنه اعتبر نفسه ذكياً ذكاء ما بعده ذكاء إذ أشرك معه في الحكم «الولد اليهودي العبقري» هنري كيسنجر، ولم يخطر له ببال أن ذلك الولد العبقري سيكون هو في النهاية من يتلقى استقالته من رئاسة الجمهورية الأميركية.

والخطأ المميت الذي وقع فيه نيكسون أنه تصور أنه، حقيقة وواقعاً، كان رئيس جمهورية بلد حر مستقل ذي سيادة، ودولة كبرى هي إحدى الدولتين العظميين الرئيسيتين في عالم اليوم، ولم يفتن إلى أنه كان هناك في البيت الأبيض كواجهة أميركية لا أكثر للمصالح والقوى التي تحكم الولايات المتحدة وتديرها لحسابها وتسير شؤونها وتوجه سياساتها الداخلية والخارجية وفقاً لأهدافها وتنفيذاً لمخططاتها، وأن أولئك «الناخبين اليهود» الذين تحدث عنهم وذكرهم بأن ٩٥٪ منهم صوتوا ضده في انتخابات الرئاسة، يمكن اعتبارهم - متى جد الجد وبات الأمر متعلقاً بالمصالح الأعلى والأهم - الناخبين الوحيدين الذين لهم وزن حقيقي ومؤثر بالنسبة لمصير أي سياسي أو رجل دولة أميركي، لا بفضل كثرتهم العددية، بل بفعل القوة الاقتصادية والاجتماعية الهائلة التي يتمتع بها اليهود في الولايات المتحدة والتي لا تتكافأ ونسبتهم العددية إلى مجموع السكان، وبفضل تجيش الحركة الصهيونية لهم في تجمعات ومنظمات تتيح لها ملكية الحركة لوسائط الاعلام قدراً بالغ التأثير من ارتفاع الصوت والقدرة على الضغط والابتزاز.

ولم يكن شيء من كل ذلك خافياً على نيكسون. فهذه الحقائق تعتبر ألف باء الاشتغال بشغلة السياسة والحكم في الولايات المتحدة. الا أنه، كما قيل دائماً، عندما يريد الله أن يضيع أحداً يفقده عقله. والذي يبدو أنه حدث لنيكسون كان ذا شقين: شق تمثّل في صعود مشاعر القوة إلى رأسه، مما أفقده رجاحة العقل وجعله يتصور، كما قلنا، أنه كان قد بات رئيساً حقيقياً لبلد مستقل ذي سيادة، وشق تمثّل في أن الرجل كان من أصحاب الرؤى، وقد تبلورت رؤاه في تجسّد عارم للطموح الكوكبي الذي ظل ملازماً لسياسة بلده ورجال الدولة فيها، لكنه وصل، في حالته إلى درجة الحواز والوسواس المسيطر.

ونتيجة لذلك الوسواس، «ظل التنافس مع الاتحاد السوفياتي على الصعيد الكوكبي، الدافع الرئيسي لكل تحرك قام به نيكسون في تعامله مع مشاكل الشرق الأوسط، واجتهاده في التوصل إلى تسوية بين العرب وإسرائيل، ومن خلال ذلك تحجيم «الراديكاليين» العرب وتحسين العلاقات مع المعتدلين من الحكام وفي الوقت ذاته كسب تأييد اليهود الأميركيين. وقد تمخض تركيز نيكسون على الخطر السوفياتي بوصفه التحدي الرئيسي الذي واجهته مصالح الولايات المتحدة، ونشوء علاقات أكثر تعقيداً واستعصاء على التحليل مع إسرائيل، ومفاتيحه الجديدة للدول العربية، كل دولة على حدة، عن ظهور استراتيجية أكثر تعقيداً من أي استراتيجية أميركية كانت قد انتهجت قبلاً. وبإزاء هذه الخلفية، كانت العضلة التي واجهت نيكسون طيلة رئاسته الأولى أن جهازه الخاص بصنع السياسات (الخارجية ومجلس الأمن القومي) انقسم على نفسه منذ البداية انقساماً خطيراً جعله في النهاية عاجزاً عن التعامل المنسّق مع المنطقة من خلال تلك الاستراتيجية بالغة التعقيد، مما ترتب عليه الكثير من ضروب التناقض والتخبّط» (١٢٥).

العمدة يحاول أن يصحح زعيماً

ويمكننا الآن القول أن نيكسون، بهذه «الاستقلالية»، حفر قبره السياسي بيده. وكان غضب الصهيونية عليه قد بدأ مبكراً، منذ ما قبل تنصيبه رسمياً في يناير/كانون الثاني ١٩٦٩. فقد بعث نيكسون، إثر نجاحه في انتخابات الرئاسة، في أواخر ١٩٦٨، على سبيل الاستعداد لمعالجة المشكلة عندما يدخل البيت الأبيض ويتولى السلطة، بصديقه ويليم سكرانتون، الذي كان فيما سبق حاكم ولاية بنسلفانيا، في بعثة استقصاء حقائق إلى الشرق الأوسط. وأثناء عيوره لجسر اللنبي من الأردن إلى الضفة العربية المحتلة، اختل توازن الرجل، فصرح بقوله أن سياسة الولايات المتحدة يجب أن تصبح، من ذلك الوقت فصاعداً، أكثر توازناً وعدلاً مما ظلت عليه حتى تلك اللحظة وأنها «يجب أن تأخذ في الاعتبار كل البشر وكل البلدان في الشرق الأوسط لا أن تظل متبنية مصالح أمة واحدة بعينها فوق كل مصالح غيرها».

وكانت تلك، في الواقع، أول قنبلة يدوية شديدة الانفجار انفجرت تحت قدمي نيكسون حتى من قبل أن يجلس على مقعد الرئاسة في البيت الأبيض. وللغور، سارع ناطق بلسان الرئيس المنتخب، فأعلن أن ريتشارد نيكسون لا صلة له إطلاقاً بتلك الأشياء التي قالها سكرانتون

والمعروف الآن أن سكرانتون قدم تقريراً لنيكسون بنتائج «استقصائه للحقائق» في المنطقة، أوصى فيه بأن «تأخذ السياسة الخارجية للولايات المتحدة في الحسبان، بشكل أفضل مما سبق، «احتياجات العرب» (Arab Needs)، وإلا فإن «الروس» سيحققون اختراقاً أضخم مما كانوا قد توصلوا إليه بالفعل وعني سكرانتون، بطبيعة الحال، تأميناً لمستقبله، بأن يضمن تقريره توصية موازية بأن «تواصل الولايات المتحدة، في الوقت الذي تأخذ فيه في حساباتها احتياجات العرب، التمسك بقوة بالتزامها بأمن إسرائيل».

وفي أول مؤتمر صحفي له إثر تنصيبه، أعلن نيكسون أن رئاسته لن تسير على خط جونسون السلبي، وقال أنه لا يرى رأي إسرائيل في السعي إلى إرغام العرب على التفاوض المباشر معها، وركز على احتمالات تطور الوضع في الشرق الأوسط إلى النقطة التي يمكن أن تقع عندها مواجهة بين الولايات المتحدة و«الروس»، واصفاً المنطقة بأنها «برميل بارود».

وبطبيعة الحال، كان الإسرائيليون في غنى عن خبرهم بأن الشرق الأوسط «برميل بارود»، فهم الذين جعلوه كذلك واقتضى مشروعهم أن يستبقوه على أهبة الانفجار في أي وقت ولم يكن اليهود الأميركيون الذين كدس كثيرون منهم البلايين بفضل الأوضاع دائمة التوتر في الشرق الأوسط وما أتاحته لهم من جمع التبرعات من الأميركيين الجوييم، ومن الضغط على المؤسسة الحاكمة لصب البلايين من أموال أولئك الجوييم في الاقتصاد الإسرائيلي والترسانة الإسرائيلية، لم يكونوا بحاجة إلى رئيس أميركي ينصرف عن تلك المصالح ويتحدث عن مصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، ويتجه إلى محاولة نزع الفتيل من برميل البارود المربح، بل وإلى محاولة فرض سلام يمليه من واشنطن على إسرائيل عملاً على سحب السجادة من تحت أقدام «الروس».

فشواغل نيكسون الكوكبية وتركيزه على التنافس مع السوفييات كانت ضرباً من «الخيانة» لمصالح الحركة الصهيونية وإسرائيل.

وبطبيعة الحال، أعطيت اشارات كثيرة لنيكسون لاثناؤه عن ذلك المسار الخطر، صدر معظمها عن الكونجرس الأميركي الذي يتألف من سياسة محترفين يعرفون جيداً أصول اللعبة ويدركون أن «صرة المال» الأميركية في أيدي اليهود ويتذكرون باستمرار المصائر المعتمة التي لحقت بكل مشتغل بالسياسة أو الحياة العامة أصابته لوثة فحاول أن يخرج من الصف ويعلن العصيان على سادته اليهود.

لكن نيكسون، كما وصفه كثيرون ممن أرخوا لرئاسته، كان مخلوقاً «معقداً» ممثلاً بالشكوك والحزازات التي ترسبت في جذور شخصيته من بيئته الفقيرة «كان مخلوقاً انطوائياً شديداً الانطوائياً، وهي سمة لا بد أن نشأته الأولى نمّتها لديه. كان معتاداً على ألا يعتمد على رأي إلا رأيه أو على تصور غير تصورات. ومعظم قراراته كانت قرارات انفرادية اتخذها دائماً لنفسه بنفسه وبمعزل عن تأثير الآخرين.. وكان قد حمل معه إلى منصب الرئاسة ضغينة متقيحة (festering rancour) تجاه الأثرياء الأقوياء بثراتهم.. وهكذا فإن بداخله كان ظلام دامس أخطأ فتصور أنه النور الذي يهتدي به، فكان في ذلك دماره» (١٣).

فهو، باختصار، كان رئيساً «رأيه من دماغه»، كما يقولون في مصر، وكما يقول هذا المؤرخ، كان في دماغه «ظلام تصور أنه نور يهتدي به». ونتيجة لذلك «الظلام الذي كان في رأسه»، ظهر اتجاه واضح في صفوف ادارته خلال الأسابيع الأولى من توليها السلطة في سنة ١٩٦٩، صوب القيام بتحريك ديبلوماسي جديد في الشرق الأوسط ومنذ اللحظة الأولى، تصدت الحركة الصهيونية لذلك التحرك بكل قواها وكل أسلحتها، حتى من قبل أن يتضح البعد الإيراني فيه.

وكانت هناك عوامل عديدة دفعت إدارة نيكسون الأولى الى ذلك الضرب من الاستعجال غير المألوف في مثل هذه المواقف، وبخاصة من إدارة جديدة كانت أخذة في تحسس طريقها في غابة واشنطن التي تعس في متاهاتها قوى ومصالح ضارية.

أول تلك العوامل، كانت حرب الاستنزاف التي شنتها مصر في ظل عبد الناصر على القوات الاسرائيلية عبر القناة، ونشوب الثورتين العربيتين، السودانية في مايو/أيار ١٩٦٩، والليبية في سبتمبر أيلول من نفس السنة، والتي كان أول عمل قومي لها مطالبة العقيد القذافي لأميركا بالجلاء العاجل عن قاعدة هويلس المسيطرة على البحر الأبيض المتوسط والداعمة من البر وفي الجول للأسطول السادس الأمريكي، وما أدت اليه الثورتان من تعميق الشعور لدى صانعي السياسة الخارجية الأميركية «بتعاظم المخاطر التي تعرضت لها المصالح الأميركية في العالم العربي وتعرضت لها في نفس الوقت كافة النظم السياسية التي كانت الولايات المتحدة ما زالت تعتبرها «معتدلة» «بالمقياس الأمريكي»^(١٣٧) وبالتالي، تقوية حجة الداعين في وزارة الخارجية الأميركية بالمبادرة بتحسين العلاقات مع العالم العربي قبل أن تتدهور الى ما دون نقطة اللاعودة.

ومن تلك العوامل أيضاً كان التعهد الذي قطعه نيكسون على نفسه لجمهور الناخبين الأميركيين أبان معركة انتخابات الرئاسة في خريف ١٩٦٨، بانتهاج نهج جديد تجاه الصراع العربي الاسرائيلي عملاً على استنقاذ منطقة الشرق الأوسط من براثن «الروس».

والواقع أن نيكسون لم يكن راغباً في دفع الأمور في الشرق الأوسط صوب التسوية لمجرد «خلع» السوفيات منها بإزالة الأوضاع التي أدت بالعرب الى اللجوء اليهم، فحسب، بل وكان راغباً في الوقت ذاته في استغلال الشرق الأوسط في تحريك السوفيات صوب تخفيف الضغط على الولايات المتحدة في ورطتها الفيتنامية.

وبفعل تلك العوامل مجتمعة، والحاج الخارجية الأميركية في ظل ويليم روجرز على وجوب التعجيل بمبادرة أميركية لتهدة الوضع في الشرق الأوسط والتحرك بنشاط صوب التسوية، حتى وإن تطلب ذلك الضغط على اسرائيل (١) لتقديم تنازلات تمكن الأميركيين من اقناع العرب بقبول التسوية و(٢) القبول باتخاذ وضع (posture) أقل عدوانية وأكثر ميلاً الى المصالحة، أعطى نيكسون مباركته للتوجه النابع من وزارة خارجيته، والذي كانت المعارضة تشدد له بقوة في مجلس الأمن القومي ومن جانب هنري كيسنجر بالذات.

واعتقادنا أنه عندما يكتب تاريخ واضح وحقيقي، أي غير مفبرك جزئياً وغير منزوع الحقائق جزئياً، سيتبين أن جزءاً رئيسياً من مشروع الخارجية الأميركية آنذ تمثل في محاولة اقناع اسرائيل والضغط عليها للقبول - مرحلياً - بإحلال ايران الشاه محلها كقبضة حاكمة للولايات المتحدة في المنطقة.

وقد كان ذلك المشروع - الذي قد يكتب للحقائق المتعلقة به أن ترى النور في وقت ما - من أخطر التحديات التي واجهتها الحركة الصهيونية في مسيرتها المربحة التي لم يكن قد اعترض طريقها شيء حتى ظهر ذلك التفكير الخطر لدى بعض خبراء الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الأميركية. ومما يدل على خطورة التحدي أن الحركة الصهيونية، ممثلة باسرائيل، وبالمنظمات والمصالح اليهودية في الولايات المتحدة، شنت على المشروع حرباً لا هوادة فيها منذ اللحظة الأولى، وهي حرب استمرت بضراوة منقطعة النظر الى أن انتصر فيها كيسنجر لحساب الحركة الصهيونية، وراح ضحيتها ويليم روجرز، وزير الخارجية الذي انتهى مستقبله السياسي، وريتشارد نيكسون الذي دمر بفضيحة ووترجيت، وشاه ايران الذي دمر بثورة الخميني.

العمدة يحاول أن يصحح زعيماً

فمنذ أعلن روجرز أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ بالكوبجرس الأميركي، في أواخر مارس/ آذار ١٩٧٠ أن الولايات المتحدة «قررت القيام بدور ديبلوماسي نشط في الشرق الأوسط» على أساس التفسير الذي أشرنا إليه لقرار مجلس الأمن ٢٤٢ والذي جاء فيه أن الولايات المتحدة «لا تؤيد التوسع»، اشتدت الحملة التي استهلتها المصالح الصهيونية في فبراير/ شباط ١٩٧٠ بوفد من أعضاء الكونجرس بعثت به إلى البيت الأبيض ليعرب لنيكسون عن بالغ القلق إزاء ذلك الاتجاه الجديد الذي اتضحت أبعاده منذ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٦٩ عندما عرف التفسير واثراً ظهور روجرز أمام لجنة العلاقات الخارجية بالكونجرس، ازداد ذلك «القلق» حدة، ووجد له لساناً، كما هي العادة، في طوفان من «الرسائل إلى الصحف» كان الكثير منها بتوقيع أعضاء بمجلسي الشيوخ والنواب بالكونجرس وحشد من «الشخصيات»، تركز معظمها على معارضة اتجاه «فرض السلام على إسرائيل».

وبإزاء تلك الحملة المنظمة عالية الصوت، اضطرت إدارة نيكسون إلى عقد لقاءات متعاقبة مع وفود من الكونجرس وزعماء اليهود الأميركيين ولاقي ويليم روجرز بالأخص عنثاً شديداً في تهدئة ثائرة أعضاء الكونجرس وكبار الشخصيات وأعضاء المنظمات اليهودية وقاداتها. وسرعان ما اكتسب شهرة سيئة بوصفه «المتنمر تجاه اليهود»!

وقد ذكرته جولدا مائير في مذكراتها بوصفه أحد أكثر المسؤولين الأميركيين «اثارة لمشاعر الاحباط» لدى الاسرائيليين، وقالت أنه «لم يفهم في حقيقة الأمر الخلفية الكامنة وراء ما ظل العرب يشنونونه من حروب على إسرائيل»، وأنه لم يدرك، في الوقت ذاته، أن «كلمة العرب لا يعتمد عليها، وروت كيف أنها شعرت بالاشفاق عليه وهو يحكي لي متحمساً عن أول زيارة له للدول العربية، وكيف أنه تأثر تأثراً عميقاً بما أبداه فيصل من «ظماً إلى السلام»^١ وقالت أن مصيبة روجرز أنه رجل «جنتلمان» وأنه ككل «جنتلمان» آخر، يتصور أن كل شخص آخر في العالم «جنتلمان» مثله^(١٢٨).

وجولدا، بطبيعة الحال، لم تدع «جولدا» اعتباراً ولم تصبح رئيسة وزراء «الدولة» بلا سبب ولقد يجد المرء في هذا «الدكاء» كله وهذه الأستاذية كلها في قلب الحقائق وتحويل الضحية إلى وحش والوحش إلى ضحية، بعض «المؤهلات» التي أوصلتها إلى ذلك المنصب الرفيع وأدخلتها التاريخ وجعلت بطل السلام المصري، أنور السادات، يضمها إلى صدره ويقبل وجنتيتها باشتياق.

إلا أن الذي يعنينا في كلام جولدا قولها أن الخط الذي انتهجه «الجنتلمان» روجرز الذي تصور أن أحداً من أولئك العرب المتوحشين يمكن أن يكون «جنتلماناً» مثله وله كلمة يعتمد عليها، نبع من عدم فهم روجرز «للخلفية الكامنة وراء ما ظل العرب يشنونونه من حروب على إسرائيل»^١ فبصرف النظر عن أنها - بالصفقة المعهودة - «وضعت الحذاء في القدم الأخرى»، كما يقولون، فنسبت إلى العرب شن ما ظلت إسرائيل تشنه عليهم من حروب وما استدرجتهم إليه من شراك، أشارت بطريقة دائرية، في قولها «لم يفهم خلفية الصراع»، دون جهر، إلى ما كان الأميركيون أخذين في محاولة اقناع الاسرائيليين به وقتئذ من التخلي لإيران عن دورهم كـ «رجل أميركا القوي» في المنطقة، مرحلياً، إلى أن تهدأ الأمور، وتعقد التسويات، وتدخل إسرائيل البلدان العربية عن طريق الصلح والوثام والتطبيع لتدمرها من الداخل بدلاً من أن تظل مشتبكة في حروب من الخارج.

وقد طرحنا هذا الاستقراء لسياسة الولايات المتحدة الأميركية في الشرق الأوسط خلال الفترة التي تولى فيها ويليم روجرز وزارة الخارجية في إدارة نيكسون الأولى وقام بمبادراته الثلاث، في الدراسة السابق الإشارة إليها، والمنشورة في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧٤، والتي ركزنا فيها على البعد الإيراني في سياسة أميركا الخارجية آنئذ، وحاولنا استظهار ما بدا أن ذلك الاتجاه لا بد مفض إليه بالنسبة للصراع في الشرق الأوسط، وبالنسبة لإيران الشاه الذي قلنا أن الاسرائيليين قد يلحقونه بأجداده في الملأ الأعلى قبل انقضاء وقت طويل، وبالنسبة لمشروع فرض السلام الأميركي على المنطقة

ومنذ ذلك الوقت ظللنا نتابع ما يكتبه الباحثون والمحللون الأميركيون حول تاريخ تلك المرحلة من مراحل السياسة الخارجية الأميركية إزاء الشرق الأوسط، عملاً على استظهار مزيد من الحقائق عن ذلك التوجه الذي وُثِد بسرعة، وسرعان ما دفع الشاه ثمنه، فخلع عن عرشه ومات كسير القلب مكسور الظهر،

بيما وقف كل أصدقائه القدامى وحلفائه متفرحين لا يمدون له يداً ولا يستطيعون له شيئاً، ودفعت ايران نفسها ثمناً باهظاً وما زالت تدفع

وفي كل ما كتب عن تلك السنوات وعن سياسة أميركا الخارجية خلالها، لاحظنا، كما لا بد أن كل متابع للموضوع قد لاحظ، قدراً متعمداً من التعقيم والتجاهل والدوران حول الحقائق

وفي ١٩٨٥، أصدرت دار البشر التابعة لحامعة شيكاغو دراسة متعمقة للباحث ستيفن سبيجل بعنوان «الصراع العربي الاسرائيلي الآخر - صنع السياسة الخارجية الأميركية ازاء الشرق الأوسط من ترومان الى ريجان»، وهو المرجع الذي أوردنا منه بعض الاستشهادات فيما سبق واعتقادنا أن سبيجل ظل حتى الآن أكثر من أتيح لنا الاطلاع على قراءته لتاريخ تلك الفترة من الباحثين الأميركيين شجاعة واقتراباً من المصارحة في شأن ذلك التوجه الايراني للسياسة الأميركية، الذي حولته التبعية الكاملة للسيادة الصهيونية من جانب المؤسسة الحاكمة الأميركية، وصناعات النشر ومراكز البحث الأميركية، الى شبه سر مشين أو هيكل عظمي شائه مخبأ - بين غيره من الهياكل العظمية الحقيقية - في خزانة السياسة الخارجية للولايات المتحدة وعلى صوء ذلك، نورد أهم ما قاله سبيجل في شأن ما أسميناه بـ «البعد الايراني»، حتى وإن كان الباحث، كما سدرى من الاستشهاد المطول، قد توحى منتهى الحذر والحيطه، وكأنه يسير فوق حقل الغام، فطل يقترب من الحقيقة ثم يهرول مبتعداً، ليعود مشدوداً اليها مرة أخرى برعبته في تسجيل الوقائع كما حدثت وتفسيرها كما هي

«سادت في ادارة نيكسون وجهة نظر است على أن حل الصراع العربي الاسرائيلي، أو بالأقل تحسیر اوصاعه كان مطلباً جوهرياً مركزياً لتحسیر وضع الولايات المتحدة في العالم العربي، وأن ذلك كان السيل الوحيد الذي يملك الولايات المتحدة من تحب محابه ممكنة الوقوع مع الاتحاد السوفياتي خلال أزمة تشتعل في المنطقة وايقاف التوسع المتواصل لبعوذ السوفيات بالمنطقة في ظل حالة اللاسلم - السلاح وكار كثيرين في وزارة الخارجية الأميركية يعتقدون أن الرئيس جونسون كان سلبياً أكثر مما يجب في معالجة الصراع العربي الاسرائيلي وميلاً أكثر مما يجب على ترك المسائل لجهود مبعوث الأمم المتحدة الخاص، حونار ياريج «الا أن الهدف الحدي الذي وضعته ادارة نيكسون لنفسها خلق مأزقاً أصبح سبباً جوهرياً للحلقات حول السياسة التي كان ينبغي اتباعها، خلال فترة نيكسون الأولى في البيت الأبيض وقد تمثل ذلك المأزق في أنه اذا ما كانت تسوية الصراع العربي الاسرائيلي ضرورية لانحاح السياسة الأميركية في المنطقة، ما الذي يكون عليه الموقف اذا لم يمكن التوصل الى جعل العرب والاسرائيليين يعقدون مثل تلك التسوية، وفي صفوف ادارة الرئيس نيكسون، ظهر توخها صوب ايحاد محرج من ذلك المأزق فأولئك الذين تركزت جهودهم على تحسیر العلاقات مع العرب راوا أن الضغط عملاً على التوصل الى التسوية كان مطلباً جوهرياً، بيما رأى من تركز اهتمامهم على الاتحاد السوفياتي أن الحل وضع استراتيجيه ثابوية تتبع الى أن يتسنى التوصل الى التسوية، وكان رأي هؤلاء أن السياسة الأميركية في المنطق ستصبح معوقة بشكل خطير اذا لم يتح لها سبل لمكافحة البعوذ السوفياتي في المنطقة الا التوصل الى اتفاق عربي اسرائيلي وتبعاً لذلك، اقترح من أوصوا سياسة الاستراتيجية البديلة بساء وتقوية دول بالمنطقة فرادى لتخدم أهداف السياسة الخارجية الأميركية بالوكالة (By proxy)

«وكان هذا التوجه الأخير متسقاً تمام الاتساق مع «مذهب نيكسون» الذي أعلن في خطاب القاه الرئيس نيكسون في ٢٥ يوليو/تموز ١٩٦٩، والذي كان مصباً وقت اعلايه على جنوب شرقي آسيا. وكانت الفكرة الرئيسية في ذلك «المذهب» اخراج الولايات المتحدة، أو بالأحرى استئلالها من تورطاتها السابقة عن طريق اعداد وتقوية دول معينة بالمنطقة تاخذ على عواتقها الدور الذي كانت الولايات المتحدة تقوم به، لتقوم تلك الدول به، نيابة عن الولايات المتحدة، بالوكالة. وعندما ظهر ذلك التوجه فيما يخص الشرق الأوسط، كان التركيز بطبيعة الحال على دول تعمل بالوكالة فتنفذ خطط الولايات المتحدة وتحقق أهدافها بدون حاجة لتورط الولايات المتحدة المباشر بقواتها وبترسخ ذلك النظر في فترة رئاسة نيكسون الأولى، انصب التركيز على دولتين بالذات بدا واضحاً أنهما الاقدر على القيام بذلك الدور في الشرق الأوسط ايران واسرائيل. وطبقاً لهذه النظرية، ارتوى اعداد ايران عن طريق العون الأميركي بالمستشارين والعتاد للحلول محل بريطانيا في منطقة الخليج وكانت حكومة ويلسون قد أعلنت، تحت ضغط عوامل داخلية، وسياسية، واقتصادية، عزمها على الانسحاب من تلك المنطقة بحلول سنة ١٩٧١ بعد ١٥٠ عاماً من قيام بريطانيا بصون السلم فيها وبدلاً من أن تضغط ادارة نيكسون على بريطانيا (أو تساعدها) لتبقى في المنطقة، فضلت اسناد ذلك الدور للشاه الذي اعتبر ركيزة أميركية مستقرة وعلى استعداد لخدمة المصالح الأميركية

العمدة يحاول أن يصبح زعيماً

«وكان الاعتقاد بأن دعم إسرائيل سيساعد على احتواء الاتحاد السوفياتي بالمنطقة قد اكتسب أهمية خاصة لدى الإدارة الأميركية بعد أن تعاوان الاسرائيليون مع الولايات المتحدة في الأزمة الأردنية في سبتمبر/أيلول ١٩٧٠ وساعدوا على احباط هجوم من جانب النظام السوري المدعوم من الروس و(تحت تأثير ذلك) اعتقد كثيرون في واشنطن أن قوة إسرائيل ستردع أي هجوم عربي، وتتيح فسحة من الوقت لبدء التفاوض، بل وتحرك العرب قدماً صوب التصالح والتسوية وكان الافتراض الذي اسنى عليه ذلك التصور أن الدول العربية - متى خلصت الى أنها لن تقدر على الاشتباك مع الدولة اليهودية عسكرياً - لن يبقى أمامها خيار الا القبول بالتعامل الدبلوماسي

«الا انه في حين لم يكن في ادارة نيكسون من يماري في أهمية ايران في مجال احتواء الاتحاد السوفياتي بالشرق الأوسط، كان الاعتقاد بأن قوة إسرائيل العسكرية كفيلة بدفع العرب الى التفاوض قد بات محل تشكك خطير لا في دوائر الخارجية الأميركية وحدها، بل وفي البنتاجون، حتى بوصف تلك القوة العسكرية الاسرائيلية اجراء وقتياً للوصول الى تلك الغاية (Even as a temporary measure) بل وان كثيرين (في الخارجية وفي السباحون) راوا أن تلك الاستراتيجية (تقوية إسرائيل عسكرياً لارغام العرب على التفاوض) حرية بأن تقوض أية جهود لتذلل لعقد تسوية بين العرب وإسرائيل وبذلك، وبطراً لأن احتمالات التسوية بدت ضعيفة بشكل متزايد، احتدمت الخلافات في صفوف الادارة الأميركية حول الاستراتيجية التي تنتهج الاستراتيجية الاولى، أم الاستراتيجية الثانية»^(١٢٩)

وكما لاحظنا من صياغة الباحث لهذا الجزء الذي أوردناه من دراسته، وجد سبيجل نفسه مضطراً، كما قلنا، الى مقارنة الحقيقة فقط، دون الكشف عنها صراحة ففي كلامه عن اختيار ايران كدولة تقوم بتنفيذ السياسة الخارجية الأميركية بالوكالة كركيزة مستقرة وعلى استعداد لخدمة المصالح الأميركية، اقتصر سبيجل على الإشارة الى احلال الولايات المتحدة لايران محل بريطانيا في منطقة الخليج. لكنه، في آخر الاستشهاد اقترب كثيراً من المصارحة عندما قال أن «الاعتقاد بأن قوة إسرائيل العسكرية كانت كفيلة بدفع العرب الى التفاوض» باعتباره الخيار الوحيد المتاح ازاء ضعفهم العسكري أمام إسرائيل، «بات محل تشكك خطير في دوائر الخارجية والبنتاجون»، بعد اشارته مباشرة الى أنه «لم يكن في ادارة نيكسون من يماري في أهمية ايران في مجال احتواء الاتحاد السوفياتي بالشرق الأوسط». وهو ما يقربنا كثيراً، بل يضعنا على مشارف المصارحة بأن السياسة الخارجية الأميركية، باصرار من جانب خبراء وزارة الخارجية، وبتأييد من البنتاجون الأميركي، اتجهت في ظل «مذهب نيكسون» الذي تمخض عن اتجاه الفتنة في صراع الهند الصينية، صوب «الأسلمة» في صراع الشرق الأوسط عن طريق احلال ايران محل إسرائيل للتحكم عسكرياً في المنطقة مع فتح الحدود العربية أمام إسرائيل عن طريق التصالح والتسوية وذلك، تحديداً، ما طرحناه سنة ١٩٧٤ في دراستنا عن فرض السلام الأميركي على المنطقة. ويستطرد سبيجل في سرده لأحداث تلك السنوات الحاسمة في تقرير مصر مصر والشرق الأوسط من خلال ما ترتب عليها من عواقب، قائلاً:

«وهكذا اشتبك كبار المسؤولين الأميركيين خلال رئاسة نيكسون الاولى في شحان طويل لم يسبق له مثيل حول الشرق الأوسط والمسائل المتعلقة به، وهو شحان انغمس فيه مستشار الأمن القومي للرئيس (هنري كيسنجر) ووزير الخارجية (ويليم روجرز) وكانت الخلافات التي احتدمت بين الاثنين نابعة من نسق صنع القرار السياسي الذي أوجده الرئيس الجديد وكان نيكسون، بسبب تشككه في الجهاز البيروقراطي، قد عين كيسنجر مستشاراً للأمن القومي ليضع سياسة خارجية للولايات المتحدة تنبع من البيت الأبيض ويكون مركزها الرئيس وقد كتب نيكسون، فيما بعد، قائلاً «كنت قد قررت منذ البداية أن أدير السياسة الخارجية من البيت الأبيض».

الا أن الذي حدث في النهاية أن نيكسون لم يصبح هو الذي يدير السياسة الخارجية، بل وجد نفسه، كأيزنهاور من قبله، مضطراً بشكل متعاظم إلى الاعتماد «قيصر» متحكم في السياسة الخارجية (جون فوستر دالاس في حالة أيزنهاور، وهنري كيسنجر في حالة نيكسون) معزولاً - بذلك - عن بقية الجهاز صانع القرار. وهو ما يشرح كيسنجر تطوره في مذكراته بقوله:

«وبمرور الوقت، بعد عام وبصيف عام من بداية رئاسة نيكسون، أصبحت المستشار الرئيسي. وحتى نهاية سنة ١٩٧٠، كنت بالغ التأثير، لكنني لم أكن مسيطراً. أما بعد ذلك، فأخذ دوري يتعاظم بشكل مطرد نتيجة لاتجاه نيكسون إلى الالتفاف حول ضروب التعطيل بل وفي بعض الأحيان اشكال المعارضة التي لقيها من جانب بعض

الادارات وتطل هناك تلك الحقيقة، وهي أن آلية مجلس الأمن استُخدمت بشكل أكثر اكتمالاً من قبل أن تتأكد سلطتي نهائياً، أما بعد ذلك، هيأت القرارات التكتيكية تتخذ، بشكل متزايد، خارج الحمار الحكومي، في سياق محادثات شخصية مع الرئيس».

«وبالرغم من المظهر الكوكبي لكليهما، ظلت العلاقة بين نيكسون وكيسنجر، على تعبير كيسنجر، علاقة «حدرة»، «وثيقة فيما يتعلق بالمصموم، متصفة بالتقاعد على المستوى الشخصي». وقد وصفها نيكسون وصفاً مماثلاً بقوله أن «هنري (كيسنجر) لم يكن، بطبيعة الحال، صديقاً شخصياً بل كنا نعمل معاً، دون أن تربطنا صداقة شخصية لم يكن عدوين، نعم، لكننا لم يكن صديقين أيضاً».

«أما علاقة نيكسون بويليم روجرز فكانت - وإن شابهها الفتور فيما بعد - علاقة صداقة قديمة وكان روجرز قد شغل منصب المحامي العام في ظل إدارة إيريهاور، وكان اختيار نيكسون له ليسد إليه منصب وزير الخارجية في ادارته الأولى، رغم قلة خبرته بالشؤون الخارجية، راجعاً إلى خلفيته القانونية وبراعته في التفاوض فوق أن قلة خبرة روجرز هذه بدت لنيكسون كضمانة تكفل ألا يتحدى وزير خارجيته ما تطلع هو إليه، في البداية، من هيمنة على شؤون السياسة الخارجية غير أن كلا من نيكسون وكيسنجر ما لبثا أن تبينا أن روجرز كان على خلاف ما تصورا، فقد تمسك دائماً بجعل وجهات نظره مسموعة، كما تمسك بالوقوف على أية سياسة راوده شك في أنها كانت توصل من وراء ظهره وبتيحة لذلك، أصبح التنافس بينه وبين كيسنجر من أظهر سمات فترة رئاسة نيكسون الأولى وطبقاً لما يقوله نيكسون، «شعر روجرز دائماً بأن كيسنجر شخصية ماكيافيللية مخادعة أنانية مغرورة وقحة ومهيبة للآخرين، بينما اعتبر كيسنجر روجرز معتداً بنفسه، قليل المعرفة، عديم القدرة على تكتم أي سر، وخاضعاً بطريقة لا يرجى منها لسيطرة الجهاز الديمقراطي بوزارة الخارجية، وفي هذا الصراع الذي نشب بين الاثنين، كان روجرز، كما هو واضح، الطرف الأضعف، لأن قلة خبرته بالشؤون الخارجية حذت من قدرته على انتهاج أي سياسة مستقلة غير حاصصة لما كان مؤسسوه بالجهاز الحكومي لوزارة الخارجية يرون أنه ينبغي له أن ينتهجه، كما حذت من قدرته على التعلد على كيسنجر واسع المعرفة في أي خلاف اشتبك فيه مع ذلك الحصم المتعرب فوق أن منصبه كوزير وضع بالضرورة، وبحكم انشغاله بتصريف شؤون وزارته، بعداً مادياً وبغسباً بينه وبين الرئيس، بينما ظل كيسنجر، بحكم وضعه كمستشار للرئيس، لاصقاً بنيكسون الذي كان بطبعه قليل الثقة في وزارة الخارجية أصلاً».

«وكانت الخلافات بين كيسنجر وروجرز كثيراً ما ترجع بنيكسون من حيث أنه وجد نفسه مضطراً باستمرار إلى التحكيم بينهما والامحيار إلى جانب هذا أو ذاك، وهو وضع بات بالغ الأثر في مجال السياسة الخارجية المتعلقة بالشرق الأوسط، نظراً لأن كلا الرجلين كان نشطاً فيها، فقد أدى التنافس بين وزير الخارجية ومستشار الأمن القومي إلى اشاعة الارتباك في سياسة خارجية كانت قد وضعت بعناية واحكام، وافقدتها عنصر التآزر والتنسيق، مما أتاح للحكومات الأحبية ضرب وزارة الخارجية الأميركية بمجلس الأمن القومي، أو العكس كما أدى ذلك الانقسام إلى توتر متعاضد لدى كبار المسؤولين الأميركيين عن السياسة الخارجية ولم يتصح أثر ذلك كله سلبياً بقدر ما اتصح في الشرق الأوسط»^(١).

وبطبيعة الحال، يظل كل ما قاله الباحث الأميركي صحيحاً، كوصف للوضع الذي نشأ في إدارة نيكسون الأولى في مجال السياسة الخارجية المتعلقة بالشرق الأوسط، إلا أنه - بالرغم من كل ما قال عن العوامل الشخصية وما إليها - لم يتطرق إلى تفسير مسببات الخلاف الحاد الذي نشب بين روجرز ووزارة الخارجية الأميركية، و«الولد اليهودي العبقري» هنري كيسنجر، ولم يجزؤ، بطبيعة الحال - على القول بأن الخلاف نشأ أصلاً من اصرار روجرز على أن تكون السياسة الخارجية للولايات المتحدة سياسة تؤمن وتحقق مصالح الولايات المتحدة أولاً وقبل أي مصالح غيرها، واصرار كيسنجر على أن تظل تلك السياسة، كما كانت في عهد جونسون، مثلاً، سياسة مصنوعة في تل أبيب و«مفصلة» على مقاس المصالح الصهيونية أولاً وأخيراً وفوق أي مصلحة غيرها

لكن الباحث الأميركي، مع ذلك، لم يستطع أن يكف نفسه في النهاية عن التطرق إلى ذلك الموضوع الملغوم، وإن ذهب إليه من درب دائرية

«كان كيسنجر ميالاً إلى تبني وجهة النظر الاسرائيلية القائلة بأن القوة وحدها هي الكفيلة بتحسين وضع الغرب في المنطقة.. وتبعاً لذلك، أمن بأن الشرائط المطلوبة لدفع الأمور صوب تسوية بين العرب واسرائيل لن تتوافر إلا متى تصدت واشنطن واسرائيل معاً للسوفييات والمتطرفين العرب بقوة

«أما روجرز، فكان يرى الصراع من منظور آخر مختلف وكانت المؤثرات الأساسية التي شكلت ذلك المنظور هي: (١) خلفيته القانونية وخبرته كمحام وقد شجعتا لديه الميل إلى اتخاذ موقف القاضي الذي

العمدة يحاول أن يصحح رعيماً

يزن حقوق الخصم وحقوق الآخر، و(٢) تأثير جهاز وزارة الخارجية الذي وجهه صوب منظور اقليمي وصوب الانشغال بتحسين العلاقات بالدول العربية، و(٣) تركيزه على التفاوض كوسيلة تفضي الى المصالحة مع الاتحاد السوفياتي والبلدان المنحازة الى جانب الكرملين

«والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا، هو ما الذي جعل نيكسون يقرر أن يجعل نشاط روجرز يتركز على الشرق الأوسط، في حين ظل كيسنجر مسؤولاً عن غير ذلك من المسائل الكبرى في مجال السياسة الخارجية؟ وطبقاً لما يقوله من اشتركوا في أنشطة إدارة نيكسون في ذلك الوقت، كانت هناك أسباب عديدة لذلك التوجه من حاسب الرئيس والذي قاله نيكسون ذاته عن ذلك الاختيار من حابه «أساساً، شعرت أن الشرق الأوسط يحتاج إلى تركيز وتفرغ كاملين وحيدة واسعة وكما قلت وقتها لكيسنجر «أنا وأنت سيكون لدينا الكفاية وأكثر مما يشغلنا في مجال السياسة الخارجية هيبت نام، وصولت، والسوفيات، واليابان، وأوروبا، ولكن السؤال يظل، مع ذلك، لماذا اختار نيكسون الشرق الأوسط ليكون اختصاصاً حالصاً لروجرز؟ يقال أن الرئيس ارتأى أن يباعد ما بين البيت الأبيض والسياسة الخاصة بالشرق الأوسط، نظراً لأنه اعتقد أن فرصة نجاحها ضئيلة، ولأنه كان يخشى من ردود فعل مؤيدي إسرائيل إزاء المبادرات الأميركية وفوق ذلك، كان الشرق الأوسط مسألة يسهل اسادها إلى الخارجية الأميركية أكثر من أي مسألة غيرها، نظراً لأن حوزف سيسكو، الرئيس الجديد بالحارحية لمكتب شؤون الشرق الأدنى وجوب آسيا، كان أكثر مساعدي وزير الخارجية ديانميكية وبشاطاً وقد عمل سيسكو، في الواقع، كوسيط نشط ومساوٍ بارع في ساحات الاقتتال الذي كان دائراً في صفوف إدارة نيكسون، مما دفع كيسنجر في النهاية إلى أن يعترف بأن «سيسكو قد يكون قصي من الوقت في الوساطة بين روجرز وبينني أكثر مما قصاه في الوساطة بين العرب والإسرائيليين» والعامل الآخر الهام في اختيار نيكسون لروجرز فيما يتعلق بالشرق الأوسط، كان «خلفية كيسنجر اليهودية». فقد كانت إدارة حوسون مصفاً لكثير من الاستقادات من حاسب العرب لكوبها وكلت ثلاثيها اليهودي، آرثر هولدمرج والأحويين روستو على شؤون الشرق الأوسط ونيكسون ذاته كتب يقول أنه اعتقد أن كون كيسنجر يهودياً «قد تصعبه وضعاً غير موات (put him at a disadvantage) في محاولة استئناف العلاقات مع الدول العربية الرئيسية». والذي يدعيه كيسنجر أن نيكسون «تخوف من أن يكون أصلي اليهودي سبباً في أن أميل أكثر مما يحب إلى حاسب إسرائيل»^(١٤١)

«ورغم أن كيسنجر كان لديه الكثير مما يشغله من المسائل الأخرى، فإنه - فيما يبدو - لم يستطع أن يتخلص مما استأته من حق ونقمة لإعطائه دوراً ثانوياً في شؤون الشرق الأوسط فهو في مذكراته يندب عدم تمكنه «من قطع الطريق على الروس في المنطقة»، ويعدد اختلافاته الجوهرية مع روجرز، قائلاً أنه، في مبدأ الأمر، لم يمكن إلا من التخطيط للشرق الأوسط، ولم يكن توسعه إلا أن «يرغم الإدارة على مناقشة الأمور في إطار مجلس الأمن القومي»، ويتوجه قائلاً «وقد ظلت محروماً حتى نهاية ١٩٧١ من تسيير شؤون الدبلوماسية (الأميركية في الشرق الأوسط) إلا نادراً، في أوقات الأزمات الحادة فكيسنجر استشاط غضباً لوصفه الثانوي غير المألوف، في الحال المتعلق بالشرق الأوسط، بينما وجد روجرز في الشرق الأوسط فرصة فريدة للحروح من ظل كيسنجر، فعمل بكل قواه على تحقيق نجاح دبلوماسي ليرهن لرئيس تشكك في قيمته وقيمه وراته منذ البداية، على فعاليته وفعالية وراته تلك وكانت نتيجة كل ذلك الانقسام المتكرر أن نشأ تحبط راده سوءاً الافتقار إلى التوجيه الحارم من البيت الأبيض. فبينما أرحي العنار بشكل مألوف لورارة الخارجية الأميركية، ظل البيت الأبيض يتدخل بعنة (تحت ضغط من مجلس الأمن القومي بطبيعة الحال) ميسب مريداً من الأضرار لفعالية السياسة التي انتهت ومرض نجاحها»^(١٤٢)

(٢/٢ب) . ما أخذ بالقوة.. يسترد بالتصالح

كان ذلك هو الجو الأميركي الذي استولى فيه أنور السادات على رئاسة مصر. ونقول أنه «استولى على الرئاسة» لأن «الاتفاق» الذي تم التوصل إليه في الاجتماع الطارئ المشترك بين اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي ومجلس الوزراء، مساء اليوم الذي مات فيه عبد الناصر، برئاسة السادات بوصفه نائب الرئيس، كان «أن يتولى السيد / أنور السادات منصب الرئيس المؤقت نظراً لأنه النائب الأول لرئيس الجمهورية»، إلا أن الذي حدث بعد ذلك، وهو الآن تاريخ معروف، كان أن «الرئيس المؤقت» جعل نفسه رئيساً دائماً بأن قام بما يعرف باسم «انقلاب القصر»، فضرب فيه كل من اعتبرهم منافسين وخصوصاً له، واعتقلهم وحاكمهم، وسجنهم، ومما يحسب له أن لم يحل مشكلتهم حلاً جذرياً بالطريقة الفاشية المجربة، ولم يذبحهم.

يقول محمود رياض في مذكراته أن

«سعادة إسرائيل وبعض الدوائر الأميركية كانت عامرة يوم وفاة عبد الناصر». ويمكننا فهم مشاعر إسرائيل إلا أنه يتعذر فهم موقف بعض الدوائر الأميركية التي أسعدها رحيل عبد الناصر ظناً منها أنه العقبة الكأداء في سبيل السلام، وهو سوء فهم متعمد لحقيقة دوره التاريخي فقد كان يرفض السلام الذي يستهدف الاستسلام، ولكنه أوتي من الشجاعة والقدرة وبعد النظر ما مكنه دائماً من بذل كل جهد في سبيل السلام العادل الدائم فقد كان هو الزعيم العربي الذي استطاع قبول قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، رغم رفض بعض الدول العربية له، وقلق الرأي العام العربي من بعض مضامينه، كما كان الزعيم العربي الذي قبل مبادرة روجرز عام ١٩٧٠، رغم يقينه من معارضة منظمة التحرير الفلسطينية لها، ولكنه كان في الأمرين واثقاً من قدرته في النهاية على إقناع الجميع بسلامة موقفه وكانت العقبة في طريق السلام هي إسرائيل التي ظلت تحاور وتناور، للتخلص من التزاماتها بمقتضى قرار مجلس الأمن ٢٤٢، ولتدمير مبادرة روجرز وكانت في كل مرة تتعرض للاختيار بين السلام والأرض، تختار الأرض.^(١١٢)

والذي يقوله محمود رياض هنا واضح تماماً وصادق تماماً فالرجل كان وزيراً لخارجية مصر وكان الصق الناس بالتوجهات المصرية في مجال «السلام». والذي يقوله أن مصر، من قبل استيلاء السادات على السلطة من موقعه كرئيس مؤقت بعد وفاة عبد الناصر، كانت راغبة في السلام، قابلة بمبادرة روجرز، وعلى استعداد للتسوية مع إسرائيل مقابل استعادة الأرض، وطبعاً، طبعاً، المحافظة على حقوق الفلسطينيين وكل ذلك. ولم يكن عدم التحرك صوب ذلك السلام وصوب التسوية ناجماً عن نضالية مصر أو عدوانية مصر أو حرونتها، بل كان منشؤه حرونة إسرائيل وتمسكها بالأرض مفضلة إياها على السلام المعروض عليها. وهذا كلام هام وله وزنه التاريخي والقومي، خاصة عندما يتهم خليفة عبد الناصر الذي اختاره بمحض إرادته ليورثه مصر بأنه خان الجميع وخرج على خط عبد الناصر عندما أعطى إسرائيل السلام واستعاد الأرض ووضع في صلب اتفاقه موضوع المحافظة على حقوق الفلسطينيين وكل ذلك.

ولقد كان الشعار الذي رفع بعد هزيمة ١٩٦٧ وتمكين إسرائيل من أخذ كل تلك الأرض، هو أن «ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة». غير أن رغبة الزعامة المصرية في التصالح وإنهاء الصراع كانت واضحة وقوية. وقد قبلت تلك الزعامة بـ «مبادرة روجرز»، التي كانت - في الواقع - ثلاث مبادرات، لا مبادرة واحدة كما يشار إليها عادة.

وتلك غلطة غريبة ومتكررة في شأن تحركات الخارجية الأميركية التي بدأت في الواقع منذ زار سكرانتون المنطقة العربية في أواخر ١٩٦٨ في بعثة استقصاء الحقائق لنيكسون، ولم تنته إلا باستيلاء كيسنجر في النهاية على الخارجية الأميركية

والخطأ الآخر المتكرر القول الذي رده كثيرون مؤكدين أن كيسنجر كان معارضاً لما أسمى بمبادرة روجرز منذ البداية وعلى طول الخط. والحقيقة أن كيسنجر لم يكن معارضاً لها، بل أن الاستراتيجية الثانوية المركزة على دور إيران كانت من وضعه وكل ما في الأمر أن كيسنجر - الذي أحققه انفراد روجرز بمسألة الشرق الأوسط - ظل يوجه الانتقادات، ولكن ليس إلى المضمون بل إلى أسلوب الخارجية الأميركية المتعجل المتلف على إصلاح الأسيجة أو تحسين العلاقات مع العرب، والذي أسماه «أسلوب المحذلة البخارية» أو «وابور الزلط» كما يسمونها في مصر (steam - roller approach).

ومن الغريب أن محمود رياض فاته - على النحو الذي تنبىء عنه مذكراته - فهم حقيقة الصراع الذي كان ناشباً بين روجرز وكيسنجر، ففسر دور روجرز بأنه كان دور الدبلوماسي الخير ودور كيسنجر بأنه المعارض الشرير، ولم يفتن إلى يد كيسنجر في صياغة التوجه الأميركي في بدايته قبل أن تقنعه جولدا مائير بأن «يعقل» ويكف عن تلك الشطارة الكوكبية الخطرة وينصرف إلى القيام بدور واضح ومحدد في خدمة قومه اليهود والمشروع الصهيوني.

ونتيجة لإساءة فهم دور كيسنجر في التحرك الذي عرف بـ «مبادرة روجرز» في بدايته، لم يتوقف أحد في الخارجية المصرية عند الحماس الزائد الذي أبداه كيسنجر تجاه شاه إيران آنذاك، وهو الحماس الذي فهمه محمود رياض بوصفه تحمساً «لنوع معين من القادة لم يكن كيسنجر والفريق الذي يمثل داخل السياسة الأميركية يرضيه نمط غيره». وقال أن.

العمدة يحاول أن يصبح رعيماً

«المثال البارز في هذا المجال هو محمد رضا بهلوي، شاه إيران، الذي قال عنه كيسنجر في مذكراته أنه كان «تقديماً» و «نذر نفسه للاصلاح».. و «واحداً من أقرب حلفاء أميركا».. و «من أكثر القادة الذين تركوا في نفسي تأثيراً واسطباعاً عميقين». وقلل عن إيران أنها «من بين جميع دول منطقة الشرق الأوسط، باستثناء إسرائيل، الدولة التي جعلت الصداقة مع الولايات المتحدة نقطة البدء في سياستها الخارجية، وأن إيران في ظل الشاه، باحتصار، واحدة من أفضل حلفاء الولايات المتحدة في العالم وأكثرها أهمية وولاء».. وفي النهاية، يقول كيسنجر «أن شاه إيران واحد من أعمدة الاستقرار في منطقة حيوية ومضطربة»^(١١٣).

ومن الذين قصرت أجهزة التحليل في الخارجية المصرية دون إعطاء المسؤولين المصريين صورة واضحة وصحيحة عن مواقفهم، ملفين ليرد، وزير الدفاع الأميركي في إدارة نيكسون ففي مذكراته، يقول محمود رياض

«وفي ٣١ أغسطس/ آب، تبين لي أن روجرز خسر مبادرته عندما اطلعت على تصريح لوزير الدفاع ملفين ليرد في ٣١ أغسطس أمام الكونجرس عن ضرورة تزويد إسرائيل بما تحتاجه من أسلحة، ومن ثم اتضحت لي الصورة، فقد استطاعت إسرائيل في النهاية التغلب على مبادرة روجرز عن طريق انصارها في الإدارة الأميركية»^(١١٤).

والذي يعيبنا من هذا الكلام

١ - ما ينبىء عنه من عدم إلمام الخارجية المصرية إماماً كافياً ومحدداً وقائماً على توافر المعلومات وتحليلها تحليلًا صائبًا بحقيقة مواقف اللاعبين الرئيسيين على الحاشية الأميركية، و (٢) اعتبار «مبادرة روجرز» نجدة جاءت من السماء لمصر وحرمتها إسرائيل منها، دون النوقف عند المرامي البعيدة والقريبة لتلك «النجدة». فكل ما كان يعني الزعامة المصرية وقتها (١) الحروح من معمة الصراع بطريقة تحفظ ماء الوجه:

٢ - تأمينا لحفظ ماء الوجه وعدم كشف تهالك النظام وتخاذل زعامته، استعادة الأرض وفي سبيل ذلك، كان الاستعداد واضحاً وقويا للتصالح والتسوية فما أخذ بالقوة لم يكن سيسترد بالقوة، كما قال الشاعر الذي رفعه الزعيم، بل بالتفاوض والتسوية

وبعد الخطأ المميت الذي تردى فيه الزعيم ونظامه حرصاً على «كرامة زعامته» سنة ١٩٦٧، كان ذلك الاتجاه صوب التصالح والتسوية والانسحاب من الصراع، الخطأ المميت الأكبر. وكان - في حقيقة الأمر - بداية الوقوع في المصيدة التي استدرجت مصر إلى شرك ١٩٦٧ كيما تتردى فيها وهي تحاول تخليص نفسها من عواقب ذلك الشرك كان تحقيقاً حرفياً لما توخته الولايات المتحدة وإسرائيل من استدراج مصر إلى «حرب» ١٩٦٧ وما ترتب عليها من تحطيم القوات المصرية المسلحة وتحطيم معنوياتها وكسر ظهر الزعيم والاستيلاء على الأرض. وكما توقعت الولايات المتحدة وإسرائيل تماماً، لم يكن أمام النظام وقد كسر ظهره واحتل «العدو الغادر» شريحة كبيرة وهامة استراتيجية ونقطياً ونفسياً هي سيناء، إلا أن يحاول الزحف خارجاً من شرك ١٩٦٧ ليقع في مصيدة التصالح والتسوية

ومن فرط تلهف الزعامة المصرية إلى ذلك الزحف خارج الشرك واستعادة الأرض والانسحاب من الصراع، اعتبرت تراوح الإدارة الأميركية تضيقاً لفرصة السلام الثمينة «وفي الواقع فإن الولايات المتحدة لم تكن أقرب إلى نقطة البدء في تحقيق السلام الحقيقي (١) منها في أي وقت مضى، قدر قربها في يونيو/ حزيران، ويوليو/ تموز ١٩٧٠ (رغم أننا، نحن المصريين) أثبتنا للجميع أننا جادون في السعي للحل السلمي العادل، وأنها مستعدون للتعاون مع الولايات المتحدة في ذلك السبيل إلى أقصى حد. ورغم أن مبادرة روجرز كانت ما تزال قاصرة عن تحقيق مفهومنا للتسوية الشاملة، فإنها كانت في الواقع أول بداية أميركية على الطريق الصحيح.. (لكن) الولايات المتحدة استسلمت للمناورات والصغوط الإسرائيلية.. (وظلت) تحت الضغط الإسرائيلي تسارع بتقديم المزيد من التنازلات السياسية والعسكرية لإسرائيل»^(١١٥).

وبطبيعة الحال، لم تكن الصورة - كما هي العادة - كاملة لدى الجانب المصري. يشهد بذلك عدم تفهم محمود رياض لموقف البنتاجون ووزارة الدفاع الأميركية في تلك الآونة، في ظل ملفين ليرد. ففي مرحلة مبادرات روجرز، إنحاز البنتاجون إلى الخارجية الأميركية ضد مجلس الأمن القومي، بالأقل فيما تعلق

قتل مصر

بالتكتيكات

«فرغم تصدر كيسجرو وروجرز الساحة، لعب بعض كبار المسؤولين الآخرين أدواراً هاماً في صنع السياسة، وكان أهم أولئك المسؤولين ملفين ليرد، وزير الدفاع، وقد قيل دائماً في المنتاحون وقتها أن ليرد كان يشعر بالحشية من أن تصبح سياسة الولايات المتحدة ملتزمة بإسرائيل بقدر يعضي في النهاية إلى تطورات تؤدي إلى محاربة مع الاتحاد السوفياتي»^(١١٦)

ولم يكن ليرد وحده في ذلك التخوف من الانحياز الأميركي الكامل للموقف الإسرائيلي، فقد شاركه موقفه عدد من كبار المسؤولين بوزارته، منهم وارن نتر، رئيس وكالة الأمن الدولي. وفي كتاب موشي ديان «قصة حياتي»، توقف ديان طويلاً عند ذلك الاتجاه لدى ليرد وغيره من كبار المسؤولين بالمؤسسة العسكرية الأميركية. كما وردت في مذكرات نيكسون إشارات إلى ضيق ليرد بحرونة الإسرائيليين ومحاولتهم سف جهود روجرز عن طريق المماحكة بـ «انتهاكات مصرية لاتفاق وقف إطلاق النار»، وانفجاره في أحد الاجتماعات قائلاً «أعتقد أن الأهم هو أن يتحرك قدماً صوب التفاوض بدلاً من تضيق الوقت في مناظرات ومهاترات حول ما حدث قبل اثنتي عشرة ساعة أو ما سوف يحدث بعد اثنتي عشرة ساعة»!

ويقول سبيجل في دراسته أن ما تعرضت له مبيعات السلاح الرئيسية لإسرائيل في ظل إدارة نيكسون كان راجعاً إلى الانشقاق الداخلي في تلك الإدارة

«مكل من ويليم روجرز، وزير الخارجية، وملفين ليرد، وزير الدفاع، كانا يشعران بالتردد فيما يتعلق ببيع السلاح للإسرائيليين بكميات كبيرة خشية أن يؤدي ذلك إلى جعل العرب أكثر عداء تجاه سياسة الولايات المتحدة في المنطقة، وخشية أن يجعل ذلك السلاح الإسرائيليين أقل مرونة في مباحثات السلام بل وقد يغريهم بتوجيه ضربة وقائية إذا ما تازمت الأمور، وخشية أن يؤدي إمداد إسرائيل بالمزيد من السلاح إلى تغيير ميزان القوة بالمنطقة. وكان نيكسون هو الآخر يخشى أن تترب على مبيعات السلاح إلى إسرائيل آثار سلبية بالنسبة لمحاولات استئناف العلاقات الدبلوماسية مع العرب، إلا أن نيكسون رأى أن الاستمرار في ترويض إسرائيل بكميات محدودة من السلاح حري بأن يجعل الإسرائيليين أكثر مرونة ويكون في الوقت ذاته إشارة واضحة إلى كل من الروس والعرب على أن الولايات المتحدة لن تتحلى عن تأييدها لإسرائيل»^(١١٧)

فالزعامة المصرية والخارجية المصرية أخطأتا استقرار ملامح الصورة وأخطأتا قراءة مواقف اللاعبين على الجانب الأميركي في تلك الساحة التي كان الهدف الرئيسي لمن استدرجوا مصر إليها (١) إخراجها من الساحة بصلح منفرد، و (٢) عزلها عن العالم العربي، و (٣) تجريدها من الدعم السوفياتي الذي، مهما قيل في نوايا السوفيات، كان هو الذي مكنها من «الصمود» وشن «حرب الاستنزاف»، والدفاع عن أراضيها ومنشأتها وسكانها في وجه الهجمات الإسرائيلية المكثفة بأحدث أساليب الحرب الجوية الالكترونية، و (٤) ضمها إلى قائمة توابع الولايات المتحدة في المنطقة تحت المظلة الإيرانية التي كانت السياسة الخارجية الأميركية جاهدة في بسطها على المنطقة بنفس فلسفة القنطرة التي انتهجت في جنوب شرقي آسيا، و (٥) فتح حدودها، بغير حاجة إلى مزيد من الحروب، أمام إسرائيل لتدخل و «تطبع العلاقات» وتستقر كثنان الطريشة الميت في عب مصر.

وكل ما كان هناك بين أجنحة المؤسسة الأميركية الحاكمة في الفترة التي نشطت خلالها «مبادرة» روجرز، لم يعد كونه تبايناً لوجهات النظر حول التكتيك، لا حول الاستراتيجية والاهداف النهائية. وكما قال ملفين ليرد وزير الدفاع، كان «الأهم هو السير قدماً نحو التفاوض». فبذلك التفاوض كان الإسرائيليون والأميركيون سيجنون الثمار الحقيقة والكاملة لشرك ١٩٦٧.

وبطبيعة الحال، كان الخطأ الذي ارتكبه المؤسسة الحاكمة الأميركية أنها تصرف في سعيها إلى جني تلك الثمار على هدى تصورات منقوصة، فتصورت أنه ما دام الإسرائيليون سيحصلون على كل ما ابتغوه من مكاسب من شرك ١٩٦٧، لم يكن من المعقول أن يكون لديهم أدنى اعتراض على أن يمكنهم الأميركيون من عنق مصر ويفتحوا حدودها وشرائينها لهم ويخرجوها من الصراع تمهيداً لاستفراد البلدان العربية بعد ذلك بلداناً بلداً وفتح حدودها وشرائينها لإسرائيل تحت مظلة «السلام الشامل» و«السلام الحقيقي» و«الحل السلمي العادل» الذي تحدث عنه وزير خارجية مصر بحرارة وإيمان. وتحت تأثير ذلك التصور، فات الأميركيون أن يدركوا - فيما بدا - أن إسرائيل، بفضل تسلط الصهيونية الكاملة على

العمدة يحاول أن يصبح رعيماً

الولايات المتحدة وتحكمها في مراكز صنع القرار السياسي والعسكري والاقتصادي فيها، كانت مطمئنة تمام الاطمئنان إلى أنها ستحقق ذلك وأكثر منه، بغير عجلة، وبغير حاجة للتخلي عن دورها التقليدي كـ «بلطجي» المنطقة لإيران الشاه وقد انعكس ذلك بوضوح في توصيات كيسنجر المتلاحقة باتخاذ «موقف أكثر استرخاء» (a more relaxed posture) ومعارضته لدهج «وابور الزلط» المتعجل الذي نسبته إلى الخارجية الأميركية - إسرائيل و «أصدقائها في الولايات المتحدة» لم يكن لديهم ما يدعوهم إلى العجلة، لأن كل الأشياء تأتي، فتسقط في حجر من ينتظر. وفي الوقت ذاته، لم يكن الإسرائيليون مهتمين كثيراً لشواغل نيكسون الكوكبية وتنافسهم مع السوفييات ومحاولة احتوائهم، اللهم إلا بالقدر الذي يجعلهم يخافون من التماذي في تقوية العرب، وبخاصة المصريين، إلى الحد الذي يتهدد «ميزان القوة»، أي الذي يتهدد التفوق الإسرائيلي الكامل في الأسلحة والعتاد والقدرة على إثيان أي فعل بغير عقاب. وسرعان ما توافر ذلك للإسرائيليين فعلاً من خلال «ميل» الأميركيين الواضح إلى باكستان خلال الأزمة الهندية الباكستانية. وعندما أيد الأميركيون باكستان إبان تلك الأزمة (التي قال السادات فيما بعد أنها منعتهم من أن يجعل سنة ١٩٧١ «سنة الحسم» الشهيرة) كان ذلك، بالقدر الأكبر لإعطاء إشارة واضحة للسوفييات «بأن الاستجابة ستكون أعنف» إذا ما واصل السوفييات دعم المصريين في مواجهة إسرائيل وتمكينهم - بما ظلوا يعطونه لهم من سلاح ومعدات - من مقاومة الضغط الإسرائيلي الواقع عليهم عسكرياً لتسييرهم صوب التصالح والتسوية كما فأت الإدارة الأميركية أيضاً أن تأخذ في اعتبارها أن إسرائيل - في النهاية - وطالما ظل الأميركيون القوة العظمى الرئيسية الأولى في عالم اليوم، لم يعنهم في أي وقت ولن يعينهم حسم التنافس بين الأميركيين والسوفييات، بل يهمهم استمراره، باعتبار أنهم المستفيدون منه أعظم استفادة في تنفيذ المشروع الصهيوني، من ناحية، وفي مجال الترتع المادي من جيوب دافعي الضرائب الأميركيين، من ناحية أخرى. ولهذا فإن شواغل نيكسون الكوكبية لم تكن تعينهم في كثير أو قليل، بل وربما رأوها عكس مصالحهم.

ونتيجة لذلك كله، قاتلت إسرائيل بضراوة ضد ذلك المشروع الأميركي الأهود بإعطاء إيران دور «قبضة أميركا المدرعة الحاكمة» في منطقة الشرق الأوسط، وظلت تقاتل إلى أن دمرت إيران والحقت الشاه، كما قلنا منذ سنة ١٩٧٤، بأجداده الأكاسرة في الملا الأعلى، وحقت بذلك التدمير لإيران أكبر خبطة لها، في واقع الأمر، بمنطقة الشرق الأوسط كلها، يشهد بذلك ما تسبب فيه إحلال الخميني محل محمد رضا بهلوي، لا في إيران ومنطقة الخليج فحسب، بل وفي كل المنطقة، «من الخليج إلى المحيط».

ومن العريب حقاً أن نيكسون كتب في مذكراته هذا الكلام بصراحة

«كنت أعرف أن خطة روجر لا يمكن أن تنجح إلا أني رأيت أنه من المهم إشعار العالم العربي بأن أميركا لم تكن قد أهملت أوتوماتيكياً قصيته الخاصة بالأراضي المحتلة أو أنها بعصت يدها من محاولة التوصل إلى تسوية توفيقية بين الدعاوى المتصارعة ولذا بدا لي أن «وضع خطة روجر في السجل» كان كفيلاً بأن يجعل من الأسهل بالنسبة للرعماء العرب اقتراح استئناف العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة في حين كانت الولايات المتحدة محط هجوم متواصل من جانب «الصقور» في بلدانهم ومن جانب العناصر الموالية للسوفييات» (١١٨).

وقد كانت تلك هي «النجدة» التي بدا للنظام المصري في آخر أيام عبد الناصر أنها جاءت من السماء ليزحف خارجاً من طين شرك ١٩٦٧ إلى ما بدا له وقتها كـ «سلام حقيقي» و «حل عادل» لكنه كان في حقيقته الخندق الذي حفر له بعناية ليدخل منه إلى ظل وادي الموت وإسرائيل في عبته وملتفة حول عنق مصر وشعبها.

عندما ضرب السادات ضربته «التاريخية» ضد مراكز القوى التي خلفها وراءه جمال عبد الناصر، لم يكن ذلك لمجرد القيام بالـ putsch الفاشي التقليدي في نظم الحكم الفردي تخلصاً من العناصر المناوئة التي يمكن أن تصبح مصادر تهديد لوحداية الزعيم واستقرار النظام ومصالح الأعوان الجدد الذين يجمعهم الزعيم حوله، بل كان قياماً بذلك الاجراء الضروري لتأمين المواقع الجديدة وشيئاً آخر لم يقل عن ذلك أهمية: هو التمهيد للتخلص من عرّابي الزعيم السابق وأعوانه، السوفيات الذين كان ذلك الزعيم قد اضطر للوذ بحماهم راغماً، وشرع في أواخر حياته في محاولة الخروج من تحت إبطهم، فلم تمهله المنية، وفتح الأبواب على مصاريحها أمام العراقيين الجدد للزعيم الجديد، الأميركيين.

وفي كل ما كتب عن «قضايا الديمقراطية وإعادة سلطان القانون والقضاء على مراكز القوى في أحداث مايو / أيار المجيدة»، لم يعن أحد بأن يشير إلى أن إزاحة علي صبري وبقية الأعوان القدامى من الساحة كان خلال النصف الأول من شهر مايو / أيار ١٩٧١ الذي زار خلاله القاهرة وليم روجرز، وزير الخارجية الأميركي، ووكيلها جوزف سيسكو، زيارة كانت الأولى بعد زيارة دالاس، التي لم تكن نتائجها سارة كثيراً لأحد، سنة ١٩٥٣.

أما زيارة روجرز وسيسكو فكانت سارة كثيراً للأميركيين. فجنباً إلى جنب مع إسقاط علي صبري، الذي كان «الروس» قد راهنوا عليه، وأعوانه من منفذي «الاشتراكية الناصرية» التي ابتلعها السوفيات علي مضض بوصفها أفضل المتاح، «عاد روجرز وسيسكو من الزيارة باعتماد مؤاده أن السادات كان راغباً حقيقة في التصالح والتسوية، مهتماً حقيقة بإيجاد علاقات أفضل مع الولايات المتحدة وتقليل اعتماده على الاتحاد السوفياتي، بل وعاداً بانطباع محدد مؤاده أن الرئيس المصري الجديد كان على استعداد لأن يأخذ في طرد الروس إذا ما استطاعت أميركا أن تحصل له على تسوية سلام «مقبولة» من الاسرائيليين»^(١٩).

(١/٣) - إحياء الديمقراطية من الغيبوبة العميقة

كانت الديمقراطية لدى النظام الذي حكم مصر بعد استيلاء الضباط الأحرار على السلطة سنة ١٩٥٢ ورقة مربحة ظل النظام يلعبها بلا تورع. فالديموقراطية كطريقة حياة سياسية لأمة تعيش في القرن العشرين ويمارس شعبها «سلطاته» من خلال نظام نيابي «وما إلى ذلك»، كانت قد وضعت في التبريد العميق منذ اللحظة الأولى لاستيلاء المسلحين على السلطة. حقيقة أن أناساً كمحمد نجيب جنحوا إلى محاولة إخراجها من ذلك التبريد في غمار صراع على السلطة، كما ظل «الضباط الأحرار» يستخدمون اسمها كهراوة يضربون بها بعضهم بعضاً كما فعل عبد الحكيم عامر عندما غضب من عبد الناصر، إلا أنها ظلت متروكة، في سرداب مترب ما من سراديب النظام، في غيبوبتها العميقة

ولم يكن السادات ديموقراطياً أو مغرماً بشيء له صلة ولو من بعيد بالديموقراطية. فالسادات، رغم كل ما حاول أعوانه من كتبة الصحف أن يقولوه عنه، كان زعيماً ديكتاتوري النزعة وحاكماً مؤمناً بوحداية الحاكم التي لا تنازع كسلفه عبد الناصر تماماً. ولا ننسى أن السادات - حتى وإن عُزي ذلك إلى «كراهيته للانجليز» أيام «النضال السياسي» ضد الاحتلال البريطاني - كان منذ شبابه وهو «يوزباشي» بالجيش، معجباً أيما إعجاب بهتلر ونظامه النازي^(٢٠)، وعندما أصبح «قائداً عاماً للقوات المسلحة المصرية»

(*) - كانت لدى السادات حصيلة مختلطة وواسعة من المعلومات العامة وقشور مبعثرة من الثقافة، وكانت مصادر هذه الحصيلة بعض قراءات في تاريخ مصر الحديث وبعض التراحم والمقالات التي تدور حول شخصيات سياسية كانت تستهويه مثل أحمد عرابي، ومصطفى كامل، وأتاتورك، وهتلر.

(مذكرات محمد كامل ابراهيم «السلام الضائع»، ص ١٩٤).

بحكم منصبه كرئيس للجمهورية، صمم لنفسه ولكبار قاداته بزات عسكرية المانية الملامح كانت خليطاً من بزات ضباط القيصر وضباط الفوهرر

وأياً كان القول، تطل العبرة بالخواتيم، كما يقولون. ففي التحليل النهائي، مارس عبد الناصر حقوق وحدانيته كرعيم يحكم حكماً فردياً مطلقاً عندما ترك نفسه يستدرج إلى الشرك الذي أعده له الأميركيون والاسرائيليون سنة ١٩٦٧ باستغلال طباعه وشخصيته ووحدانية زعامته التي لم تجعل لأحد في مصر كلمة غير كلمته أو رأياً غير رأيه وتاماً كما فعل عبد الناصر، فعل السادات، فمارس حقوق وحدانيته كرعيم يحكم حكماً فردياً مطلقاً عندما ترك الصيادين والقناصة الأميركيين والاسرائيليين يستدرجون مصر، من خلاله، عن طريق عمليات التهيج والضوصاء التي أحدثها حول رأسه لحسابهم قارعو الطبول - تماماً بنفس الطريقة التي أحدثت بها صحة حرب الاداعات حول رأس عبد الناصر فأفقدته صوابه - وكما سار عبد الناصر كالمنوم إلى شرك ١٩٦٧، سار السادات إلى مصيدة «السلام» بكامب ديفيد

لكن النظام الذي حكم مصر منذ ١٩٥٢ وشارك السادات في كل ممارساته وأنشطته، كان قد ابتكر لنفسه ولل مصريين، في عمار عالم الوهم الذي اختلق لهم للعيش فيه في ظل الثورة المباركة، طريقة فريدة بحق في ممارسة جعل الشيء ضده العبودية هي الحرية، والكذب هو الصدق، والديكتاتورية العسكرية السافرة هي الديمقراطية، ورأسمالية الدولة هي الاشتراكية، والانتهازية هي الولاء للوطن. أشياء جميلة بحق كهده وبالممارسة، والإلحاح اليومي المتواصل من طلعة النهار إلى طلعة النهار الذي بعده عن طريق الراديو والتلفزيون والصحف والكتب والمسرحيات «الملتزمة» والتلقين السياسي، باتت تلك الأشياء المعوجة الشائبة القبيحة طريقة حياة للمصريين تواضعوا جميعاً وتواطأوا عليها، ومن لم يتواضع ويتواطأ نبذ حارحاً حولت حياته إلى جحيم فمات أو هرب أو حن أو أدمن الحشيش أو الخمر أو مات في السجون والمعتقلات وغرف التعذيب

وعندما جاء السادات بعد عبد الناصر، لم يخطر له ببال أن يتنازل عن وحدانيته في سبيل أن يمكن بضعة ملايين من المصريين من ممارسة «ديموقراطية الواجهات» والانغماس في الأوهام الليبرالية وتلك الأشياء الدخيلة المستوردة

لكنه - بطبيعة الحال - كان (١) جاهداً في الخروج من ظل عبد الناصر الذي ذاق على يديه الكثير من ضروب الادلال والمهانة وتحمل الكثير، فكان متعيباً عليه أن يخطط لنفسه خطأ جديداً، و (٢) أخذاً في تأمين زعامته وجمع أعوان جدد حوله، فكان متعيباً عليه ضرب الأعوان القدامى كما قلنا وتثبيت دعائم حكمه، و (٣) أخذاً في تغيير عرابي الزعيم السابق وأعوانه، وإغواء عرابين جدد بأن يأخذوه تحت إبطهم، فكان متعيباً عليه أن يغير ذلك الشكل «الاشتراكي الوطني» من «الديموقراطية» الذي تواطأ الزعيم السابق وأعوانه مع الشعب المصري على أنه نظام الحكم الأمثل نظراً لـ «ظروف المرحلة» وعدوان «العدو العادر» وشرور الاستعمار السابقة ورواسسها، وضرورة «بناء الاشتراكية»، بديموقراطية يمكن أن يقلل بها العرابون الجدد

وكانت ريادة وليم روجرر وحورف سيسكو للقاهرة يوم ٤ مايو ١٩٧١، في واقع الأمر، لغايتين أولاهما بدء عملية بناء الجسور مع مصر من جانب الولايات المتحدة، وثانيتها معاينة ثمار مراهنه الأميركيين على أمور السادات منذ منتصف الستينيات. فمثلاً كان علي صبري «رجل السوقيات» في المنطقة، كان السادات أقرب ما يكون إلى «العميل الراقد» (Sleeper) للأميركيين داخل النظام ويبدو أن الأميركيين راهبوا عليه منذ رتب له السفير الأميركي في القاهرة أننذ، لوشياس باتل، زيارة للولايات المتحدة سنة ١٩٦٦ وافق عبد الناصر لسبب غريب على أن يقوم السادات بها في وقت كان بالغ السوء في العلاقات المصرية الأميركية، وهناك اجتمع السادات بأشد زعماء الولايات المتحدة السياسيين ولاء لإسرائيل، وعلى رأسهم الرئيس الأميركي ليندون حوسون، وعدد كبير من أعضاء الكونجرس وما من شك في أن السادات كان محل دراسة متعمقة من جانب الاستخبارات الأميركية وغيرها من الوكالات أثناء الزيارة والمرجح أن علاقة وثيقة ما بينه وبين أميركا التي انبهر بها انبهاراً ريفياً خالصاً، نشأت أو

أنشئت في ذلك الوقت، ووطدت بعد ذلك عن طريق الأصدقاء المشتركين للطرفين. وقبل أن يصل روجرز وسييسكو القاهرة في ٤ مايو / أيار، كان السادات قد عني بأن يقل علي صبري من كل وظائفه

«في صباح ٢ مايو/ أيار، إتصلت سامي شرف تليفونيا وقلت له «تطلع (تنشر) في الصحف إقالة علي صبري هي سطر ونص سطر في الصفحة الأولى وبنط صغير» تملل في الكلام، فقلت له اسمع! مش عايز تلغ الصحف، المكتب عدي يلعبها، فقال حاصرياً أفندم وحاءني في طهر نفس اليوم ومعه القرارات قرارات إقالة علي صبري من منصبه كنائب رئيس جمهورية، ومن منصبه كمساعد رئيس الجمهورية لشؤون الطيران، وحاخا ثلاثة (١٥)

وواضح من كلام السادات أنه كان أكثر اهتماماً بنشر ببا إقالة علي صبري من كل مناصبه في الصحف منه بأي شيء آخر، كتوقيع القرارات الجمهورية اللازمة لذلك والسبب في ذلك واضح، هو أن تصل الأميركيين إشارة واضحة ومحددة قبل وصول روجرز وسييسكو إلى القاهرة بثمان وأربعين ساعة، بأن «رجل السوفييات» في مصر قد انتهى ويؤكد ذلك الفهم قول السادات بعد ذلك مباشرة «وأرسل القرار للصحف. وطلبت من مكنتي أن يتصل أيضاً بالصحف لضمان التنفيذ (النشر)» (١٦).

ويواصل السادات كلامه قائلاً

«ثم حاء روجرز، وزير الخارجية الأميركي وقابلته وبعد المقابلة، دعوت اللجنة العليا عندي في البيت ما عدا اثنين هما علي صبري وصياد الدين داود وكان علي صبري وقتها قد كتب خطاباً إلى أمين الاتحاد الاشتراكي عبد المحسن أبو النور، طالباً دعوة اللجنة المركزية فوراً للاجتماع لأنني بحيتة لمجرد أنه أبدى رأيه وهو يريد أن يناقش ذلك كله في اللجنة المركزية ووصلني الخطاب، وجمعتهم في المنزل بعد لقاء روجرز وقلت لهم لقد جمعتكم اليوم، وتلاحظون عدم وجود اثنين، علي صبري وصياد داود وأنا لم ادع علي صبري وصياد لأن الاجتماع في بيتي وأي كرسي هما لا يستحق أن يحلس عليه أي منهما وتكلمت وقلت اني دعوتهم لكي أطلعهم على ما جرى من حديث مع روجرز، وانتهى الاجتماع» (١٧).

والواضح من كلام السادات الذي أورده موسى صبري «خامساً» كما هو، على سبيل التقديس للرعيم ربما، أنه تصرف وتكلم من منطلق الحاكم بأمره، وب عقلية العمدة الذي أمسك برقبة القرية ورقاب كل من فيها.

فالاجتماع الذي دعى إليه «اللجنة المركزية» لإطلاع أعضائها على «ما جرى من حديث» مع وزير خارجية الولايات المتحدة في مسائل الحياة والموت بالنسبة لمصر ومن فيها، دعا إليه في بيته، في دوار العمدة، لا في قاعة اجتماعات حكومية أو ب «قصر الرئاسة» أو في اجتماع مشترك يضم مجلس الوزراء أو أي شيء من ذلك القبيل «السيروقاطي». جمعهم العمدة في الدوار وقال لهم ما أراد أن يقوله لهم عن الحديث مع الخواجة الأميركي الزائر، الذي توجه بعد الزيارة رأساً إلى إسرائيل

وفي حديثه عن علي صبري، قال أن علي صبري تظلم لمحسن أبو النور من تنحيته لمجرد أنه أبدى رأيه ولم يعن السادات بأن يوضح في مصارحاته لموسى صبري حول أي شيء دار ذلك الرأي ولماذا كان مزعجاً للحد الذي أدى إلى تنحية صاحبه قبل زيارة روجرز بثمان وأربعين ساعة ولم يعن السادات أيضاً، وهو الرجل الذي أعاد للقانون سيادته وأحيا الديمقراطية من غيبوبتها الطويلة، بأن يبين السبب في أنه لم يجد من دواعي الديمقراطية وسيادة القانون أن تناقش محادثاته مع روجرز وسييسكو في اللجنة المركزية، ومجلس الشعب ومجلس الوزراء. والواضح طبعاً أن منطلقه كان ما قاله له هيكل، وما قيل دائماً لعبد الناصر «أنت البلد يا ريس. أنت مصر»، فهو اللجنة المركزية، وهو مجلس الشعب، وهو مجلس الوزراء، وهو «الشارع» كما كان يسميه بقدر كبير من الشاعرية. وتلك «مسائل سياسة عليا» لا يفهم فيها إلا الزعيم ولا بيت فيها إلى الزعيم.

ومع ذلك، وبمنتهى الهدوء، يقول السادات بعد ذلك الكلام المحزن كله لموسى صبري :

«وفي صباح اليوم التالي، إستدعيت جمعة (شعراوي) وأبلغته «لقد قررت تصفية الاتحاد الاشتراكي كله وحله وتجرى الانتخابات من القاعدة إلى القمة، بحيث تبدأ في مايو / أيار، في آخر هذا الشهر، ويجتمع المؤتمر القومي يوم ٢٣ يوليو / تموز، وبوصفك أمين التنظيم، روح جهز نفسك واشتغل» (١٨).

وبعدها بأيام، قام السادات بالـ putsch الفاشي التقليدي ولو قرأ المرء ما رواه السادات بأسلوبه المعروف لموسى صدري، وقرأ شيئاً من تاريخ النازية والفاشية أو تواريخ الأحزاب والتنظيمات الفاشية في أميركا اللاتينية؛ لخطر له أن السادات كان يقتبس من أولئك الناس، وأنهم - أو بالأقل من ظلوا منهم أحياء ممارسين للمهنة - يقتبسون منه

«في صباح ١٢ مايو/ أيار، ررت الحيش، وأخذت قراراً في المساء (الزعيم يؤمن ولاء القوات المسلحة ثم يتخذ قرار القيام بالـ putsch)».

«كان مفروضاً أن أرور مديريةية التحرير يوم ١٢ مايو / أيار، واتصح بهم دبروا لي «كيميا» هناك (اكتشاف مؤامرة على حياة الزعيم)

«استدعيت ممدوح سالم (محافظ الاسكندرية) واجتمعوا هم واحدوا يفسرون قرار إستدعاء ممدوح سالم واستعدوا تماماً أني ساقيل شعراوي جمعة لأنهم كانوا مخدرين من تصرفاتي، فقد كنت أحول إلى شعراوي أي شكوى اتلقاه صده أو ضدهم وأطلب منه التحقيق وإمادتي (مخدعة الزعيم للعناصر المناوئة تمهيداً لضربها)

«في الظهر استدعيت سامي شرف وكلفته بأن يطلب من شعراوي أن يقدم استقالته وكنت قبل ذلك قد استدعيت الليثي، قائد الحرس الجمهوري، وقلت له «يا ليثي جهز نفسك المعركة الباردة (اليوم) وانتظر الأمر بالتنفيذ نعم كنت أتوقع معركة لأن الأمن المركزي المسلح من ألمانيا الشرقية يتبع شعراوي، وهو القوة الوحيدة الموجودة في القاهرة والجيش خارج القاهرة والفريق فوزي معهم وكان لا بد أن استعد للمواجهة قال لي الليثي أنه حازم تماماً وكانت كل تفصيلات الخطة عنده ومعدة قبل شهرين وكل الواجبات موزعة، دون أن يشعر أحد وكان أساس الحطة حماية القاهرة، ودخول أي معركة مع أمن مركزي أو قوات مسلحة (الحرس الخاص للزعيم يكلف بمواجهة عسكرية حسب خطة موضوعة سلفاً، سراً، وموزعة واجباتها، مع كل المسلحين التابعين للعناصر المناوئة)

«حضر ممدوح سالم من الاسكندرية، وحلف اليمين، وياشر مسؤولياته وأقال حسن طلعت مدير المباحث العامة، لأنه أس حاله صياء الدين داود، وسيطر على الأمن المركزي (معاون الزعيم الجديد يجرّد العناصر المناوئة من المسلحين التابعين لها ويحرمها من خدمات الأجهزة).

«واستدعيت أحمد اسماعيل وكلفته برئاسة المخابرات وأصبح كل إنسان في السوليس والأمن المركزي وغيره تحت أمر رئيس الدولة (الزعيم يحكم قبضته على كل المسلحين والأجهزة)

«وبعدها استقر رأيهم على الاستقالة الجماعية واتصلت بممدوح سالم (رئيس الوزراء الجديد) وطلبت منه أن يتحفظ على شعراوي جمعة وسامي شرف ومحمد فائق وجميع من قدموا استقالاتهم، واحتياطياً جرى التحفظ أيضاً على علي صبري» انتهت العملية،^(١١١) انتهى الـ putsch

وقد وجد السادات بعد ذلك في مكنته أن يقول مبرراً بإقلاب القصر هذا، أو بالأحرى العملية الفاشية التقليدية أن أولئك الزملاء القدامى من أعوان الزعيم السابق دخلوا في صراع معه «وإذا التمسست لهم بعض العذر (فيما كان ينشب من صراعات في حياة عبد الناصر) لأنه كان يريد أن يحكم بخطته وأسلوبه وفلسفته، وله الحق، ولأنهم كانوا مقيدين محرومين من إبداء الرأي.. ها أنت تراهم الآن أي قرار اتخذه لا بد أن يهيلوا عليه التراب. لماذا؟ إن أبسط مواطن في مصر يتمتع (الآن) بالحرية الكاملة. فماذا يضايقهم؟ هي النفس البشرية. وهذا أمر من أسرار خلق الله. طبيعة بشرية، ماذا أقول...»^(١١٢)

فالرجل كان خليطاً غريباً من «لاعب الثلاث ورقات»، الفهلاو المصري الذي يقف على نواصي الشوارع مستغلاً خفة يده في إفراغ ما في جيوب ضحايا السذج من نقود شحيحة، والديماجوج، والزعيم الفاشي ذي المخالب الذي - عندما يستثار - «يفرم»، وهو المصطلح الأثير لديه «أنا بالي طويل صحيح. لكنني أفرم في الوقت المناسب»^(١١٣).

ومن أصدق الانطباعات عن شخصية السادات - وصدقها هنا من خلال القياس إلى تصرفات الرجل وخطبه وتصريحاته ومواقفه وقراراته السياسية المدمرة التي قضت على مصر بالخراب ووضعت الطريشة الاسرائيلية في عبها بإحكام فلن تخرج منه إلا بالدم، وبدم غزير - انطباعات محمد إبراهيم كامل الذي عمل مع السادات كوزير خارجية وعرفه منذ شبابه أيام كان يتبخر في شوارع القاهرة بثياب أشبه بثياب «طوربيدات» المافيا في أميركا (والطوربيدو الاسم الشائع في صفوف الجريمة المنظمة للقاتل المحترف الذي ينفذ عمليات الأعدام للعصابة) وخبره وعمل معه عن كثب وهو أخذ في «صنع السلام».

«لا شك عدي في أن شخصية السادات من الممارح العريضة من نوعها التي سيتهافت علماء النفس على دراستها وتحليلها على مر السنين وأنا لست عالماً نفسياً، وإنما رأيت أنه ربما يكون مفيداً أن أسرد انطباعاتي الشخصية عن ملامح شخصيته عسى أن يساعد ذلك في تفسير بعض تصرفاته السابقة واللاحقة. وأنا أفعل ذلك والألم والمرارة يعتصراني. كان السادات يعيش سلسلة من أحلام اليقظة فهو بطل الحرب، وبني السلام، وهو الفلاح النسيط وهو كبير العائلة، وهو القيصر وهو الحاكم الديمقراطي، وهو عمر بن الخطاب، أو هو صلاح الدين، أو هو ريتشارد قلب الأسد (وفي عالم أحلام اليقظة ذلك) كانت تطرأ له الأفكار وهو حالس وحده بعيداً (عن كل مشورة أو رأي غير مشورته ورأيه) ولا تلتصق أن تهيم على حياله فكرة من تلك الأفكار تلح عليه، فيعشقها، ثم يقلبها من حير الفكر إلى حير التعيد (يمارس الـ «Flat» الفاشي المعهود، يقول للشيء كن فيكون) وفي تقديره أن فكرة المبادرة وزيارة القدس التي ذكر أنه لم يشاور فيها أحداً أو يطلع عليها حتى لحظة إعلانها كانت من قبيل ذلك

«ومن ناحية أخرى، كان ميالاً إلى الإسراف في المجاملة والندح وهذا من الطباع الشرقية، وربما كان من أحلاق القرية حسماً كان يحب أن يردد ولكن إذا جاز ذلك على الصعيد الشخصي وفي حدود ما يملك الشخص، فإنه لا يحور على صعيد الأعمال، فإذا كان الأمر يتعلق بمسائل مصيرية كتلك التي كانت محل التفاوض بين مصر وإسرائيل، كان الحذر أوجب

«كذلك كانت لديه حاسة ومذاق الاطراء والمديح لصفاته ومميرات وعقريته يسمعه ويستسيغه في كل أن فإذا ما جاء هنري كيسنجر وقال للسادات أنه وحد فيه، في حانئة المطاف، من يفوقه في ميدان الاستراتيجية، أطره ذلك وأسكزه»

«وكان بدوره يصدق الاطراء على الآخرين بلا روية ولا تحفظ ومن مظاهر ذلك (البذخ النفسي) أنه كان يسع صداقته على كل من يقا له، حتى من أول لقاء، فهذا صديقه تشاوشيسكو، وهؤلاء أصدقائه نيكسون وفورد وكارتر، وهذا صديقه حيسكار ديستان، وهذا صديقه شميت، وهذا صديقه كرايسكي، وهذا (طبعاً) صديقه هنري (كيسنجر) ثم يتوحد صداقاته بـ «صديقه بيجين» وهو متى أسمع بلقب الصديق لا يلبث ذلك أن يحتمر في نفسه فيصدق مع الوقت أن الشخص المنعم عليه صديقه حقيقة ويتعامل معه على هذا الأساس المريح، فيبوح له بمكومات صدره، ويكشف له عن خبيئة نفسه، وفي هذا ما فيه (من مكسب) لمن يتحين العرص ويصيد في الماء العكر

«ومن ذلك أنه كان إذا جلس إلى طرف عني له على هواه (أسمعه ما يطيب له أن يسمع) ربما لكسب ثقته وتعاطفه معه وأنه شيء من المرونة وتنازلات غير ذات قيمة في حد ذاتها يستطيع إيقاع الآخرين في المصيدة، بذلك الطعم، فيحصل منهم على كل ما يريد، فإذا كان السامع أمريكياً، هاجم السادات السوفييات، إذا كان مغربياً هاجم الحرائر، وإذا كان راديكالياً هاجم له السادات الرجعية، وهكذا ولا أعلم، ولا أريد أن أعلم أن كان ما نسبته إليه مناحم بيجين من أنه قال له إن «منظمة التحرير الفلسطينية هذه عميلة للاتحاد السوفيياتي، صحيحاً أو غير صحيح»^(١١١)

ورغم الشعور بالامتنان لورير الخارجية السابق لكل ما تفضل به من انطباعات لمحة وكاشفة، لا يستطيع المرء إلا أن يتوقف هنا، في هذه النقطة بالذات، فيستأذنه في أن يقول له أنه مخطيء إذا ما عزف عن الوقوف على ما إذا كان رئيس جمهورية مصر الذي عمل كوزير خارجية له في مرحلة من أخطر فترات التاريخ المصري وأحفلها بالمهاك قد قال لمناحم بيجين أو لم يقل له ما قاله عن منظمة التحرير الفلسطينية وربما كان قول الورير أنه «لا يعرف ولا يريد أن يعرف» راجعاً إلى تقززته من تصرف رئيسه الشاطر إلا أنه، على مستوى أهم من التقزز والاشمئزاز وأخطر، كان ينبغي له أن يعرف. لأن ذلك بالدات مدار الحكاية كلها. وإنما نخطيء الفهم، وهو ما يمكن أن يحدث بسهولة في مثل هذا الجو المشوتر فكرياً المهلهل سياسياً، ليس مدار الحكاية كلها سمعة منظمة التحرير الفلسطينية أو أي «قداسة» لفلسطين. إنما مدار الحكاية فهم حقيقة الصراع مع القوى الوحشية التي يمثلها مناحم وغير مناحم ممن «أنعم عليهم» السادات بصداقته ومحبته ووده ومصارحاته. فالنظام العسكري الغشيم الذي أفرح السادات رئيساً لمصر وجعل في مكنة الحركة الصهيونية أن تدخل في عروق مصر كالسم من خلال جهله وتخلقه وعنجهيته ووحدانته زعامته، نظام لم يفتن منذ البداية وحتى النهاية إلى حقيقة الصراع المفروض على مصر وعلى كل بلدان الأمة العربية (إن أرادت البقاء) في مواجهة المشروع الصهيوني، ونظام لم ينظر إلى «قضية فلسطين» (وهي ليست قضية فلسطين، بل قضية البقاء لكل بلد عربي في المنطقة) إلا بوصفها وسيلة للاستمرار في إعلاء كلمة ضباط الجيش في ظله وتأمين بقائه بما جعلت «قضية فلسطين» في مكنته أن يقدقه من مكانات ومزايا على أولئك الضباط حتى انتهى الأمر بالنظام وبهم إلى اعتبار وطنهم

مصر غنيمة حرب لهم. ومن خلال ذلك العمى الفكري والتلهل السياسي والانفصام عن حقائق العصر البشعة داخل شرنقة عالم الوهم الذي أقامه النظام لنفسه وللمصريين، بات بوسع «رئيس» مزيف كأَنُور السادات أن يظل «يلعب الورقة الفلسطينية» التي تربح النظام وتربحت زعامته بها منذ ١٩٥٢، حتى اللحظة الأخيرة، بينما هو جاهد في إشراك «العدو الغادر»، تحت جناح الأصدقاء الأميركيين، في التمتع بغنيمة مصر مع النظام التي انتهى بأن أصبح في وضع المحتل الداخلي لها، وبات بوسع ذلك «الرئيس» المزيف أن يقول لـ «صديقه مناسح»، في نفس الوقت، أنه «بيني وبينك يا عزيزي. منظمة التحرير الفلسطينية هذه ما هي إلا منظمة عميلة للسوقيات الملاعين»^١ فالعميل الراقد للأميركيين، البطل المحارب وبطل السلام وباني الديموقراطية، محمد أنور السادات، رأى كل الآخرين في أدوار العملاء، من خلال عينه هو كعميل للأميركيين داخل نظام لا جذور حقيقية له ظل يبحث عن عزاب يحتضنه ويقوم هو باحتلال مصر المسكينة لحسابه داخلياً.

وإذ نعود إلى انطباعات محمد إبراهيم كامل عن السادات، بعد هذه الوقفة التي لم يكن منها بد عند مسألة الفلسطينيين و «مشكلتهم» ومنظمة تحريرهم، نجد أن:

١ - «السادات عاش سلسلة من أحلام اليقظة»، وهذا صحيح، ومن أخطر سمات الرجل التي ما من شك في أن أصدقاء الأميركيين درسوها وحللوها بعناية وتعاملوا معه من خلالها كما تعامل معه الإسرائيليون، والاعلام العالمي، وكل «ضاربي الطبول» الذين أطلقوا حوله ليوجهوا مصر من خلال وحدانيته إلى مصيدة «السلام». وهي سمة طبيعية لدى رجل من أعمدة النظام الذي حول الحياة في مصر، له وللمصريين كما قلنا، إلى عالم موهوم مادته الكلمات وما يتولد عنها من تصورات، وخامته أحلام اليقظة

٢ - «كانت الأفكار تطراً له وهو وحده بمعزل عن كل مشورة وكل رأي». وقد وصف موسى صبري في كتابه عن السادات تلك العزلة كما لو كانت عزلة البطل الأسطوري المأساوية هناك وحده على قمة الجبل والعواصف والرعود والبروق تتحلق رأسه المكلل بأكاليل الغار ودمه ينزف من عروقه من أجل من هم بأسفل الجبل، وتعمد موسى صبري في محاولة إعطاء تلك الصورة إلى حد السخف :

«ومشهد السادات وهو يرى فيلماً، (كان مشهداً) يثير الألم! نعم. الألم! كان السادات يشاهد الفيلم في المساء، في قاعة كبيرة، أشئت لاصقة بالاستراحة (استراحة القناطر ذات المصطبة التي كان يدير من فوقها شؤون الدولة) لكي يعقد فيها الاجتماعات وكان يجلس على مقعد في وسط القاعة المظلمة ليُشاهد الفيلم وبحواره التليفون. وكان يوقف الفيلم إذا تلقى مكالمة هامة. المشهد مؤلم تعبير عن الوحدة القاعة كبيرة، ومظلمة وبها شخص واحد. ولكنه كان لا يتبرم بهذه الوحدة. كان يحب محالسة نفسه كثيراً وكانت تمر عليه ساعات طويلة في بعض الأحيان، وبلا لقاء مع أحد، وهو جالس وحده في حديقة الاستراحة، يفكر ويفكر كان يهوى التأمل أكبر القرارات وأخطرها، إتخذها بعد هذا التأمل الطويل (وحده)،^(١٥٨)

فالبطل المأساوي في عزلة هناك على القمة وحده متخذاً قرارات المصير قد انتقل هنا من قمة الجبل في أساطير البطولة، إلى قاعة كبيرة بنيت قرب «الدوار ومصطبة» ليعقد الزعيم فيها الاجتماعات، لكن الزعيم، راضياً بوحده، غير متبرم بها، قابلاً بمصيره الذي وضع كل ذلك العبء الجسيم على منكبيه، حول قاعة الاجتماعات إلى صالة للعرض السينمائي بها مقعد واحد، «فإذا كان عنده ضيف دعاه إلى مشاهدة الفيلم معه، لكنه في معظم الأمر سعيد بمجالسة نفسه، بلا لقاء مع أحد، يفكر يفكر ويفكر لأنه كان يهوى التأمل، ثم بعد كل ذلك التفكير المتواصل وحده، يتخذ أكبر القرارات وأخطرها.

ومما يقوله محمد إبراهيم كامل، كانت مشاهدة الأفلام مصدر إلهام له ومصدر ثقافة: «ومن مصادر حصيلته المختلطة الواسعة من المعلومات العامة وقشور الثقافة المبعثرة، كانت الأفلام السينمائية خاصة الأميركية التي كان يحبها ويقبل على مشاهدتها، وهي (غالباً) أفلام تاريخية في قالب رومانسي أو أفلام رعاة بقر أو أفلام بوليسية. وكان يستشهد في أحيان كثيرة بهذا المصدر من مصادر «الثقافة»، وهي استشهادات معروفة في خطبه وأحاديثه الصحفية. فهو مثلاً إذا تكلم عن «حقوق الإنسان» شرحها بقوله (كما فعل في حديث نشرته الأهرام بعدها الصادر يوم ٢٤ أبريل / نيسان ١٩٧٩) «زي لما بتشوفوا في الأفلام في أمريكا فإن ضابط البوليس عند القبض على شخص يذكره بحقوقه وينبهه إلى أنه يستطيع

الامتناع عن الادلاء بأقواله إلا في حضور محاميه^١ ومثلاً في صدد دفاعه عن «قانون العيب» الذي أصدره، قال «إن قوانين العيب ليست بدعة من اختراعه، بل هناك ما يقابلها في الولايات المتحدة الأميركية ذاتها» واستشهد على ذلك بفيلم كان قد شاهده مؤخراً عن حياة الممثل كلارك جيبيل الذي كان على علاقة غرامية بالممثلة كارول لومبارد رغم أنه كان متزوجاً، مما أدى إلى اتهامه بخرق ميثاق الأخلاقيات الأميركية .. وهو ما يسمح للقاضي بفصل مرتكب ذلك من عمله بالحكومة أو إلغاء عقده مع الشركة التي يعمل بها^(١٠١).

فالثقافة والقانون والأخلاق والحياة كلها في الواقع، في عالم الوهم، يسهل كثيراً أن تقام دعائمها على الوهم الذي تصنعه أفلام السليلويد. وذلك طبيعي في مصر على عباد حلم اليقظة الطويل الذي غمس فيه المصريون. لكنه برهن، المرة تلو المرة، على أنه شيء خطر متى بات السياق الطبيعي الذي يتخذ فيه الزعيم أكبر القرارات وأخطرها، وحده، هناك، في قاعة السينما، أو في حديقة الاستراحة، بعيداً عن كل ازعاج وكل رأي أو مشورة، وبطبيعة الحال، بلا أدنى معارضة.

٣ - أن السادات كان كريماً للغاية «مياًلاً إلى الاسراف في المجاملة والبذخ» وبطبيعة الحال كان بوسعه دائماً ممارسة ذلك الكرم من موقعه كعمدة يمتلك العزبة. ومتى كان وراء ذلك الكرم غياب للفكر والثقافة، وغياب للرأي والمشورة، وغياب للمعارضة، وحضور لأحلام اليقظة والتصورات السينمائية، كانت النتيجة بالنسبة للعزبة كارثة حقيقية عندما تعلق الأمر «بالمسائل المصرية كتلك التي كانت محل تفاوض بين العمدة وأعدائه وبين إسرائيل».

٤ - أن السادات كان يعاني «من ظمأ دائم إلى الإطراء والتغني بعبقريته». وهذا طبيعي في زعيم مزيف كان في مؤخرة وعيه باستمرار، حتى وهو يغيبط نفسه على حظه المجدود الذي أوصله إلى منصب الرئاسة، ذلك الشعور المزعج بالنقص، بأن زملاءه في «قيادة الثورة» إحتقروه دائماً واعتبروه دخيلاً، بأنه الفقير وضعيف المنشأ الذي عامله الأقوياء الأغنياء دائماً باستهانة فبالنسبة إلى مثل ذلك «الزعيم» الذي بات متمتعاً بوحداً وسمو على قمة هرم سلطة مطلقة لا تحد، كان الإطراء والتغني بعبقريته البلسم الشافي لكل الجراح التي ظلت كل عقد النقص ورواسب المعاناة القديمة والمهانة والاذلال تحت قدمي الزعيم السابق تنكؤها في الروح والعقل فتكاد تزلزل الإيمان بالنفس وتجعل مذاق الانتصار مرّاً كالعلقم في الفم.

وما من شك في أن أجهزة جمع وتحليل المعلومات الأميركية والاسرائيلية وقفت على كل ذلك ودرسته وتعمقته عملاً على الوقوف على المنافذ السهلة الفعالة إلى ذلك «الزعيم» الأوحده الذي لم تكن بالأميركيين والاسرائيليين حاجة إلى التعامل مع أحد سواه في معرض سعيهم إلى استدراج مصر للمصيدة التي يستكمل بإيقاع مصر فيها العمل الكبير الذي بدأ باستدراجها إلى شرك ١٩٦٧ من خلال التعامل مع شخصية الزعيم السابق

وهكذا كان طبيعياً أن يعنى صديق السادات هنري كيسنجر بأن يغذي ذلك الجوع إلى المديح والاطراء، ويروي ذلك الظمأ إلى التمجيد والاعجاب لدى «الزعيم» المصري بأن يؤكد له أنه زعيم عبقري أو شك أن يبزه هو، هنري كيسنجر العظيم، في مجال الاستراتيجية. وقد كانت حكاية الاستراتيجية هذه هامة للغاية لدى السادات، وهو قد وصف نيكسون بأنه «أخطر سياسي أمريكي... فهو واضع استراتيجية» وقال أن ذلك هو السبب في أنه ونيكسون تفاهما سريعاً^(١٠٢) أي أنه تفاهم مع نيكسون لأنه كان مثله، «أخطر سياسي عربي» بحكم كونه - هو الآخر - «صانع استراتيجية»! ولم تكن مثل تلك الحاجة النفسية لدى السادات لوضع نفسه على مستوى أولئك «الخوارج» لتفوت الأميركيين أو الاسرائيليين والولد اليهودي النابغ هنري كيسنجر.

ومن المحزن أن موسى صبرى، في محاولته المستميتة لرسم صورة مشرقة لزعيمه، وجد من الملائم أن يقول لقارئه أن السادات «كان يصف كيسنجر دائماً بأنه «صديقي هنري» (لأنه) لم يكن يفهم أغوار كيسنجر، (بل لأنه) كان دائماً يقرب من يتعامل معه بالعاطفة»^١ وتأمل فقط في «الشطارة الفلاحية» التي تعامل بها العمدة الناصح السادات مع الخوارج الأميركيين. كان الرجل من فرط استاذيته يقربهم

بالعاطفة كان «يبلشفهم» بالعواطف، و«يأكل بعقولهم حلاوة» كما يقول المصريون والمفروض طبعاً أن ذلك اليهودي الألماني المتأمر كيصوص كيصبح الذي «أكل بعقول الأميركيين ورؤسائهم حلاوة»، وقع - رعم «أغواره» التي لم ير الأستاذ صبري للأسف أن يتوقف عندها قليلاً ليوقعها عليها - في حية العمدة الشاطر الذكي السادات، وابتلع الطعم، فقال في نفسه «أه يا ولد يا هنري» هذا الرجل الطيب السادات يودني كثيراً ويتعامل معي بالعواطف، فلا يحب أن أكون خسيساً معه، ولا يستقيم أن أحده أو أغتسه أو أضلله أو أسلمه كالديبة إلى يدي جولدا، بل يحب أن أكون طيباً معه أنا أيضاً.

وقد شعر موسى صبري، رعم تلهفه على تصوير السادات في أحسن صورة وأبهى حلة، بسحف ما قال، فسارع بالقول بأن «السادات كان يفعل ذلك من أجل مصر»، وانه «كان يتقي الصفات الطيبة في كل من يتعامل معهم، ليتعامل معهم من حلالها» واتخذ من القاريء موقف المعلم فقال «وهذا دور رجل السياسة الذي في موقع المسؤولية» بل وأكد أن السادات لم يكن يتعامل بتلك الطريقة مع أولئك الناس «كذباً وخداعاً، لأنه كان يتعامل مع سياسة يمكن أن يكتشفوا الكذب والخداع» بل تعامل معهم بتلك الطريقة على أساس «الاختيار الباعد من حابه لحواب «صحيحة»» (٤) من تكوين هؤلاء الزعماء يتعامل معها السادات» (١١١)

وان بدا لنا كلام موسى صبري هنا أقرب إلى الهذيان فلأن الرجل حاول فيه احتلاق مبررات عقلانية لسلوك غير متعلق بإقامة «علاقات شخصية» مع السياسة ورجال الدولة شيء، و«أكل حلاوة بعقولهم» عن طريق تقريبهم بالعاطفة والتعامل مع الجواب «الصحيحة» (٥) منهم، شيء آخر

ورغم الهديان، اقترب موسى صبري من الحقيقة دون أن يدري. والحقيقة أن السادات، بتركيبته «الفلاحي» التي اعتقدت في نفسها دائماً الذكاء والسطارة والفهلوة، وبنقص ثقافته السياسية، و«رومانسيته» واستغراقه في عالم يومي من أحلام اليقظة، صدق في النهاية فعلاً أنه كان مستطيعاً التعامل مع أولئك الناس بالعواطف والمودة والكرم و«الجدعنة» وليس أدل على ذلك مما رواه موسى صبري نفسه عن لقاء السادات بجرالد فورد الرئيس الأمريكي، وقوله للصحافيين المصريين الذين كانوا على وشك لقاء فورد في مؤتمر صحفي «إن هذا الرجل فورد فلاح مثلي» مؤكداً عليهم أن «يرسموا له صورة جيدة فيما سوف يكتبون، لأن فيه كل صفات الفلاح الصراحة والبساطة» (١١٢)

٥ - وينسحب هذا على «إسباغ السادات صداقته على كل من قابلته، من أول لقاء»، فيقولاي تشاوشيسكو الروماني، وهو من أكبر قارعي طبول إسرائيل، بات صديقه تشاوشيسكو، بل ومناحم بيجين ذاته أصبح صديقه مناخم. وفي خلقية ذلك، غير «الفهلوة» التي أشرنا إليها وتصديق السادات في النهاية لسطارته التي جعلته يقرب الجميع بالعاطفة، كان احتياج السادات إلى أن يشعر نفسه بأن كل أولئك «الأكابر» من الخواجات الرؤساء والسياسة باتوا أصحاباً وخلاناً له وتقبلوه في ناديهم كزميل وصنو وصديق

٦ - وقد عمد السادات في تعامله مع أولئك الخواجات الذين فتحوا له أبواب ناديهم المغلق تحقيقاً لمصالح مموليههم وسادتهم في تل أبيب ونيويورك إلى أسلوب السطارة الفلاحي، فد «غنى لكل منهم على هواه» أي أسمع ما شعر أنه يطيب له أن يسمعه، وقدم الكثير من التنازلات. وفي النهاية، استخدم في التعامل معهم الأسلوب عينه الذي جعله ينجو من أذى عبد الناصر طوال ١٨ عاماً ويخرج من تحت مقعده رئيساً للجمهورية. ولا غرو أن جيمي كارتر قال عن السادات أنه كان يثق فيه كما يثق في زوجته روزالين (١١٣).

ومن الأشياء التي وجد السادات أنه كان متعينا عليه أن يفعل شيئاً حيالها كيما يصبح رئيساً متحضرًا مستنيراً وعصرياً وعضواً بنادي أولئك الأكابر، مسألة الديمقراطية.

وكانت الديمقراطية قد ظلت في غيبوبة عميقة، كما قلنا، منذ ١٩٥٢. ورغبة من السادات في أن «يغني» للأميركيين على هواهم، فيما يتعلق بتلك الديمقراطية التي لا يكفون عن التحدث عنها والتشبهت بها، قرر أن «يقلبها» «ديموقراطية». ولما كانت «الديموقراطية» عند الضباط قد ظلت منحصرة في مسألة «تعدد الأحزاب» و«الانتخابات» وكل ذلك، قرر السادات أن يعطي حكمه واجهة ديموقراطية جيدة ومتينة تسر

الناظرين من الأميركيين وغيرهم، وتجعل «أصغر مواطن في مصر»، كما قال لموسى صبري، «متمتعاً بالحرية».

يحكي موسى صبري أنه في لقاء له مع أنور السادات بعد أن «رشح لرياسة الجمهورية»، وكان ذلك في قصر العروبة، «جرى الحديث حول إعداد أول خطاب له أمام مجلس الشعب. وسألته «هل تعرف سيادتكم ماذا يريد الشعب؟»، وأجاب على الفور «أعرف. الديمقراطية. ولكن ذلك سيجيء تدريجياً. نعم، لا سبيل إلى العلاج إلا بالديموقراطية. وسأختار أنا الوقت المناسب»^(١١١). فالزعيم قد قرر أن يوقظ الديمقراطية من غيبوبتها، تدريجياً، في الوقت المناسب الذي سيختاره هو، ليعالج بها الأمور.

ومن الغريب أن موسى صبري، وهو يحكي عن الديمقراطية، حكى في الوقت عن «مشكلة الدكتور جمال العطيفي». وكيف أنه «كان ضحية سوء فهم» (من جانب الرئيس، رغم أنه «لم يكن يضمّر سوءاً للنظام، بل كان «وهو المغضوب عليه» يراجع معظم التشريعات الهامة قبل صدورها ويسعى لإقناع أنور السادات بسلامة موقفه. لكنه جنح بعد ذلك إلى مزيد من الاستقلال في الرأي»^(١١٢).

«جنح إلى مزيد من الاستقلال في الرأي».. «وكان مغضوباً عليه» ومن الضالين. فأني ديموقراطية تلك التي كان الزعيم يفكر في إعطائها للمصريين؟ وحش فرانكنشتاين المكون من أجزاء متناثرة من جثث مختلفة؟ وإن كان الاستقلال في الرأي جنوحاً، وانفعال الشيخ عاشور في مجلس الشعب الذي دعاه الرجل عن حق بأنه «مسرحية مجلس شعب» «تطاولاً» أي عيباً في الذات العليا للزعيم، فأني ديموقراطية هذه(*)؟ ديموقراطية «تنافس أحزاب متعددة على أصوات الناخبين في معركة إنتخابية»، كما في السلفادور وغيرها من البلدان المحكومة بأسلوب الاحتلال الداخلي لحساب الولايات المتحدة فالمهم أن يرى العالم

(*) «كما رأى السادات أن بعض أعضاء مجلس الشعب بدأوا يتطاولون على شخص رئيس الدولة (ذات الزعيم العليا) ومنهم كمال الدين حسين الذي أرسل برقية إلى الرئيس السادات كلها تطاول وتهجم بما لا يليق معه محاطة رئيس جمهورية. وقرر أنور السادات أن يفصل كمال الدين حسين من مجلس الشعب ثم تطاول الشيخ عاشور عضو مجلس الشعب على رئيس الجمهورية داخل المجلس، وهتف بسقوطه. وكان الرئيس السادات مستعداً فعلاً لمعالجة موضوع الشيخ عاشور بعقوبة جزئية مثل وقفه بعض الوقت كما تنص لائحة المجلس، وكان هناك رأي عام بين المثقفين (١) المؤيدين للرئيس السادات بأنه أكبر من أن يكون طرفاً مقابلاً للشيخ عاشور. واتصلت بالرئيس السادات وأبلغته هذا الرأي واقتنع وطلب مني أن أكتب رسالة قصيرة يبعث بها الرئيس إلى رئيس مجلس الشعب يقرر فيها ما يعني عفو عن هذه السقطة من الشيخ عاشور وكنت هذه الرسالة، واتصلت به لكي أقرأها له، لكنه كان قد عدل عن رأيه إذ وجد أن الهدف المقصود من بعض فصائل المعارضة هو مجرد التطاول على شخص رئيس الجمهورية (الذات العليا للزعيم) وأنهم في ذلك تجاوزوا كل الحدود الدستورية والأخلاقية. (موسى صبري «السادات» ص ٢٢٠ و٢٢٢)

والواضح من كل ذلك أن السادات والصحفي الذي كتب الكلام الذي أوردنا منه الاستشهاد صدرأ عن تصور غريب وشاذ حقيقة للديموقراطية البرلمانية. فالزعيم يفصل النواب ويوقع عليهم العقوبات الجزئية أو يعفو عنهم، والنواب يخرجون على الحدود «الدستورية والأخلاقية» ويقعون تحت طائلة مفهوم «العيب» بطبيعة الحال متى «تطاولوا بالنقد على العمدة الزعيم الواحد الذي لا يناقشه في حقيقة الأمر أحد وإن دعت دواعي التعامل مع الأجانب إلى الظهور بمظهر من عنده برلمان فيه نواب شعب يناقشون رئيس الجمهورية ورئيس وزرائه وكل وزرائه الحساب. فمجلس الغة القديم قد بات اسمه مجلس الشعب نعم، والاتحاد الاشتراكي ذهب إلى غير رجعة وحلت محله «أحزاب، متعددة نعم، لكن لكل شيء حدوداً، لأنه عيب

وقد يغيد في الوقوف على خلفيات تلك الصراعات حول «الديموقراطية النيابية» و«فصل السلطات»، التوقف عند التفاصيل التي قد تساعدنا على إدراك حقيقة الأمر وأنه - بلقندر الأكبر - كان من قبيل تسوية الحسابات القديمة.

وفي الجلسة الأولى التي عقدها الاتحاد القومي يوم ٢١ مايو / أيار ١٩٦٢ إعداداً لاجتماع المؤتمر الوطني للقوى الشعبية، جلس أنور السادات على يمين عبد الناصر وكمال الدين حسين على يساره. وكان ترتيب أعضاء مجلس قيادة الثورة قد تحدد بأقدمية الرتب العسكرية السابقة، لكن تعيين أنور السادات أميناً أول كان إيذاناً بانتهاء دور كمال الدين حسين في التنظيم السياسي كما حدث مع إبراهيم الطحاوي في هيئة التحرير.

(أحمد حمروش: «مجتمع عبد الناصر» ص ٢٠٤)

انتخابات تجري وأحزاباً تتنافس وناخبين يذهبون إلى صناديق الانتخاب، وأصواتاً تفرز، ونتائج تعلن، كما لو كانت هناك نتائج حقيقة لا نسب مئوية محددة سلفاً

والواقع أن موسى صبري أغنانا هنا عن كل شرح، فهو - بغتة - يطالعنا بهذا القول الغريب (منه) الكاشف عن حقيقة رؤية الرعيم للعبة كلها

«وكان السادات مؤمناً بما كان يسميه جلسة «الدوار» (دوار العمدة)، أو جلسة المصطبة، وكان يريد لمقر الحزب أن يكون «قعدة» (جلسة بالمفهوم الريفي) مستمرة، يتعارف فيها الأعضاء ويتبادلون الحديث عن المشكلات، ويستقبلون أعضاء الحزب، وكان يريد لهذه الجلسة أن تعقد في كل قرية»^(١٧٧)

وإلى هنا والأمر متسق مع عقلية السادات ككبير العائلة وعمدة القرية التي هي مصر وهي عقلية قد تكون طريفة وممتعة في رواية أو في حلم يقظة، لكنها بغير شك مميتة في بلد يعيش في النصف الثاني من القرن العشرين ويتعامل مع دول عصرية متقدمة تشق جلودها في كل يوم وتخرج منه في غمار تقدم سريع حاد متواتر وبلد يواجه هجمة إستعمارية إستيطانية ضارية ومدعومة من تلك الدول العصرية المحتاجة لأراضي المتخلفين ومواردهم وغير محتاجة لكثرتهم ومشاكلهم

أما الأخطر من ذلك، فـ رؤية السادات لكيفية تنظيم حزبه والنمط الفاشي السلفي الذي اختاره ليوصي بمدوح سالم بأن يبني تنظيمات الحزب على أساسه

«حاول السادات بكل الأساليب أن يقوى حزب مصر وكان ينصح بمدوح سالم بأن يبني تنظيمات الحزب بمثل أسلوب تنظيمات الإخوان. وكان يروي له كيف أشأ حسس الساجماعة الإخوان وكيف زار كل قرية ودرع بذرة فيها واحترار من يثق بهم ثم راد العدد بالتدريج، وهكذا أصبح التنظيم قوياً ومتماسكاً»^(١٧٨)

فالسادات لم يكن يفكر في ديموقراطية، ولم يكن يفكر في أحزاب سياسية ذات برامج وأيديولوجيات مختلفة تطرح وتناقش وتتطاحن على ساحة مفتوحة لإقناع الناخبين وجعلهم يصوتون في جانب هذا الحزب أو ذاك تبعاً لمدى اقتناعهم بما يطرحه من سياسات وما يتبناه من مواقف، بل كان يفكر في تنظيمات فاشية الطابع فاشية التوجه «يختار من يثق بهم» ولا ممانع من أن تكون سلفية المذاق فالهم الولاء للزعيم والطاعة للنظام.

وهذا شيء لا تعارضه الولايات المتحدة بل تشجعه بكل قواها في بلدان العالم الثالث التي «تتبنى فيها الديموقراطية» لتجعل من تلك «الديموقراطية» سداً منيعاً في وجه «المتطرفين والتهوسيين والمخربين والحمرة» وهي تتبناه في أميركا الوسطى والجنوبية، وفي آسيا وأفريقيا وكل مكان من العالم طاوله نفوذها الكوكبي. ولذا لم يكن للأصدقاء الأميركيين اعتراض على «ديموقراطية» السادات، شريطة أن يبدو النظام للعالم كما لو كان أخذاً في التحول صوب الديموقراطية فعلاً (to be seen to be moving towards democracy!) أما ما عدا ذلك، فمسائل داخلية ولا دخل للولايات المتحدة فيها لأنها لا تعتدي على سيادة الدول على أراضيها.

ويروي لنا موسى صبري ما حدث

«بدأ السادات حكمه بعد ١٥ مايو وبعد إلغاء الرقابة على الصحف بإقبال متحمس، وعن إقتناع بأنه لا سبيل إلى استقرار مصر وبهضتها إلا الديموقراطية وكان يريد الاتجاه بمصر إلى نظام الحزبين وكان يريد تعديل الدستور وأذكر أنني قابلته مع عديله محمود أبو وافية في الاسكندرية، وكان الحديث في كل مكان عن الديموقراطية وعن احتمال عودة الأحزاب وقلت للرئيس لا بد من تعديل الدستور ليكون رئيس الجمهورية بالانتخاب (لا بالاستفتاء) فرد ساخراً قديمة (هذا أول تعديل قررت إجراءه) أثم قال: هاتوا ما عندكم. وكان حديثنا كله عن تصوراتنا للتعديلات الدستورية التي تحقق الديموقراطية البرلمانية. وأذهلني أنه كان متفقاً معي على كل ما أترناه، بل وأضاف إليه الكثير من عنده فقد كان هذا اقتناعه. وكان يرى أن الديموقراطية سوف تخفف على الجماهير أعباء الأزمة الاقتصادية (باعتبار أنه) كثير من الحرية يعوض عن قليل من الطعام»

«وكان السادات متفائلاً بأنه سيحقق أول ديموقراطية حقيقية في دول الشرق الأوسط غير الديموقراطية المنظمة في إسرائيل التي تخضع إسرائيل بها العالم وهي في حقيقتها توازنات ومناورات بين التجمعات السياسية والهدف واحد وهو التوسع وفرض التوسع بقوة السلاح. ولذلك فاجأ أنور السادات البرلمان بإباحة تكوين الأحزاب

«وبدا التلفزيون يعرض بدوات سياسية تنتشر فيها كل الأحزاب المعارضة مع حرب مصر ولكن المتحدثين من حرب مصر كانوا الحارب الضعيف في تلك البدوات، وكان السادات يتعمى أن يكون الحوار متوارباً، لكن احترام الماركسيين للحدل وتمرسهم على ذلك كسب لهم حولات عديدة ولذلك أوقعت البدوات (١)»
وقد حملت كل الأخطاء أنشد على كنفى الدكتور جمال العطيفي الذي كان وريراً للاعلام في ذلك الوقت (والحقيقة) أن جمال العطيفي وقع ضحية حلافات بين رئيس مجلس الشعب المهندس سيد مرعي، ورئيس الوزراء ممدوح سالم، رغم أن علاقاتهما الشخصية كانت تندو على السطح طيبة جداً لكن الرئيس السادات امدى للمهندس سيد مرعي أكثر من ملاحظة مؤاذاها أنه كان يعطي المعارضة فرصة أكثر مما يعطي الحكومة وحرب الاعلية وكان سيد مرعي يعتقد أنه كان هناك من يدس له لدى الرئيس السادات لكي يقبعه بان سيد مرعي يريد أن ينال شعبية (على قفا الزعيم) بمقولة أن سيد مرعي رجل الديموقراطية وأنه كان يسعى إلى نيل تلك الشعبية عن طريق مجاملة المعارضة على حساب الحكومة وكان سيد مرعي يرى أنه بالجو الديموقراطي الذي أشاعه في مجلس الشعب يعطي صمام أمان للنظام وللحكومة من حيث أنه س الأفضل أن يقال في مجلس الشعب كل ما يقال في «الشارع» (١٦٨)

فها نحن نرى الديموقراطية لم تكذ تخرج من غيبوبتها العميقة حتى وحلت في الرمال المتحركة الحطرة المتعلقة بتأمين وحدانية الزعيم وحتى سيد مرعي الذي ربطته بالزعيم علاقات صداقة ومصاهرة ومصالح عديدة لم ينج من ذلك الخطر المميت هو و «الديموقراطية» التي أراد أن يوفر بها «صمام أمان» للنظام (الذي كان من مصلحته الشخصية أن يستمر ويزدهر) وللحكومة «بمجرد أن وقر في ذهن الزعيم أن مرعي كان قد بدأ «يلعب بذيله» بحكاية «الديموقراطية» هذه. ولم يطل الوقت قبل أن يخرج مرعي من رئاسة مجلس الشعب

وبطبيعة الحال، يظل كل ذلك الهذيان عن الديموقراطية في جانب، ويظل الواقع في جانب آخر ولندع جانباً ممارسات العالم الثالث القميئة المعروفة في مجال تزيف «إرادة الشعب القائد» و «الشعب المعلم» والشعب صاحب السلطات بأسلوب النسب المثوية المعروف والذي يتحدد سلفاً قبل أي انتخاب، وينفذ «أميرياً»، ولندع جانباً حكاية «تداول» النواب على دات الزعيم العلية، ولننظر إلى قرارات الحياة والموت بالسببة لمصر ومن الذي اتخذها، الشعب صاحب السلطات ممثلاً بنوابه، أم العمدة الزعيم صاحب العربة ومالك القطعان»

(٢/٣). طرد «الروس» من مصر

عندما اجتمع الدكتور محمود فوزي، الذي كان آنئذ مساعداً لرئيس الجمهورية، بريتشارد نيكسون، وويليم روجرز، وهنري كيسنجر، في ربيع ١٩٦٩، أثناء وجوده في واشنطن - رغم قطع العلاقات - لحضور حنارة الرئيس الأميركي الراحل دوايت أيزنهاور، تشجع الرجل بما سمعه من كلام قاله نيكسون عن ضرورة تحسين العلاقات، بل واستثافها، فقال أن الولايات المتحدة عليها أن تتقدم باقتراحات معقولة يقللها المصريون وكل العرب، فكان أن رد عليه ويليم روجرز قائلاً «لا تنسوا أنكم خسرتم الحرب، وعليكم أن تدفعوا الثمن» (١٦٩)

وقد كان الثمن الذي وضع لخسارة مصر حرب ١٩٦٧ التي استدرجت إليها ومكنت الولايات المتحدة إسرائيل من إلحاق هزيمة ماحقة بمصر في غمارها، خلال ساعات من ترددي عبد الناصر في الشرك، ثمناً مزدوجاً (١) تحطيم إرادة مصر تماماً وإخراجها من الصراع وعزلها عن العالم العربي الذي لا وجود لها بدونه ولا قائمة تقوم له بدونها، و (٢) عزل مصر عن المصدر الوحيد الذي أتيح لها في مواجهة الانخراط الأميركي الكامل في تنفيذ المشروع الصهيوني، للحصول على ما تمكنت على حيازته من وسائل الدفاع عن نفسها ضد العمليات اللاحقة للهزيمة والتي قصد بها الإجهاز على مصر تماماً وإعدام روح القتال فيها، والحصول في الوقت نفسه على قدر ما من الدعم الدبلوماسي الذي أتيح لها للدفاع عن نفسها في مواجهة الهجوم الدبلوماسي الأميركي الكاسح عليها ولم يكن ذلك المصدر، بطبيعة الحال، سوى الاتحاد السوفياتي الذي لم يزود مصر بتلك القدرات الدفاعية - التي ظلت محدودة - وذلك التأييد الدبلوماسي - الذي ظل في حدود - حباً في مصر أو انتصاراً للحق أو دفاعاً عن المظلوم، بل رغبة في تحقيق اختراق حقيقي في منطقة تطلعت إليها الحكومات الروسية منذ أيام القيصرية، هي الشرق الأوسط، ومواصلة

لتناطح الاتحاد السوفياتي الكوكبي مع الدولة العظمى الرئيسية المنافسة، الولايات المتحدة ومنذ ذلك الاتصال التمهيدي بين النظام المصري وإدارة نيكسون، في ربيع ١٩٦٩، ظلت الاشارات تتلاحق إلى المصريين بوحوب «تنظيف بيتهم» بطرد الروس إذا ما كانوا راغبين حقيقة في علاقات أفضل مع الولايات المتحدة.

وعندما استولى السادات على السلطة في مصر أثر نجاح الـ putsch الفاشي الذي قام به فتخلص من أعوان الزعيم السابق، أولى انتباهاً خاصاً لتلك الاشارات التي تكشف وتلاحقت منذ اطمأن الأميركيون إلى أن عميلهم الراقد (sleeper) هو الذي خرج فائزاً من الصراع على السلطة في البلد الهدف، مصر وربما كان السادات شخصاً قليل الثقافة، كما قال عنه وزير خارجيته محمد كامل إبراهيم، وكان فوق ذلك رعيماً أوحداً لا شريك له لم يقيم في أي وقت أدنى قيمة أو وزن لرأي أو مشورة من جهاز متخصص أو آخر تكون مقتضيات الظهور أمام العالم بمظهر «الدولة العصرية» قد فرصت وجوده تحت قدمي الزعيم، كوزارة الخارجية أو «مجلس الأمن القومي» (١) أو الـ think-tank الذي أوجده هيكل في مؤسسة الأهرام لتقليد الخواجات وقال له السادات عنه «يا بني دول فقاقيع»، إلا أنه ما من شك في أن السادات أصغى دائماً وبانتباه بالغ لما ظل يصله من «نصح» و «إشارات» و «توجيهات» من عرابيه الأميركيين، إما مباشرة، وإما من المسارب الخلفية عن طريق الأصدقاء المشتركين للطرفين. والذي لا شك فيه أن قدراً كبيراً من غصبة السادات الضارية على محمد حسنين هيكل الذي كان في ظل الزعيم السابق قناتاً من قنوات الاتصال الرئيسية مع الأميركيين، نبع من عدم اطمئنان الزعيم الجديد إلى ولاء هيكل لشخصه، وتصميمه - تبعاً لذلك - على إقصائه من دائرة السلطة حتى لا يقف على أية اتصالات للزعيم بالأميركيين عن طريق قنوات أخرى خلافة، وإعطاء إشارة للأميركيين بذلك الاقصاء لهيكل من دائرة السلطة بضرورة إنهاء دوره كقناة اتصال بينهم وبين الزعيم أو النظام. وفي مصارحاته لموسى صبري، قال السادات:

«كان عندي أمل أن يكيف هيكل نفسه للوضع الجديد، معي، لكن هذا لم يحدث. ظل يتصل بي نعم.. يبلغني أخباراً سياسية نعم، ولكن ليس أكثر من هذا النطاق. لم يجد سبيلاً لكي يعرف القرارات السياسية الهامة أو يشترك فيها كما كان الأمر مع عبد الناصر، بل أنه وصل في نهاية الأمر إلى أن أصبح يضع القرارات لعبد الناصر.» (٢)

وربما خشي السادات من منافسة هيكل له لدى الأميركيين عن طريق الإدعاء بأنه كان الموصي لدى الزعيم الجديد باتجاهاته الممالئة للخط الأميركي، أو الادعاء بأنه، مثلما كان «يضع القرارات لعبد الناصر»، ظل يضعها للسادات، وبذلك يسرق الفضل من ذلك الأخير في أعين عرابيه الجدد. ومن جانب آخر، كان السادات - بعقلية المتأمر عضو الخلية السرية (٣) - يريد أن تظل أوراق اللعب لاصقة بصدوره لا تراها عين غير عينه، وخاصة في المرحلة التي سبقت حرب أكتوبر / تشرين الأول ١٩٧٣، وهي المرحلة التي كان يعد فيها لأخذ كل ما يستطيع أخذه من الروس كخبطة أخيرة، ثم طردهم، إستكمالاً لخطه الأميركي، وحتى يذهب إلى الأميركيين بعد حرب ٧٣ التي كان يعرف نتيجتها سلفاً والتي شنّها لا لغرض إلا لـ «تحريك» الأمور، وهو «نظيف اليدين» من سواة الروس، والرئيس المستنير الذي أحيا «الديموقراطية» من غيبوبتها العميقة، وبذلك يكون ذهابه إلى الأميركيين مدعوماً بتحقيقه مطلبهم الأساسي.

١ - «خلع» السوفيات من مصر.

٢ - إعطاء نظام الاحتلال الداخلي الذي تزعمه الواجهة «الديموقراطية» التي اشترطتها الولايات

(*) «كنت أشعر بأن السادات لم يستطع التخلص تماماً من عقلية وأسلوب وتكتيك عضو الجمعية السرية التي يفكر ويخطط في الخفاء لينفذ خطه سواء كان اغتيال شخصية يعتبرها خائنة للوطن والاعداد لثورة أو انقلاب في نظام حكم، وظل شيء من ذلك يحكم تفكيره بعد أن أصبح رئيس دولة».

(محمد إبراهيم كامل «السلام الضائع» ص ١٩٦)

قتل مصر

المتحدة دائما في نظم الفاشيين والعسكريين الذي احتلوا بلدانهم احتلالاً داخلياً لحسابها في أميركا الوسطى والحيوية واسيا وأفريقيا
وقد وحه السادات أولى إشاراته إلى الأميركيين بتدخله في السودان في يوليو / تموز ١٩٧١ وضربه للتحرك ضد نظام جعفر النميري بقوات مصرية من منطقة حبل الأولياء وقوات سودانية نقلت من منطقة القناة إلى الخرطوم على متن طائرات روسية الصنع وكانت إشارة السادات إلى الأميركيين مزدوجة فهو، من جانب، أعلن موقعه العربي في صف النظام الديكتاتوري الذي حكم السودان في ذلك الوقت واحتوته سرعة الولايات المتحدة ومن جانب آخر، صرحت تحركاً كان وطنياً في مجموعته وإن شاركت فيه عناصر ماركسية، باعتبار ذلك التحرك «سوفيائي» المنشأ، وطرح بذلك نفسه والنظام الذي كان قد ترأسه في مصر، كـ «بلطحي» يمكن أن يقوم بخدمة الأميركيين في ذلك المحال محال «ضرب العناصر التحريبية والماركسية»، وبقوله القوات السودانية الموالية للنميري على طائرات سوفياتية الصنع، أعطى إشارة للأميركيين أيضاً بأنه كان يأخذ من «الروس» كل ما يستطيع، وفي الوقت ذاته يستخدم كل ما يأخذه منهم في إحباط محطاتهم التوسعية وخدمه الأهداف الأميركية ودعم النظم الموالية للأميركيين

وفي نفس الوقت، كان السادات قد دخل صراعاً مكشوفاً مع «الماركسيين» في مصر وفي شأن نظرية السادات إلى الشيوعيين والسلفيين، يقول موسى صبري «معروف تاريخياً أن عبد الناصر كان يقول دائماً الحل في يدي بالنسبة للشيوعيين والاحوان قرار باعتقالهم خلال ٢٤ ساعة». وكان رأي السادات أن «تجربته في التسارع السياسي أثبتت له أنه لا يمكن الثقة في العمل السياسي بشيوعي أو بإخواني، مهما فعل المرء من أجلهم فهم ينقصون عليك في أول فرصة تسمح لهم»، ويضيف موسى صبري قائلاً «أريد أن أقول أنه لم يكن هناك أي فارق في نظرة كل من عبد الناصر والسادات إلى الشيوعية والاحوان»^(١) وهذا صحيح فالنظام نظر إلى كل من الشيوعيين والاحوان بوصفهما جماعتين منافستين له على السلطة ورغم أن معظم مقومات وأعضاء حركة الضباط الأحرار كان إخواني المنشأ، ورغم أن النظام تصنع لأغراضه الخاصة الاشتراكية وأقام علاقات قوية مع الاتحاد السوفيائي، فإنه ظل معادياً بقوة لجماعة الاحوان، من ناحية، ولـ «الماركسيين المصريين» من ناحية أخرى، لا على أسس أيديولوجية، فالنظام لم تتكون لديه أية مجموعة متسقة من الأفكار والمواقف يمكن أن تشكل شيئاً يستطاع بأي قدر من التساهل تسميته بـ «الأيديولوجية» خلاصه على المبادئ الأساسية لكل النظم الفاشية، ولكن على أسس «أمنية» بحتة فالشجار مع الاحوان، الذي بدأ باقصاء عبد المنعم عبد الرؤوف ووصل إلى مرحلة التصادم الدموي في محاكمات الاحوان، والشجار مع «اليسار»، الذي بدأ باقصاء يوسف صديق واضطهاده وسجنه ووصل إلى حالات تأزم متتالية ظل النظام يجمع خلالها «اليساريين» ويضربهم ويسجنهم ثم يفرج عنهم ويطلقهم ليتجسسوا لحسابه على بعضهم البعض أحياناً، وفي أحيان أخرى يتصدق عليهم ببعض «المناصب»، الشجار مع الاحوان والشيوعيين في مصر كان إجراء أمنياً، صوناً للملكية النظام للعزبة ووحدانية الزعيم، وقد وصل ذلك الاتجاه «الأمني» إلى حد الدخول في صراع مع «الشيوعيين» في خارج مصر، كما في المعركة بين عبد الناصر وعبد الكريم قاسم الذي - بغضب شديد - أطلق على نفسه اسم «الزعيم الأوحد»، فأشعل صراعاً وصف بأنه كان بين مصر والعراق، بينما لم يكن في حقيقته إلا تنافساً حتى الموت بين زعيمين أوحدين.

وفي ذلك الصراع مع «اليسار» واليمين السلفي، كسب النظام معركته بسهولة ضد «الشيوعيين» لأسباب عديدة ليس أقلها شأناً أن الصراع دار في بلد زراعي متخلف لم يدخل بعد العصر الصناعي الذي يمكن أن يتواجد فيه حقيقة «صراع طبقات» بالمعنى الذي يأخذ الفكر الماركسي منطلقاته الأيديولوجية منه. ولذا ظل «الخصم» الذي نازله النظام في تلك الساحة حفنة من «المتقنين» أو «الأفنديات»، كما كان السادات يسميهم على سبيل الزراية، وبعض العناصر العمالية التي أغوتها فلسفات أولئك الأفنديات لم يكن لـ «الحر» بذلك أي جذر يعتد به أو يقيم له وزن في تربة «الجماهير» المصرية أما الصراع مع اليمين السلفي، فظل حكاية أخرى. ولنفس الأسباب التي جعلت «اليسار» نبتة شيطانية هزيلة في التربة المصرية استطاع النظام بغير جهد أن يطأها بقدمه، وجد النظام نفسه، فيما

يخص اليمين السلفي، مواجهاً بما لا سبيل إلى تسميته إلا بأسنان التنين التي تحكي الأساطير أنها متى بذرت في الأرض تظل تثبت الهولات، وكلما اجتثت هولة، ببت مكانها أخرى وربما اثنتان ففي مجتمع زراعي متخلف ما زال السواد الأعظم من أفراد أمياً، وباتت الكثرة الغالبة من «المتعلمين» فيه أمية بالفكر وإن تعلمت القراءة والكتابة ومبادئ الحساب لتأكل عيشاً، ظلت الغيبات ذات حاذبية لا تقاوم. ومما زاد من سطوتها على العقول أن المصريين كانوا دائماً شعباً شديد التدين، على مر عصور تاريخهم. وفوق ذلك كله، ظل المصريون، منذ استولت الثورة المباركة على بلدهم وادارته لحساب النظام وزعيمه كما تدار الضياع، مستبعبدين تماماً، في حظائرهم بالضيقة، من العملية السياسية، رغم كل الهراء الذي لم يكف المرتزقة من المنظرين والمفلسين الملتزمين عن إفرازه عما أسموه بـ «الوحدة الوطنية» وادعوا أنها وحدة «صنعها تحالف قوى الشعب الممثلة للشعب العامل وهي القوى المؤلفة من الفلاحين، والعمال، والجنود، والمتقنين، والرأسمالية الوطنية» وقالوا أنها هي التي نبغ منها الاتحاد الاشتراكي ليكون السلطة الممثلة للشعب والدافعة لإمكانات الثورة، والحارسة على قيم الديمقراطية السليمة.

رغم ذلك الهراء الذي ما لبث أن تكشف عن لا أكثر من هواء ساخن كرية الرائحة خرج من أجواف المنظرين المرتزقة الملتزمين بالزعيم، ظل المصريون في حقيقة أمرهم خارج اللعبة تماماً، مستبعبدين من ممارسة أي حق سياسي، ومحرومين من أي حرية حقيقية، ومهددة طيلة الوقت كل حقوقهم الإنسانية تحت حوافر حيوانات النظام الشرسة. فهل من عجب إن اتجهوا إلى السماء والغيب والعالم الآخر ولاذوا بها؟ وهل من عجب أن خسر النظام معركته مع اليمين السلفي الواعد بالخلاص والحنة؟

وعندما استولى السادات على السلطة، ورث عن الزعيم السابق كل تلك الأوضاع، وهما يخص الإخوان، حاول فيما يبدو أن يحل «حزب مصر» محلهم، فكان «ينصح ممدوح سالم بأن يبني تنظيمات الحزب بمثل أسلوب تنظيمات الإخوان.. وكان يريد للحزب أن يدخل كل قرية وبيت» أما «اليسار» الماركسي المصري، فجنباً إلى جنب مع مواصلة صراع النظام معه، استخدمه السادات في الترويج لنفسه لدى الأميركيين، ورغم «الانفتاح» السياسي العظيم الذي أعلنه السادات إحياء للديموقراطية في مصر، ظل «الصراع مع الشيوعيين» تأميناً لـ «الديموقراطية» ورقة رابحة لعبها السادات ببراعة في استحلاب رضاء الأميركيين.

غير أن السادات كان مدركاً طيلة الوقت لكون «الصراع مع الحمر» وتحجيم العناصر المخربة» داخلياً لم يكن كافياً، وأنه كان مطالباً بالتدليل على ولائه بشكل قاطع بـ «طرد الروس».

في ١١ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧١، ذهب السادات إلى موسكو للتباحث مع القادة السوفييات بريجنيف، وبودرجورني، وكوسيجين، وجروميكو، والمارشال جريشكو. وهناك قال السادات للسوفييات أنه بات من الضروري إزاء تعنت إسرائيل وعدم استطاعة الولايات المتحدة الضغط عليها للاستجابة إلى سعي مصر إلى الحل السلمي، تحريك القضية سياسياً عن طريق عمل عسكري محدود، وأنه لذلك يطلب من الاتحاد السوفيياتي تسليح مصر بما يجعلها متساوية مع إسرائيل عسكرياً^(١٧)

وكان ذلك، تحديداً، المفهوم الذي ذهب به السادات إلى الحرب في أكتوبر / تشرين الأول ١٩٧٣، بعد ذلك اللقاء بسنتين: «تحريك القضية سياسياً صوب التسوية السلمية بعمل عسكري» يزعج إسرائيل عن تعنتها.

وأثناء الاجتماع بالسوفييات، قال بريجنيف للمصريين: «لديكم الآن ٩٥٠٠ خبير عسكري سوفيياتي لتدريب القوات المصرية ولكن من الضروري أن تكون لديكم خطة كاملة للدفاع المدني يشترك فيها الشعب كله.. ونحن لدينا اقتراحات معينة لمزيد من الدعم للقوات المصرية سوف يكون لها أثرها الحاسم تماماً بالنسبة لكل ما يجري، وسوف نزودكم بالطائرات القاذفة بعيدة المدى من الطراز الصاروخي (تي. يو.)».

«وارجو ألا تعلنوا عن قيامنا بامدادكم بها، وسنورد إليكم ١٠٠ ميغ ٢١ وسوخوي، خلال ما تبقى من عام ٧١ ومطلع ٧٢، بالإضافة إلى سرب كامل من طائرات الميغ ٢٣ سيصلكم خلال النصف الثاني من ٧٢، كما سنزودكم بكتيبة مدفعية ١٨٠ ملمتراً يصل مداها إلى ٤٢ كيلومتراً بالإضافة إلى مدافع هاون

قتل مصر

عيار ٢٤٠ ملميمترا، وبالإضافة الى هذا كله سنعلمكم بمزيد من وسائل العبور بحيث تصلكم على الفور ثلاثة كبارى جديدة إلى جانب مزيد من أجهزة فتح الثغرات^(١٧٢)

والكلام واضح. فالامدادات العسكرية الاضافية كانت لأغراض هجومية، ولكن ليست - كما قال محمود رياض، وكما طلب بريجنيف من السادات عندما رجاه ألا يعلن عن الحصول على القاذفات بعيدة المدى من السوفيات - لإعلان حرب من جانب مصر «يشارك السوفيات في اتخاذ القرار بشأنها». وفي لقاء لاحق لذلك اللقاء بالسوفيات، اجتمع السادات بالرئيس اليوغوسلافي الراحل تيتو في زيارة سريعة لهذا الأخير للقاهرة يوم ٢٠ أكتوبر / تشرين الأول ١٩٧١، وكان في طريقه إلى الولايات المتحدة للاجتماع بنيكسون. وفي ذلك اللقاء، قال تيتو للسادات أنه عندما تباحث مع نيكسون أثناء زيارته ليوغوسلافيا في المسائل المتعلقة بالشرق الأوسط، ظل نيكسون يعيد ويكرر في مسألة وجود السوفيات في مصر بل وفي المنطقة عموماً واتجاه ذلك الوجود إلى التعاظم بسرعة، وبخاصة في مصر وقال تيتو للسادات أنه سأل نيكسون: ولماذا لا تضغطون على إسرائيل إذن لتنفيذ قرارات الأمم المتحدة وتنسحب من كافة الأراضي العربية؟ فرد عليه نيكسون بأن الولايات المتحدة لا تستطيع الضغط على إسرائيل. (وقد كان ذلك هو نفس ما قاله دين راسك لمحمود رياض قبلاً. لن تأتي إلى السلطة في الولايات المتحدة حكومة تستطيع الضغط على إسرائيل). وعندما قال نيكسون ذلك، قال له تيتو توقعوا في هذه الحالة إذن تعاظماً أكبر للوجود السوفياتي في مصر وفي المنطقة. فالاحتلال الاسرائيلي للأراضي العربية هو الذي جعل عبد الناصر يستعين بالسوفيات. فان كنتم تتضررون الآن من ذلك الوجود السوفياتي فان المفتاح الحقيقي لمعالجة الموقف (وإنهاء ذلك الوجود) هو جلاء الاحتلال الاسرائيلي.

ويقول محمود رياض أن السادات علق على كلام ضيفه اليوغوسلافي بقوله «إن الولايات المتحدة قلقة فعلاً من الوجود السوفياتي بالمنطقة وبخاصة في مصر، وقد سمعت هذا الكلام منهم مباشرة من وليم روجرز وربما يعني أنهم يريدون أولاً وقبل أي تسوية شاملة إخراج السوفيات من مصر، بل ومن المنطقة كلها».

وإذ ذاك قال تيتو أنه يحمل لنيكسون رسالة واضحة محددة من بريجنيف تبين أن السوفيات لم يكونوا راغبين في المقام الأول في إرسال وحدات عسكرية سوفياتية إلى مصر، إلا أنه بالنظر إلى أن مصر كانت في حاجة - بعد هزيمة ١٩٦٧ - إلى القيام بعملية إعادة بناء سريعة لقواتها المسلحة، فقد وافق الاتحاد السوفياتي على إرسال خبرائه إلى مصر. أما بالنسبة للوحدات المقاتلة، فقد كان السبب في إرسالها ضغط شديد من جانب عبد الناصر بعد أن تكررت غارات إسرائيل على المصانع وقناطر المياه والسكان المدنيين في العمق المصري. ويقول بريجنيف أن الأميركيين يجعلون من وجودنا في مصر قضية كبرى بينما الحقيقة أننا مستعدون لسحب قواتنا وخبرائنا من مصر في اللحظة التي يتحقق فيها انسحاب إسرائيل^(١٧٣).

ومؤدى هذه الرسالة التي حملها بريجنيف لتيتو واضح. فالغارات التي قامت بها إسرائيل في العمق المصري تمكنت من القيام بها بالطائرات والمعدات الالكترونية الأميركية التي لم يكن أقرب حلفاء الولايات المتحدة الأوروبيين قد تسلموا مثلها. والهزيمة التي ألحقها إسرائيل بمصر ١٩٦٧ كانت ثمرة لدعم عسكري وديبلوماسي أميركي بغير حدود لعملية الاستدراج إلى الشرك وعملية تحطيم القوات المصرية. وبذلك كان إقدام الاتحاد السوفياتي على إرسال خبرائه إلى مصر لمساعدتها على إعادة بناء قواتها المسلحة التي حطمتها إسرائيل بفضل الأميركيين، وإرسال وحداته المقاتلة لمساعدة عبد الناصر على الدفاع عن المدنيين المصريين والمصانع والقناطر المصرية في وجه الغارات التي شنتها إسرائيل بكثافة وتركيز بفضل الأميركيين وفي ظل حمايتهم الدبلوماسية لها، كان إقدام الاتحاد السوفياتي على ذلك ضرباً من التحدي السافر للولايات المتحدة وإصراراً على إحباط مشروعها في الشرق الأوسط الذي قامت دعائمه الأولى على تحطيم مصر وكسر ظهرها وشل قدرتها حتى على الدفاع عن مدنييها ومنشأتها الاقتصادية في وجه الضراوة الاسرائيلية المتزايدة لمحق العدو المنطرح على ظهره، وبالتالي إرغامها على عقد صلح منفرد مع إسرائيل والخروج من المعركة ومن العالم العربي كله.

وكما قلنا، لم يكن ذلك التحدي من جانب الاتحاد السوفياتي لمشروع الولايات المتحدة في المنطقة سابعاً من شهامة أو غيرية أو رغبة في الدفاع عن المظلوم أو أي شيء من ذلك القبيل، بل كان حلقة في سلسلة النقلات الحادة على رقعة الشطرنج الدولية في المباراة الكوكبية بين الدولتين العظميين الرئيسيتين

وبالمثل، كان إصرار الأميركيين على «خلع» السوفيات من مصر والمنطقة ككل، نقلة مضادة في تلك المباراة المميّة وفيما يخص مصر، كان الأميركيون يعرفون جيداً أن أحداً في الزعامة المصرية السابقة أو اللاحقة لم يكن متيناً بالسوفيات أو سعيداً بوجودهم، لكنه كان لا ملاذ إلا ذلك الوجود. فالبديل له كان التمدد أرضاً تحت نعال الاسرائيليين. والمشكلة أن ذلك بالذات على وجه التحديد كان الهدف الرئيسي للديبلوماسية الأميركية تجاه مصر. ولو كان قد وجد في مصر زعيم أو رجل دولة غير عبد الناصر، أو حتى ملك كفاروق، لكانت الولايات المتحدة قد اتخذت نفس الموقف من مصر الإصرار على جعلها تتمدد تحت نعال الاسرائيليين. لماذا؟ لأن مصر بالذات الشوكة التي يمكن أن تقف في الحلق الاسرائيلي المبارك فتمنعه من ابتلاع المنطقة. وقد عادى الأميركيون عبد الناصر بمختلف الحجج والمعاذير، إلا أن معاداتهم له نبعت أساساً من كونه ظل - حتى ترك نفسه يستدرج إلى شرك ١٩٦٧ صوناً لكرامته الجريئة وحرصاً على زعامته - حروناً ورافضاً التمدد تحت قدمي إسرائيل. والأميركيون، من خبرتهم المعاشة كساسة وحكام ومشرعين يعيشون من يوم إلى يوم تحت الحذاء الصهيوني في بلدهم، لا يجدون غرابة في أن يتمدد أحد تحت قدمي إسرائيل، ويغضبهم أشد الغضب أن يحزن أحد فيرفض ذلك. وعندما قال دين راسك لمحمود رياض، وقال نيكسون لتيتو أن أميركا لا تستطيع الضغط على إسرائيل، كانا في الواقع يريدان أن يوصلوا ذلك المعنى لا أحد في الولايات المتحدة يجرؤ على عصيان إسرائيل، فكيف يعصاها المصريون؟.

وحتى إن كان الأميركيون قد شكوا في أن عبد الناصر الزعيم الفاشي عسكري المنشأ ذا المنابع الاخوانية الذي ظل يمرغ «الماركسيين» المصريين في الطين ويفعل بهم الأفاعيل، كان قد فسد وأصبح «عميلاً سوفياتياً»، فكيف أمكن أن يتصوروا أن السادات عاشق أميركا وعميلها الراقد يمكن أن يصبح كذلك؟ ألم يجعل الرجل من الواضح تماماً طيلة الوقت أنه لم يكن يطلب إلا الرضى، من أميركا «يا سبحان الله»، وأسياد أميركا؟

ولم يكن السادات غيباً، ولم يكن غشيماً. كان رجلاً عصامياً خرج من تحت السلاح، كما يقول المصريون، أي كان قط أزقة، يتشمم الهواء جيداً بأنفه، ويعرف من أين تأتي الريح، وما الذي يتعين عليه أن يفعله كيما يرضى عنه من قرر الانتماء إليهم. وكانت الاشارات تأتيه كثيفة متلاحقة من واشنطن: «اطرد الروس! اطرد الروس!»، وكان يعرف تمام المعرفة أنه هو ومصر وكل المنطقة لم يكن لهم وزن لدى الروس أكثر من وزن بيدق ينقلونه على رقعة الشطرنج الكوكبية، وكان يعرف أن الروس لم يحبوه ولم يراهنوا عليه منذ البداية وأنهم، بلا أدنى شك، سيرحبون بأي ضابط مغامر يظهر لهم استعداداً لأن يصبح في الخدمة يا أفندم ببضعة دبابات وهجمة مباغته على الاذاعة. فباختصار، كان قط الأزقة يعرف جيداً أن فرصته الوحيدة لاستمرار الزعامة والتسيد على العزبة ونيل الرضى وما يترتب على الرضى من مغنم أن يتمسح بأرجل «الأميركان» وفي الوقت ذاته، كان يعرف أن «الشارع» المصري، وأي شارع عربي في الواقع، لم يكن متيناً بالبلشفيك الحمر الكفرة أعداء الله، بصرف النظر عن أن ما منع «اليهود» من اغتيال أعداد متعازمة من أفراد ذلك الشارع، كان السلاح الذي أعطاه أولئك البلشفيك الحمر أعداء الله للسادات الضباط.

وعندما ثبت للسادات أنه كان قد أخذ من الروس كل ما كانوا على استعداد لإعطائه إياه من أسلحة وعتاد، قرر أن يعطي الاشارة التي ما بعدها إشارة للأميركان، فيطرد لهم الروس كما ظلوا يطلبون.

ووقتها كان نيكسون مقبلاً على انتخابات رئاسة في الولايات المتحدة. وكان مهتماً بالحصول على أكبر قدر مستطاع من رضاء الناخبين اليهود عليه، وفي الوقت ذاته، مهتماً بتغذية الحواز السوفياتي الذي لعبت عليه المؤسسة الحاكمة الأميركية طويلاً وبنجاح في «عقول» الناخبين الأميركيين. وهكذا فإنه، في التقرير الذي قدمه إلى الكونجرس عن أوضاع السياسة الخارجية، في مطلع فبراير / شباط ١٩٧٢، ركّز تركيزاً خاصاً على «الخطر السوفياتي» والوجود السوفياتي المتعاظم في منطقة الشرق الأوسط، وبالذات في

قتل مصر

مصر. وبدلاً من أن يوضح الرئيس الأميركي لمواطنيه المحمورين بالابتهاج بالذات أن أولئك المصريين كانوا قد اضطروا إلى اللوذ بالروس الملاعين احتماء من وحشية الاسرائيليين وإصرارهم على كسر ظهر مصر وتمريغ روحها في الوحل، وأن الروس - في غمار منافستهم مع الولايات المتحدة على الصعيد الكوكبي - كانوا قد وجدوا من الملائم لنقلاتهم على رقعة التطرنج الدولية أن يدعموا نظاماً فاشياً كانوا يعير شك قد باتوا موقنين من أنه سيظل فاشياً وسيظل خائباً، تماماً كما ظلت الولايات المتحدة تجد من الملائم لنقلاتها التطربجية أن تدعم في أميركا الوسطى والحبوبية وغيرها مثل تلك النظم الفاشية الخائبة، قال نيكسون للشعب الأميركي ومترعيه أن الاتحاد السوفياتي الشرير كان منعماً في لعبة قدرة إستغل خلالها عصيان العرب وحرونتهم وتمردهم على إسرائيل في ترسيخ وجود عسكري له بالمنطقة، وبمصر خاصة، وأن القادة السوفيات استغلوا النزعات الحربية المعادية للاسرائيليين المساكين لدى رعاء مصر وجوعهم المتعاضم إلى السلاح ومزيد من السلاح للحصول من المصريين على تسهيلات وقواعد بحرية وجوية، وأن ذلك يهدد توازن القوى (أي التفوق الاسرائيلي الساحق) بين مصر وإسرائيل في شرق المتوسط، من ناحية، ويهدد توازن القوى على الصعيد العالمي، من ناحية أخرى أخطر وأكبر.

وفي تقريره إلى الكونجرس، قال الرئيس الأميركي، الذي وصفه السادات بأنه «أعظم سياسي في أميركا لأنه صانع استراتيجية»، أن حلف شمال الأطلسي الذي تقوده الولايات المتحدة وتتزعّمه دفاعاً عن العالم الحر لا يستطيع أن يلزم الصمت إزاء ذلك التعاضم للوجود السوفياتي في الشرق الأوسط وهو وجود تترتب عليه مخاطر كبيرة بالنسبة لاستقرار العلاقات بين الكتلة الشرقية والغرب، ودعا الاتحاد السوفياتي إلى الكف عن تزويد المصريين بالسلاح والعتاد والكف عن استغلال الصراع الناشب بين العرب وإسرائيل في ترسيخ وتوسيع وجوده العسكري بمصر ومنطقة الشرق الأوسط، لأن ذلك ليس هو الأسلوب السليم الذي ينبغي للسوفيات أن يسلكوه صوب تحقيق مصالحهم.

وفي حقيقة الأمر، لم يكن هناك كبير خلاف بين الموقف السوفياتي والموقف الأميركي. فالسوفيات أصروا باستمرار على بصرح المصريين، منذ ما بعد سنة ١٩٦٧، بوجوب السعي إلى تسوية النزاع سياسياً وسليماً وكذلك فعل الأميركيون وكل حلفائهم. كانت نصيحة الجميع إلى مصر تصالحوا مع إسرائيل، واعقدوا تسوية واتفاق سلام معها. وكل ما كان هناك من فرق بين موقف السوفيات وموقف الأميركيين أن السوفيات - رغبة منهم في زرع بذرة وجود لهم بالمنطقة - ظلوا مصممين على أن يكون لهم في عملية صنع السلام دور مواز لدور الأميركيين، ولذا فإنهم تمسكوا دائماً - رغم رغبتهم في الانسحاب من تورطهم في ذلك الصراع كمناصرين للجانب الذي ظل منهزماً فيه - بأن يكون انسحابهم بعد تسوية النزاع سلمياً وسياسياً، لا قبل ذلك، بينما أصر الأميركيون على أن يخرج السوفيات قبل التسوية، فيسحبوا دعمهم لمصر والعرب ويكفوا عن تزويدهم بالسلاح حتى يكون تصالح المصريين وبالتالي كل العرب مع إسرائيل تصالح الحابب الأضعف الأعزل المنسحق تحت وطأة الدعم العسكري والديبلوماسي والاقتصادي الكامل لإسرائيل من جانب الولايات المتحدة. وذلك تحديداً، وبمنتهى الوضوح، ما قاله ريتشارد نيكسون في تقريره إلى الكونجرس عندما أعلن، جنباً إلى جنب مع دعوته إلى الإتحاد السوفياتي بالانسحاب والكف عن دعم العرب والمصريين بخاصة، إصرار أميركا الذي لا يحيد على تزويد إسرائيل بكل ما يكفل لها تفوقاً عسكرياً ماحقاً على كل البلدان العربية مجتمعة.

وبطبيعة الحال، لم يكن قط الأزقة، عميل أميركا الراقد، بغافل عن شيء من كل ذلك. لكنه لم يكن - في الوقت ذاته - على استعداد للتعامل مع «الأميركان» بالحرونة التي كان سلفه قد تعامل بها معهم. ولذلك فإنه - بشطارة الفلاح المصري الفهلاو - حاول أن يتلمس لنفسه نصف مخرج من المأزق. فهو - من جانب - لم يكن مستطيعاً الاستغناء عن مساعدة السوفيات التي كان يعلم أنه بدونها سيقف عارياً تماماً أمام قوة إسرائيل العسكرية الماحقة، ومن جانب آخر، لم يكن مستطيعاً السير إلى آخر الشوط في الاعتماد على السوفيات وبالتالي إغضاب نيكسون وكيسنجر وكل أولئك الناس الطيبين الذين أزعجهم وجود الروس في مصر كثيراً.

وبشطارة الفلاح الفهلاو، كما قلنا، حاول أن يصبح هو الآخر «صانع استراتيجية» كذلك السياسي

الداهية الخواجة نيكسون ونيكسون حاول باحتهاد أن «يضرب الروس بالصينيين»، فلم لا يحاول أنور السادات أيضاً الخروج من تحت مظلة الروس، إلى حصن الصينيين؟

زار نيكسون الصين في شهر فبراير / شباط ١٩٧٢، وبعدها بشهر واحد، في مارس آذار من نفس السنة، بعث السادات وزير خارجيته محمود رياض إلى بكين «وكانت زيارتي للصين تمثل أول محاولة من الرئيس السادات لاستكشاف إمكانيات جديدة لدعم الصين لنا وكان أهم ما نسعى إليه المرید من الدعم العسكري. ولم تكن الصين في موقف يسمح لها بامدادانا بالطائرات الحديثة، لكنها كانت تستطيع أن تمدنا بأنواع الذخيرة السوفياتية التي كانت قد بدأت في تصنيعها محلياً بعد تدهور علاقاتها بالاتحاد السوفياتي، وكذلك بمزيد من الأسلحة المضادة للطائرات والصواريخ المتحركة على دبابات ومدفعية الميدان»^(١٧٢).

ولم يحل الصينيون محل السوفيات كموردين للسلاح إلى مصر، لكن أثنى ما قدموه كان نصيحة لم يلق السادات إليها بالاً للأسف، لأنه كان رجل أفعال لا أقوال، ولم يكن بحاجة إلى ذلك الصيني أيضاً ليلقنه مواعظ

«وتحدث شو اين لاي، فقال: إن كلا من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي يتنازعان من أجل السيطرة على منطقة الشرق الأوسط وسبيلكم الأول إلى مقاومة ذلك هو بمزيد من وحدة العمل العربي والفلسطيني، حتى لا تنجح إحدى القوتين أو كلاهما في تمزيق العالم العربي والايقاع بين دوله. وقد لمسنا من نيكسون، وعندما زارنا في الشهر الماضي، شدة إنحيازه إلى إسرائيل، وفهمنا منه أنه لن يجرى أي تعديل في سياسته تجاه الشرق الأوسط وأنه مصر إصراراً لا يحيد على جعل العرب يتفاوضون مع إسرائيل من موقف ضعف، وهو الأمر الذي يتيح لإسرائيل بالطبع إملاء شروطها على مصر والعرب بوجه عام. ونحن نعتقد أن مواجهتكم مع إسرائيل لا يجب أن تتوقف على كميات وأنواع السلاح الذي لدى كل طرف، وأنتم إذا انتظرتكم إلى أن يصبح لديكم تفوق، أو حتى توازن، عسكري مع إسرائيل، فربما كان معنى ذلك أن يظل الاحتلال الاسرائيلي لسيناء والجولان والضفة الغربية سنين طويلة. ولقد كنا مؤيدين لحرب الاستنزاف التي قمت بها ضد الاحتلال الاسرائيلي، ولا اعتقد أنكم كنتم وقتها تملكون تفوقاً أو حتى توازناً عسكرياً مع إسرائيل، لكنكم استطعتم في النهاية إرغام الولايات المتحدة على التقدم بأفكار للتسوية الشاملة بعد أن كانت رافضة ذلك في البداية أما الآن، فإنكم تتفاوضون في ظل هدوء كامل على جبهة القتال وبلاستطار، إما لمساع أميركية جديدة أو لأسلحة سوفياتية جديدة وهذا - بالطبع - وضع ليس في صالحكم. إن تجربة النضال الفيتنامي وشعوب الهند الصينية بأسرها تؤكد درساً هاماً وهو أن وحدة النضال الشعبي يمكن أن تواجه أعتى الامبراطوريات وأقواها. ومن هنا، فإننا نؤكد باستمرار أهمية وحدة النضال العربي الفلسطيني، وضرورة الاعتماد على النفس والاحتفاظ بزماء المبادرة بأيديكم في نضالكم العادل لاسترداد حقوقكم. وذلك شيء لا تريده الدول الكبرى. أن إستعادة الأرض التي تحتلها إسرائيل لا يمكن أن تكون إلا بالقوة المسلحة، وأي وسيلة غير ذلك معناها تقديم تنازلات على حساب إستقلالكم الوطني.. ولما كنا لا نرى إمكانية لقيام دولة عربية بمفردها بمقاومة الغزو الاسرائيلي الأميركي، فإننا نرى أن وحدة العمل العربي يمكن أن تساعدكم كثيراً»^(١٧٦).

وقد تحدث شو اين لاي عن سيناء والجولان والضفة الغربية، لكن الرجل ظل طيلة الوقت يعود فيؤكد على العمل العربي الفلسطيني. وقد تركزت نصيحته في «الوحدة» بوصفها السلاح الحقيقي المتاح للعرب في التصدي للغزوة الاسرائيلية الأميركية، وقد أعلى فعالية تلك الوحدة على فعالية تكديس السلاح. لكن كلام ذلك الصيني لم يكن بطبيعة الحال كلاماً يمكن أن «يدخل دماغ» الزعيم المصري الذي امتلك العزبة وكان في دماغه العظيم لها مخطط جديد^(١٧٧).

(*) ولم يكن السادات في الواقع مولعاً بالاستماع إلى رأي أحد. فهو الزعيم وهو يعرف كل شيء ويقرر كل شيء. وهو مالك العزبة وله حق التصرف في أرضها وقطعانها كيف شاء ووقت شاء. وعندما عرض عليه هيكمل، على سبيل الحداثة والتشبه -

والذي لا شك فيه أن الاتحاد السوفياتي - الذي لم يكن قد ساعد مصر من مبدأ الأمر حباً فيها أو على سبيل الشهامة - كان في ذلك الوقت أخذاً في اللعب على الحبلين، كما يقولون. ففي حين ظل يؤكد لمصر أن سياسته تجاهها لم تتغير، ظل قادته وديبلوماسيوه يركزون على وجوب السعي إلى الحل السلمي طالبين التمهّل في العمل العسكري لإعطاء الجهد الدبلوماسي المتجه صوب الحل السلمي فرصة.

وبطبيعة الحال، لا يستقيم إغفال الخبرة التي تعرض لها السوفيات خلال حرب ١٩٦٧ وما تركه للاسرائيليين فيها من ترسانات سوفياتية كاملة ظلت إسرائيل تتاجر فيها بعد الحرب بسنين، كما لا يستقيم إغفال خبرتهم الخاصة بموقع الرادار المتطور الذي نزل الاسرائيليون فحملوا راداراته وأجهزته إلى إسرائيل بينما ضباط الموقع في جلسة حظ يستمعون إلى حفلة الست أم كلثوم، مما عرّض الكتلة الشرقية كلها لمخاطر لا تخفى من حراء وقوع أحد مواقع الرادار في أيدي الاسرائيليين والأميركيين.

فعزوف السوفيات عن تقديم كل ما ظل السادات يطلبه من أسلحة متطورة كان يسعد الأميركيين كثيراً الحصول على نماذج منها، إما بعملية كنتك العملية الاسرائيلية، أو كهدية من نظام السادات الذي لم يكن السوفيات يأتمنونه كثيراً، ينبغي النظر إليه في ذلك السياق، جنباً إلى جنب مع عدم رغبتهم في تشجيع المصريين على ما قد يكونون رأوا أنه لن يزيد عن مغامرة عسكرية أخرى قد لا يكتب لها النجاح ولا تكون لها من نتيجة إلا توتر خطير بين القوتين العظميين الرئيسيتين. وهذا نظر قد يكون مؤلماً للنفس، إلا أن تعليقات رجل مسؤول كمحمود رياض على ردود فعل السوفيات أثر طرد السادات لخبرائهم ومستشاريهم العسكريين من مصر لا ترجحه فحسب، بل وتؤكد.

فبحة مماثلة السوفيات في تزويده بكل ما طلبه منهم من أسلحة وعتاد، «اتخذ قراراً بإنهاء عمل الخبراء السوفيات في مصر، وأبلغ وزير الحربية بذلك يوم ٧ يوليو / تموز. وعندما طلب السفير السوفياتي مقابلته، حدد له موعداً يوم ٨ يوليو / تموز. وجاء السفير ليبلغ السادات ببرد موسكو على رسالته، وكان رداً دار حول الموقف السياسي بغير أن يتطرق إلى ما كان السادات قد طلبه من أسلحة وعندئذ أبلغ السادات السفير بقراره بإنهاء عمل الخبراء السوفيات مع إمكان استبقاء الوحدات العسكرية السوفياتية على أن يتم وضعها تحت القيادة المصرية، وفي حالة رفض ذلك فعليها أن تغادر الأراضي المصرية قبل يوم ١٧ يوليو / تموز»^(١٧٧).

فالعمدة «عاقب» الروس بطرد خبرائهم من مصر، واضطروهم بشطارة إلى سحب وحداتهم المقاتلة بأن فرض عليهم إما وضعها تحت قيادته الحكيمة وأما «الجلاء»^(١٧٨) وكانت تلك الوحدات هي ما سافر

- بالاجانب أن يجتمع بـ «مجلس حكماء الأهرام»، قال له السادات «يا بني دول فقاقيع»، كما أسفلنا، نقلاً عن موسى صبري وفي كتابه عن كامب ديفيد، يروي محمد إبراهيم كامل الواقعة التالية

«حضر إليّ السفير نبيل العربي، مدير الإدارة القانونية، عندما علم بأمر الخطابات المتبادلة بين بيجين وكارتر والسادات حول وضع القدس، وكان منزعجاً، ورجاني بالحاج أن أذهب فوراً إلى السادات لأبلغه بأن تلك الخطابات ليست لها أية قيمة قانونية أو عملية، وأنها لن تحل الموضوع. ولم أستطع أن أخبره بأنني استقلت، فقلت له بل أذهب أنت وأشرح ذلك للرئيس من الناحية القانونية، فانت أقرر على ذلك فقال بل بذهب معاً، وسأقول أنا شرح الجانب القانوني. فقلت إني متعب، ورجوته أن يقوم بذلك وحده

«وقد عاد إليّ بعد حوالي نصف ساعة، وكان وجهه شاحباً ويبدو عليه الانفعال، وقص عليّ القصة التالية: أنه عندما ذهب إلى استراحة الرئيس السادات وجد أن بيجين يزوره ليهنئه بالتوصل إلى اتفاق السلام، فانتظر حتى انصرافه، ودخل إلى الرئيس فسأله الرئيس عما يريد، فقال أنه يريد أن يعرض عليه الرأي القانوني فيما يتعلق بالخطابات المتبادلة حول القدس. فقال له السادات تفضل، قل. وعندما انتهى السفير العربي من ذلك، قال له الرئيس بصوت هادئ مهذب: هل لديك شيء آخر تريد أن تعرضه عليّ؟ فقال لا، يا سيادة الرئيس. فقال له السادات: إذن إسمع ما سأقوله لك. لقد إستمعت إليك كما رأيت دون مقاطعة لئلا يقول أحد أنني لا أستمع ولا أقرأ كما يشيعون عني، ولكن أعلم أن ما قلت لي دخل من أذني اليمنى وخرج من أذني اليسرى إنكم في وزارة الخارجية تظنون أنكم تفهمون في السياسة، ولكنكم لا تفهمون شيئاً على الإطلاق، وإن أعير كلامكم ومذكراتكم أي التفات بعد الآن. إني رجل أعمل وفقاً لاستراتيجية عليا لا تستطيعون إدراكها أو فهمها ولست في حاجة إلى تقاريركم السوفسطائية الهائفة».

(محمد إبراهيم كامل: «السلام الضائع»، ص ٦٠٨)

عبد الناصر إلى موسكو في ٢٢ يناير / كانون الثاني ١٩٦٩ لاجله، عندما كثفت إسرائيل غاراتها بالطائرات المتطورة والمعدات الالكترونية المتقدمة التي زودتها بها الولايات المتحدة، في العمق المصري ووقتها «نجح عبد الناصر في الحصول على قرارات من القادة السوفيات في غاية الأهمية لدعم القدرات الدفاعية المصرية كان أهمها قيام الاتحاد السوفياتي بإمداد مصر بكتائب وتشكيلات كاملة من قوات الدفاع الجوي السوفياتي إلى أن تستكمل الوحدات المصرية تدريباتها بالاتحاد السوفياتي، كان من بينها كتائب صواريخ سام ٢ أرض/ جو وعدد من الطيارين السوفيات للاشتراك في الدفاع عن العمق المصري كما تم الاتفاق على مضاعفة عدد الخبراء السوفيات»^(١٧٩).

وفي تقييمه لما أسماه بـ «الوجود السوفياتي القتالي في مصر» قال محمود رياض أنه «مثلما كانت إسرائيل تصر دائماً على إعلان صفقات السلاح الأميركي إليها لكي يكون ذلك رادعاً سياسياً وعسكرياً للعرب، فإن الوجود السوفياتي القتالي في مصر أصبح رادعاً سياسياً وعسكرياً للهجمات الإسرائيلية لا يجب التقليل من مغراه، خصوصاً بالنسبة للولايات المتحدة التي تصورت أن التصعيد العسكري في الشرق الأوسط يمكن أن يكون قاصراً عليها وحدها»^(١٨٠).

وفيما يخص النتائج التي ترتبت على «معاينة» السادات للاتحاد السوفياتي بطرد خبرائه ووحداته القتالية التي كان السوفيات قد طلبوا سحبها قبلاً، وكأنه بـ «قرار جمهوري»، قد أخرجهم من رحمة الله، يقول محمود رياض، وهو مسؤول مصري لم يكن في أي وقت متيماً بحب السوفيات

«وكان من النتائج المتوقعة لهذا القرار توتر العلاقات المصرية السوفياتية فقد كان إخراج الخبراء السوفيات من مصر هدفاً أميركياً أعليه كيسنجر منذ عام ١٩٧٠ وأشار إليه روجر في مباحثاته بالقاهرة في مايو / أيار ١٩٧١، ولذلك فإن خروج السوفيات من مصر على هذا النحو يمثل هزيمة سياسية للاتحاد السوفياتي بقدر ما يمثل مكسباً سياسياً ضخماً للولايات المتحدة. أما الخسائر العسكرية (لمصر) فتمثلت في خروج الوحدات العسكرية السوفياتية من مصر وهي وحدات كانت تعمل أساساً في دعم الدفاع الجوي المصري فقد كان هناك مائة طيار سوفياتي يعملون على طائرات الميج وعدد من كتائب الصواريخ الحديثة التي يعمل عليها سوفيات، وهناك المعدات الالكترونية المتقدمة، والتي اعتبرها السوفيات سرية للغاية (بعد واقعة الرادار بطبيعة الحال) ومن ثم رفضوا تسليمها لمصر (رفضوا وضعها في أيدي القيادة المصرية)، وكانت هناك أيضاً طائرات الميج ٢٥ والتي كان يقودها طيارون سوفيات وتقوم بعمليات إستطلاعية فوق المواقع الإسرائيلية في سيناء، وقد عادت كل تلك الوحدات العسكرية والتي راد عدد أفرادها على ستة آلاف، علاوة على أكثر من ألفي خبير، وهو الأمر الذي أدى قطعاً إلى فجوة خطيرة في دفاعنا الجوي وبالتالي في قدرتنا العسكرية»^(١٨١).

فالسادات قدم هدية للأميركيين، على حساب القدرة العسكرية المصرية وقد غلف ذلك وقتها بالخطابيات والعبارات الانشائية المستهلكة التي من قبيل «رد اعتبار وكرامة القيادات المصرية وإمساك زمام أمورنا بأيدينا» إلى آخر ذلك الكلام الذي تبتلعه الجماهير بسهولة لكن الحقيقة أن السادات كان، حتى وهو مقدم على حرب أكتوبر / تشرين الأول ١٩٧٣، التي جعله الاعلام المصري «بطلاً» لها بدلاً من القائد العظيم سعد الشاذلي الذي لم يكره الإسرائيليون أحداً كما كرهوه، وبدلاً من العساكر المصريين وصف الضباط وصغار الضباط الذين لم تكن العفونة قد دخلت أرواحهم بعد فظلوا يعتبرون أنفسهم أبناء لمصر لا محتلين لها، كان السادات حتى وهو مقدم على تلك الحرب التي أرادها مجرد عملية عسكرية لتحريك الحل السياسي الذي راهن عليه من مبدأ الأمر، وأوشك الشاذلي وجنوده أن يحولوها إلى حرب تحرير حقيقية مما دفع السادات إلى طعنهم في الظهر بمدرعات أرييل شارون، كان «بطل العبور»، وهو مقدم على تلك الحرب مستعداً للتضحية بحسن نوايا السوفيات وتعاونهم كموردي سلاح رئيسيين لمصر، في سبيل أن يحقق للأميركيين ذلك المكسب السياسي الضخم الذي أشار إليه محمود رياض.

وكما قلنا في بداية الكتاب، تتضاعف أفاظ الخيانة والعمالة أمام المواقف التي من هذا النوع، فوق أن السادات لم يكن أخذاً - من وجهة نظره - في خيانة مصر، بل كان أخذاً في تنفيذ «إستراتيجية عليا» كما قال للسفير نبيل العربي عندما حاول أن ينبهه إلى الناحية القانونية فيما يتعلق بالمكاتبات التي تبودلت حول وضع القدس، كان «قائداً عظيماً» و «رجل دولة عظيماً»، و «سياسياً داهية»، وزعيماً أعظم من الله يرحمه جمال فالرجل لم يكن محدود القدرات محدود الثقافة محدود الفهم فحسب، ولم يكن فهلاًواً

قتل مصر

مصرياً فلاحاً فحسب، ولم يكن قط أرقّة جاءه «المجد» بفضل عنجهيّة سلفه فحسب، بل وكان «حالمياً كبيراً» والحالمون أخطر أنواع الزعماء والحكام لأن رؤوسهم تظل محلقة هناك بأعلى في السحب، بدلاً من أن تظل أقدامهم لاصقة بالأرض الصلبة. وقد عرف الأميركيون والصهيونيون كل تلك السمات المميّزة في السادات(*)، فاستعلوها أفصل استغلال أداروا له رأسه عن طريق الاهتمام والأضواء التي سلطت عليه، من قبل ذهابه إلى القدس المحتلة بوقت طويل نفخوا له رأسه، سواء بذلك الشيء الفظيع المسمى بـ «الاعلام العالمي» والذي ينبغي أن يكون اسمه في الحقيقة «الإيهام العالمي» أو الإيهام العالمي أو التيهيم العالمي من شرط تبعيته عديمة الضمير عديمة الخلق مهذرة الآدمية لمصالح من يمتلكون مؤسساته وأقلام كتبه ويتحكمون في أرزاقهم ويمتلكون ملفاتهم السرية، وسواء في اجتماعات المسؤولين الأميركيين والغربيين به.

تصور السادات حقيقة أنه كان «صانع استراتيجيّة» كـ «صديقه نيكسون»، وولدا عفريتاً في مسألة السياسة كصديقه هنري، فهورل كالمجنون، كالعمدة الفلاح الذي نزل نيويورك ففتح فمه الكبير وظل يردد «يا سبحان الله يا سبحان الله» «متصوراً أنه - إن لم يكن أشطر من كل أولئك الجواجات - فهو صنو لهم و «قدّمهم وقدود» كما يقولون في مصر

وبطبيعة الحال، لم يكن الذنب ذنب السادات، كما أنه لم يكن ذنب عبد الناصر عندما استدرج إلى شرك الأيام الستة. فالذنب الحقيقي ذنب المصريين كشعب. لأن كل شعب، في النهاية، يحصل على الحكومة التي يستحقها وعلى الزعيم الذي يقبل ذلك الشعب بأن يسلمه عنقه ومصيره وبلده ومستقبله. وقد فعل المصريون ذلك، فدفعوا الثمن، في ١٩٦٧، وفي كامب ديفيد. دفعوا ثمناً مميتاً ربما لم يكونوا قد فطنوا بعد إلى فظاعته، لكنهم قد يأخذون في التنبيه إلى ما فعلوه بأنفسهم وبعيالهم وبيبلدهم عندما مكثوا هذين الزعيمين الخالدين، هذين السيديين الرئيسيين الآلهين من التصرف في مصر كما لو كانت ضيعة لهما، وفي أهلها كما لو كانوا قطعاناً تباع وتشترى وتذبح وتنفخ وتعتقل وتمتهن وتضرب بالنعال وتحبس في الحظائر، ويضخى بمصالحها وفرص بقائها على مذبح الوهة الزعيم، السيد الرئيس جل جلاله.

وذنب المصريين كشعب، على جسامته وفظاعته، حين ويسير، متى قيس بذنب مثقفهم وصانعي الرأي من أبنائهم وإن كان هناك في هذه الحكاية الكثيرة كلها ما يستحق استخدام لفظ «الخيانة»، فهو بكل تأكيد الدور الدنيء الذي لعبه المثقفون والكتاب والصحافيون والاذاعيون وأساتذة الجامعات في مصر. نعم هناك أناس أشراف تمردوا وناووا بل وضحوا بحياتهم. لكن تلك حالات فردية متفرقة ولا وزن لها أما الكثرة الكثيرة فارتزقت، أو دخلت الشقوق، أو هربت خارج مصر والذي هرب ليس أقل ذنباً ممن بقي وارتزق أو دخل الشق واختفى. فعلى الحالين، تخلى كل منهما عن مصر في محنتها الكبرى، وتركها ملقاة على ظهرها أرضاً، مفتوحة الساقين على سعتهم، على ناصية العالم، كما قال نجيب سرور رحمه الله قبل أن يموت بوقت قصير. وسوف يأتي يوم يُكتب فيه تاريخ خيانة الصفوة المثقفة لمصر. فتلك الصفوة هي التي خانت. أما عبد الناصر والسادات، فبفضل خيانتها وارتزاقها أو جبنها وبحثها عن «الستر» والسلامة، وبفضل «الرعية» الخائعة للسلطات أبداً طوال تاريخها بعد انتهاء عصر الجذود العظام، وجدا عرش الوهة الزعيم مهياً فجلسا واستراحا ووضعوا الحذاء فوق الوجوه والأفواه والصدور، ومارسا الزعامة كأشد ما تكون الزعامة فجاجة وانقصاماً عن العصر وخيبة. وعبر الحدود كان العدو المتربص بمصر منذ أقدم العصور يرقب ما فعله المصريون بأنفسهم ويدرس الزعيم الإله الواحد الأحد عن كثب، ويسجل معاييه وضروب تفاهته الشخصية وصنوف غروره ونقاط ضعفه ومنافذ شخصيته وكل مقابله. وإذا جعل المصريون بخنوعهم وجعلت صفوتهم المثقفة بجبنها وارتزاقها مهمة العدو سهلة ميسرة، ركز العدو على شخصية الزعيم الخالد، ومن خلالها جرّ مصر إلى شرك ١٩٦٧، ثم ركز على شخصية الزعيم الاستراتيجي، ومن خلالها جنى ثمار شرك ١٩٦٧، فعزل مصر وأخرجها من الساحة وهو الآن أخذ بنشاط في إعدادها لتمزيق الأوصال.

(*) وبعد زيارة القدس، عندما استدعى السادات عزرا وإيزمان لزيارته في القاهرة، كُلف وإيزمان بأن يتكفل بإنزال السادات الذي «كان قد أخذ يطلق في السحاب» إلى الأرض الصلبة، كما سيأتي ذكره.

العمدة يطلب رضاء العرابين الحد

أخرج السادات الروس إذن، وأعطى الأميركيين إشارة صريحة واضحة ومحددة على استعداداته لأن يكون في خدمتهم ورهن الأمر والاشارة. فما الذي تطل أن الولايات المتحدة إستجابت للسادات وتحركه «البارع» به؟ بالتجاهل والبرود

«وبالنسبة للولايات المتحدة فإنها تجاهلت تلك الخطوة الخطيرة من جانب السادات تماماً، متناسية كافة التصريحات التي صدرت رسمياً عن الادارة الأميركية باستعداد الولايات المتحدة للتحرك صوب التسوية السلمية الشاملة في حالة إنهاء الوجود السوفياتي في مصر وقد كان هناك تصور حاطي لدى العديد من المراقبين السياسيين بأن واسطى ستتحرر بسرعة نحو الحل السلمي العادل (١) بمجرد زوال الخطر الذي ظل نيكسون يشير إليه في كل خطاب القاه (خطر وجود السوفيات بمصر) إلا أن ما حدث هو أن الولايات المتحدة أدارت ظهرها تماماً لهذا القرار الحظير الذي اتخذه السادات وكأنه لا يعيها بالمرّة

«ولقد ذكر لي أحد الأصدقاء أنه سأل هنري كيسنجر بعد تركه لمنصبه عن سبب موقف الولايات المتحدة السلمي من القرار الذي اتخذه السادات بإحراج السوفيات من مصر، وكان رد كيسنجر عليه هو أن هذا الموقف الأميركي السلمي كان الموقف الطبيعي تماماً في تلك الظروف، لأن السياسة لا تعرف الأخلاقيات، وليس من مهمة الولايات المتحدة أن تتطوع بدفع ثمن شيء تم تقديمه إليها مجاناً ولم يطلبها أحد بأن تدفع ثمنه» (١٩٦١)

وفيما يخص الاتحاد السوفياتي، ما من شك في أنه - رغم الاهانة التي لحقت به - تنفس الصعداء عندما طرده السادات من جيبته وعاقبه ذلك العقاب الصارم فعندما أوفد السادات - بالشطارة المعهودة بوصفه رجل دولة عظيماً - رئيس وزرائه «الميل إلى الروس» عزيز صدقي إلى موسكو، اثر عملية الطرد، لـ «الاشتراك في إصدار بيان تشكر فيه مصر الاتحاد السوفياتي بمناسبة إنتهاء عمل الخبراء السوفيات في مصر، كان ما لمسه رئيس الوزراء المصري عند وصوله إلى موسكو أنه وإن كان القادة السوفيات قد شعروا بالاستياء للطريقة غير الكريمة التي أخرجت بها قواتهم وخبرائهم من مصر، فإنهم - في الوقت ذاته -:

«رحبوا بذلك الاحراج في قرارة نفوسهم بدليل أنهم سارعوا بتنفيذه قبل انتهاء المهلة التي كان السادات قد أعطاها لهم وسبب هذا الموقف من جانبهم أن عبد الناصر كان قد أقنعهم بالمساهمة بوحدة عسكرية مقاتلة وطيارين مقاتلين للدفاع الجوي عن العمق المصري، بحيث يتفرغ الطيارون المصريون للعمليات الهجومية في الحبهة. وكان السوفيات يأملون أن يؤدي محرد وجودهم العسكري إلى الضغط على إسرائيل والولايات المتحدة للقبول بالحل السلمي، إلا أن ذلك لم يتحقق بل أدى إلى مزيد من التصعيد من جانب الولايات المتحدة. ولذلك فإنهم - عندما لمسوا من مصر إصراراً على العمل العسكري - شعروا بالراحة لتخلصهم من الالتزامات العسكرية التي كان يفرضها عليهم وجود وحداتهم العسكرية في مصر وخاصة طيارتهم، فالاتحاد السوفياتي يصح أقل تورطاً في الحرب المصرية الإسرائيلية متى نشبت تلك الحرب بغير وجود عسكري له في مصر، عنه إذا ما وقعت تلك الحرب وله طيارون مقاتلون داخل مصر ووحدات دفاع جوي والواقع أن السوفيات لم يكونوا حريصين على استمرار وجودهم العسكري في مصر مما دفعهم لإبلاغ الولايات المتحدة استعدادهم لسحب وحداتهم العسكرية عندما تتم التسوية السلمية» (١٩٦١)

فحالة مصر آنذاك - كما كانت قبلاً وكما ظلت بعد ذلك فيما يخص الولايات المتحدة - كانت حالة

«لا كسب» أو بالتعبير الأميركي: A no-win situation

فالمطلوب، أميركياً، ظل جعل مصر عزلاء، ثم عزلها، وجرها إلى «التصالح» والسلام المنفصل إن أمكن، أو جر العرب جميعاً إلى «السلام الشامل» عن طريق إخراج مصر من الساحة واستفراد الدول العربية بعد ذلك واحدة واحدة.

وبطبيعة الحال، كان من المسلم به لدى الأميركيين أن ذلك «السلام»، جزئياً أو شاملاً، لم يكن ولن يكون من نصيب من وضعهم قدرهم السيء في طريق الولايات المتحدة ومشروعها الصهيوني. لأنه، في وجه ذلك المشروع الوحشي، لا سلام ولا نجاة. والسياسة، كما قال هنري كيسنجر الولد العبقري اليهودي، لا أخلاقيات فيها، خاصة متى كانت سياسة متجهة بكل قواها وبضراوة منقطعة النظير إلى تنفيذ غزوة إستيطانية لا محل فيها لبقاء السكان الأصليين الذين استهدفت الغزوة أخذ أرضهم ومواردهم والتخلص منهم لإخلاء المكان للسكان الجدد، تماماً كما كانت الحال عندما وقعت الغزوة الاستيطانية لأرض القارة الشمالية في العالم الجديد ابتداء من ١٦٠٧.

قتل مصر

ولذلك، كان توجع بيكسون وكيسنجر وروجرر وسيسكو وكل أصدقاء السادات الطيبين من الوجود السوفياتي الذي عكر أمزجتهم وأقضى مضاحعتهم، مطالبة للسادات، العميل الراقد، أن يقوم بشعله، («do his thing») كما يقولون في أميركا، ويكسب ررقه («earn his keep»)، فيحرد مصر من المصدر الوحيد الذي استطاعت أن تحصل على الدعم (أيا كان) منه، عسكرياً وديبلوماسية، ليضعها عارية تماماً عرلاء منطرحه على ظهرها تحت قدمي إسرائيل وبحجة «تلكؤ السوفيات» وحثهم إياه على الحل السلمي، وهو ما كان أخذاً فيه بشاط وتصميم، وبحجة عدم وفاء السوفيات بكل طلباته من الأسلحة المتطورة التي قد يكون السوفيات - حرصاً على أمنهم العسكري - قد حشوا أن يعطيها السادات للأميركيين أو يعطيها لضباطه فيتركوها على أرض سيناء ويهربوا من جديد، أو يتركوها - في غمار قعدة حظ وكيف - ليحملها الاسرائيليون في طائرات الهليكوبتر ويأخذوها إلى إسرائيل كما أخذوا موقع الرادار قبلاً، قام السادات بالواجب، وحقق للأميركيين ما طلبوه، وطرد لهم السوفيات من مصر شر طرده وقعد العمدة على المصطبة منشرحاً، مسروراً بشطارته، منتظراً من العرابين الجدد الدين فعل كل ما بوسعه لإرضائهم أن يربتوا على رأسه

«عندما بلغت السادات الأنباء الأولى عن الثغرة بعد انتصارات أكتوبر المدهشة التي أعلنها في مجلس الشعب، قابلها بثقة كاملة، وكان تعبيره عنها: دول شوية فراخ خرجوا من العشة لكن الموقف في يدنا تماماً»^(١٨١)

(١/٤). العبور إلى السلام

عندما ألحقت إسرائيل هزيمة ١٩٦٧ بنظام عبد الناصر، وجد النظام أن مسألة «الصراع» مع إسرائيل تكشف عن عملية مفضية إلى عكس المرجو منها (أي counter productive) فالتصور الذي انبنى عليه ذلك الصراع على الجانب المصري، والعربي بعامته، تصور تأصل في العقول عن عملية غزو، شرسة وشريرة نعم، ومأساة بـ «الكرامة العربية» نعم، وعملية اقتطاع لجزء من «الأرض العربية» نعم، لكنها - في النهاية - «حادث عن ظهري». بسيطة^١ فأولئك الصهاينة الأشرار أخذوا أرض فلسطين، مساكين أهل فلسطين وكل ذلك، وعيب وحرام أن يحدث هذا لكنها في النهاية أرض فلسطين وليست أرض مصر أو أرض أي أحد آخر. ثم أن هؤلاء الفلسطينيين - كما يقال في النهاية بإصرار - «باعوا أرضهم» وتركوها للإسرائيليين، فما ذنبنا نحن حتى نظل نجرّ على رؤوسنا هذه الحروب والمصائب والتضحيات؟ وبطبيعة الحال، لم «بيع الفلسطينيون» أرضهم، بل أخذت منهم وطردها منها، ومن ركب رأسه منهم وبقي إما ذبح هو وأهله وإما طحن وفُرم وكسرت عظامه في غمار عملية متصلة وحشية لا تتوقف من العنف الدموي تطلق عليه منظمة الأمم المتحدة في تقاريرها التي تقدم كل عام إلى جمعيتها العامة «الممارسات الإسرائيلية التي تمسّ (١١) حقوق الإنسان» وهي ممارسات شاسعة تتعلق، تبعاً لتصنيف تقارير المنظمة الدولية، بحرية التنقل، بحرية التعليم، بحرية تكوين الجمعيات، بحرية العبادة، وحرية التعبير، وكل «الحريات» التي تجعل من الكائن الإنساني آدمياً، وفي قمتها «حرية» أن يبقى ذلك الكائن على قيد الحياة أصلاً وبطبيعة الحال، باتت تلك «الممارسات» محل تركيز الآن في «الأراضي المحتلة»، أي الضفة الغربية، ومرتفعات الجولان، وغزة، وما إلى ذلك، أما «الأرض المحتلة» ذاتها، أي فلسطين، فلم يعد بوسع أحد التكلم عنها من حيث أن ذلك يكون تدخلاً في الشؤون الداخلية لدولة إسرائيل المستقلة ذات السيادة. إلا أنه بوسع من شاء أن يتبين وجه الصدق من وجه التنطع في الادعاء بأنهم «هم أهل فلسطين الذين باعوا أرضهم وتركوها للإسرائيليين» أن يرجع، لا إلى تواريخ أمجاد أبطال إسرائيل في دير ياسين وقبية وغيرهما، بل إلى ما يجري الآن تحت السمع والبصر في الضفة الغربية وغيرها من «الأراضي المحتلة»، على النحو الذي تنطق به التقارير المتحفظة لمنظمة الأمم المتحدة، ويمكنه أن يتوقف قليلاً عند الفقرات الخاصة بنزع ملكية الأراضي العربية المتبقية، وحركات الارهاب الدموي التي تجري تلك الاجراءات في ظلها، حتى يقفل فمه ويسكت.

فـ «أولئك الفلسطينيون»، في الواقع ليسوا هم الذين خلقوا للمصريين وغيرهم المشكلة وكل ما في الامر أن «أولئك الفلسطينيين» هم الوجبة الأولى ورغم الجولان، ولبنان، وما سوف يتبع، لا يريد أحد أن يفهم؟ ليس الفلسطينيون أس البلاء وسبب المشكلة. الفلسطينيون هم أول الصحايا فقط. فاتح الشهية في «الأكلة الكبرى» (La grande bouffe).

لكن أحداً لا يريد أن يظن إلى ذلك حتى الآن، إنطلاقاً من مبدأ «يموت الفلسطينيون - يروحون في داهية هم ومشكلتهم المستعصية على الحل، وننجون نحن»! إلا أن المشكلة أن أحداً لن ينجو، حتى وإن دخل تحت حذاء «أميركا». حتى وإن عقد صلحاً وسلم وباع وفتح الحدود وطبّع العلاقات. لن يبقى أحد ولن ينجو أحد. هل نجا الهنود الحمر؟ هل نجت قبائلهم التي أجرت نفسها بلا أجر للغزاة لتقتل لهم أخوتها من القبائل الأخرى؟ لم ينج أحد. وكل من بقي بقي مكسور الظهر بلا آدمية، وحشيد وراء الأسوار في الأماكن البعيدة كما تُحشد السائمة المريضة.

قتل مصر

والذي استُهلَّ بأخذ أرض فلسطين، ثم الجولان، ثم بعض جنوب لبنان، إن هو إلا التكرار الحرفي، على «الأرض الموعودة» لما حدث منذ قرون قليلة على أرض العالم الجديد ووقتها، لم يبق هناك أحد وعندما يكتمل تنفيذ المشروع الصهيوني على «الأرض الموعودة»، وهي من النيل إلى الفرات، لافلسطين وحدها، لن يبقى أحد. إن إبادة مائة وخمسين مليوناً من البشر مسألة سهلة في هذا العصر المتقدم وإن كنا لا نصدق، فليقرأ تنبؤات المنظمات الدولية عن أعداد من هم مقصي عليهم بالموت حوفاً وقرراً ومرضاً في أفريقيا. وسنجد أنها تفوق ذلك العدد بكثير

لكن هذا بالطبع كلام «لا يدخل العقل» ولا يصدق لأنه كيف يتصور أحد أن يفعلوا ما هذا، ربما اضطروا - بحكم الضرورات السياسية والعسكرية - إلى أن يفعلوه بالفلسطينيين، أو بهذا الشعب العربي أو ذاك. لكنهم بكل تأكيد لن يفعلوه بنا نحن. الأمريكيون لن يدعوبهم مستحيل هذا شيء لا يصدق العقل

وان كنا اليوم بعد كل ما حدث وما يعانيه كل يوم نجد أن ذلك مما لا يصدق العقل، فما بالك بحفنة من ضباط نصف أميين أزعجتهم كثيراً معاملة حسين سري عامر لهم في نادي الضباط وأقضى مضاحهم إستهانة بعض كبار الضباط من أبناء الأسر الاقطاعية ومن أسماهم الرعيم بعد الثورة بـ «مجمع النصف بالمائة» بأصولهم البورجوارية الصغيرة المتواضعة، وإن كانت حكاية فلسطين هذه قد بدت لأولئك الضباط وقتها كـ «قضية» يمكن الانتماء إليها والافادة منها في جعل المنطقة في حالة توتر مستمرة تتيح استمرار أوضاع الطوارئ داخلياً وإحكام قبضة العسكريين على عبق الوطن الذي تبينوا في النهاية أنه الأرض الوحيدة التي كان بوسعهم أن يمارسوا فيها بطولاتهم العسكرية فيحتلون بها، وإن كانت حكاية فلسطين و«الصراع» مع الصهيونية بدت بعد ذلك كوسيلة حيدة لتوسيع زعامة الزعيم لتشمل محالات أوسع من ذلك الوطن الذي تحول إلى ضيعة (عزبة) وبلد محتل عسكرياً بأسلحة النظام وأجهزته، فإن شرك ١٩٦٧ الذي استدرج إليه الزعيم وحُطمت له عندما تردى فيه قواته التي كانت الأناسيد الوطنية تؤكد للمصريين أنها «تهز الأرض بالطول والعرض»، فطن النظام فجأة - وكان قد بات راسخاً كنظام ذي مصالح محزية ومرايا ومنافع عميمة - أن حكاية فلسطين هذه باخت وأصبحت مصارها أكثر من منافعها.

وإذ ذاك، انتابت النظام فحاة شهية حادة إلى السلام والوثام والتعايش والتصالح - بشرط حفظ ماء وجه الزعيم. وبات بوسع الزعيم أن يقول للزعماء السوفييات أثناء اجتماعه بهم في موسكو قبل مماته بقليل

«إننا على استعداد للقبول بالحل السلمي والإقرار بوجود إسرائيل بالرغم من المعارضة العربية، والسماح للاسرائيليين بالمرور في قناة السويس، ولكن على إسرائيل قبل ذلك أن تنسحب من جميع الأراضي العربية المحتلة (منذ يونيو / حزيران ١٩٦٧) وتنفيذ قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بحقوق الشعب الفلسطيني» (١٨٩)

وكانت تلك هي النقطة أو بالأحرى المنعطف الذي ورث عنده السادات العربية من عبد الناصر وكان أول «إنجاز» هام للسادات بعد استيلائه على السلطة بانقلاب القصر الذي قام به فتخلص من أعوان الزعيم السابق الذين أحنقهم أن ورث العزبة ولم يرثوها هم، أنه أعطى سلسلة متلاحقة من الاشارات الواضحة للأميركيين بأنه وصل السلطة ليبقى، وأنه ليس - كما تصور بعض الأميركيين - رئيساً مرحلياً أو مؤقتاً، وأنه «جاهز وفي الخدمة». وبطبيعة الحال، كان الأميركيون يعرفون أنه جاهز وفي الخدمة، فهم الذين انتقوه من قديم وأعدوه لاستخدامه مستقبلاً، وجعلوه «عميلاً راقداً» لهم، كما قلنا، ونافسوا به عميل السوفييات علي صبري الذي كان «الروس» قد راهنوا عليه كخليفة لعبد الناصر إلا أن الأميركيين تشككوا في مبدأ الأمر في قدرة السادات على الاستمرار، ثم لما اطمأنوا إلى أنه قد رسخ قدميه وأحكم قبضته على عنق البلد الهدف، مصر، رأوا أن يتركوه لينضج على مهل، فوق الموقد الخلفي فقد كانوا مطمئنين إلى أنه لن يخرج من تحت يدهم، وكان تركه على الموقد الخلفي (relegated to the back burner) كما يقولون، لتليينه حتى يكون طيعاً بما فيه الكفاية عندما يجد الجد ويؤمر بأن ينفذ

ما تقتضيه المصالح الحقيقية للولايات المتحدة في المنطقة مصالح المشروع الصهيوني

لكن الأميركيين، بهذه «النطاعة» تحاه السادات، وضعوه موضعاً حرجاً داخلياً فالسادات «لم يكن ليعيب عن فطنته أن كل ما حققه من انتصارات داخلية (على أعوان سلفه) بعد توليه الرئاسة، والتفاف الناس حوله (بفضل مسرحيات إعادة القابول من عطلته وإحياء الديمقراطية من عيوبها العميقة) وسيطرته على مقاليد (تأمين الأحرة وولائها له) الحكم، لم يكن ليعيب عن فطنة السادات أن كل ذلك ما كان يحديه نوعاً في المدى الأطول، ما لم يحل مشكلة معيبة، وبألها من مشكلة، هي «أن يكون أو لا يكون» كان يعلم جيداً أنه لا يستطيع أن يتعايش مع منصب رئيس الجمهورية طويلاً وحرء من أرض مصر تحت الاحتلال الاسرائيلي والقوات الاسرائيلية مرابطة على مرمى البصر على الضفة الشرقية لقناة السويس، في حصون خط بارليف»^(١٨١).

وإن كان ذلك الـ «يكون أو لا يكون» مطلباً لم يكن بد من مجابته وإلا إسقط الشعب المصري السادات من حسابه، كما أراد محمد ابراهيم كامل أن يقول، فإن السادات كان مواجهاً، في الحقيقة، بمطلب آخر، في مواجهة «أمريكا يا سبحان الله». كان مطالباً، في تصوره، كيما يحصل على المكاة التي رأى أنه استحقها لدى الأميركيين، بأن يبرهن لهم على أنه «رئيس دواسنان» ويمكن أن يعرض

ولقد ظلت المشكلة الرئيسية التي عانت منها مصر عندما جعلها الضباط باحتلالهم لها احتلالاً داخلياً «عزبة» للرعيم ولهم، مشكلة تمثلت في رؤية الزعيم لصورته، على مرآة ذاته، ورغبته في إسقاط تلك الصورة على شاشة العالم من حوله، كما تسقط آلة العرض السينمائية صور السليلويد على الشاشة الفضية وقد أودت رؤية عبد الناصر لنفسه كزعيم واحد وأحد وحيد لا شريك له لمصر وكل العرب بعبد الناصر وبمصر معه مات عبد الناصر مكسور القلب بعد أن هرسه الاسرائيليون والأميريكيون في شرك ١٩٦٧، ووقعت مصر في حفرة غائرة تحت أقدام الاسرائيليين وكل من أراد أن يتلذذ بمشاركتهم في هرسها بقدميه في حفرتها المليئة بالطين وبدوام وأشلأ ابنائها الذين قتلوا هدرأ بالآلاف وأودت رؤية السادات لنفسه كسياسي داهية، وصانع استراتيجية، ورحل دولة عالمي، بالسادات وبمصر معه أعدم السادات (ولم يكتب التاريخ كلمته الأخيرة بعد عمن أعدمه وكيف ولماذا أعدمه) كخائن وعميل، وغاصت مصر أكثر فأكثر في الحفرة المليئة بالطين والدم والأشلأ التي تركها فيها عبد الناصر، تحت وطأة سلام السادات المميت.

في ٢١ أكتوبر / تشرين الأول ١٩٧٢، جمع السادات المجلس الأعلى للقوات المسلحة وظل يتحدث إلى القادة أربع ساعات كاملة. وطبقاً لما يقوله موسى صبري^(١٨٧) قال السادات أنه عقد ذلك الاجتماع «لأراجع مع القيادات إستعدادهم واستمع منهم إلى ما أنجزوه وفي الفقرات التي يقول موسى صبري أنه «اقتطعها من الشريط المسجل لذلك الاجتماع التاريخي»، لم يكف السادات عن الكلام لحظة واحدة، باستثناء قول أحد المشتركين في الاجتماع كلمة «ابريل» (ص ٢٢٤ من كتاب موسى صبري)، وقول الفريق صادق كلمة «أيوه (نعم)» (ص ٢٤١)، وقول أحد المشتركين في الاجتماع كلمة «الثالث» (ص ٢٤٦)، وقول قائد القوات الجوية كلمة «أيوه نعم» (ص ٢٤٨) فعلى امتداد ٢١ صفحة بالبنط الصغير، من ص ٢٣٢ إلى ص ٢٥٣ التي عطاها موسى صبري بتفريغ الجزء الذي أورده من التسجيل، لم يقاطع السادات إلا بأربع كلمات، كانت منها كلمتا «نعم» من الفريق صادق وقائد القوات الجوية. أما بقية الكلام فكان للسادات. وقد ظل يغرس به في رؤوس سامعيه الذين جلسوا بأدب خاشعين، مدى علمه بالمسائل الاستراتيجية في العالم، ومدى إلمامه بالأعيب السياسية وخباياها، ومدى قدرته على تحليل أحداث العالم وقراءة ما في باطنها، ومدى نبوغه وقدرته على رسم الخطط ووضع التحركات، ومدى حرصه البالغ على مصلحة مصر الله يحميها من كل سوء ويقيها من كل شر، ومدى صبره على «الروس»، ومدى شطارته مع «الأميركان». ولا غرو، فالسادات الذي «قال للسفير الأميركي هيرمان ايلتس بعد إحدى الأزمات» لقد قمت بدور المعلم (المدرس) لرؤساء «أميركا» طويلاً ولقد سنمت هذا الدور!!»^(١٨٨) كان متمتعاً بقدر من النرجسية والاعتداد الذي لا يقاربه شك بقدراته و«شطارته» لم يعاثره قوة في نفسه إلا اعتداده المرضي

بـ «كرامته»، وتهوره، واندفاعه إلى إصدار الأحكام. وقد وصف دونالد بيرجس، رئيس مكتب رعاية المصالح الأميركية في القاهرة منذ قطع العلاقات أثر هزيمة ١٩٦٧ وحتى سنة ١٩٧١، شخصية السادات بقوله «وقد كانت له طبعاً أخطاؤه كبشر. فقد كان سريعاً في الاحساس بالاهانة الشخصية (quick to take offence) ميالاً لإصدار الأحكام المتعجلة علناً على زعماء البلدان الأخرى وبصفة خاصة الزعماء العرب، لكنه كبشر كان إنجاز له لبلاده ومنطقته عظيماً (!)»^(١٨٩).

وفي ذلك المونولوج الطويل مع قيادات الجيش والطيران والبحرية وما إلى ذلك، التي كان كل دورها فيما أورده موسى صبري من التسجيل العظيم قولها «نعم» أي «تمام يا أفندم»، قال السادات، بين ما قال

«واتكلمت مع بريحييف في الجلسة دي بالذات بتاريخ أبريل ١٩٧٢ عن الخط الإستراتيجي، (وسألته) هل تعتقدون انتم ان القضية (ممكن) تتحرك سياسياً ما لم تتحرك عسكرياً؟ قالوا لا قلت لهم مثلاً عندما بييت نام بيكسون حاي لكم هنا الشهر الحاي بيكسون جاي لكم بعد عرين يوم، وانتم عاملين محوم كبير عليه (في فييت نام) وسايجون مهددة وطلع خبر ان فيه ٦٠ ألف عسكري اميركي مهددين انهم يتمسكوا (يؤسروا) في سايجون. ومع ذلك بيكسون حاي لكم برعم هذا كله بيكسون حاي لكم لغاية موسكو ليه؟ لان القضية اتحركت عسكرياً، (وما دامت اتحركت عسكرياً) سياسياً بتحصيل إستجابته على طول ما لم نحرك قضيتنا عسكرياً مش ها تحصل إستجابة وبريحييف رد قال أنا موافك ١٠٠٪ على هذا التحليل (وسألته) هل ممكن يكون فيه حل سياسي من غير اليهود والأمريكان ما يحسوا ان احنا (المصريين) واقفين على أرض صلبة؟ قالوا لا مش ممكن.

«وفي ٦ يونيو حاي السفير الروسي واراني رسالة منهم (فيها تحليل لنتائج إجتماعاتهم بيكسون) والسفير قعد معي في الجلسة دي يوم ٦ يونيو أربع ساعات وكان حافظ اسماعيل موجود قال لي يعني هل فيه رد على الرسالة؟ (مكررت) كلامي في أبريل وقلت ان القضية لن تتحرك سياسياً ما لم نكن جاهزين عسكرياً، وده اتفاقنا احنا وانتم (الروس) على أساس اخذ درس من حرب فييت نام والقادة السوفييت وعلى رأسهم بريحييف كابوا متحمسين أكثر مني افنا لا بد نعمل عملية استباقية

«الموقف مع الأمريكان حدث ١٩٧١ كلها شغيت روحر قائلته هنا وانتقال علي من المقامرين أي بابيع القصية وبايع البلد للأمريكان ماهيش مشكلة يعني الهدف كله هو المصلحة مصلحة هذا البلد قبل كل شيء محردة من أي حاجة وأنا عملت مع الأمريكان كل ما يمكن عمله وقدمت المبادرة بتساعتي وأنا كنت مخلص فيها هم يتصلون بي الآن قلت لهم أنا معتمد على حاجة اسمها سياسة «الباب المفتوح»، اللي عنده حاجة يتفصل لو الروس عندهم حاجة بيحوا انتم الأمريكان عندهم حاجة تعالوا قولوا لي الاطير عندهم حاجة يتفصلوا يقولوا وأنا اول ما الاقي ان (ما يعرضه أي طرف) ممكن بالنسبة لي ولبلدا ولشرفنا بأقيله، واللي ما هوش مناسب ما ناقلوش فأنا معتمد على سياسة «الباب المفتوح».

«أنا عارف الكلام اللي بودجوري شتمنا بيه كعسكريين في تركيا بنتيجة الهريمة بتاريخ ٥ يونيو ١٩٦٧ بأنعادهما المؤلة اللي احنا كلنا عارفينها كعسكريين، ما هياش تايهه عني (ليست بحافية عني)

(*) كان السادات، كما وصفه وزير خارجيته محمد كامل إبراهيم، مولعاً بتعميل أدوار يشبع بها بهماً إلى العظمة والعلو في داخل النفس، في غمار سلسلة متلاحقة من أحلام اليقظة وهو عندما تحدث عن «سياسة الباب المفتوح» هذه كان يلعب دور الرئيس الأميركي ويليم ماكيللي، الذي حكم الولايات المتحدة من سنة ١٨٩٧ إلى سنة ١٩٠١، والذي انتهجت الولايات المتحدة في ظل سياسة اسميت بـ «الباب المفتوح» كانت في حقيقة أمرها المنفذ الاستعماري للولايات المتحدة عن طريق التجارة إلى الصين وآسيا، وكان واضح تلك السياسة وزير خارجية ماكيللي، جون هاي في أعقاب «ثورة البوكسر» في الصين. ويبدو أن أحداً من المرتزقة الأكاديميين ممن كانوا يأكلون عيشاً تحت موائد الزعيم، قال شيئاً للسادات عن مسألة اسمها الباب المفتوح، تماماً كما يحتمل أن أحد أولئك المرتزقة كان قد قال شيئاً لعبد الناصر عن مسألة اسمها «الاشتراكية»، وقال له أنها مفيدة ياريس، فعلق الحكاية مذهب السادات أو قد يكون قرأ عنها في مجلة الريدرز دايجست والمهم أن من حكى للسادات عن تلك المسألة، أو من كان قد كتب عنها عجالة من عجالات الريدرز دايجست، لم يذكر أن ماكيللي اعتيل رمياً بالرصاص، وإلا لكان السادات قد تشامع من ذلك الغال السيء، وعدل عن لعب ذلك الدور المشؤم.

«النتيجة أن العسكريين، الشرق والغرب، الصديق والعدو الاثني لا ثقة لهما فيما إن إحدا بقدر يتحرك أو يعمل أي عمل إطلاقاً أو يتقبل تصحيحات أو يواصل علشان يحرر أرضنا ويأخذ حقنا علشان كدة بأقول لكم ما فيش حاجة اسمها حل سلمي إلا إذا كنا عايرين نستسلم كل العروض اللي جاية مسببة على مطلق واحد أنت خلاص ألقيت السلاح، وعليه فاستعد أنك أنت (تقبل) أي حاجة لأنك ألقيت السلاح ومعيش معركة ثانية هذه الحقيقة عند الاثني عند الأمريكان وعرب أوروبا كله، وعند أصدقائنا الروس عبر عنها الروس وقالوا العرب معيش فايدة منهم مهما أديتهم سلاح مش حايجاربوا دول بأس مش بتوع حرب. وقد قالوا ما هو أكثر من ذلك عنا، وده يمكن من الأسباب اللي حلتني عطلت الآن (بترد السوفيات)

«أنا زي ما قلت لكم غير مستعد أني أقبل حلول الاستسلام مش أنا اللي أقبليها أبداً ولا أتكلم فيها مع أي فرد من الأفراد لأن الجلوس على طاولة مع إسرائيل وأنا في هذا الوضع المهين معناه أني بسلم مادا يبقى أمامنا إدس» يجب أن نشد للصديق وللعدو أننا نستطيع أن نواصل وأن نقبل التصحيحات، ونحرك الموقف لكن بالتخطيط مش بالبربرة ولا بالعصية ولا بالانفعال بالتخطيط تمام الكلام انتهى ووصلنا إلى نقطة التشبع بما لدينا يجب أن نحكم أمرنا ونخطط لعاية ما نحرك القضية يعني بولع حريقة ووقتها الكلام يصبح له معنى وله قيمة إحنا اللي لازم نحرك، لازم نحرك الروس علشان يعطوا ولازم نحرك الأمريكان علشان يحلوا إحنا قوة الدفع

«إسرائيل عارفة إذا صممت جبهتنا انتهت القضية

«لأرم إدس شتعل شتعل بتخطيط وب عقل، مش ري رمان، ري ما حصل في معركة ١٩٥٦ اللي طلعا منها وقلنا انتصرا صحيح أننا انتصرا سياسياً عند الناصر قلب الهريمة العسكرية إلى نصر سياسي بس ده كلام ما كش لأرم بقوله (بلقه) لقواتنا المسلحة (وبطل نقول) انتصرنا انتصرنا لعاية قيادة قواتنا المسلحة ما صدقت أننا انتصرا (حقيقة) قيادة قواتنا المسلحة صدقت أننا انتصرا عسكرياً في سنة ١٩٥٦، فسامت وسامت العدو*، في نفس الوقت اللي اليهود قعدوا يحضروا (يستعدوا) من أول ١٩٥٧، أي عشر سنين بالكامل العدو العي وعير كل تكتيكاته، وعير كل شيء، وطور وجدد، واشتغل ليل نهار، وأحنا هما مفيش ما نعملش أي حاجة، إلا أن صدقي محمود الله يكرمه كل يومعمر يقول (إن سلاحنا الجوي) أكبر قوة جوية في الشرق الأوسط وقعدنا عايشين على التهريج ده لازم ما يبقاش مسرح العمليات عندي في الشرق صحرا وفي الحبوب صحرا وفي العرب صحرا وفي الشمال بحر، كله صحرا وأنا اشتعل بالكاوش (أحارب بمركبات بإطارات) كان نوع من السعة حقيقة، أنا مش عارف سره، أنا مش فاهمه مع أن المسألة ما كنتش عايزه نكاه (من الرعامة السابقة) في الفترة الماضية بيما بعد الحرب العالمية الثانية النص حنزيير كان مرمي بتراب الفلوس وراحت إسرائيل خدته واحنا ما أحداش واشترينا الكاوتش علشان نحارب في الصحراء»^(١)

واضح مما قاله السادات في ذلك «الاجتماع العسكري التاريخي» الذي عقد قبل حرب ١٩٧٣ بسنة كاملة، أن السادات.

١ - عندما خطط للعبور، عبور القناة إلى الضفة الشرقية، كان يخطط للعبور من وضع الصراع إلى حالة التصالح والسلم.

٢ - أن ذلك «العبور» الذي أسمى بعد ذلك بـ «بطله»، كان عملية عسكرية محدودة القصد منها تحريك القضية «القضية لا يمكن أن تتحرك سياسياً ما لم تتحرك عسكرياً». «القضية (متى) حركت عسكرياً، فسياسياً تحصل إستجابة على الفور». هل ممكن يكون هناك حل سياسي ما لم يشعر الاسرائيليون والأميريكيون بأن المصريين يقفون على أرض صلبة؟. «القضية لن تتحرك سياسياً ما لم تكن جاهزين عسكرياً، وهذا إتفاقنا مع السوفيات» «أنا غير مستعد أن أقبل حلول الاستسلام، والجلوس على طاولة (المفاوضات) مع إسرائيل ونحن في هذا الوضع (حالة اللاسلم الللاحرب) معناه الاستسلام». «لا بد

(*) يبرهن السادات هنا، بما قاله عن أن النظام ظل يدعي أنه انتصر في ١٩٥٦ إلى أن صدق ذلك فعلاً فكانت النتيجة وبالأخص في سنة ١٩٦٧، على ما قلناه على طول الكتاب من أن النظام - بتواطؤ غريب مع الشعب ومع وسائل الاعلام وأجهزة التعليم والتثقيف وصنع الرأي - خلق عالماً موهوماً من هيكل بالغ الضخامة بالغ الهشاشة من الأكاذيب وضروب التصنع والادعاء والتلفيق غمس فيه المصريين، وغاص هو وزعامته في النهاية في أعوارهم.

أن يحرك الموقف». «لا بد أن نخطط إلى أن نحرك القضية لا بد أن نتعل حريقاً وإذ ذاك يصبح الكلام (التفاوض) ذا معنى وذا قيمة لا بد أن نحرك»

وبطبيعة الحال، ظل تفكير السادات منحصرأ في أنصاف الحقائق ومن الحقائق التي يملئها العقل والتاريخ أن الحروب يعقبها صلح وسلام وأنه من الأفضل التوصل إلى الصلح والسلام من موقع قوة لا من موقع ضعف هذه حقائق لكنها، في السياق الذي حشدها فيه السادات كما يحشد القائد حدوده ليدافع عن موقعه، ظلت أنصاف حقائق لسبب بسيط وواضح وبديهي هو أن «الصراع» مع إسرائيل ليس حرباً كالحروب الأوروبية التي تقاتلت فيها جيوش الحلفاء وجيوش ألمانيا وحلفائها مرتين وليس حرباً كحرب الولايات المتحدة واليابان في المحيط الهادئ وليس حرباً كأي حرب وقعت أو قد تقع بين بلدين وأمتين أو بين بلدان وأمم كل بلد منها له أرضه وكل أمة منها قاعدة في أرضها أنه صراع من نوع آخر صراع اجتياح صراع إزاحة صراع إبادة صراع أخذ الأرض وإخلانها من سكانها الأصليين صراع كصراع الغزاة الاستيطانيين الذين أبادوا الهنود الحمر في القارة الأميركية وصراع الغزاة الاستيطانيين الذين أبادوا سكان تسمانيا الأصليين، وسكان أستراليا الأصليين، وسكان نيوزيلندا الأصليين صراع هدفه أخذ الأرض وإبادة من عليها، من جانب الغزاة الاستيطانيين، وهدفه - أو ما ينبغي أن يكون هدفه من جانب من وقع عليهم الغزو - وهم ليسوا الفلسطينيين وحدهم بل كل سكان الأرض من النيل إلى الفرات - مقاومة ذلك الغزو والدفاع عن البقاء ذاته لا أقل، لا عن أي «شرف» أو «عزة وكرامة» أو أي شيء آخر من تلك الأشياء الهامة والعظيمة حقيقة في حياة الشعوب إلا أن وحشية الغزوة جعلتها - في سياق ما يتعرض له المصريون والعرب - أقرب إلى الكلمات الانشائية والحدقات الخطابية فالصراع صراع بقاء لكنه - بفعل الغباء القبلي، بل الجنون القبلي الذي أودى بالهنود الحمر عندما انشغلوا بالاقتيال فيما بينهم عن القتال دفاعاً عن البقاء، يدور على عدة جبهات تتقارب وتجتمع حيناً وتتفرق أحياناً، بدلاً من أن يدور على جبهة عربية واحدة موحدة متماسكة مترابطة عنيدة مصممة على البقاء مدركة لكون العدو يريد كل الأرض لا فلسطين وحدها، أو فلسطين والجولان وجنوب لبنان، بل كل الأرض التي عقد «الأنباء» صفقة عقارية مقدسة مع الإله حصلوا فيها على وعد بأن تكون لهم ولنسلمهم من بعدهم. ويريدونها أرضاً خالية قد أزيل منها كل سكانها

والحرمة القبيحة بحق التي ارتكبتها السادات أنه ذهب فعقد صلحا و«صنع سلاماً»، رغم أنه كان يعرف. كما قال لقياداته العسكرية التي ظلت تقول «تمام يا أفندم»، أن «إسرائيل عارفة أنه إذا صممت جبهتنا (الجبهة المصرية) إنتهت القضية»

وبطبيعة الحال، لم يقل أي قضية. فهل تطنه أراد القول «القضية الفلسطينية» أم قضية استرداد شبه جزيرة سيناء وما كان قد تبقى فيها من بترول ومعادن؟ أم قضية «التراب الوطني المحتل والعرّة والكرامة والشرف والرجولة»؟ لم يقل. كل ما قاله كلام عن «أنا في معركة مجروحين كل إنسان (مصري) يميني أو يساري، رجعي أو تقدمي، محروح عشان الأرض الي محتلة»^(١١) ولم يقل أي أرض، لكن الواضح أنه كان يتكلم عن الأرض المصرية المحتلة، سيّما، كما تحدث عن «الرجولة»، لكنه لم يتحدث بكلمة عن البقاء والذي لا شك فيه أن كلمة البقاء هذه لم تخطر له ببال وقد كان معذوراً لأن أحداً، لا في عهده ولا في عهد عبد الناصر ولا في ظل أي نظام عربي، لم ولا ولن يخطر بباله أن المسألة ليست مسألة شرف وكرامة ورجولة وتراب وطني بل مسألة بقاء على ذلك التراب الوطني الذي لا يهدف الاسرائيليون إلا لأحد من أصحابه وتسميده جيداً بحتتهم ليس هناك من يفكر في «مسألة فلسطين»، كما يسمى الصراع أحياناً أو «النراع العربي الاسرائيلي»، كما يسمى في أحيان أخرى، من زاوية البقاء الغربية هذه لأنه، في الحقيقة، أي بقاء هذا الذي يتحدث عنه؟ حدثنا عن الامبريالية، سنفهم حدثنا عن الاستعمار، سنفهم. حدثنا عن العدو الغادر، سنفهم حدثنا عن النفط، سنفهم حدثنا عن الدين، سنفهم. ولكن البقاء؟ أي بقاء؟ البقاء لله يا أخي إننا نأقون وهذه أرضنا ولن يأخذها منا أحد. ولن نذهب إلى أي مكان سنظل

هنا. وقد يكون الفلسطينيون تركوا أرضهم للإسرائيليين وهربوا أو باعوها لهم وذهبوا، لكننا نحن سنبقى على أرضنا وسيبقى عليها أولادنا وأولاد أولادنا لأن الله يحمينا، والأمم المتحدة تحمينا، وأمريكا صديقتنا تحمينا، والرأي العام العالمي يحمينا، وحيثنا يحمينا، فأني بقاء هذا الذي يتحدث عنه إذن»

نتحدث عن البقاء. عكس الإبادة عكس الإراحة، عكس ما كان كهنة اليهود يسمونه في كتاباتهم بالتوراة والعهد القديم «التحريم» أي الذبح، ويسمونه أيضاً «الاسادة»، وكما عبر عنه في الرمن الحديث - إن كنا لا نريد تصحيح وقتنا الثمين في حكايات عن التوراة والعهد القديم - مؤسس الحركة الصهيونية تيودور هرتسل «إلقاء القنابل شديدة الانفجار وسط الحيوانات المتوحشة لطردها» (*)

وذلك كله، بطبيعة الحال، لم يخطر للسادات ببال وهو منشغل بالأعداد لـ «عمل حريقة» يحرك بها الأميركيين كيما «يحلّوا له المشكلة»، ولم يرد له ذكر وهو جالس على المصطبة يحكي لـ «الرجالة»، أي «القيادات»، عن مدى شطارته في التخطيط العلمي الدقيق بعكس سلفه الذي كان يعيش في الأوهام، ومدى براعته في «عمل عملية استراتيجية» لدفع الأمور صوب الجلوس مع إسرائيل إلى مائدة المفاوضات وتبادل «كلام يكون له معنى وقيمة»، وصنع سلام لا يكون استسلاماً.

وكيف لا يكون السلام مع مفذي المشروع الصهيوني استسلاماً والواضح أنه متى حرّكت الأمور كما أراد لها السادات الاستراتيجي الشاطر أن تتحرك، و «تم» الجلوس إلى مائدة المفاوضات من «مركز قوة» وقيل كل الكلام الحلو الذي له معنى وله قيمة، وعقد اتفاق سلام («لو قلت معاهدة سلام كانت تبقى خطر، لكن لما تقول إتفاق سلام. طيب ما هو إتفاق الهدنة بتاع ١٩٤٩ لما تقروه تلاقوه إتفاق سلام ولذلك أنا قلت إتفاق سلام مفيش مانع»^(١٧٧)) فإن النتيجة ستكون - بفتح الحدود والتطبيع وإخراج مصر من الساحة وعزلها عن مجرى الصراع - أن الجبهة المصرية ستصمت، وفي أعقاب صمتها سيكون صمت الجبهات الأخرى المتفرقة الضاربة في بعضها البعض، وبالتالي ضياع القضية، أي كانت تلك القضية التي تحدث عنها السادات وقد حدث. فالسادات ذهب وجلس إلى مائدة المفاوضات، واحتصن بيجين واحتصن جولدا، واحتصن موشي، وانبره بعزرا وايزمان، وأحب كارتر، ووقع وبصم، وعاد ففتح الحدود، وفتح فخذي مصر على سعتيها لكل من شاء، وجلس على الباب. وصمتت جبهة مصر.

(*) «ما الذي يسعى علينا أن نفعله إذا ما أردنا أن نظهر بلداً من الحيوانات المتوحشة» بطبيعة الحال، لن يحمل القوس والنشاب وذهب مرادى في أعقابها لئلا يطاها كما كان الشرعيلون في أوروبا في القرن الخامس الميلادي، بل سيطم حملة صيد ضخمة حسنة التحيز، فنطرد الحيوانات بأن تلقى وسطها بالقنابل شديدة الانفجار»

(Theodore Herzl «The Jewish State» London 1946 p 221)

وان انزعجنا من لفظة الحيوانات المتوحشة، واستبعدنا أن نكون المقصودين بها، فلتوقف لحظة عند هذا الكلام غير المهم في ١٨ أكتوبر / تشرين الأول سنة ١٩٧٣، دارت مناقشة حامية بين المعارضة (حزب العمال في ذلك الوقت) والحكومة (برئاسة المستر ادوارد هيث) حول موضوع حظر تصدير الأسلحة إلى الشرق الأوسط وفي غمار المناقشة التي كانت حامية، قال المستر ج. ماكسويل هيسلوب (عضو مجلس العموم آنئذ وليس بعد ذلك عن دائرة تيفرتون)

«بعد ستة أسابيع من حرب الأيام الستة، سنة ١٩٦٧، ذهبت مجموعة من أعضاء مجلس العموم، من نواب الحكومة ونواب المعارضة إلى إسرائيل والأردن، ضيوفاً على حكومتي البلدين وخلال تلك الرحلة التي كانت لاستقصاء الحقائق، تعرضت للحظة كانت في الحقيقة معززة وصادمة بالنسبة إليّ فقد دعيت إلى حفل عشاء أقامته تكريماً لنا لجنة الشؤون الخارجية بالكنيست في القدس (المحتلة). وبعد أن انتهينا من تناول الطعام، تحدث إليّ رئيس اللجنة، الدكتور هاكوهين، باستفاضة وبشكل بعيد كل البعد عن الاعتدال، عن العرب. وإذا توقفت لحظة ليلتقط أنفاسه، وحدتني مضطراً أن أقول له «يا دكتور هاكوهين» معذرة إذا قلت لك أنني شعرت الآن بصدمة عميقة وأنا اسمعك تتحدث عن بشر مثلك ومثلي، هم العرب، بالفاظ تماثل تماماً ماكن جوليوس شترنجر يستخدمه في التحدث عن اليهود أيام النازية ألم تتعلموا شيئاً؟ ولئن أنسى رده ما جيبيت فقد حبط المنضدة بيده خبطة عنيفة وصاح قائلاً «لكنهم ليسوا بشراً ليسوا أناساً مثلك ومثلي إنهم عرب»

وكلام النائب البريطاني وارد بحرفيته في النشرة المتضمنة المضابط الرسمية لمجلس العموم البريطاني (Hansard, Vol 861, 18 October 1973, p 501).

ولقد كان الإيطاليون أكثر ابتكاراً في التعبير عن الكراهية والمقت. لأنهم عندما نظفوا أنفسهم من المرض الخبيث الذي كان يدعى بنيتو موسوليني، لم يفعلوا ذلك برصاصة أو رصاصات فحسب، بل واستخدموا بعالهم وبصاقهم في التعبير عما طفحت قلوبهم به من مقت للطاغية وازدراء لخبيثته، وما تسببت فيه تلك الخيبة من كوارث لبلدهم.

(٢/٤). الثغرة

في تواريخ الشعوب خيانات، وفي تواريخها خيبات. وفي لحظات بعينها حاسمة بالنسبة للمصري، تكون الخيبة أفظع من الخيانة المتعمدة. ولقد كانت الخيبة في ١٩٦٧ بشعة وعواقبها رهيبة ولم تنته بعد. إلا أن الذي فعله أنور السادات بمصر في ١٩٧٣ تجاوز كل ذلك. ذهب إلى ما وراء الخيانة وتجاوز بكثير حدود الخيبة ومرة أخرى، لم يكن الذنب ذنب السادات، بل ذنب من تركوه يفعل بهم ما فعل. أما الذنب الأفظع، فذنب من يدعون أنفسهم بـ «الصحافيين» ورجال الإعلام في مصر ممن ظلوا يمارسون بنشاط بالغ، جبناً أو ارتزاقاً، الدور الذي أوكله إليهم النظام منذ عهد عبد الناصر الكذب بضراوة وإصرار، وإخفاء الحقيقة، وتحويل الواقع إلى وهم، التعتيم والتبهم والدفاع باستماتة عن الزعيم.

يقول دونالد بيرجس، الدبلوماسي الأميركي الذي كان يرأس قسم رعاية المصالح الأميركية (وبالتالي الإسرائيلية^(١)) في مصر، أن أول اتصال رسمي أميركي بالسادات كان في اليوم التالي لوفاة عبد الناصر مباشرة وفي ذلك اللقاء، قال السادات لـ «الأمريكان» أنه حقيقة لم يكن موافقاً على رغبة عبد الناصر في الوصول إلى حل سلمي للصراع مع إسرائيل، إلا أنه وقد بات خليفة لعبد الناصر، سيفعل كل ما في وسعه لتحقيق رغبات عبد الناصر!^(٢)

وهكذا أعلن السادات في أول لقاء له بالأميركيين وهو في وضع «رئاسة» أنه سيفعل ما يريدون، فيوصل إلى حل سلمي للصراع مع إسرائيل، رغم أنه لم يكن موافقاً على ذلك، إلا أنه سيفعله على أي حال لأن تلك كانت رغبة جمال الله يرحمه. وكان شرطه الوحيد الأرض والكرامة، كما يقول الدبلوماسي الأميركي من نص أول رسالة شفوية وجهها السادات من خلاله إلى ريتشارد نيكسون في ٢٤ ديسمبر / كانون الأول سنة ١٩٧٠، وسجلها بيرجس كتابة في مذكراته:

«إن مصر لن تستسلم قط لكننا على استعداد للتفاهم والمناقشة بقلب مفتوح وذهن متفتح فيما يجب عمله من أجل السلام إني مستعد للذهاب إلى أي مكان في العالم إذا كان هذا سيقصد مصرياً واحداً من الجراح أو القتل إن مصر لن تسمح قط بوضع حقها في استعادة سيئاء في التبريد أو جعلها مسألة أمد طويل كالحرب الباردة لن نترك الأمور تسير بتثاقل لمدة عشرين عاماً كما فعل الفلسطينيون. إن هناك شيئين يجعلان المصريين يقاتلون حتى الموت، هما الأرض والكرامة»^(٣).

وهذه مشاعر نبيلة بغير شك. فالزعيم الفاشي الذي شارك طوال ١٨ عاماً في نظام من أعتى نظم الديكتاتورية العسكرية تعرض آلاف المصريين خلالها للتعذيب والامتهان و«الجراح» والقتل على أيدي زبانية النظام من الزواحف المريضة بالصادية التي تسرح في أجساد كل النظم الشمولية، وحكم لأكثر من عقد بعد ذلك بنفس الأسلوب الدموي، يريد «التفاهم والمناقشة بقلب مفتوح وذهن متفتح والذهاب إلى أي مكان في العالم» لا شيء إلا لإنقاذ ولو مصري واحد من التعرض لأن يجرح أو أن يقتل بأيدي أجنبية شريرة غير أيدي أبناء وطنه الأبرار. وهو يؤكد للرئيس الأميركي أن المصريين لن يتركوا المسائل تسير الهوينى كما فعل الفلسطينيون (!) لأن المصريين على استعداد دائماً لأن يموتوا أو يجرحوا (١) على أيدي أجهزتهم الوطنية المتخصصة في هذه المسائل، و (٢) في سبيل الأرض والكرامة والعرض.

ولم يكن السادات، وهو يتحدث عن أشياء كالكرامة والأرض وما إلى ذلك وعن خوفه على المصريين أن يجرحوا أو يقتلوا، منافقاً أو مخادعاً. كان يتكلم بمنطق النظام الذي أفرزه، وبرؤية ذلك النظام لـ «المسألة» بين مصر وإسرائيل. وهكذا أمكنه - في رسالته الشفهية إلى نيكسون - أن يقول أن «المصريين لن يفعلوا ما فعله الفلسطينيون» وبهذه الكلمات، أعطى السادات لنيكسون أهم إشارة كان ينتظرها في ذلك الاتصال الأول من جانب السادات: يا مستر نيكسون، نحن المصريون شيء، وأولئك الفلسطينيون شيء آخر.

وقد أيعت تلك الاشارة العبية المحردة من العقل والفهم وأنت ثمارها التي حناها الاسرائيليون و «الأمريكان» بتلدد بالغ في الهندسة المعمارية لسلام السادات المميت، وظهرت بواذر تلك الثمار في خطاب السادات في الكنيست الاسرائيلي بعد أن كان قد سبع أحضاناً وقبلات مع كل من لقيه في طريقه «ولا خلاف على أن السلام الشامل الذي سى السادات مبادرته على أساسه لا يمكن تحقيقه إلا بحل القضية الفلسطينية حلاً عادلاً، فهي لب وجوهر المشكلة، وبالتالي فإن حلها يشكل العمود الفقري للمبادرة، فإذا كسر (كسرت) وبالتالي أيضاً فإن العنصر الفلسطيني في تحقيق السلام الشامل حيوي وأساسي، وعليه كيف يتأتى لمن تطوع ونصب نفسه محامياً عن هذا العنصر (الفلسطيني من عناصر الصراع) أن يخاصم من (يدعى أنه) يدافع عنه، ويعاديه، أو يتجاهله ويستبعده»

«وقد لاحظت وأنا أستمع في ألمانيا (وكنت وقتها سفير مصر لديها) لخطاب السادات في الكنيست قبل تعيبي وريراً للحارحية أنه أعقل الاشارة في الخطاب إلى منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني وفقاً لقرارات مؤتمر القمة العربي في الرباط سنة ١٩٧٤ ولم اعلق وقتها أهمية على ذلك، باعتبار أن وضع المنظمة مسلم به عربياً، ودولياً بشكل كامل تقريباً لكي عندما قرأت كتاب موشى ديان («الاحتراق») استرعت نظري فقرة وردت في الحديث الذي دار بينه وبين الدكتور بطرس عالي ودير الدولة للشؤون الحارحية وهما في السيارة من المطار إلى القدس (المحتلة) بعد وصول الطائرة التي اقلت السادات والوفد المرافق له وبص الفقرة

«وقد ورد في حديثنا (موشى وبترس عالي) ذكر منظمة التحرير الفلسطينية، واقتربت عليه أنه يحس الا يطلب السادات (في خطابه) من إسرائيل التفاوض مع تلك المنظمة، لأنه إذا فعل سيواجه رفضاً قوياً ووعده عالي بأن يقل ذلك إلى رئيسه وبالفعل، عندما حط السادات في الكنيست في اليوم التالي، لم يرد في خطابه ذكر لمنظمة التحرير الفلسطينية»^(١١١)

كاتب هذا الكلام محمد إبراهيم كامل والواضح من كتابه أنه رجل شريف، وأنه - بذلك الكتاب - حاول أن يغسل يديه وبقيّة أعضاء جسمه غير أن عنوان كتابه ذاته، «السلام الضائع» يبعث على الاختلاف، مهما شعر من يقرأ كتابه بالامتنان له لما أورده من وقائع اجتهد اجتهداً واضحاً أن يكون أميناً في سردها

ولعل شيئاً في كتابه لا يكشف عن الخطأ الأساسي في التصور قدر ما يكشف الكلام الذي قاله عن أن العنصر الفلسطيني في الصراع هو لب المشكلة وجوهرها وبطبيعة الحال، يظل للوزير عذره. فذلك التصور الخطر هو ما رسخ في الأذهان وبات من كليشيهات التفكير كلما ورد للصراع مع المشروع الصهيوني ذكر

وبطبيعة الحال، تظل محبة فلسطين المروعة في لب الصراع، لكنها ليست بأي حال من الأحوال لبه وجوهره. لأن لب الصراع وجوهره فلسطين والأردن وسوريا ولبنان ومصر والعراق والسعودية والكويت وكل دول الخليج وكل الأرض المتعاقدة عليها مع الاله في الصفقة العقارية الكبرى التي عقدت في القرن العشرين قبل الميلاد تبعاً لما ترويه التوراة، وهي الصفقة التي ينفذها المشروع الصهيوني في المنطقة ابتداء من سنة ١٩٤٧، بادئاً بفلسطين ففلسطين المرحلة الأولى. رأس الجسر. منصة القفز. ولا بد أن السادات وهو داخل ليلقي خطابه في الكنيست وفي ذهنه المحاذير التي نبهه إليها بطرس عالي بعد أن نبه بطرس عالي إليها موشى ديان رأى خريطة المشروع كاملة

وفي وجود التعاقد مع الاله، وفي مواجهة المشروع الذي ينفذ القائمون به منذ أنشئت دولة إسرائيل ذلك التعاقد، لا سبيل للتحدث عن السلام الشامل، أو السلام الضائع لا سبيل إلى التحدث عن السلام إطلاقاً، لأن السلام ليس وارداً في المشروع الصهيوني أصلاً، وليس ممكناً، وليس مطلوباً والسلام الوحيد الذي ستعرفه منطقة الشرق الأوسط لن يكون إلا يوم تسيل سفوح التلال وتمتلئ الوديان بدماء كل السكان الأصليين ويصعد نتن جثث أولئك السكان إلى عنان السماء، فيتسم رب الجود اله اسرائيل رائحة الرضى، ويبتسم، فيزهو النرجس وتترجم البرية، وتخلو أرض الميعاد، كل أرض الميعاد، من النيل إلى الفرات، وعلى سبيل كفالة أمن شعب الله المختار، كل الأرض التي حول الرقعة الأصلية الواردة في حجة التملك الالهية، من كل سكانها، ويقوم ملك صهيون حاكمة الأمم.

وبطبيعة الحال، ظل هذا البعد غائباً تماماً من أذهان الضباط ومعاوني الضباط من الديبلوماسيين

والساسة والاكاديميين والصحفيين في ظل «الزعيم الخالد» عبد الناصر، و«الزعيم المؤمن» محمد أنور السادات ولولا غياب هذا البعد الجوهري لما أمكن للنظام المصري في ظل السادات أن يبعد عن الزعيم مسؤولية عملية قبرص الخائبة التي أراد بها أن «يخبط خبطة كحبطة عنتيبه»، أتر اغتيال المرحوم يوسف السباعي، بإثارة حملة مخططة متعمدة مما أسميناه في مقدمة الكتاب بـ «معاداة الكنعانية» ومن العريب أن محمد إبراهيم كامل هو الذي كتب هذا الكلام الذي سنستشهد به فيما يلي، ومع ذلك لم يوقعه تحليله على العيب الخطير في «ماسة» السلام الذي تحدث عنه وتأسف كثيراً لاستبعاد «العنصر الفلسطيني» منه

«تطرق الحديث مع السادات إلى موضوع اغتيال يوسف السباعي والعاجلة التي أعقبت في مطار لاراكيا وانتقدت بشدة عملية إرسال قوات كوماندوز مصرية إلى قبرص وتركبي السادات أتكلم ثم قاطعني فجأة صائحاً بانفعال يعني سيبهم (نسب الفلسطينيين) يقتلوا ميما ويقعد بتفرح علشان يبقى هعية (لأجل أن يصح فريسة سهلة لكل من شاء)» واحتته ومادا كانت النتيجة، فقدما ١٨ صابطاً في العملية، ومقدما الطائرة التي أفلتهم، وتدهورت علاقاتنا بقبرص، والعالم كله أدارا العملية، فوق انها فشلت في تحقيق أهدافها وأصفت أن هذا الموضوع خطير للغاية ويحب إحراء تحقيق فوري لمعرفة المسؤول عن هذه العملية فقال السادات بعصب شديد أنا الذي أمرت بهذه العملية «(لقد) أدت ماسة مطار لاراكيا إلى تطور خطير أدى إلى تصدع في المبادرة بفتح ثغرة مخرجة في موقعنا أراء القضية الفلسطينية، وجاء ذلك على هوى إسرائيل بالطبع فقد كان مصرع صباط الكوماندور المصريين فاجعة قومية مؤثرة بكل معاني الكلمة أثارت حزن الشعب المصري وسخطه وعصه ولكن الأخطر من ذلك أنها أثارت التساؤلات حول معنى العملية ذاتها وهل كانت صورية، ومن المسؤول عنها، وكان لا بد من تحويل محرى سيل الهياج والسخط (تحويل العدوان) بعيداً عن الدين أمروا (فكروا) بالعملية وحططوا لها وأقدموا عليها ووجد (أولئك الراعسون في تحويل العدوان) كنش العداء حاهراً من خلال كون قاتلا يوسف السباعي فلسطينيين، فكان أن شن الاعلام المصري حملة عنيفة على منظمة التحرير الفلسطينية وعلى الفلسطينيين عموماً أيما وحدوا بوصفهم جاحدين مجرمين قابلوا تضحيات مصر ودخولها أربع حروب من أجلهم بقتل أسانها وبالطبع، لم يلق أحد بالاً إلى البيان الذي سارعت منظمة التحرير الفلسطينية بإصداره أثر مقتل يوسف السباعي فادانت فيه اغتياله واستكرته بكل شدة، ولم يبد أحد إستعداداً لانتظار نتيجة التحقيق مع القاتلين ليتبين هل قاما بارتكاب جريمتهم من تلقاء نفسيهما، أم بإيعاز من جهة ما وراءهما، وكه تلك الجهة، وهل هي عربية أم إسرائيلية ولم لا تكون إسرائيلية متى أحدا بمعيار من هو المستفيد المباشر، كما لم يشأ أحد (في الاعلام المصري) أن يتذكر أو يدكر بأن الذي قتلوا الصباط المصريين في المطار لم يكونوا الفلسطينيين بل الحدود القنارصة الذين تصدوا لعرو احببي فاجأهم

«(ولم يقتصر الأمر على التهييج الاعلامي) بل شارك مجلس الشعب، أثناء مناقشته للعملية، في حملة الكراهية ضد الفلسطينيين واتخذت إجراءات ضد الفلسطينيين المقيمين في مصر انصت على ارراقهم وإقامتهم والمرايا التي منحت لهم من قبل مصر بعد أن قامت إسرائيل بطردهم وتشريدهم من وطنهم وديارهم منذ سنة ١٩٤٨ وما بعدها»^(١١)

فكلام وزير الخارجية السابق واضح بما فيه الكفاية، وهو مفصح عن الأرضية المعلوطة لرؤية المصريين، نظاماً وشعباً وإعلاماً ومجلس شعب، للصراع مع إسرائيل فهو ليس صراعاً من أجل بقاء مصر أولاً وقبل أي اعتبار آخر، وبحكم كونه كذلك، ينطوي على التيق الفلسطيني، بل هو صراع من قبيل الشهامة والتضحية خاضته مصر من أجل أولئك الفلسطينيين، وماذا كان جزاء المصريين «أعباء أربع حروب مع إسرائيل، والاجرام ونكران الجميل من جانب الفلسطينيين».

ومهما قيل، ومهما كتب، ومهما كانت التبريرات وضروب الانكار والتمويه، لا سبيل إلى إنكار الحقيقة البشعة الحقيقة المتمثلة في أنه بعد كل تلك الحروب، وفي غمار الصراع الطويل، لم يفتن النظام المصري، ولم يوضح للمصريين أن المسألة ليست مسألة شهامة وتضحية من أجل الفلسطينيين، بل مسألة دفاع عن بقاء مصر أولاً وأخراً.

وحتى إن كان النظام المصري قد أدرك تلك الحقيقة، لم يكن من الممكن أن يتوقع منه أحد أن يقول ذلك لشعب مصر. لأن مصارحة المصريين بتلك الحقيقة كانت ستصبح عملاً من أعمال الانتحار بالسنة للنظام وزعامته. فإدراك المصريين لحقيقة الصراع ومدى ما يشكله من خطورة على بقائهم ذاته حرّى بأن يجعل المصريين، مهما كانوا «رعية مطيعة» كما وصفهم ابن خلدون، ومهما كانوا طالبين سلامة وأكلي

عيش والسلام، ينظرون إلى أداء النظام في حماية بقائهم وتسيير شؤونهم في حضم صراع متعلق ببقائهم لا بإعادة الفلسطينيين إلى أراضيهم التي قيل للمصريين أنهم باعوها لليهود وهربوا، نظرة مختلفة تماماً ما من شك في أن النظام خشي معبتها واستمات في تجنبها بكل ما وسعه من حيل التعتيم والتبهم إعلامياً، والغوغاة سياسياً.

ولقد كتب الكثير عن دوافع السادات ومبطلقاته في ١٩٧٣ وما بعدها إلا أنه ما من شك في أن الدفاع عن بقائه الشخصي كرعيم، وبالتالي استماتته في الابقاء على النظام، ظللاً بالدرجة الأولى من أهم دوافعه، سواء فيما تعلق بـ «الثغرة»، أو ما تعلق بالذهاب إلى القدس المحتلة وكامب ديفيد.

وهيما يخص «الثغرة»، يمكننا أن نسأل أنفسنا ما الذي كان يمكن أن يترتب بالنسبة للنظام والزعيم لو كان المصريون قد قاموا حقيقة في سنة ١٩٧٣ بحرب تحرير كما حاول الحنود والضباط المحترفون؟ بصرف النظر عن أن ذلك كان سيتناقض تمام التناقض مع هدف السادات من العبور، وهو «تحريك العملية السياسية عن طريق العملية العسكرية»، وتحريكها صوب السلام والتصالح بالذات، ما من شك في أن نجاح المصريين في شن حرب تحرير لم يكن سيقصر على تحرير سيناء من الاحتلال الإسرائيلي، بل كان يرجح أن يمتد ليشمل تحرير الأرض المصرية كلها من الاحتلال الداخلي من جانب النظام وتوابعه العسكرية. ومن هنا كان العداء المكشوف تجاه القادة المحترفين كسعد الشاذلي وغيره وعدم الاطمئنان إلى «ولاتهم»، ووضع الثقة في القادة «المسيّسين» الذين باتوا من توابع الرعيم.

ولقد تحدث السادات بحذلقته المعهودة إلى السوفييات في موسكو عن الدروس والعبر المستفادة من حرب فيتنام إلا أنه ما من شك في أنه هو نفسه كان قد أخذ عدداً من الدروس والعبر من تلك الحرب التحريرية الكبرى. ولم يكن الدرس الذي أخذه السادات مستمداً، بطبيعة الحال، من تمكن بلد صغير كفيتنام من هزيمة أقوى وأعتى ماكينة عسكرية في التاريخ، بل كان منصباً على العبرة المستفادة من أن انتصار الشعوب في مثل هذه الحروب يخلقها من حديد، يصهر معدنها وينقيه ويحوّله إلى فولاذ ويشحذه، ومن أن ذلك الصلب المسنون وهو نشوان بدماء العدو الخارجي متوهج ببار الانتصار، ينقلب سيف تطهير يجتث العفن الداخلي ويحرقه بالنار.

لذلك، كانت الثغرة إنقذاً للسادات ونظامه، وثقنا أحدث لحسابه في قلب مصر بعد أن كان ذلك القلب قد بدأ ينبض بحياة جديدة عارمة وخطرة، لا على العدو الخارجي فحسب، بل وعلى العدو الداخلي أيضاً. وبغير هذا الفهم لا يمكن، بأي قدر من العقل والمنطق، فهم الشلل الكلي الذي انتاب القيادة السياسية والقيادة العسكرية المسيّسة منذ بدأت الثغرة يوم ١٣ أكتوبر / تشرين الأول المشؤوم، إلى أن تحقق العرض منها فأعلن السادات «صاغراً» وقف إطلاق النار.

وكانت الثغرة، بعد ذلك الكوة التي فتحت في روح مصر، ونفذ السادات منها إلى القدس المحتلة وكامب ديفيد لينفذ عملية إخصاء مصر ويسلم مفاتيح المنطقة لإسرائيل والأميركيين.

والذي لا ينبغي أن يغيب عن الذهن في كل ذلك أن السادات، بذلك «السلام» الذي صنعه، لم ينقذ المصريين من أن يجرحوا أو يقتلوا، بل أنقذ نظاماً كان خيراً من يعرف مدى اهترائه وتحوله إلى قوة احتلال تستغل بلدها كما لو كان غنيمة حرب من استطالة صراع مع إسرائيل كان قد استنفد أغراضه بالنسبة للنظام وأصبحت خسائره أفدح من أن تجعل النظام يواصل إستغلاله ومن الواضح أنه لولا «الثغرة» وما ترتب عليها وما أتاحه ما ترتب عليها للسادات من تحقيق توجه النظام إلى الصلح المنفرد منذ ما بعد ١٩٦٧ واكتشاف الزعامة لكون الصراع مع إسرائيل لم يعد مربحاً سياسياً، لكان النظام قد وجد نفسه في مأزق حقيقي من المؤكد أنه كان سيفضي إلى انكشافه وتفسخه وانتهياره. فد «السلام» كان إنقذاً للنظام وزعامته من مواصلة صراع لم يكن قد عاد للنظام قبل به أو مكسب حقيقي منه.

ولم يكن سعد الشاذلي سياسياً، ولم يكن ضابطاً أليفاً مسيئاً من توابع النظام، بل ظل حتى اللحظة الأخيرة جندياً محترفاً، وضابطاً على وعي بأن واجبه تجاه بلده وليس تجاه فرد أو نظام. وذلك السبب الرئيسي - بجانب الكفاءة المكروهة دائماً في النظم القائمة على اختلاق عالم من الوهم مادته الكلمات - في النفور الذي أبداه السادات والنظام تجاهه.

ولو كان الشاذلي سياسياً أو ضابطاً «مزينة» كما يقول المصريون من ضباط «تمام يا أفندم، سيادتك على حق»، لكان قد فطن إلى الحقيقة المفرعة في شأن النظام الذي بعث به وبالألاف من جنوده وضباطه إلى الجبهة لا بنية الحرب ولكن بنية «السلام» لأن استمرار الصراع مع «العدو الغادر» لم يكن قد بات مريحاً أو مفيداً بل مفصياً إلى انكشاف حتمي للنظام

ولو كان الشاذلي قد فطن إلى تلك الحقيقة المفرعة، لكان قد وجد فيها كل الإجابات الفاجعة على تساؤلاته «إني أكتب هذا الكلام وأنا غير راعٍ في أن أكتبه، وأنا محزون وغاصب وعندما أقول أن عضبي منصّب على الشخص الذي يرأس بلادي حالياً، سيكون توسع القاريء أن يفهم لماذا - بعد عمر قصيبته حديداً في خدمة بلادي وشعبي - أمسكت بالقلم عارفاً عن الامساك به، محزوناً لكون كتابة ما سوف أكتب بدت في النهاية واحداً ليس لي مهرب من القيام به

«ولقد كتبت كتبت كثيرة عن صراع ١٩٧٣ فلماذا إذن ظل الكثير من الحقائق في طي الكتمان؟ ولماذا كان الكثير مما كتبت مشوها سواء في سرده للوقائع أو فيما طرحه من تفسيرات؟ أحد أسباب ذلك، بطبيعة الحال، جهل من كتبتوا بما تحدثوا عنه إلا أن هناك سبباً أعمق فقد شئت، كما سأبرهن، حملة متعمدة للتعمية عما حدث حقيقة في تلك الحرب وإلا، فلم - كمثال أول على ما أقول - ظلت هذه الأسئلة يعير جواب حتى الآن» «أولاً لماذا لم تقم القوات المصرية المسلحة بعد النجاح الذي حققته في عملية العبور بتطوير هجومها شرقاً والاستيلاء على معمرات سيناء»

«ثانياً هل من الصحيح، كما يشاع بالحاح، أن القيادة العليا المصرية توقعت من البداية أن يقوم العدو بعملية احتراق عرباً عبر القناة في منطقة الدفرسوار - تماماً حيث قام العدو فعلاً باحتراقه - وأنها وضعت خطة لسحق ذلك الهجوم؟ وأنا الآن أشهد بأن ذلك صحيح فلم لم يقر المصريون إذن بالهجوم المصاد الذي حطمت له قيادتهم سلعاً»

«ثالثاً ولم، بدلاً من ذلك، سمحت القوات المصرية المسلحة بتعاظم الاحتراق الذي قام به العدو غرباً، يوماً بعد يوم؟ والحواب على هذا، كما سأبين، هو أن الحطط التي وصعها للتعامل مع ذلك الاختراق نقصت بإصرار من حاسب الساسة، وبالتحديد الرئيس السادات ووزير حربيته الفريق أحمد اسماعيل علي

«رابعاً من كان المسؤول عن محاصرة الجيش الثالث؟ الجود أم الساسة؟

«خامساً إلى أي مدى أثر الحصار على بتيحة الحرب، لا عسكرياً فقط، بل سياسياً، وليس بالنسبة لمصر وحدها بل بالنسبة للعالم العربي ككل؟»^(١١)

وفيما يخص التساؤل «لماذا لم تتقدم القوات المصرية رأساً صوب مضائق سيناء، يتناول محمود رياض في الفصل الرابع عشر من مذكراته، تحت عنوان «السلام على طريقة كيسنجر»، هذه النقطة باستفاضة، وإن تناولها بأسلوبه الدبلوماسي الملفوف الذي يلف ويدور ويوحى بما يريد أن يقول دون أن ينطقه جهراً

يقول رياض أنه، بمجرد عودته إلى القاهرة، اثر انتهاء مؤتمر القمة العربي بالجزائر، دعى الفريق الشاذلي - الذي كان وقتها أميناً عاماً مساعداً للجامعة العربية للشؤون العسكرية بحكم منصبه كرئيس أركان حرب القوات المصرية المسلحة - لمتابعة القرارات العسكرية التي اتخذت في مؤتمر القمة

ويقول محمود رياض أن الحديث مع الشاذلي تطرق «إلى الطريقة التي أديرت بها المعركة في حرب أكتوبر / تشرين الأول، وما انتهت إليه تلك الطريقة التي أديرت بها المعركة»، ويضيف قائلاً أنه «كان من الطبيعي أن أسأل الشاذلي عن السبب في عدم تقدم القوات المصرية إلى المضائق بسيناء، خصوصاً بعد نجاحها الرائع في تحقيق عملية عبور قناة السويس» (والمعروف أن احتلال المضائق يعني التحكم في أي تحرك عسكري في سيناء باتجاه قناة السويس، بالنسبة للإسرائيليين، أو باتجاه حدود الأرض المحتلة بالنسبة للمصريين).

ووقتها كان الشاذلي ما زال في منصبه العسكري وبالتالي مسؤولاً عسكرياً أمام «القائد الأعلى» اليرباشي أنور السادات، ولذلك توخى الحرص في رده على تساؤل محمود رياض الذي طرحه هو بعد ذلك في كتابه عن العبور، وقال أنه «من الناحية المبدئية كان الهدف الذي حدّد للقوات المسلحة المصرية عبور قناة السويس فقط»، وأن التقدم إلى المضائق لم يكن وارداً فيما حدّد للقوات المسلحة «لأنه كان من المعتقد أن ذلك التقدم إلى المضائق يفوق الإمكانيات العسكرية المتوافرة».

ولم يقتنع محمود رياض بذلك الرأي الذي فرض على القوات المسلحة لأنه

«حتى وإن كان ذلك الافتراض قائماً قبل أن تبدأ المعركة فعلاً، فإنه محدد أن بدا القتال ظهرت خلال الأيام الأولى عوامل جديدة كانت تحتم توجيهِ القوات المسلحة على الفور إلى احتلال مصايق سيناء ومن تلك العوامل، مثلاً، عدم وجود قوات إسرائيلية كبيرة في جبهة سيناء، والمعاجاة الكاملة التي أصيبت بها القوات الإسرائيلية الموحدة، وأخيراً إسراع إسرائيل بحشد قواتها الضاربة لصد الهجوم السوري على الحولان، إذ كانت إسرائيل تعطي أولوية عسكرية للجبهة السورية لأن بحاج سوريا في تحرير الحولان من الاحتلال الاسرائيلي كان كعياً بأن يجعل سوريا في مركز عسكري يمكنها من تهديد شمال إسرائيل بما فيه من مستعمرات ومدن وكثافة سكانية كبيرة وبالإضافة إلى كل هذه العوامل، كان هناك عامل كفاءة الأسلحة المصرية المصادرة للطائرات التي ثبتت خلال الأيام الأولى من الحرب على الجبهة المصرية وكبدت الطيران الاسرائيلي خسائر كبيرة، بالإضافة إلى مفاجأة القوات الامامية المصرية للقوات الاسرائيلية باستخدام الصواريخ المصادرة للدبابات مما تسبب في تدمير ٢٥٠ دبابة إسرائيلية خلال ٤٨ ساعة».

واكتفى الشاذلي، الذي كان وضعه العسكري وقتها يلجم لسانه بغير شك، بالقول بأن ما حدث لإسرائيل في الأيام الأولى من القتال جرى لنا عندما تقدمنا بدباباتنا يوم ١٤/١٠، ففقدنا ٢٥٠ دبابة تعاملت معها إسرائيل بنفس الأسلوب الذي استخدمناه نحن، أي باستخدام الصواريخ المضادة للدبابات

وبذلك الرد، تجنب الفريق الشاذلي الإجابة المباشرة على سؤال محمود رياض الذي إما أنه لم يحفل في السؤال، وإما أنه لم يورد في كتابه كل ما قيل له، لأن سؤاله كان تحديداً لم لم تتقدم القوات المصرية بعد أن عبرت وأقامت رؤوس جسورها وعززت مواقعها شرق القناة لتستولي على الممرات مستغلة - بالأخص - الرللة التي لحقت بالطيران الاسرائيلي من جراء الأعداد الكبيرة التي أسقطتها الدفاعات الجوية المصرية من طائراته، ومستفيدة من سائر العوامل الأخرى المواتية التي عددها في كلامه. وكل ما قاله الشاذلي أننا عندما تقدمنا في ١٤/١٠ فعل الاسرائيليون بنا ما فعلناه نحن بهم في الأيام الأولى من القتال. لكنه لم يبين لم ظل السادات رافضاً للتقدم حتى يوم ١٢/١٠، وهو اليوم الذي نصحه فيه السوفيات بقبول وقف إطلاق النار، ثم غير رأيه فجأة وأمر بـ «تطوير الهجوم» من صباح ١٣/١٠ ثم أجل ذلك إلى ١٤/١٠ ولم يتوقف الشاذلي عند السبب الذي جعل السادات متلهفاً على تطوير الهجوم رغم المعارضة الشديدة من جانب الأركان والقيادات الميدانية إلى الحد الذي جعله يجرّد الضفة الغربية للقناة من احتياطياتها الاستراتيجية ليلقي به في المعركة التي كان من المحتم أن تكون خاسرة بعد أن تبخرت - بفعل الدعم الأميركي واستكمال التعبئة الاسرائيلية واستقرار الجبهة السورية - كل العوامل التي كانت حرة - لو كان التقدم إلى المصايق قد سمح به قبل ذلك - بأن تجعل الاستيلاء على تلك المصايق ممكناً وبخسائر قليلة بفضل الصدمة التي تلقتها القوات الاسرائيلية ولم تفق منها إلا بعد فوات وقت كان كافياً للاستيلاء على المصايق وصفقتها الصحف ووسائط الاعلام الغربية خلاله بأنها كانت في ورطة «من بوغت وسرواله حول كاحليه» (the Israelis have been caught with their pants down)، وقالت - وهي محسورة - أن طائراتهم «ظلت تتساقط كالذباب».

ويقول محمود رياض أنه عندما قال للشاذلي «وحتى لو تجاوزنا عن ذلك، فكيف فشلنا إلى هذا الحد في معالجة الثغرة الاسرائيلية في الدفرسوار»، أجابه الشاذلي بأن «القيادة المصرية كانت مركزة إلى أقصى حد، مما أدى إلى عدم اللام بحقائق الموقف بما يتيح التصرف بسرعة على ضوء المعلومات التي ترد من الجبهة»، أما بالنسبة للثغرة، «فإن القيادة المصرية لم تتبين الحقيقة إلا بعد ضياع وقت طويل تمكنت فيه إسرائيل من إقامة رأس جسر وتثبيت أقدامها غرب قناة السويس».

والواضح أن «القيادة» هنا هي الزعامة، أي السادات، وأن «تركز القيادة إلى أقصى حد» كان في يده، تعاماً كما حدث للقوات الألمانية عندما فرض هتلر نفسه على العسكريين المحترفين.

«وأضاف الشاذلي أنه لم تكن هناك قوات احتياطية كافية لعلاج الموقف (بالنسبة للثغرة)، إذ أنه بعد أن أرسلت القيادة (= الزعامة) بالاحتياطي الأساسي إلى سيناء، لم يبق سوى لواء مدرع واحد لم يكن يستطيع بمفرده مواجهة الاختراق الاسرائيلي».

ولم يستطع محمود رياض أن يكف نفسه عن مواصلة التساؤل عن السبب في شأن عدم التقدم لاحتلال المضائق. ففي لقاء مع السفير السوفياتي يوم ١٢/٧/١٩٧٢، دار الحديث حول حرب أكتوبر / تشرين الأول، وذكر السفير أنه «بمجرد أن بدأت الحرب، بل ومن قبل أن تبدأ بوقت طويل، كان من رأي الخبراء السوفيات أن الهدف المصري يجب أن يكون ضرورة التقدم إلى مضائق سيناء» وأن أولئك الخبراء يؤكدون أن «مصر كانت تملك الامكانيات العسكرية الكفيلة بتمكينها من تحقيق ذلك».

ويضيف محمود رياض قائلاً أن

«تلك النقطة جوهرية بقدر جعلني لا أكف عن الاستفسار بشأنها وقد تحدثت في ١٠/١٢/١٩٧٢ إلى الفريق طلعت حسن، وكان مشرفاً على القيادة الموحدة للجامعة العربية، فقال لي إنه، من وجهة نظره، كان يجب أن تتقدم القوات المصرية إلى مضائق سيناء بمجرد عبورها قناة السويس خاصة وقد تبين أن معظم أطقم الدبابات الإسرائيلية كانت في إحازة، كما أن الخسائر المصرية لم تتجاوز ٢٨٠ فرداً، مما يوضح أنه لم تكن هناك أي مقاومة إسرائيلية تذكر، وأن المفاجأة المصرية كانت كاملة. وقال أيضاً أن المدرعات المصرية (التي دفعها السادات بعد قوات الأوان أماماً) استخدمت بطريقة حاطئة عسكرياً يوم ١٤/١٠ وهو الأمر الذي تسبب في خسائر فادحة لحقت بها إذ كان يجب عدم دفع المدرعات المصرية أماماً إلى المعركة دون غطاء كافٍ من المدفعية والطيران وقبل التأكد من أن الصواريخ الإسرائيلية المصادة للدبابات كانت قد دمرت (بقصف المدفعية والطيران)».

خاصة وأن المصريين أنفسهم كانوا قد خبروا مدى فعالية تلك الصواريخ في تدمير الدبابات الإسرائيلية في الأيام الأولى من القتال

ويقول محمود رياض أن الفريق طلعت حسن، ككثيرين غيره من العسكريين، «كان من رأيه أنه كان لا بد أن تكون للقوات المصرية المحاربة في الجبهة قيادة أمامية، وأن ذلك كان كفيلاً بتلافي كل الأخطاء التي وقعت فيها القيادة المركزية في القاهرة، وقد أضاف قائلاً أن أكبر خطأ وقعت فيه القيادة العسكرية (المركزية) كان سماحها بعبور الاحتياطي المصري (الفرقتين المدرعتين ٢١ و ٤) إلى شرق القناة، فذلك كان السبب المباشر الذي أدى إلى نجاح الإسرائيليين في أحداث الثغرة». (مذكرات محمود رياض: ص ص ٤٦٥ - ٤٧٠)

وعلى ضوء ذلك كله، يكون السيناريو المحتمل والممكن - وقد يراه البعض مرجحاً - كما يلي.

- ١ - القيادة السياسية في القاهرة تركز في يدها قيادة القوات على الجبهة.
- ٢ - القيادة السياسية تتجاهل تماماً مشورة وآراء بل وخطط القادة الميدانيين والأركان العامة. فكل شيء ينفذ بـ «قرار سياسي».
- ٣ - القيادة السياسية تمتنع عن السماح بالتقدم لاحتلال المضائق في الظروف المواتية لذلك التقدم أثر العبور.
- ٤ - القيادة السياسية تقرر فجأة، بعد زوال الظروف المواتية التي كانت كفيلاً بأن تجعل التقدم ممكناً، «تطوير الهجوم» والتقدم صوب المضائق.
- ٥ - يتواكب ذلك وبداية الجسر الجوي الأميركي واستقرار أوضاع الجبهة السورية وتحريك قوات إسرائيلية ضخمة صوب القناة.
- ٦ - القيادة السياسية، وبالتجاهل التام للعسكريين المحترفين، تجرد غرب القناة من إحتياطياته الاستراتيجية وتلقي بها في معركة مؤكدة الخسارة شرقي القناة.
- ٧ - القيادة السياسية تتجاهل الثغرة باعتبارها «شوية فراخ خرجوا من العشة»، إلى أن ترسخ إسرائيل أقدامها غرب القناة وتحكم حصار الجيش الثالث.

فكأنها خطة وضعت في البنتاجون، ونفذت في مصر.

والاجابات على تساؤلات الشاذلي، طالما فطن المتسائل إلى حقيقة رؤية النظام للصراع وإلى حقيقة نية السادات عندما بعث بكل أولئك «الأولاد» المصريين ليموتوا على رمال سيناء، ينبغي أن تكون واضحة، مهما كان وضوحها باعثاً على الفرع إلى حد يجعلها عصية على التصديق:

ثغرة العمدة، ثقب في قلب مصر

أولاً: لم تقم القوات المصرية بتطوير هجومها شرقاً والاستيلاء على الممرات لأن العبور كان عملية محدودة للتحريك ولم يكن إستهلاً لحرب تحرير
ثانياً: لم تنفذ خطة سحق الاختراق بالهجوم المضاد الذي خطط له العسكريون المحترفون سلفاً تبعاً لتوقعهم الاختراق لأن الاختراق كان مواتياً لأغراض القيادة السياسية وأغراض العدو معاً
ثالثاً: سمحت القوات المصرية بتعاظم الإختراق بدلاً من سحقه لأن الهجوم المضاد الكفيل بسحق الاختراق مع بأوامر السيد الرئيس محمد أنور السادات، لأن «الثغرة» كانت إنقاذاً له ولنظامه من عواقب تطور عملية التحريك إلى حرب تحرير حقيقية
رابعاً: المسؤول عن محاصرة الاسرائيليين للجيش الثالث كان «بطل العبور» كما أسماه راقصو ومطربو الصحافة والاعلام، «الرئيس» السادات، لأن محاصرة الاسرائيليين للجيش الثالث كانت محققة لـ «استراتيجية» السلام التي وضعها الرئيس الاستراتيجي أنور السادات، وبغير ذلك كانت تلك الاستراتيجية ستقلب إلى عكسها فلا يصبح السادات، بعد أن جعله قارعو الطبول والراقصون الاعلاميون المصريون «بطل الحرب»، بطلاً للسلام
خامساً: بإخصاء القوات المصرية وإلحاق الهزيمة بها من جانب «الزعامة» السياسية (أنور السادات) عن طريق الكساح الذي فرضه الزعيم فمنع به القوات المصرية من تنفيذ خططها الموضوعة سلفاً لسحق الاختراق وردم الثغرة بجثث المخترقين والحصار الذي فرضه الزعيم على جيش مصر الثالث، مكن الزعيم إسرائيل والأميركيين من جني الثمار الكاملة للشرك الذي استدرجوا إليه الزعيم الذي قبله، سنة ١٩٦٧، وجر مصر إلى مصيدة كامب ديفيد، وإسكات الجبهة المصرية، وبإسكات الجبهة المصرية، كما قال هو في اجتماعه «التاريخي» بالقيادات، إنهاء «القضية»، وبإنهاء القضية تنصيب الفاشي القديم الفاشل والعميل الراقد أنور السادات «بطلاً» عالمياً للسلام ونجماً كوكبياً وحائزاً على جائزة نوبل، وبذلك برهن الزعيم لنفسه ولكل الحاسدين والحاقدين أنه - في النهاية - كان أشطر من «جمال الله يرحمه» الذي ترك اليهود يجهزون عليه ويميتونه كسير القلب مكسور الظهر

وفي النهاية، تستحق الشعوب التي تقبل بأن تسلم مصائرها لفرد فتجعله إلهاً لها أوحداً وحيداً لا شريك له، كل ما يفعله بها ذلك الإله الأرضي من أجل ترسيخ وتوسيع ألوهته

والذي يلاحظه من يقرأ كتاب الفريق الشاذلي أن الرجل، رغم غضبه وحزنه، لم يستطع أن يذهب في تحليله إلى الحد الذي يوقفه في مواجهة مع عفن نظام حكم عمل في ظله. لم يستطع في النهاية مواجهة نفسه بالحقيقة الغريبة المتمثلة في أن النظام إتخذ منه موقف النفور والعداء لا لأنه كان على خلاف مع أحمد اسماعيل من أيام الكونغو أو لأنه كان يجرؤ على مناقشة السادات، بل لأنه ضابط خطر - لأنه عسكري محترف ولأن ولاءه لمصر لا للزعيم أو لأي نظام - على نظام انبنى على عمالة العسكريين لمصالحه ورسخ قواعده على أساس من تحويل العسكريين إلى مستفيدين من احتلال داخلي مسلح لبلدهم.

ولهذا، وصف الشاذلي تصرفات السادات وأعوانه بأنها «أخطاء جسيمة» (blunders) وقال:

«لقد ظل السادات يحاول جاهداً، طوال السنوات الست الماضية، إخفاء بعض الحقائق وتشويه البعض الآخر عملاً على التعمية عن الأخطاء الجسيمة التي ارتكبت أبان الحرب أو إلقاء التبعة على عواتق الغير.. وهذا الذي كتبته، وبخاصة عن معركة الدفرسوار شيء معروف جيداً للاسرائيليين لكنه، للأسف الشديد لم يعلن رسمياً للشعب المصري واعتقادي أننا كنا سنستطيع أن نفعل أحسن مما فعلنا بكثير في غمار تلك الحرب، لو لم يظل السادات يتدخل في القرارات العسكرية»^(١٨).

وقد رأى الشاذلي أن السادات خرب الجهد العسكري بأن ظل يزوج أنفه في القرارات العسكرية، مما أدى إلى ارتكاب أخطاء جسيمة إجتهد السادات بعد الحرب في محاولة إخفائها أو إلقاء تبعاتها على عواتق الغير. وربما لم يستطع الشاذلي أن يتصور أن «الأخطاء الجسيمة» كانت متعمدة ومخططة ومقصودة ونفذت مع سبق الإصرار والترصد، ولم يستطع أن يتصور أن السادات تدخل عن عمد ليعمّن الاسرائيليين من ترسيخ قبضتهم على غرب القناة ومحاصرة الجيش الثالث وتجويعه، لأن إقدام «رئيس دولة» على ارتكاب مثل هذه الأفعال ليس مما يقبله العقل أو يتصوره. ومع ذلك، يقول الشاذلي عن نتيجة

«وهكذا أهدر «الرئيس» وبدد أقوى جيش استطاعت مصر أن تحشده وأهدر وبدد أصبح حسر حوي أقامه الاتحاد السوفياتي وأهدر وبدد أعظم جهد تصاممي عربي توصل العرب إلى القيام به وكما أوقف القاريء على حجم وصخامة القوات التي ورعتها مصر على الجبهة، أذكر أنها كانت أقوى من القوات الوطنية للكثير من الدول الأعضاء في حلف الناتو أو معاهدة حلف وارسو، وأقوى، على سبيل المثال، من القوات البريطانية أو الفرنسية وكان كل سلاح وعتاد تلك القوات قد ورد إلى مصر على أسس إئتمانية لم يكن بالوسع أن يضارعهما أحد، من الاتحاد السوفياتي كما أن أشقاءنا العرب كانوا - بما يكذب كل ما سبه السادات ظلماً إلى قادتهم - معنا قلباً وقالماً واحص بالذكر (من واقع حبرات المعركة) طياري طائرات الهنتر العراقية لسالتهم ومهارتهم في القيام بالطلعات المصادة للمدركات في سيباء والحقيقة أن أولئك الطيارين العراقيين سرعان ما اكتسبوا صيتاً ذائعاً لدى القادة الميدانيين إلى الحد الذي جعل أولئك القادة، كلما طلبوا دعماً حوياً، يطلبون في كثير من الأحيان قيام السرب العراقي بذلك الدعم كما أن العراقيين لم يترددوا - رغم تحفظاتهم قبل الحرب - في إرسال دعم الجبهة السورية فعند الثامن من أكتوبر / تشرين الأول، كان سربان من المقاتلات العراقية يقومان بالطلعات القتالية على تلك الجبهة، وما لبث أن انضم إليهما سربان احبران بعد ذلك، كما أن طلائع فرقة مشاة وفرقة مدرعة وصلت إلى الجبهة السورية يوم ١١ أكتوبر / تشرين الأول وقد قدم لنا الدعم العسكري أيضاً من الجزائر، وليبيا، والمغرب، والسعودية، والسودان، والكويت، وتونس لكن كل هذا ضيعه السادات هباءً»^(١١١)

وكتاب الفريق الشاذلي دراسة فاتح للعينين ووثيقة تاريخية دامغة تكشف عن الأسلوب التأمري الذي انتهجه السادات في تحويل تلك الحرب، بالثغرة التي زوّده بها الأميركيون والاسرائيليون فأحبط كل محاولات القادة المحترفين لردمها وإحراق من فيها ومكن الأميركيين والاسرائيليين من أخذ جيش مصري بأكمله رهينة، إلى استهلال دموي للفصل الأخير من مهزلة النظام المأساوية الطويلة المسماة بـ «الصراع مع إسرائيل».

العمدة يصبح صانع سلام ونجماً عالمياً

«في اليوم التالي لإقامة السادات في رومانيا، استدعى اسماعيل فهمي (وزير الخارجية) للقائه في الساعة التاسعة مساءً، فقال له «عندي فكرة قد تبدو لك غريبة، لكنني أعتقد أنها ستحرك الموقف الميت الجامد ما رأيك في أن أذهب إلى الاسرائيليين في عقر دارهم وأعلن «شروطنا» (١) للسلام» وأصيب اسماعيل فهمي بالدهول، وسأل الرئيس «تروح فين، يا رئيس» اسرائيل» وكان رد السادات «ولم لا» احنا منتصرين وما عندناش (ليست لدينا) عقد ولن يتنازل عن أي حق عربي ولكني (بذهابي إليهم) اضعهم في موقف محرج امام العالم كله (٢) ولن يستطيعوا إذ ذاك التملص من فكرة السلام»
وسأل اسماعيل فهمي، للمرة الثانية، وهو ما زال في حالة الدهول «سيادتك ستتكلم جد، يا رئيس» فقال السادات «نعم» ثم قال «والفكرة على أي حال قابلة للنقاش مكرّ معي، وأذيني (أعطني) رأيك» وعاد اسماعيل فهمي إلى مقرّه، وكان بانتظاره أسامة الباز ومحمد البرادعي المستشار بالخارجية، فقال لهما «تصوّروا» الراحل عنده فكرة حشاشي وباين (ويظهر) إنه واحدنا حدّ» (٣)

(١/٥) . بعد البطولات الخطابية اللهاث وراء الصلح

وهكذا فإنه، في خريف ١٩٧٧، كان الموقف قد بات «ميتاً وجامداً». لم تفلح في «تحريكه» حرب ١٩٧٣ ولم ينفع في استجلاب رضاء الأميركيين «طرد» الروس» من مصر، ولم تؤد الثغرة وتطويق الجيش الثالث إلى الحصول على الرضى السامي وحسن المثوبة ممن استمات الزعيم في جعلهم عرابين له ظل الاسرائيليون «يتملصون من فكرة السلام». وظل الأميركيون يصبون مريداً من الأسلحة والعتاد في ترسانات إسرائيل، ويبتسمون للسادات ويربتون على رأسه مشجعين، وكلما تحدث عن السلام، قالوا له «في العجلة الندامة. هذه الأشياء الجلييلة تتم خطوة بخطوة».

وقبل أن يذهب السادات إلى رومانيا ليجتمع بسمسار إسرائيل نيقولا تشاوشيسكو الذي كان مناحم بيجين قد اجتمع به ولقيه جيداً ما يبيعه للسادات، كان محمود رياض الذي كان السادات قد أخرجه من الخارجية وعينه في الجامعة العربية، قد سافر، خلال يوليو - تموز، إلى لندن، واجتمع هناك بالدكتور ديفيد أوين، الذي كان وقتها وزيراً للخارجية في وزارة العمال برئاسة المستر كالاهاان، كما اجتمع بعدد من أعضاء مجلس العموم البريطاني ومنهم النائب ولتر دنيس

«وذكر لي دنيس، وهو من المهتمين بقضايا الشرق الأوسط، أنه اجتمع في واشنطن بيريجنسكي، مستشار الرئيس الأميركي كارتر لشؤون الأمن القومي، وخرج من اجتماعه باطباع معاده أن الإدارة الأميركية حادة فعلاً في تحقيق حل سلمي كامل، إلا أنها - بالنظر إلى العقبات التي تضعها إسرائيل في الطريق - قد تضطر إلى اتباع طريق أطول للوصول إلى ذلك الهدف بدلاً من السير مباشرة صوب الحل الشامل، الأمر الذي قد يستغرق مريداً من الوقت وأصاف دنيس قائلاً أنه شعر بأن الأميركيين محتاجون إلى العرب في ضغطهم على الأحداث (أي محتاجون إلى أن يزودهم العرب من جانبهم بما يمكنهم من الضغط على إسرائيل لتسيير الأحداث في الوجهة المطلوبة)، ثم قال إلا أن الميزان العسكري قد اختل بشدة لصالح إسرائيل، الأمر الذي يضعف موقف المفاوض العربي، ومن هنا لا بد أن تسعى مصر بسرعة إلى تصحيح ذلك الوضع الخطير

«ولما قلت للنائب البريطاني أن المشكلة (فيما يخص تصحيح ذلك الوضع) ماثلة في أن الاتحاد السوفياتي هو وحده القادر على إمداد مصر بالأسلحة (بما يؤدي إلى تصحيح الخلل في التوازن) ويحد من التفوق الاسرائيلي، وأشارت إلى أن العلاقات بين مصر والاتحاد السوفياتي كانت قد تدهورت إلى حد أدى وقف التعامل عسكرياً مع السوفيات، علّق النائب البريطاني على ذلك بقوله: أنا لم لاحظ أن واشنطن تبدي أي ضيق تجاه حصول سوريا على السلاح من الاتحاد السوفياتي، والمسألة الهامة هنا هي أنكم متوجّهون إلى التفاوض بشأن السلام من موقف عسكري ضعيف للغاية، فما الذي يمكن أن يضطر إسرائيل (في ظل هذا الضعف من جانبكم) إلى التفاهم الجاد معكم؟» (٤)

والذي قال هذا الكلام لمحمود رياض نائب بريطاني، وليس متهوساً عربياً أوداعية للسوفيات، وقد أخذ منطلقه

فيما قاله من بديهيات الشر العقلاء في تعاملهم مع المشاكل «الاستراتيجية» التي من هذا القبيل وكان محمود رياض قد التقى قبل لقائه بالنائب البريطاني بالرئيس الجزائري هواري بومدين خلال اجتماعات مؤتمر القمة الأفريقي

«وكان الرئيس بومدين يرى أننا قد وصلنا إلى مرحلة تحتاج منا التوقف لمناقشة الخطوات العربية المقبلة، وابدأ خشيته من التقارب غير المدروس مع الولايات المتحدة (وهو تقارب) يمهد لها الطريق للسيطرة على المنطقة كلها وقال بومدين إنه يلاحظ أن السياسة الأميركية الحالية تعمل على سحب كافة الأسلحة من أيدينا، بل وتعمل على إضعافنا، وفي نفس الوقت فإننا تركنا علاقاتنا مع الاتحاد السوفياتي، مشيراً بذلك إلى العلاقات المصرية السوفياتية التي تزداد سوءاً وكان يرى أنه من الضروري تعديل هذا الموقف قبل قوات الأوان لأننا - في النهاية - سنصاب بأفدح الأضرار من جراء عدم التوازن الذي يسير نحوه بطريقة غير مدروسة وقد أكد الرئيس بومدين على أنه لا يعترض على تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة ولكن بشرط أن يكون ذلك في نطاق من (تحقيق) المصالح المشتركة للطرفين وبدون أن يحسر الاتحاد السوفياتي بعد كل الدعم الذي قدمه إلينا منذ عدوان ١٩٦٧»

«وكان الرئيس بومدين يشير في ذلك إلى تصريحات الرئيس السادات في شهر إبريل / نيسان، التي وجه فيها الكثير من النقد العلني للاتحاد السوفياتي، وأعلن فيها قراره بتنويع مصادر السلاح الذي تحصل عليه مصر وذكر أن هناك اتصالات يجريها كيسنجر بين مصر وإسرائيل لوضع اتفاق حديد يقضي بإسحاب القوات الإسرائيلية لمسافة صغيرة أخرى في سيناء»^(٢٠)

فالزعيم المصري كان أخذاً في حرق كل جسوره مع السوفيات في الوقت الذي كانت الولايات المتحدة نفسها (كما الملح البريطانيون لمحمود رياض أثناء زيارته للندن) لا اعتراض لديها على حصول مصر - كسوريا - على ما لم تكن الإدارة الأميركية قادرة على إعطائه للمصريين من سلاح يوازن ولو قليلاً الاختلال الحطير في الميزان العسكري بين مصر وإسرائيل نتيجة لما صبته الإدارة الأميركية - بحكم الارتباط العصوي بإسرائيل - في ترسانات إسرائيل.

لكن السادات، في ولائه لـ «الأمريكان»، كان أشد ولاء للملك من الملك ذاته، وكان سادراً في طريقه لا يعوقه شيء أخذاً في إطلاق التصريحات وتوجيه النقد والسباب إلى المصدر الوحيد الذي كان يعلم جيداً أن الحصول على السلاح منه كان السبيل الوحيد لإخراج مصر من حالة الهزال التسليحي الذي جعل النائب البريطاني يسأل محمود رياض «وما الذي تتصورون أنه يمكن أن يجعل إسرائيل تتفاهم معكم جدياً وأنتم بهذا الضعفاء»

ولا بد أن السادات وهو يفعل ذلك كان على علم بأن الإدارة الأميركية، أي إدارة أميركية، لا يمكن أن تضغط على إسرائيل، أو تلوي ذراع إسرائيل، أو تتوقف عن ضخ المريد ثم المزيد من أحدث أنواع العتاد العسكري المتطور وأشدّها فتكاً في ترسانات إسرائيل وقد سبق لدين راسك أن حذر محمود رياض من أنه «لن تأتي إلى الحكم أبداً إدارة أميركية يمكن أن تضغط على إسرائيل»، وقد كان ذلك في عهد عبد الناصر، ولا بد أن السادات علم به، وإن لم يكن قد علم به، فإنه كان يكفيه إمعان النظر في التواطؤ الأميركي الساهر المتواصل مع إسرائيل على ضرب مصر وقد أجعل الوضع الأميركي بعد ذلك جيمي كارتر، صديق السادات الطيب المتدين، عندما قال لأسامة الباز أنه «سيفقد منصبه (I shall lose my chair!) إذا ما تمادى في الضغط على إسرائيل»^(٢١)

لا بد أن السادات، وهو سياسي داهية، وصانع استراتيجية، ورجل دولة، وكل ذلك، لم يخف عن فطنته وذكائه أنه كان أخذاً - وهو يتمادى في الضغط على عنق مصر وكتم أنفاسها وإصابتها بفقر الدم التسليحي - في وضع مصر أكثر فأكثر تحت قدمي الأميركيين والإسرائيليين

ولكن لا! السادات «المفتري عليه»، كما وجد موسى صبري في نفسه الجرأة على أن يصفه بذلك الوصف، لم يكن كذلك أبداً. لقد كان بطلاً قومياً. كان يعمل على تخليص إرادة مصر. كان يعمل على تحرير مصر من كل القيود. كان يعمل على تخليص مصر من ورطة الصراع الذي لم تكن لها فيه ناقة ولا جعل من الجارة إسرائيل. كان يعمل على تحقيق السلام لمصر وتخليصها من عبء الحروب والتضحيات والمصائب وإنقاذ اقتصادها من الخراب بسبب الحروب (لا بسبب النهب المنظم بطبيعة الحال وهي التي

العمدة يصبح صانع سلام وجمعاً عالمياً

ظلت تحصل بالائتمان على ما ظل مغاوير النظام، باستثناء الشرفاء الذين قاتلوا بحق في ١٩٧٣ والجمهم السادات على يدي شارون بالثغرة وتطويق الحيتس الثالث، يتركوه على الرمال ويجرون عائدين إلى مواخير القاهرة)، فمن الظلم للرجل، ومن الافتراء عليه أن يقال عنه أنه كان، لحساب «الأمريكان» أخذاً في إصابة حسم مصر بأيميا السلاح في مقابل التورد والاكتناز والامتلاء الاسرائيلي بالسلاح «الأمريكاني»، بينما هو يفعل ما فعل لحكمة عليا تحل على الأفهام الصيقة، واستراتيجية تقصر دون اللام بها العقول الصغيرة وهكذا كان مصير الأبطال الأخيار دائماً، تظلمهم امتهم وتنكر فضلهم، وحقيقة أنه لا كرامة لسبي في وطنه

والمشكلة أن الرياح لا تأتي دائماً بما تستتهي السفن وهؤلاء الجيران الاسرائيليون متعبون حقيقة. فرغم كل ما فعله الرئيس السادات لهم، ظلوا، كما قال لإسماعيل فهمي في رومانيا «يتملصون من فكرة السلام». غير أن الرئيس المصري المؤمن بربه ووطنه والحريص على رفاه شعبه لم ييأس بالعكس. شحذت مراوغات الجيران ونطاعة الأصدقاء «الأمريكان» همته إلى السلام أكثر، فقرر أن يباغت الجميع بتحريك «استراتيجي» مبهز لا يخطر ببال إسان إلا إذا كان بطلاً مثله، هو أن «يذهب إلى الاسرائيليين في عقر دارهم» (إلى فلسطين الحبيبة والأرض السليبية التي ارتزق بها النظام منذ ١٩٥٢ بل واستولى على الحكم أساساً ليحررها)، وبذهابه إليهم «في عقر دارهم» وفي القدس بالذات، سيكون قد قام بحركة فهلوية رائعة «تخرجهم» أمام العالم فيستحون، ويصغون بخشوع لما سوف يمليه عليه الزعيم الشاطر من «شروط» لتحقيق السلام الذي ظلوا يتملصون من فكرته.

ورغم أن نتيجة ما كان السادات أخذاً فيه، منذ ما قبل فكرة الذهاب إلى القدس المحتلة بوقت طويل، لم يكن من الممكن أن تكون له نتيجته إلا الصمت المطبق للجبهة المصرية، التي أكد الزعيم للقيادات أنها متى صممت سيكون معنى صمتها أن القضية انتهت، أكد الزعيم أنه عندما يذهب إلى الاسرائيليين في عقر دارهم «لن يتنازل عن أي حق عربي»، بصرف النظر عن أن قبوله بالذهاب للاجتماع بهم في القدس المحتلة كان تسليماً علنياً بأن القدس لم تكن قد عادت «لنا» كما ظلت فيروز تهزج، بل لهم. غير أن الرئيس السادات طيب الله ثراه لم ير في ذلك عيباً ولم ير منه مانعاً. وبالحقيقة، لم لا؟ ألم ننتصر في حرب ١٩٧٣ الخالدة؟ فوق اننا أناس لسنا «معقدين» كغيرنا من العرب، ونحن على استعداد للذهاب إلى أي مكان على ظهر البسيطة بحثاً عن السلام.

ولقد كان السادات، في كل ذلك، صادقاً مع نفسه ومع نظامه الذي أفرزه ومكنه من عنق مصر. فمرحلة البطولات الخطابية كانت قد انتهت إلى غير رجعة، والزعيم الجديد لم يكن مهتماً كسلفه بالمسائل الهوائية التي من قبيل تزعم القومية العربية، ولم يكن قد عاد بالحقيقة مهتماً بأي شيء له علاقة بأولئك العرب وبخاصة الفلسطينيين سبب المصائب الذين تسببوا في دخول مصر الحرب أربع مرات من أجلهم. كانت قد أينعت للزعيم الجديد ومن حوله من رجال المال والأعمال مصالح وفرص كانت الحياة الحلوة (dolce vita) التي تصورها الأفلام الأميركية توميء فاتحة ذراعها. وبدلاً من الحرب ووجع الدماغ، لم لا يتفرغ الرئيس وصحبه الكرام، من أجل الشعب المصري الذي عانى الكثير وقدم الكثير من التضحيات، للعمل على ازدهار الاقتصاد المصري ورفع مستوى المعيشة؟ طبعاً ليس طفرة، وليس للجميع في وقت معاً، فلسنا - بعد كل شيء - بلشفيك كفرة، بل بالتدريج، إبتداء من القمة، نظراً لأن القمة قليلة العدد ومن السهل معالجة مشاكل مستوى معيشتها، وعندما «يعم عليها الخير» سيسيل من عندها على سفوح الهرم الاجتماعي فيصل الخير إلى الجميع، ويعيش الجميع في سلام ونعيم ورخاء واضعين وراء ظهورهم مشاكل الصراع وكوابيس الحرب.

وكما قلنا، لم يكن السادات أول من سعى إلى السلام، بل عبد الناصر. وبالخبط الريفي المعهود، تظاهر السادات في حياة عبد الناصر بأنه ظل معارضاً لذلك الاتجاه. ولم يكن يتوقع أن يمتد أن يموت عبد الناصر خلال المستقبل المرئي، ولذلك رأى أن الشطارة تطلبت أن يظل هو محتفظاً لنفسه بصورة المناضل الراقض القوي الصلب، ويترك لجمال مهمة الصلح وكل ذلك، فيكون الفائز على الوجهين: يظل «مناضلاً» صلباً قوياً الشكيمة، ويحصل على السلام الذي أراده طيلة الوقت جاهزاً، من صنع عبد الناصر،

ويستمتع هوبه عندما يصبح رئيساً، فلا يجد نفسه محملاً بأعباء مسؤوليات صراع لم يجد له منذ البداية مبرراً وتؤكد له بعد هزيمة ١٩٦٧ أن خسائر استخدامه كوسيلة لإدامة حالة الطوارئ بالمنطقة وإسكات كل الأصوات داخلياً حتى لا يعلو إلا صوت المعركة كانت قد باتت أفدح وأخطر من أن يواصل النظام التمسك بتصنيعاته فيما يحص فلسطين الحبيبة والأرض السليبة وكل تلك الأشياء

إلا أن حملاً الله يرحمه أفسد للسادات ذلك التخطيط الشاطر، فمات قبل أن يعقد الصلح ويعطي السلام لحليفته جاهر الصنع مكرساً باسم الزعيم عبد الناصر ولذلك، وجد السادات نفسه في ورطة بعد أن عملها حمال ومات. فلقد تعير عليه أن يعير موقفه من مسألة السلام وبالشطارة الفلاحي المشهورة، كان الحط الذي صور له عقله البير أن ينتهجه في ذلك هو ما قاله لدونالد بيرجس في أول اتصال رسمي أميركي معه من أنه «لم يكن موافقاً على رغبة عبد الناصر في الوصول إلى حل سلمي للصراع مع إسرائيل، لكنه سيبدل كل ما في وسعه لتنفيذ رغبات عبد الناصر» كما أسلفنا

ويشرح لنا موسى صبري «الحط السياسي الذي أرادته السادات» اثر توليه «للمسؤولية الأولى (رئاسة الجمهورية) في مواجهة موقف بالغ الصعوبة في علاقات مصر بالشرق والغرب، وفي الطريق المسدود لإنهاء الاحتلال الاسرائيلي للأرض المصرية في سيناء»، فيقول

«وكان الحط السياسي الذي أرادته السادات هو أن يؤكد أن الشعب المصري يريد الحرب لأنه لا سبيل إلا الحرب ما دامت أنواع السلام موصدة (سيراً على المدأ الذي كان حمال عبد الناصر قد رفعه وهو أن «ما احد بالقوة لا يسترد إلا بالقوة») وحرص السادات على أن يعلن ذلك شعبياً في أول خطاب جماهيري له عندما سافر إلى طنطا لأول مرة وسال الجماهير التي استقبلته أحسن استقبال، في خطابه قائلاً هل تريدون الاستسلام، وعلت الأصوات لا فسال هل تريدون القتال دفاعاً عن التراب المقدس (سيناء) وعلت الأصوات نعم»

وبينما السادات يفعل ذلك جماهيرياً ويحارب معاركه غوغائياً فيعيد إلى الذهن ذكرى صيحة عبد الناصر في وجه الأميركيين أنه إن لم يكن ذلك يعجبهم فليذهبوا ليتسربوا من البحر وكرى الهياح الذي انتاب الجماهير وقتها وقد صورت لها كلمات الزعيم أن أميركا قد وضعت ذيلها بين ساقها وهربت من الساحة أمام غضبة الزعيم، بينما الرعيم قد بعث بهيكل والسادات وعامر اثر تلك «الحركة» الغوغائية مباشرة لـ «يصالح الأميركيان»، بينما السادات يتواش على المنصة مستعرضاً عضلاته المريفة أمام الجماهير في طنطا، متحدثاً عن الحرب ورفض الاستسلام، كانت

الاتصالات بأمريكا مستمرة، بواسطة السادات مباشرة، وبواسطة محمد حسين هيكل مكلفاً من السادات، مع ممثل رعاية المصالح الأميركية في مصر، دونالد بيرجس وحضر روحرر إلى مصر واجتمع به السادات، ولم يجد وزير خارجية أمريكا ما يعيب به موقف مصر التي قبلت المبادرة (من فورها) وقال روحرر للسادات أنه لا يستطيع أن يطلب من مصر شيئاً (أكثر مما قدمت) وعادر روحرر مصر بأطيب المشاعر عن تحضر الشعب المصري عندما حياه بعض الأفراد، في الطريق أمام الفندق، بكل مودة، رغم الموقف الأمريكي المساند لإسرائيل، وعبر عن تأثره بذلك لأنور السادات وانتقلت الكرة إلى إسرائيل التي أفضلت المبادرة كما أفضلت مباحثات باريس معوث الأمم المتحدة، (٢٠١)

ومسد ذلك الاستهلال، لم يتوقف لهاث السادات وراء السلام، الذي تقلص فبات يعني استرداد التراب المقدس، المحتل، سيناء فالقضية التي كان النظام قد ظل يستغلها لصالحه داخلياً وعربياً منذ استولى على السلطة سنة ١٩٥٢ كانت قد تقلصت فباتت قضية إنهاء الاحتلال الاسرائيلي لسيناء وكما قال عبد الناصر «إزالة آثار العدوان»، أي تارل إسرائيل عما كسسته عندما أوقع عبد الناصر مصر في الشرك، بإعادة سيناء، وفي مقابل ذلك تحصل على الصلح والسلام

وبطبيعة الحال، وبلا أدنى نقاش أو تساؤل، تظل المسؤولية الأولى لأي نظام حكم المحافظة على السلامة الإقليمية للبلد الذي يحكمه، أي مبع الغير من أخذ أي جزء من أراضيه وبذلك فإن سعي النظام إلى استعادة سيناء كان سعياً مشروعاً، وواجباً، ولا مهرّب منه إلا أن الذي لا هو مشروع ولا هو واجب وكان هناك بغير شك مهرّب منه ظل التصالح المنفرد والسلام التجاري المميت مع عدو لا يرحم ولا يشبع ولا يكف، وإخراج مصر من المعركة (وهي معركة بقاء لا معركة كرامة أو أرض أو إزالة احتلال)

وإسكات الجبهة المصرية، وتصفية «القضية» التي ارتق بها النظام طوال عقود والأدهى والأمر أن السادات عندما واصل اتجاه سلفه إلى التصالح و«السلام» المستحيل مع عدو وضع على رأس قائمة أهدافه منذ القدم أخذ كل أرض مصر وكل الأرض من أرض مصر إلى أرض الفرات، خلط بين تأمين النظام من الانكشاف والانهيار، وهو ما استهدفه عبد الناصر باتجاهه إلى التصالح و«السلام»، وبين تأمين بقائه الشخصي على رأس النظام وإن فعل السادات ذلك، حرد مصر من مصدر تسليحها الوحيد والحقيقي، الاتحاد السوفياتي، ووضعها تحت قدمي «الأمريكان» والاسرائيليين رافعة يديها طالبة الصلح وهي عرلاء وبطبيعة الحال، طل الأميركيين والاسرائيليين يسرون فوق وجهها جيئة وزهاياً، خاصة بعد أن آمن السادات لهم إخصاء حيشها وإجهاص ما أوشك أن يكون نقطة لها في حرب ١٩٧٣ عندما منع المصريين بالثغرة وتمكين العدو من تطويق الجيش الثالث وعزله وتجويعه وأخذه رهينة من تحويل العبور الذي أراده عملية تحريك محدودة إلى حرب تحرير لم يكن يعرف المدى الذي كان يمكن أن تذهب إليه إلا الله وحده.

وفي الذهن، لدى من يقرأ هذا الكلام أو يسمع أي كلام يماثله، يظل هناك - بحكم الاعتقاد على تأليه الزعيم وجعله «هو مصر، وهو البلد» - ذلك التصور بأن من يقول كلاماً كهذا «يظلم الرجل»، أي السادات لماذا؟ لأنه، يا أخي، هو الذي خطط وبغض وصنع العصور وحرب ١٩٧٣، فكيف يقال عنه هذا، ومع الاحترام الواجب لرأي من يدع نفسه يستدرج إلى مثل هذا الوهم، يتعين القول أنه ليس من العقل في شيء أن يوهم المرء نفسه أن السادات هو الذي صنع حرب ١٩٧٣. فحرب ١٩٧٣ أعد لها واستعد لها وجعلها ممكنة المصريون لا السادات وكل ما فعله السادات أنه - تحقيقاً لمخططة الذي لم يحد عنه صوب التصالح والسلام - ترك المحترفين من أبناء مصر غير المسييسين، أمثال الشاذلي وغيره من قادة لم يتسلل عن النظام إلى أرواحهم وبخاعهم يضعون الخطط ويستعدون لاستجابات العدو المحتملة والممكنة، وينظمون ويحشدون ويستعدون للحرب لا لتمثيلية الحرب التي أرادها. وقد كان كل دور السادات في النهاية، إفشال الحرب، وردها إلى ما أراده لها، مجرد تمثيلية حرب، بغير توقف طبعاً عند توضيحات من ماتوا وشوهوا من المصريين، باعتبار ذلك ثمناً لا مهرب منه لتنفيذ «استراتيجيته» العليا وفي كتاب سعد الشاذلي أكثر من واقعة تفصح عن حقيقة ما نقول، كالخلاف الحاد الذي نشب بينه وبين الفريق صادق حول خطة «التعبئة» استعداداً للحرب. حول اتجاه النظام إلى مطالبة دول خط المواجهة بتزويد مصر بالأموال، وإصرار الشاذلي على مطالبة تلك الدول بأن تساهم، لا بالأموال، بل بالقوات والأسلحة

«وقد هاج صادق هياحاً مظلياً، وانفجر في وحي قائلاً: «كيف تطالبهم بقوات بدلاً من المال؟ إننا نريد منهم نقوداً. سوف أبلغ سلوكك إلى الرئيس» أفقلت «يمكنك أن تفعل ذلك طبعاً» وعندما استأنف مجلس الدفاع المشترك اجتماعه، وافق على خطتي بالاجماع، حيث لم يكن بوسع صادق أن يعلن معارضته لها، وكلفت بالتالي بزيارة البلدان العربية التي ستقدم تلك القوات للتأكد من استكمال تدريبها وتسلحها»^(٢٦)

وفي موضع آخر من كتابه، يشير الشاذلي، بغير كبير اكتراث، لإستماتة السادات وكتبة الاعلام في تصوير مجهود مصر الحربي بأكمله في حرب ١٩٧٣ التي أجهضها السادات كما لو كان مجهوداً فردياً شخصياً للزعيم «بطل العبور»، بغير توقف - بطبيعة الحال - عند ذلك العبور الذي استحق لقب البطولة عليه، وهل كان عبور المصريين إلى شرق القناة ليفترسوا «أسود إسرائيل» ويشربوا دماءهم كما فعل بعض العساكر الصعادية، أم عبور مدرعات إسرائيل إلى الضفة الغربية وفتح الثغرة التي وصفها السادات باستهانة بأنها «شوية فراخ خرجوا من العشة» وتطويق الجيش الثالث.

وهناك من الجرائم ما يرتكب وتكون فظاعته التي لا تضارعها فظاعة أي إجرام أماناً لمن يرتكبها من الانكشاف، نظراً لأن عقول الناس - من فظاعة الجرم - ترفض أن تصدق. وهذه حقيقة يعرفها جيداً الاسرائيليون ويستفيدون منها باستمرار فيما يقدمون عليه بين الحين والحين من أعمال ممعنة في الصفاقة والاجترأ والاستهانة بكل الحدود التي تعارف عليها البشر، مطمئنين إلى أن أحداً في العالم لن يصدق أن ذلك العمل قد ارتكبه هم من فرط فظاعته وبوصفه من المحال المنافي للطبيعة والعقل

(preposterous)، وتساعدهم على ذلك بطبيعة الحال ملكيتهم شبه الكاملة إما لوسائل الاعلام العالمي وإما لأقلام وعقول وصمائر من يشتغلون بالاعلام العالمي، وفي النهاية، حتى إذا ما انكشف ما قد يشير إلى أن ما حدث وروع له العالم كان من فعلهم، يظل بوسعهم «تشكيل لجنة تحقيق قضائية» أو شيئاً مسرحياً من ذلك القبيل، عملاً على «استظهار الحقائق»، كما حدث في جرائم إبادة الفلسطينيين بعد ترحيل مقاتليهم من لسان، في مخيمات اللاجئين، على سبيل المثال لا الحصر، وكما هي الحال فيما يتعلق بتعاون الاسرائيليين «صحايا العنصرية» مع أعتى نظام عنصري في عالم اليوم بجنوب أفريقيا و خلاصة القول أن ما يعرفه كل المجرمين من أن الفجر والبجاجة والصفقة خير دفاع ضد الانكشاف، بات مستخدماً بتوسع كقاعدة من قواعد السلوك السياسي

وفي حالة تواطؤ السادات النشط (active) أو عن تخلف عن القيام بالواجب (by default)، في إجهاض حرب ١٩٧٣ بالتفرة وتطويق الجيش الثالث، إستخدم بفعالية ذلك الأسلوب الاسرائيلي عينه في التعمية عن مسؤولية الجرم، إستغلالاً لعظائمه التي تجعله عصي التصديق

وبتأمين خروج مصر صفر اليدين من تلك الحرب، كان السادات يأمل أن يساعده أصدقائه «الأمريكان» على ما ظل يتوسل إليهم بإلحاح أن يحققوه له، فيخرجوه من ساحة الصراع وكان ذلك هو فعلاً ما هدف إليه الأميركيون من تواطؤهم الكامل مع الاسرائيليين في استدراج مصر إلى شرك ١٩٦٧ وكل ما قاموا به لحساب الاسرائيليين من تحركات بهلوانية بعد الهزيمة التي أمنوا لإسرائيل أن تجعلها ماحقة عندما انقادت مصر إلى ذلك الشرك بفضل حرص عبد الناصر على زعامته. إلا أنهم لم يكونوا راغبين في أن تخرج مصر من الساحة على قدميها، بل زاحفة على بطنها ووجهها في الطين، وهو ما يبدو أنه لم يتضح للسادات وموسى صبري، من هذا الكلام الذي رواه هذا الأخير:

«واسفر للقاءان السريّان اللذان تم تدبيرهما بين حافظ اسماعيل، مستشار الامن القومي للرئيس، وهنري كيسنجر، وزير الخارجية الاميركية ومستشار الامن القومي عن لا شيء وكانت خلاصة اقوال كيسنجر أن السادات يطالب بشروط المنتصر وينسى ان مصر مهزومة»^(٢٧)

ولقد كان ذلك حرياً بأن يجعل السادات يفيق ويثوب إلى رشده قليلاً. لكنه - إحقاقاً للحق - لم يكن مستطيعاً ذلك بحكم مصالح النظام. فالنظام كان قد وصل إلى مشارف الانكشاف الكامل أمام المصريين، مهما كانوا رعية مطيعة، بوصفه نظاماً مريفاً حكمهم بالكذب والتصنع والوهم منذ سنة ١٩٥٢، وبعث بأبنائهم ليزبحهم اليهود في أربع حروب كانت في حقيقة أمرها تمثيلات قام بها النظام في غمار استغلاله لصراع لم يكن مؤمناً به لكنه وجدده مفيداً في تمكين العسكريين من إحكام قبضتهم على عنق مصر وجيبها. وفي تلك الآونة، كان التملل الحقيقي قد بدأ يتضح في مصر، ووقعت إضطرابات وقامت مظاهرات عاملة النظام الطلبة خلالها بشجاعة وصرامة لم يظهرهما في أي وقت تجاه «العدو الغادر»، بينما ظل السادات يتحدث بصوته الأجلش ونبراته الناطقة بالجعجة عن سنة الحسم، وكل ذلك الايهام.

فلم يكن بوسع السادات إذن أن يعقلها ويتوكل ويقول للأمريكان افعلوا يا أسيادي ما تشاؤون بي وبمصر، وليكن في قضائكم رحمة. إلا أن عدم استطاعته الارتقاء علناً تحت نعال الأميركيين والتمرغ في القرب (وطناً كان أو غير وطني) وهو يجار في طلب السلام والعفو عن كل ما سبق من ذنوب العصيان لأوامر الأميركيين ومعاداة الجيران الطيبين الذين كان ريتشارد نيكسون قد أعلن لتوه خوفه عليهم من «جارتيهما العدوانيتين، مصر وسوريا»، عدم استطاعة السادات إختصار الطريق والذهاب إلى السلام رأساً، خوفاً على بقاء النظام، وضعه في مأزق آخر متعلق بتأمين بقائه الشخصي كزعيم أوجد واحد وحيد لا شريك له

«في ٢ يناير / كانون الثاني ١٩٧٨، سافرت إلى أسوان للاجتماع بالرئيس السادات الذي كان قد ذهب إليها مباشرة بعد انتهاء مباحثات الاسماعيلية (مع الاسرائيليين في ٢٥ ديسمبر / كانون الأول ١٩٧٧، وكنا في انتظار وصول الرئيس كارتر يوم ٤ يناير / كانون الثاني للاجتماع بالرئيس السادات وهو في طريق عودته إلى واشنطن وبعد لقاء الرئيس مع وفد عسكري فرنسي، صحبني الرئيس إلى مكان جانبي في الحديقة حيث جلسنا ثم بدأ يتحدث بأسهاب. وتحدث عن الأوضاع الصعبة التي ورثها عن عبد الناصر وكيف كان

العدة يصنع صانع سلام ونحماً عالمياً

الاتحاد السوفياتي يعمل بكل الوسائل على فشله وهدمه إذ كان السوفيات يسعون إلى أن يخلف علي صبري جمال عبد الناصر في رئاسة الجمهورية وكيف أنه لم يحقق شيئاً في أربع ريايات لموسكو، وأن الاتحاد السوفياتي كان يماطل في ترويده بالأسلحة لتعويض ما فقدته مصر في حرب أكتوبر / تشرين الأول ١٩٧٣، (٢٨)

فالسادات - في حقيقة أمره - جدد أنف مصر، لا أنفه هو بطبيعة الحال، لا ليفيظ وجهها، كما يقولون، بل ليهشمه، تأميناً لاستمرار زعامته للنظام وقد جدد أنف مصر بطرد «الروس»، والعمل بكل قواه على تدهور العلاقات معهم، وحرمان مصر بذلك من المصدر الممكّن الوحيد للسلاح الذي يقيها من أن ترتمي عزلاء تحت أقدام الأميركيين والإسرائيليين. و«الروس»، كما قلنا، ليسوا ملائكة وليسوا متمردين في حب أحد سوى أنفسهم ومصالحهم. لكن ذلك شأن الجميع. لأنه لا ملائكة هناك والسياسة أساساً مسألة مصالح، ولا شيء غير المصالح، والعلاقات الدولية أيضاً، ما لم يكن الأمر متعلقاً، كما في حالة أميركا وإسرائيل بجذور تاريخية تجعل من إسرائيل امتداداً عصوياً للجسم الحي الذي يعرف باسم الولايات المتحدة. لكن هذه حالة نادرة في التاريخ، وباستثنائها، تطل العلاقات الدول والأمم والشعوب ببعضها البعض منبئية على المصالح، ولا شيء إلا المصالح ولقد كان من مصلحة الاتحاد السوفياتي أن يدخل منطقة الشرق الأوسط من باب المشروع الصهيوني الأميركي في صورة المتصدي لتجاوزات (لا أساسيات) المشروع عن طريق تسليح المصريين والعرب وتزويدهم بعون ثمين ولا يعوص مكنهم من أن يحاولوا الوقوف في وجه الطوفان الغامر من الدعم العسكري والاقتصادي والسياسي والديبلوماسي الكامل الكاسح الذي قدمته الولايات المتحدة بلا انقطاع وبتعاضد متزايد إلى امتدادها العصوي بالمنطقة، إسرائيل.

فتعامل السوفيات مع مصر والمنطقة كان أساسه مصالح السوفيات وكانت مصالح البقاء ذاته بالنسبة لمصر ولكل المنطقة تحتم انتهاز فرصة تلك المصالح السوفياتية والافادة منها في التزود بما يمكن مصر والمنطقة من الوقوف على أرض صلبة وعلى قدمين، بدلاً من الارتقاء في الطين والرمال المتحركة للشيق إلى «أمريكا» بغير سلاح.

وبطبيعة الحال، كان بوسع السادات، كرئيس للجمهورية، أن يرغب في تخليص مصر من «الروس»، ولكن بشرط أن يجد أولاً، وقبل أن يتخلص منهم، بديلاً لهم يمكن أن يزود مصر بما لم يكن لها غنى عنه من سلاح وعتاد يمكنها من أن تظل واقفة، لا مطرحة أرضاً، أمام إسرائيل فهل وجد السادات ذلك المصدر؟ وهل كان في استطاعته أن يجده؟ أين؟ في أوروبا الغربية؟ في الصين؟ في واق السواق؟ وحتى إن كان أي بلد أوروبي أو آسيوي قد وجد في نفسه الشجاعة والرغبة والمصلحة في تزويد المصريين بما احتاجوه باستمرار من كميات هائلة من السلاح المتطور، كيف أمكن للسادات أن يتصور أن ذلك البلد الافتراضي كان سيقدم على عصيان الولايات المتحدة وتزويد مصر بذلك السلاح؟

لم يكن هناك من يقدر على ذلك وتدفعه مصالحه - لا خيريته أو غيريته - إلى الإقدام عليه وتحدي الولايات المتحدة وهي القوة العظمى الرئيسية الآخذة على عاتقها لأسباب تاريخية وراسخة في الروح والعقل لدى الأمة الأميركية تنفيذ المشروع الصهيوني الذي ظل إخراج مصر عزلاء مكسورة مقهورة دليلاً محطمة الظهر من ساحة الصراع شرطاً أساسياً من شروطه ومطلباً جوهرياً من متطلباته.

وفي ظل ذلك كله، كان من متطلبات البقاء ذاته لا أقل بالنسبة لمصر ولكل من لا يمكن أن يفضي خروجها من ساحة المعركة إلا إلى إبادتهم، التشبث بالفرصة التي أتاحها المصالح السوفياتية والقدرة السوفياتية على عصيان الولايات المتحدة وتزويد مصر والعرب بما يمكنهم من الوقوف كبشر بدلاً من الزحف في الطين كديدان كما صممت الولايات المتحدة على أن يفعلوا.

غير أن متطلبات البقاء بالنسبة لمصر ولكل من سيفضي صمت جبهتها - كما قال السادات ذاته - إلى انتهاء قضيتهم وإبتداء فنائهم وإزاحتهم من أوطانهم كما أزيح الفلسطينيون إخلاء للمكان أمام السكان الجدد، ظلت لدى زعيم النظام المصري في مكانة ثانوية لاحقة متأخرة بكثير وراء المكانة التي احتلها على قائمة أولوياته تأمين بقائه الشخصي كزعيم من الخطر الذي مثله إمكان قيام السوفيات بتدبير انقلاب يطيح به ويضع على رأس النظام شخصاً آخر يمكنهم التعامل معه كعلي صبري أو غيره.

وإد وارن الزعيم، وهو جالس على المصطبة في استراحة القناطر، بين تأمين بقائه الشخصي واستمرار ملكيته للعربة التي أورته إياها الزعيم السابق، وسير متطلبات بقاء العربة ذاتها، أعطى الأولوية الأولى لتأمين بقاءه هو واستمرار رعامته وملكته للعربة وقطعانها، باعتبار أنه «وبعدي الطوفان»، أي إذا ذهب أنا، فلتذهب العربة إلى الحميم

وبطبيعة الحال، لم يقل السادات للمصريين أنه كان أحداً في تحريضهم من مصدر تسليحهم الوحيد تأميناً لبقائه الشخصي واستمرار تملكه لهم ولوطنهم، بل قال أنه فعل ذلك لأنه تبين أن الروس حلفاء سيئين، ولأنهم ظلوا يتكاثرون في ترويده كل ما طل يطلبه منهم من عتاد وسلاح لا يسد ثمنه بل يحصل عليه بالدين

ولنتوقف لحظة عند ما قاله الفريق سعد الشاذلي، وهو رجل عسكري، وليس سياسياً، ولم يقل أحد في أي وقت أنه كان متيماً بحب الروس، بل كانت له إصطدامات خشنة مع ضباطهم

في ١٩ مارس، أدار ١٩٧٢، قال الرئيس السادات في اجتماع عقده بيته بالحيرة أنه يريد أن يكون التالي معهما وهو أن صداقتنا مع الاتحاد السوفياتي ضرورة إستراتيجية، وأنا أجد أن يحافظ عليها هي الورقة الوحيدة التي في أيدينا وهي ورقة سبصطر إلى أن تلعبها في القريب العاجل أما فيما يتعلق بالقواعد، فإنا نقدم تسهيلات للاتحاد السوفياتي، لكسبنا لن نقدم إليه أية قواعد.

فالزعيم كان مدركاً لكون الاتحاد السوفياتي الورقة الوحيدة التي أتاحت لمصر غير أن ذلك كان في ربيع ١٩٧٢، قبل حرب التحريك بعام ونصف عام، وقت أن كان يكسب الأسلحة التي مكنت مصر من العبور والتي لم يكسبها إلا لتحقيق ذلك العبور «تحريكاً للعملية السياسية» وعندما أكتمل له كل ما أشارت تقديراته إلى أن السوفيات كانوا سيقدمونه، «لعب لعبته الكبيرة»، فطردهم من مصر فقد كان يعلم أن ورقة العبور هي الورقة الأخيرة التي سيلعبها على الصعيد العسكري وأن كل ما بعدها سيكون لعباً للأوراق السياسية التي كان يأمل أن يضعها العبور في يده ليلاعب بها الأميركيين والاسرائيليين، ولذلك وجد مكنته أن «يطرد الروس» قبيل العبور بحجة أنه لم يكن مستطيعاً أن يحافظ على سرية العملية في حضورهم، وبأنهم ظلوا يحاولون إحباط عزيمته بالتقتير فيما أعطوه له من سلاح وعتاد وتوصياتهم المتلاحقة إليه وإلى كل من اتصل بهم من المصريين بمحاولة إيجاد حل سياسي للصراع

وبطبيعة الحال، كان السوفيات، في تلك الآونة، قد دخلوا مرحلة غزل مع الأميركيين صوب الوفاق. وكان الأميركيون قد بدأوا يضغطون عليهم ليستحثوهم على الدخول في ذلك الوفاق بالتقارب الأميركي/الصيبي ولم يكن مما يحقق مصالح الاتحاد السوفياتي كما تراءت لرعمائه أنه أن يستجيبوا للسادات الذي لم يكونوا يثقون به إطلاقاً وكانوا على يقين من أنه يمقتهم وعلى استعداد لأن يقايض كل ما فعلوه وما ظلوا يفعلونه تجاه مصر، بلا أدنى تردد، في سبيل نظرة عطف أو عمزة عين من الأميركيين، فيعطوه من السلاح ما قد يغريه بالقيام بمغامرة عسكرية رجح السوفيات أنها ستنتهي إلى الحيبة الفضيلة التي انتهت إليها جعجعات الزعامة المصرية سنة ١٩٦٧ والتي تحدث عنها بودحورني بلا تحفظ في تركيا، ولا تكون لها أي نتيجة إلا هز القارب وإفساد حوال العلاقات الأميركية السوفياتية، وهو ما رحب به الإسرائيليون دائماً وعملوا باستماتة من أجله، وفي نفس الوقت ترك كميات هائلة من العتاد والأسلحة السوفياتية - كما حدث في ١٩٦٧ - لتقع في أيدي الإسرائيليين وبالتالي الأميركيين مع ما يترتب على ذلك من كشف أسرار التكنولوجيات العسكرية السوفياتية

إلا أن السوفيات، رغم ذلك كله، لم يتوقفوا عن إمداد مصر بالسلاح، حتى بعد أن «طردهم» السادات، فظلوا «الورقة الوحيدة» في يد مصر كمصدر للسلاح. ولنصنع، على أية حال، لما يقوله سعد الشاذلي

«إن السؤال الوحيد الذي يعيبي من كل ما يثار من أسئلة في المناظرة الدائرة حول الصداقة مع الاتحاد السوفياتي هو السؤال التالي تحديداً هل كان هناك في الماضي أو هل هناك في الحاضر أو سيكون هناك في المستقبل القريب أي بلد آخر بالعالم على استعداد ويمكنه إمداد مصر بما يكفي من الأسلحة لأعطائها التفوق المحلي على إسرائيل بما يمكنها من تحرير أراضيها» والحوار على هذا السؤال هو لا ومن الحقيقي طبعاً أن الولايات المتحدة كانت أحده في نفس الوقت في ترويد إسرائيل بطوفان من

الأسلحة المتطورة أعطاها تفوقاً استراتيجياً على كل حيرائها العرب محتتمين وقد بلغ ذلك التفوق دروته في حالة سلاح الجو الإسرائيلي الذي كان مستطيعاً تحييد كل قواتنا الجوية والسرية والبحرية وبهذا المعنى، كانت الولايات المتحدة حليفاً لإسرائيل «أفضل» من الاتحاد السوفياتي كحليف لنا «غير أن هذه مقارنة غير ذات موضوع فالولايات المتحدة لم تكن لتمتدنا بالسلاح أبداً وإن كانت أسلحتنا قد تحلفت عن أسلحة إسرائيل، فإن السبب في ذلك، وهو سبب ظل غير معروف إلا لقليلين، كان تحلف الاتحاد السوفياتي بعشر سنين، في محال تكنولوجيا الجو، عن الولايات المتحدة وبرغم كل ما يقال عن حلف الناتو وكيف أنه منظمة دفاعية، تظل هناك الحقيقة الماثلة في أن الولايات المتحدة التي ترود الحلف بمعظم أسلحته، قد استحدثت وطورت أفضل طائرة قاذفة احتراقية في العالم، هي الفانتوم، بكل ما تحمله من الكترونيات وقذائف ولم يكن لدينا نحن المصريين ما يصارع الفانتوم لسبب بسيط هو أن الاتحاد السوفياتي لم يكن لديه ما يصارعها فقد ركز السوفيات بالمقابل، على المقاتلات الدفاعية والقذائف المضادة للطائرات

ولقد كانت الاتهامات التي وجهها السادات إلى الاتحاد السوفياتي، فوق تعاضتها، غير صحيحة «فقد اتهم السادات السوفيات بأنهم لم يزودونا إلا بعدد قليل من الجسور القديمة من طراز كان مستخدماً في الحرب العالمية الثانية، وقال أننا اضطررنا إلى بناء ثلاثي جسور العبور بأنفسنا. وهذا غير صحيح فقد كان لدينا ١٢ حسراً، رودنا الاتحاد السوفياتي عشرة منها وحقيقة أن ثلاثة فقط من تلك الحسور العشرة كانت من الطراز الأحدث لديهم (PMP)، إلا أن الحيش السوفياتي نفسه لم يكن لديه أسلحة الكثير من تلك الحسور، وقد نقل إليها حسر رابع من ذلك الطراز المتطور، حوّاً إبان الحرب وعندما عبرت مدرعاتنا ومركباتنا إلى سيناء، كان عبور ٩٠٪ منها على جسور أو معدّيات سوفياتية «كما اتهم السادات السوفيات بأنهم لم يزودونا أبداً بالصور الاستطلاعية التي التقطتها أقمارهم الصناعية وطائراتهم الميغ ٢٥ وهذا أيضاً غير صحيح حقيقة أننا شكونا من قلة ما رأينا من صور، إلا أننا كنا نعطي من وقت لآخر فيلماً حديداً لشاهده، وإن لم يسمح لنا بالاحتفاظ به أو عمل نسخ منه وقد شاهد السادات نفسه تلك الصور مرتين على الأقل، قبل الحرب، ومرة أثناء القتال وبعد وقف إطلاق النار، كانت صور التوابع (الأقمار) الصناعية السوفياتية المصدر الوحيد الذي ظل متاحاً لنا للوقوف على المعلومات الخاصة بتحركات العدو»

«والحقيقة أننا نحن، لا السوفيات، الذين كنا حلفاء سنيين فأنشاء الحرب، أحيينا الحقائق عنهم باستمرار، وبالأخص فيما تعلق بالاحتراق الذي حققه العدو في الدفرسوار وتوسيع العدو بعد ذلك ل نطاق ذلك الاحتراق، وإن كانت توابعهم الصناعية قد أوقعتهم بعير شك على الحقيقة التي أخفيها عنهم» «والواقع أنني عندما قرأت فيما بعد مذكرات رئيس الأركان الإسرائيلي ديفيد العازر، ووجدت أن أحد أهم القرارات التي اتخذها الإسرائيليون إثر شوب القتال كان إقامة اتصال مباشر ومستمر بين القيادة الإسرائيلية العليا والستاحون الأمريكي، وإيقاف الأمريكيين على كل خططهم والاستماع إلى نصيح الأمريكيين ومشورتهم، لم أملك إلا أن أقارن ذلك بانتهازيتهما التي كان من المحتم أن تلحق بها الصرر»^(١٢)

وربما تعفف سعد الشاذلي عن استعمال اللفظة الوحيدة التي تعبر عن تلك الشطارة الخائبة المعهودة، وهي «فهلوتنا» فاستخدم بدلاً منها لفظة «انتهازيتنا» إلا أن الواضح من كلامه أن الزعامة السياسية، صاحبة القرار النهائي في كل تحرك قامت به مصر، كانت تتعامل مع الصديق أو الحليف أو مورد السلاح الرئيسي، سمه ما شئت، بوصفه العدو، في الوقت الذي ظلت تتطلع فيه صوب الولايات المتحدة التي كان المصريون يواجهون أحدث وأعتى أسلحتها في أيدي الإسرائيليين، ويواجهون أيضاً الخدمات الاستطلاعية لتوابعها الصناعية وشبكات تجسسها واتصالاتها التي كرسها لخدمة الإسرائيليين، ويواجهون كذلك خبرات ومشورة قادتها وخبرائها العسكريين في البنتاجون التي وضعت باستمرار في خدمة العدو، ويستطرد سعد الشاذلي قائلاً

«إلا أن الاتحاد السوفياتي، بالرغم من كل ذلك، نظم أكبر حسر جوي قام به في تاريخه لمساعدتنا. (وبطبيعة الحال، كان الأمر متعلقاً هنا بمكانة الاتحاد السوفياتي وسمعته وقدراته العسكرية، إلا أن المصلحة المتبادلة هي التي تحكم وثاق التحالفات، وقد كنا نحن نتدبر أداءهم كحلفاء) ولم يكن الجسر الجوي محططاً قبلاً، إلا أنه بدأ بعد ثلاثة أيام فقط من شوب القتال وعندما انتهى، كان السوفيات قد نقلوا جواً ١٥٠٠٠ طناً من العتاد العسكري إلى مصر وسوريا خلال ٩٠٠ رحلة جوية قامت بها طائراتهم من طراز AN - 12 وطراز AN - 22 للنقل الجوي .. وبالإضافة إلى ذلك، قام الاتحاد السوفياتي بعملية إعادة تعوين بحرية وصل خلالها ما لم يقل عن ٦٣٠٠٠ طناً من العتاد إلى مصر وسوريا بحلول يوم ٣٠ أكتوبر/تشرين الأول... «إلا أن الحقيقة تظل ماثلة في أن هذا الجهد السوفياتي الضخم كان متواضعاً بالمقارنة إلى ما زودت الولايات المتحدة إسرائيل به، عن طريق جسرهما الجوي، خلال نفس الفترة. فقد قامت طائرات سلاح الجو

الأميركي من طراز C-141 وطرار C-5C للقلل الحوي بحمسمائة وست وستين رحلة نقلت خلالها إلى إسرائيل ٢٢٣٩٥ طناً من الامدادات العسكرية، منها طائرات الفانتوم، ودبابات م-٦٠، والطائرات العمودية (الهليكوبتر) طراز CH-53 وأحدث ما كان لدى الأميركيين وقتها من قذائف كـ «المافريك»، وأجهزة ومعدات التشويش الالكترونية المتقدمة التي لم يكن حلفاء الولايات المتحدة في حلف الناتو قد سمح لهم بالحصول عليها بعد، بالإضافة إلى ٥٥٠ طناً نقلت على طائرات العال ومتى حكمنا على حجم الحسر الحوي بصرب ربة العتاد المشحون في المسافة التي تقطعها الطائرات حاملة العتاد حيثة ودهاباً، وعلى أساس أن المسافة من الولايات المتحدة إلى إسرائيل ٧٠٠٠ ميل، بينما المسافة من الاتحاد السوفياتي إلى مصر أو سوريا ٢٠٠٠ ميل، فإن الحسر الحوي الأميركي بمعيار الطر/ميل كان حمسة أضعاف الحسر الجوي السوفياتي، و ٦,٥ أضعاف إذا ما حسبنا ما نقلته إسرائيل من الولايات المتحدة على طائراتها وبالإضافة إلى ذلك، قامت الولايات المتحدة بعملية إعادة تمويل بحرية نقلت إلى إسرائيل خلالها ٢٢٢١٠ طناً من العتاد بطول ٣٠ أكتوبر/تشرين الأول.^(١١١)

وكان السوفيات قد بصحوا السادات بوقف إطلاق النار في ١٢ أكتوبر/تشرين الأول (قبل الاختراق)، لكنه رفض، وظل رافضاً إلى أن قبله في ١٩ أكتوبر/تشرين الأول بعد أن كان الاسرائيليون قد رسّخوا أقدامهم تماماً قرب الاسماعيلية والغريب الذي يدعو إلى التفكير حقاً هو أن السادات رغم رفضه وقف إطلاق النار لم يقم بأي جهد حقيقي للقضاء على القوة الاسرائيلية التي حققت الاختراق إلى غرب القناة ومنع تنفيذ الخطط التي كانت موضوعة قبلاً للتعامل مع العدو في حالة وقوع مثل ذلك الاختراق الذي توقعه العسكريون المحترفون واستعدوا له. وفي ضوء ذلك، يبدو السادات - مهما كان ذلك فظلياً لا يكاد يقله العقل - كما لو كان رئيس الدولة الوحيد في التاريخ الذي انتظر إلى أن أحكم العدو قبضته تماماً على عنق بلده قبل أن يسعى إلى وقف إطلاق النار.

وبعد وقف إطلاق النار، انتهكت إسرائيل في حمى التغافل الأميركي، كيما تضع اللمسات الأخيرة على القبصة الحانقة التي كانت قد أطبققتها على عنق مصر، ولم تقبل تجدد وقف إطلاق النار إلا في اليوم التالي (٢٤ أكتوبر/تشرين الأول) تحت ضغط من الأميركيين الذين كانوا قد تلقوا ما اعتبر انذاراً من الاتحاد السوفياتي دعمه السوفيات بوصف ست فرق سوفياتية محمولة جواً في حالة التأهب. وعندما قبل الاسرائيليون وقف إطلاق النار الثاني في ٢٤ أكتوبر/تشرين الأول، كانوا قد أصبحوا، مجدداً، القادرين على إملاء شروطهم، فمحووا بذلك محواً أي كسب كانت حرب ١٩٧٢ قد حققتها لمصر، وتمكنوا بذلك من رفض قرار مجلس الأمن الذي طالبهم بالعودة إلى خطوط ٢٢ أكتوبر/تشرين الأول.

وبالعبر الاسرائيلي الذي كان نوط بطولته حقاً للسادات على قادة إسرائيل، إنتهت البطولات الخطابية نهائياً، وكان آخرها قول السادات من فوق منصة «مجلس الشعب» «الآن أصبح لهذه الأمة درع وسيف» بينما مدرعات إسرائيل، في نفس اللحظة، وهو يخطب في «نواب» الشعب، تحدث له ذلك الثقب في قلب مصر.

وبعدها، بدأ اللهات وراء السلام، رجعاً على البطون وكان ذلك هو الأسلوب الذي اختاره السادات للسعي صوب ذلك السلام المستحيل، وكان قد قرر قراره على القيام بذلك السعي منفرداً وإخراج مصر تماماً من ساحة الصراع.

وقد كانت سوريا في الواقع أول من فطن إلى ذلك الاتجاه لدى السادات بعد وقف إطلاق النار في أواخر أكتوبر / تشرين الثاني ١٩٧٢، وقد أبلغت الدول العربية فعلاً بأنها «باتت تخشى من أن السادات كان متجهاً إلى الحل المنفرد»^(١١٢).

وليس هناك ما هو أدل على أن السادات كان - اغتناماً لـ «الكسب» الذي تحقق لاستراتيجيته بوجود الجيب الاسرائيلي على الأرض المصرية، واستمرار حصار الاسرائيليين للجيش الثالث - قد قرر أن يخرج من حلبة الصراع تماماً ويعقد صلحاً منفرداً مع إسرائيل والولايات المتحدة من أنه، عندما وضعت القيادة العسكرية المصرية خطة للقضاء على الجيب، صدق السادات عليها في ٢٤ ديسمبر / كانون الأول ١٩٧٢، لكنه وضعها في التبريد العميق بحجة أنه هو الذي سيختار اللحظة المناسبة لتنفيذها في حين كان هناك «إجماع على قدرة القوات المصرية على القضاء على الجيب الاسرائيلي وبالتالي رفع الحصار عن الجيش المصري الثالث»^(١١٣).

العمدة يصبح صانع سلام ورحماً عالمياً

وبطبيعة الحال، ظلت الخطة حبرا على ورق، وظلت في جيب السادات الذي كان الحبيب الاسرائيلي وحصار الحيش الثالث ورقته الراحلة في مواجهة المصريين لإرغامهم على السير تبعاً لـ «استراتيجيته». وكانت تلك «الاستراتيجية ببساطة، تنفيذ كل ما تمليه «أمريكا يا سبحان الله»

وفي ١٧ يناير / كانون الثاني ١٩٧٤، اجتمع السادات بصديقه هنري كيسنجر في أسوان، واتفق معه على «فض الاشتباك» بالشروط التي أملاها كيسنجر، وعندما أعلن السادات للمصريين بأنه قد اتفق على ذلك مع صديقه هنري، ذكر لهم أن هنري كان قد حذرهم، في زيارة سابقة، من تنفيذ خطة القيادة المصرية التي صدق السادات عليها في ٢٤ ديسمبر / كانون الأول ١٩٧٣، لتصفية الحبيب الاسرائيلي، ثم وضعها في جيبه، وقال أن كيسنجر أنذره بأنه إذا ما شرعت مصر في تصفية الحبيب الاسرائيلي فإنها يجب أن تتذكر بأن الولايات المتحدة ستكون ملزمة بضرب مصر مساعدة لإسرائيل لأنها «لن تسمح مطلقاً بأن يهزم السلاح السوفياتي الذي في يد مصر السلاح الأميركي الذي في يد إسرائيل» فهي مسألة كرامة، كما يرى وقد كان السادات رجلاً يفهم مسائل الكرامة هذه بسرعة، ولذا فانه قبر خطة القيادة المصرية لتصفية الحبيب وفك حصار الحيش الثالث، لئلا تقوم الولايات المتحدة بضرب مصر، وحقن بذلك دماء المصريين أثناءه الذين كان يخاف عليهم من أن يأكلهم العول الأميركي

ولقد قلنا أن الرجل كان قط أزقة، وفهلاًواً سياسياً من نوع خطير حكم تبعاً يستجيب تلقائياً للفهلوة أياً كان نوعها لأنها ظلت دائماً من أسلحته في التعامل مع الواقع المعاكس إلا أن ذلك الضرب من الفهلوة السياسية كان قد تجاوز كثيراً حدود «الشطارة والحداقة (الحذق)» ودخل تحت بند القتل العمد مع سبق الترصد، لشعب، بل لشعوب بأكملها، متى أخذنا بخطورة النتائج التي ترتبت عليه

ومن الواضح أن كيسنجر كان قد توافر لديه من تحليلات المخابرات الأميركية والإسرائيلية لشخصية السادات ما أوقفه على طبيعة «الفهلاو» (ولها مقابل أميركي «wise guy») عند الرعيم المصري، فاستخدم معه ما لا سبيل إلى تسميته إلا بالفهلوة، أو النصب («Con game») وكيسنجر بطبعه قد جمع بين كل مقومات الفهلوة والشطارة التي مكنته من أن «يأكل عقول» الأميركيين أنفسهم، دع عنك عقل «بائع اللبن صاحب أحلام اليقظة» كما وصفه محمد إبراهيم كامل

فالتهديد - الذي قد يكون السادات صدقه، والأرجح أنه تعرف على مقومات الفهلوة والنصب فيه لكنه وجد من المفيد أن يتظاهر بأنه صدقه - كان، كما قيمه محمود رياض، «تهديداً أحوف إستهدف به كيسنجر التأثير في القرار المصري فيما يتعلق بتصفية الحبيب الاسرائيلي عسكرياً»^(١١) أو - بالأحرى - منع مصر من مجرد التفكير في التعامل مع الحبيب الاسرائيلي عسكرياً فذلك الحبيب كان الكسب الذي نسفت به الولايات المتحدة إنتصار المصريين الذي حققوه بالعبور وما بعد العبور وأوشكوا أن يحولوه إلى حرب تحرير شاملة لا مجرد عملية تحريك كما أراد السادات.

والذي لا شك فيه أن عملية الثغرة والعبور المضاد والحبيب الاسرائيلي وحصار الحيش الثالث كانت عملية أميركية مائة بالمائة وضعت خططها في البنتاجون ونفذت بدعم إستطلاعي كامل من الولايات المتحدة

«صباح الاثنين ١٥ أكتوبر / تشرين الأول ظهرت على شاشات دماغنا الحوي بالمركز ١٠ نقطة اخذت تتحرك بسرعة شمالاً فوق منطقة القناة ثم فوق منطقة الدلتا وأدركنا على الفور ماهية تلك النقطة على شاشاتنا. فقد كنا رايناها قبلاً ففي حوالي الساعة ١٣,٣٠ (الواحدة والنصف) يوم ١٣ أكتوبر/تشرين الأول، ونحن نضع التفاصيل الأخيرة لهجومنا الذي قضي عليه ظهرت على الشاشات نقطة مماثلة إتبعنا نفس المسار ويومها تتبعت مسارها لبضع دقائق، ثم طلبت الفريق فهمي وسألته عن السبب في أن أطقم صواريخ سام التي تحت قيادته تركت ذلك الشيء يتنزه فوق رؤوسنا فأجابني بأن أعطاني سرعة الجسم الطائر الذي ظهر على شاشاتنا. زائد ماخ ثلاثة (أكثر من ثلاث مرات سرعة الصوت)، وارتفاعه. أكثر من عشرين ميلاً وإذا ذاك أدركنا أي شيء كان. طائرة الاستطلاع الأميركية SR - 71 A قريبة الميعاد ٢٥ السوفياتية

وفي تلك الطلعة الأولى، التقطت كاميراتها بلا شك ما كان كافياً لايقاف المحللين على الجانب الاسرائيلي على تحركات فرق مدرعاتنا عبر القناة. أما هذه الطلعة الثانية، صباح اليوم (١٥ أكتوبر / تشرين الأول) فقد أوقفت العدو على أن الضفة الغربية للقناة كانت قد أصبحت عارية من المدرعات بشكل كاد يكون كاملاً وبذا بات بوسعنا أن نفترض أن العدو سيقف على تلك الحقيقة خلال ساعات قليلة، وهو ما أضاف الحاحية لما طلبته من أحمد إسماعيل هذا الصباح من أن نسحب فوراً إلى غرب القناة الفرقتين المدرعتين الرابعة

والحادية والعشرين وكذا اللواء المدرع التابع للفرقة الحادية والعشرين الذي كان قد ألحق بالفرقة السادسة عشرة وقد كان يوسعنا (متى سحبنا تلك المدرعات لحماية عرب القناة) ان نمرر رؤوس حشورنا شرق القناة بالالغام المصادرة للدبابات، أما الأولوية الأولى فكانت عسدي إعادة هاتين الفرقتين من المدرعات إلى الخط الثاني (عرب القناة) لاستعادة الدفاعات التي كانت قد أصبحت محتلة التوارى تماماً

«وكان رد أحمد اسماعيل ان سحب الفرقتين قد يتسبب في إشاعة الدعر بين قواتنا، فلم أوافق على ذلك، لأنه لم تكن بنا حاجة إلى إعطاء عملية إعادة الفرقتين إلى الخط الثاني طابعاً يثير الدعر لدى أحد، فهي عملية يمكن ان تتم تحت عطاء تحركات الحشيشين الثاني والثالث غير ان رد أحمد اسماعيل كان ان العدو قد يفسر ذلك التحول كعلامة ضعف وبطبيعة الحال، كان واضحاً لي أنه من الحماسة ان يحارب بـ «التهويش»، فبادراً ما يمكن ان تشن الحرب حدياً وتتحدد نتائجها بمثل هذا التطاهروء اللف، خاصة وأن الإسرائيليين سرعان ما سوف تتوافر لديهم الحقائق كما هي في الواقع لكن وجدت أنه لم يكن من المحدي ان أستمر في النقاش والسبب الحقيقي لرفض أحمد اسماعيل الموافقة على خطتي، السبب الذي لم يصرح به لكنه لم يحف على أحد، كان أنه سوف يصبح الرئيس إلى مجلس الشعب في صباح اليوم التالي (وهي الجلسة التي وقف السادات فيها مرهواً بطلولته في تحقيق العبور وأعلن ان «هذه الأمة بات لها درع وسيف»^(١١١) ولم يكن على استعداد لأن يوافق على شيء يمكن ان يفسر بأنه علامة ضعف، فيشوه صورة الانتصار العظيم»^(١١٢)

وسعد الشاذلي في ذلك التفسير الأخير قد أحسن الظن كثيراً في الواقع، وهو معذور، لأن الأسباب الحقيقية كانت أشأم من ذلك بكثير وببطبيعة الحال، كانت في ذاكرة الشاذلي، وهو يتحدث عن شن الحرب بـ «التهويش»، نكبة ١٩٦٧ التي تمخضت عن «التهويش» الذي مارسه الرعيم السابق وتحدث عنه بعد الحرب الفريق أول محمد فوري ومن خبرة الشاذلي بالطريقة السينمائية التي عمل بها النظام باستمرار، وجد التفسير الذي هداه إليه تفكيره وسيرت تفكيره إليه تلك الخبرة بسينمائية النظام، تفسيراً مقنعاً، ولم يخطر له ببال، وهو الجندي المحترف، أن يتصور أية دوافع أخرى لرفض دفاعات كان من المؤكد أنها - لو نهذت خطته بسحب الفرقتين تمركزهما على الخط الثاني، غرب القناة - ستقطع الطريق على الثغرة

«صلى يوم ١٦ أكتوبر / تشرين الأول وردت الأنباء الأولى عن احتراق يقوم به العدو، أبلغت قيادة الحيش الثاني هاتياً أن عناصر صغيرة من مدرعات العدو سحبت في العبور إلى الضفة الغربية للقناة بالقرب من الدفرسوار وأن الحيش الثاني بمعرض اتحاد الخطوات اللازمة للقضاء عليها»^(١١٣).

وقد رأى موسى صبري من الملائم، وهو يسرد «حقائق الثغرة»، أن يواصل الدفاع عن السادات دفاعاً مستميتاً في وجه الحقائق التي بضح بها كلامه ذاته

«في يوم ١٢ أكتوبر / تشرين الأول، كانت هناك طائرة استطلاع أميركية من طراز معروف عسكرياً تتحسس على المواقع المصرية من بور سعيد إلى السويس، وتتحه جنوباً إلى البحر الأحمر وشرقاً إلى الدلتا، ومن شمال الدلتا عادت إلى إسرائيل عبر البحر الأبيض، وكانت تلك الطائرة فوق مدى أى صواريخ ولا تصل إليها أي طائرة مصرية بسبب ارتفاعها وسرعتها

«كشفت هذه الطائرة أوضاع القوات المصرية بالكامل المطارات ووسائل الدفاع الجوي، وكشفت أيضاً الشيء الخطير الذي تسبب في الثغرة، وهو أن الفرقة المدرعة المصرية ٢١ كانت في منطقة الدفرسوار على الضفة الغربية للقناة وكانت تعبر (وأمرت بالتحرك شرقاً) في يوم ١٢ أكتوبر / تشرين الأول إلى الضفة الشرقية لاستئناف الهجوم يوم ١٤ أكتوبر / تشرين الأول، وهو ما سمي بتطوير الهجوم لتخفيف الضغط على سوريا والوصول إلى شرق المصايق ولم ينجح الهجوم المصري فقد كانت إسرائيل واقفة في دفاع مستميت بأسلحة أميركية حديثة، وتمكنت من وقف الهجوم»^(١١٤)

فلنسمع لما يقوله سعد الشاذلي

«الجمعة ١٢ أكتوبر / تشرين الأول كان أول ما واجهني هذا الصباح أن أحمد اسماعيل عاد إلى موضوع تطوير الهجوم، وقد أعطى الرغبة في ذلك التطوير سبباً هو تخفيف الضغط على سوريا فعارضته من جديد، لأن الهجوم المراد القيام به لن ينجح ولن يؤدي إلى أي تخفيف ملموس للضغط على سوريا ولذلك قلت له «اسمع، ان العدو، بالرغم من كل ما كبدها إياه من خسائر، ما زالت لديه في مواجعتنا ثمانية ألوية مدرعة، وما زال بوسع سلاحه الجوي أن يوجه ضربة قاصمة إلى قواتنا الدرية بمجرد أن تطل برؤوسها خارج نطاق مظلة صواريخ سام. ولدينا الدليل على ذلك فليس لدينا من صواريخ سام ٦ ما يكفي لتوفير حماية متحركة لقواتنا في العراق. فالتقدم الذي تريده لن يؤدي إلا إلى تدمير قواتنا دون أي منفعة يقام لها وزن بالنسبة لأخواننا السوريين» إلا أن الوزير (أحمد اسماعيل، وزير الحربية) عاد ظهراً، وقال لي «إن هذا قرار سياسي يجب أن نطور هجومنا ابتداء من صباح العدة»^(١١٥).

العمدة يصبح صانع سلام وجمعاً عالمياً

ونلاحظ هنا أن العدو لعب الورقة السورية، وبنفس الفعالية التي لعب تلك الورقة بها في استدراج مصر إلى شرك ١٩٦٧ ففي تلك المرة، حشدت إسرائيل قوات ضخمة على حدود سوريا وأطلقت تهديدات ضد النظام السوري على ألسنة كبار المسؤولين الاسرائيليين، إلا أن الحشود الاسرائيلية الضخمة على الحدود السورية «ذابت فجأة» كما قالت الصحف المصرية داتها آنئذ، بمجرد أن بدأ عبد الناصر يتورط جدياً في غمار العملية التي وصفها الفريق أول محمد فوزي بأنها عملية «قصد بها التهويش». فاسرائيل لم تكذب تتأكد من أن المصريين قد استدرجوا إلى الشرك فعلاً، حتى بدأت قواتها على الحدود السورية «تذوب».

وفي حرب ١٩٧٣، استخدم نفس الأسلوب في استدراج المصريين إلى شن الهجوم الخاسر الذي عارضه رئيس الأركان المصري والقادة الميدانيون معارضة بالغة الشدة لم تجد شيئاً في وجه «القرار السياسي» الذي اتخذه، بطبيعة نوع الحكم وبطبيعة النظام، فرد واحد، هو «السيد الرئيس».

«عقد اجتماع للقيادات، تعرضت انا وقائدا الحيشين الثاني والثالث إعتراضاتنا على الخطة، لكن وزير الحربية مرض سلطته ورفض الاصغاء لأي اعتراض مردداً «إن القرار قرار سياسي». فلم يعد امامنا إلا أن نطيع، وكان التنازل الوحيد الذي قدمه تأخير موعد بدء الهجوم من صباح اليوم التالي ١٣، إلى يوم ١٤ أكتوبر/ تشرين الأول وكانت النتيجة ما توقعناه فقد بدأ الهجوم مع أول ضوء في الصباح الباكر من يوم ١٤، وبحلول ظهر ذلك اليوم، كان قد دحر، وأمرت قواتنا بالعودة إلى رؤوس جسورها بعد أن خسرت ٢٥ دبابة، أي أكثر مما كنا قد خسرياه في الحرب كلها حتى ذلك الوقت، بينما لم تتجاوز خسائر العدو ٥٠ دبابة. والآن، بعد ست سنوات من هذه الأحداث، ما زالت عاجزاً عن اكتشاف السبب في شن ذلك الهجوم لقد كان قرار شن الهجوم، بطبيعة الحال، قرار الرئيس السادات ولا أحد غيره وقد ظل بعد ذلك يدعي أنه ما شن ذلك الهجوم إلا ليخفف الضغط على الجبهة السورية وهذا هراء فارغ

«فمصر لم يكن يسعها أن ترغم إسرائيل على تحويل مواردها من الحولان إلى سيناء إلا إذا شكلت القوات المصرية خطراً حقيقياً على أمن إسرائيل ولم يكن لدى قواتنا في أي وقت مثل تلك القدرة فقد كانت هناك مسافة أكثر من مائة ميل من الصحراء المكشوفة بين رؤوس جسورها وحدود إسرائيل وبفضل التفوق الجوي الاسرائيلي كانت تلك الأميال المائة غير قابلة للعبور ولقد كانت هذه النقطة حوهرية إلى الحد الذي جعلني أوضحها بمنتهى القوة في أول اجتماع لي بمجلس الدفاع العربي المشترك في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧١، وكانت من الموضوع بحيث سلم بها المجلس. وهذا قيد خطير على القدرة المصرية، لكنه سيظل قائماً طالما ظلت سيناء محتلة أو منزوعة السلاح وظل الاسرائيليون متمتعين بالتفوق الجوي

«ولكن، ألم يكن بوسعنا، رغم ذلك، جعل إسرائيل تحول مدرعاتها من الحولان إلى سيناء» كلا لأن إسرائيل، بالوئعها المدرعة النصار في سيناء كان لديها ما يكفيها لاحتواء أي هجوم مصري (كما ثبت من اندحار الهجوم الذي أمر به السادات)

«كما أن توقيت الهجوم ذاته لا يتفق والعذر الذي تعلل به السادات فبحلول ١٢ أكتوبر/ تشرين الأول، كان الموقف على الجبهة السورية صائراً بالفعل إلى التوارى والاستقرار هابتداء من ١١ أكتوبر/ تشرين الأول، كانت مرقطار عراقيتان - إحداهما مدرعة والأخرى آلية - قد بدأتا تشاركان في المعركة، كما أن وصول لواء مدرع أردني، ما لبث أن تبعه لواء آخر فيما بعد، رود السوريين بدعم إصالي

«وأيا كانت الحال، فالسؤال في النهاية يظل أن كان الغرض حقاً مساعدة السوريين لم لم نسحب الفرقتين المدرعتين الحادية والعشرين والرابعة إلى مواقعهما كاحتياطي على الضفة الغربية للقناة بمجرد أن فشل الهجوم»

«لا مهرب من القول بأنه لا بد وأن هناك تفسيراً آخر للقرار الذي اتخذه الرئيس السادات وعلم ذلك عند السادات وحده»^(١١).

والتفسير كان ينبغي أن يكون واضحاً للفريق الشاذلي. فهو الذي اكتوى بنار ذلك «القرار السياسي» المدمر، وهو الذي كانت خططه الموضوعية سلفاً كفيلاً باحباط النتائج «السياسية» التي ترتبت على تنفيذه، وهي النتائج التي عني السادات بالآلا يبددها فامتنع عن تنفيذ خطة تدمير الجيب الاسرائيلي بحجة أن كيسنجر هدده بأن «أميركا» ستضرب مصر إذا ما جرؤت مصر على تدمير ذلك الجيب «الذي كان هناك إجماع على استطاعة القوات المصرية أن تدمره» كما قال محمود رياض.

وبقدر كبير من الولاء (للزعيم، لا لـ «الوطن المفدى») أخذ موسى صبري، الصحفي المصري، على عاتقه الدفاع عن السادات وتنقية سمعته من وصمة ذلك الثقب الذي أحدثه له أريل شارون في قلب مصر

حتى تعود مهرومة وتخضع. وابتداءً، ألقى موسى صبري بالتبعة على «القائد المحلي الذي أبلغ القيادة العامة بأن الدبابات التي قامت بالاختراق ٧ فقط وأنها في حالة إغارة وأن الأمر ليس عبوراً (إختراقاً) وقال أنه سيتعامل معها ويدمرها» ويقول «ومن هنا بدأ الخطأ»^(٢٢).

فباستماتة غريبة، حاول موسى صبري أن ينفي التهمة عن السادات، وذهب في ذلك إلى حد قلب الحقائق، فقال انه «كان من رأى سعد الشاذلي وجوب سحب جزء من قوات الضفة الشرقية لتعود إلى الضفة الغربية للاشتراك في تدمير (القوات الاسرائيلية) بالثغرة «أي بعد الواقعة، بدلاً من أن يشير إلى أن الشاذلي كان قد اصطدم بعنف مع أحمد إسماعيل كيما يعيد الفرقتين المدرعتين إلى غرب القناة قبل أن يبدأ الاختراق الاسرائيلي، ولم يخطر له أن يتساعل، ما دام هجوم ١٤ أكتوبر / تشرين الأول قد أحبط، فيم كان إبقاء الفرقتين شرق القناة بدلاً من إعادتهما إلى الخط الثاني غرب القناة وفي معرض الدفاع عن السادات، عمد موسى صبري إلى تصوير خلاف الشاذلي مع «قرار السادات السياسي» ومع الخطة التي وضعها أحمد إسماعيل على أساسه وانتهت بتمكين العدو من القيام باختراقه كما لو كان خلافاً بين ضابطين هما أحمد إسماعيل وسعد الشاذلي قال أن «الخلاف بينهما قديم وبدأ في الكونغرس»^(٢٣) وقال أن «أحمد إسماعيل أوغر صدر السادات على سعد الشاذلي بسبب كراهية أحمد إسماعيل للشاذلي»^(٢٤) وفي النهاية، يقول.

خلاصة الموقف أن تطوير الهجوم كان ضرورة متفقاً عليها. إن مسؤولية الفشل في مقاومة الثغرة تبدأ من المعلومات غير الدقيقة التي أرسلها القائد المحلي أن رأى الشاذلي بالانسحاب إلى الغرب (رغم أن الشاذلي لم يطلب انسحاباً إلى الغرب، بل طلب من قبل الاختراق بتقوية دفاعات المؤخرة على الضفة الغربية للقناة باعادة فرقتي المدرعات اللتين سحبتهما من الخط الثاني للاشتراك في «التطوير» إلى الخط الثاني، ولما فشل هجوم السادات المطور لم تعد الفرقتان إلى ذلك الخط) كان من الممكن أن يسبب كارثة انهيار في معنويات القوات المصرية التي انسحبت مرتين قبل ذلك، في ١٩٥٦ وفي ١٩٦٧

«ولانقاذ ذلك كله كان القرار الشجاع من أنور السادات بوقف إطلاق النار عالمياً وتم وقف إطلاق النار الفعلي في ٢٦ أكتوبر / تشرين الأول كما ذكرت وبدأت مباحثات الكيلو ١٠١ باتصال مباشر بين القاهرة وواشنطن. إلى أحرمما حرى وحصر كيسحصر إلى مصر ومدات العلاقات تسوء بين مصر والاتحاد السوفياتي»^(٢٥)

فلندع موسى صبري وولائه الشائنه لزعيمه الذي أعطاه مكانة هيكل في النظام، ولنلق بسمعنا إلى هذا الكلام الذي ورد في بحث ادجار أو بالانس في «الندوة الدولية لحرب أكتوبر / تشرين الأول ١٩٧٣» التي عقدت بالقاهرة في الفترة من ٢٧ إلى ٣١ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٥.

«في يوم ١١ أكتوبر / تشرين الأول ١٩٧٣، إطمأن الاسرائيليون إلى استقرار وضعهم على الضفة السورية، فأعطوا الأولوية للنشاط الجوي على جبهة قناة السويس وبدأوا يحركون قواتهم ودباباتهم وعتادهم الحربي صوب الجنوب (صوب الجبهة المصرية، مما يلغي حجة، تطوير الهجوم يوم ١٤/١٠ لتخفيف الضغط على الجبهة السورية)، وهناك إنتظروا بضعة أيام كانوا خالوها يراقبون المصريين وهم ينقلون مدرعاتهم، ومن بينها جزء من احتياطيتهم الاستراتيجية (الفرقتين المدرعتين اللتين اعترض الشاذلي على نقلهما وطالب بالحاح بإعادتهما إلى غرب القناة) إلى الضفة الشرقية وبعد أن انتهت معركة الدبابات التي دارت يوم ١٤/١٠ والتي يقول الاسرائيليون أنهم انتصروا فيها، إنتهت حساباتهم إلى أن المصريين لا ينوون القيام بأي تحرك آخر شرقاً. «وبدا الجسر الجوي الأميركي يوم ١٤/١٠، ونقل إلى إسرائيل كميات هائلة من العتاد العسكري وفي اليوم السابق ١٣/١٠ كان الاسرائيليون قد تلقوا التقارير والصور التي جمعتها طائرتا التجسس الأمريكيتان بلاك بير واس آر - ٧، اللتان حلقتا فوق منطقة القناة، وبيّنت تلك التقارير والصور وجود منطقة بامتداد حوالي أربعين كيلومتراً كادت تكون خالية تماماً من القوات بالضفة الغربية للقناة على جانبي الدفرسوار تقابلها على الضفة الشرقية منطقة مماثلة (أي تكاد تكون خالية تماماً من القوات والمدرعات) وأن كانت أضيق منها اتساعاً وبفضل هذه الأوضاع وبفضل المعلومات التي توافرت للاسرائيليين عنها، كفت الأركان العامة الاسرائيلية عن معارضتها لعملية «الغزالة» (التي كانت موضوعة معدة) وأصدرت أوامرها إلى الجسرال شارون وفرقة من الاحتياط المسماة بـ «مجموعة العمليات ٤٥» يوم ١٥/١٠، وكانت مرابطة في «الطاسة» بألويتها المدرعة الثلاثة ولواءيهما المظليين، بفتح الطريق الترابي المعتد من الطاسة إلى الدفرسوار، وإبقائه مفتوحاً، ثم الاستيلاء على مساحة من الأرض على الضفة الشرقية للقناة عرضها أربعة كيلومترات، وعبور القناة، والاستيلاء على مساحة مماثلة تتخذ كراس حصر

على الضفة الغربية للقناة، حتى يتسنى لفرقة أخرى، «مجموعة العمليات ١٢١»، بقيادة الحبرال أدان أن تواصل التقدم منه

• وفي الساعة ١٠ من يوم ١٦/١٠، بدأ رجال شارون يعبرون القناة في روارق من المطاط، وسرعان ما أصبح لهم على الضفة الغربية للقناة ما يقرب من مائتي حندي وست عربات مصفحة وفي الساعة ٦:٠٠، بدأت تصل دبابات اللواء الثالث وفي الساعة ٧:٣٠، كانت معظم دبابات اللواء قد نقلت بالمعديات عبر القناة، وبذلك وصل عدد الدبابات على الضفة الغربية للقناة إلى ٣٠ دبابة وكان وصول الاسرائيليين إلى الضفة الغربية للقناة بدون مقاومة، لكن المصريين أطلقوا عليهم بعد وصولهم نيران المدفعية، ولذلك امتدوا عن القناة واتجهوا إلى المناطق الريفية المحاذية حيث احتسأوا بين الأشجار وفي الحقول فلم تكشفهم طائرات الاستطلاع المصرية التي حلفت فوق المنطقة في وقت لاحق من نفس اليوم ويقول الحبرال شارون، الذي سقط من رحاله ٢٠٠ أثناء نزولهم إلى شاطئ الضفة الغربية للقناة (سيران المدفعية المصرية) أنه دمر أربعة مواقع صواريخ سام مفتوح بذلك ثغرة في شبكة الدفاع الجوي المصري لتدخل بها الطائرات الاسرائيلية

«وقد ظن المصريون أن عملية العبور الاسرائيلي ليست إلا غارة فدائية وتباطأوا في نقل أخبارها إلى القيادة العامة، حتى أن الرئيس السادات لم يكن لديه علم بها وهو يلقي خطابه في مجلس الشعب يوم ١٦/١٠ وقد تعمدت جولدا مائير، رئيسة وزراء إسرائيل، تأجيل خطابها في الكنيست إلى الساعة ١٦:٠٠، وهو الموعد الذي كان محدداً لنزول القوات الاسرائيلية على الضفة الغربية للقناة، وعندما بلغ الخمر المشير على إسماعيل في النهاية قال إن التقرير الذي بلغه تحدث عن «تسلل ٣ دبابات إسرائيلية»، وقد قال لي فيما بعد أنه أمر وقتها بأن تتعامل مع الدبابات الثلاث ككتيبة من الصاعقة ولم ينزعج الرئيس السادات عند سماعه لهذا الخبر لأنه طمأن أن ادعاء جولدا مائير كان حيل من حيلة الحرب النفسية الهدف منها جعله يعتقد رباطة حاشه (١)». ولم يتنبه المصريون إلى خطورة الموقف إلا في ١٨/١٠ بعد أن كانت أعداد كبيرة من الطائرات الاسرائيلية قد بدأت تقصف القوات البرية المصرية متسللة عبر الثغرة التي أحدثت في شبكة الدفاع الجوي المصري (وبعد أن كانت قوات شارون قد أحدثت تصد نيرانها على مؤجرة القوات المصرية، عبر القناة، من الضفة الغربية، على الضفة الشرقية) وبعد أن تمكن الاسرائيليون من تجميع حسر ريته خمسمائة طن وجره بعشر دبابات مسافة ٢٠ كيلومتراً تقدمتها لتعبيد الطريق أمامها ست بولدوررات، وإقامته على مياه القناة لتتدفق الدبابات الاسرائيلية عبره) واحد المصريون يقصفون سيران المدفعية رأس الجسر الاسرائيلي (الذي أقيم في مؤجرتهم) والذي كان أخذاً في الاتساع والترسح طوال الأيام الثلاثة أو الأربعة التالية حتى وصل إلى حوالي ٢٥ كيلومتراً عرضاً و١٨ كيلومتراً عمقاً وفي يوم ١٩/١٠، أصبح لدى الاسرائيليين على الضفة الغربية للقناة أربعة ألوية مدرعة ولوائين مطلين وقد تعرضت هذه الألوية للقصف من جانب المصريين، كما أن الطائرات المصرية دخلت مسرح المعركة (أخيراً) وقامت في ذلك اليوم والأيام التالية بأكثر من ثلاثة آلاف طلعة صد الثغرة

وفي ليلة ٢١/١٠، سحب المشير إسماعيل بعض عناصر شبكة الدفاع الجوي من منطقة الضفة القناة. وعلى الضفة الغربية للقناة كان قد أصبح هناك افتقار للسيطرة والقيادة، ويبدو أن المستويات العليا من القيادة المصرية أصيبت بحالة شلل وسحب معظم القوات المصرية إلى أرض مرتفعة تبعد عن (عرب) القناة مسافة تتراوح بين ٣٠٠٠ و٤٠٠٠ متراً، وراح المصريون يراقبون الاسرائيليين دون أن يطلقوا النار عليهم. وفي ذلك الوقت كان قد بات لدى الاسرائيليين على الضفة الغربية للقناة ما يقرب من ١٢ لواء، سبعة منها مدرعة، وأربعة ميكانيكية، ولواء من المظليين، بالإضافة إلى أكثر من ٣٥٠ دبابة، وكثير من المدافع والمركبات وفي مطلع يوم ٢٢/١٠، صدر قرار من مجلس الأمن دعا إلى وقف إطلاق النار خلال ١٢ ساعة من صدوره، لكن الاسرائيليين تجاهلوه^(١١)

ويعنينا من البحث أساساً:

- ١ - في ١١/١٠ كان الاسرائيليون قد بدأوا يتحولون بنشاطهم الجوي وحركة قواتهم ودباباتهم وعتادهم الحربي جنوباً، صوب الجبهة المصرية وقد ذكر سعد الشاذلي أن الوضع على الجبهة السورية كان قد بدأ يستقر من ١٢/١٠.
- ٢ - تركز الإسرائيليون في مواجهة المصريين، وأخذوا يراقبون عملية نقل مدرعات الاحتياطي الاستراتيجي، من الضفة الغربية إلى الشرقية.
- ٣ - بدأ الجسر الجوي الأميركي يوم ١٤/١٠، وهو اليوم الذي شن فيه السادات هجومه المطور بحجة تخفيف الضغط عن الجبهة السورية.
- ٤ - نتيجة لنقل الاحتياطي الاستراتيجي من الضفة الغربية للقناة إلى ضفتها الشرقية، خلق السادات أمام الإسرائيليين منطقة مجردة من الدفاعات، وبخاصة المدرعات، بامتداد ٤٠ كيلومتراً تقريباً على الضفة

الغربية والغريب أن منطقة مماتلة، مجردة من الدفاعات، وحدث على الضفة الشرقية التي كانت كثافة القوات المصرية عليها كبيرة وفي وجود ذلك الفراغ المواتي للغاية، أمرت القيادة الاسرائيلية بالقيام بعملية الاختراق وبدأ العبور المصاد من الساعة ١٠٠ يوم ١٠/١٦

٥ - ووصلت القوات الاسرائيلية إلى الضفة الغربية بلا أي مقاومة، فلم يبدأ التعامل معها بالنيران (نيران المدفعية، لا الطيران) إلا بعد نرولها الضفة الغربية للقناة بدباباتها في الساعة ٧٣٠، أي بعد وقت طويل بما فيه الكفاية بعد بدء العبور

٦ - بدأ المصريون كما لو كانوا قد باتوا مومنين منذ بداية العملية ورغم أن العملية كانت عبر القوات المصرية وعبر القناة وفي أرض الضفة الغربية، ظل كل علم الزعامة المصرية بها أنها عملية كوماندوز صغيرة (٣ دبابات حسب ما قال أحمد إسماعيل لكاتب البحث، و٧ دبابات حسب ما سجله موسى صبري) بل ويبدو أن السادات لم يعلم بها إلا من خطة جولدا مائير في الكنيست، فاعتقد أنها عملية «تهويش» وحرب نفسية

٧ - لم يتنبه المصريون إلى خطورة الموقف إلا في ١٠/١٨ بعد أن تكثفت غارات الطائرات الاسرائيلية عبر الثغرة التي أحدثتها قوات شارون في الدفاعات الجوية المصرية يوم ١٠/١٦.

٨ - وفي مواجاة ذلك التكتيف للغارات الاسرائيلية سحبت عناصر من شبكة الدفاع الجوي من الضفة القناة وبدأ كما لو كانت القيادة المصرية قد أصيبت بالشلل

٩ - سحبت القيادة المصرية معظم قواتها بعيداً عن الضفة الغربية للقناة، وراح المصريون يراقبون الاسرائيليين دون أن يطلقوا النار عليهم.

١٠ - أعلن السادات قبول وقف إطلاق النار، «لانقاذ الموقف»، على حد تعبير موسى صبري، وأصدر مجلس الأمن قراراً طالب فيه بوقف الاطلاق، لكن إسرائيل تجاهلته (فلم تنفذه إلا في ١٠/٢٤، بعد أن كان قد اكتمل تطويقها للجيش الثالث، وترسيخ الجيب الاسرائيلي، وكان قبولها له بناء على ضغط أميركي اثر ما اعتبر كانداز سوفياتي بالتدخل عسكرياً)

وانتهت حرب ١٩٧٣ إلى ما جعل في مكنة السادات أن يتجه بقوة وصراحة ووضوح إلى «الحل الأميركي» باعتباره «٩٩ من أوراق اللعبة في يد أميركا».

ولم يكن من الممكن بعد أن قام «صانع الاستراتيجية» أنور السادات بتحريك الأمور بجرأة واقتدار ورباطة حاش إلى الوقع الذي أراد أن تنتهي إليه عملية التحريك، أن ينصاع لرغبة العسكريين المصريين، الذين وضعوا خطة كاملة صدق لهم عليها في ١٢/٢٤، ثم وضعها في جيبه، فينسف الصرح الذي كان قد بناه ليقف فوقه وينادي بـ «السلام»، بتصفية الجيب الاسرائيلي.

ولقد يبدو هذا عريباً. لكن الغرابة تزول متى وضعنا نصب أعيننا أن السادات كان قد قرر من وقت طويل أن يكون «السلام» الذي يجر مصر إليه هو السلام الذي تقبله الولايات المتحدة وبالتالي ترضى به إسرائيل وكانت ضمانته الوحيدة لتحقيق ذلك أن يجر مصر إليه من مركز ضعف كامل، بإفقادها دعم الاتحاد السوفياتي، وبترك الجيب الاسرائيلي في لحمها الحي، وبترك جيشها الثالث محاصراً جائعاً دليلاً، وحتى «سلاح النفط» الذي دعم به العرب مصر، جرد السادات مصر منه بأن أعلن في ١٧ يناير / كانون الثاني ١٩٧٤ أنه «وعد هيري كيسنجر فيما يتعلق بمشكلة النفط العربية، بمعاملة الولايات المتحدة معاملة الدول الأوروبية، أي إعادة ضخ النفط العربي إليها بمجرد إتمام تنفيذ فض الاشتباك على الجبهة المصرية. وكان امتناع الدول العربية عن تزويد الولايات المتحدة بالنفط يتجاوز في تأثيره مجرد الناحية المادية، إذ باتت الولايات المتحدة - بذلك القرار العربي - دولة معادية للعالم العربي مما كان يعرض مصالحها بشكل عام للخطر. وبناء على وعد السادات لكيسنجر، تسرع الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون، فأعلن في خطابه يوم ١٠/٣١/١٩٧٤، عن أن هناك إمكانية لاستئناف ضخ النفط العربي إلى الولايات المتحدة، هو ما لم يحدث، وكان السبب في عدم حدوثه أن الملك فيصل، بعد لقائه مع الرئيس السوري حافظ الأسد في الرياض، إقتنع بضرورة وأهمية استمرار الحظر النفطي العربي إلى أن تقوم إسرائيل بانسحاب مماثل على الجبهة السورية، وبالتالي سارعت الكويت، ودولة الامارات، والدول العربية

الأخرى المتاحة للنفط إلى تأييد الموقف السوري. وكان رد كيسنجر على ذلك الموقف العربي الحازم توجيه تهديد أميركي في ١٩٧٤/٢/٦ إلى الدول العربية، مشيداً بدور الولايات المتحدة في تحقيق إتفاق فص الاشتباك على الجبهة المصرية، وأضاف بأنه إقتنع، بناء على ما قيل له (من السادات) بأنه إذا ما تحققت تلك الخطوات فإن المقاطعة النفطية العربية ستلغى، وأضاف قائلاً إن استمرار العرب في الضغط بسلاح النفط لن يكون له إلا تفسير واحد وهو أنه عملية ابتزاز، مما سيؤثر على تكييف السياسة الأميركية^{١٢١}.

ولقد يبدو من العريب أن يتخلى السادات عن سوريا في عملية مساومات السلم، مما اضطر الرئيس السوري للحوء إلى دول النفط، في حين تعلق السادات - ضد المشورة القوية من قواده الميدانيين ورئيس أركان حربه - برعبته الحارة في «تخفيف الضغط (الذي لم يكن موحوداً) على الشقيقة سوريا كيما يجرّد الضفة العربية للقناة من دفاعاتها، بحجة «تطوير الهجوم»، فكانت النتيجة الوحيدة لشهامته تجاه الشقيقة سوريا، أو ان لم يأخذ بكلمة الشهامه، عبقريته العسكرية في تحريك الجيوش وموارنة الجبهات، أن انفتحت وطلت مفتوحة أمام طلعات الاستطلاع الأميركية ومهارات محلي نتائج الاستطلاع الاسرائيليين مساحة متروعة السلاح على الضفة الغربية في مؤخرة القوات المصرية التي عرت إلى سيناء، ومساحة مثلها مزروعة السلاح على الضفة المقابلة إستمات السادات في إبقائهما كذلك، كأنما انتظاراً لمقدم «العزلة» الاسرائيلية التي وثبت إلى ذلك الفراغ وبقرورها الأميركية المميّنة أحدثت الثقب في قلب مصر

غير أن أي فعل أو إجراء أو تصرف للرئيس المؤمن محمد أنور السادات لا ينبغي أن يثير استغراب أحد، وإلا فلم تظن أن كل تلك الصحف والمجلات والكتب والاذاعات والأفلام قد جعلت منه نجماً عالمياً ورجل دولة عظيماً

(٢/٥) - إستدراج مصر إلى المصيدة

في حتام كتابه الفاجع ذي العنوان الخاطيء، «السلام الضائع»، أورد محمد إبراهيم كامل آخر حديث دار بينه وبين السادات قبيل التوقيع على اتفاقيات كامب ديفيد.

يقول كامل أنه قال للسادات أن الاتفاقيات، وفقاً للمشروع الأميركي لن تؤدي إلى «الحل الشامل»، بل إلى صلح منفرد بين مصر وإسرائيل «بينما تظل الضفة الغربية وغزة والجولان تحت السيطرة والاحتلال الاسرائيلي». وأن ذلك سيؤدي إلى عواقب وخيمة أخطرها عزل مصر، وانعزالها عن العالم العربي، وأن ذلك سيؤدي بدوره إلى إطلاق يد إسرائيل في المنطقة وأنه بدلاً من محاولة التظاهر بحل النزاع العربي الاسرائيلي حلاً شاملاً عادلاً دائماً ليس في حقيقته إلا ترويد إسرائيل بسند مريف خادع يمكنها من اغتيال الضفة الغربية وغزة والقضاء على القضية الفلسطينية تحت ستار حل تلك القضية حلاً كريماً عادلاً، يحسن بمصر أن تمتنع عن التوقيع وتعود إلى العرب وتعمل معهم من خلال جبهة واحدة لا يكون هدفها الحرب هذه المرة بل الحل السلمي.

ويضيف وزير الخارجية السابق أنه قال للسادات «أما إذا كنت تقدر أن ظروفنا، (نحن المصريين)، تحتم علينا التوصل إلى حل مرحلي فوري مع إسرائيل، فلماذا لا تعلن ذلك صراحة، وبوسعك أن تصدر بياناً تقول فيه أن مصر وقد تحملت الشطر الأعظم من التضحيات البشرية والمالية والاقتصادية، من جراء تصديها للعدوان الاسرائيلي على الدول العربية في أربع حروب، قد استنفدت كل إمكانياتها وطاقاتها وجهودها، وأن ظروفها الاقتصادية والاجتماعية قد تدهورت إلى أوضاع لا تستطيع معها المضي في حالة اللاسلم واللاحرب، ولذا فإنها قررت إبرام إتفاق مرحلي مع إسرائيل تنهي بمقتضاه حالة الحرب مع إسرائيل، وأنها ستواصل (في الوقت نفسه) مع بقية الدول العربية والمجتمع الدولي مساعيها السلمية لتحقيق إنسحاب إسرائيل من كافة الأراضي العربية المحتلة وإقامة السلام العادل الشامل في المنطقة.

وطبقاً لما يقوله محمد إبراهيم كامل، قاطعه السادات قائلاً ماذا جرى لك؟ أتريد أن أتعرض لشماتة الاتحاد السوفياتي وحافظ الأسد ومعمر القذافي (وإدعهم) يقولون أن ما ادّعوه على مبادرتي منذ البداية من أنها سعي إلى الحل المنفرد كان صحيحاً؟ ويقول أنه رد على السادات بقوله.

إليك إذا وقعت على اتفاقية على أساس المشروع الأميركي فستكون حلاً منفرداً بكل المعايير ولن تنجح في خداع أحد فتفهمه غير ذلك، وأفضل لنا وأشرف أن نقول ذلك صراحة بدلاً من أن نتستر وراء مسرحية «الحكم الذاتي» كما وردت في المشروع. وإذا فشل في إقناع سيادة الرئيس برأيه، استقال^(٢٢٦). والطريف أن الوزير السابق عني بأن يؤكد بأنه بعد أن فعل ذلك، ذهب إلى فندقه فأخذ حماماً ساخناً.

وكما هو واضح من كلام محمد إبراهيم كامل، كان الخلاف بينه وبين السادات حول الأسلوب، حول النهج، ولم يكن خلافاً على الأساس فالأساس، فيما يحصه وفيما كان يخص السادات وكثيرين غيره ظل «التوصل إلى انسحاب إسرائيل من الأراضي التي احتلتها منذ ١٩٦٧ وإقامة «السلام العادل الشامل» في المنطقة». وحتى عندما تحدث عن استعادة التضامن العربي تحدث عن ذلك في سياق «جبهة واحدة ليس هدفها الحرب بل الحل السلمي».

وواضح من الكلام الذي يقول محمد إبراهيم كامل أن السادات رد به على مناقشته للموقف أن المسألة، فيما يخص السادات، كانت أهم وأخطر بكثير من سلام أو حرب أو عرب أو قضية فلسطينية أو مصريين، كانت مسألة كرامة وماء وجه وعدم إعطاء الفرصة للاتحاد السوفياتي وحافظ الأسد ومعمار القذافي للشتمات وكثرة القيل والقال وبطبيعة الحال، تستحق الأمم التي تقبل أن تصبح رعية مطيعة لحاكم فرد أن تختزل مصالحها بل متطلبات بقائها مثل ذلك الاختزال القومي الزري المغثي.

وواضح من كلام الوزير ورئيسه أن التفكير في «الصراع» كله ظل دائراً في سياق التصور الذي دخل به النظام المصري ساحة ذلك الصراع من مبدأ الأمر تحقيقاً لمصالحه ومصالح زعيمه، وهو التصور الذي انبنى على أن مصر لم تشتبك في ذلك الصراع دفاعاً عن بقائها هي، بل دفاعاً عن الفلسطينيين والدول العربية الأخرى

ولقد كان تصور إمكان إخراج مصر من ساحة الصراع لتنجو بنفسها وتحل مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية التي تفاقت بفضل النهب الداخلي المنظم لا تحت تأثير كلفة الحروب الخائبة وحدها، تصوراً لا سبيل إلى الأخذ به إلا على أساس التصور الأول القائل بأن مصر دخلت في الصراع لا لتدافع عن بقائها بل لتدافع عن مصالح الغير. فمن الواضح أنه إن كان أحد في النظام المصري قد فطن وسمح للشعب المصري بأن يفطن إلى أن صراع مصر كان أساساً للدفاع عن بقائها، وأن الاشتراك مع الدول العربية الأخرى في الدفاع عن بقائها كان هو أيضاً دفاعاً عن بقاء مصر، لما كان قد أمكن للسادات أو لأي ديماجوج آخر أن يدعي أن مصر بوسعها الخروج من ساحة الصراع لتنجو وتحقق مصالحها وبالمقابل لذلك التشوش في الرؤية، كان هناك - على الجانب المقابل - عامل آخر لم يقل أهمية عن التفوق العسكري، وهو وجود حطة إسرائيلية واضحة المعالم وضعتها المؤسسة الصهيونية، وكان السعي لتحقيق التفوق العسكري وسيلة لوضع ذلك المخطط موضع التنفيذ، وقد تحققت المرحلة الأولى من المخطط حينما قامت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، وتحققت المرحلة الثانية عام ١٩٦٧ باحتلال أراضي فلسطين كلها وتجاوزها باحتلال سيناء والجولان^(٢٢٧).

ومن غير المعقول أو المقبول منطقياً أن يتصور المرء أن النظم الحاكمة في البلدان العربية تجهل هذه الحقائق الأولية وإن كان القادة العرب قد جهلوا شيئاً من ذلك، فقد ذكرهم الملك حسين عاهل الأردن به في الكلمة التي ألقاها بمؤتمر القمة العربي ببغداد بعد إعلان التوصل إلى اتفاقيات كامب ديفيد. وفي تلك الكلمة، تحدث الملك حسين عن «محاولة لإنهاء وجود الأمة العربية كوحدة حضارية»، ونبه الأذهان صراحة إلى أن الخطر الأكبر على بقاء الأمة العربية يظل الخطر المباشر الذي تمثله «الصهيونية التوسعية الزاحفة بعدوانها إلى قلب الوطن العربي مرحلة إثر مرحلة تبتلع في كل مرحلة منها جزءاً جديداً من الأرض العربية وتأخذ في هضمه وتشريد (أو تصفية) أهله، وتنتقل من هدف إلى هدف بتخطيط وفعالية» وأشار إلى أن ذلك العدوان التوسعي بدأ بافتراس الأرض الفلسطينية وشرد من شردها العربي، (واستعبده) من لم يشرده (حتى الآن) تحت احتلاله، ثم امتد إلى أجزاء أخرى من الأرض العربية المحيطة بفلسطين» وقال العاهل الأردني أنه «بات واضحاً، خاصة بعد احتلال إسرائيل لجنوب لبنان، أن بوسع إسرائيل أن تقوم في أي وقت تختاره بعدوان (توسعي) جديد على أي أرض عربية من أراضي دول

المواجهة أو المناطق القريبة أو أي بقعة عربية»^(٢٢٨).

وليس هناك ما هو أوضح من ذلك

فما هو «السلام» الذي يمكن التوصل إليه مع ذلك المشروع التوسعي السائر في طريقه مرحلة إثر مرحلة بتخطيط وتصميم وفعالية ودعم كامل بالغ القوة من جانب الولايات المتحدة»

قال السادات أن ٩٠ أو ٩٩ في المائة من أوراق العملية في يد الولايات المتحدة وهذا صحيح لأن تلك القوة الأعظم هي القائمة - لا الشريكة أو المساعدة أو المتواطنة أو المتعاطفة - بل القائمة بتنفيذ المشروع كجزء من اندفاعها الذي لا يقف في وجهه شيء إلى جعل كوكب الأرض امبراطورية لها

وبالإضافة إلى البعد الجيوبوليطيقي في المشروع الصهيوني الذي تنفذه الولايات المتحدة في المنطقة العربية منذ اتخذ قرار «تقسيم» فلسطين سنة ١٩٤٧، يظل هناك البعد الأخطر والأهم الذي لا يبدو أن أحداً قد عنى بإمعان النظر فيه وإمعان الفكر في متربباته، وهو أن الولايات المتحدة كدولة لها توجهات امبراطورية توسعية تشمل الكوكب كله، أما الأمة الأميركية فلها، بحانب تلك التوجهات التي لدولتها، رؤيتها التاريخية لنفسها وتصورها الديني للعالم ومنذ البداية، ارتبط نشوء الأمة الأميركية برؤى أنبياء ومخططات كهنة «العهد القديم»، ووصل ذلك الارتباط إلى حد أن «الآباء المؤسسين» عندما فكروا في تصميم رمز للأمة الأميركية اتجه تفكيرهم أولاً، وقبل اختيار أي رمز آخر، إلى راية كان من المفروض أن تمثل موسى وهو يقود «الشعب» خارجاً من أسر المصريين صوب «الأرض الموعودة» وكان ذلك الاختيار منطقياً، ولم يثن «الآباء المؤسسين» عنه ويجعلهم يختارون رمز النسر بدلاً من رمز موسى خارجاً إلى أرض الميعاد إلا البراجماتيكية التي لازمت العقل الأميركي منذ البداية والتي دعت إلى الابتعاد عن اختيار رموز (تفرض) إلى مناظرات خطيرة ولا داعي لها بين مجموعات سكانية انتمت إلى طوائف دينية متباينة المنطلقات وإن اجتمعت كلها تحت مسمى واحد صار - في عصرنا - «الديانة اليهودية المسيحية» (Judaeo - Christian Religion) وهو ما يروج له السياسة والدعاة الصهيونيون الآن بقوة والحاج.

وقد كان اختيار رمز موسى خارجاً بـ «بني اسرائيل» إلى «أرض الميعاد» منطقياً ومطابقاً كرمز يعبر عن هوية الأمة الأميركية لأن الأميركيين، وبخاصة العناصر التطهيرية ذات الأصول الأنجلو ساكسونية الغالبة في بنية أمتهم، رأوا أنفسهم، في سياق توراتي خالص، كما قال كاتبهم الأشهر هيرمان ملفيل (١٨١٩ - ١٨٩١) «اسرائيل هذا الزمان، وشعب الله المختار الجديد، شعبه الأخص الذي حمله بمسؤولية خلاص العالم»، واعتبروا إقامتهم لمستوطنتهم الأولى، «نيو انجلند» على أرض القارة الشمالية، كما قال حكيمهم وقائدهم جون وينتروب (١٥٨٨ - ١٦٤٩) في سنة ١٦٣٠ تنفيذاً «لعهد دخلنا فيه مع الله للقيام ببناء مدينته (صهيون - اورشليم الجديدة) على هذه الأرض، وأعطانا الله حرية وضع بنود ذلك التعاقد معه، وأسبغ علينا نعمته وبركته»، واعتبروا قيام دولتهم، الولايات المتحدة، كما قال جون آدامز، أحد واضعي إعلان الاستقلال ورئيس الولايات المتحدة من ١٧٩٧ إلى ١٨٠١، «تحقيقاً لغاية إلهية». ولم يقف ذلك التداخل للرؤية التوراتية والرؤية الشاملة للشعب الأميركي لنفسه ولدولته عند أولئك الكتاب والحكماء والرؤساء القدامى، بل امتد بقوة إلى قلب القرن العشرين. فهاري ترومان، رئيس الولايات المتحدة من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٣، وصاحب قرار القاء أول قنبلتين ذريتين في التاريخ على هدفين مدنيين، أعلن دائماً أن التوراة تضمنت «الركائز الجوهرية» للدستور الأميركي، وجون كندي، الذي حكم الولايات المتحدة من ١٩٦١ إلى أن اغتيل في ١٩٦٣، أعلن أن «يهوه (إله اسرائيل) هو الذي يحرس الولايات المتحدة ويمنحها قوتها التي لا تقهر».

والسؤال الذي كان ينبغي للسادات أن يطرحه على نفسه، كما ينبغي لكل من يأمل في أن «تحل أميركا الصراع» دون أن يتوقف ليفكر في أن منشأ الصراع هو تحديداً المشروع الصهيوني الذي أخذت الولايات المتحدة على عاتقها تنفيذه في المنطقة العربية، هو مع التسليم بأن ٩٠ أو ٩٩ في المائة من أوراق اللعبة في يد «أميركا»، ما الذي يمكن أن يبرر للسادات أو لأي رجل دولة عربي يتطلع إلى «حل أميركي» للصراع أن يتصور أن «أميركا» على استعداد لتضييع أوراق اللعب الراحبة (the winning hand) هذه من يدها لتحل للسادات أو لغيره مشكلته مع اسرائيل وهي المشكلة التي نشأت وستستمر إلى أن ينفذ المشروع

الصهيوني بأكمله. بتيحة لقيام الولايات المتحدة بتنفيذ ذلك المشروع^١ ولقد كانت مشكلة السادات، الذي لا خلاف على أنه فوق كونه ديكتاتوراً وخليفة ديكتاتور، كان رجلاً تسه أمني - بمعايير ما يسعى أن يتوافر لمن يتصدى لمهمة الحكم من معرفة وما ينبغي أن يوفره لنفسه من متسورة متحصنة - تصور أن نيكسون وفورد وكارتر وكل أولئك الناس الذين قال أنه «زهقت روحه من طول ما استغل معلما لهم» كانوا، بحكم كونهم رؤساء مثله، الحاكمين بأمرهم في «أميركا»، يقولون للشيء كن فيكون. وما دامت «أميركا» ممسكة في يدها بأوراق اللعبة، فلا بد أن تلك الأوراق كانت، في زمن نيكسون، في يد نيكسون، وفي عهد فورد، في يد فورد، وفي كامب ديفيد، في يد كارتر، وفاته تماماً أن كارتر وفاسر وكل «أميركا يا سبحان الله» كانت في يد مناحم بيجين

ولهذا بوعت السادات عندما وجد أن صديقه كارتر لم يستطع أن يقوم بأي عمل جدي في مواجهة «التعت الاسرائيلي»، وفي النهاية، اضطر كارتر أن ينفجر في السادات صائحاً عندما تعثر عند الصياغة العامصة التي فرضتها اسرائيل على عبارة «تقرير المصير» أن المتساكسة في هذه النقطة ستفقده كرسي الرئاسة أو كما أورد القول محمد كامل ابراهيم (It would cost me my chair) وعندها انفجر وزير الخارجية المصري، حسب قوله: «قالا بصوت عال منفعل «أهذا هو رئيس أقوى دولة في العالم» هذا هو القديس الذي كان يدعي أن الدفاع عن حقوق الانسان والمبادئ والقيم هو محور سياسته» إنه ابن كذا وكذا أمن أحل أن يطل رئيسا لامريكا تمانى سنوات بدلاً من أربع يصحي بمصير شعب بأكمله» يا له من تافه حقير^٢

وبطبيعة الحال، كان لوزير خارجية مصر الحق في أن يفعل لكنه أخطأ فهم الموقف تماماً. فكارتير لم يكر حانقا على كرسي الرئاسة فحسب، بل وكان - حسب معتقدات الطائفة التي ينتمي إليها - خائفاً على مصير روحه الحالدة عندما تلتقي بيهوه اله اسرائيل في السماء بعد الموت فيفتترسه يهوه لأنه قصر في القيام بواجبه تجاه مصالح ابن يهوه البكر، وتسعبه المختار، اسرائيل

كما أخطأ وزير الخارجية خطأ آخر أخطر فكارتير لم يضح بمصير شعب بأكمله، إن كان قد عني بذلك الشعب الفلسطيني، بل صحى، بمنتهى راحة الضمير، بمصير شعوب منطقة الشرق الأوسط كلها بإشرافه على استدراج رعيم مصر الحاهل الارعن المغرور إلى مصيدة كامب ديفيد، وعزل مصر وإخراجها من ساحة الصراع وبالتالي رفع العقبة الرئيسية والأخطر من طريق تنفيذ المشروع الصهيوني في المنطقة ويومها، تصنع قط الأرقه موقف رجل الدولة الحكيم، فوضع يده على كتف وزير خارجيته الذي تورط معه، وقال له «أصلك أنت يا محمد مش سياسي»^٣

فهل كان السادات سياسياً، أم كان مقامراً فلاحاً عتسياً دخل الكازينوليقامر، لا بأموال الغير، بل ببقائهم داته، فجرده المقامرون المحترفون من كل ما جاء به معه وركلوه خارجاً؟ لقد أريق مداد يكفي لكي يحري أنهاراً من السواد، حول كامب ديفيد ولقد تجمّع كثيرون من ضاربي الطبول حول مصر فأحدثوا ضجيجاً ثاقب الصوت حول رأسها كيما تنقاد وراء السادات إلى كامب ديفيد وفي كل ما أريق من مداد وكل ما أحدث من ضجيج حول رأس مصر، ظلت لفظة «السلام» تتردد بالحاح

(٥/٢/أ) . ضاربو الطبول

قبيل حرب ١٩٦٧ التي لم يرغب فيها عبد الناصر وكان يعرف جيداً أن مصر لم تكن قادرة على خوض غمارها، استخدم الأميركيون والاسرائيليون بنجاح فائق وفعالية كبيرة كثيرين من ضاربي الطبول أو معاوني الصيادين الذين يتحلقون الفريسة في دائرة كبيرة تضيق حولها باستمرار وهم يتصايحون ويقرعون الصفائح والطبول محدثين من الضجيج ما يفقد الفريسة صوابها ويخرجها من مكعبها ويوجهها صوب الشرك المعد لها وكان أفعل ما أثير من ضجيج حول رأس عبد الناصر الضجيج الذي انصب عبر موجات الاثير في غمار ما دعي وقتها باسم «حرب الإذاعات».

وبعد حرب ١٩٧٢، وقبل زيارة القدس والذهاب إلى كامب ديفيد، بدأ كثيرون من ضاربي الطبول

يمارسون عملهم بنشاط ولم يكن السادات بحاجة إلى من يستدرجه إلى «سلام» كان هو أول مؤمن به وأول «مناضل» من أجله نصلاً وصل إلى حد التواطؤ على أحداث ذلك الثقب المشهور في قلب مصر ألا أن السادات كان بحاجة إلى من يستحثه، ويستحثه بالأكثر على أي «يرمي طوبة» أولئك العرب، ويخرج من الصف بمفرده متحركاً صوب السلام فالسادات كان يريد السلام ويسعى إليه مواصلة لحظ الله يرحمه جمال بعد ١٩٦٧. لكن الأميركيين والإسرائيليين، رغم علمهم الكامل بذلك التوخي المستميت صوب السلام لدى النظام المصري منذ ما بعد ١٩٦٧، كانوا قد عقدوا العزم على أن يكون حني ثمار الهزيمة الماحقة التي كسرت ظهر النظام المصري في ١٩٦٧، توصلوا إلى صلح مفرد يعزل مصر ويخرجها من الوطن العربي ويفتح حدودها على مصاريحها لإسرائيل ويطبّع علاقاتها مع إسرائيل ولقد ساعد على تمكين الولايات المتحدة وإسرائيل من التوصل إلى ذلك الهدف فريق من ضاربي الطبول، كان بعضهم حسن النية تصور أنه من «الواقعيين» والناصحين المحلصين لمصر ولك «القضية»، وكان البعض الآخر محترفاً أزرق الباب.

(٥ / ٢ / ١) - الحبيب بورقيبة ونصيحته

تبرع الحبيب بورقيبة بنصيحة محلصة للسادات عندما زاره في تونس وطبقاً لما يقوله موسى صبري، كانت نصيحة الحبيب إلى الرئيس المصري «أن يتخلّى عن شرم الشيخ لإسرائيل» باعتباره أنه «لا داعي لاستمرار هذه الأزمة الطاحنة إذا كانت قطعة أرض صغيرة ترضي إسرائيل» ولم يكن ذلك رأي الحبيب بورقيبة وحده، بل كان رأي وزير خارجيته آنذاك، محمد المصمودي، أيضاً فقد كان رأي الوزير التونسي (وتونس بلد عربي مستنير بحكم ثقافة مسؤوليه الفرنسية التي يفترض أنها مكنتهم من متابعة مجريات الأمور في العالم وفهمها) أن المشكلة بين مصر وإسرائيل تعقدت إلى درجة لا بدّ من الوصول عندها إلى حل، لكن الحل لن يكون بالحرب لأن مصر عاجزة عن الحرب، ولذلك فإن الطريق الوحيد الذي رآه المصمودي أمام السادات كان إعلان نبذ فكرة الحرب تماماً، وترك الوضع القائم (حالة اللاسلام واللاحرب) على ما هو عليه والتفرغ للبناء الاقتصادي، وعندئذ ستساعده كل الدول، إلى أن تقوى مصر وتقاوم التخلف فيصبح بوسعها أن تحارب وتحرر الأرض وكان الحبيب بورقيبة قد بنى «فلسفته» تجاه المسألة على أساس رؤية بانورامية للأوضاع، العالمية فابتداءً رأي المسألة من زاوية روسيا - أمريكا الاتحاد السوفياتي يريد أن يستفيد من التقدم التكنولوجي الأمريكي لكي يحسن ظروفه داخلياً ويوسع نفوذه خارجياً، وهو أخذ فعلاً في توسيع دائرة نفوذه وتدعيم ذلك النفوذ في مختلف أنحاء العالم، وقد امتد نفوذه الآن إلى الشرق الأوسط عن طريق تقديم السلاح لمصر وغيرها، إلا أن ذلك السلاح لن يوفر لمصر كل ما تريده كيما تتمكن من القتال وعلى أي حال فإن الحرب بين أميركا والاتحاد السوفياتي مستحيلة وفيما يحص مصر، على السادات أن يأخذ في اعتباره أن الموقف الأمريكي واضح في مساندته الكاملة لإسرائيل وقد أصبح معروفاً أن الاتحاد السوفياتي لا يؤيد نشوب حرب جديدة في الشرق الأوسط. ومصر لم تحصل على ما تريده من الأسلحة، وبذا فإن الميزان العسكري ما زال في صالح إسرائيل ولقد أصبحت إسرائيل الآن تشكل خطراً على العالم العربي كله، ولنسوف تحقق حلمها (بالاستيلاء على الأرض) من النيل إلى الفرات وفي مقابل ذلك، ما الذي أوصى به الحبيب بورقيبة؟ أعطى موسى صبري درساً في السياسة على أمل أن يبلغه السادات، فقال له أن السياسة الباجحة هي التهريب والترغيب (العصا والجررة) بمعنى أن تكون لدينا القدرة على توجيه ضربة حربية إلى إسرائيل، تلك هي العصا، وبعدها يكون الترغيب (بجزرة) التفاوض إلا أننا - بكل أسف - ليست لدينا القدرة على التهريب، لأن المقاومة الفلسطينية غير قادرة على مباشرة نشاطها بسبب ما فرض عليها من قيود خوفاً من رد الفعل الإسرائيلي، كما أن مصر لا تستطيع أن تبدأ حرب استنزاف جديدة لأنها ستتحول إلى حرب شاملة بينما الميزان العسكري في صالح إسرائيل. ومن ثم ليس بوسع السادات ممارسة التهريب والترغيب.

وبالإضافة إلى ذلك، يجب على السادات أن يأخذ في اعتباره أن إسرائيل أعدت نفسها عسكرياً

واقتصاديا بحيث تتمكن من التمرّد على أميركا وعصيانها إذا ما باشرت أميركا ضغطاً عليها لصالح العرب متى استخدم العرب سلاح النفط للضغط على أميركا وهذا غير وارد أبداً. فالعرب لن يستخدموا سلاح النفط أبداً لأن الواقع العربي مؤلم ومؤسف. خلافات، اضطرابات، تناحر، صراعات حزبية ومذهبية، تصيفات للدول العربية إلى رجعية وتقدمية وثورية والأمة العربية تغطّ في نوم التخلّف ولذا فإنه ليس من السهل استخدام سلاح النفط العربي. فوق أن أميركا ستنفذ بالتأكيد تهديدها بالاستيلاء بالقوة العسكرية على منابع النفط إذا ما حرمت من حاجتها إليه.

وتأسيساً على هذا التحليل للأوضاع الدولية المحيطة «بالصراع العربي الاسرائيلي»، والأوضاع العربية المؤثرة فيه، أكد الحبيب بورقيبة لموسى صبري أنه «لا أمل عنده على الإطلاق» ونصح بأن يبين للسادات أنه من الأفضل له تسليم شرم الشيخ لاسرائيل والتفرغ بسرعة لمقاومة التخلّف^{١٢٢}.

ومن أسف أن موسى صبري لم يسأل الحبيب بورقيبة. وما الذي يجب فعله إذا لم «ترض اسرائيل بقطعة الأرض الصغيرة، شرم الشيخ، هذه»؟ ما الذي يمكن اعطاؤه لها لترضى؟.

ولقد أورد موسى صبري هذا الكلام في مستهل الفصل الرابع عشر من كتابه، تحت عنوانين منفصلين «قصية الحرب» بصفحة ٢٢٦. وتحتها فهرس بمحتويات الفصل، و«قصية السلام» بصفحة ٣٢٧ وتحتها كلام بورقيبة والمصمودي.

والواضح أن موسى صبري أورد هذا الكلام الذي قال أنه تبديل في أغسطس / آب ١٩٧٣، أي قبل حرب أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٣ بشهرين أو أقل، على سبيل إبراز بطولية السادات في اتخاذ قرار الحرب في الوقت الذي كان العرب يفكرون خلاله بالطريقة التي فكر بها بورقيبة والمصمودي، وتعزيزاً لذلك المعنى، قال في بداية الفصل أن بورقيبة أكد له أنه متشائم، وكرر كلمة التشاؤم عشر مرات، ولما قال له موسى صبري «نحن نستعد للحرب» (ولم يكن من حقه أن يقول ذلك حرصاً على الأسرار العسكرية حتى مع أقرب الناس)، اعتبر الحبيب بورقيبة القول «مجرد نكتة». فتصور أيها القارئ هؤلاء الناس كانوا يعتبرون مجرد التحدث عن الاستعداد للحرب نكتة، بينما الرئيس السادات كان يعمل بنشاط إعداداً لتلك الحرب التي نصح بورقيبة بتفاديها عن طريق اهداء اسرائيل قطعة أرض صغيرة تجعلها تهدأ

غير أن موسى صبري مشكور على أية حال لكونه قد سجل اللقاء. ولا جناح عليه إن لم يقرأ فيه ما يمكن للمرء أن يقرأه، لأن تفكيره انصب على استخدام الحديث في إضافة لمسة أو لمستين بطوليتين مأساويتين للصورة التي حاول مستميتاً أن يرسمها، يعلم الله لم، للسادات.

ولكن، إن كان صبري لم يتوقف عند مغزى ما قيل له، فلنتوقف نحن قليلاً على أمل استجلاء بعض ملامح الرؤية العربية للصراع الذي رجل دولة مخضرم كالحبيب بورقيبة حكم بلداً عربياً له وزنه لسنوات طويلة، ولدى وزير خارجيته.

والمخيف في الأمر حقاً - إن كان موسى صبري قد توخى الدقة في تسجيل ما قاله بورقيبة - أن الزعيم التونسي مدرك لكون اسرائيل تشكل خطراً على العالم العربي كله، بل ومقتنع بأنها سوف تحقق حلمها بالاستيلاء على الأرض من النيل إلى الفرات وفي الوقت ذاته متمسك بوجوب نبد فكرة الحرب واسترضاء اسرائيل بإعطائها شرم الشيخ.

ولو كان موسى صبري مهتماً - كصحفي - باستجلاء أبعاد رؤية للصراع لدى زعيم كبورقيبة ولم يكن كل همه التقاط شيء يستخدمه في تضخيم صورة زعيمه، لكان قد سأل بورقيبة وهل يضمن لمصر اعطاء اسرائيل قطعة أرض لإرضائها وتهديتها، ونبد فكرة الحرب، والإنصراف إلى مقاومة التخلّف، أن تظل اسرائيل هادئة وتترك مصر سادرة في مقاومة التخلّف بهمة ونشاط؟.

وبطبيعة الحال، لم يبالغ بورقيبة فيما قاله عن الفرقة العربية والخلافات والصراعات لكنه ما لبث أن تبين خطأ القراءة التي خرج بها من خبرته بتلك الفرقة. فحرب ١٩٧٣، رغم أنها لم تترك لتكتمل فصولاً، وقلبت إلى نكسة يمكن من بعض الأوجه اعتبارها أخطر وأفظع من نكسة ١٩٦٧، لأن الأخيرة كانت محتومة، أما نكسة «شوية الفراخ الذين خرجوا من العشّة» فحاصروا جيشاً بأكمله وجروا القادة

العمدة يصبح صايح سلام وبحماً عالمياً

المصريين زحفاً إلى الكيلو ١٠١ للتفاوض على انسحاب جديد، لا إلى خطوط ما قبل ٥ يونيو حزيران ١٩٦٧، بل فقط يا أسيادي إلى خطوط ٢٢ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٣، تلك الحرب التي قلبت إلى لا حرب فعلت - برغم كل الجرائم - فعل السحر في العالم العربي وخاب ظن الحبيب بورقيبة، فاستخدم العرب سلاح النفط واستخدموه بكفاءة. ولأول مرة جعلوا الولايات المتحدة تدرك أن لها من المصالح ما يمكن أن يضرب بيد العرب وأثروا من وراء ذلك، وباتوا قوة يحسب لها حساب في العالم، وكان يمكن أن يظلوا كذلك لو لم ينجح عملاء راقدون آخر - كالسادات - في صرب الأوبيك صربة لم تقم منها.

وخاب ظن بورقيبة أيضاً، فلم تستول أميركا على أبار النفط بالقوة العسكرية عندما حرمت منه، بل وسارعت باقتلاع تهديدات الولد اليهودي العفري كيسنجر عندما تمادى فهدد

وما من شك في أن الحبيب بورقيبة وهو يشهد كل ذلك مشدوهاً بعد حرب ١٩٧٣، أعاد النظر في الكثير من تحليلاته، وفطن إلى أن مصر المسكينة، حتى عندما يرأسها أناس كالسادات، مستطبعة أن تقلب موازين كثيرة وتغير مواضع تبدو صلبة عصية على التغيير، بمحرد أن تتلمل قليلاً، وتلقي ثقلها في المنطقة التي هي قلبها وعمودها الفقري ودراعها الضاربة الأقوى ولقد كانت حريمة السادات بتسعة بحق. وعندما يأتي الوقت الذي تتكشف فيه كل أبعادها سيسجلها التاريخ في أسود صفحاته لكن مصر المسكينة مع ذلك تخلصت من سلاسلها لوقت قصير قبل أن تعود فتكبل من جديد، وفي ذلك الوقت القصير أشارت بيد قادرة إلى سبيل الخلاص الوحيد من كابوس الموت البطيء المفروض عليها وعلى الأمة العربية التي هي قلبها سبيل التصميم على الدفاع عن الأدمية والتوحد في قبضة ضاربة يمكن أن تهشم وجوها كثيرة وتغير حسابات ومخططات كثيرة.

أما خطأ بورقيبة الآخر، فخطأ تقليدي لا يلام عليه إذ يشاركه الكل فيه، وقد اتضح في قوله أن «إسرائيل يمكن أن تتمرد على الولايات المتحدة وتعصاها إذا ما ضغطت عليها الولايات المتحدة لصالح العرب» فابتداءً، لن يحدث أبداً أن «تضغط الولايات المتحدة على إسرائيل، لا لصالح العرب، ولا لصالح الأوروبيين، ولا لصالح أحد». وانتهاءً، لن يكون هناك تمرد أو عصيان من جانب إسرائيل تحاه الولايات المتحدة لأنه هل تعصى الذراع الجسم الذي هي طرف من أطرافه؟ الحقيقة أنه إلى أن يأتي اليوم الذي يبدأ المصريون وكل العرب فيه إدراك الحقيقة الماثلة في أن إسرائيل ليست شيئاً والولايات المتحدة شيء آخر، أن إسرائيل ليست دولة حليفة أو صديقة للولايات المتحدة يمكن أن تتمرد أو تعصى أو تصاع أو تمتثل، بل هي امتداد عضوي للجسم الحي للولايات المتحدة، سيظل العرب يقعون في ذلك الخطأ الذي شوه رؤية الحبيب بورقيبة لأبعاد وطبيعة الصراع».

(٥ / ٢ // ٢-أ) - الملك الحسن كفاعل خير محترف

«دات أصيل مشرق شمس، يوم الأحد ٤ سبتمبر / أيلول ١٩٧٧، سافرت في ريارة كان مقدراً لها أن تكون من ثلاث زيارات سرية للعاهل العربي الحسن، ملك المغرب ولم تكن تلك أول مرة يلتقي فيها الملك الحسن بممثلين للحكومة الإسرائيلية، إلا أن مجيء حكومة جديدة إلى السلطة في إسرائيل برئاسة مباحم بيجين جعل من المطلوب تجديد الاتصال وبذا تلقيت دعوة من الملك الحسن لزيارته في المغرب ووافق بيجين على أن أقبل الدعوة، واتفق معي على النقاط التي تطرح خلال الاجتماع بملك المغرب وكان هدفنا الأساسي أن نجعل الملك يساعدنا على ترتيب لقاء مباشر وإجراء محادثات سلام مع ممثلين للحكومة المصرية»^(٣١).

ويحكي ديان بطريقة رواة قصص المغامرات الرائجة في الغرب كيف استعد لذلك اللقاء، وكيف أنه وهو في طريقه إلى المطار العسكري الذي ستقله منه طائرة إسرائيلية حربية إلى باريس، توقف في الطريق، وانتقل من سيارة ستيشن واجون مسدلة الستائر غير له فيها سحنته فريق من أخصائيي الماكياج فحولوه إلى ولد «وجودي» beatnik بشعر كث ومستعار وشارب متأنق وعوينات داكنة لإخفاء ماركته المسجلة، ثم كيف وصل إلى باريس فأقلع منها على متن طائرة مغربية حملته هو ومن معه إلى فاس وفي أول لقاء، يقول ديان أن الملك الحسن عني بأن يوضح له ولرافقيه أنه لم يكن خائفاً، وأن أحداً لن «يدحرجه» (topplehim) عن عرشه بسبب ذلك اللقاء «لأن لدينا طائفة يهودية كبيرة هنا في المغرب

يحسبي أفرادها كثيراً واعتبرهم أنا من رعاياي المحلصين وأنا على أي حال لا أخفي إتصالاتي باليهود ورعيتي الصادقة في استتباب السلام بين الدول العربية وإسرائيل» ورغم ذلك، لم يخل اللقاء من مخاطر، فقد قال الملك لزواره الاسرائيليين أنه «جازف في الحقيقة مجازفة بلقائه مع أعضاء في الحكومة الاسرائيلية» لأن المرء لا يجب أن ينسى أن لواء معربياً قاتل في صفوف السوريين ضد الاسرائيليين على مرتفعات الحولان

ويقول ديان أنه شعر بالحيرة في فهم موقف الملك ودوامه «فبعد أن قدم الملك هذه التفسيرات (المتناقضة) لم استطع أن أتبين بحلاء وجود سبب خاص - أن كان هناك سبب - يجعل الملك مهتماً بأن يأخذ على عاتقه مهمة السعي صوب السلام لأنه، بعد كل شيء، لا وجود هناك لأي محاسبة بين المغرب وإسرائيل. والإنطباع الذي تكوّن لديّ كان أن الملك إهتم بذلك لأنه، بطبعه، فاعل حير محترف (do-gooder) «^١ وتربيته غربية ويصيف ديان قائلاً أنه، وقد قام بالزيارة لحس بض الملك فيما يتعلق بإمكان قيامه بدور «الواسطة» بين الحكومة الاسرائيلية وحكومة السادات، تبن منذ بداية اللقاء أن الأمر لم يكن يتطلب جس نبض ولا أي جهد من حاسبه «فالملك نفسه هو الذي قال لنا أنه تطلع إلى هذا اللقاء ليسمع مني مباشرة أرائي فيما يتعلق بالقضية الرئيسية الحاسمة في الشرق الأوسط، وهي «كيف نصنع السلام»^٢ وكان ردي أننا لاقي متعاقب في ذلك بسبب المجموعات العربية المختلفة فيما بينها حول النهج الذي ينبغي انتهاجه صوب تلك الغاية فهناك مثلاً السوريون وفيما يخص هؤلاء، ظل اعتقادي القوي أن الرئس الأسد، بسبب راديكاليته، لم يكن في صميم قلبه رغباً في صنع السلام مع إسرائيل، ولم تكن لديه أي رغبة في أن يرى علم إسرائيل مرفوعاً على سفارة إسرائيل في دمشق»^(٣٣)

وشرح ديان للملك الحسن المشكلة المتعبة التي واجهتها إسرائيل بين المشكلتين العربيتين المتناقضتين، وأولاهما أنه لا يمكن أن يوجد بلد عربي واحد لديه الاستعداد لأن يصنع سلماً مع إسرائيل بمفرده، أي بغير أن تشاركه في صنع ذلك السلام الدول العربية الأخرى «فحتى إذا ما أمكن إيجاد حل قابل للتنفيذ، مثلاً، للمشاكل التي بيننا وبين مصر، ستكون مصر عازفة عن توقيع اتفاق سلم منفرد». ومن الجانب الآخر، توجد المشكلة الثانية، وهي أن التوصل إلى سلام شامل في الشرق الأوسط ككل مسألة معقدة تعقيداً بالغاً يجعل من المستحيل عملياً التوصل إلى ترتيبات سلام متزامنة مع كل الدول العربية في وقت معاً والنتيجة أن إسرائيل تجد نفسها، بازاء مسألة صنع السلام هذه، واقعة في حلقة مفرغة

وإد وصل ديان في شرحه للصعوبات التي واجهتها إسرائيل في طريق رغبتها الصادقة لصنع السلام، أوضح للملك الحسن أنه «من الممكن، في رأيي، كسر تلك الحلقة المفرغة والخروج من أسارها عن طريق عقد اتفاق مع بعض الدول العربية، قد لا يكون علنياً في مبدأ الأمر، وليس من الضروري أن يصحبه تبادل سفراء وما إلى ذلك، ثم السعي بعد ذلك إلى مواجهة المشاكل الأخرى واحدة بواحدة إلى أن نتوصل إلى إبرام معاهدات صلح علنية وسلام شامل مع الجميع. وبذا فإن الشكل الذي تتخذه تلك الخطوة الأولى يكون نوعاً من «اتفاق الجنتلمان» يصحبه تبادل رسائل مع الأميركيين توجه من الأطراف إلى رئيس الولايات المتحدة وتلتزم الأطراف بموجبها أمام رئيس الولايات المتحدة بتنفيذ تعهداتها وفقاً للاتفاق».

ورأقت الفكرة للملك الحسن، فيما يقول ديان، واعتبرها فكرة «ذات إمكانات عملية»، إلا أن الشيء المهم بشكل خاص بالنسبة لديان تمثل في أن الملك الحسن، من فرط اقتناعه، «وعد بأن يفعل كل ما في وسعه يرتب لنا لقاء مع شخص يمثل مصر سياسياً. فقلت له أننا نرحب كثيراً بأن يكون ذلك اللقاء على أعلى مستوى، كان يكون مع حسنى مبارك، نائب السادات، أو حتى مع السادات نفسه، إلا أنه أيا كان من يرتب لنا الملك اللقاء معه يتعين أن يكون شخصاً ذا سلطة وأن يكون ملماً بالموضوع. فالذي سيجتمع به، من جانبنا، سيكون رئيس الوزراء، وسأكون أنا حاضراً للقاء».

وعد الملك الحسن ديان بأن يصله رد على ذلك خلال خمسة أيام، وقال أنه سيبعث إلى مصر بمبعوث مؤتمن على الفور لاستجلاء إمكانات التنفيذ، «حتى، إذا ما وافق المصريون، يمكن عقد الاجتماع قبل زيارتي لواشنطن ونيويورك (الحضور دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة)، أو بعد عودتي».

ويبدو أن الفكرة كانت قد تملك حواس الملك الحسن، فقد عاد إليها أثناء مأدبة العشاء التي

حضرها معاونوه ومعاونو ديان، وأشار إلى ما انطوت عليه من إمكانات، وقال أنه متفائل بفرص نجاحها، بل وأعرب عن اعتقاده بأن «الرئيس السوري حافظ الأسد قد يوافق في النهاية على الاجتماع بنا هو أيضاً، ولو أنه أضاف على عجل أن ذلك طبعاً يجب أن يظل طبي الكتمان».

وعندما جاء ذكر الفلسطينيين، فارق الملك الحسن تفاؤله «ففي تقديره، كان سيستحيل علينا التوصل إلى أى اتفاق معهم. وحتى إذا ما أمكن إنشاء كيان فدرالي أردني / فلسطيني، سيكون الفلسطينيون هم الأغلبية فيه وسوف يتخلصون من الملك حسين وبذا فإن أى حل لمشكلة الفلسطينيين في إطار المملكة الأردنية لن يؤدي إلا إلى ضياع العرش، ولذا فإن الملك حسين سيمتنع بكل تأكيد عن الاتفاق على شيء كهذا. وغير ذلك التأكيد، لم يطرح الملك أفكاراً مما دفع ديان إلى التفكير بصوت عال في كتابه قائلاً أنه «بدا واضحاً أن الملك اعتبر نفسه منتمياً إلى «عصبة الملوك العرب» وبذلك بات بهجه فيما يخص هذه المسألة ملكياً بالدرجة الأولى»^٩.

عاد ديان ومن معه إلى إسرائيل، ولم يتأخر ورود الرد المرتقب من مصر «فقد أصدق الملك وعده، وفي ٩ سبتمبر / أيلول، أى بعد أربعة أيام لا خمسة، وصلتنا رسالة منه أوضح فيها أن المصريين وافقوا على عقد اجتماع على مستوى عال، وبأسرع ما يمكن. وكان العرض المصري أن يعقد الاجتماع أما بين الرئيس السادات ورئيس الوزراء بيجين، وأما بين نائب رئيس الوزراء حسن تهامي وبينني.. وكان الرد الذي بعثناه للملك الحسن أن يعقد الاجتماع بين السادات وبيجين إلا أن المصريين ردوا بأنهم إستصوبوا أن يكون الاجتماع على مستوى دون ذلك، وتحدد بذلك موعد لاجتماعي بنائب رئيس الوزراء المصري يوم ١٦ سبتمبر / أيلول، في المغرب، حتى أستطيع أن أسافر بعد ذلك من هناك إلى واشنطن لأجراء المحادثات التي كانت ترتيباتها قد وضعت، مع وزارة الخارجية الأميركية».

التقى ديان بحسن تهامي تحت جناح الملك الحسن الذي حضر اجتماعاتهما. ويقول ديان أن الملك رحب به ترحيباً حاراً في تلك الزيارة الثانية التي جرت في الرباط، في تلك المرة، لا في فاس، وسرّ كثيراً للهدية التي جاءه بها ديان وهي «سيف كنعاني ورأس سهم من البرونز من الألف الثانية قبل الميلاد، وبينما هو يقبلهما في يده، قال له ديان أنه «حتى من قبل اختراع الفانتوم والميج كانت الامبراطوريات تبني بهذه الأسلحة، وأنه بهذه الأسلحة ذاتها أخضع الاسرائيليون الممالك الصغيرة التي كانت في كنعان والبلدان المجاورة في أواخر القرن الثالث عشر ومطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد» والمعنى واضح. فحتى في تلك الأزمنة السحيقة، تمكن «الاسرائيليون» بعد أن أخرجهم موسى من مصر بأربعين سنة، كما أوضح ديان للملك، من إقامة إمبراطورية بالمنطقة على أشلاء الممالك الصغيرة التي كانت في أرض كنعان والبلدان المجاورة، بدون أميركا والفانتوم. وبدلاً من أن يفهم الملك، حاول أن يكون «ديبلوماسياً» فقال لضيفه الذي جاء يذكره بمذابح يشوع في المنطقة قبل قرون «إن هذه الأسلحة تذكارات حروب قديمة أما الآن فقد أن الأوان لصنع السلام»! وربما لم يكن الملك الظاميء إلى السلام قد سمع بأن بن جوريون كان كلما خطب في «قوات الدفاع» الاسرائيلية، خاطبها بقوله «يا أسود إسرائيل! أعيديوا أمجاد يشوع بن نون»! وربما أيضاً، إن كان ذلك قد بلغ مسامعه العلية، لم يعن كثيراً بأن يستوضح هوية يشوع بن نون ذاك، بالأقل لكي يقف على تلك الأمجاد التي صنعها قديماً، وجاء ديان إليه بالسيف ورأس السهم ليذكره بها، ولم يكف «أسد يهوذا» بن جوريون عن حث أسود إسرائيل عن إعادتها في المنطقة. لكن هذه، كما رأى جلالته، كانت «تواريخ قديمة» والآن وقد بات الكل متحضرين وفي حضن الولايات المتحدة فقد أن أوان السلام.

وقد كان ملك المغرب في الواقع سعيداً سعادة غامرة بدوره كصانع سلام. فبعد أن قدم حسن تهامي إلى ديان بوصفه متمتعاً بثقة الرئيس السادات الكاملة^(٩)، أوضح للجميع أن «هذه الاتصالات المباشرة لها

(*) يقول موسى صبرى - في معرض التحدث عن خزانة عبد الناصر - أن السادات قال له «حسن تهامي هو الذي اشترى الخزانة. وهو رجل دوغري مثل حد السيف وكان أحرأ شخص في الصباط الأحرار. وهو الذي تسلق المواسير في منزل حسين سرى عامر ودخل وضرب عليه وعاد إلى السيارة ولما عرف أن الرصاص لم يصل إلى حسين سرى عامر، عاد وتسلق المواسير مرة أخرى ودخل غرفة نومه رغم أن زوجته صرخت وحصلت زينة ودربة ثم عاد إلى السيارة من المواسير مرة أخرى وأخذ عبد الناصر واحتفياً بالسيارة حسن رجل =

أهمية عظمى فالاتفاق لا سبيل إلى التوصل إليه إلا عن طريق لقاءات عمل ينبغي أن تعقد على أعلى مستوى من الآن فصاعداً، وبه كلاً من ديان وتهامي أن عليهما «تمهيد الطريق كيما يأتي السادات ويتحدث إلى بيجين» وبصح ديان بأن يحرص قدر المستطاع على تصييق دائرة من يعرفون بأمر الاتصالات حرصاً على السرية، وألا يأتي معه بمعاونين إضافيين في الزيارة المقبلة.

ويصيف ديان قائلاً أن الملك، في ذلك اللقاء التمهيدي الذي رتبه بين مصر وإسرائيل، أوضح أن «أهم مشكلة الآن باتت إعادة أراض إلى أصحابها ذوي السيادة عليها» لكنه عني بأن يقول أيضاً وهو ينظر إلى تهامي أن «تلك الأراضي التي هي الآن في حوزة إسرائيل هي الضمانة الوحيدة التي لدى إسرائيل لكفالة أمنها، وبذا فإن ضمانات بديلة يجب أن تتوافر لإسرائيل بالاتفاق المتبادل. كما أنه يجب إيجاد حل مقبول للقدس وهي المدينة المقدسة للديانات الثلاث، حتى لا تصبح تلك المسألة حجر عثرة في طريق السلام. فالملك، كما نرى، كان عادلاً ونزيهاً، ورجل دولة من الطراز العالمي «الواقعي المستنير» الذي يرى «احتياجات جميع أطراف النزاع» ولا يغفل حاجة إسرائيل إلى ما يكفل لها أمنها في مواجهة العرب»

وقد اتضح ذلك بوجه خاص عندما تناول الملك مشكلة الفلسطينيين، فقد أوضح لديان وتهامي أن «هذه أصعب المسائل في القضية كلها، وقال أنه يوافق الجنرال ديان تماماً في رأيه القائل بأنه يحتمل جداً أن يثبت الفلسطينيون أنهم خطر يهدد مستقبل إسرائيل، تماماً كما أنهم يشكلون تهديداً لوضع ملك الأردن. ولذلك فإن هذه المشكلة يجب أن تعالج وتسوى بطريقة معقولة. وتلك الطريقة المعقولة هي أن تتحمل الدول العربية بالمسؤولية الجماعية عن الفلسطينيين، وتقوم بمواصلة الرقابة والإشراف عليهم، وتبتكر من إجراءات الأمن ما يفي باحتياجات إسرائيل ويرضيها. فالمشكلة الفلسطينية، بعد كل شيء، مشكلة عربية، ولذا فإنها يجب أن ينظر فيها وتحل على أيدي البلدان العربية لا على أيدي إسرائيل والولايات المتحدة»

(٥/٢/ب) . الدائنون وبطون الجياح

«في مؤتمر القمة الذي عقد بالرباط قال صدام حسين أنه من غير المعقول أن يطلب من مصر أن تقاتل وتحرر أرض فلسطين وتترك مصر في الوقت نفسه لتموت جوعاً فالعوبة التي استلمتها مصر من الدول العربية على حد علمي لم تتجاوز ٦٥٠ مليوناً من الدولارات، بينما شعب مصر يحتاج إلى ٧٠٠ مليوناً من الدولارات سنوياً لشراء القمح فقط وبحس الآن قد تننا أعلينا لدينا من الأموال ما نستطيع أن ندعم به الحبهات، ولدينا من القدرة ما يمكننا من توفير ذلك الدعم، أما بالنسبة للمعركة، فهنا ترددات مسؤولياتنا، وترداد مسؤولية الدعم الذي يجب أن يقدمه»^(١١١)

ولقد كان صدام حسين بعيد النظر في ذلك، وربما كان وراء ما قال شك فيما كان يعتمل في صدر السادات، وتوقع لأن يغتتم السادات أي فرصة تتاح له ليعقلها ويتوكل منفرداً بحجة أن مصر لم تعد تحتل ويكفيها ما قدمت من تضحيات وما خربته الحروب (إلا الاستنزاف الداخلي) من بنية اقتصادها. والواقع أن كثيرين تعلقوا مصر في تلك الآونة ضاربين طبولهم قارعين صفائحهم مقدمين نصائحهم وحسن نواياهم ومساعدتهم الحميدة وما من شك في أن السادات اعتبر ذلك كله من جانب ضاربي الطبول العرب تأكيداً لنظرته إلى المسألة وهي أن مصر «تكون مغفلة» إذا ما استمرت في الصراع بينما هؤلاء الناس يريدون منه أن يتصالح مع إسرائيل وينهي المسألة. إلا أن السادات كان - كما قال حسن تهامي لموشي ديان أثناء اجتماعه به سراً في الرباط في ١٦ سبتمبر/أيلول ١٩٧٧ تحت جناح الملك الحسن - «جندياً قد احتلت أرضه»، وهو ما قاله السادات علناً في تصريحاته الخطابية، لكن ذلك الجندي كان «جاداً جدية مميتة في سعيه إلى السلام» («Sadat was deadly serious in his quest for peace») ومع ذلك، كان - كما علق موشي ديان - يريد السلام بغير أن يراه أحد اخذاً في الاستسلام، ولذلك فإن كل ما

= شريف وهو الوحيد الذي استبقته معي من كل طابور المستعدين الذين كانوا في الرئاسة ولعلمك حسن من خلية عبد الناصر الشخصية، (موسى صبري ص ٢٧٥).

كان بحاجة إليه هو أن يتلقى وعداً من بيجين، كلمة شرف من بيجين، بأن إسرائيل سوف تنسحب من الأراضي التي غزتها واحتلتها، وإذ ذاك يعتبر السادات أنه قد استرد شرفه كجندي غزيت أرضه واحتلت ويبيت بوسعه أن يتفاوض حول البود الأخرى وكما قال ديان بيرة سخرية، «بالسبة للسادات، كانت «السيادة على أرضه» (الأقواس من عند ديار) غير مطروحة للمناقشة»^(٢٣٤)

ولذلك، ظل السادات، بينما هو يحري اتصالاته السرية بإسرائيل ويعلمها برغبته المستميتة في السلام، متلهفاً على شيء ما يمكن أن يتيح له أن يتظاهر بالغضب وتشدد الانفعال وبأنه قرر - ما دام الجميع يباورون من حوله ليوجهوه صوب السلام، بشروطهم - أن «يسحب السحادة من تحت أقدامهم، ويذهب ليعقد صلحه ويقيم سلامه» بارادة مصر» لا بارادة أي أحد آخر، وبشروطها، لا بشروطهم!

ولا بد أن وراء ذلك الكلام الذي قاله صدام حسين، بقدر كبير من الاستشارة وبعد النظر في الواقع، لقادة العالم العربي في مؤتمر القمة بالرباط، قبل ذهاب السادات إلى القدس بوقت كاف، كان تحليل أوقف القيادة العراقية على أن السادات كان قد إتخذ قراراً ما وكان يتلفت هنا وهناك بحثاً عن تكتة يماحك بها لتنفيذه ولقد كان حرياً بالقيادة العرب أن يصغوا جيداً لذلك الكلام الذي قاله العراق، ويفكروا فيه.

وسرعان ما واثت السادات الفرصة التي كان يتحيتها ولقد يحسن بنا أن نتوقف قليلاً - قبل استيضاح ذلك - عند التسلسل الزمني للأحداث

في ٦ يناير / كانون الثاني ١٩٧٧، قررت الحكومة الاسرائيلية تقديم موعد الانتخابات العامة إلى مايو / أيار.

في ١٨ و ١٩ يناير وقعت حوادث الشغب، التي أسماها السادات «إنتفاضة حرامية»، في مصر بسبب قرار الغاء الاعانات التي تدفعها الحكومة لتثبيت أسعار بعض السلع الغذائية الأساسية.

في ٤ فبراير / شباط، عقدت لجنة «إستعراض السياسات» بالإدارة الأميركية إجتماعاً خصصته للنظر في أوضاع الشرق الأوسط.

في ١٤ فبراير بدأ وزير الخارجية الأميركي سايروس فانس جولة في الشرق الأوسط.

في ١٦ فبراير إجتمع فانس بأسحق رابين، رئيس الوزراء آنئذ، وإيجال اللون، وزير خارجيته، في القدس المحتلة.

في ١٧ فبراير إجتمع فانس بالسادات في مصر

في ٢٠ فبراير إجتمع فانس بحافظ الأسد في سوريا.

في ٢٣ فبراير عقد «مجلس الأمن القومي» الأميركي إجتماعاً خصصه للنظر في أوضاع الشرق الأوسط

في ٧ و ٨ مارس / آذار إجتمع الرئيس الأميركي جيمي كارتر بأسحق رابين، رئيس الوزراء الاسرائيلي، في واشنطن.

في ٩ مارس أصدر كارتر بياناً من ثلاث نقاط رئيسية عن التسوية المطلوبة في الشرق الأوسط تضمنت الكلام عن «سلام حقيقي»، و«حدود آمنة»، و«حقوق للفلسطينيين».

في ٤ و ٥ ابريل / نيسان إجتمع كارتر بالسادات في واشنطن.

في ١٩ ابريل عقدت لجنة إستعراض السياسات الأميركية إجتماعاً آخر خصصته للشرق الأوسط.

وقبل أن يبدأ هذا النشاط المكثف، كان هناك نشاط آخر يجري على الساحة الاقتصادية، وكان نشاطاً مواتياً للغاية لما كان السادات يفكر فيه. وكان التخطيط لذلك النشاط قد بدأ في واشنطن، وعهد بتنفيذه للبنك الدولي. وبالحقيقة، لم يكن في ذلك التخطيط جديد. فقد استخدم فيه بقدر كبير من الغلظة والعنجهية نفس أسلوب صندوق الدين الذي كان المرابون والصيارفة اليهود قد استخدموه مع مصر أيام الخديوي. كانت مصر في ورطة إقتصادية عزيت بطبيعة الحال إلى كل تلك الحروب التي خاضتها مصر «دفاعاً عن الفلسطينيين»، ولم يشر أحد فيما يخصها إلى النهب والتخريب الداخلي على أيدي المحتلين الداخليين الذين لم يعنوا كثيراً بحسن رعاية البقرة التي ظلوا يحتلبونها بلا رحمة. وكمسكن وقتي، سعت مصر إلى قرض قميء من البنك الدولي تصرف الولايات المتحدة أضعاف قيمته في منح وهبات

لإسرائيل ٢٠٠ مليون دولار وبطبيعة الحال، سارع خبراء البنك بدراسة الموقف، وجاءت توصياتهم واضحة وقاطعة لا سبيل إلى اقراض مصر ذلك المبلغ ما لم توقف الاعانات التي تدفعها لتثبيت أسعار بعض السلع الغذائية الأساسية

«في اجتماع لمجلس الوزراء الذي شكل في ابريل / نيسان ١٩٧٥ وتصمى خطاب رئيس الجمهورية بتكليف ممدوح سالم بتشكيله تكليفاً محدداً للحكومة بـ «رفع المعاناة عن الجماهير، وتثبيت الأسعار، ومقاومة الفساد»، تكلم الدكتور عبد المعيم القيسوي (رئيس ما سمي بـ «المجموعة الاقتصادية» وقتئذ) عن ضرورة إلغاء الدعم (الذي يدفع لتثبيت أسعار بعض السلع) إستجابة لقرار من البنك الدولي بعدم الموافقة على اقراض مصر ٢٠٠ مليون جنيه (دولار) ما لم يلغ ذلك الدعم وقال القيسوي ان المركب بدأت تميل من الناحية الاقتصادية ويمكن ان تغرق، وأنه لا مهرب من اتخاذ قرار إلغاء الدعم، وحدد القيسوي السلع المطلوب إلغاء الدعم فيما يخصها ومنها سلع تموينية (أساسية)

«ثم عاد القيسوي فردد الكلام نفسه في جلسة أخرى و اضاف في تلك المرة إلى ما قاله قبلاً أن المشكلة أيضاً مع الدول العربية التي قررت الكف عن دفع أية مساعدات لمصر إلا بعد استشارة خبراء من البنك الدولي وبدأ الوزراء يباقشون واعتصت الدكتور عائشة راتب وقال سيد فهمي أن هذه وزارة شكلت لكي تثبت الأسعار، فكيف يفاحا الناس بعد شهرين برفع الأسعار، وحذر من أن ذلك يؤثر على الوضع الأمني ولم يتكلم ممدوح سالم رئيس الوزراء

«ثم اثير الموضوع في جلسة ثالثة لمجلس الوزراء ويقول سيد فهمي «لقد شعرت بالقلق، وتوجهت إلى مكتب ممدوح سالم رئيس الوزراء وصارحته بانني ارى جواً غريباً وخطراً وسألته كيف يمكن أن يواجه الشعب هذه القرارات» فاجابني ممدوح سالم سائلاً «الم تلاحظ انني لم اتكلم»، فقلت «نعم، ولكن لماذا؟» فقال لأن القيسوي قد اقنع الرئيس بأنه لا مهرب من اتخاذ هذا القرار، ولم تنته المناقشة بيننا إلى شيء..

«ولقد جرى كل هذا بضعة سرية، ولم تتسرب اخباره إلى الصحف، إلى أن التقيت صدفه بممدوح سالم رئيس الوزراء في فندق الميريديان على مأدبة غداء أقيمت تكريماً لوفد سوداني كان يزور القاهرة، فقال لي ممدوح سالم «إننا مضطرون لإعلان قرارات برفع أسعار بعض السلع»، فقلت «متى؟»، قال «بعد أربعة أيام على الأكثر»، وكان ذلك قبل أن يجلس المدعوون إلى مأدبة غداء وقلت لرئيس الوزراء «الوقت قصير جداً يحب التمهيد في الصحف لدواعي هذا القرار (١)»، فقال «لا مهرب هذا رأى المجموعة الاقتصادية، وهو رأى يقول ان رفع الأسعار ضروري، وقد اقنع الرئيس بذلك، وقد قدرت صعوبة الموقف، لأن الصحف كانت قد ظلت تبشر منذ بضعة اشهر بتثبيت الأسعار

«وعلمت بعد ذلك أن السادات عقد اجتماعاً، وأن الدكتور حامد السايح وزير الاقتصاد والاستثمارات آنئذ تحدث فيه فقال إن إلغاء الدعم ورفع الأسعار إجراء لا مهرب منه ولازم اليوم قبل غدٍ لأن أي تأخير في رفع الأسعار يمكن أن يعرضنا لكارثة إقتصادية، وإذا قل السادات «مادم هذا هو الرأي الفني، وطالما أن التأخير يعرضنا للكارثة، فانا موافق». وكان ذلك في يوم ١٢ يناير/كانون الثاني (١٩٧٥).

والبقية تاريخ، كما يقولون فقد وقعت حوادث الشغب التي وصفها البعض بأنها «إنتفاضة شعبية» وأصر الزعيم الذي يقول موسى صبري أنه «كان في قمة الألم مما يجري» على أنها «إنتفاضة حرامية وحركة بلشفية لقلب نظام الحكم، اضطرت النظام إلى قمعها باستخدام القوات المسلحة»، فقام الفريق أول الجمصي، وزير الدفاع آنئذ، برفع حالة الاستعداد في القوات المسلحة.. لأن الموقف كان يندرج بالسوء، وكان المتوقع أن الأمور ستتطور إلى الأسوأ في اليوم التالي (١٩/١). وقد تطور الموقف بعد ذلك إلى الأسوأ فعلاً، فتلقى وزير الدفاع إشارة رسمية من السادات، القائد الأعلى باعتبار وزير الدفاع والقائد العام مسؤولين عن تأمين القاهرة وحفظ النظام ابتداء من الساعة (كذا). وفي ذلك الوقت كانت الشرطة قد انهكت تماماً وفقدت السيطرة على الموقف بسبب تعدد أمكنة المظاهرات في وقت واحد، وبسبب وجود عدد كبير من قوات الأمن المركزي في أسوان لتأمين السادات. وقد تقرر إقامة جسر جوي (١) بطائرات عسكرية لنقل قوات الأمن المركزي إلى القاهرة، كما تم ذلك بالنسبة لقوات الحرس الجمهوري الموجودة في أسوان. (وواضح من ذلك أن الأمور كانت قد تدهورت إلى حد أن بدأ النظام يعتبر أن تأمين إستمراره أهم من تأمين حياة السادات).

«وقبيل نزول القوات المسلحة أعلن حظر التجول حتى لا يقع هدام بينها وبين المدنيين في الشوارع، وفي الرابعة مساءً نزلت القوات المسلحة لتأمين المواقع في مختلف مدن الجمهورية وتمت السيطرة على الموقف تماماً، وبعد منتصف الليل صدرت الأوامر بسحب القوات، وخاصة الدبابات والمركبات المدرعة والعودة إلى

معسكراتها، واستغرق تنعيد ذلك ساعتين ثم بدأ التعاون بين الحيش والشرطة في إزالة أثار الحرائق بحيث بدت القاهرة في الصباح وكأن شيئاً لم يكن^(١٣١).
بدت القاهرة في الصباح وكأن شيئاً لم يكن! أعاد النظام إقامة الديكورات، وبدأت نشاط عملية إسدال ستار عالم الوهم على حياة شعب مستعبد دفعه الجوع والتلاعب بحووه بالتحكم البعيد من واشنطن عن طريق «خبراء البنك الدولي» إلى الخروج عن دوره التقليدي كـ «رعية مطيعة» فأحدث زلزالاً لنظام الاحتلال الداخلي لم يتس له الخروج منه دون أن يتحطم إلا باستخدام الحيش، مرة أخرى، باعتبار الحيش «آخر سلاح في يد الدولة (=النظام) لحفظ النظام (=للابقاء على حياته)»، كما ذكر موسى صبري^(١٣٢).

ولقد كان من الطبيعي أن يخرج السادات من ذلك الزلزال وقد انتابه دوار وتملكه الخوف مما يمكن أن يفعله به الأصدقاء في واشنطن بالتحكم البعيد. ولقد كانت أحداث ١٨ و ١٩ يناير / كانون الثاني هذه مجرد عينة على ما يمكن أن يفعله أولئك الأصدقاء به والنظام الذي تربع على قمته وبطبيعته الحال، لم يكن السادات قادراً على الرد. فقد أحرق مراكبه مع الاتحاد السوفياتي، وكان ارتماؤه تحت أقدام الأميركيين قد أوشك أن يكون كاملاً. ووقتها لم تستطع موسكو أن تكف نفسها عن الشتمات به، فدعت ما حدث إنتفاضة شعبية، واستدار السادات كحيوان حريح فصب غضبه على من أسماهم قبلاً بـ «بائع البطاطا» أي مرتزقة الالتزام الماركسيين في مصر لكن ذلك الكبح كان كبشاً داخلياً وكان الكل يعرف أنه كبش أعجف هريل وبلا قرون وأن السادات يضخم صورته الهزيلة فيصوره كبشاً بطاحاً خطيراً ليخفي حقيقة ما حدث. فالمصريون الذين أصابته صدمة مفزعة عندما أعلنتهم الحكومة بأنها سترفع أسعار لقمة العيش لأن الخواجات خبراء البنك الدولي أصروا على ذلك لم يكونوا ممن يمكن - بأي قدر من الصفاقة والخيال - اعتبارهم شيوعيين جاحدين كما صورهم السادات كانوا مصريين خائعين كعهدهم، لكنهم زاد عليهم أنهم أصبحوا أيضاً مصريين جائعين، فهاجوا. خرجوا من الحظائر والشقوق التي وضعهم فيها الضباط وأخذوا يصرخون ويدمرون ويحرقون يعوون في الواقع، لأن شبح الجوع - الذي لم يفارقهم أبداً - إقترب منهم كثيراً وأخذ يحلق في وجوههم. فهاجوا وسرعان ما أعادتهم الدبابات والمركبات المدرعة إلى الحظائر والشقوق. لكن الصدمة كانت مروعة لنظام كان قد استنام إلى أنه يمتلك مزرعة لا يمكن أن تتمرد قطعانها. ولذلك صب السادات جام غضبه على «الشيوعيين» وأعلن أنه سيراجع نفسه في الخط «الديمقراطي» الذي كان قد انتهجه معلناً أن «تجربته في الحياة علمته ألا يثق بشيوعي أو بإخواني لأنك مهما عاملتهم بالخير انقضوا عليك في الوقت المناسب»^(١٣٣)، بل واستدار إلى الصحفي البريطاني ديفيد هيرست، وهو بكل تأكيد ليس شيوعياً وليس يسارياً، وليس حتى وردي اللون، فطرده من مصر لأنه كان يستقي معلوماته التي هاجم بها نظام السادات من الماركسيين المصريين!

غير أن كل ذلك كان على سبيل «التفريغ» لشحنة الخوف والغضب. فالذي حدث أن السادات كان قد تلقى إشارة واشنطن وفهم مضمونها جيداً لا تتلأ بأكثر مما فعلت نفذ ما اتفقنا عليه وهذه مجرد عينة.

(٥/٢/ج) . عدة عصفير: تسوية الحسابات والاستسلام لأميركا

وكان السادات في الحقيقة مظلوماً عند الأميركيين، وكان الأميركيون يعلمون ذلك. لكن الاسرائيليين كانوا لا يكفون عن نخزهم بالمهاميز، ولذلك لم يتورعوا عن توجيه تلك اللطمة المدوية لعميلهم الراقد كيما يصحو ويهم إلى التحرك بنشاط، وكيما «يفضها سيرة» فيما يتعلق بجنيف وغير جنيف، وكل أولئك العرب. وكان السادات قد قر قراره على أن يسبق مؤتمر جنيف «بضربة وقائية» سياسية بارعة، إن صح التعبير، بأن يعقد إتفاقية ثنائية مع إسرائيل قبل «هيسة» ذلك المؤتمر، على النحو الذي صرح به موسى ديان أثناء حديثهما في الإسماعيلية يوم ٤ يونيو / حزيران ١٩٧٩:

«تعرف يا موسى؟ أنا أرسلت حسن تهامي ليجتمع بك في المغرب لسبب آخر. فوقتها كان الاعداد لمؤتمر جنيف يجري على قدم وساق، وكانت مهمة تهامي أن يكفل لنا، انتم ونحن، التوصل إلى اتفاق من نوع ما فيما بيننا قبل أن يجتمع المؤتمر»^(١٣٤).

ويقول ديان أنه فهم من الأميركيين في سياق أحاديث خاصة أثناء فترة كامب دايفيد أن «السبب الرئيسي في ريادة السادات للقدس أنه كانت قد رهقت روحه من العرب» وفوق ذلك، فيما قاله الأميركيون له، كانت «علاقة السادات بالشعب المصري علاقة حميمة وكان يشعر بما يشعرون به، وقد شعر أن المصريين رهقت أرواحهم من الحرب وانتابهم طغى إلى السلام - ليس سلام الاستسلام بطبيعة الحال، بل السلام الحقيقي الذي يضع نهاية للصراع مع إسرائيل»، كما قال الأميركيون أيضاً أن «شخصية السادات وتفكيره وحساباته كانت عوامل في عملية صنع القرار لديه» (وهذا طبيعي بالنسبة لمن يصنع أي قرار، اللهم إلا إذا كان المعنى الذي فهمه ديان من الأميركيين ولم يوصله فيما كتب أن السادات كان يصنع القرار على هدي شخصيته هو وتفكيره هو وحساباته هو، بلا أدنى قيمة لتفكير أو حسابات أحد غيره، فبدلك يصير القول مفهوماً)

ويعزز ذلك ما قاله ديان بعد ذلك مباشرة من أن الأميركيين أوضحوا له أن «السادات شديد التمسك باستقلاليتهم، وأنه متى قر قراره على شيء ثابر عليه بقدر عظيم من التصميم» وأنه «لم يكن يقيم ورنأ في ذلك لاختلاف في الرأي من حاسب كبار مستشاريه والمعاونين الأقربين إليه، كما أنه لم يكن يقيم أدنى وزن لآراء ووجهات نظر القادة العرب الآخرين، وأنه لم يكن يبسى أبداً أنه رئيس جمهورية مصر»^(٢٤) وكان التخطيط للصالح مختمراً في دماغ السادات الخصب العامر بتهاويم أحلام يقظة يتحول فيها من قيصر إلى نابوليون إلى هتلر أو موسوليني إلى تاليران في لمح البصر، منذ ما قبل كل ذلك بوقت طويل فأثناء زيارة سايروس فانس له بالأسكندرية في ١١ أغسطس / آب ١٩٧٧، باعت السادات رائره الأميركي بحركة من حركاته المسرحية، فاستحى به جانباً، وكما يفعل باعة الصور البديئة في أزقة المدن، أطلعه على مائتين فانس وقد انتابه الذهول أنه مسودة كاملة جاهزة لمعاهدة سلام بين مصر وإسرائيل. «واستحلف السادات ضيفه الأميركي بكل مقدس لديه ألا يفشي هذا السر الخطير لمخلوق»، ثم جلس وأخذ - من خلال استجابات صيفه لنصوص «المعاهدة» - يسجل بالقلم الرصاص على هوامش المسودة ملاحظاته وتعليقاته كيما يستخدمها في اعداد ردود جاهزة أو نصوص بديله يواجه بها أي اعتراض قد يثيره الاسرائيليون^(٢٥).

وبعد ذلك اللقاء الدارمي بقليل، في ١٩ نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٧٧ ذهب السادات إلى القدس حيث شد على أيدي قادة إسرائيل، وعانق جولدا وتبادل الهدايا معها، ورار نصب الهولوكوست ياد فاشيم، وجلس مسروراً بجوار صديقه مناحم يدلي بالتصريحات لمراسلي وسائط الاعلام الأميركية والعالمية. وبمقاييس العمدة، كان الضابط الفقير المطارد اليوزباشي أنور السادات الذي اعتبره أعضاء مجلس قيادة الثورة دخیلاً وأسماء الزعيم السابق الله يرحمه جمال باسم جحا، قد ضحك أخيراً، وككل من يضحك أخيراً، بدا له أن سيظل يضحك طويلاً. فلم يخطر له لحظتها ببال، وهو في أوج «انتصاره»، أن أحداً سيعدمه فيشفي مصر من وجوده في جسمها لكن رصاصة الرحمة كانت ما زالت على بعد سنوات قليلة، وكانت أبعد ما تكون عن بال الزعيم الذي تفاخر في حديثه مع صديقه موشى بالاسماعيلية قبل انطلاق تلك الرصاصة بقليل بأن «مشكلتي لم تكن مع الشعب المصري، فالشعب المصري يحبني ويثق بي مشكلتي ظلت دائماً مع الدول العربية».

وبمقاييس الزعيم العبقرى المناور الداهية «المخ العظيم»، كان العمدة قد «سحب السجادة» من تحت أقدام الجميع، ورد على ما فعلوه معه بخبطة مسرحية عالمية كبرى وضعت في دائرة الضوء ووضعته في دائرة الظل يقضمون أظافرهم - وربما أصابعهم - غيظاً وكمداً.

فحتى «الأميركان» الذين اعتبرهم دائماً أصدقاءه وسنده وعزّابيه ومرغ لهم وجوه السوفيات في التراب كانوا قد لعبوا معه لعباً غير نظيف في مسألة البنك الدولي وحكاية رفع أسعار السلع الغذائية الأساسية لشعب جائع كان هو وهم يعرفون أنه جائع وقد حاولوا أن يطيبوا خاطره ببعض فتات موائدهم وحاول هو أن يعوضه «بكثير من الديمقراطية عن القليل من الخبز» وكان الغرض استعجاله لتنفيذ تعهداته والتصالح مع الاسرائيليين.

طيب. ها هو قد جاء الى القدس وسحب السجادة من تحت أقدام الأميركيين وكما يقول الأميركيون الذين كتبوا عن خبطة السادات بالذهاب إلى القدس، «أخذ السادات، بتلك الخبطة، زمام المبادرة في مجال النشاط الدبلوماسي على ساحة الصراع العربي الاسرائيلي، وجعل تحرك الولايات المتحدة صوب مؤتمر جنيف تحركاً غير ذى صلة. ووقف المسؤولون الأميركيون يتابعون التطورات بمشاعر اختلط فيها الاحباط

بالإثارة. فبالرغم من أنهم كانوا قد تطلّعوا إلى إختراق ما عن طريق المفاوضات التي ظلت الولايات المتحدة صاحبة الدور المركزي فيها منذ أكتوبر / تشرين الأول ١٩٧٢ (من خلال الثغرة والجيب وكل ذلك) إلا أنهم لم يخطر لهم ببال أن السادات يمكن أن يقدم على هذه الخطوة بالغة الجرأة ولكن ما هو أقدم عليها، وجعل الإدارة الجديدة (إدارة كارتر) التي اعتبرت الشرق الأوسط أولوية أعلى فيما يخصها تجد نفسها وقد أزيحت جانباً بغتة إلى الخطوط الجاسية في موقف المتفرج على ما يجري فطبقاً لما يقوله الرسمىون الأميركيون، لم يكن السادات قد أخطر الولايات المتحدة بشيء قبل أن يعلن عن نيته للذهاب إلى القدس والواقع أنه بعد أن قال السادات أنه مستعد للذهاب إلى القدس، إتصل به هاتفياً السفير الأميركي بالقاهرة، هيرمان إيلتس، وقال له أنه يحسن به - إذا لم يكن جاداً فيما قال - أن يصدر تكذيباً على الفور^(١١٢).

وبالمثل، كان السادات قد سوى حساباته بهائياً مع الاتحاد السوفياتي الذي ظلت مشكلته مع مصر طوال عهد السادات «أن السادات شك باستمرار في نوايا القادة السوفيات تجاهه، متصوراً بأن لهم موقفاً بشأن الخلافات الداخلية التي نشبت في مصر إبان شهر مايو / أيار ١٩٧١، رغم أن ذلك أمر داخلي مصري بحت»، كما قال السفير السوفياتي لمحمود رياض في حديث دار بينهما بمنزل هذا الأخير في ٧ ديسمبر / كانون الأول ١٩٧٢^(١١٣).

والذي أراد السفير قوله لمحمود رياض، ربما على أمل أن يقنع السادات به، أن الاتحاد السوفياتي، بعد أن فشل أعوان عبد الناصر في الاستيلاء على السلطة وتنصيب علي صبري وتركوا السادات يضربهم، لم يعد له شأن بذلك الصراع باعتباره مسألة داخلية بحتة تخص مصر وحدها، أي أن السادات يجب أن يطمئن إلى أن السوفيات لا يحاولون الاطاحة به ليضعوا على صبري مكانه غير أن السادات ظل متشككاً في نوايا السوفيات، ولم يطمئن قلبه، فوق أن اعتبرهم - كما قال لموسى صبري - «حالة ميئوساً منها» (auscless case) بتعبير عبدالناصر، بل وعمد - بالشطارة الفهلوية التي كذبها ما قاله القادة العسكريون كالشاذلي والديبلوماسيون كمحمود رياض - إلى مسح جريمة الثغرة والجيب في وجوههم «في سوريا حصل انسحاب، وإنما في مصر هذه ثغرة.. جيب وتسلل و ٥ و ٦ كيلومتر بين جيشين واقفين ثغرة تلفزيونية. وأنا الذي أرهقني أن الروس لم يتركوا لي خمس دبابات احتياطي ولو كان عندي خمسين أو مائة دبابة في الثغرة كانت النتيجة واضحة. وهذا ما يعلمه اليهود. هات التايمرز والنيوزويك واقرا ماذا كتبوه عن الثغرة»^(١١٤).

وهذا بطبيعة الحال وراء ديماجوجي، فالدبابات المتوافرة كاحتياطي استراتيجي كانت تشكل فرقتين مدرعتين كاملتين، أمر السادات بتجريد الضفة الغربية منهما ودفع بهما بين ما دفع به من دبابات إلى معركة نصحه قواده وأركان حربه بأنها كانت قد باتت محققة الخسارة، فكانت النتيجة تلك «الثغرة التلفزيونية»^(١١٥).

وب «خبطة» الذهاب إلى القدس، تصور السادات أنه انتقم من الروس الذين ظلوا يتهددون زعامته وملكيته للعزلة بانحيازهم لعلي صبري، فأخرجهم هو - بنسف مؤتمر جنيف بعد أن «طردهم» من مصر - من ساحة اللعب تاركاً الساحة لـ «أميركا» لتصول فيها وتجول فوق وجهه وحدها. وبنفس «الخبطة» تصور السادات أيضاً أنه «رد الجميل» للعرب الذين من كثرة ما صبوه من أموال في وعاء نظام مليء بثقوب الفساد والنهب باتوا على استعداد للاصغاء إلى خبراء البنك الدولي. هؤلاء العرب يريدون منه أن يظل «يحارب حروبهم بدلاً منهم» ثم يتعاملون مع نظامه معاملة «أميرية» ويختلفون وراء خبراء البنك الدولي فيستدرجونه إلى رفع الأسعار ليحدث ذلك الزلزال تحت مقعده وتصل الأمور كما قال هيك - وينكر موسى صبري - إلى حد إعداد طائرة ليهرب بها إذا ما تدهورت الأمور إلى أبعد مما كانت قد وصلت إليه يوم ١٩/٩ يريدون أن يضغطوا عليه ليجد لهم صيغة تنقذ ماء وجوهم يصطلحون بها مع إسرائيل ويتلقى هو الصفعات على وجهه بدلاً منهم؟ طيب! سيرهم! سيتصالح. ولكن بطريقته هو، وبحساباته هو، وبرغبته هو، وبالكيفية التي تجعل منه بطل السلام الذي حارب كرجل (و «انتصر» كبطل) ثم، لكونه رجل دولة عظيم، لم يجد ما يمنعه من الذهاب إلى «الخصم» (فقد باتت إسرائيل

«الخصم» adversary لا «العدو الغادر» كما كانت قبلاً عندما كان الصراع معها مفيداً) «في عقر داره» (لا دار الفلسطينيين الأشرار) عارضاً عليه السلام بشرف وشهامة، من أجل مصر وشعبها الذي تحمل كثيراً وضحي بما فيه الكفاية

فالسادات، بإعلان تحركه «التاريخي» ودهاشه إلى القدس المحتلة، تصور أنه سوى حسابات كثيرة، بل ونبه الأميركيين أنفسهم أنه ليس «عظمة طرية» يسهل حشرها بالأسنان وفي الوقت ذاته تصور أنه، بالدكاء والفهولة، كان قد جعل اتجاهه المتصف بالتصميم صوب الصلح المنفرد مع إسرائيل يبدو كما لو كان شيئاً إضطره إليه العرب أنفسهم، بتقاعسهم عن مساعدته، واضطره إليه الروس بخداعهم وتخليهم عن «مسؤولياتهم» وعدم تسليحهم له بما فيه الكفاية، واضطره إليه حرصه على مصالح مصر وحده على أبنائه المصريين، بل واضطره إليه أيضاً تراوح «الأميركان» وعدم استقرارهم على خط بعينه. وليس بعيداً عن الاحتمال أن السادات، الذي وضع محمد إبراهيم كامل أصبعه على مكون أساسي من مكونات شخصيته وأسلوبه في التعامل مع الواقع عندما وصف ميله إلى عيش أدوار متخيلة في أحلام اليقظة، ليس بعيداً عن الاحتمال أنه تصور نفسه عند ذلك المنعطف بطلاً مأساوياً وحيداً فوق قمته الشاهقة وعلى منكبيه هموم «شعبه» وقضايا الحرب والسلام والحياة والموت وكل ذلك، ولم يخطر له ببال أنه كان دودة قميئة صغيرة ممخطة نانت كذلك باختيارها أخذة في الزحف تحت حذاء عسكري ضخم مخيم فوقها.

(٥/٢/٥) . منطق العمدة ومنطق التاريخ

تبعاً لما كتبه موسى صبري^(١٠) «كان منطق السادات في ذلك تعاملاً عميقاً وذكياً مع الواقع لأسباب عديدة كان قد فكر فيها طويلاً». وتلك الأسباب، كما شرحها صبري، هي أولاً «أن خيار الحرب لم يعد متاحاً». ومعنى القول أنه بات متعيناً على مصر أن تسكت جبهتها وتخرج من ساحة الصراع. وهذا بالذات هو ما سعى إليه منفذو المشروع الصهيوني باستماتة وإلحاح واتجهت كل تصرفات الولايات المتحدة منذ ١٩٦٧ إلى إرغام مصر عليه عن طريق العون المكثف والتخطيط المشترك والتنفيذ المتآزر على الجبهات العسكرية والسياسية والاقتصادية والديبلوماسية مع إسرائيل ضد مصر

ويبرر موسى صبري رؤية السادات للحرب بوصفها خياراً لم يعد متاحاً بقوله أن «السادات عندما طلب وقف إطلاق النار» (بعد أن اكتمل فتح الثغرة وترسيخ الجيب الإسرائيلي) طلب ذلك لأن «أسلحة حلف الأطلنطي» (لا أسلحة الولايات المتحدة، على سبيل الشطارة الاعلامية كقولك «تحريك الأسعار» بدلاً من قولك «رفع الأسعار») كانت قد وصلت من أميركا إلى أرض المعركة في سيناء.

وكانت بداية الجسر الجوي الأمريكي يوم ١٤/١٠، نفس اليوم الذي جرد فيه السادات ضفة القناة الغربية من دفاعاتها المدرعة وألقى بها في تقدم مقضي عليه بالفشل كيما يدمرها الإسرائيليون.

ويقول صبري أن تلك الأسلحة «الأطلنطية» (التي كان معظمها في الواقع مما لم تكن الولايات المتحدة قد سمحت لأي بلد من حلفائها في ذلك الحلف بحيازته بعد) كانت أسلحة لم تتعامل معها القوات المصرية من قبل، ويضيف أنه «كانت قد حدثت الثغرة وحوصر الجيس الثالث»، ويقول أن وقف إطلاق النار كان «أشجع» (أجدع؟) قرار للسادات لأنه واجه الواقع وقال أنه لن يستطيع محاربة أميركا.

ويبدو أن موسى صبري من كثرة احتكاكه بالإسرائيليين في معية السادات قد تعلم منهم صفاقتهم المشهورة التي تجعل ما يقولون أو يفعلون، من فرط «بجاحته» شيئاً يعقل لسان الخصم. لأنه من الذي كانت مصر تحاربه طيلة الوقت؟ كوكب المريخ؟ ألم يفتن السادات إلا بعد الثغرة والجيب إلى الحقيقة الماثلة في أن أميركا ظلت هي القائمة بتنفيذ المشروع الصهيوني الذي لا تشكل دولة إسرائيل إلا المرحلة التمهيديّة منه، وظلت متكفلة بإزالة كل عقبة من طريقه وبالأخص مصر؟ وإن كان السادات قد فطن في تلك الساعة المتأخرة إلى أن من كان يحاربه فعلاً وواقعاً كان أميركا، فكيف استطاع الادعاء بأن تنفيذ ما أرادته أميركا من إخراج لمصر من ساحة الصراع وإسكات لجبهتها كيما تنتهي «القضية» كما قال هو لم يكن هو الاستسلام عينه؟ الاستسلام لأميركا، بطبيعة الحال، لا لإسرائيل!

ثانياً « أن مصر صحت بمائة ألف شهيد » وهذا حقيقي ولقد بدا هي وقت ما كما لو كانت رؤيا كهنة اليهود في «المعهد القديم» لمصر عندما كتبوا أنه «لم يكن بيت ليس فيه ميت»، كانت قد تحققت وظلت تتحقق المرة تلو المرة إلا أن عدداً كبيراً من أولئك الشهداء سقط في ساحات القتال مجاناً، بلا ثمن ولا هدف ولا منفعة لمصر بل ولم يكن ليسقط أصلاً لولا خيبة المارشالات والجنرالات الذين وثبوا بقدرة قادر عليم من رتبة الصاغ إلى رتبة المشير ومن رتبة اليوزباشي إلى رتبة القائد الأعلى، ولم يكن ليسقط أصلاً لولا المآرب السياسية الدفينة التي قد تنكشف بشاعتها ذات يوم ما لا يدع لمستमित في الدفاع محالاً ليفتح فمه. فكل من خسرتهم مصر في عبور القناة في حرب ١٩٧٢ لم يزد عددهم عن ٢٨٠ فرداً، وهي خسائر صنيعة للغاية في عملية كبرى كهذه. أما العدد الكبير حقيقة من الضحايا فبحم عن «القرار السياسي» الذي كانت نتيجته فتح الثغرة أمام الاسرائيليين و «أسلحة حلف الأطلنطي» التي تحدث عنها موسى صبري

ثالثاً « أن مصر خسرت دخلها القومي لسنوات، وهذا حقيقي. إلا أنه من الحقيقي أيضاً الذي لا يجعل ذلك القول «نصف حقيقة» أن الدخل القومي بدد، أساساً، بفعل (١) النهب والاستنزاف الداخلي والخبية في تسيير شؤون الاقتصاد تحت إدارة الضباط الذين ظهر نبوغهم الإداري فجأة فباتوا «سادة أساتذة» رؤساء محالس إدارات ظلت المشروعات التي تربعوا على قلبها تتساقط كالذباب مفلسة حربة، ونتيجة لتربح الاتباع والأعوان وجيوش المستفيعين التي تحلقت كل «سيد أستاذ رئيس مجلس إدارة أو مدير عام» منهم، و (٢) القتل العسكري والخبية التي تكشفت كأوضح ما تكون في «فياسكو» ١٩٦٧ المزري، وتكررت في تطوير الهجوم يوم ١٤/١٠/١٩٧٢ وما ترتب عليه، و (٣) المعامرات البابوليونية الفاشلة في اليمن والكونغو وحيثما تيسر، وهي المعامرات التي استخدمت كئنة في تعرية العملة المصرية من غطائها الذهب، وأشار إليها السادات ذاته عندما تحدث عن أن «حرب اليمن تحولت إلى تكديس للذهب وشراء تلاجات وكلام فارغ»^١

رابعاً « أن مصر إنهارت مرافقها الداخلية ». وهذا حقيقي. إلا أنه مما يكمل الحقيقة أن الإهيار لم يجم عن الحروب بقدر ما نجم عن الخيبة في إدارة المرافق والفساد في تسييرها. وذلك أمر إعترف به السادات نفسه عندما كلف ممدوح سالم بتشكيل وزارته الثانية وعي بأن يجعل من مهام تلك الوزارة الجديدة، كأولوية عليا، «محاربة الفساد». كما اتخذ السادات كل تاريخ الخيبة والفساد الطويل منذ أخذت الثورة المباركة بنظام رأسمالية الدولة باعتباره إشتراكية وطنية في أحداث ثورته الخاصة به التي أجهزت على ما كان قد تبقى من حياة هزيلة في عروق مصر الاقتصادية والتي عرفت باسم «الإنفتاح» العظيم.

خامساً: « أن مصر لا تستطيع الاعتماد على مواردها فقط في تدعيمها لقدراتها العسكرية وعندما قدم العرب معونة مالية لمصر قبل فتح قناة السويس وقبل معركة أكتوبر، كان الشرط العربي أن يقدم أحد البنوك الأمريكية قرضاً لمصر قيمته ٦٠ مليوناً بضمان السعودية » ورفضت السعودية أن يكون قرضها لمصر بضمان البنك المركزي المصري. ولما طلبت مصر زيادة المعونة من الكويت، أعلنت الكويت في نشرات رسمية أن احتياطي البترول لديها ينضب أو هو في طريقه إلى ذلك، وكان ذلك في أواخر الستينات، ثم ثبت أن العكس هو الصحيح، إذ زاد الاحتياطي وزاد وأصبح بالبلايين»، ويضيف موسى صبري إلى هذا القول هامشاً يقول فيه «وتدل آخر الإحصائيات العلمية على أن الكويت لديها احتياطي يكفي لمدة ٢٥٠ سنة قادمة إذا ما استمر الضخ على ما هو عليه».

وبطبيعة الحال، ظل الدعم العربي لمصر مسألة شريان حياة لا أقل وقد نبه صدام حسين إلى ذلك بقوة في مؤتمر القمة ببغداد إلا أنه ينبغي النظر أيضاً إلى ما قد يكون ترسخ لدى البلدان العربية المانحة من وعي بأن كل ما يحصل عليه النظام المصري يبدو كما لو كان ينسكب في بالوعة - إقتصادياً وعسكرياً، بسبب الخيبة وبسبب الفساد. غير أنه، بالمقابل، يظل مثل ذلك الوعي، حتى إن صح، ثانوياً، أو كان ينبغي أن يظل ثانوياً، ومتأخراً بكثير وراء الوعي بأن المعركة مع إسرائيل لم تكن ولن تكون معركة مصرية، أو فلسطينية، أو سورية، أو أردنية، بل معركة الجميع، وأنها ليست معركة لاعادة الفلسطينيين إلى وطنهم أو إنشاء وطن ما لهم والتخلص من «وجع الدماغ» الذي يسببونه، بل معركة مفروضة

ومحتومة لا قبل للعرب جميعاً، اغنياء وفقراء، دول مواجهة ودول ظهير، معتدلين و«راديكاليين»، بالهزيمة فيها، لأن الهزيمة في سياق المشروع الصهيوني لا تؤدي لها إلا الإبادة. وفي مواجهة مثل هذا التحدي، التحدي الأقصى، تحدي البقاء ذاته، تتأخر قيمة النقود قليلاً، ويتقدم إلى المكانة الأولى مطلب البقاء

وفي تحليل موسى صبري لمواقف البلدان العربية، من وجهة نظر السادات، يقول أن «التقدير الصحيح للوضع العربي مع مصر (يبين) أن الدول العربية لا تقبل على مساعدة مصر، لأنه إذا قويت مصر فإن ليبيا والسعودية تشعران بأن مصر (القوية) باتت تشكل تهديداً لهما. كما أن قوة مصر ضد الأممي السورية أما العراق فيرى في مصر محوراً يتصدى له باستمرار»^١

وهذا تصوير مفزع، لأنه - إن صح - لا تكون له نتيجة إلا إبادة الجميع واستخدام لفظة الإبادة هنا ليس على سبيل الفصاحة أو رعة في التخويف ولقد يحسن كثيراً بالقادة العرب أن يصيغوا من وقتهم القليل اللازم للالمام بالكيفية التي أنشئت بها الولايات المتحدة على أرض القارة الشمالية في العالم الحدي كما كان يدعى فالغزاة الاستيطانيون الذين نزلوا أرض القارة الأميركية من أوروبا لم يتمكنوا من أن يصبحوا أمة ويؤسسوا دولة إلا على أشلاء السكان الأصليين، أي من عرفوا بـ «الهنود الحمر». وإذا ما توقف القادة العرب قليلاً عند ما أسميناه بـ «المشروع الصهيوني» أي الغزوة الاستيطانية الرامية إلى أخذ كل الأرض المتفق عليها مع الإله من القدم، تبعاً لما تؤكد التوراة، وهي تحديداً كل الأرض من النيل إلى الفرات، والبادئة مرحلياً بفلسطين، كل أرض فلسطين بعد ١٩٦٧، والحوار، ثم جنوب لبنان، سيجدون أن ذلك المشروع ليس في حقيقته إلا تكراراً حرفياً لعملية خلق الأمة الأميركية على أشلاء السكان الأصليين الذين أخذت أرضهم وأبيدوا وسيجدون أيضاً أن هذا التحليل المفزع للوضع العربي الراهن كما تراءى للسادات حسبما طرحه موسى صبري، هو عينه ما حدث في أميركا الشمالية ومكن العزاة الاستيطانية من إبادة الهنود الحمر مستغلاً في إبادتهم خلافاتهم وعداوتهم وحزازاتهم القبلية ومخاوفهم من بعضهم البعض وتصور بعض قبائلهم أنها - بالسير في ركاب الغزاة الاستيطانيين. كما فعلت قبيلة التشيروكي - كانت ستنجو على حساب الآخرين من بني قومها^(*) ولقد يبدو مثل هذا الكلام عربياً و«هوائياً» و«عوداً إلى التواريخ القديمة» في سياق معاصر لا مكان فيه لمثل هذه الأشياء إلا أن التاريخ يظل خير معلم، والعبر والدروس المستفادة منه، خاصة فيما يتعلق بقيام الولايات المتحدة باعادة تنفيذ عملية قيامها كأمة على أرض العالم الجديد، مجدداً، على «الأرض الموعودة»، تظل حيوية وبالغة المعزى بالنسبة لمن يريد البقاء

ويستطرد موسى صبري في طرحه لتفكير السادات الذي قرر على أساسه أن يعقد صلحاً منفرداً وينحو بجلده على حساب الفلسطينيين وكل العرب «البخلاء» الذين قتلوا على نظامه وحرموه من سيل أموالهم، فيقول «وكان المفروض (تبعاً لذلك الموقف العربي من مصر) أن تظل مصر كالرجل المريض الذي لا يموت (ولا يشفي) لا حرب ولا سلام. صعوبات داخلية (كزلزال ١٨ و ١٩ يناير / كانون الثاني) ومواردنا لا نستطيع تنميتها لأنها تحت سيطرة إسرائيل»

ويعني موسى صبري بذلك موارد سيئاء. وينسى بطبيعة الحال أن كل اقتصاد مصر، لا موارد سيناء وحدها، كان من المحتم أن يصبح «تحت سيطرة إسرائيل» متى فتحت الحدود و«طبعت» العلاقات. وقد كان فالصهيونيون الذين وضعوا إقتصاد الولايات المتحدة ومعظم الغرب تحت سيطرتهم وسيطرة بنوكهم وبيوتاتهم المالية وشركاتهم القابضة، لم يكن ليستعصي عليهم النفاذ إلى الإقتصاد المصري، المهلهل بفعل الخيبة والنهب وإدارة «السادات الأساتذة» الضباط والمنتفعين، ولو بحجة المساعدة على إنقاذه من الموت، ووضعه تحت سيطرتهم ولا يخفى على فطنة موسى صبري طبعاً أن ذلك بالذات ظل هدفاً رئيسياً من الأهداف التي رمت إليها إسرائيل باصرارها الذي لا يحيد على أنه «لا سلام بغير فتح للحدود وبغير تطبيع للعلاقات». وبذلك يكون السادات، عندما تصالح وفتح وانفتح وطبع، قد خاب الخيبة

(*) ارجع في ذلك إلى مقالاتنا السابق الإشارة إليها عن «البعد الأميركي للمشروع الصهيوني».

المعهودة من النظام فبدلاً من أن يستخلص موارد مصر في سيناء من سيطرة إسرائيل، أدخل «الطريشة» في عب مصر، ومكنها من عبق الاقتصاد المصري، وبالتالي من وريد مصر وتأسيساً على كل ما طرحه موسى صبري من مكونات تفكير السادات، بالاضافة إلى الإشارة الدرامية إلى «خطر قيام إسرائيل بنسف السد العالي وإغراق كل مصر» يتساءل قائلاً

«فإذا كان أمام مصر أن تصل بالسلام إلى نتائج التحرير (١) (انظر إلى الشطارة الاعلامية) بدون محاطر حرب أخرى، فهل (يعقل) أن تصع مصر هذا القرار تحت سيطرة الدول العربية (التي أوصح أن السادات اعتراها دولا إستعلائية بحيلة تريد من مصر أن تحارب لها حروبها وتقتل عليها في المصروف، واكتشف أنها تريد أن تجعل مصر كالمريض بالحرب الذي لا يشفى بالسلام)» ويقول صبري «الحوار الطبيعي بالنفي فقرار مصر في حدود سيادتها وليس في اتحاد فدرالي مع الدول العربية يلزمنا بذلك كما أن ميثاق الجامعة (جامعة الدول العربية) لا يبص على ذلك»

ولقد احترنا إيراد تفكير السادات من خلال طرح موسى صبري له باعتبار ذلك الطرح نموذجاً نمطياً لاهتراء الفكر (إن صح تسميته بـ «الفكر») الذي أنجبته كل تلك العقود من التبعية المرتفعة المرتزقة العمياء للوهة الزعيم. فصبري، الصحفي، المفروض أنه من صناع الرأي وبحكم اشتغاله بالصحافة من المسؤولين عن إيصال الحقائق إلى «ال جماهير»، لم يجد مانعاً، وهو يعلم أن المسألة مسألة إخراج مصر من الساحة لحساب أميركا وإسرائيل، من التمحك في ميثاق الجامعة

(٥/٢/هـ) . البحث عن ورقة تين

منذ البداية، ظل هناك نفي بالغ الشدة لوحود أي رغبة لدى أحد في عقد صلح مفرد أو سعي إلى سلام غير شامل أو نية للتصحية بأحد

غير أن النظام كله كان قد اتجه بتصميم، بعد الهزيمة القاصمة للظهر التي مني بها في ١٩٦٧ فنسفت كل ادعاءاته السابقة وتهددت بقاءه ذاته لولا أنه سارع في اللحظة الأخيرة فأقنع الرعيم بالآ يتنحى، إلى البحث عن صيغة ما يمكن أن تتيح له الخروج من مأزق الصراع الذي أراده تمثيلاً فانقلب إلى واقع خطر، وتحفظ في الوقت ذاته ماء الوجه فتمكّن إعلاماً قد تمرّس بالكذب والتمويه وقلب الحقائق وصناعة الوهم أن :

١ - يبيع الصفقة لشعب مطيع بطبعه كان النظام قد درّبه، طوال عقود، على أن يبتلع بلا تفكير كل ما يصبّه الاعلام في حلقة من أكاذيب وتلفيقات وأوهام.

٢ - يبيع الصفقة - قدر الامكان وبلااستفادة من شعبية الزعيم لدى الجماهير العربية التي ظلت عازفة عن الاعتراف للنفس بأنها خدعة - للعرب، من خلال سيناريو إعلامي يوحي بأن مصر التي حملت عبء الصراع في أربع حروب قد واجهت واقع العصر بجسارة فارتادت درب السلام الشامل لحساب الجميع ولمصلحة الجميع وقبلت بكل ما قد تستجلبه تلك الريادة من شكوك واتهامات

وسعيًا إلى ذلك، إستخدمت بعد هزيمة ١٩٦٧ صيغة «السلام بعد إزالة أثار العدوان»، باعتبار العودة إلى حدود ما قبل ٥ يونيو / حزيران ١٩٦٧ أقصى المراد من رب العباد، وعفا الله عما سلف.

والحقيقة أن النظام كان قد قام قبل ١٩٦٧ بوقت طويل بمحاولة لتسوية الصراع العربي الاسرائيلي تفاوض خلالها جمال عبد الناصر مع روبرت أندرسون، ممثل حكومة الولايات المتحدة سنة ١٩٥٥. ووقتها، كان النظام في شبابه، ولم يكن ظهره قد كسر بعد، فكان العرض الذي طرحه عبد الناصر لـ «التسوية» أن «تحل المشكلة» على أساس التنفيذ الدقيق لمشروع التقسيم الذي وضعته الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ (٢١).

وعندما طرح عبد الناصر ذلك، كان قد دخل في لعبة «ضرب الغرب بالشرق» عملاً على تليين الولايات المتحدة عن طريق تهديدها بفتح أبواب المنطقة أمام النفوذ السوفياتي الضامي. وقد أدرك السوفييات حقيقة تلك اللعبة من مبدأ الأمر، لكنهم سايروا النظام المصري لأن تعامله معهم فتح لهم فعلاً منافذ إلى منطقة تطلعت روسيا منذ أيام القياصرة إلى أن تكون صاحبة نفوذ أو بالأقل صاحبة موطيء قدم فيها، واستخدموا سلاح التشهير لردع النظام عن التمادي في اللعب من وراء ظهورهم، كما حدث عندما أعلنوا

في يونيو / حزيران ١٩٦٩ أن عبد الناصر كان قد أعطى من الإشارات إلى الأميركيين ما أوضح أنه يقبل إجراء مباحثات وجهاً لوجه مع الاسرائيليين على نسق مفاوضات رودس ١٩٤٩، ولكن بشكل غير رسمي وغير معلن، وهو ما سارعت حكومة عبد الناصر وقتها إلى نفيه بشدة^(١٢٧).

وقد أوضح عبد الناصر نفسه بجلاء مدى توجهه النظام إلى «التسوية» في أول خطاب من خطاب عيد الثورة القاه في أعقاب الهزيمة، يوم ٢٣ يوليو / تموز ١٩٦٧، عندما قال أن «النضال» له طرق متعددة. وبدأ بـ «النضال السياسي»، فأعلن للمصريين أن «النظام لا يقفل باب السياسة أبداً، ولا يوصد باب الاتصالات السياسية أبداً»، وأوقفهم على أنه «عندما سافر الدكتور محمود فوزي إلى اميركا وذهب إلى نيويورك لحضور جلسات الأمم المتحدة، قلت له ما عنديش مانع أنك تقابل الأميركيين، وقابل وزير الخارجية الأميركي مرتين فنحن يناضل بالعمل السياسي وهناك أيضاً نضال إقتصادي^(١٢٨)... فأمامنا عدة طرق لا بد أن نسير عليها طرق عربية، سياسية واقتصادية، وطرق دولية، سياسية ودعائية (وفي آخر القائمة) وطرق عسكرية»^(١٢٩).

وإلى ما قبل وفاته، ظل عبد الناصر متمسكاً بذلك التوجه صوب التسوية وعندما طُرحت عليه «مبادرة روجرز» الأولى، التي لم تتمخض إلا عن بدء مسلسل وقف إطلاق النار ريثما تحاول الولايات المتحدة إقناع المؤسسة الحاكمة الاسرائيلية بقبول خطتها التي لم تعمّر طويلاً لاسناد دور «بلطجي» الولايات المتحدة بالمنطقة لايران الشاه، قبلها عبد الناصر وأزدرتها إسرائيل وظلت ترددها إلى أن حطمها لها كيسنجر بديبلوماسية المكوك، ثم أمنت إسرائيل نفسها من محاولة إحيائها ثانية أبداً باسقاط الشاه وتدمير إيران بحكم الملالي.

وعندما استولى السادات على السلطة بانقلاب القصر في مايو / ايار ١٩٧١، ورث ذلك التوجه جاهزاً مركزاً باسم الزعيم السابق، وأظهر براعته بتظاهره بأنه، ولو أنه ظل معارضاً لذلك التوجه صوب السلام مع إسرائيل في حياة جمال الله يرحمه، فإنه - بعد رحيل جمال إلى جنة الخلد - لم يعد يطاوعه قلبه على عصيان توجهه، ولذلك فانه - كما أوضح لدونالد بيرجس رئيس مكتب رعاية المصالح الأميركية بالقاهرة في أول لقاء أثر موت عبد الناصر - قرر تنحية اعتقاداته الشخصية جانباً والسير بأمانة ووفاء على خط جمال، تنفيذاً لمشيئته.

والواقع أن السادات كان مهياً أكثر من سلفه للسير في ذلك التوجه «السلمي» إلى ذروته. فقد كان متمتعاً بقدر من حرية الحركة لم يتح في أي وقت لعبد الناصر الذي فرض حدوداً على حريته في التحرك عندما تشبث بزعامته للعالم العربي كله لا لمصر وحدها، وهو ما لم يعن به السادات كثيراً ولم يتطلع إليه فالعرب لم يكونوا يعنون السادات في شيء بل الحقيقة أنه ضاق دائماً بهم واعتبرهم عبئاً على صدره حتى وهو سادر في أخذ أموالهم وتوجيه الانتقادات الجارحة علناً لقادتهم وزعمائهم. وقد تعين عليه، بطبيعة الحال، أن يواصل القيام، بصفاقه، بدور «رجل الدولة» المحترم، إلا أن ذلك لم يكفه عن الاتيان بتصرفات غريبة كتمنعه عن لقاء الأمير سعود الفيصل أبان اجتماع مجلس الجامعة العربية في أواخر مارس آذار ١٩٧٨، وتأففه من الحاح وزير خارجيته محمد إبراهيم كامل عليه في أن يتفضل، رغم تظاهره بأنه «متوكل ومشغول»، بمقابلة الأمير السعودي وكان السادات وقتها قد دعا عزرا وايزمان وزير الحرب الاسرائيلي للقائه في القاهرة^(١٣٠).

وقد أشار موسى صبري، بما تصور أنه منتهى الكياسة، إلى ذلك التأفف من «أولئك العرب» لدى العمدة عندما كتب يقول شارحاً وجهة نظر زعيمه «لسنا في اتحاد فدرالي مع الدول العربية (يلزم الزعيم باخضاع قراره) لسيطرة تلك الدول»، كما أسلفنا، وعندما أشار إلى أن السؤال الملح، الذي أرق الزعيم وعذبه طويلاً، ظل «هل أتصرف وحدي (بارادتي الحرة = المنفردة) أم أضع مصر تحت وصاية الدول العربية» أو «مسألة»^(١٣١)، والمسألة، بطبيعة الحال، لم تكن وليست مسألة «إخضاع القرار لسيطرة الدول العربية» أو مسألة «وضع مصر تحت وصاية الدول العربية»، كما يعرف موسى صبري جيداً، بل مسألة بقاء، بقاء مصر، وهو غير ممكن بمعزل عن الدول العربية، وبقاء الدول العربية، وهو غير ممكن بمعزل عن مصر. فبالقرار قرار مشترك. قرار لن تكون نتيجته إلا التفتت والتهافت والوقوع في الحلق الصهيوني المفتوح على

العمدة يصح صانع سلام ونحماً عالمياً

سعته كحلق تمساح شرس حائض متربص، أو التماسك والتوحد والذود عن البقاء ذاته لا مجرد الشرف أو العزة أو الكرامة وقد تكون هناك متاعب، وقد تكون هناك خلافات وقد يكون هناك غياب للوعي. وقد يظل هناك انخداع بدور الأصدقاء هنا أو هناك، لكن القرار - في النهاية - يظل قراراً مشتركاً أما بالبقاء وأما بالقبول بمصير الهنود الحمر

ولقد ظل توجه النظام المصري منذ ما بعد ١٩٦٧ توجّهاً لا نتيجة له إلا خروج مصر من الصراع، على أمل أن ينجو النظام بحلده، ويستمر عن طريق الاجتهاد «في إصلاح ما فسد» والذي فسد، متي عززي إلى ما قدمته مصر من توضيحات لا شك فيها خلال حروب أربع، لا يكون ضاراً بالنظام أو مهدداً لبقائه. وبذلك يستطيع النظام أن يحاول «إصلاح ما فسد» دون أن ينكشف دوره في تخريب اقتصاد مصر بالخيبة وبالفساد وبمعاملة مصر كغنيمة حرب. ولقد حاول السادات ذلك فعلاً، وحاوله تحت ستار أنه كان يصلح ما أفسدته الحروب وتوضيحاتها أولاً، وإصلاح «بعض الانحرافات» في تسيير شؤون الاقتصاد ثانياً.

ومن طبيعة النظم الفاشية أن تستميت في البقاء ذلك درس تعلمنا الطبيعة إياه فأشد المخلوقات استماتة في الدفاع عن بقائها هي دائماً أضرم المخلوقات كالعقارب والحيات السامة. وخبرة التاريخ الحديث خير معلّم في ذلك المحال، وما علينا إلا أن نرجع إلى تاريخ النظم الفاشية والسارية في أوروبا، ونتأمل قليلاً في نظام فرانكو مثلاً وكيف استمات في البقاء، حتى بعد انهيار التجربة الفاشية كلها بانهيار ألمانيا وإيطاليا، فلم يسلم الروح إلا بعد أن رحل الزعيم، فرانكو، فانزاح عن صدر إسبانيا وعادت بلداً متواجداً يتنفس من جديد

ومشكلة النظم الفاشية أنها نظم تقتات على لحم ودماء الشعب المحكوم، كالكوت دراكيولا العتيد. ولذلك تلصق بعنق الشعب الضحية كالحفافيش مصاصة الدماء، ولا تستسلم بسهولة، لأنها آتية من فراغ، ومآلها متى فقدت السلطة إلى عدم، وربما إلى محاكمات وفضائح وأحكام سجن وأحكام إعدام. فالمسألة بالنسبة إلى تلك النظم وبالنسبة إلى زعمائها وقادتها وأجهزتها والمتفعين بها مسألة بقاء، بقاء مصالح، وبقاء بالجسد والمكانة الاجتماعية، واحتفاظ بالغانم فهي لا تفعل ما يفعله أي حكم ديمقراطي نيابي، فتسلم السلطة (give way) وتدع مهمة الحكم لحزب آخر أو ائتلاف أحزاب. لأن النظم الديمقراطية تستطيع ذلك بغير مشكلة، إذ لا تتعامل مع البلد المحكوم كما لو كان غنيمة حرب، وتطل - وهي تمارس السلطة - خاضعة لرقابة المؤسسات الديمقراطية خاضعة للمحاسبة. وعندما ينساق أعضاء من الجهار الحاكم إلى ما يعتبره المجتمع خروجاً على الاعراف والسلوك القويم يحاسب ذلك العضو أو ينحى وينتهي في معظم الأمر مستقبله السياسي، وقد يسجن وتصادر أمواله. لكن النظم الفاشية تتمتع بحصانة إرهابية مفسدة ولذلك فإنها تفسد، حتى وإن وصلت إلى السلطة بأحسن النوايا وأشرفها. وإذا تفسد، لا يصبح التشبث بالمغانم السبب الوحيد في استماتتها في الاحتفاظ بالسلطة، بل والخوف من العقاب أيضاً، لأن السلطة الإرهابية تظل حمايتها الوحيدة من الانكشاف والافتضاح والمحاسبة. فهي - في النهاية - تتحول إلى عصابات للجريمة الأميرية المنظمة. إلى ثعابين وعقارب وكالثعابين والعقارب، تدافع عن بقائها باستماتة

وفي بعض الحالات، يكتشف النظام أن الزعيم ذاته قد أصبح خطراً على بقاء النظام فيصفيه. ومن المتعين أن تكون تصفيته جسدياً. لأن الزعماء لا يُنحون ولا يُعزلون ولا يتقاعدون وانقلابات القصر لا تكون دائماً ممكنة بحكم تشابك مصالح المنتفعين وغموض ضروب ولائهم، وحتى إن نجحت لا تظل مأمونة ما دام من وقع الانقلاب ضده قد ظل حياً. ولقد كانت معظم مشاكل مصر مع الاتحاد السوفياتي في ظل السادات ناجمة بشكل جوهري من خوف السادات من أن يقوم السوفيات بتحريك مؤامرة تطيح به وتضع على صبري مكانه. وإلى أن أجهزت عليه رصاصات من اغتالوه، عاش السادات في خوف مقيم من ذلك الاغتيال السياسي الذي كان يمكن أن يعيده إلى أصوله، مجرد قط أرقة تملأ رأسه أخيلة العظمة وأحلام اليقظة.

ولم يكن الاسرائيليون والأميريكيون بغافلين عن شيء من كل ذلك، وقد استخدموا فهمهم العميق لطبيعة

النظام المصري ومشاكله الداخلية وشخصيتي زعيميه في التعامل معه تعاملًا فعالاً على درجة عالية من الكفاءة وضع النظام موضعاً لم يعد أمامه مهرب في سياقه إلا السعي باستماتة صوب الصلح المنفرد والسلام الانفرادي مع إسرائيل، تأميناً لبقائه.

ولقد فطن الأميركيون والإسرائيليون من مبدأ إلى أن النظام - ككل النظم الفاشية وخاصة في بلدان العالم الثالث، وللولايات المتحدة علاقات وثيقة حميمة وخبرة عميقة بها وبزعمائها وبما يجعلها «تتك» - كان على استعداد، متى وضع الموضع الذي يتعين عليه فيه أن يختار بين استمراره وبقائه وبين استمرار تصنعاته وطموحات رعاة زعيمه الجانبية (للعالم العربي)، لأن يضحي بكل شيء بجميع من حوله، بل وبمن في مصر ذاتها، تأميناً لبقائه واستمراره وطلباً للنجاة من العقاب. ومما يفصح عن مدى الخوف من العقاب ما حدث في بداية الثورة، عندما وقع عدوان ١٩٥٦ «وتبين أن الإنجليز والفرنسيين كانوا مصممين على الرحف إلى القاهرة، وأن الجيش لم يعد في مقدوره رد عاديتهم عن العاصمة، وأن الوساطات الدولية وقرارات الأمم المتحدة لم تجد، وبدا المستقبل شديد الحلوكة (فوقتها) فقد صلاح سالم آخر قطرة من معنوياته وتماسكه، واقترح أن يتناول أعضاء مجلس قيادة الثورة سماً زعاقاً سريع المفعول ووافق الحاضرون بالاجماع خشية أن ينتهزها أعداء الثورة (= أعداء النظام) من كل صنف ونوع فرصة ليثاروا لأنفسهم، ولم يحل دون تنفيذه إلا غياب البغدادي الذي لم يكن حاضراً ذلك الاجتماع، فأرسلوا إلى صلاح نصر ليجوز السهم المطلوب وإلى البغدادي ليبيدي رأيه وفي خلال البحث في الأمرين معاً، جاءت الأنباء من نيويورك بما لم يعد يدع مجالاً لمثل هذا اليأس القاتل»^(٢٠) ولقد كان كل ما حدث لمصر منذ استدرج عبد الناصر إلى شرك ١٩٦٧ موجهاً إلى وضع النظام الموضع الذي يجد نفسه في سياقه واقعاً في مأزق الحياة والموت ذلك، ويجد نفسه مواجهاً بخيار واحد، إما الكف عن البطوليات الخطابية والمسرحية والاستسلام لإسرائيل وأميركا، وإماموت النظام ولقد كانت مسرحية تنحي عبد الناصر بعد الهزيمة محاولة لانتقاذ النظام عن طريق التضحية بالزعيم، لكن النظام ما لبث أن تبين أنه لم يعمر بعد سقوط عبد الناصر، فكان العدول عن التنحي، وكان اتجاه النظام والزعيم معاً إلى الصلح والسلام.

وفي أواخر مارس / آذار ١٩٧٨، عندما زار عزرا وايزمان مصر، برفقة هارون باراك، المستشار القانوني لمجلس الوزراء الإسرائيلي، فاجتمعوا بالسادات والفريق الأول الجمعي، وزير حربيته، كان الهدف المحدد في ذهن كل منهما أن يكتشفا هل النظام المصري على استعداد لتوقيع معاهدة صلح منفرد أم لا؟ وطبقاً لما قاله وايزمان في مذكراته المعنونة «معركة السلام»، إكتشفا كلاهما أن «السادات لم يكن يريد أكثر من ورقة تين (يستر بها عريه) وأن ورقة التين هذه كان بالوسع تزويد السادات بها من خلال عملية الحكم الذاتي للفلسطينيين» ويقول وايزمان أنه فكر وقتها في أن يجين كان قد حول ذلك الحكم الذاتي الذي سعى إليه السادات إلى مجرد كاريكاتير^(٢١)

وبذلك الإدراك، وضع وايزمان أصبعه على حقيقتين أساسيتين: أولاهما ورقة التين هذه التي ظلت المطلب الرئيسي للنظام المصري منذ ما بعد ١٩٦٧، والثانية أن يجين عندما أفشل مبادرة السادات التي ذهب بها إلى القدس سعياً وراء ورقة التين هذه، فعل ذلك عن طريق إنكاره على السادات ما تطلع إليه من تخليص نفسه ونظامه من «مشكلة أولئك الفلسطينيين» باعطائهم الحكم الذاتي، وإخراجهم بذلك من شغل النظام.

يقول محمد إبراهيم كامل أنه لم يعلم بالقصة الحقيقية لزيارة وايزمان للقاهرة في ذلك الوقت بالذات، ولا بما دار من حديث بين السادات والفريق أول الجمعي، ووايزمان وهارون باراك يومي ٣٠ و ٣١ مارس / آذار ١٩٧٨، إلا بعد ثلاث سنوات، عندما قرأ كتاب وايزمان الذي ظهر في مارس / آذار ١٩٨١، ويقول أنه اكتشف أن السادات لم يكتف بالكذب عليه مدعياً أن وايزمان هو الذي طلب الحضور إلى القاهرة بينما كان السادات هو الذي دعا، بل وأخفى عنه كل ما دار من أحاديث «وهو خطير جداً» واكتفى بأن قال له أن «وايزمان لم يأت معه بجديد وأنه (السادات) طلب منه أن يذكر مناحم يجين بأنه لم يقم حتى الآن بالرد على مبادرة السلام وأن مصر لا تبحث عن تسوية منفردة أو جزئية، بل تسعى إلى

سلام شامل على أساس الانسحاب الإسرائيلي الكامل من جميع الأراضي العربية المحتلة» ويقول كامل «ولم يكن أمامي ما يدعو إلى عدم تصديقه»^(٢٥٣)

ويضيف وزير الخارجية السابق قائلاً ولكم تمنيت لو لم يكن وايرمان قد كتب كتابه، أو لو كان أسقط منه ما دار بينه وبين السادات أثناء تلك الزيارة، أو لم يكن الكتاب قد وقع في يدي وأطلعت على ما فيه^(٢٥٤) وهذا هو ما قرأه محمد إبراهيم كامل في كتاب، وايزمان، «معركة السلام» وتمنى لو لم يكن قرأه

١ - «أترق إلي السادات داعياً إياي لزيارته في القاهرة في حين كانت القاهرة تعج بوزراء الخارجية العرب الذين اجتمعوا في الجامعة العربية ولقد كان واضحاً أن دعوة وزير دفاع إسرائيل لزيارته في القاهرة (في -ضوء كل أولئك الوزراء العرب)- بينما القوات الإسرائيلية على أراضي لبنان كان من قبيل التحدي السامر للعالم العربي كله (من حاش السادات)»

٢ - «كانت تعليمات بيحيى إلي أني، كوزير للدفاع، يجب أن أقول للمصريين أن أحداً في إسرائيل لن يقبل بآلة المستوطنات الإسرائيلية، «وقل لهم أن ما تطلبونه، أيها المصريون، هو الانسحاب الكامل وإقامة دولة فلسطينية، وكلا الأمرين مرفوض، فهل لديكم شيء آخر تعرضونه»

٣ - «وقال وزير التجارة والصناعة إيجال هوروفيتز «أن المصريين يدعون وايرمان لزيارتهم لأنهم يتصورون أنه قريب منهم والآن على وايرمان أن يفهم السادات أن على السادات العثور على صيغة أخرى غير ما طرح لا تطالبنا بالعودة إلى حدود ١٩٦٧ فالدي يبدو أن السادات قد تملكه العزور بعد زيارة رئيس الوزراء (بيحي) لواشنطن واتحاد كراتر حاسب مصر، وما لم يتكفل أحد بإعادته إلى حادة الصواب سيزداد تحليقاً في السحاب»^١

٤ - وكانت قراءة وايزمان لاستقباله عند بروله من الطائرة وعند وصوله إلى مكان اللقاء بالسادات بضجة إعلامية كثرت فيها الأصواء وعدسات التلفزيون أن السادات كان يعلن عزمه «على المضي في السعي صوب السلام رغم الوضع الحرج الذي وجد نفسه فيه نازاً الهجوم الإسرائيلي على لبنان»، خاصة وأن السادات رجب به بحرارة قائلاً «أني أرحب بوزير الدفاع وأعبر عن سعادتني بوصوله». وأضاف السادات قائلاً لصيفه «يجب أن تعلم أنه كانت هناك معارضة لحضورك من الملك خالد ملك السعودية، بل ومن وزارة الخارجية المصرية لكني أردت أن أراك»

٥ - «لم يد الرئيس المصري أي اهتمام بمسألة إنشاء دولة فلسطينية، وأبدى استعداداً، لأن يترك مستوطناتنا في الضفة الغربية في مكانها، بل وأبدى استعداداً للحلول محل الملك حسين فيما لو رفض هذا الأخير الاشتراك في المفاوضات» وكنت سعيداً لوجود هارون مارك نجاني لسمع هذا الكلام بأذنيه، لأنه - بغير ذلك - لم يكن أحد في إسرائيل سيصدق أن السادات قال ذلك الكلام لي^١

٦ - «وفي مساء ٢٠ مارس / آذار، عقد اجتماع آخر وكان هناك الدكتور مصطفى خليل أمين عام حزب الحكومة، والدكتور بطرس غالي، والجنرال الجمصي. وقد دار بين باريك والجنرال الجمصي حديث مثير عرض الجمصي خلاله إجراء محادثات سرية بين مصر وإسرائيل إما في القاهرة، وإما في إسرائيل، أو في أي مكان آخر، وأبدى استعداد مصر - إذا ما أرادت إسرائيل ذلك - لاشراك الأميركيين في تلك المحادثات السرية التي حدد الغرض منها بوضع تفاصيل الترتيبات الخاصة بالضفة الغربية وغزة تمهيداً للمفاوضات الثنائية بين مصر وإسرائيل التي عرض أن يكون التوقيع على الوثيقة الخاصة بها والوثيقة الخاصة بالترتيبات المتعلقة بالضفة الغربية وغزة سراً، بالأحرف الأولى»

٧ - «وطبقاً لما عرضه، المصريون، تتضمن الوثيقة الخاصة بترتيبات غزة والضفة الغربية إعلاناً للنوايا. فمن وجهة نظر مصر، يجب أن تعلن إسرائيل عن استعدادها للانسحاب من الضفة الغربية وغزة، فيما عدا نقاط يتفق على أن تظل تحت احتلال القوات الإسرائيلية لاعتبارات الأمن كالمستوطنات المقامة على نهر الأردن وتلك المقامة في قمع المناطق الجبلية، ومتى أعلنت إسرائيل عن استعدادها للانسحاب، يعلن السادات أن مصر وإسرائيل اتفقتا على إعلان نوايا ويدعو دول المواجهة للدخول في مفاوضات مع إسرائيل، شائناً وبعد أسابيع من ذلك، توقع مصر إتفاقية سلام مع إسرائيل بالنسبة لسيما، ومتى دخل الأردن في العملية، يتولى الملك حسين التفاوض حول «اليهودية والسامرة» وغزة، فإذا ما رفض ذلك، حل السادات مكانه ووقع على الاتفاقية الخاصة بالضفة الغربية وغزة»^١

«وبمقتضى تلك الاتفاقية، تظل المستوطنات الإسرائيلية قائمة ويظل مسموحاً لليهود بإقامة المستوطنات الجديدة على الأراضي العربية التي يشترونها من الأفراد، ويجري البحث عن حل لمشكلة الأراضي الحكومية يتيح طرحها للبيع ليشترها اليهود. ويرابط الجيش الإسرائيلي في قواعد متفق عليها كتلك القائمة على نهر الأردن».

٨ - «في حالة أي نشاط تقوم به منظمة التحرير الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة، يكون للجيش الإسرائيلي،

بمقتضى الإتفاقية، مطلق التصرف في التعامل مع الإرهابيين أما المستوطنات المقامة في سيناء فتبقى، ولكن تحت «السيادة» المصرية، ويمسح سكانها الحسنية المصرية، وتحميهم مصر، لا الجيش الاسرائيلي»^٩ - (غير أن السادات عدل عن هذا الحث المحمور بواحدانية الرعامة، بعد اتصال يبدو أنه وقع معه) فطبقاً لما يرويهِ وايرمان، تلقى في صباح اليوم التالي، ٢١/٢، مكالمة تليفونية من الحمصي أخطره فيها بسجود التوجه إلى القناطر الحيرية للاجتماع مجدداً بالسادات ويقول أنه عندما دخل على السادات وجده متوتراً غير عادي، ويحكى أنه بادره قائلاً «بعد اجتماع كارتر سيحين، سألي كارتر عما إذا كنت مصرأ على مسألة إقامة دولة فلسطينية (١) ومن وقتها وأنا أفكر في ذلك وكان تفكيري قد هداني إلى الحل بعيد المدى الذي ناقشناه بالأمس لكني، بعد ذلك، اجتمعت بممثلي الفلسطينيين من غرة فوجدت أنهم ليسوا على استعداد للقبول بذلك الحل لأنهم متمسكون بتقرير المصير وبطراً لمعارضتهم، لم يعد بوسعي القول أن الخطة التي طرحتها امس ما زالت قائمة فحس براء مشكلة إن لاني أعرف حدودي ولن أقترح ما لا أستطيع تنفيذه وبالنظر إلى معارضة الفلسطينيين لا أستطيع التيقن من أنني سأكون مستطيعاً تنفيذ ما اقترحت وأنا لا أحد أن أحد ولا أفى بما أعد به ولذا، فإن الموقف يكون قد عاد إلى ما كان عليه أول امس ولا بد لي هنا من أن أرحم من يحين أن يبدي شيئاً من المرونة فأننا لا أطالب بدولة فلسطينية، هكذا، على علاقتها، بل أطالب برابطة مع الأردن ومن الواضح أن معنى رابطة مع الأردن أنه لا يكون هناك وجود لدولة فلسطينية ولقد كان هذا رأيي قبل مبادرة السلام، وما زال هو رأيي الآن»^(١٠)

فالسادات عندما ذهب إلى القدس لم يذهب ليحصل على سلام شامل، أو ليحصل للفلسطينيين بـ «الشطارة» على دولة تنهي المشكلة، طبقاً لتصوير النظام المصري، وتضع حداً للصراع، وتخرج النظام من ورطة أوقع نفسه فيها بالخطابيات والكلية السياسية التي صورت لزعامته أنه كان سيظل مستطيعاً أن يواصل لعب الورقة الفلسطينية إلى ما لا نهاية كيما يؤمن بقاءه كـ «نظام ثوري وطني تحرري» ويؤمن بالتالي استمرار احتلاله الداخلي لمصر ويؤمن لزعيمه زعامة أوسع من مجرد التسيّد على العزبة المصرية. غير أنه تبين، منذ كسر ظهره في ١٩٦٧، أن تلك الورقة خطيرة، وأن مخاطرها أفضح بكثير مما كان متصوراً، وأنها محاطر لا قبل له بها وهو ليس على استعداد، مع ذلك، للتخلي عن السلطة لمن قد يكونون قادرين على القبول بها، أن وجدوا، بعد أن أعدم كل وجود سياسي نشط خارج النطاق الحديدي الذي ضربه حول أرواح المصريين وعقولهم، وليس على استعداد للاستمرار في التظاهر بقبول التحديات التي تفرضها، وليس على استعداد لأن يدع الأمور تتدهور إلى الحد الذي يكشفه ويعريه نهائياً كنظام زائف لا هو وطني، ولا هو ثوري، ولا هو تحرري، بل هو نظام عسكري فاشي قد احتل بلده بقوة السلاح وممارسات إرهاب الدولة

ولذلك كان ذهاب السادات إلى القدس، ثم لما كسر له بيجين بـ «عقليته الحجرية» كما أسماها النظام، إباء الزهور الهش الذي ذهب ليقدمه للاسرائيليين في القدس، هرولاً إلى واشنطن لائتذاً بحضن عرابية وأولياء نعمته الأميركيين في كامب ديفيد.

وكما قال عزرا وايرمان في تقييمه لما كان السادات جاهداً في طلبه، لم يذهب السادات إلى القدس ثم إلى واشنطن إلا سعياً وراء ورقة تين يخفي بها عورته الشنعاء وعورة نظامه المهترىء، وتتيح له أن يواجه العالم في صورة رجل الدولة كبير العقل كبير القلب الشجاع الذي لم يجبن عن مواجهة تحدي السلام بعد أن واجه تحدي الحرب، بصرف النظر عن أن تلك تحولت على يديه إلى حرب بالوكالة لصالح العدو، بينما هو أخذ في عملية تواطؤ مع الأميركيين والاسرائيليين على افتراس العالم العربي كله، لا القضية الفلسطينية وحدها.

ومن المفزع والمحزن أن كثيرين ممّن أثقلوا الوطاء على السادات وخاصموه وقاطعوا مصر ظلوا، في واقع الأمر، في صف ما فعل، وكان كل اختلافهم معه حول أسلوبه الخشن السافر العدواني الذي دفع في النهاية إلى التخلص منه حرصاً على ما هو أهم من شخصه

هوامش الباب الثاني

- (١) «السادات، الحقيقة والاسطورة»، ص ١٩٦/١٩٧
- (٢) المرجع نفسه، ص ٢٠٢
- (٣) ٧٢ شهراً مع عبد الناصر، ص ٥٩
- (٤) «شهود ثورة ٢٣ يوليو»، ص ٤٢٠
- (٥) «السادات، الحقيقة والاسطورة»، ص ٢٤٧
- (٦) شرة «الاشتراكي»، العدد الاول، ٦ فبراير ١٩٦٥ أورد الاستشهاد وحيد عبد المحيد في «عبد الناصر وما بعد» في بحثه «قضايا الديمقراطية والتنظيم السياسي لثورة ٢٣ يوليو»، ص ١٦٥
- (٧) المرجع نفسه، ص ١٦٦
- (٨) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (٩) المرجع نفسه، ص ١٦٧
- (١٠) «السادات، الحقيقة والاسطورة»، ص ٢٠٥
- (١١) «شهود ثورة ٢٣ يوليو»، ص ١٥٩
- (١٢) ياسين الحافظ «دراسة تحليلية لنظام عبد الناصر». كتاب «في الفكر السياسي» دار دمشق للطباعة والنشر، ١٩٦٣، ص ٤٧ - ٤٩
- (١٣) د فؤاد مرسي «أزمة الصيغة الاشتراكية الناصرية»، كتاب «عبد الناصر وما بعد»، ص ١٥٩، ١٦٠
- (١٤) شهادة خالد محي الدين، «شهود ثورة ٢٣ يوليو»، ص ١٤٦
- (١٥) د فؤاد مرسي أزمة الصيغة الاشتراكية الناصرية، كتاب «عبد الناصر وما بعد»، ص ١٦١
- (١٦) وحيد عبد المجيد «قضايا الديمقراطية والتنظيم السياسي لثورة ٢٣ يوليو»، كتاب «عبد الناصر وما بعد»، ص ١٦٩/١٧٠.
- (١٧) المرجع نفسه ص ١٧١.
- (١٨) «السادات، الحقيقة والاسطورة»، ص ٢٤٧.
- (١٩) وحيد عبد المحيد «قضايا الديمقراطية» - «عبد الناصر وما بعد»، ص ١٧٠/١٧١
- (٢٠) «السادات، الحقيقة والاسطورة»، ص ٢٥٩
- (٢١) المرجع نفسه، ص ٢٥٨
- (٢٢) Denis Mack Smith The Theory and Practice of Fascism, in «Fascism, An Anthology», Ed. Nathanael Greene, Thomas Y Crowell Co., N Y 1968, pp 95 - 97
- (٢٣) أحمد حمروش «قصة الثورة، الجزء ٢» مجتمع عبد الناصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٨، ص ١٧٤
- (٢٤) المرجع نفسه، ص ١٥٤
- (٢٥) ٧٢ شهراً مع عبد الناصر، ص ٧٧
- (٢٦) «مجتمع عبد الناصر»، ص ١٦٨
- (٢٧) المرجع نفسه، ص ١٥٠ - ١٥٢
- (٢٨) المرجع نفسه، ص ١٤٩
- (٢٩) ٧٢ شهراً مع عبد الناصر، ص ٤٤
- (٣٠) المرجع نفسه، الصفحات ١٩٦ و ١٩٧ و ١٩٩
- (٣١) المرجع نفسه، ص ١٩٣
- (٣٢) «مجتمع عبد الناصر»، ص ١٢٢/١٢٤
- (٣٣) المرجع نفسه، ص ١٢٧.
- (٣٤) «السادات، الحقيقة والاسطورة»، ص ٢٨٥
- (٣٥) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- (٣٦) المرجع نفسه، ص ٢٨٧.
- (٣٧) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (٣٨) المرجع نفسه، ص ٢٨٦
- (٣٩) المرجع نفسه، ص ٢٨٤
- (٤٠) المرجع نفسه، ص ٢٨٣
- (٤١) المرجع نفسه، الصفحة نفسها

قتل مصر

- (٤٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (٤٣) المرجع نفسه، ص ٢٧٦
- (٤٤) خريف عبد الناصر ص ٢٢٧ وص ٢٢٨
- (٤٥) «السادات الحقيقة - والاسطورة»، ص ٢٠٧
- (٤٦) المرجع نفسه، ص ٢٨٧
- (٤٧) المرجع نفسه، ص ٢٨٥
- (٤٨) المرجع نفسه، ص ص ٢٨٦/٢٨٥
- (٤٩) المرجع نفسه، ص ٢٨٥
- (٥٠) المرجع نفسه، ص ٢٧٩
- (٥١) «عبد الناصر وما بعد»، ص ص ٨ و ٩
- (٥٢) «مجتمع عبد الناصر»، ص ١٢٤
- (٥٣) «السادات، الحقيقة والاسطورة»، ص ٢٨٠
- (٥٤) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (٥٥) «مجتمع عبد الناصر»، ص ص ١٢٤/١٢٥
- (٥٦) «السادات، الحقيقة والاسطورة»، ص ٣٠١
- (٥٧) Bulloch, Alan *Hitler, a Study in Tyranny*, Book Club Associates, London, 1973, p 130.
- (٥٨) Ibid, p 167
- (٥٩) Ibid, p 191
- (٦٠) «خريف عبد الناصر»، ص ٣١٣.
- (٦١) المرجع نفسه، ص ٣١٦.
- (٦٢) المرجع نفسه، ص ٣١٥
- (٦٣) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (٦٤) المرجع نفسه، ص ٣١٣
- (٦٥) شهادة خالد محي الدين، «شهود ثورة يوليو»، ص ص ١٥٢/١٥٣
- (٦٦) «مجتمع عبد الناصر»، ص ١٧١ وص ١٧٢
- (٦٧) المرجع نفسه، ص ١٧٠
- (٦٨) المرجع نفسه، ص ١٧٢
- (٦٩) المرجع نفسه، ص ١٧٣
- (٧٠) المرجع نفسه، ص ص ١٧٣/١٧٥
- (٧١) Speech by the fuhrer to the Hitler Youth at Nuremberg on 2 - 9 - 33 (Baynes vol I, p 538), quoted by Bulloch in op cit . p. 403.
- (٧٢) Ibid, p 404
- (٧٣) Speech by Hitler at Hamburg, 20 - 3 - 36 (Baynes vol. II, pp 1, 312 - 13), quoted by Bulloch in op. cit p 404
- (٧٤) Bulloch, *Hitler*, op cit p 404
- (٧٥) «مجتمع عبد الناصر»، ص ١٧٤
- (٧٦) «السادات، الحقيقة والاسطورة»، ص ٣٢١
- (٧٧) «مجتمع عبد الناصر»، ص ١٢٧
- (٧٨) المرجع نفسه، ص ١٣١.
- (٧٩) المرجع نفسه، ص ص ١٢٢/١٢١
- (٨٠) شاكر النابلسي «قطار التسوية والبحث عن المحطة الأخيرة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٦، ص ٩
- (٨١) «عبد الناصر وما بعد»، ص ١٣
- (٨٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (٨٣) المرجع نفسه، ص ١٤
- (٨٤) المرجع نفسه، ص ٨١.
- (٨٥) «مجتمع عبد الناصر»، ص ص ١٩٤/١٩٥
- (٨٦) المرجع نفسه، ص ١٩٦

- (٨٧) المرجع نفسه، نفس الصفحة
- (٨٨) المرجع نفسه، ص ١٩٦/١٩٧
- (٨٩) المرجع نفسه، ص ١٩٥
- (٩٠) المرجع نفسه، ص ١٩٧/١٩٩
- (٩١) المرجع نفسه، ص ١٩٩
- (٩٢) المرجع نفسه، ص ١٢٨/١٢٩
- (٩٣) المرجع نفسه، ص ١٢٩/١٤٣
- (٩٤) «السلام الضائع»، ص ٢٣/٢٤
- (٩٥) «السادات، الحقيقة والأسطورة»، ص ٢٧٧/٢٧٨
- (٩٦) «السلام الضائع»، ص ١١/١٢
- (٩٧) «السادات، الحقيقة والأسطورة»، ص ٢٧٩
- (٩٨) «السلام الضائع»، ص ١٢
- (٩٩) «السادات، الحقيقة والأسطورة»، ص ٢٧٨
- (١٠٠) «السلام الضائع»، ص ١٢
- (١٠١) المرجع نفسه، ص ١٢/١٣
- (١٠٢) المرجع نفسه، ص ١٦/١٧
- (١٠٣) المرجع نفسه، ص ١٩
- (١٠٤) «السلام الضائع»، ص ١٧
- (١٠٥) «السادات، الحقيقة والأسطورة»، ص ٢٧٧
- (١٠٦) المرجع نفسه، ص ٢٠١
- (١٠٧) المرجع نفسه، ص ٢٠٧
- (١٠٨) Dayan, Moshe. *Breakthrough*, Alfred Knopf, N Y , 1981, p 90
- (١٠٩) «السادات، الحقيقة والأسطورة»، ص ١٩١
- (١١٠) Dayan, *Breakthrough*, op cit pp. 79 - 80.
- (١١١) «السادات، الحقيقة والأسطورة»، ص ٢٠٦
- (١١٢) Quandt, William B *Camp David - Peacemaking and Politics*, The Brookings Institution, Washington, 1986, p 87
- (١١٣) Vance, Cyrus: *Hard Choices*, Simon and Schuster, N Y , p 174
- (١١٤) «مذكرات محمود رياض، ص ٥٢٨
- (١١٥) «السلام الضائع»، ص ٢٢
- (١١٦) «السادات الحقيقة والأسطورة»، ص ٢٧٨
- (١١٧) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (١١٨) المرجع نفسه، ص ٢٧٩
- (١١٩) «السلام الضائع»، ص ٢٣
- (١٢٠) المرجع نفسه، ص ٢٣
- (١٢١) «السادات الحقيقة والأسطورة»، ص ٢٨٠
- (١٢٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (١٢٣) المرجع نفسه، ص ٢٨٧/٢٨٨
- (١٢٤) المرجع نفسه، ص ٢٦٦
- (١٢٥) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (١٢٦) المرجع نفسه، ص ٢٦٨ - ٢٧٠
- (١٢٧) المرجع نفسه، ص ٢٨٥
- (١٢٨) المرجع نفسه، ص ٤٠٣
- (١٢٩) Spiegel. *The Other Arab - Israeli Conflict*, op. cit , p 204.
- (١٣٠) «مذكرات محمود رياض، ص ٢٢٧
- (١٣١) المرجع نفسه، ص ٢٣٦
- (١٣٢) «بالية السلام الأميركي»، المثقف العربي، ص ١٤٨
- (١٣٣) Nixon, Richard *Memolrs*, Grosset and Dunlap, N.Y., 1978, p. 481.

- Ibid, p 482 (١٢٤)
- Spiegel, op. cit , p 181 (١٢٥)
- Brogan, Hugh The Pelican History of the USA Penguin Books, 1985, p 684 (١٢٦)
- «مذكرات محمود رياض»، ص ٢٠٠/٢٠١ (١٢٧)
- Golda Meir, in her **Memoirs**, about William Rogers (١٢٨)
- «I suspect that he never really understood the background to the Arab wars against Israel or ever realized that the verbal reliability of the Arab leaders was not, in any way, Similar to his own I remember how enthusiastically he told me about his first visit to the Arab states and how immensely impressed he was by Faisal's «thirst for peace» As is true of many other gentlemen I have known, Rogers assumed - wrongly, unfortunately - that the whole world was made up solely of other gentlemen!»
- (quoted by Spiegel, op cit., p 183)
- Spiegel, op cit , pp 172 - 173. (١٢٩)
- Ibid, pp 174 - 175 (١٣٠)
- Ibid, pp 176 - 177 (١٣١)
- «مذكرات محمود رياض»، ٢٩٧/٢٩٨. (١٣٢)
- المرجع نفسه، ص ٢٩٩/٣٠٠ (١٣٣)
- المرجع نفسه، ص ٢٦٨ (١٣٤)
- المرجع نفسه، ص ٢٧٥ (١٣٥)
- Spiegel, op cit , p 177 (١٣٦)
- Ibid, p 212 (١٣٧)
- Nixon Memoirs, op cit , P 479 (١٣٨)
- Spiegel, op. cit., pp 205 - 206. (١٣٩)
- «السادات، الحقيقة والاسطورة»، ص ٢٦٨ (١٤٠)
- المرجع نفسه، الصفحة نفسها. (١٤١)
- المرجع نفسه، ص ٢٦٩ (١٤٢)
- المرجع نفسه، الصفحة نفسها. (١٤٣)
- المرجع نفسه، ص ٢٦٩/٢٧٢ (١٤٤)
- المرجع نفسه، ص ٢٨٠. (١٤٥)
- المرجع نفسه، ص ٢٠٩ (١٤٦)
- «السلام الضائع»، ص ١٨٩/١٩٣. (١٤٧)
- «السادات، الحقيقة والاسطورة»، ص ١٩٦ (١٤٨)
- «السلام الضائع»، ص ١٩٥. (١٤٩)
- «السادات، الحقيقة والاسطورة»، ص ١٩٤. (١٥٠)
- المرجع نفسه، الصفحة نفسها (١٥١)
- المرجع نفسه، الصفحة نفسها (١٥٢)
- المرجع نفسه، الصفحة نفسها (١٥٣)
- المرجع نفسه، ص ٢٧٢/٢٦٩ (١٥٤)
- المرجع نفسه، ص ٢٨٠. (١٥٥)
- المرجع نفسه، ص ٢٠٩ (١٥٦)
- «السلام الضائع»، ص ١٨٩/١٩٣. (١٥٧)
- «السادات، الحقيقة والاسطورة»، ص ١٩٦ (١٥٨)
- «السلام الضائع»، ص ١٩٥. (١٥٩)
- «السادات، الحقيقة والاسطورة»، ص ١٩٤. (١٦٠)
- المرجع نفسه، الصفحة نفسها (١٦١)
- المرجع نفسه، الصفحة نفسها (١٦٢)
- المرجع نفسه، الصفحة نفسها (١٦٣)
- المرجع نفسه، ص ٣١٢. (١٦٤)
- المرجع نفسه، ص ٣١٣. (١٦٥)
- المرجع نفسه، ص ٣١٤ (١٦٦)
- المرجع نفسه، الصفحة نفسها. (١٦٧)
- المرجع نفسه، ص ٣١٢/٣١٣. (١٦٨)
- مذكرات محمود رياض، ص ١٩٣. (١٦٩)
- «السادات، الحقيقة والاسطورة»، ص ٢٥٢. (١٧٠)
- المرجع نفسه، ص ٢٨٨ (١٧١)
- مذكرات محمود رياض، ص ٣٧٨ و ٣٨٠. (١٧٢)
- المرجع نفسه، ص ٢٨٢/٢٨٤. (١٧٣)
- المرجع نفسه، ص ٢٨٥، ٢٨٧. (١٧٤)

- (١٧٥) المرجع نفسه، ص ص ٣٩٦/٣٩٥
- (١٧٦) المرجع نفسه، ص ص ٣٩٨/٣٩٧
- (١٧٧) المرجع نفسه، ص ٤ ٤
- (١٧٨) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (١٧٩) المرجع نفسه، ص ٢٢١
- (١٨٠) المرجع نفسه، ص ص ٢٣٢/٢٣٢
- (١٨١) المرجع نفسه، ص ص ٤٠٤/٤٠٥
- (١٨٢) المرجع نفسه، ص ص ٤٠٦/٤٠٥
- (١٨٣) المرجع نفسه، ص ٤٠٧
- (١٨٤) السادات، الحقيقة والأسطورة، ص ٢١٢
- (١٨٥) مذكرات محمود رياض، ص ٢٥٣
- (١٨٦) السلام الضائع، ص ٢٤
- (١٨٧) السادات، الحقيقة والأسطورة، ص ٢٢١
- (١٨٨) المرجع نفسه، ص ٧٠٥
- (١٨٩) المرجع نفسه، ص ٧١٢
- (١٩٠) المرجع نفسه، الصفحات ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٢٨ و ٢٢٩ و ٣٥٠ و ٣٥١ و ٣٥٢ و ٣٥٣
- (١٩١) المرجع نفسه، ص ٢٢٦
- (١٩٢) المرجع نفسه، ص ٢٢٤
- (١٩٣) المرجع نفسه، ص ٧٠٦
- (١٩٤) المرجع نفسه، ص ٧١١
- (١٩٥) السلام الضائع، ص ٢٠٢
- (١٩٦) المرجع نفسه، ص ص ٢٠١/١٩٩
- (١٩٧) El-Shazli, General Saad The Crossing of Suez, The October 1973 War, Third World Center, London, 1980, p 9
- (١٩٨) Ibid, p 205.
- (١٩٩) Ibid, PP 184 - 189.
- (٢٠٠) السادات، الحقيقة والأسطورة، ص ص ٤١٥/٤١٦
- (٢٠١) مذكرات محمود رياض، ص ٥٣٢
- (٢٠٢) المرجع نفسه، ص ٤٩٠
- (٢٠٣) السادات، الحقيقة والأسطورة، ص ٧١٢
- (٢٠٤) المرجع نفسه، ص ٤٠٤
- (٢٠٥) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (٢٠٦) El - Shazli, General Saad, The Crossing of Suez, op. cit., pp 85 - 86.
- (٢٠٧) السادات، الحقيقة والأسطورة، ص ٤٠٤
- (٢٠٨) السلام الضائع، ص ص ٧٥/٧٤
- (٢٠٩) El - Shazli, General Saad, The Crossing of Suez, op cit., p 99.
- (٢١٠) Ibid, pp. 185 - 186.
- (٢١١) Ibid, pp. 186 - 187
- (٢١٢) «مذكرات محمود رياض»، ص ٤٧٦
- (٢١٣) المرجع نفسه، ص ٤٧٨
- (٢١٤) المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (٢١٥) El - Shazli, General Saad, The Crossing of Suez, op. cit. pp 169 - 170.
- (٢١٦) Ibid, p. 170.
- (٢١٧) السادات، الحقيقة والأسطورة، ص ٣٥٨
- (٢١٨) El - Shazli, General Saad: The Crossing of Suez, op cit. pp 165 - 166
- (٢١٩) Ibid, p. 169
- (٢٢٠) السادات، الحقيقة والأسطورة، ص ٣٥٩
- (٢٢١) المرجع نفسه، ص ٣٦١

قتل مصر

- (٢٢٢) المرجع نفسه، ص ٢٦٢
- (٢٢٣) المرجع نفسه، ص ٢٦٢
- (٢٢٤) «تأثيرات حرب أكتوبر ١٩٧٣» ادجار اوبالاس، مترجم، مجلة «دراسات عربية»، السنة ١٢ العدد ٧، مايو ١٩٧٦، ص ٣١/٣٦
- (٢٢٥) «مذكرات محمود رياض»، ص ٤٨٠
- (٢٢٦) «السلام الضائع»، ص ٥٩٥/٥٩٨
- (٢٢٧) «مذكرات محمود رياض»، ص ٥٥٦
- (٢٢٨) المرجع نفسه، ص ٥٧٥
- (٢٢٩) «السلام الضائع»، ص ٦٠٣
- (٢٣٠) «السادات، الحقيقة والأسطورة»، ص ٢٢٧/٢٢٨
- Dayan, Breakthrough, op. cit., p. 38 (٢٣١)
- Ibid, pp 40 - 41 (٢٣٢)
- Dayan, Breakthrough, op. cit., pp 47 & 49 (٢٣٣)
- «مذكرات محمود رياض»، ص ٤٩٨ (٢٣٤)
- (٢٣٥) «السادات، الحقيقة والأسطورة»، ص ٢٩٨/٢٩٩
- (٢٣٦) المرجع نفسه، ص ٢٢٣/٢٢٤
- (٢٣٧) المرجع نفسه، ص ٢٢٣
- (٢٣٨) المرجع نفسه، ص ٢١١
- Dayan, Breakthrough, op. cit., p. 88. (٢٣٩)
- Ibid, pp. 89, 90 (٢٤٠)
- Spiegel, The Other Arab - Israeli Conflict, op. cit., p. 340 (٢٤١)
- Ibid, p. 341. (٢٤٢)
- (٢٤٣) «مذكرات محمود رياض»، ص ٤٦٨
- (٢٤٤) «السادات، الحقيقة والأسطورة»، ص ٢٦٢
- (٢٤٥) المرجع نفسه، ص ٤١٨/٤٢٠
- (٢٤٦) محمد حسنين هيكل «عبد الناصر والعالم» مترجم، دار النهار للنشر بيروت، ص ٨٨
- (٢٤٧) «ويليم كوات - عشر سنوات من القرارات الأميركية تجاه النزاع العربي الاسرائيلي»، مترجم، مصلحة الاستعلامات، القاهرة، ص ٩٤/٩٦
- (٢٤٨) «وثائق عبد الناصر»، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، الاهرام، القاهرة، ص ٢٥٠
- (٢٤٩) «السلام الضائع»، ص ٢٢٨/٢٢٩
- (٢٥٠) «السادات، الحقيقة والأسطورة»، ص ٤١٩
- (٢٥١) «٧٢ شهراً مع عبد الناصر»، ص ٩٦
- Weizman, Ezer The Battle for Peace, Bantam Books, N Y 1981 pp 292 - 301 (٢٥٢)
- (٢٥٣) «السلام الضائع»، ص ٢٢٢
- (٢٥٤) المرجع نفسه، ص ٢٢٢
- Weizman, Battle for Peace, op. cit., pp 294 - 301 (٢٥٥)

الباب الثالث

السلام الميم

تقديم

تقول ديباجة الوثيقة الأولى من الوثيقتين اللتين تشكّلان إتفاق كامب ديفيد الموقع في البيت الأبيض الأمريكي، بواشنطن، يوم ١٧ سبتمبر / أيلول ١٩٧٨، أنه «بعد أربع حروب نشبت خلال ثلاثين عاماً، وبالرغم مما بذل من جهود إنسانية مكثفة، لم يتح للشرق الأوسط بعد، وهو مهد الحضارة ومسقط رأس ديانات ثلاث عظيمة، أن يستمتع بنعمة السلام».

وتؤكد الديباجة، التي نهج واضعوها نهج من وضعوا ميثاق الأمم المتحدة، أن «شعوب الشرق الأوسط تواقّة إلى السلم حتى يتسنى تحويل موارد المنطقة البشرية والطبيعية الضخمة إلى أنشطة السلم وحتى تصبح المنطقة قدوة للتعايش والتعاون بين الأمم».

وهذا كلام ينعش النفس حقاً كلام ينبغي أن يتهلل له القلب ويضيء العقل وتزغرد الروح فرحاً، لأنه ما أحل السلم بعد حرب، والصلح بعد خصام، والراحة بعد تعب، والري بعد ظمأ، والشبع بعد جوع، كما يقول المثل الصيني الحكيم

غير أننا، وقد مر ذلك المثل بخاطربنا، يجب أن نتذكر أنه يقول أيضاً والموت بعد حياة. وينبغي أن نذكر أنفسنا بأن هذه - تحديداً - هي المشكلة الحياة والموت البقاء والعدم النجاة من الافتراس والاستسلام للأنياب. ويتعين أن نفطن إلى أن الخيار الوحيد المتاح، في سياق ما نحن بصدده، خيار بين مشقة البقاء وراحة العدم.

فنحن، حتى إذا عطلنا عقولنا، ودفنا رؤوسنا القبيحة في رمال الجهل والرعب لنلا نواجه البراهين التي يضعها التاريخ أمام عيوننا على الطبيعة الاستحارية الملامة للسلام الذي يعقده شعب صاحب أرض مع غزاة إستيطانيين طالبين أرض، لا مهرب لنا في النهاية - مهما كانت مصالح الحكام - من مواجهة الحقيقة الماثلة في أن السلام معادلة ذات حدين، وتعاقد بير طرفين راغبين في السلام حقاً وبنفس القدر

وفيما يخص صفقة كامب ديفيد، عقدت الصفقة بين نظام سعى إلى السلام بالحاح منذ سنة ١٩٥٥، هو النظام المصري، وغزاة استيطانيين رفضوا مجرد التفكير في السلام منذ ما قبل إنشاء «الدولة» بوقت طويل. فمنذ ١٩٢٦، علّم «أسد يهوذا»، ديفيد بن جوريون، أنه لا سلام مع العرب، وأوضح أن أي إتفاق يعقد مع العرب كضرورة مرحلية لا يمكن أن يكون السلام غايته من حيث أن أي إتفاق مع العرب لن يخرج عن كونه وسيلة مرحلية تتيح للدولة الصهيونية بناء قوتها وترسيخ أقدامها بالاستفادة من ظروف السلم، أما الغاية فتظل التحقق الكامل والحرفي للمشروع الصهيوني بكل أبعاده.

ومرة أخرى نقول أننا حتى إذا عطلنا عقولنا، ورفضنا أن نفهم ورفضنا أن نصدق، بل ورفضنا أن نرى الدليل الحي الماثل على أن تعاليم بن جوريون وغيره من زعماء الحركة الصهيونية تنفذ دائماً بحرفيتها، وهو الدليل الذي يزودنا به ما حدث للبلد العربي الذي كتب تاريخه الراهس سلفا ديفيد بن جوريون ووضع آليات تنفيذ ذلك التاريخ موسى ديان قبل عقود طويلة^(*)، وتغافلنا عن الطبيعة

(*) «في مايو / أيار ١٩٤٨، طرح ديفيد بن جوريون المخطط الاستراتيجي التالي على الأركان العامة لقوات الدفاع الاسرائيلية =

البرقاء (blueprint) للتصميم المعماري للمشروع الصهيوني الذي تنفذ خطوطه حولنا بالحديد والنار وبحار الدم، وجب - على سبيل الاحتياط بالأقل - أن نتساءل وما مصلحة إسرائيل في السلام؟ ما الذي يمكن أن يجعل إسرائيل راغبة في سلام مع العرب بينما المنفذ الأساسي للمشروع الصهيوني التي هي مرحلته الأولى، الولايات المتحدة الأميركية، يجعلها في وضع تفوق عسكري وتقني متعظم ويوفر لها حماية دبلوماسية واقتصادية لا تنقطع؟ بل ويجب أن نسأل أنفسنا: وما الذي يمكن أن يجعل الولايات المتحدة الأميركية، وهي في الحقيقة صاحبة الغزوة الاستيطانية الصهيونية للمنطقة، راغبة في سلام مع العرب بينما العرب.. في التحليل النهائي - أصحاب الأرض الذين تتحتم إزالتهم منها كيما ينفذ المشروع تنفيذاً كاملاً ومطلقاً وحرفياً، كما أوضح بن جوريون؟

وإذا ما طلبنا مصريين على تعطيل عقولنا، فتعامينا عن هدين التساؤلين الجوهريين، وجب أن نتساءل وأي ضمان هناك باستمرار سلام يعقد مع إسرائيل وتلحاً إليه إسرائيل كوسيلة مرحلية لبناء قوتها وهضم ما ابتلعتة والاعداد لوثة تبتلع خلالها المزيد؟ من الذي سيمنع إسرائيل من ذلك؟ المعاهدة المصرية الإسرائيلية؟ أميركا؟ المجتمع الدولي؟ الأمم المتحدة؟ الرأي العام العالمي؟ قانون العيب؟ المعاهدات تمزق. وقد مزقتها غولا كوهين في ساحة الكنيست كذير لمصر. أميركا سيقول رئيسها وقتئذ أنه «سيفقد كرسية إذا ما ضغط على إسرائيل» كما قال كارتر للسادات ولأسامة البار المجتمع الدولي تحكمه المصالح، وتربطه بكاحل أميركا الأمم المتحدة تهددها بنيامين نتنياهو ومدوب إسرائيل الدائم لديها بأنها ستهدم على رؤوس من فيها إذا ما تمادت في معارضتها لإسرائيل، ثم ابتلتها الولايات المتحدة بحفاف مالي أشبه بالحفاف الذي ابتليت به بلدان كثيرة في العالم الثالث فباتت في وضع احتضار من القحط والمحاجة. الرأي

= «إسايح أن بعد انعسا للتحول إلى الهجوم عملاً على تحطيم لبنان، وشرق الأردن، وسوريا أن الحلقة الضعيفة في الائتلاف العربي لسان (لأر) البطام المسلم فيه مصطعب ويسهل تقويضه فلا بد من إنشاء دولة مارونية تكون حدودها على الضفة الأخرى من نهر الليطاني، وستتحالف معها وعندما يكون قد حطما الفيلق العربي، سنقصف عمان، وبريل شرق الأردن من الوجود، واداك سنسقط سوريا وإذا ما جرؤت مصر على مواصلة القتال، سنقصف بورسعيد، والاسكندرية، والقاهرة» «وفي رسالة كتبها إلى ابنة، كتب بن جوريون يقول

«أن غابتنا ليست دولة يهودية حرثية فتلك مجرد بداية وأنا موقن من أناسل يعنينا أحد من إستيطان كل الأجزاء الأخرى من البلد (فلسطين)، إما بالاتفاق مع حيرانا العرب، وإما بوسيلة أخرى (فإذا ما رفض العرب الاتفاق معنا) سنكلمهم بلغة أخرى غير أناسل نكون قادرين على التكلم بتلك اللغة الأخرى إلا إذا أصبحت لنا دولة»

«وكان بن جوريون قد أوضح، في حديث صحفي، أدلى به اثر انتهاء المؤتمر الصهيوني العشرين في يورج في أغسطس / آب ١٩٢٧، أن المناقشة في المؤتمر لم تكن حول الاكتفاء بدولة صغيرة كحرم ممكن من إسرائيل الكبرى من عدمه لأنه لا وجود لصهيوني يمكن أن يتنازل عن أي حرم مما صغر من إسرائيل الكبرى بل كانت المناقشة حول أي من السبلين (رفض مشروع التقسيم الذي وضعته لجنة بيل أو قبوله مرحلياً) هو الذي يمكن أن يؤدي بشكل أسرع إلى بلوغ ذلك الهدف (إقامة إسرائيل الكبرى)»

(Chomsky, Noam. «The Fateful Triangle - The United States, Israel and the Palestinians», South End Press, Boston, 1983, PP. 162/163)

«كان لسان دائماً، بالنسبة لإسرائيل، «أضعف حلقة في السلسلة العربية» المحيطة بإسرائيل، كما قال ديفيد بن جوريون ومنذ اللحظة الأولى لإنشاء الدولة الصهيونية، إنصرف تفكير رعمائها إلى ابتكار مشروعات تمكهم من تحطيم تلك الحلقة الضعيفة بإقامة دولة مارونية تحت الوصاية الإسرائيلية في لبنان الأوسط وصم جنوب لبنان كله، من نهر الليطاني، إلى أراضي إسرائيل وفي اجتماع لكار المسؤولين بورارتي الخارجية والدفاع بإسرائيل في ١٦ مايو / أيار ١٩٥٥، عقد لمناقشة ذلك المخطط والنظر في وسائل تنفيذه، أعلن رئيس الأركان آنذاك، موشى ديان (حسبما هو مدور في مذكرات وزير الخارجية آنذاك، موشى شاريت) أن تنعيد المخطط لن يتطلب «أكثر من العثور على ضابط لبناني، ولو برتبة رائد، نكسبه إلى جانباً أو يشتريه بالمال لجعله يوافق على أن يعلن نفسه مخلصاً للسكان الموارنة وأد ذال سيدخل الجيش الإسرائيلي لسان، ويحتل الأراضي التي تدعو الحاجة إلى احتلالها ويخلق نظاماً مارونياً يتحالف مع إسرائيل وميما يخص كل الأرض اللبنانية المعتدة من الليطاني جنوباً، ستضم تلك الأرض إلى إسرائيل وفي ذلك الاجتماع، في مايو / أيار ١٩٥٥، أوصى ديان بأن يعد كل ذلك على الفور، غداً»

(Petran, Tabitha. «The Struggle Over Lebanon», Monthly Review Press, N Y 1987, PP. 11/12)

العام العالمي تصنعه وتلعب به الكرة وسائط الاعلام الغربي التي تملكها وتديرها وتسيرها المصالح الصهيونية وتحكم في اقلام وصمائر وعقول وحيوب محرريها وتمتلك ملفاتهم السرية ثم إنه ماذا فعله الراي العام العالمي، أو المجتمع الدولي، أو فعلته الأمم المتحدة، أو فعلته أميركا أو فعله القانون أو فعله القانون الدولي والاعراف الدولية في أى مرة عرت فيها إسرائيل بلداً عربياً أو قصفته من الحو أو خطفت طائراته؟ وفي النهاية، ألم يجعل الانخراط الأميركي في تنفيذ المشروع الصهيوني إسرائيل والحركة الصهيونية فوق القانون وفوق الاعراف وفوق المساءلة وفوق المعارضة، بل فوق الانتقاد ومجرد المصممة بالشعاع تحسراً أو استهجاناً؟

وفي ظل هذه الاساسيات التي لا سبيل إلى إنكارها، يمكننا أن نتوقع، متى قررت إسرائيل أن تمزق معاهدة السلام، أن تمزقها، ومتى قررت أن تحتل سياء محدد، أن تحتلها، ومتى قررت أن تدخل القاهرة، أن تدخلها، ومتى قررت أن تحتل بقية لسان، أن تحتلها، ومتى قررت أن تضم الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية، أن تضمها، ومتى قررت أن توسع منطقة الاحتلال السورية من الجولان إلى دمشق وحلب، أن توسعها، ومتى قررت أن تستولي على أبار النفط «لصالح العالم الحر» أن تستولي عليها. ويمكننا أن نتوقع وقتها أن يحدث هياج هزيل صغير لدى المجتمع الدولي، سرعان ما تخمده الولايات المتحدة بقدماها، بينما الدعم الدبلوماسي بلا حدود، والدعم العسكري والمالي بلا حدود، والتواطؤ الكامل بلا حدود، تشد كلها أزر إسرائيل، وتقوى عضدها، وتدفعها قدماً إلى الأمام لتنفيذ حرقها المرحلة التالية من المشروع الصهيوني، وبعد أن يكون التنفيذ قد اكتمل، تصدر الخارجية الأميركية بياناً شاعرياً تقول أنه بعد خمسة حروب قد أن الأوان لجعل المنطقة تتمتع بمباهج السلام

تشيد الديباجة بعد ذلك الحديث عن السلام بـ «مبادرة الرئيس السادات التاريخية المتمثلة في زيارته للقدس (المحتلة) وقيام رئيس الوزراء بيجين برد الزيارة له في الاسماعيلية»، وتشير إلى «مقترحات السلام التي طرحها الزعيمان والاستقبال الحار الذي استقبل به شعبا البلدين «كلتا البعثتين» (باعتبار أن السادات ذهب إلى القدس مبعوثاً عن الشعب المصري وبيجين ذهب إلى الاسماعيلية مبعوثاً عن الشعب الاسرائيلي، وبذلك يكون الاتفاق إتفاقاً تعاقدياً بين الشعبين لا بين السادات وبيجين كشخصين)، وكيف أن ذلك كله أوجد «فرصة لم يسبق لها مثيل للسلام لا يجب أن تضيع إن كان لهذا الجيل والأجيال القادمة أن تجنب ويلات الحرب».

وقد وضع مسودة هذا الكلام هارولد سوندرز الدبلوماسي الأميركي الذي كان نشطاً للغاية في «مساعي السلام» من أيام عبد الناصر، ولجأ في صياغته إلى اللغة التي صيغ بها ميثاق الأمم المتحدة وهي لغة باتت عباراتها الانشائية جزءاً من مفردات اللغة الدبلوماسية والتفكير الذي يأخذ منطلقاته من وهم وجود شيء اسمه «المجتمع الدولي وهم وجود ما يدعى بـ «الاعراف الدولية» وهم أن هذه الأشياء المجيدة يمكن أن تتواجد وتكون فعالة ويمكن لأحد أن يلوذ بها متى تعلق الأمر بمصالح مرتبطة بتنفيذ المشروع الصهيوني. فديباجة الميثاق تقول «نحن شعوب العالم، وقد ألبنا على أنفسنا أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التي في خلال جيل واحد جلبت على الانسانية أحزاناً يعجز عنها الوصف». وديباجة إطار كامب ديفيد تقول أنه لا يجب تضييع الفرصة التي اتاحها تبادل الزيارات بين السادات وبيجين بوصفهما مبعوثين عن الشعبين المصري والاسرائيلي وما قدماه من مقترحات السلام، «إنقاذاً لهذا الجيل والأجيال المقبلة من ويلات الحروب التي نشبت أربع منها، رغم الجهود المكثفة من جانب الانسانية، خلال ثلاثين عاماً».

١- توضيب السلام ليلانم إسرائيل

وقد راجع النص الذي أعده سوندرز الرئيس الأميركي جيمي كارتر، وسجل على هوامشه عدداً من الملاحظات عما توقع أن تكون عليه استجابات الوفدين المصري والاسرائيلي بالنسبة لصياغات بعينها، كما

أرليت منه نقاط هامة قبل عرضه على الجانب الاسرائيلي. وسنتوقف عند كل ذلك في موضعه. وتقرر الديباجة بعد ذلك أن «نصوص ميثاق الأمم المتحدة والقواعد الأخرى المعمول بها في القانون الدولي والشرعية الدولية تهيء الآن المعايير المقبولة لتسيير العلاقات بين الدول جميعاً» ثم تسيير الديباجة إلى المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة، وهي التي تنص على أن المنظمة الدولية والدول الأعضاء فيها تعمل على تحقيق مقاصد الميثاق، وهي صون السلم العالمي والأمن الدولي، وإنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس مبدأ المساواة في الحقوق بين الشعوب وبأن يكون لكل شعب منها حق تقرير المصير، وتحقيق التعاون الدولي على حل المشاكل الدولية، وجعل المنظمة الدولية مرجعاً لتنسيق أعمال الأمم وتوجيهها نحو تحقيق هذه الغايات المشتركة

وفي المشروع الذي وضعه سوبدرز وراجعه كارتر، كان النص كما يلي في الموضع الذي أشير فيه إلى المادة الثانية من الميثاق «أن الأساس الوحيد المتفق عليه للتوصل إلى تسوية سلمية للصراع العربي الاسرائيلي قرار مجلس الأمن ٢٤٢ المكمل بالقرار ٣٣٨». ويؤكد القرار ٢٤٢ في ديباجته على أن الدول أعضاء الأمم المتحدة ملزمة بالتصرف وفقاً لأحكام المادة الثانية من الميثاق وتدعو المادة الثانية من الميثاق، بين جملة أمور، إلى تسوية المنازعات بالوسائل السلمية كما تدعو الدول الأعضاء إلى الامتناع عن التهديد باستخدام القوة أو اللجوء إلى إستخدامها. ولقد اتفقت كل من مصر وإسرائيل في الاتفاق الذي وقعته في ٤ سبتمبر / أيلول ١٩٧٥ (اتفاق فصل القوات الثاني الذي اكتملت به مهمة كيسنجر في المنطقة) على «الامتناع عن التهديد باستخدام القوة أو اللجوء إلى إستخدامها أو فرض الحصار عسكرياً من جانب طرف ضد الطرف الآخر». كما أن كلتا الدولتين أعلنتا أنه لن تكون هناك حرب بينهما بعد الآن وفي أي علاقة سلام، طبقاً لروح المادة الثانية من الميثاق، يجب أن تنبني المفاوضات بين إسرائيل وأي بلد جار لها يكون مستعداً للتفاوض حول السلم والأمن معها، على جميع أحكام ومبادئ القرار ٢٤٢ بما فيها عدم جواز الاستيلاء على الأراضي بالحرب (وقد وضع خط تحت هذه الكلمات بقلم كارتر الذي أشر في الهامش بأن توقعه أن «هذه لغة سيصعب على بيجين أن يتقبلها») والحاجة للسعي صوت إقامة سلام عادل وناق يتيح لكل دولة في المنطقة أن تعيش أمنة داخل حدود مأمونة معترف بها. فالتفاوض على أساس هذه المبادئ ضروري بالنسبة لكل جبهات الصراع (وهنا أيضاً، وضع كارتر خطاً تحت كلمتي «لكل جبهات» وأشر في الهامش بأن توقعه «أن هذه الصياغة لن تروق لبيجين لأنها ستعني، في قراءته لها، وحوب الانسحاب الاسرائيلي من الضفة الغربية والجولان أيضاً»، سواء في سيناء، أو على مرتفعات الجولان، أو في الضفة الغربية، أو في غزة، أو في لبنان».

وبالتالي، ونظراً لأن هذا كلام لن يروق لبيجين، رفعت الفقرة كلها من مشروع الوثيقة، واكتفى بما يلي: «عملاً على إقامة سلام، طبقاً لروح المادة الثانية من الميثاق، سيكون من الضروري، عملاً على تنفيذ كل أحكام ومبادئ القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ أن تجري مستقبلاً مفاوضات بين إسرائيل وأي بلد جار لها يكون مستعداً للتفاوض معها حول السلم والأمن».

وهكذا أجل «روح» المادة الثانية من الميثاق، في الصياغة، النهائية محل «ملزمة بالتصرف وفقاً لأحكام المادة الثانية من الميثاق» وقد كان ذلك ضرورياً حتى يتمكن بيجين من أن يتفصل من مسألة «تقرير المصير» المنصوص عليها في أحكام المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة كحق رئيسي لكل الشعوب. ولم يكتف واضعو الصياغة الأميركيون بهذا «التوضيب لورق اللعب» (stacking the deck) لصالح بيجين في مواجهة العمدة الأرعن الغشيم، بل حولوا صياغة «وفي أي علاقة سلام، طبقاً لروح المادة الثانية من الميثاق، يجب أن تنبني المفاوضات بين إسرائيل وأي بلد جار لها على جميع أحكام ومبادئ القرار ٢٤٢ بما فيها عدم جواز الاستيلاء على الأراضي بالحرب»، في المشروع الأصلي، إلى الصياغة الجديدة الواردة أعلاه والتي تعني بوضوح أن تنفيذ أحكام ومبادئ القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ سيكون رهناً بقبول إسرائيل للتفاوض مع أي بلد جار لها يرغب في ذلك التفاوض، وبذلك بات قبول إسرائيل الدخول في مفاوضات وما قد تعتبر في النهاية أنه محقق للشرائط التي دخلت بها في عملية التفاوض، شرطاً لتنفيذ أحكام ومبادئ ٢٤٢ و ٣٣٨، بعد أن كان التفاوض في الصياغة الأولى مشروطاً بالالتزام مسبقاً بمبادئ وأحكام القرار

٢٤٢ وبالأخص مبدأ عدم جواز الاستيلاء على الأراضي بالحرب ورغم أنه كان حرياً بالسادات أن يتوقف عند التعديلات التي من هذا القبيل، أو يتوقف مستشاروه ويحاولوا تنبيهه للشراك المبتوثة في كل سطر وكل لفظة أو أداة تعريف أو أداة عطف بعد «مقلب» لورد كارادون في القرار ٢٤٢ عندما حذف «ال» من الأراضي، فصارت «أراض» وبات الاسحاب الذي دعا إليه القرار من «أراض احتلت في ١٩٦٧» بدلاً من أن يكون دعوة لالاسحاب من «الأراضي التي احتلت في ١٩٦٧»، بل وكان يحذر به أن يحتاط أكثر وهو يتعامل مع مجامع بيجين، فإنه لم يفعل، وظل عمدة وغشياً ومغروراً وممثلاً لأدوار تملأ رأسه بها أحلام يقظة مختلطة وملتأنة، وظل بيجين يتصيد المرة تلو المرة. ويحكي موسى صبري حكاية مرة من تلك المرات، فيقول «كان بيجين في قمة السحف والصلف في المؤتمر الصحفي الذي عقد بعد مؤتمر الإسماعيلية، فقد زعم أن الرئيس السادات أيده في أننا كنا نريد أن نرمي إسرائيل في البحر وهذا لم يحدث. والذي حدث أن الرئيس كان يستمع و «البببة» في يده، ومن عادته أن يتابع محدثه بهز رأسه قليلاً، وقد سر بيجين ذلك على هواه واعتبره موافقة»^(١) إلا أن الأخطر من ذلك، كان الحديث الذي دار بين الدكتور عصمت عبد المجيد وبيجين في حضور السادات

«طلب السادات من بيجين في هذا الاجتماع أن يعلن الاستعداد للانسحاب الكامل من الأراضي المحتلة وحق تقرير المصير للفلسطينيين. ورد بيجين بأن هذا معناه إقامة دولة فلسطينية مستقلة وهذا تعبير مغلف لتحطيم إسرائيل وإزالة إسرائيل وهو هدف معلن لمنظمة التحرير الفلسطينية ووارد في ميثاق المنظمة، كما كرر بيجين تفسيره للقرار ٢٤٢ وهو أن ذلك القرار لا يعني الاسحاب الكامل» (تماماً كما توقع كارتر وهو يعدل صيغة المسودة)

«وعندما تحدث بيجين في مشروعه عن الحكم الذاتي، بدأ يحدد الحكم الذاتي من حق تقرير المصير، وكان يستخدم عبارة «Self Rule» بدلاً من «Self Determination» وهنا تصدى له الدكتور عصمت عبدالمجيد، فقال له أنت أدليت بحديث إلى التلفزيون الأمريكي، وعندما سئلت ماذا تقصد بـ «Self Rule» قلت انها مشابهة تماماً لعبارة «Self Determination» فقال بيجين أنا لم أقل هذا فقال عصمت عبد المجيد نص الحديث أمامي، وهذا ما قلته أنت بالحرف الواحد فعصمت بيجين، وقال أنا أعرف ما قلت فقال عصمت عبد المجيد النص هو الحكم ببناء»^(٢)

فكان حرياً بالسادات أن يحاذر لنفسه جيداً، لكنه ظل جالساً مرتاحاً، و «البببة» في يده، أخذاً في هز رأسه هزة العارف الخبير لكنه عندما ذهب إلى كامب ديفيد وجلس إلى كارتر وفانس وكل أولئك الأميركيين الطيبين وجد أن سايروس فانس

«يتكلم على المكشوف ويقول ان الولايات المتحدة تقترح أن يكون مشروع بيجين للحكم الذاتي - الذي قدمه في الاسماعيلية - أساساً للتسوية ألم يحد كارتر مبدأ واحداً أو فكرة واحدة يقتسها من المشروع المصري» ان ما قاله كارتر وفانس يوحي بأن أميركا ستقوم بدور الشريك الكامل لإسرائيل ضد مصر، ولن تقدم أفكارها الذاتية بما يتفق ومسؤولياتها الدولية وكل هذا يمكن تصوره لكن اللعبر والمصيبة والعصيبة هو موقف السادات فهو يستمع إلى كل ذلك، فلا يعصب، ولا يرمح، ولا يعارض، ولا يفند، ولا يحادل، ولا يشرح أين إذن وعده - أو وعيده - وهو يصيح في وجهي على مسمع ومرأى من أعضاء مجلس الأمن القومي في مصر بأنه سيقدم مشروعه في بداية المؤتمر، فإن لم يقبل مشروعه أساساً للتفاوض سينسف المؤتمر ويعود إلى مصر في حلال ثمان وأربعين ساعة وهو ما عاد وكرره لي أثناء حديثي معه في الطائرة وهي على قيد ساعات قليلة من كامب ديفيد، ثم يصل الأمر إلى حد أن يطرح الرئيس الأمريكي في وصوح وبلا مواربة فكرة عقد تحالف استراتيجي أميركي إسرائيلي مصري، فيخرس السادات ولا يطق ماداً نهاه^(٣) لقد كدت أموت خجلاً وكمداً وقرفاً وأنا اتابع هذه المناقشة»^(٤)

قائل هذا الكلام محمد إبراهيم كامل الذي كان وزير خارجية مصر آنئذ، في كتابه الفاحع، «السلام الضائع»، وهو كتاب كان يمكن أن يكون مأساوياً بحق لو لم يكن خلاف كاتبه مع السادات كان بعد مذبحه كامب ديفيد، ولو لم يكن، بعنوانه ومضمونه، قد قال أن السلام كان ممكناً مع إسرائيل، لكنه ضاع، ويا للحسرة.

والذي لا يشك فيه المرء بعد قراءة كتاب الوزير السابق أنه ندم ولقد كان ذلك الندم حرياً بأن يصبح منقذاً له لو كان قد بكر كثيراً. لكن الرجل، على أية حال، كتب ما قال عن شعور صادق بالفجيعة، رغم أنه لم يقدر - بالضرورة - على الفضفضة بما كان قادراً على أن يفضفض به وهو في النهاية تركيبة

عربية من الشعور الوطني الذي لا يتسك فيه من يقرأ كلامه، ومن التعامي الفد عن حقائق مفزعة جرت على لسانه ولم يفت فيما يبدو إلى مغراها، كقوله لكارتير في كامب ديفيد إن «حرب أكتوبر / تشرين الأول ١٩٧٣ هيأت الأرضية للتسوية السلمية بين العرب وإسرائيل وعودة العلاقات الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة»^(١) دون أن يتوقف - فيما يبدو - عند المغزى بالغ الخطورة لهذا القول على ضوء عمليات «تطوير الهجوم» يوم ١٤/١٠/١٩٧٣، وتعرية الضفة الغربية للقناة من الدفاعات، وما بدا كما لو كان تعبير ممر للاختراق الإسرائيلي، والثغرة، وحصار الجيش الثالث، والجيب، والكيلو ١٠١، وما بعد وقد كان الوزير المصري، وهو يقول ذلك، أخذاً في تذكير الرئيس الأميركي بأفضال أنور السادات العديدة على عملية صنع السلام التي كان الوفد المصري قد ذهب إلى كامب ديفيد ليجني ثمارها الشهية، فإذا به يفاجأ بأن الأصدقاء الأميركيين قد حولوا الثمار إلى قنابل شديدة الانفجار

ولقد بدا واضحاً، عندما أفرجت وزارة الخارجية الأميركية في ٢٨ أكتوبر / تشرين الأول ١٩٨٥ عن الوثيقة التي وضعها سوندرز وعدلها كارتير^(٢) أن أي نص أو لفظة وظل معنى لم يلق قبولاً من إسرائيل عدل أو حور أو غي وأزيل. ومن الديباجة التي تضمنها نص سوندرز الأول، لم يبق في النص النهائي كما هو تقريباً إلا الفقرة الأخيرة المتعلقة بترتيبات الأمن. فهذه كان متفقاً عليها منذ البداية فيما يبدو باستثناءات طفيفة، ونصها النهائي يقول «أن الأمن يتعزز بالعلاقات القائمة على السلم والتعاون بين أمم توجد بينها علاقات متبادلة. وبالإضافة إلى ذلك، يكون بوسع الأطراف في معاهدات سلام الاتفاق، على أساس العلاقات المتبادلة، على ترتيبات أمن خاصة كانشاء مناطق منزوعة السلاح، ومناطق محدودة التسليح، ومحطات للإنذار المبكر، وتواجد قوات دولية، وترتيبات اتصال، وترتيبات متفق عليها للمراقبة وأية ترتيبات أخرى تتفق الأطراف على أنها ذات جدوى»

والتغيير الذي أدخل على النص تضمن رفع «ذات السيادة» من صياغة المسودة، فأصبحت الصياغة النهائية «يكون بوسع الأطراف» بدلاً من «يكون بوسع الأطراف ذات السيادة»، وأضيفت عبارة «على أساس العلاقات المتبادلة»، التي لم تكن واردة بالمسودة

أما في الفقرات المضمونية من الوثيقة الأولى، فقد رُفعت من الفقرة الأولى الصياغة التي كانت واردة بالمسودة، والتي كانت تقول: «يدرك الطرفان أنه كيما يكون السلام دائماً يجب أن يشمل كل الأطراف التي ظلت أطرافاً رئيسية في الصراع العربي الإسرائيلي، ويجب أن يوفر الأمن، كما يجب أن يشعر الشعوب التي تأثرت تأثراً أعمق بالصراع، بما في ذلك الفلسطينيين، بأنها قد عوملت معاملة عادلة في اتفاق السلام. ولهذا يتفق الطرفان على أن هذا الإطار، حيثما كان ذلك مطابقاً لمقتضى الحال، قد قصد به من جانبهما أن يشكل أساساً للسلام...» وأحلت محلها في النص النهائي الصياغة التالية: «يدرك الطرفان أنه كيما يكون السلام دائماً يجب أن يشمل كل من تأثروا تأثراً أعمق بالصراع ولهذا يتفق الطرفان على أن هذا الإطار، حيثما كان ذلك مطابقاً لمقتضى الحال، قد قصد به من جانبهما أن يشكل أساساً للسلام، لا بين مصر وإسرائيل فحسب، بل وبين إسرائيل وكل جار من جيرانها الآخرين الذين يكونون على استعداد للتفاوض حول السلام مع إسرائيل على هذا الأساس» وبذلك التغيير في الصياغة سحب الفلسطينيون مما قالت الوثيقة أنه توخ لسلام دائم واستهداف لمعاملة عادلة، وأسقطوا من العملية باعتبار أنهم ليسوا طرفاً تأثر بالصراع ويجب أن يوفر له الأمن.

٢ . منحة السادات للفلسطينيين

وقد كان ذلك، بطبيعة الحال، إعلاناً واضحاً عن تراجع جيمي كارتير تراجعاً كاملاً، خشية على سحب كرسي الرئاسة من تحت عجزته التقية عن كل الأشياء البراقة التي يقول النظام المصري أنه قالها للسادات في أسوان وأسميت بـ «صيغة أسوان»^(٣). وكان كارتير قد تهور فأعلن في ٢٩ ديسمبر / كانون الأول ١٩٧٧ أنه يؤيد «انشاء وطن أو كيان فلسطيني». وأثناء زيارته للسادات في أسوان في ٤ يناير / كانون الثاني ١٩٧٨، أعلن أن من المبادئ التي تشكل الأساس الذي تنبني عليه التسوية الشاملة للصراع مبدأ يقضي بـ «وجوب إيجاد حل للمشكلة بكافة جوانبها، ويعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ويمكن الفلسطينيين من الاشتراك في تحديد مستقبلهم».

ويقول كمال حسس على أن موقف رئيس الولايات المتحدة الذي أعلنه رسمياً في أسوان عكس تحولاً هاماً في موقف الولايات المتحدة الأميركية تجاه القضية الفلسطينية. على النحو التالي
أولاً إستخدمت صيغة الرئيس كارتر عبارة المشكلة الفلسطينية بكل حواسها وهي تخلط عن اللغة المستخدمة في القرار ٢٤٢ ومماثلة للموقفين المصري والعربي.
ثانياً أشارت الصيغة إلى الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، وهو الموقف الذي أقرته جميع البلاد العربية
ثالثاً عكست عبارة «تعزيز الفلسطينيين من الاشتغال في تحديد مستقبلهم» رفضاً صريحاً لمقترحات الحكم الذاتي الاسرائيلية

وقد أورد هذا الكلام في الجزء الذي خصصه من كتابه لـ «مصر والمسألة الفلسطينية ١٩٤٨ - ١٩٨٠»، وقال معلقاً عليه «(وهكذا) أصبح واضحاً أن الدبلوماسية المصرية كانت عاملاً حاسماً في هذا التطور الرئيسي الذي حدث للفكر الأميركي الرسمي بشأن القضية الفلسطينية»
غير أن هذا التفكير، فيما يبدو، كان قد تبخر من دماغ المستر كارتر بمجرد أن عاد من جو أسوان الربيعي في شهر يناير / كانون الثاني من السنة، إلى زمهرير واشطن القاسي المشبع بالسموم اللافة الآتية من كل اتجاه كأعاصير مهددة صوب كرسي الرئاسة في المكتب البيضاوي ونتيجة لذلك، راح ذلك الانحياز الدبلوماسي هدرًا، وعاد التفكير الأميركي، في دماغ الرئيس الأميركي المنتمي إلى طائفة المعمدانين الجنوبيين المولودين من جديد، إلى سابق عهده من التقوى ومخافة إغضاب يهود في السماء وشعب يهود على الأرض

ولا يجدينا هنا أن نزحم الصفحات بالهراء الذي رص بعناية وحذق واتقان في الوثيقة الأولى من وثيقتي كامب ديفيد عن الضفة الغربية وغزة. فقد انساب ذلك الهراء الآن في بالوعة التاريخ، ولم يبق إلا الصيغة التي أعلن السادات صديقه وضيغه عزرا وايزمان عندما دعاه للاجتماع به في القاهرة في ٢٠ و ٢١ مارس آذار ١٩٧٨ أنها الوسيلة المثلى للتعامل مع الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة وناقشها باستفاضة الفريق أول الجمعي وهارون باراك، وهي أن تبقى المستوطنات الاسرائيلية قائمة ويظل للاسرائيليين حق إنشاء مستوطنات جديدة على ما يشترطونه من أراضي الفلسطينيين (وعلى الحاخام كاهانا والأولاد العفاريات أعوانه إقناع أولئك الفلسطينيين بأن يبيعوها بالتي هي أحسن) وعلى الأراضي الحكومية التي نصح السادات عزرا وايزمان بايجاد حل يجعل بالوسع طرحها للبيع ليشتريها اليهود، ويظل الجيش الاسرائيلي في قواعد متفق عليها ليحميها، تلك المستوطنات القائمة وما ينشأ منها على ما يبيعه الفلسطينيون تحت الاقناع بالحسن وما يشتريه الاسرائيليون أيضاً من أراضي الحكومة (الأراضي الأميرية العربية سابقاً)، فإذا ما حدث أي نشاط لمنظمة التحرير الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة، بات للجيش الاسرائيلي كامل الحق ومطلق اليد في التعامل مع «الارهابيين» بالوسائل التي يجدها كفيلة بحفظ القانون والنظام والأموال.

٣ . تحقيق الهدف الأميركي

ذلك ما كان من شأن الفلسطينيين المتعبين وسبب كل المصائب أما ما كان من أمر مصر وإسرائيل، فقد تعهدتا، طبقاً لوثيقة كامب ديفيد بنبذ استخدام القوة أو حتى التلويح باستخدامها، والتزمنا، بالتفاوض بنية حسنة لإبرام معاهدة سلام واقامة مهرجان سلام بالمنطقة تدعى أطراف النزاع الأخرى إليه للتفاوض وإبرام معاهدات سلام مماثلة بقصد تحقيق سلام شامل في المنطقة، شريطة أن تكون المعاهدات التي تعقدها أطراف النزاع الأخرى مع إسرائيل مستوفية لما يلي (١) الاعتراف الكامل (بوجود إسرائيل بطبيعة الحال، حيث أن وجود البلدان العربية لم يكن منكرًا في أي وقت بحكم التواجد)، و (٢) إلغاء المقاطعة الاقتصادية، و (٣) فتح الحدود على مصاريعها، و (٤) بحث إمكانيات تطور إقتصادي في إطار معاهدات السلام وذلك بغية الاسهام في جو السلام والوثام والتعاون والصداقة الذي هو هدف مشترك للأطراف.

وفي النهاية، عملاً على طمأنة من يتوافدون على مهرجان السلام

١ - اشتراك الولايات المتحدة في المحادثات حول المسائل المتصلة بكيفية تنفيذ الاتفاقيات ووضع
حدول زمنية لتنفيذ تعهدات الأطراف

٢ - قيام مجلس الأمن الدولي بالمصادقة على المعاهدات وضممان ألا تُخرق نصوصها، ومطالبة أعضاء
مجلس الأمن الدائمين بأن يكونوا ضامنين لمعاهدات السلام ضامنين لاحترام نصوصها وأن يجعلوا
سياساتهم وتصرفاتهم متمشية مع التعهدات الواردة في إطار الوثيقة الأولى من وثيقتي كامب ديفيد.
وبكل هذه الضمانات يأتي الرد على تساؤلنا الذي لم يكن يليق طرحه في الواقع حول مسألة ما
الضمان بأن إسرائيل لن تلقي بالمعاهدات في أقرب بالوعة متى أن أوان الوثبة التوسعية التالية فالولايات
المتحدة لن تسمح لها. ومجلس الأمن سيزجرها زجراً شديداً والأعضاء الدائمون بمجلس الأمن
سيهزون أصابعهم محذرين في وجهها. واسنانهم تصطك رعباً فما الداعي إذن لكل ذلك التشكك؟ ان
اليهود أناس متديون يعبدون نفس الاله الذي نعبد جميعاً ويخافونه ويصلون إليه ليل نهار وقد أقاموا
دولتهم لا لشيء إلا لينفذوا مشيئته، فما الذي تخشونه منهم؟ انهم قلة وأنتم كثرة. إنهم جزيرة صغيرة
محاصرة بموج متلاطم من العرب. فما الذي تحافون منه؟ تصالحوا تصالحوا مع إسرائيل، وافتحوا
حدودكم لها. خدوها في عبكم كما أخذتها مصر بتسجاعة كما فعلت مصر بفضل قائدها الحكيم المستنير أنور
السادات، ودعوها تصلح لكم اقتصاداتكم ولسوف ترون سوف تزدهر أحوالكم كثيراً. ان اليهود
عباقرة ان الله قد انعم عليهم بنعمة النبوغ، وبخاصة في شؤون المال والاقتصاد. فسلموهم مالكم
واقتصادكم، وسوف ترون الصلح خير، يا عرب

والحقيقة ان الأصدقاء الأميركيين بذلوا جهوداً مستميتة وأنفقوا كثيراً من المال ليجعلوا المصريين وكل
العرب يصلون إلى مرحلة النضج التي توقفهم على أن الصلح خير. وما على المرء إلا أن يعيد قراءة
تاريخ «الصراع» بعينين مفتوحتين كيما يقف على عظمة الدور الذي لعبه الأميركيون باستماتة وإصرار كيما
يجعلوا العرب في وصع يقنعهم فعلاً بأن الصلح أفضل من الخصام، والسلام أفضل من الحرب، لأن
الخصام مكلف، والحرب لن يكسبها أحد إلا إسرائيل^(*) وبطبيعة الحال، تلقت «أميركا» عوناً صادقاً
ومخلصاً من أصدقاء عرب كثيرين ساعدوها على الوصول إلى تلك النتيجة، ومن كل أولئك الأصدقاء كان
الرئيس المؤسس محمد أنور السادات أشجع الجميع وأشداهم ولاء لأميركا والسلام والصلح وسيظل
إبجازه العسكري العظيم في جعل حرب ١٩٧٣، كما قال وزير خارجيته محمد إبراهيم كامل، أنه «أخرج»
حرباً «هيأت الأرضية للتسوية السلمية بين العرب وإسرائيل». فالسادات لم يحصل على جائزة نوبل
للسلام هكذا اعتباطاً. السادات كان بطل السلام بحق. وان كان المصريون - بالجحود المعهود من
الشعوب غير الناضجة - لم يفتبوا بعد إلى عظمة مآثره عليهم، فالذي لا شك فيه أن أجيالهم القادمة،
التي عقد السادات صلحه كيما يجنبها ويلات الحروب، سوف تسبح باسمه باعتباره قديساً وخالق مصر
الجديدة التي ستكون، بعد أن يستكمل الاسرائيليون عملية جراحية لا بد منها، قد أصبحت عدة دول لا
دولة واحدة، دولة مسلمة، ودولة قبطية، ودولة نوبية.

ولقد كانت الخطوة الأولى على تلك الدرب من الازدهار والتكاثر المبادرة التاريخية التي قام بها الرئيس
السادات الى القدس، ومن بعدها تتابعت خطوات كثيرة مثمرة، كانت خطوات كامب ديفيد أهمها وأكثرها
مغزى.

ففي الوثيقة الأولى من وثيقتي كامب ديفيد، رُسم الاطار. ولقد كان ذلك الاطار هدف السياسة
الخارجية الأميركية الحكيمة التي انتهجتها الادارات الأميركية المتعاقبة تجاه ذلك الصراع الذي لم يكن

(*) وقد لخص ذلك الهدف الأميركي بلاغة وإيجاز، مدوب الولايات المتحدة الأميركية، في الكلمة التي شارك بها في نظر
«مشكلة الشرق الأوسط» في المناقشة التي أحرته الجمعية العامة للأمم المتحدة خلال دورتها الثانية والأربعين (خريف
١٩٨٧)، حين قال ان على العرب جميعاً
« إدراك أن الصراع العربي الاسرائيلي يجب أن يسوي سلمياً، وأنه صراع لا يمكن حله عسكرياً ».

هناك ما يدعو إليه الا إساءة العرب الظن بأصدقائهم وجنوحهم إلى التطرف بدلاً من الالتزام بالاعتدال وعملاً على إعادة العرب إلى جادة الصواب وردهم إلى درب الاعتدال، تحملت الولايات المتحدة الكثير من الكلفة والكثير من المشقة، واضطرت إلى صبّ عشرات الملايين من أموال دافعي الضرائب الأميركيين، وتكديس ترسانات بأكملها من الأسلحة التي طلت تطورها وتحسينها باستمرار قبل أن تصعها في أيدي الاسرائيليين وتدريبهم على استخدامها أو ترسل لهم أبناءها ليشتركوا في استخدامها وبطبيعة الحال، كان العرب أحرى بأن يوفروا على أنفسهم كل ما تحملوه تحت وطأة تلك العشرات من بلايين الدولارات وثقل كل تلك الترسات من السلاح، لو كانوا قد انتهجوا من مبدأ الأمر سبيل الرشاد وأصعوا لنصح المعتدلين منهم بدلاً من أن يسيروا منومين وراء المعامير والمتطرفين تصديقاً منهم لما قيل لهم أن الاسرائيليين يهونون أن يفعلوه بهم. وعلى أية حال، لقد قيصر للعرب، في شخص أسود السادات، بطل السلام، الزعيم الحكيم الذي أخرجهم من دائرة الصراع إلى دائرة الظل، فاستراحوا وأراحوا اسرائيل والولايات المتحدة، وتركوا تلك الدولة الصغيرة الشحاعة إسرائيل ترتب بيتها، وتتفرغ لتنمية نفسها وتحقيق تقدمها، حتى تكون جاهرة في خدمة أي بلد حار لها يرغب في الاقتداء بالقوة العظيمة التي قدمها السادات، فتتصالح وتسال وتفتح الحدود، وتصع الطريشة في عنائها باحكام.

٤ . مكاسب مصر وثمنها

كل هذا رُسم في الوثيقة الأولى من وثيقتي كامب ديفيد أما في الوثيقة الثانية، فرسم إطار عمل لعقد معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل يجري «التفاوض عليها تحت علم الأمم المتحدة، بالتطبيق الكامل للقرار ٢٤٢، وتصبح سارية المفعول خلال مدة تتراوح بين سنتين وثلاث سنوات من تاريخ توقيعها».

وفي إطار العمل هذا، منحت مصر هذا الحق «لمصر حق ممارسة السيادة المصرية ممارسة كاملة على الحدود المعترف بها دولياً بين مصر وما كان يدعى بفلسطين في ظل الانتداب»

وهذا كسب عظيم لا تسك، أن يبيت لمصر الحق في ممارسة السيادة على حدودها المعترف بها دولياً وبالإضافة إلى هذا الكسب، حصلت مصر على نعمة «انسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية من سيناء»، وبأسباب تلك النعمة على مصر بعد قرون من الأيام التي كان النظام المصري يتوالت فيها صائحاً أن «ما أخذ بالقوة لن يسترد إلا بالقوة» تحقق بالكامل، حرفياً، دون إهدار نقطة أو شولة أو حرف جر واحد، مشروع إخراج مصر من حلبة الصراع الذي بدأ باستدراج عبد الناصر إلى شرك ١٩٦٧ واحتلال سيناء، وانتهى بجر مصر مربوطة في كاحل السادات إلى مصيدة كامب ديفيد المميته التي وقع السادات فيها هو وكل من اشترك معه من «مصريين» الصك النهائي بموت مصر، وتصفية الفلسطينيين، واقتراض كل العرب وما أخذ بالقوة (القوة الأميركية والالتزام الأميركي بتنفيذ المشروع الصهيوني) إسترد بالصلح (الصلح الأميركي تنفيذاً للالتزام الأميركي بالسير في تنفيذ المشروع الصهيوني إلى منتهاه)

وكثمن إضافي لهذه المكاسب التي حصل عليها السادات لمصر، حصلت الولايات المتحدة وإسرائيل على ما يلي

١ - التزام مصري بأن يقتصر استخدام أي مطار يتركه الاسرائيليون وراءهم في سيناء على الأغراض السلمية فقط بما في ذلك الاستعمال التجاري الممكن من قبل جميع الدول، بما فيها إسرائيل طبعاً.

٢ - التزام مصري بحق المرور لسفن إسرائيل عبر خليج السويس وفي قناة السويس، وابقاء مضيق تيران وخليج العقبة مفتوحين لجميع الدول (بما فيها إسرائيل بطبيعة الحال) من أجل حرية ملاحاة لا يعوقها شيء ولا يوقفها شيء مع حق التحليق الجوي لكل الدول، بما فيها إسرائيل.

فاستعراض العضلات الأحق الذي استدرج عبد الناصر للقيام به في ١٩٦٧ بأفعال المضايق كيما يكون ذلك تكة لضربة يونيو / حزيران الماحقة، عاد بكل مردوداته العظيمة من سلام وانفتاح وتطبيع إلى إسرائيل، كأي استثمار ذكي يعود إلى اليد المتمرسه الخبيرة بعشرات أضغافه.

٣ - نزع سلاح سيناء خارج منطقة تقع على مسافة ٥٠ كيلومتراً تقريباً إلى الشرق من خليج

السويس وقناة السويس، ولا يسمح بمراقبة أكثر من فرقة واحدة مدرعة أو مشاة فيما بين الخليج والقناة والحدود الخارجية لتلك المنطقة.

٤ - وجود أميركي عسكري في سيناء من خلال «قوات الأمم المتحدة» ترابط في جزء من سيناء عرضه حوالي ٢ كيلومتراً من البحر المتوسط بمناخمة الحدود الدولية، وفي شرم الشيخ لضمان حرية المرور عبر مضيق تيران، على ألا تسحب القوات ما لم يوافق على الانسحاب مجلس الأمن بتصويت إجماعي للأعضاء الدائمين الخمسة

وقد نصت الوثيقة الثانية على أنه «بعد ما توقع معاهدة سلام، وبعد ما يكتمل الانسحاب المرحلي، تقام علاقات طبيعية بين مصر وإسرائيل بما في ذلك الاعتراف الكامل وتبادل العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية وإنهاء المقاطعة العربية والحواجز التي تعترض طريق الحرية للأشخاص والحماية المتبادلة لمواطني الدولتين بالاجراءات القانونية المناسبة».

أما معاهدة «السلام»، فتنبئ في الديباجة على أحكام قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و ٢٣٨ اللذين لم يرد فيهما أي ذكر لـ «مسألة فلسطين» أو «الشعب الفلسطيني» الذي قال النظام المصري باستمرار، أيام البطولات الخطابية أنه «لب الصراع وجوهه»، وتعيد مصر وإسرائيل في مستهلها التزامهما بـ «إطار السلام في الشرق الأوسط المتفق عليه في كامب ديفيد في ١٧ سبتمبر / أيلول ١٩٧٨» (الوثيقة الأولى)، وتعلن أن

«الاطار المشار إليه إنما قصده أن يكون أساساً للسلام، لا دين مصر وإسرائيل محسوب، بل وبين إسرائيل وأي بلد عربي مجاور لها كل فيما يحصه يكون على استعداد للتفاوض من أجل السلام معها على هذا الأساس، ورغبة منه في إنهاء حالة الحرب بينه وبين إسرائيل وإقامة سلام تستطيع فيه كل دولة من دول المنطقة أن تعيش في أمن» واقتناعاً من مصر وإسرائيل بأن إبرام معاهدة سلام بينهما يعتبر خطوة هامة على درب السلام الشامل في المنطقة والتوصل إلى تسوية النزاع العربي الإسرائيلي بكافة نواحيه تدعوا الأطراف العربية الأخرى في النزاع إلى الاشتراك في عملية صنع السلام مع إسرائيل على أساس مبادرة إطار السلام المشار إليها أنفاً واسترشاداً بها» (الوثيقة الأولى)

وطبقاً للمعاهدة، ورغبة في «إنماء العلاقات الودية والتعاون بينهما وفقاً لميثاق الأمم المتحدة ومبادئ القانون الدولي التي تحكم العلاقات الدولية في وقت السلم»، إتفقت مصر وإسرائيل «بمقتضى ممارستها الحرة لسيادتهما» على ما يلي، تنفيذاً للاطار الخاص بعقد معاهدة سلام بينهما (الوثيقة الثانية)

- ١ - إنهاء حالة الحرب.
- ٢ - التزام كل طرف من الطرفين بعدم الدخول في أي التزام يتعارض وأحكام المعاهدة.
- ٣ - التزام كل طرف من الطرفين بأن يكفل عدم صدور فعل من أفعال الحرب أو الأعمال العدائية أو أعمال العنف و التهديد بأعمال العنف من داخل أراضيه أو بواسطة قوات خاضعة لسيطرته أو مرابطة على أراضيه ضد السكان أو المواطنين أو الممتلكات الخاصة بالطرف الآخر.
- ٤ - التزام كل طرف من الطرفين بالامتناع عن التنظيم أو التحريض أو الاثارة أو المساعدة أو الاشتراك في فعل من أفعال الحرب أو الأعمال العدائية أو الأنشطة التخريبية أو أعمال العنف الموجهة ضد الطرف الآخر في أي مكان. كما يتعهد بأن يتكفل بتقديم مرتكبي مثل هذه الأفعال للحاكمه وبموجب هذا الاتفاق، وافقت مصر، والأصدق أن نقول، وافق السادات نيابة عنها، لا على إنهاء الصراع المسلح، كحرب، ضد المشروع الصهيوني فحسب، بل والتزم السادات نيابة عنها بالتواطؤ الكامل على إنهاء المقاومة لذلك المشروع.

فكل هذا الكلام المفخم المضخم لا معنى له إلا إنهاء حالة الحرب من جانب، وإنهاء المقاومة من جانب آخر. فالاتفاق أشبه من نواح عديدة بالتواطؤ الذي قام إبان الحرب العالمية الثانية بين قوات الاحتلال النازية وحكومة فيشي في فرنسا وحكومة كويسلنج في النرويج إلا أن من كانوا يقاومون النازيين في فرنسا والنرويج كانوا يمارسون المقاومة، أما من يقاومون المشروع الصهيوني في الشرق الأوسط فهمج وقتلة وارهابينون، رغم أن النازيين لم يكونوا غزاة استيطانيين، بل كانوا مجرد أناس حاولوا أن يقيموا نظاماً تراءى لقادتهم في أوروبا بقوة السلاح، بلا أدنى وجود لنية

غزو إستيطاني يزيج الغزاة خلاله السكان الأصليين بالابادة أو بالتشريد ليحلوا محلهم في وطنهم، بينما المشروع الصهيوني الذي تنفذه الولايات المتحدة منذ استصدرت قرار التقسيم سنة ١٩٤٧، والذي تواطى السادات معها على استمراره وتطويره في سنة ١٩٧٨، متجه وبضراوة صوب إزاحة السكان الأصليين بالابادة والتشريد وتحريض سكان الأراضي الأخرى التي لم يأت الدور عليها بعد على قتل وتشريد من يشردون إلى أراضيهم من سكان الأراضي التي تؤخذ تنفيذاً لمرحلة من مراحل المشروع.

وبطبيعة الحال، ليس كافياً لمنفذي المشروع الصهيوني الحصول على تواطؤ مصر على استمرار المشروع وتطويره، بل من المتعين تأمين مصر بعد السلام، لأنه من يدري؟ قد يفيق المصريون ويفطنون إلى أنهم هم أيضاً على قوائم الابادة والتشريد عندما يأتي الوقت الذي تؤخذ فيه أرضهم، ولذلك يتعين، بعد إخراج مصر من المعركة وإسكات جبهتها، تدميرها من الداخل القضاء عليها كأمة إفتراسها كدولة. تقطيع أوصال جثتها. وتحقيقاً لتلك الغاية، «اتفق الطرفان (في معاهدة السلام) على أن العلاقات الطبيعية التي تقام بينهما تتضمن الاعتراف الكامل والعلاقات الديبلوماسية والاقتصادية والثقافية وإنهاء المقاطعة الاقتصادية والحواجز ذات الطابع التمييزي المفروضة على حرية إنتقال الأفراد والسلع»، وهو ما عرف في لغة الاعلام المصري ذرب اللسان بـ «التطبيع». تطبيع العلاقات مع عدو غير طبيعي مع سلالة يضع كتابها الديني وقصصها الديني مصر بالذات على رأس قائمة البلدان الأممية التي لن يرضى إله إسرائيل ويرتاح إلا وشعبه يشرب دمها ويقضي على أشلاء جثتها الممزقة

ولقد قيل الكثير عن معاهدة السلام المصرية مع إسرائيل لكن أفضل ما كتب عنها، وقد كتبه صاحبه دفاعاً عن المعاهدة لا هجوماً عليها، وتمجيداً للسادات لا إساءة إلى ذكره العطرة، هو ما قاله كمال حسن علي الذي كان وزيراً للدفاع في مصر ورئيساً لوفد التفاوض مع إسرائيل والولايات المتحدة ووزيراً للخارجية ثم رئيساً للوزراء. فهو من العمدة الهامة للنظام وهو رجل عسكري. وقد عاش في قمة السلطة في مرحلة الأحداث التي انتهت بمعاهدة السلام.

وفي كتابه «محاربون ومفاوضون» الذي أهداه إلى أرواح الشهداء، ورفقاء السلاح في معارك الحرب ورفقاء «معركة السلام»، خصص الضابط المحارب الدبلوماسي ورجل الدولة فصلاً للدفاع عن المعاهدة رد فيه على إفتراءات وتخرصات من انتقدوها، تحت عنوان «قالوا عن المعاهدة المصرية الاسرائيلية»^(١)

«بعد توقيع المعاهدة المصرية الاسرائيلية، إرتفع كثير من الاصوات المعارضة خارج مصر وقلة من داخلها، وكتبت الاقلام الرافضة تحاول التقليل من الانجاز المصري، وتحاول أن تثبت أن السادات قدم تنازلات كبيرة في سبيل الوصول إلى السلام وأحب هنا أن أناقش دعاوى الرفض بهدوء وموضوعية
«قالوا أن المعاهدة أنهت حالة الحرب بين مصر وإسرائيل بمجرد التصديق وتبادل وثائقه، وبذلك انتهت حالة الحرب رغم أن الاسحاب الاسرائيلي سيطول لمدة سنتين، وبذلك تكون مصر قد أنهت حالة الحرب مع دولة لا تزال تحتل أراضيها وترفع عليها العلم الاسرائيلي

«والرد على ذلك يبين بعد نظر السادات وموضوعيته فمعنى توقيع الاتفاقية تعيذ الخطوات المقررة فيها في توقيعات متفق عليها تراوحت بين شهرين وستين وكانت وجهة نظر السادات أن أي شبر يتحرر اليوم بدون قتال فهو يقبله ويقيم عليه سيادة مصر ويرفع علمها وأنه ما دامت الأرض ستتحرر فإن الانتظار سنة أو سنتين لا يقدم ولا يؤخر فيعاً يتعلق بالأمر الواقع»

وهذا صحيح تماماً، لكنه لا يقدم ولا يؤخر، خاصة وأن المسألة تحولت هنا إلى مسألة «عرة وكرامة» «مصر أنهت حالة الحرب مع دولة لا تزال تحتل أراضيها وتقيم عليها العلم الاسرائيلي «يا للعار» ومسألة «شطارة» تحقق الدماء المصرية العزيرة التي سبق أن أريقَت بلا أدنى تفكير، وليس على جبهات المعارك الخائبة وحدها، في سبيل «تحرير» بلا مشقة ولوشبر واحد من «الأرض». وفي هذا السياق، تطرح المسألة كما لو كانت مسألة حرب مما يقع بين الدول فتتصالح في النهاية وتحسمه بمعاهدة سلام. وبطبيعة الحال، يتجنب هذا السياق تماماً المسألة المزعجة التي قد يثيرها التساؤل التالي: «في ١٩٦٧، تطلب الأمر «حرباً» لم تدم إلا ساعات في الواقع، لا أيام كما وصفت، لاحتلال كل تلك الأرض. فكم من الوقت سيتطلب احتلالها من جديد وقد استرخت مصر وتمددت تتشمس في وهج

السلام» ولا يعتقد عاقل أن كاتب الكلام الذي أوردناه، وهو رجل عسكري، لم يحطر له مثل ذلك التساؤل ببال. أما التساؤل الذي يرجح المرء بعد قراءته لكتابه القيم أنه لم يحطر له ببال، فهو هل المسألة حقيقة مسألة الفلسطينيين مع إسرائيل؟ هل الصراع حقيقة صراع الفلسطينيين مع إسرائيل؟ هل مصر حقيقة غير واردة في المشروع الصهيوني؟ هل ستتحو مصر إذا ما قبعت خارجاً مستظلة بالمظلة الأميركية التي يمكن أن «تدوب» في لحظة، متعاذة عن الصراع، تاركة إسرائيل تلتهم من الفرائس ما شاءت غير غابئة لكون كل تلك الفرائس ستحول إسرائيل من كيان صعبير على أرض فلسطين إلى كيان قوي كبير على أرض فلسطين ولبنان والأردن وسوريا؟ إن كان ذلك مؤكداً ومقطوعاً به وتحت يد من شاركوا في إخراج مصر من الساحة ما يطمئنهم إلى أنه مؤكد ومقطوع به، يكون من حق القائل أن يقول أن السادات كان - من وجهة نظر البطام بالأقل - بعيد البطر وموصوعياً وشاطرأً أما إذا كان العكس، وكان «صمت الجبهة المصرية» الذي حققته معاهدة السلام للولايات المتحدة وإسرائيل، والذي أكد السادات نفسه أن لن تكون له نتيجة إلا «انتهاء القضية»، فإن ما فعله السادات باسم مصر يكون انتحاراً خاصة إذا ما اكتملت بعض حلقات المسلسل التصالحي الوارد في أساس إطار صنع السلام ومعاهدة السلام، فاستفردت إسرائيل بلداناً عربية أخرى وحرثها إلى المصيدة التي سحب السادات مصر إليها وينتقل كمال حسن علي إلى نقطة أخرى، فيقول

«وقيل أن قوات حط السلام المتعددة الجسيات تشمل في أغلبها عناصر أمريكية، وأن أمريكا ضالعة مع إسرائيل وأنه لا مبرر لوجود مثل هذه القوات التي كانت ضرورية مثلاً بعد ١٩٥٦ أو ١٩٦٧ لفصل القوات، ولكن طالما أن هناك حالة سلام فما الداعي لوجودها؟»

«والرد على ذلك في رأيي أن وجود القوات الأمريكية هو الضامن الحقيقي للسلام، وأن فعاليتها أقوى من فعالية أي قوات دولية، ولنا خبرات وتجربة مع القوات الدولية التي كانت موجودة مثلاً في ١٩٦٧ فوجود قوات أمريكية مع وجود علاقة بين الولايات المتحدة ومصر وبين الولايات المتحدة وإسرائيل ضمان أكبر للسلام ومسؤولية محددة تجاه الطرفين واعتقد أن الثقل الأمريكي في الوجود ضمن القوات المتعددة الحسنية يعتبر للمعاهدة وليس عليها.

ومعنى الكلام واضح فالولايات المتحدة صديق الطرفين، وملزمة بمسؤولية محددة تجاه الطرفين وفي تصويره للمسألة يفصح عن ارتياح النظام إلى ما حققه له السادات أخيراً من طموح ظل يحركه ويحرك زعامته منذ ١٩٥٢ للوذ بحضن أمريكا. أمريكا هي التي ستحتضن وتحمينا من أهوال هذا العالم الغابة وتمنع إسرائيل من افتراسنا وتكفينا مؤونة التظاهر بالنضال وكل ذلك الكلام الذي لا يؤكل عيشاً. لكن «أمريكا» مع كل الاحترام الواجب لرأي رئيس الوزراء السابق ووزير الخارجية السابق والعسكري الديبلوماسية رجل الدولة المفاوض المحارب، ليست صديقة أحد والعلاقة بينها وبين إسرائيل ليست علاقة صداقة أو تحالف بل علاقة عضوية حية، علاقة الجسم بجزء منه. وفي ظل هذه الحقيقة المفزعة، ما الذي يظن أن أمريكا ستفعله له وهو لا بد في حضنها إذا ما ارتفعت قبضتها، إسرائيل، وسقطت على أم رأسه؟ ستقول أمريكا لقبضتها التي هي جزء من جسدها «عيب. هؤلاء أصدقائي»، أم ماذا؟ ستضرب قبضتها الشقية على الرسغ قائلة لها «بلاش شقاوة» ما هذا؟ حلم؟ تهويم؟

والغريب والمفزع بحق أنه بعد أن قال هذا الكلام، وحد من الممكن أن يقول أن كل متتبع لتاريخ الصراع العسكري في المنطقة يجد أن أمريكا لم تقف على الحياد في أي صراع سابق، وهي التي دعمت إسرائيل دائماً بالسلاح والمعدات والأموال. ولعل الجسر الجوي الذي أقامته الولايات المتحدة إلى إسرائيل أثناء حرب أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧٣ والذي أرسلت بواسطته إلى إسرائيل أحدث معدات القوات المسلحة الأمريكية وما زالت عليها أرقام وعلامات الوحدات الأمريكية. وقد استطاعت مصر في حرب أكتوبر/ تشرين الأول أسرى دبابات م/٣١/٦٠ جديدة تماماً وما زالت عليها علامات الجيش الأمريكي لم تقطع إلا ١٥٠ ميلاً هي المسافة من المطارات إلى الميدان، وأمدت أميركا إسرائيل بصواريخ «تاو» المضادة للدبابات(*) بكميات ضخمة وهي أحدث صواريخ في الترسانة الأمريكية وقد

(*) صواريخ TOW هذه هي ما زودت الولايات المتحدة إيران به بكميات كبيرة بين ما زودتها به من أسلحة استجابة لطلب إسرائيل كيما تستخدمها إيران ضد العراق إبان العملية السرية التي اسميت بعد أن عرفت باسم إيران جيت،

عانت مصر منها في فترة الثغرة الاسرائيلية على الضفة الغربية للقناة « إن الاتفاق بين أمريكا وإسرائيل باق وكائن سواء وقعت بذلك اتفاقية أم لم توقع، وهذا - كما يعلم المعترضون - من البديهيات» وقد انزلق الكاتب إلى مثل هذه المصارحات في غمار تحمسه للرد على «ما قيل من أن الاتفاق الاستراتيجي للتعاون بين إسرائيل وأمريكا هو نتاج للمعاهدة المصرية الإسرائيلية وأنه يعطي الحق لأمريكا في التدخل عند وقوع أي انتهاك للسلام، وبذلك خرجت عن الحيدة في حالة وقوع صدام مسلح بين إسرائيل ودولة عربية»، وبعد أن قال ما قال عن ارتباط أمريكا بإسرائيل، أضاف قائلاً «وعموماً فإن مصر احتجت في حينه بشدة على مثل هذا الاتفاق (الاستراتيجي بين الولايات المتحدة وإسرائيل) وتلقت الرد من الولايات المتحدة بما يؤكد أن نية الولايات المتحدة لم تنصرف إلى استخدام مثل هذا الاتفاق ضد الدول العربية بل أنه اتفاق عقده مع إسرائيل لطمأنة إسرائيل وإعطائها نوعاً من الضمان»

ولم يقل طبعاً لـ «طمأنة إسرائيل وإعطائها نوعاً من الضمان» ضد من؟ ممن؟ من أي خطر؟ ولم يقل أيضاً أي طمأنينة تلك التي كانت إسرائيل في احتياج إليها وأي ضمان ذلك الذي ظل متعيناً على الولايات المتحدة إعطاؤها إياه بعد أن سلحت الولايات المتحدة إسرائيل حتى الأسنان، وبعد أن أخرجت لها مصر من المعركة؟ ولم يقل طبعاً ما إذا كانت مصر قد وجهت تلك التساؤلات إلى أمريكا أم لا.

ولم يقل أيضاً ما تصوره وتصور النظام المصري للموقف إذا ما وجدت أمريكا نفسها مطالبة باتخاذ موقف في جانب الطرف الذي يتبين أن الطرف الآخر قد انتهك المعاهدة واعتدى عليه. هل ستقف أمريكا في جانب مصر، مثلاً، إذا ما خرقت إسرائيل المعاهدة واعتدت عليها؟ هل ستحارب إسرائيل؟ هل ستزود مصر بما يمكنها من رد العدوان عليها؟ هل ستصوّت حتى في مجلس الأمن ضد إسرائيل؟ أم تراها ستبذل مساعيها الحميدة من جديد لإقناع المصريين بالعودة إلى مائدة المفاوضات لسد الثغرات التي تبين أنها كانت في المعاهدة وأدت إلى وقوع الأحداث المؤسفة الأخيرة، بينما هي أخذة في صب ترسانات أخرى جديدة وأكثر تطوراً في آلة الحرب الإسرائيلية، وصب مئات جديدة من بلايين الدولارات في عروق إسرائيل؟ ما الذي سيظن المحارب المفاوض أنه سيحدث؟ حقيقة ما الذي يظن أنه سيحدث؟

وفي كلام كمال حسن علي، غير ذلك مغالطة صغيرة فصاروخ «تاو» الذي ردت أمريكا إسرائيل بكفريات ضخمة منه لم «تعان مصر من في الثغرة الإسرائيلية على الضفة الغربية للقناة» بل كان السلاح الرئيسي الذي استخدمته إسرائيل في دحر هجوم السادات المطور يوم ١٤/١٠/١٩٧٣ الذي أدى إلى تجريد الضفة الغربية للقناة من دفاعاتها ومكّن الإسرائيليين من فتح الثغرة وإقامة الجيب على الضفة الغربية للقناة ومن اللافت للنظر أنه نقل إلى إسرائيل كميات كبيرة عن طريق الجسر الجوي بشكل بدا كما لو كان منسقاً تنسيقاً كاملاً مع بدء الهجوم المطور فالصاروخ تاو لم يستخدم في فتح الثغرة كما يوحي كلام كمال حسن علي، بل استخدم استخداماً مواتياً في إتمام المهمة التي بدأت بتجريد الضفة الغربية من دفاعاتها والقاء تلك الدفاعات بين ما ألقى من مدرعات لتدمرها القوات الإسرائيلية بتلك الصواريخ وتبدأ بذلك سلسلة الأحداث الدرامية التي بدأت بـ «خروج شوية فراخ من العشة» كما قال السادات عن الثغرة، وانتهت بلقاء الحمصي بالقادة الإسرائيليين المنتصرين في الكيلو ١٠١ كتمهيد لذهاب الوفد المصري إلى كامب ديفيد للاتفاق على معاهدة السلام.

٥ - واقعية السادات وما أخذ بالقوة

وفي نهاية كلامه رداً على انتقادات الأعلام المعارضة (الحاقدة؟) يقول كمال حسن علي وأخيراً فإن السادات كما هو واضح كان واقعياً في كل ما فكر فيه، ولم يعكر بعاطفته، ولم يحمل الأمور أكثر مما تحتمل، بل إن السادات كان من الذكاء في كل الخطوات التي اتخذها بحيث لم يوافق إلا على ما هو تحصيل للحاصل، بينما انتزع من إسرائيل والولايات المتحدة تنازلات كبيرة، بل وكبيرة جداً، عندما اضطرت إسرائيل لإحلاء سيئاء وإزالة المستوطنات منها الأمر الذي تسبب في أزمة حقيقية لزعماء إسرائيل أمام المعارضة ولا يجب أن ننسى أن في إسرائيل أحزاباً كحزب كاهان (مائير كاهان) لا يزال يتبنى فكرة طرد العرب من إسرائيل ويعتبر أن إحلاء أي شر من الأرض المحتلة حيانة للقضية لأن إسرائيل يجب أن تعود إلى مملكة داود التي قامت منذ ألفي عام ولدة ٧٠ عاماً فقط.

وبعد «الرد على الانتقادات التي وجهت إلى المعاهدة المصرية الإسرائيلية» وجد كمال حسن علي أنه «من الواجب عليه، كمشارك في كل الخطوات التي أدت إلى توقيعها وتنفيذها، أن يدون الفوائد الكبيرة التي استطاعت مصر والعرب الحصول عليهما من توقيع المعاهدة (وقد كتبها بصياغة كأنها أميركية «توقيع مثل هذه المعاهدة» أي «Signing such a treaty») واستطيع أن أخصها فيما يلي: (١) أن المعاهدة، وقبلها اتفاقات كامب ديفيد أثبتت أن حرب أكتوبر/ تشرين الأول التي اتخذ قرارها السادات كانت انتصاراً حقيقياً غير مفاهيم العالم كله، بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية بل وخطأ بالتاريخ نفسه عشرات السنين إلى الأمام

وبطبيعة الحال كانت حرب ١٩٧٣ - قبل فتح الثغرة - انتصاراً حقيقياً، للمصريين كبشر وكأمة، ما لبثوا أن جردوا منه وحول لهم إلى هزيمة ماحقة - يشهد بذلك الكيلو ١٠١ وما بعده. ومن يدري، ربما لو كان الانتصار قد اكتمل لما كان كمال حسن علي قد وضع كتابه «محاربون ومفاوضون» أمام مفاهيم العالم كله التي غيرها «الانتصار» في حرب ١٩٧٣، فماذا كان؟ وماذا كانت محصلته النهائية؟ كانت الصلح مع إسرائيل وخروج مصر من المعركة وصمت الجبهة المصرية.

أما «مفاهيم الولايات المتحدة الأميركية» فلم تتغير. مفاهيم الولايات المتحدة الأميركية ظلت منذ البداية وبإصرار واتساق وصلابة وضراوة، وبلا أدنى تغيير أو تحول عن الخط الثابت للمشروع الصهيوني، كسر ظهر مصر عسكرياً، والإحاطة بها اقتصادياً وديبلوماسياً، وإقناع النظام الحاكم فيها بأن مصالحه (الاستمرار والبقاء للنظام وزعامته) باتت تعلي عليه الكف عن لعب ورقة «الصراع العربي الإسرائيلي». وذلك تحديداً وبالحرف الواحد هو ما تحقق للولايات المتحدة نتيجة لحرب ١٩٧٣ وما أعقبها من ذهاب السادات إلى القدس ثم إلى كامب ديفيد. ولم يكن اعتباطاً أن الفقرة الثانية من المادة التاسعة من معاهدة السادات/ إسرائيل نصت على أن «هذه المعاهدة تحل محل الإتفاق (اتفاق فصل القوات الثاني في سيناء) المعقود بين مصر وإسرائيل في سبتمبر / أيلول ١٩٧٥». فذلك الاتفاق كان ذروة المهمة التي كلف بها الولد العبقري اليهودي هنري كيسنجر في خدمة المشروع الصهيوني، وقد كان «تفكير الولايات المتحدة» الذي أفضى إلى تكليف كيسنجر بمناورة مصر وزعامة النظام إلى عقده مع إسرائيل هو عينه التفكير الذي اكتمل تحقيق مراميه بعقد «معاهدة السلام» بين مصر وإسرائيل. فتفكير الولايات المتحدة لم يتغير بفضل حرب أكتوبر / تشرين الأول، بل كانت تلك الحرب كما جعلها السادات الوسيلة الحاسمة لتنفيذ كل مرامي التفكير الأميركي الذي جر مصر من خلال «ديبلوماسية كيسنجر» إلى عقد اتفاق فصل القوات الثاني سنة ١٩٧٥^(٨) تنفيذاً كاملاً حاسماً ونهائياً. ولقد كان الهدف الأساسي لكل ديبلوماسية كيسنجر إعادة أمجاد سياسة بلاده تجاه سكان أميركا الشمالية الأصليين إبان الغزوة الاستيطانية ببث الفرقة بين قبائلهم. وقد كان ذلك الهدف أساسياً باستمرار في سياسة الولايات المتحدة تجاه الوطن العربي، إلا أنها اكتسبت الحاحية خاصة عقب ما تمخضت عنه حرب أكتوبر / تشرين من تطورات يمكن اعتبارها الانتصار الحقيقي الوحيد الذي سجلته مصر وسجله العرب في تلك الحرب، ونعني بها التطورات الاقتصادية الخطيرة التي ترتبت على التضامن العربي واستخدام سلاح النفط. وعندما استدرج كيسنجر السادات سنة ١٩٧٥ إلى توقيع فصل القوات الثاني والتسليم فيه - كما أشار شمعون بيريز - بأنه «اتفاق مصري إسرائيلي قائم بذاته وليس معلقاً بأي جدول زمني لانسحابات إسرائيلية من أية أراض عربية أخرى»، بدأت الشروخ تظهر في ذلك التضامن العربي الذي أرق الولايات المتحدة بشكل خاص، لا مجرد أنه أدى إلى ما أسمي بـ «أزمة النفط»، بل ولأنه انطوى على خطر حقيقي تمثل في أن النجاح الذي ترتب عليه قد يوقف العرب على ما يمكنهم تحقيقه في مواجهة المشروع الصهيوني إذا ما تضامنوا حقيقة، دع عنك إذا ما اتحدوا في مواجهته ومواجهة منفذيه. ولذلك هل المعلقون الإسرائيليون عندما وقع الاتفاق، وأعلنوا أن «مصر، بتوقيعه، قد تخلت نهائياً عن شعار «ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة» وأن من شأن الاتفاق أن يفتت التضامن العربي، وهو ما أكدته إسحق رابين في مؤتمر صحفي يوم ١٧/٩/١٩٧٥ قال فيه إن إشعال نيران الصراع بين مصر والعالم العربي يشكل الإنجاز الرئيسي والجوهرية والأهم للتسوية الجزئية التي عقدت بين مصر وإسرائيل بموجب اتفاق فصل القوات الثاني، ثم عاد، في ٢٩ من نفس

الشهر، فقال في كلمة القاها أمام المؤتمر الثاني لاتحاد اليهود المغاربة المهاجرين إلى إسرائيل، أن الصراع الذي أشعله (إنجاز كيسنجر بعقد اتفاق فصل القوات الثاني) أشد بكثير مما كان معتقداً، والواقع أنه بدون إشغال مثل ذلك الصراع الداخلي العربي لن تبدأ العملية الصورية التي لا سبيل إلى التحدث بدونها عن التوصل إلى السلم

فالتفكير الأميركي لم يتغير بحرب أكتوبر / تشرين الأول، بل كانت تلك الحرب خطوة هامة وناجحة صوب تنفيذ رؤية الولايات المتحدة لما يجب أن يحل بمصر وبوضعها العربي وما يتعين فعله إخراجاً لمصر من ساحة الصراع:

«ولقد كان من أخطر نتائج اتفاق فصل القوات الثاني سنة ١٩٧٥) على الصعيد السياسي، عزل مصر عن المعسكر العربي المقاتل، وترك سورية والثورة الفلسطينية تجابهان العزوة الصهيونية بمفردهما وتلقي مصر ذلك وتؤكد أنها ملتزمة بقرارات مؤتمر القمة العربية في الجزائر والرباط وتشير إلى أن المادة الشاملة من الاتفاق تؤكد أنه ليس سلاماً نهائياً بل خطوة نحو سلام عادل ودائم وأن مثل هذا السلام يتطلب انسحاب إسرائيل من كافة الأراضي المحتلة (التي احتلت ١٩٦٧) واستعادة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني»^(١).

ونحن نعرف ما انتهى إليه الاتفاق على سلام عادل ودائم. خرجت مصر من ساحة الصراع، وتركزت إسرائيل في مواجهة كل أولئك العرب المتعبين والفلسطينيين الإرهابيين. وبنجونا نحن وبعدها الطوفان لولا أن الطوفان سيبطل الجميع. وتفكير الأميركيين ظل منذ البداية توجيه الأمور إلى حيث يحدث ذلك، فتؤخذ الأرض خالية حقاً.

وفي معرض تعديده لمناقب المعاهدة، يضيف كمال حسن علي، على سبيل التفكهة فيما يبدو، أن مصر بإبرامها معاهدة السلام مع إسرائيل.

«ظهرت بمظهر حضاري يؤكد أنها غير مندفة، وغير غافلة أو ساذجة، وإن دولاً كثيرة حولها تفكر انظمتها بعاطفية لا تتناسب مع روح العصر بينما تتستر وراء تلك العاطفة أحياناً دوافع شخصية أو مطامع إقليمية ومادية. وتعزيراً لهذا المعنى، أضاف قائلاً «كانت المعاهدة بوتقة اطهرت معادن الرجال، وبيئت أن الأصالة والشجاعة والصلابة أقوى من المداهنة والدهاء والمتاجرة»^(٢).

لكنه، بعد هذا، يذهب إلى لب الموضوع رأساً، فيقول.

«استطاعت مصر أن تركز على الأخطار الحقيقية التي تواجهها، (ولم تعد تسمح) بحرماً إلى مشكلات تحب بعض الأطراف وأصحاب المصالح أن تظل قائمة إلى الأبد.

وواضح أن «المشكلات التي لا تشكل مخاطر حقيقية» والتي ظل البعض يعمل، طبقاً لكلام كمال حسن علي، على إبقاء مصر متورطة فيها إلى الأبد، هي تلك التي واجهها النظام المصري في غمار المشاركة في الصراع مع إسرائيل، وإخراج مصر من ساحة ذلك الصراع، بات بوسع مصر أن «تركز على الأخطار الحقيقية التي تواجهها». ومن المؤسف حقاً أنه لم يعن بالإفاضة هنا قليلاً ليوقف القارئ على تلك الأخطار الحقيقية التي تواجه مصر والتي لا شأن لها بالمشروع الصهيوني في المنطقة باعتبار مصر قد خرجت من ساحة التصادم معه.

وكما قلنا من بداية هذا الكتاب، ظل ذلك باستمرار المكون الأساسي لرؤية النظام الذي انجب كمال حسن علي وحسن التهامي وتبنى بطرس غالي وكل أولئك المصريين الطيبين ثاقبي الذكاء عظيمي الفطنة لمسألة «فلسطين». فتلك بالحقيقة ظلت مسألة لم يشعر النظام بأنه مرتبط بها، لأنه إن كان أولئك الفلسطينيون غير قادرين على البقاء على أرضهم، فذلك أمر يخصهم وحدهم. وحقيقة أن النظام وجد في محنتهم فرصة للعب ورقة «الصراع مع الصهيونية»، كما أسلفنا، إلا أنه ما لبث أن تبين بعد ضربة ١٩٦٧ القاصمة أن اللعب بتلك الورقة كانت خسائره أعظم من مكاسبه، خاصة وأن النظام كان قد أحكم قبضته تماماً على العزبة وأقصى قطعانها ولم يعد بحاجة إلى تلك التوترات المستمرة التي استخدمها فيما سبق لإبقاء القطعان في حالة «لا صوت يعلو على صوت المعركة». ومنذ ذلك الوقت، نما وترعرع - خاصة بعد موت عبد الناصر وموت طموحه الزعامي العربي معه - تيار «واقعي» براجماتيكي، لدى النظام تمثل فيما قاله كمال حسن علي عن معاهدة الصلح مع إسرائيل وكيف أنها بإخراجها مصر من ساحة الصراع مكنت مصر من مواجهة الأخطار

الحقيقية التي تواجهها، واعفتها من التورط في تلك المشكلات التي لا شأن لها بها. وقد أتصحت تلك الرؤية التي سيطرت على «فكر» النظام في قوله بعد ذلك أن «المعاهدة أثبتت أنها شكل من أشكال تحجيم التوسع سواء لدى إسرائيل أو غيرها، والدليل على ذلك تباطؤ إسرائيل ووضعها العراقيل أمام عقد معاهدات أو التزامات مشابهة (لما عقدته مع مصر) تتعلق بالأراضي المحتلة سواء في الضفة الغربية وغزة أو الجولان ولبنان. ففي ظل الخصومة والحرب وتحت دعاوى الأمن كل شيء جائز. ولكن في ظل السلام لا يصح إلا المنطقي والمعقول».

فهو لا يستطيع أن ينكر الطبيعة التوسعية لإسرائيل، وإن أضاف إلى قوله ما يفهم منه أنها طبيعة ليست قاصرة على إسرائيل. ولما كان الكلام هنا منصبا على مصر والمنطقة، وليس كلاماً فلسفياً عن العالم بأسره، فإن المرء لا يسعه إلا أن يتساءل ترى أي دولة أخرى بالمنطقة هي التي لديها نزوعات توسعية تجاه مصر؟ ليبيا؟

ومثل هذا التفكير ليس غريباً إذا ما فكر القارئ في الطريقة «البارعة» التي اتخذ في سياقها الكاتب من نتائج إبرام معاهدة السلام المصرية مع إسرائيل أدلة لا تدحض على روعة تلك المعاهدة وكيف أنها كانت ممتازة إلى حد أن إسرائيل أقفلت بعدها الأوكازيون وتملصت من عقد معاهدات مماثلة لها مع أي بلد آخر. وفي ختام كلامه، يتحدث الكاتب عن «المنطقي والمعقول»، فلنفعل مثله ولنلذذ بـ «المنطقي والمعقول» ونسأله هل كان يتصور حقيقة أن إسرائيل بعد أن أخرجت مصر من ساحة الصراع وأسكتت جبهتها ودخلت في حالة عشق معها سوف تعقد معاهدات مع أحد وتعيد إليه ما أخذته من أرض؟ هل كان يتصور حقيقة أن إسرائيل ستعيد الجولان إلى سوريا، أو تهدم مستوطناتها بالضفة الغربية وغزة وتتركهما للفلسطينيين، أو تتخلى عن لبنان جنوب اللباني الذي أعلن بن جوريون منذ ١٩٢٧ وجوب الاستيلاء عليه وإقامة دولة مارونية جارة لإسرائيل على الضفة الأخرى من ذلك النهر؟ ألم يتوقف رئيس الوزراء السابق وزير الخارجية السابق والمشارك في كل خطوات السلام العظيم مع بيجين وإسرائيل وكارتر وأميركا والسادات ليتساءل، ولو على سبيل الفضول، عما إذا كانت إسرائيل - بعد خروج مصر من الساحة - ستجد أي داع للتخلي عن شبر من تلك الأراضي؟ لماذا؟ ولماذا؟ ولاي غرض؟ وتحت أي ضغط؟ وسعياً إلى أي شيء؟ إلى ذلك الشيء الذي لم يكف عن تسميته بـ «السلام»؟.

الحقيقة أنه إن كان السيد رئيس الوزراء والوزير السابق يتكلم بطريقة جدية ولا يعايب عقل القارئ فلا شك في أنه يحلم بهوم. لأن السلام الوحيد الذي تحتفظ به الحركة الصهيونية لمصر وللعرب ولكل من بالمنطقة هو سلام الموت. سلام القبر الجماعي الذي سيدفن فيه كل أصحاب الأرض لتصبح أرضاً خالية بغير شعوب لشعب بغير أرض، كما قيل عن فلسطين في بداية المرحلة الأولى من تنفيذ المشروع الصهيوني.

لكن السيد المحارب المفاوض رجل الدولة رجل متحضر فيما يبدو ومؤمن بالقانون الدولي والأمم المتحدة وشرف أميركا وكل تلك الأشياء، ولذلك فإن الزاوية التي ينظر منها إلى المسألة هي أنه «في ظل الخصومة والحرب وتحت دعاوى الأمن كل شيء جائز، أما في ظل السلام فلا يصح إلا المنطقي والمعقول»!!

ومتى كان أي شيء أقدمت عليه إسرائيل مما يمكن إدراجه تحت تصنيف المنطقي أو المعقول؟ ومن الذي سيرغمها على أن تنتهج سلوكاً منطقياً ومعقولاً وقد أمنت ظهرها من مصر، بل ودخلت في عب مصر وأخذت في تدميرها من الداخل؟ وما الضمان الذي حصل عليه كاتب هذا الكلام من الأمريكيين بأن «متطلبات أمن إسرائيل»، وهي كما يعرف من الخبرة العملية ومن مخالطته لكل أولئك الناس على أعلى المستويات - متطلبات مقدسة تعلو على أي قانون دولي أو أعراف أو معاهدات أو اتفاقات أو مصالح أو مجتمع دولي أو أمم متحدة، لن تتطلب غداً غزو الضفة الشرقية للأردن، مثلاً، لا قدر الله، أو احتلال بقية لبنان، أو غزو سوريا، أو ضرب العراق بعد أن فشل نظام الخميني في تنفيذ مهمته العراقية، بل وضرب مصر ثانية من جديد إذا ما تبين أن عملية التخريب

الطائفي والتسلل الاقتصادي لن تؤتي ثمارها في الموعد المطلوب؟ أي ضمان لدى السيد المحارب؟ لا نظر أن أحداً أعطاه ضماناً. أو أن أحداً على استعداد لإعطاء مصر ضماناً. والغريب حقاً أن كمال حس علي وهو يسرد بعض مظاهر الضيق الإسرائيلي باضطراب الإسرائيليين إلى الخروج من سيناء لا يبتبه إلى طبيعة الحقد الصارب بجذوره في الروح والذي نَزَّ كالصديد على السطح الخارجي عندما «دمرت إسرائيل مستعمرة ياميت بالكامل حين اضطرتها الإدارة المصرية إلى إحلائها باستخدام ٢٠ ألف جندي إسرائيلي لإخراج المستوطنين منها في أقفاص حديدية ودمرت فعلاً ٢٤ شرمياة وثلاث مرار حتى تحرم مصر من استخدامها»

وفي النهاية، أفصح كمال حسن علي عن الشاغل الأهم للنظام وهو استئلال الجانب العسكري الذي يعتبر الدعامة الرئيسية لوجوده من ورطة المجابهة العسكرية التي تبين أنه لا قبل له بها مع إسرائيل، عن طريق معاهدة السلام والتصالح مع من كانوا قبلاً «العدو الغادر» وكان يتعين «ألا يعلو صوت على صوت المعركة معهم»، «فخففت المعاهدة العبء على القوات المسلحة المصرية (بما سيمكنها من) تفريغ جزء من طاقاتها وإمكاناتها الكبيرة لتدعيم التقدم في الإنتاج، سواء بحل المشاكل الداخلية كالإسكان والمواصلات والأمن الغذائي أو التدريب اللازم لخلق الكوادر الفنية التي تعوض الفاقد في العمالة المدربة - نتيجة للهجرة والعمل في الدول العربية - لمواجهة الخطة المقبلة لسنوات السلام»

فالأنطال عادوا من الحرب منتصرين وفي أيديهم صك السلام، وعادوا ليُحكّموا قبضتهم على العزبة من جديد وقد باتوا بمنجاة من مسؤوليات الصراع الذي لم تعد منه حدوى وبطبيعة الحال، لا يماري عاقل في أن السلام خير من الحرب لكن البقاء خير من هذا السلام المميت الذي عاد به الأنطال الفاتحون فلقد تسألني في النهاية، وما البديل للسلام، ودعني أقول لك البقاء إن كان أحد يريد البقاء إلى الحد الذي يجعله يقل بتحدياته

- (١) «السادات، الحقيقة والأسطورة..» ص ٤٢٨
- (٢) المرجع نفسه، ص ٤٢٧
- (٣) «السلام الضائع»، ص ص ٥١٤/٥١٥
- (٤) المرجع نفسه، ص ص ٥٠٩/٥١٠
- (٥) Quandt, William Camp David op. p. 361
- (٦) انظر كمال حسن علي «محاربون ومفاوضون» مركز الاهرام للترجمة والنشر القاهرة، ١٩٨٦، ص ص ٢٧٩/٢٨٠
- (٧) المرجع نفسه، ص ص ٣٥٤/٣٥٨
- (٨) المقدم الهيثم الأيوبي «اتفاق فصل القوات الثاني في سيناء ١٩٧٥» المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٥، ص ص ٢٢٣/٢٢٤
- (٩) المرجع نفسه ص ٢٢٥

خلاصة

بعد الفقرة، تقطع الأوصال مكر

في ٩ نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٧٧، أعلم السادات نواب الأمة في مجلس الشعب أنه «على استعداد للذهاب إلى آخر الأرض، إذا كان ذلك سيحول دون إراقة دم جندي واحد من أبنائه».

وفي كتابه «محاربون ومفاوضون»، يقول الفريق أول كمال حسن علي أن السادات عندما قر قراره على الذهاب إلى القدس المحتلة كان قد «فهم تماماً أن انتظار توحيد كلمة العرب سوف يطول، وأن ترك «القضية العربية» رهناً بهذا الحلم جناية على كل العرب، وجناية على مصر في المقام الأول» لماداً، لأن «الحالة الاقتصادية في مصر لا تحتمل الانتظار، ولأن الشعب الذي اكتوى ببار كل هذه الحروب لا بد من مساعدته للتطلع إلى مستقبل أفضل». فمبادرة السادات في نوفمبر ١٩٧٧ «كانت قراراً حكيماً بإنهاء تلك الفترة من الانتظار القاتل»، «وتوقيع مصر (باعتبار أن مصر هي التي وقّعت) على وثائق كامب ديفيد في سبتمبر / أيلول ١٩٧٨ كان إعلاناً ببداية تحريك القضية العربية، على كافة الجبهات والمحاور». فذلك كانت «فرصة ذهبية للسلام» أتاحتها السادات، «ولم يكن مطلوباً من العرب إلا التعقل في تقدير تلك الفرصة الذهبية لسلام لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون في صالح إسرائيل لأسباب عديدة تعلمها إسرائيل جيداً». وكيف ذلك؟ لأن «السلام العادل يعني نهاية التوسع الإقليمي، وانكماش إسرائيل داخل حدود تجاوزتها أطماعها بكثير». وهذا كلام يثلج الصدر ويبهج القلب. فها هو النظام المصري قد هزم إسرائيل بالسلام وأوقف أطماعها، وجعلها تنكمش داخل «حدودها». وليس هناك ما هو أدعى للسرور والانشرح من ذلك لولا أن المحارب المفاوض استطرد مدسلاً على صدق رؤيته للموقف وصواب تقييمه للوضع، فقال ما يلي وراء إشارته إلى أطماع إسرائيل التي كانت قد تجاوزت الحد قبل أن يوقفها السادات.

«بل أنها (إسرائيل) لا تستطيع أن تتصور لنفسها حدوداً آمنة إلا بعيداً عن حدودها بمقدار مدى قذائف المدفعية الثقيلة وربما الصواريخ وهذا يعني ضرورة احتلال أرض الغير وحتى بغرض (توافر) حدود أممية وحدود دولية (تظل) إسرائيل - داخل الحدود الدولية - رقعة صيقة لا تحتمل الأعداد البشرية الهائلة التي تطمع في هجرتها إليها سنوياً، في الوقت الذي فشلت فيه معظم مشاريعها في صحراء النقب»^(١) ففي معرض الحماس لـ «بيع» كامب ديفيد ومعاهدة السلام مع إسرائيل كانتصاراً للعسكرية والديبلوماسية المصرية، و«ضربة قاصمة» لمشاريع إسرائيل وأطماعها التوسعية، و«فرصة سلام ذهبية» أتاحت لمصر ولكل العرب، تطوّر كاتب ذلك الكلام بتقويض كل ما كتب من أساسه إذ تحدث بهذه الفصاحة عن مفهوم إسرائيل (الذي لم يقل لنا كيف غيّر اتفاق كامب ديفيد) للحدود الآمنة، وضرورة احتلالها لأراضي الغير، وضرورة تماديها في التوسع الإقليمي، إن لم يكن لجعل «حدودها» بمنجاة من قذائف المدفعية الثقيلة والصواريخ (القذائف قصيرة المدى؟ القذائف متوسطة المدى؟)، فتوسيعاً لرقعتها المحدودة حتى تستقبل الأعداد البشرية الهائلة التي قال لنا أنه مدرك لكون إسرائيل جادة في تهجيرها إليها سنوياً

ولم يكتف الكاتب. وهو رئيس عمليات، ومساعد وزير حربية، ورئيس مخابرات عامة، ووزير دفاع، وقائد عام، ورئيس وفد المفاوضات الذي أبرم المعاهدة المصرية / الإسرائيلية، ورئيس اللجنة العليا لتطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل، ونائب رئيس وزراء ووزير خارجية ثم رئيس وزراء سابق، بهذا الطرح لما

قتل مصر

الحقه السادات بمهارة من حسائر بإسرائيل لحساب مصر وكل العرب، فصمّ كتّابه، القيم بغير شك، كتشف
جرد دفيق أثبت به أن السلام الذي توصّل إليه السادات الحق بإسرائيل الحسائر القاذحة التالية
- حرّمها من استغلال ثروات الأرض المحتلة زراعية ومعدنية وبخاصة بترول سيناء
- حدّد من المساعدات والتبرعات الأميركية واليهودية المتصاعفة التي طلت تحصل عليها بسبب
تعرضها لخطر الحرب.

- عرّضها لمنافسة اقتصادية مصرية وعربية «وفي ظل أي رخاء اقتصادي في المنطقة العربية وخاصة
مصر»

- جعل لبنان من جديد منافساً لها في مجال السياحة
- حدّد نصيبها من المياه العذبة لنهر الأردن وغيره من المصادر المشتركة الأخرى وتديلاً على
خطوة ذلك، أشار إلى أنه «ورد في حديث لأريل شارون أن إسرائيل - في ظل معدّلات الهجرة، وبغير توسع
في مصادر المياه أو إيجاد مصادر مياه بديلة - سوف تحدّ نفسها مضطرة، خلال سنوات معدودة، إلى
تخصيص كل ما لديها من المياه العذبة للشرب فقط دون أن تحدّ لتراً واحداً توجهه إلى الزراعة أو
الصناعة»

- قلّص دورها السياسي والعسكري كحارس للمصالح العربية في الشرق الأوسط، وبالتالي نصيبها من
الدعم العسكري

- أمّن «أرواح الفلسطينيين المستهدفة حالياً من أكثر من دولة عربية» وبتأمين أرواح الفلسطينيين،
باتت إسرائيل «مهددة بمنافسة بشرية معها داخل وخارج إسرائيل» نتيجة لتكاثر الفلسطينيين وعدم
حصد أرواحهم أولاً بأول، بفضل السلام، وهو ما يحبط خطط إسرائيل الرامية إلى «تغيير الأوضاع في
الضفة الغربية وغزة تغييراً يوفّر لها أغلبية مؤثرة من السكان اليهود قبل أي استفتاء لتقرير المصير»

- أثر السلام في الهجرة اليهودية إلى إسرائيل، وهو تأثير «لن يكون مفيداً في الحالين» فريادة الهجرة
إلى رقعة أرض محدودة يعني زيادة الأزمات الاقتصادية ونقص الهجرة يعني الحكم على إسرائيل ذات
الملايين الثلاثة بالتحمد في خضم التزايد العربي والفلسطيني، وفي نفس الوقت يناقض الهدف الأساسي
من إنشاء إسرائيل كوطن لكل يهود الشتات»

وفوق كل هذه الأضرار التي لحقت بإسرائيل نتيجة لـ «ضربة السلام»، والتي لم يقل الكاتب كيف
سيمكن جعل إسرائيل قابلة بها مسلّمة أمرها إلى الله فيما يخصها، ارتكباناً بطبيعة الحال - إلى أن
معاهدة السلام كانت انتهاء للتاريخ فيما يخص الشرق الأوسط، يضيف هذه المكاسب العربية باعتبارها
منحة إضافية تشجيعية حصل عليها المصريون وكل العرب

- فبانتهاء حالة الحرب، ستطفو إلى السطح التناقضات الحادة في بنية إسرائيل، وهي تناقضات
ظلت مستترة تحت خيمة الخطر المحدق، أي خطر الحرب الذي زال

- وبموجب كامب ديفيد والمعاهدة، ستقوم دولة فلسطينية على حدود إسرائيل و «قيام دولة فلسطينية
على حدود «الدولة» أمر مفزع يرفضه ٩٠ بالمائة من الاسرائيليين، مهما كانت الضمانات، إذ يعني في
نظرهم بداية مرحلة جديدة من الصراع

- السلام يعني إعادة حقوق العرب والمسلمين في القدس التي تتمسك بها إسرائيل كعاصمة لها
- وقد كان استمرار وضع اللاحرب والاسلم بمثابة «قضاء طبيعي على منظمة التحرير الفلسطينية
التي تعاني من الانشقاق والانقسام على يد أكثر من دولة عربية تستقطب زعماءها»
ويختتم الكاتب المحارب المفاوض كشف الجرد هذا بقوله أن «المنتع لتفاصيل مباحثات السلام في
كامب ديفيد يستطيع أن يتأكد أنها لم تكن صفقة رابحة لإسرائيل بأي مقياس»^(١)

١ . الحالة الاقتصادية التي لا تحتمل الانتظار

فما دامت صفقة كامب ديفيد صفقة خاسرة لإسرائيل - بصرف النظر عما يجعل إسرائيل وهي في مركز
قوة تقبل بكل ذلك الغرم - لا بد أنها صفقة رابحة بحق لضحاياها.
وعلى رأس قائمة الأرباح، فيما يخص مصر، الحالة الاقتصادية بغير شك، وهي التي قال كمال حسن

علي أنها كانت على رأس قائمة دوافع السادات إلى عقد صلح مع إسرائيل، لأنها كانت لا تحتل الانتظار والمعنى الواضح في هذا السياق أن الحالة الاقتصادية في مصر كانت قد باتت لا تحتل الانتظار بسبب كل تلك الحروب مع إسرائيل. والذي لا شك فيه أن الحروب مع إسرائيل كلفت الميزانية المصرية ما لا طاقة لها به. ولا شك أيضاً في أن «عطاء» الأخوة العرب كان أقل بكثير مما تطلبه الوعي - إن وجد - بأبعاد الصراع مع إسرائيل وبدور مصر الذي لا عوص عنه في ذلك الصراع. ولقد كان الرئيس العراقي صدام حسين الوحيد من قادة البلدان العربية الذي أعلن ذلك صراحة ودعا إلى دعم مصر بالمال العربي بقدر واقعي يتكافأ ودورها في الصراع. لكن الذي حدث فادى إلى ما دعي بـ «أحداث ١٨ و ١٩ يناير» في مصر ووصفه السادات بأنه «هبة حرامية» وشيء أشبه بما حدث في روسيا سنة ١٩١٧ فدفعت بلينين إلى السلطة، أن دائني مصر اشتركوا في عملية «صندوق الدين» محدداً من خلال نادي باريس ومناورات صندوق النقد الدولي، فأعطوا السادات الحجة التي كان متلهفاً إليها، وأتاحوا له أن يمثل دور العمدة العاضب الذي قال لنفسه «انهم يناوون لي يجعلوني أفعل ما تريد أميركا» طيب. سافعله لكن بشروطي أنا وبطريقتي أنا» وشد الرحال فذهب إلى القدس وأشبع حولدا مائير تقبيلاً ومناحم وموشى أحضاناً.

كل هذا صحيح. لكن مسح كل أوزار الخيبة والفساد الوحشي في «إدارة» الاقتصاد المصري في عباءة حروب إسرائيل وتقصير البلدان العربية في العطاء لا يدحض الحقيقة الماثلة في أن الاقتصاد المصري خرب لأسباب داخلية ساعدت على جعلها تفعل فعلها كل تلك الحروب الفاشلة مع إسرائيل.

وفيما يخص الحروب مع إسرائيل، من الواضح أن القدر الأعظم من الكلفة تمثل في مشتريات السلاح الذي ترك مكملاً كالتلال على رمال سيناء سنة ١٩٦٧ وظلت إسرائيل تتاجر به لسنوات طويلة وتحقق أرباحاً مجزية. وذلك سلاح اشترى بالنسيئة. بالدين. وما زالت مصر تتفاوض مع السحوقيات حول المديونية الناجمة عنه. ولو كان ذلك السلاح قد استخدم بدلاً من تركه مكملاً لتتاجر به إسرائيل لتغيرت أوضاع كثيرة في منطقة الشرق الأوسط وفي مصر بالذات.

وليس موضوعنا هنا البحث المتعمق في ملحمة الخراب الاقتصادي. لكن المماحكة بالبعد الاقتصادي وتبرير الانتحار بالحرص على إعطاء الشعب الذي «اكتوى بنار كل تلك الحروب» فرصة التطلع إلى مستقبل أفضل يجعلان من المحتم التوقف ولو قليلاً عند ذلك البعد الاقتصادي

وليس أحد بحاجة إلى من يذكره بالفساد. فحكاياته التي تكشفته حتى الآن باتت من كثرتها مادة للتندر وإطلاق النكات جرياً على مألوف طبع الشعب المصري في الضحك من بلاياه ومن نفسه والانتقام من معذبيه بالتريقة وتلقيح الكلام.

فلندع الفساد والنهب المنظم جانباً ونركز على الخيبة التي فعلت فعلها في تلك الحالة الاقتصادية التي اكتشف السادات فجأة أنها كانت قد باتت مما لا يحتل الانتظار فهرول ذاهباً إلى القدس المحتلة.

والذي لا شك فيه أن «الحالة الاقتصادية» في مصر بعد سنوات طويلة من المجد والخلود حالة سيئة للغاية، فهي حالة عجز مخيف مزمن في كل ما هنالك من الميزانية العامة لـ «الدولة»، أو إن شئنا الدقة، العزبة، والميزان التجاري، وميزان المدفوعات، وهو عجز أشبه بغيلان الأساطير، يزداد ضخامة وشراسة من يوم لآخر ويزداد بالتالي شراهة إلى ما تلقمه إدارة العزبة إياه من مديونية داخلية وخارجية، وبالأخص خارجية تحولت هي الأخرى إلى غول شره بات يلتهم ما يتجاوز ٤٠٪ من حصيله صادرات مصر، لا سداداً لأصل المديونية، بل قياماً بخدمة تلك المديونية، أي سداداً لما يستحق من عمولات وفوائد مدينة. وبطبيعة الحال، لتدهور أوضاع الإنتاج ورداءة ما هو منتج في ظل الإدارة المكونة من «سادة أساتذة» جلهم من الاتباع والمتفعين، ظل مستوى الصادرات المصرية في الحضيض، إذا ما استثنينا صادرات النفط مما تبقى في حقول سيناء بعد ما نهبه الإسرائيليون خلال سنوات الاحتلال. ونظراً لكون مستوى الصادرات في الحضيض ولتدني معدل نموها، بالإضافة إلى تناقص حصيله صادرات النفط ابتداءً من ١٩٨٦ إلى أقل من نصف ما وصلت إليه بعد استرداد سيناء تفاقم عبء خدمة المديونية الخارجية التي تخطت أرقامها الناتج القومي الإجمالي لمصر بكثير، وانفردت مصر - فيما يخصها - بأسعار فائدة مدينة من قبيل الربا الفاحش تجاوزت ضعف ما تدفعه بلدان أخرى مدينة كثيرة.

وبطبيعة الحال، عجزت إدارة العزبة عن اتخاذ أي إجراء اقتصادي سليم لخفض العجوزات والمديونيات، وعمدت إلى ما بدا للسادة الأساتذة كأيسر الحلول إصدار المزيد ثم المزيد من النقود الورقية. والنتيجة الحتمية لذلك الحل نمو أسطوري لغول آخر زامل غول العجز، وغول المديونية، هو غول التضخم الرامح، وبالتالي تدهور القيمة الحقيقية للجنيه وتدهور قدرة السادة الأساتذة على المزيد من الإقتراض نظراً لتدهور نظرة المقرضين الخارجيين إلى الحالة الاقتصادية التي كان مفروضاً أنها ستزدهر بعد السلام ازدهاراً «يعرض إسرائيل لمنافسة اقتصادية مصرية» تطعنها في الصميم.

وليس في شيء من كل ذلك جديد. فكله حكاية قديمة مكررة معروف وما على المرء إلا أن يقصر النفس على جلسة عذاب طويلة في إحدى المكتبات العامة مع أعداد الصحف المصرية. ووقتها سيجد مسرحية «الترشيد» و«الإصلاح» الاقتصادي تتكرر تكراراً مملاً رتيباً وصفيقاً في الوقت ذاته، وكأن مانشيتات الصحف هي التي ستصلح ما يعلم الجميع أنه فسد ولا سبيل إلى إصلاحه إلا بعملية جراحية عديمة الرحمة تصل حتى النخاع وتجتث من بنية مصر كل العفويات والطحالب والجراثيم والحشرات مصاصة الدماء، وأنه بغير تلك العملية سيظل المريض (الاقتصاد المصري) بغير شفاء ويظل - كأولاد الفلاحين الذين تمتص الأمراض حياتهم - سقيماً عليلاً مصفرّ الوجه يلتقط أنفاسه بصعوبة إلى أن يوافيه الأهل المحتوم.

وفي أيام المجد والخلود، لم يكن مسموحاً لأحد بالبحث في أشياء خطيرة كمسببات ذلك الهزال الاقتصادي. لأنه وقتها لم يكن مسموحاً بأن يعلو صوت على صوت المعركة. وبالأخص، لم يكن مسموحاً لأحد بأن يتساءل: لمصلحة من كان تحويل مصر من بلد شغال كل أجهزته تعمل فتجعله متواجداً في العالم الواقع - مهما كانت المساوئ والنواقص والعيوب - إلى بلد تعطل في بنيته كل شيء وأخرج من العالم الواقع ليغمس في عالم الوهم وينخرط في تمثيلية كريمة مفشوشة؟ ولمصلحة من كان ادعاء الثورية والتقدمية في حين ظل الحذاء العسكري الغليظ يدفع مصر إلى مهاوي السلفية وحضيض الرجعية؟ ولمصلحة من كان قتل الصناعة الوطنية بحجة الكفاءة والتحديث والعدل، وتخريب الزراعة بحجة التطوير والإصلاح والعدل؟ ولمصلحة من كان تخريب التعليم بحجة الثورية؟ ولمصلحة من كان تحويل الجامعات إلى معامل تفريخ لجيوش من أنصاف الأميين أكلي العيش ممارسي البطالة المقنعة «تحت اصبع النظام» بخجة أن «العمل حق والعمل شرف والعمل واجب»؟ ولمصلحة من كان تحويل الورم البيروقراطي الموروث عن العهد العثماني والعهد الملكي المتعفن إلى سرطان بيروقراطي؟ ولمصلحة من كان تمليك مصر بكل ما فيها وكل من فيها لـ «الحكومة»، أي لحفنة من المسلحين الذين تحولوا إلى جيش احتلال بحجة التحرير؟

لم يكن مسموحاً لأحد بمثل هذه التساؤلات، لأنها كفر. كفر بالوهة الحاكم وقداسة النظام وإنكار لطهارة الثورة. ولم يأت ذلك المنع من أعلى فحسب. فجنباً إلى جنب مع «الأجهزة»، ومع جيوش المواطنين الذين تحولوا إلى مبلغين عن بعضهم البعض، برز المثقفون. وكما تكتمل الحلقة وتقف الدائرة، تمددوا، مثقفو مصر - بضرب قميء من الجبن والخيانة وشهوة التبرّج وشهوة النجومية - باستثناءات نادرة وثمانية، تحت الحذاء العسكري لنظام خائب، كانوا يعرفون أنه خائب، فنظروا له، ودافعوا عنه، وأسبغوا عليه عباءة الثورية والتقدمية، ودعوا إلى «الالتزام» بزعيمه.

إلا أنه بالرغم من خيانة غالبية المثقفين وكتبة الصحف والمجلات وأكلي العيش في الراديو والتلفزيون وكل وسائط التبهيم وغسل المخ، ورغم ضراوة «الأجهزة»، ورغم انصياع شعب مسالم بطبعه جبل طوال تاريخه على طاعة حكامه والتمدد تحت نعالهم، لم يكن في مصر أحد، لا من أساطين النظام، ولا من زبانية الأجهزة، ولا من الأذنان المعتذرين المدافعين، ولا من الشعب الطيع طالب النجاة، قد ظل بوسعه أن يدعي الحهل بأن كل شيء في مصر قد فسد، وكل شيء قد خاب، وكل شيء قد تعطل والتوى.

ومع ذلك، وباستثناءات محدودة متوارية أو انتحارية، لم يقل أحد شيئاً أو يفعل شيئاً. ولم يكن في طاقة أحد أن يفعل شيئاً أو يقول شيئاً، بفضل إسرائيل. فمنذ البداية ظل وجود إسرائيل أكبر عون للنظام وأقوى دعامة لاستمرار وجوده وأفعّل شحنة استند إليها ليوصل تخريب مصر وامانتها

بعد القتل، تقطيع أوصال مصر

في كشف الجرد الذي وضعه المحارب المفاوض لـ «خسائر» إسرائيل في صفقة السلام التي حققها السادات، يشير إلى ما يدعوه بـ «خيمة الخطر المهدق» (أي خطر الحرب)، ويقول أن زوال ذلك الخطر بفضل كامب ديفيد ومعاهدة السلام، حرم المؤسسة الإسرائيلية الحاكمة من تلك الخيمة، وتنبأ (تنبؤاً صادقاً في الواقع كما سنرى) بأن فقدان تلك الخيمة سيجعل التناقضات الحادة في بنية إسرائيل تطفو إلى السطح بعد أن ظلت مستترة تحت تلك الخيمة طوال سنوات الصراع الذي يسلم ضمناً أنه انتهى بخروج مصر من ساحته، أو «إسكات جبهتها»، كما قال السادات

وما من شك في أن الفريق أول كمال حسن علي استمد فكرة «خيمة الخطر المهدق» هذه من الخبرة المعاشة للنظام المصري فمند أول يوم للثورة المباركة، إلى يوم ذهاب السادات إلى القدس، ظلت تلك الخيمة منصوبة بأحكام فوق رأس النظام، وبفضلها تمكن - في ظل الزعيم الخالد وظل الزعيم المؤمن - من أن يظل سادراً في عملية قتل مصر التي اضطلع بها بحجة الدفاع عنها ضد العدو الغادر، و «تحقيق قدرها»، إلى آخر ذلك الكلام، وظل بوسعه أن يواصل مسيرته التي لم يقف في طريقها أو يقعده عنها شيء نحو الخراب، دون أن يحروء صوت مصري أن يرتفع معارضاً لأن المعارضة في مثل ذلك السياق خيانة. تعطيل للمجهود الحربي. عرقلة لخطى النظام نحو تحقيق قدر مصر. ومساعدة للعدو الغادر وعمالة للإمبريالية والاستعمار وشيء يعاقب عليه بالاعدام أو بما هو أسوأ، في أقبية التعذيب ومعسكرات الاعتقال.

ولذلك كان إقدام النظام، بذهاب زعيمه إلى القدس المحتلة، على حرمان نفسه من تلك الخيمة الواقية التي ارتكبت في ظلها كل التجاوزات، علامة على أن النظام قد اكتشف أنه وصل إلى آخر المدى. علامة على الاستيئاس إزاء التدهور بالغ الخطورة في الحالة الاقتصادية التي وصلت بالفعل إلى حد من التردّي لم يعد يحتمل الانتظار. ولم يكن - بكل تأكيد - علامة على رغبة خيرية إنسانية انتابت النظام فجأة وجعلته يفتن بغثة إلى أن «الشعب الذي اكتوى بنار كل تلك الحروب لا بد من مساعدته على التطلع إلى مستقبل أفضل».

وراء ذلك الادعاء الخيري الإنساني معنى لا يخفى على من تابع تطورات الوضع العربي والوضع المصري فيما سبق إعلان السادات لمبادرته الميمونة. واعتقادنا أن «المحارب المفاوض» أراد الإشارة إلى ذلك بطريقة ديبلوماسية. لأننا إذا ما نحينا مسألة تنبّه النظام فجأة إلى أن هناك شيئاً اسمه الشعب (وقد كان هناك طيلة الوقت ولم ينتبه إليه أحد إلا ليعتقله أو يعذبه أو يرهبه أو يغسل مخه بـ «الاعلام») سنجد أن إرجاع كمال حسن علي مبادرة زعيمه إلى أن «الحالة الاقتصادية في مصر لم تعد تحتمل الانتظار» إشارة واضحة إلى أن الأخوة العرب لا ينبغي لهم أن يلوموا أحداً إلا أنفسهم وهو ما يعزز به قوة كونه قد عني بأن يقول قبل ذلك الحديث عن الحالة الاقتصادية في مصر مباشرة

«لقد تحملت مصر الكثير منذ نشأ الحلفاء (كذا) العربي الإسرائيلي فاشتركت في أربع حروب فقدت فيها مئات الألوف من أبنائها وتدهور اقتصادها إلى الصفر أكثر من مرة فمادام قدم الأخوة العرب لمصر التي كانت انتصارها في ١٩٧٣ سبباً في زيادة دخولهم من البترول زيادة فلكية»

«لقد أعطى العرب لمصر في الفترة من ١٩٧٣ وحتى نوفمبر ١٩٧٧ (تاريخ إعلان مبادرة السادات) ما قيمته خمسة مليارات من الدولارات، منها ملياران كوديعة بربح ٧٪ من خلال بنك مورجان، وما قيمته ٢,٥ مليار من الأسلحة. وفي فترة معادلة، وهي من عام ١٩٧٨ حتى ١٩٨٢، دفعت أمريكا لمصر حوالي ٦,٦ مليار دولار كمساعدات ولقد دفع العرب ما قيمته ٥٠ مليار دولار لحرب الخليج في الوقت الذي يقول بعضهم عن مصر أنها برميل بلا قاع»^(٢).

والذي يفهم من ذلك أنه لو كان الأخوة العرب قد أعطوا بسخاء أكثر لاستطاع النظام أن يواصل عملية «الخلاف العربي الإسرائيلي» لبضع سنوات أخرى. لكن ذلك لم يحدث. وبالتالي اضطر النظام إلى إيقاف تلك العملية.

وكما يقول كمال حسن علي، أعطت أميركا لمصر مساعدات بلغت حوالي ٦,٦ ملياراً من الدولارات خلال الفترة من ١٩٧٨ (سنة الصلح مع إسرائيل) حتى ١٩٨٢. وهذه مساعدات لا يستهان بها ينبغي أن يمتلك القلب عرفاناً لأميركا وشكراً لها كلما فكر العقل فيها وتفكر في دوافعها الخيرية. وبالإضافة إلى

ذلك، تخففت مصر بالسلام الذي صنعه السادات من أعباء عملية «الحلاف» العربي الاسرائيلي وكلفتها المبهظة وفوق ذلك «انفتحت» مصر على سعتها، على النحو الذي تراءى لمخيلة الفنان المصري الراحل نجيب سرور قبل أن يموت ويحرم من مشاهدة ذلك «الانفتاح» العظيم وفق هذا وذاك كله توافدت أفواج الأميركيين والأوروبيين والاسرائيليين للسياحة في مصر والاستمتاع بمباهجها ومع ذلك كله، واصلت الحالة الاقتصادية ترديها بحرونة غريبة، ولم يحدث شيء من كل ذلك الرواج المنتظر، ولم يأت الرخاء المرتقب الذي توقع كمال حسن علي أن يحدث في مصر فيعرض إسرائيل لمنافسة اقتصادية مصرية فالذي حدث كان العكس. ظل العجز في الميزانية العامة للعزبة يتعاظم إلى أن تجاوز خمس الناتج المحلي الاجمالي لمصر المحمية بالمساعدات الأميركية والخبرات الاسرائيلية وفي وقت ما أعلن بضجيج كبير أن ذلك العجز الشرير سيخفض في السنة المالية ١٩٨٥/١٩٨٦ إلى ١٤ بالمائة أو ما دون ذلك من الناتج المحلي الاجمالي. إلا أن العجز العنيد واصل اندفاعه، رغم تأخير سداد مستحقات ضخمة، فتجاوز نسبة الـ ٢١ بالمائة من الناتج المحلي الاجمالي. وجنباً إلى جنب مع تعاظم جرم غول العجز في الميزانية العامة، زاد العجز في ميزان المدفوعات إلى حد بات يهدد بتعجيز مصر عن مواصلة خدمة مديونيتها الخارجية رغم ما تلقته تلك الخدمة من مردود أنشطتها التصديرية، وهو ما دفع إدارة العزبة إلى التهافت على الاقتراض من البنوك المملوكة للأصدقاء اليهود في العالم الغربي بأسعار فائدة مدينة وعمولات معجزة، وأدى بالتالي إلى مزيد من التدهور لسعر الجنيه المصري المسكين، وبالتبعية إلى مزيد من التعاظم لجرم غول التضخم والتضائل لقدرة إدارة العزبة على الحصول في أسواق المال بالخارج على ما تحتاجه من ائتمان.

ونتيجة لذلك التردّي، ازداد وضع المديونية الخارجية خطورة، واضطرت إدارة العزبة إلى القيام بزيارات متعاقبة لمراكز صنع القرار في البلدان الصديقة في محاولات مستنيصة لإعادة جدولة تلك الديون التي وصلت إلى أرقام فلكية بحق والتوصل إلى اتفاقات بفترات أطول وأسعار فائدة أقل، إلى آخر تلك المحاولات التي يلجأ إليها المدين عندما تدلهم أموره بحق.

وهكذا بات من المتعين على الشعب الذي كانت الرغبة في مساعدته على التطلع إلى مستقبل أفضل السبب في جعل النظام يجنح إلى حل «الخلاف العربي الاسرائيلي» والتي هي أحسن، أن يؤجل مسألة المستقبل الأفضل هذه إلى ما بعد، عندما يتمكن النظام، بتركيبة سحرية ما، من سداد كل تلك الديون الرهيبة التي يعلم الله وحده أين وكيف تبذرت عندما اقتضت، والتخلص من كل تلك الغيلان التي لا تكف عن النمو، غيلان العجز في الميزانية العامة وميزان المدفوعات والميزان التجاري وغول التضخم. وكل ذلك يتطلب وقتاً. وقتاً طويلاً للغاية. ويتطلب جهداً منظماً مستنيراً وقدرأ كبيراً من الامانة والتعفف. ويتطلب عوناً خارجياً بغير شك. وهو عون ما من شك في أن اسرائيل الصديقة والولايات المتحدة سيسعهما أن تقدماه لمصر كيما يزدهر اقتصادها ويببت بوسع شعبها الابي المناضل أن يتطلع إلى مستقبل أفضل وبذلك يكون تحول النظام من الحرب إلى السلام مبرراً، ويكون إسكات جبهة مصر مشروعاً، ويكون مبرراً أيضاً بيع الفلسطينيين أسفل النهر، كما يقول الأميركيون، تحقيقاً لما أسماه النظام دائماً «قدر مصر».

٢. تأمين ارواح الفلسطينيين وحرمان اسرائيل من تغيير الأوضاع في الضفة الغربية وغزة

في مدخل كتابه، يقول الفريق أول كمال حسن علي تحت عنوان «قصتي مع فلسطين»، وهي بغير شك قصة النظام مع فلسطين:

«لقد أصبحت فلسطين قدرتي».

وبعد ذلك القول الذي يهزّ المشاعر، يعطينا الفهم السائد لدى النظام لـ «مشكلة» فلسطين:

«كنت (منذ الصبا) أتابع كفاح شعب عربي يربطه جوار مباشر بوطني ضد محاولات الحركة الصهيونية لاستئصاله والسيطرة على وطنه. وكان لتلاحق وتتالي الأحداث في فلسطين أثره في دعم تعاطفي وارتباطي مع القضية التي بدأت في ذهني من خلال توافق الاتجاه والقاعدة المشتركة التي تربطنا في الثورة ضد القوة والسياسة البريطانية»^(١).

بعد القتل، تقطيع أوصال مصر

فـ «مشكلة» فلسطين، كما تدعي بإصرار، و «محنة الشعب العربي الفلسطيني» كما تسمى عندما يكون القاتل في حالة انفعال أو راعياً في إثارة عواطف سامعية، منشأ «الخلاف العربي الإسرائيلي» كما يسميه كمال حسر علي، مشكلة أو محنة «شعب عربي يربطه بمصر جوار مباتر يكافح ضد محاولات الحركة الصهيونية لاستئصاله و «السيطرة» على وطنه (لاستعمار وطنه استيطاناً - مجرد السيطرة على وطنه)

وهنا مربط الفرس فيما يخص النظام المصري الذي يمثله قائل هذا الكلام فبرغم الوعي بأن الحركة الصهيونية جاهدة في استئصال الشعب الفلسطيني المجاور و «السيطرة» على وطنه، لا يخطر للكاتب أو للنظام الذهاب في التفكير إلى ما وراء ذلك والتساؤل، ولو على سبيل الفضول وماذا بعد استئصال الشعب الفلسطيني والسيطرة على وطنه؟ من يا ترى ستلتهمه الشهية الإسرائيلية التي لا تشبع؟ وأرض من سيتطلب مفهوم الأمر الإسرائيلي احتلالها واستئصال من يزعمون سطوحها والسيطرة عليها؟ لا يتساءل المحارب المفاوض، ولا يقول ولا يتساءل النظام، ولا يقول. رغم أن النظام والمحارب المفاوض لا يجهلان أن إسرائيل لا تستطيع أن تتصور لنفسها حدوداً آمنة إلا بعيداً عن حدودها (أي حدود أرض الشعب الفلسطيني الذي تستأصله حالياً) بمقدار مدى قذائف المدفعية الثقيلة وربما الصواريخ، وأن ذلك يعني «ضرورة احتلال أرض العير»، كما ينبئنا الفريق أول في كتابه. ولما كان التقدم التقني وتطوير الأسلحة لا يتوقف، فإن «مقدار مدى قذائف المدفعية الثقيلة والقذائف» يتعاظم باستمرار تعاضماً يجعل أسوان ذاتها، لا محرد بور سعيد والاسكندرية والقاهرة التي توعد بن جوريون بقصفها إذا ما جرئت مصر على المقاومة، مصدر خطر على أمن إسرائيل يستلزم احتلال أراضي الغير. وكما هو واضح من الخبرة المعاشة للشعب الفلسطيني المجاور، لا تحب إسرائيل الإبقاء على شعب تأخذ أرضه، بل تعتمد إلى استئصاله حتى تصبح أرضه أرضاً خالية، «أرضاً بغير شعب لشعب بغير أرض». وهو ما يقودنا إلى الوجه الآخر من الوعي الذي لم يغب عن فطنة المحارب المفاوض وهو أنه «حتى بفرض توافر حدود أمنية لإسرائيل» ستظل إسرائيل محتاجة إلى احتلال المزيد من أراضي الغير لتتسع رقعتها الضيقة حالياً داخل «حدودها» الراهنة «للأعداد البشرية الهائلة التي تطمح في تهجيرها إليها».

وفي ظل هذه الضرورات الإسرائيلية (توفير الحدود الآمنة لرقعة ممتدة الاتساع من الأرض قادرة على استيعاب الأعداد البشرية الهائلة المهجرة إليها تنفيذاً للمشروع الصهيوني) يجوز التساؤل عن مدى فعالية صفقة السلام التي عقدها النظام المصري مع إسرائيل فيما يتعلق بمسألة حقن الدماء وتأمين الأرواح.

من الواضح طبعاً أن الفريق أول - معبراً عن تفكير النظام - نظر إلى المسألة من زاوية متحضرة للغاية وأخذ منطلقه من الإيمان بالشرعية الدولية وقداصة المعاهدات وحكم القانون الدولي ومراعاة الأعراف الدولية وكل ذلك. وهو ما لا يلام عليه، لأن الأشياء يجب أن تكون هكذا فعلاً. ولما كان من المتعين - شرعاً وقانوناً - أن تكون الأشياء هكذا فعلاً، يصبح من المتعين أن تظل مصر بأرضها وشعبها ونظامها بمأمن من جشع إسرائيل الإقليمي وعدوانها على أراضي الغير واستئصالها لشعوب تلك الأراضي. لكن، لنفرض مثلاً، مجرد افتراض، أن قائداً إسرائيلياً كـ «الجنرال» أرييل شارون مثلاً أو أحد تلاميذه في المؤسسة العسكرية الإسرائيلية قرر فجأة أنه من المتعين احتلال مصر من بور سعيد والاسكندرية شمالاً إلى أسوان جنوباً، حرصاً على أمن إسرائيل. ما الذي يمكن أن يحدث إذن؟ من الذي سيمنع إسرائيل؟ من الذي سيعاقبها؟ من الذي سيردعها؟ من الذي سيرد الأذى عن أرض الكنانة؟ مجلس الأمن؟ ستمارس الولايات المتحدة حق الفيتو وتنقض أي قرار يتخذه المجلس أنه لا يجوز لإسرائيل أن تفعل ذلك، بحجة أن إسرائيل فعلت ما فعلت إعمالاً للمادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة وممارسة لحق الدفاع عن النفس. محكمة العدل الدولية؟ إن الولايات المتحدة ذاتها، وهي الدولة العظمى الرئيسية في عالم اليوم، أعلنت عن خروجها من ولاية محكمة العدل الدولية عندما اتخذت تلك المحكمة موقفاً اعتبرته الولايات المتحدة غير ملائم لمصالحها فيما يتعلق بتدمير نيكاراغوا. الرأي العام العالمي؟ حتى المحارب المفاوض لا يستطيع أن يقنع نفسه بأنه قد ظل هناك - تحت وطأة ماكينة التبهيم الاعلامي العالمي التي

تمتلكها المصالح اليهودية وتديرها - ما يمكن أن يسمى ولو على سبيل المزاح بـ «رأي عام عالمي» وحتى إن وُجد شبه امتعاض لتصرف إسرائيل حيال مصر لدى ذلك «الرأي العام» وهو في النزاع الأخير، لن تعدم إسرائيل مخرجاً وحفنة من نجوم السينما الأميركيين تخرج بهم فيلماً مثيراً مليئاً بالجنس والجريمة والعنف والبطولة يصور ما كانت مصر تنوي أن تفعله بإسرائيل لو لم تبادر إسرائيل بتوجيه ضربتها الوقائية واحتلال مصر من بورسعيد واسكندرية إلى أسوان صونا للحضارة كما نعرفها ودفاعاً عن الديمقراطية والعالم الحر وحرصاً على مصالح كل البشر الشرفاء الطيبين في العالم.

من الذي سيقول لإسرائيل لا؟

عندما وضع المحارب المفاوض كتابه في أعقاب كامب ديفيد ومعاهدة السلام، ضمّن كشف الجرد الذي عدد فيه المكاسب العربية والخسائر الإسرائيلية مكسباً عربياً حدة بـ «تأمين أرواح الفلسطينيين المستهدفة حالياً من أكثر من دولة عربية»، وخسارة إسرائيلية حدها بـ «منافسة بشرية مع إسرائيل (من جانب الفلسطينيين) داخل إسرائيل وخارجها». وكلا المكسب العربي والخسارة الإسرائيلية راجع إلى السلام البارع الذي استدرجت إسرائيل إليه بخبطة موفقة من خطبات النظام المصري. فبفضل ذلك السلام، فيما يقرر المحارب المفاوض، سيتكاثر الأخوة الجيران الفلسطينيون نتيجة لتوقف حصد أرواحهم «المستهدفة من أكثر من دولة عربية». والمقصود طبعاً أنه، تنفيذاً لما تضمنه اتفاق كامب ديفيد من تهويم بشأن إقامة شبه كيان متمتع بالحكم الذاتي للفلسطينيين، ستحل مشكلتهم كلاجئين مستهدفة أرواحهم من أكثر من دولة عربية، حيث سيصبح لهم شبه وطن يلهم ويعفيهم من استهداف أرواحهم من جانب أكثر من دولة عربية سينزاحون عن قلوب حكام تلك الدول العربية ويأخذون مشكلتهم المزعجة معهم. وذلك بغير شك مكسب لتلك الدول العربية العديدة المتضررة من مشكلة الفلسطينيين وما تتسبب فيه من «خلاف مع إسرائيل» من ناحية، وما تسببه لـ «أكثر من دولة عربية» من بينها مصر، من مشاكل تجعل أرواحهم مستهدفة. وبالمقابل لهذا المكسب العربي المترتب على السلام، نجد، كما في حالة أي مكسب عربي، خسارة لإسرائيل. وهي هنا خسارة مزدوجة وخطيرة بحق. ففوق إعفاء الفلسطينيين من حصد أرواحهم بفضل ما تحقق من سلام عادل وبارع، وبالتالي إتاحة الفرصة لهم كيما يتكاثروا تكاثراً «يهدد إسرائيل بمنافسة بشرية من جانبهم»، يؤكد الفريق أول أن السلام الذي عقد مع إسرائيل يحبط خطط إسرائيل الرامية إلى «تغيير الأوضاع في الضفة الغربية وغزة تغييراً يوفر لها أغلبية مؤثرة من السكان اليهود قبل أي استفتاء لتقرير المصير».

وبصرف النظر عما في تصور إمكان التوصل إلى تمكين الفلسطينيين من «تقرير المصير»، نتوقف هنا عند الحقائق الماثلة على أرضية الواقع بدلاً من التصورات الموهومة في تلافيف ضباب التمني. تتمثل المشكلة فيما يدعوه كمال حسن علي بـ «الخلاف» العربي الإسرائيلي في أنه «خلاف» بين شعوب صاحبة أرض، وحركة استعمار استيطاني تجتاح تلك الأرض في موجات متلاحقة.

وفيما يخص دور النظام المصري، أتاح تردّي النظام وزعامته في شرك حرب ١٩٦٧ لتلك الحركة أن تبدأ في عملية استيطان زاحف لضم كل ما تبقى من أرض فلسطين بالإضافة إلى ما احتلّ من أراض في تلك الحرب الخائبة. فقد بدأ وضع اليد على تلك الأراضي بإنشاء المستوطنات فيها والحرب لم تكد تبرّد نارها، في يونيو / حزيران ١٩٦٧، وفي قلب القدس ذاتها، عندما هدم الإسرائيليون المنتصرون ١٦٠ منزلاً من منازل العرب في القدس القديمة ثم نزعوا ملكية ٦٠٠ مبنى آخر، وطردوا ٦٥٠٠ من الملاك والسكان العرب من المدينة المقدسة التي يؤكد المحارب المفاوض أن «السلام يعني إعادة حقوق العرب والمسلمين فيها»، وأقاموا على أطلال بيوت العرب أبنية جديدة شغلها على الفور السكان اليهود الجدد وهم جزء من «الأعداد البشرية الهائلة التي تطمح إسرائيل في هجرتها إليها سنوياً».

ومنذ ما بعد الهزيمة («النكسة») وحتى سنة ١٩٧٠، ركّز الإسرائيليون استيطانهم على القدس الشرقية والجزء الجنوبي من الجولان السورية التي أقيمت عليها أول مستوطنة في يوليو/ تموز ١٩٦٧ أعقبتها مستوطنات الغرض منها إنشاء أمر واقع يقطع الطريق على أية إمكانية لإعادة الجولان إلى السوريين أو إبقاء أي جزء من القدس في أيدي العرب.

واستمرت عملية إقامة المستوطنات بنشاط إلى أن تولت حكومة الليكود السلطة سنة ١٩٧٧ وأهل على الساحة مناحم بيجين ووقتها أصدرت المنظمة الصهيوية العالمية وثيقة عنوانها «خطة رئيسية لتوسيع المستوطنات في يهودا والسامرة ١٩٧٩ - ١٩٨٣»^(١) أعلنت فيها عن عزمها على إضافة ٤٦ مستوطنة جديدة خلال خمس سنوات تتسع لـ ١٦٠٠٠ أسرة، بالإضافة إلى ٢٧٠٠٠ أسرة كان مخططاً بالفعل لتوطيها في المنطقة خلال نفس الفترة. وما لبثت الخطة أن عُدلت بإضافة ٢٢ مستوطنة جديدة، بحيث بات العدد المقرر من المستوطنات لتلك الفترة ٦٨ مستوطنة

وفي يناير / كانون الثاني ١٩٨١، بينما النظام المصري يحاول تخليص نفسه من ورطة أولئك الفلسطينيين من خلال السعي لتنفيذ ما اتفق عليه في كامب ديفيد، اعتمدت الحكومة الإسرائيلية للتنفيذ مشروعاً منقحاً للاستيطان من وضع ماتيتياهو روبليس واضع المشروع الأول وقد جاء ذلك المشروع المنقح في تقرير عنوانه «عمليات استيطان يهودا والسامرة الاستراتيجية والسياسة والخطة»^(٢)

وفي تعليق رئيس اللجنة المعنية بمنظمة الأمم المتحدة بممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه غير القابلة للتصرف على تقرير روبليس برسائلته الموجهة إلى أمين عام المنظمة الدولية وإلى رئيس مجلس الأمن، قال: «إن قراءة هذا التقرير لا تدع أدنى مجال للشك في أن إسرائيل عاقدة عزمها بلا رجعة على ضم الأراضي العربية التي احتلتها احتلالاً غير مشروع (منذ ١٩٦٧)»

فما الذي قاله التقرير فجعل رئيس اللجنة يوجه ذلك التحذير الصريح الذي ينافي تعاملاً مبررات السلام التي تعلل بها النظام المصري فيه يخص مصالح وأرواح ومستقبل «الأخوة» الفلسطينيين؟ يقول التقرير

«من الواضح، على ضوء المفاوضات الجارية (تنفيذاً لاتفاق كامب ديفيد) حول مستقبل يهودا والسامرة، أنه من المتعين علينا في إسرائيل أن ندخل في سياق مع الزمن فكل ما سوف يتقرر في هذه الأوبة سيتقرر بشكل أساسي نتيجة لما نشئ من حقائق على الأرض، وهو ما ستفوق أهميته كل ما يمكن أن تحدثه أي اعتبارات أخرى ولذا فإن هذا الوقت بالدات هو أفضل وأسهل وقت للشروع في عملية التعجيل بإنشاء المستوطنات على تلك الأراضي بشكل واسع وشامل، لاسيما على تلال يهودا والسامرة التي لا توحد طرق طبيعية سهلة تفصل إليها، والتي تشرف على وادي الأردن إلى الشرق، وعلى السهل الساحلي إلى الغرب ولذلك فإنه من الأهمية البالغة اليوم أن نؤكد، عن طريق ما نتحده من إجراءات عملية، على أن الحكم الدائمي لا يسحب ولن ينسحب على الأراضي بل على من يقيمون عليها من سكان عرب محسوب ويجب أن يكون الإعراب عن ذلك أساساً عن طريق ما نشئ من حقائق على الأرض ولذا فإنه يجب وضع اليد فوراً على كل الأراضي التي تمتلكها الدولة وعلى الأراضي الحرداء غير المروعة تمهيداً لاستيطانها في المناطق الواقعة بين وحول المواقع التي تشغلها الأقليات حتى نقلل خطر إنشاء دولة عربية أخرى تقوم على هذه الأراضي إلى أدنى حد ممكن. فعندما يعمل السكان الذين يشكلون أقلية (الفلسطينيين العرب) بعضهم عن بعض عن طريق إقامة مستوطنات يهودية بينهم، سيحدون من الصعب عليهم تشكيل كيان إقليمي وسياسي مترابط ومتصل

«إن الذي يجب أن نفعله الآن يدع هناك في ذهن أحد أدنى ظل من الشك في أننا مصممون على الاحتفاظ بأراضي يهودا والسامرة إلى الأبد. وما لم نفعل ذلك، سنجعل من الممكن أن يتسلط على السكان الأقلية (الفلسطينيين العرب) ما يجعلهم في حالة من الهياج يمكن أن تفصي بهم في نهاية الأمر إلى المناسرة وبذل جهود متكررة لإقامة دولة عربية أخرى على هذه الأراضي تصاف إلى ما هو قائم من دول عربية وافصل وأصح طريقة لتبديد مثل ذلك الوهم وإزالة أي شك حول تصميمنا على الاحتفاظ بيهودا والسامرة إلى الأبد تتمثل في تكثيف الاستيطان وزيادة رخمه في هذه الأراضي

«ويجب أن يسبق إنشاء المستوطنات تشكيل مجموعات من المستوطنين يغدو لشغلها عدد إقامتها، وتشكل تلك المجموعات من المهاجرين الحدد ومن المواطنين القدامى بالتنسيق مع مختلف أجهزة الهجرة والاستيطان وغيرها. ومما تجدر ملاحظته أن الإمكانيات الحالية للاستيطان حد مرتفعة، فهناك فيض متعاظم من طلبات اليهود الراغبين في استيطان أراضي يهودا والسامرة، ويصل عدد الأسر الراغبة في الاستيطان في هذه الأراضي - سواء في المستوطنات الجديدة التي تنشأ أو في المستوطنات القائمة - عدة آلاف من الأسر اليهودية الإسرائيلية أو الراغبة في الهجرة إلى إسرائيل من الشتات

«ويتطلب الأمر العمل بتصميم، على مدى السنوات الخمس المقبلة، على إنشاء ما يتراوح بين ١٢ و ١٥ مستوطنة ريفية وحضرية في يهودا والسامرة، بحيث ينمو عدد المستوطنات خلال السنوات الخمس القادمة

ما يتراوح بين ٦٠ و ٧٠ مستوطنة، ويصل عدد سكانها اليهود إلى ما يتراوح بين ١٢٠,٠٠٠ و ١٥٠,٠٠٠ نسمة^(٣).

وقد جاء في تقرير اللجنة التي أنشأها مجلس الأمن بموجب قراره ٤٤٦ (١٩٧٩) ما يلي :

«قامت إسرائيل، خلال الفترة من ١٩٦٧ إلى مايو / أيار ١٩٧٩، بإشياء ما مجموعه ١٣٢ مستوطنة في الأراضي المحتلة، منها ٧٩ مستوطنة في الضفة الغربية، و ٢٩ على مرتفعات الجولان، و ٧ في غزة، و ١٨ في سيناء

وفي المجموع، إذا ما استثينا سيناء التي أخلت المستوطنات فيها، أشأت إسرائيل ٢٣ مستوطنة جديدة مد أن اعتمد مجلس الأمن قراره ٤٤٦ (١٩٧٩) وبذلك أصبح المجموع ١٤٨ مستوطنة وعلاوة على ذلك، قامت إسرائيل بتوسيع عدد من المستوطنات القائمة بالفعل إلى ما نات يتجاوز ضعف حجمها الأصلي «ومند تولت حكومة الليكود السلطة في ١٩٧٧، ارتفع عدد المستوطنين من ٣٢٠٠ إلى ١٧٤٠٠ مستوطن في الضفة الغربية وحدها ولا تشمل هذه الأرقام من استوطنوا القدس الشرقية ومنطقة القدس ويبلغ عددهم الآن ٨٠ ألفاً^(٤).

وتبين الأرقام التي تسنى التوصل إليها من مصادر اسرائيلية أن عدد المستوطنين اليهود بالضفة الغربية ارتفع في سنة ١٩٨١ إلى ٢٠ ألفاً وأن مجلس المستوطنات اليهودية بالضفة الغربية وغزة شكل فريقاً خاصاً لبحث الوسائل الكفيلة بزيادة عدد السكان اليهود في الضفة، دون القدس، إلى ٤٠ ألفاً بانتهاء سنة ١٩٨١^(٥).

وفي مجال الاستيلاء على الأراضي، بينت لجنة مجلس الأمن في تقريرها

«أن مساحة الأراضي العربية المصادرة في الضفة الغربية زادت من ٢٧ في المائة من المساحة الإجمالية في مايو / ييار ١٩٧٩، إلى ٣٣,٢ في المائة في سبتمبر / أيلول ١٩٨٠. ورغم عدم توافر بيانات مصددة عن الأراضي التي صودرت على مرتفعات الجولان، يتبين من الواقع القائم المتمثل في أنه لم تعد هناك بالجولان إلا ٥ قرى عربية، وأن ٨ آلاف نسمة فقط من مجموع سكان الجولان الذين كان عددهم ١٤٢ ألف نسمة هم الذين استطاعوا الصمود ومواصلة الإقامة، إن إسرائيل نانت سيطرة على الجولان كلها بالفعل.

وينطبق ذلك أيضا على قطاع غزة فمصادرة الأراضي هناك مستمرة وإن لم تتوافر أرقام يركن إليها تبين المساحة الفعلية لما صودر حتى الآن بالفعل^(٦).

وحالياً، باتت نسبة ما صادرت إسرائيل من أراضي الضفة الغربية ٥٢ بالمائة من مجموع الأراضي، وما صادرت في غزة إلى ٤٠ في المائة. وبجانب مصادرة الأراضي، استمرت بنشاط عملية هدم بيوت الفلسطينيين، وقد بلغ عدد ما هو معروف أنه قد هدم منها أكثر من عشرين ألف منزل، واستمرت بنشاط كذلك عمليات ترحيل الفلسطينيين من الضفة وقطاع غزة.

فإذا ما أضفنا إلى تلك الصورة القائمة فيما يتعلق بمصادرة الأراضي وتغيير الطابع الديموغرافي للضفة والقطاع صورة دموية أخرى لا بد أن انبأها قد ترامت إلى المحاربين المفاوضين، هي صورة عمليات التصفية الجسدية النشطة للفلسطينيين في المخيمات وحيثما طالتهم يد إسرائيل أو أيادي أعوانها، وجدنا أن خبطة السلام الكبرى لم تؤمن أرواح الفلسطينيين المستباحة، ولم تتهدد إسرائيل بمنافسة بشرية داخلها، ولم تحبط على الإطلاق خطط إسرائيل الرامية إلى تغيير الأوضاع في الضفة الغربية وغزة ولم تقطع الطريق على عملية تهويد الضفة والقطاع، خلافاً لكل الحسابات الأنيفة التي قدمها المحارب المفاوض في معرض اجتهاده في بيع عملية السلام.

فالسلاام لم يؤد إلى إخراج مصر من الحالة الاقتصادية المتردية التي وجد السادات أنها لم تكن تحتل الانتظار، ولم يؤمن أرواح الفلسطينيين، ولم يتح للديبلوماسية المصرية التخلص من الورطة الفلسطينية عن طريق مشروع «الحكم الذاتي». ففلسطين وشعبها المستباح، وقد استغلها النظام منذ ١٩٥٢ لترسيخ أقدامه وفرض زعامته والتربح من أموال الدعم، لم يتبخرا بسحر كامب ديفيد، بل ظل معلقين بعنق النظام كالوزر. وما هو، منذ عقد السادات الصفقة، جالس عبر الحدود يشاهد عمليات التصفية الجسدية والطردي والإزاحة وأخذ الأرض، ولا يستطيع شيئاً إلا المهمة بألفاظ الاستهجان والغفمة بأشياء غير واضحة تماماً يريد الإيهام بها أنه يعتبر كل ما تقوم به إسرائيل مخالفاً لروح كامب ديفيد وتجاوزاً لا يليق في ظل السلام العادل.

٣ . لبنان، الذي سيجعله السلام منافساً سياحياً لإسرائيل

وما يسحب على الفلسطينيين وتوقعات كمال حسن الوردية لهم من جراء السلام العادل الباقي،
يسحب على لبنان

وليست الكارثة اللبنانية بحاجة إلى من يذكر أحداً بها ولعل من كتب هذا الكلام عن تحول لبنان
بفضل السلام المصري مع إسرائيل إلى منافس سياحي لإسرائيل قد راجع نفسه وقد يكون أيضاً تشاور
مع العقل والضمير فخطر له أن المصير المعتم الذي لحق لبنان ينبغي أن يكون نذيراً لمصر وغيرها بما هو
أت.

فلبنان الذي كان على رأس قائمة البلدان المستهدفة مما قبل إنشاء «الدولة»، وفي الواقع منذ
سنة ١٩٢٧ عندما افصح بن جوريون في مذكراته عما أعدته الحركة الصهيونية لذلك البلد، وكان على
رأس قائمة مشروعات «الدولة» الحيويوليطيقية بعد إنشائها بعشرة أيام لا أكثر، عندما ناقش بن جوريون
مع قواده خطة لتمزيق أوصال لبنان، لبنان ذاك، «الحلقة الأضعف في السلسلة العربية»، قد كبر ودُمّر
وبدأت عملية تمزيق أوصاله. حقيقة أن الأمر تأخر بعض الوقت ففي سنة ١٩٤٨، وجدت المؤسسة
الإسرائيلية الحاكمة أن «الدولة» لم تكن قد رسّخت أقدامها بعد، فأجلت عملية اغتيال لبنان، مطمئنة إلى
أنه باق وأنه لن يذهب إلى أي مكان، تماماً كصحراء النقب مما يروى عن المناقشات التي دارت بين
زعماء الحركة الصهيونية عند إنشاء إسرائيل، أن حاييم وايزمان سئل عن رأيه بالنسبة لعدم شمول
مخطط إنشاء الدولة اليهودية لصحراء النقب، فأجاب مبتسماً «وأي سيذهب النقب؟ إنه باق، ولن يذهب
إلى أي مكان!»^(١) وقد ظل لبنان حيث كان، فلم يذهب إلى أي مكان، إلى أن استدارت «الدولة» فنهشته.
في الوقت المناسب، بعد إسكات الجبهة المصرية وتأمين الجبهة الدولية. ففي منتصف الخمسينيات،
تحركت شهية «الدولة» إلى لبنان الذي بجده إذا ما عنيينا بالرجوع إلى الأصول التوراتية للمشروع
الصهيوني أنه وارد على القائمة منذ القرن الثامن قبل الميلاد، في قول أشعيا «يُدفع إليه (إلى إسرائيل)
مجد لبنان» (أشعيا ٣٥ ٢) لكن إسرائيل كانت أخذه آنذاك، في منتصف الخمسينيات من هذا القرن
العشرين بعد الميلاد، في التحالف مع أحد البلدان الأممية، فرنسا، استعداداً لتوجيه ضربة مشتركة إلى
العدو الرئيسي، مصر، فيما عرف باسم «العدوان الثلاثي» سنة ١٩٥٦ ولما كانت فرنسا آنذاك لم تروض
تماماً وكانت تعتبر نفسها «حامية لبنان»، اضطرت «الدولة» إلى كَفّ شهيتها مؤقتاً، مطمئنة إلى أن لبنان
باق ولن يذهب إلى أي مكان هو الآخر ومما هو جدير بالتوقف عنده والنظر إليه والتفكير فيه أن بدايات
مشروع بن جوريون للبنان، بإنشاء دولة سعد حداد المستقلة في جنوب لبنان، لم تنجز إلا سنة ١٩٧٩،
بفصل الغزو الإسرائيلي للبنان سنة ١٩٧٨، وهو الغزو الذي بات ممكناً بفضل سلام مصر وإسرائيل.

«فقد غيرت مبادرة السلام التي قام بها الرئيس المصري أنور السادات كل المقدمات المنطقية للأوضاع
اللبنانية والفلسطينية تغييراً جذرياً. فحتى ذلك الوقت، كانت سياسة الولايات المتحدة قد تضمنت، ولو
باللسان فقط، إدراكاً تمثل في أن «للشعب الفلسطيني حقوقاً مشروعة»، وانطوت على وعد بتأمين اشتراكه
في عملية «صنع السلام»، وهو وعد أكدّه مجدداً الرئيس الأميركي جيمي كارتر في البيان الأميركي
السوفياتي المشترك الصادر في أول أكتوبر / تشرين الأول ١٩٧٧ إلا أن رحلة السادات إلى القدس
(المحتلة) ألغت كل ذلك. ففي ١٥ ديسمبر / كانون الأول ١٩٧٧، إثر زيارة مناخم بيجين لواشنطن، وزيارة أنور
السادات للقدس (المحتلة)، استبعد كارتر منظمة التحرير الفلسطينية تحديداً من أية إمكانية للمشاركة في أي
جزء من عملية «صنع السلام».

«فتلّّف السادات على الوفاق مع إسرائيل، وتذبذب كارتر، شجعا إسرائيل على شن عملياتها العدوانية
على جنوب لبنان، وبخاصة الغزو الذي قامت به في مارس / آذار ١٩٧٨ وما أعقبه من استيلاء على
منطقة الحدود. كما تشجعت أيضاً القوى اللبنانية التي شددت هجماتها على السوريين، وعلى حركة
المقاومة الفلسطينية، وعلى المعارضة اللبنانية. ولم يكن السادات يجهل أن ذلك سيحدث. فهو قد تنبأ،
بعد أسبوع واحد من زيارته لإسرائيل، في المقابلة الصحفية التي أجرتها معه الفايننشال تايمز اللندنية

قتل مصر

بتاريخ ٢٧ نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٧٧، بأن «الدم سيسيل الآن أنهاراً في لبنان وفي سوريا»^(١٢) (وقد صدق تسبؤ السادات من فوره) ففي سنة ١٩٧٨، سال الدم أنهاراً في لبنان، وغزت إسرائيل الجنوب. ووقتها أعلن عزرا وايزمان أن هدف إسرائيل كان «محو الفلسطينيين محواً من وجه الأرض مرة وإلى الأبد»^(١٣)

فسلام النظام المصري لم يؤمن أرواح الفلسطينيين، بل جعلها مباحة للحصد أكثر من أي وقت مضى، وكما قال الكاتب الفلسطيني فايز صايغ، حكم ذلك «السلام» على الفلسطينيين «بالضياع الدائم للهوية القومية الفلسطينية، وتأييد المنفى والشتات بلا دولة، والانفصال الدائم بعضهم عن بعض والإبعاد الدائم عن الوطن فلسطين وقضى عليهم بحياة فاقدة الأمل عديمة المعنى»^(١٤). وذلك، تحديداً، هو ما توخاه مخطط روبلس الذي اعتمدته الحكومة الإسرائيلية المنتصرة بعد كامب ديفيد تحت عنوان «عمليات استيطان يهودا والسامرة: الاستراتيجية والسياسة والخطة»، والذي جاء فيه «فعندما يعزل الفلسطينيون بعضهم عن بعض عن طريق إقامة مستوطنات يهودية بينهم، سيجدون أن من الصعب عليهم تشكيل كيان إقليمي وسياسي مترابط ومتصل». فواضع الخطة والحكومة التي اعتمدتها كانا يبنيان في الواقع على الأساس الذي وفره لإسرائيل كامب ديفيد والسلام المصري الذي أسكتت به الولايات المتحدة الجبهة المصرية.

«عندما وقع الرئيس أنور السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيجين، في ٢٦ مارس / آذار ١٩٧٩، اتفاق كامب ديفيد، استعادت مصر سيناء في مقابل تخليها عن القضية الفلسطينية والانصياع لاحتفاظ إسرائيل ببقية الأراضي المحتلة (الجولان السورية، والضفة الغربية). وذلك الانصياع وارد ضمناً في الاتفاق. فالاتفاق لم يرد فيه ذكر للمستوطنات الإسرائيلية التي زرعت في كل أنحاء الأراضي المحتلة، وهي الآن ٧٩ مستوطنة في الضفة الغربية وحدها. ومما له مغزى واضح أن مناحم بيجين عمد، في نفس يوم توقيع الاتفاق مع مصر، إلى التوقيع على اعتماد إنشاء ٢٢ مستوطنة أخرى إضافية. ولقد تضمن اتفاق كامب ديفيد مشروعاً للحكم الذاتي للفلسطينيين، لكن ذلك اقتصر على فلسطيني الضفة الغربية وغزة فقط، أي على أقل من ثلث الشعب الفلسطيني الذي صادرت إسرائيل أرضه وفي مشروع ذلك الحكم الذاتي المزعوم، استبعد بحرص بالغ حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير وفي أن تكون له دولته الخاصة به»^(١٥) وهذا طبيعي للغاية، وما من شك في أن السادات ومفاوضيه اعتبروا أنفسهم رجال دولة عصريين وممارسين لـ «السياسة الواقعية»، الـ «realpolitik» التي ما من شك في أنهم قرأوا أبنائها في مجلة تايم أو مجلة نيوزويك واعتبروا انتهاج نهجها القائم على «البراجماتيكية» الأميركية والممارسات الأوروبية ضرباً بالغ التأنق والبراعة من التحضر، عندما اختزلوا «قضية الشعب الفلسطيني الشقيق المقدسة» - التي تاجر بها النظام وتربح وتآله وبفضلها أذل أعناق المصريين واستدرج العرب إلى عالم الوهم فجعل من زعيمه زعيماً لكل العرب - بعد أن تبين لهم أن تلك القضية المقدسة لم تعد «تؤكل عيشاً» وأن مضار الادعاء بالتفاني في الولاء لها باتت أخطر من مكاسب النظام، فحولوها في الاتفاق الذي عقد تحت جناح الأصدقاء الأميركيين من قضية «فلسطين الحبيبة والأرض السليبة» إلى إعطاء أولئك الفلسطينيين أملاً في أن تتفضل إسرائيل مشكورة فتصدق عليهم بالمستقبل بإذن الله، باتباع نهج الخطوة بخطوة المشهور، بشكل ما من أشكال الحكم الذاتي. وشيء خير من لا شيء أيها الأخوة، لأن مصر فعلت كل ما بوسعها من أجلكم وبات من المتعين حقن دماء أبنائها وتحسين حالتها الاقتصادية التي ساءت، وكما يقول المثل المصري «من رضي بقليله عاش». وبطبيعة الحال، لم يتوقف جهابذة الـ «realpolitik» المصريون وهم يعقدون الصنفقة مع الولايات المتحدة وإسرائيل عند السؤال الذي يطرح نفسه أولاً في هذا المجال، وهو أنه حتى مع التسليم عن طريق التهويم بأن إسرائيل ستسمح حقيقة في نقطة ما مقبلة من الزمان - رغم ما يقرره المفاوض المحارب من علم مصر بأن قيام دولة أو كيان فلسطين على حدود إسرائيل أمر مفزع يرفضه ٩٠ في المائة من الاسرائيليين مهما كانت الضمانات - بأن يصبح للفلسطينيين أي وجود سياسي سواء كان شكلاً من أشكال «الحكم الذاتي» أو ما هو دونه، في الضفة الغربية وغزة، ما الذي سيحدث لبقية الفلسطينيين غير المتواجدين في الضفة وغزة، ويبلغ عددهم أكثر من ثلثي الشعب

بعد القتل، تقطيع أوصال مصر

الفلسطيني؟ هل ستسمح لهم إسرائيل بالتوافد على الضفة الغربية وغزة للعيش في ظل الحكم الذاتي؟ وحتى إن كان مثل ذلك الوهم قد تراءى لأحد، كيف أمكن التوفيق بينه وبين الممارسات الاسرائيلية التي لم تخف عن أحد بطبيعة الحال والتي تتمثل في طرد وترحيل كل من أمكن طرده وترحيله من الفلسطينيين المتواجدين بـ «الداخل»، وملاحقة الفلسطينيين المتواجدين بالخارج بالقتل والقصف وعمليات التصفية الجسدية المنظمة؟ أم ترى لم يضيّع أحد وقته في التفكير في كيفية حشد كل أولئك الفلسطينيين في غزة (٨ كيلومترات عرضاً و ٤٥ كيلومتراً طولاً وأكثر من نصف مليون «لاجئ» فلسطيني) والضفة الغربية التي تنزع ملكية أراضيها وتهدم بيوتها وتقام عليها بششاط بالغ العمارات السكنية والمستوطنات لإحلال السكان الجدد محل «الإرهابيين»، اطمئناناً ممن لم يصيغ وقته في التفكير في ذلك إلى أنه عندما يأتي الوقت الذي قد تسمح فيه إسرائيل باعطاء أولئك الفلسطينيين شكلاً ما من أشكال «الحكم الذاتي» سيكون قد تسبى، عن طريق عمليات التصفية الجسدية بالكفاءة الاسرائيلية المعهودة والتكنولوجيا الأميركية المتطورة، «تقليم» الفلسطينيين وجعل أعدادهم مناسبة للرقعة التي ستسمح لهم إسرائيل بالتمتع بمباهج «الحكم الذاتي» فيها؟.

وكما كانت لكاتب ديفيد أفضاله على الأخوة الفلسطينيين وفلسطين الحبيبة، كانت له خياراته التي ذاقها لبنان الشقيق، فباتخاذ الفلسطينيين ككئة، افترست إسرائيل لبنان في عمليات عسكرية متتالية، في مارس / آذار ١٩٧٨، ويناير / كانون الثاني ١٩٧٩، و ٥ (مرة أخرى) يونيو / حزيران ١٩٨٢ وما من شك في أن إسرائيل (بمباركة من أصدقائها) حاولت حل المشكلة الفلسطينية حلاً نهائياً عن طريق تحطيم البنية الأساسية للمقاومة الفلسطينية في لبنان، وبالتالي القضاء على الطموحات القومية لفلسطيني الضفة الغربية وغزة. إلا أن ذلك البعد الفلسطيني، رغم أهميته في المشكلة، لا ينبغي أن يخفي المرامي الصهيونية القديمة تجاه لبنان فلو لم يكن الفلسطينيون قد وجدوا في لبنان، لغزت إسرائيل لبنان، ربما بحجة «حماية أرواح الموارد وقيم الحضارة كما نعرفها» من بقية «اللبنانيين المتوحشين» أو شيء من ذلك القبيل الذي لا تعدم إسرائيل حيلة لاستيلاده ككئة تبرّر بها أي عدوان تقوم به.

وهكذا فإنه بدلاً من أن يزدهر لبنان في ظل السلام المصري الأميركي الإسرائيلي قتل ويجري العمل حالياً بنشاط في تمزيق جثته. وبدلاً من أن يصبح لبنان منافساً سياحياً لإسرائيل، بات قطعة مدخنة من الجحيم قد انجست إلى سطح الأرض. وبطبيعة الحال، خرب اقتصاد لبنان فخلال عام ١٩٨٧، بالرغم من تدهور سعر الدولار الأميركي، «فقدت الليرة اللبنانية أكثر من ٨٢ في المائة من قيمتها إزاء الدولار، وفي يوم واحد من أيام شهر نوفمبر / تشرين الثاني الماضي، تدهور سعر الصرف لليرة إزاء الدولار من ٥٣٠ ليرة إلى ٦٢٥ ليرة للدولار الواحد. وبالنظر إلى أن الحد الأدنى للأجور في لبنان الآن لا يكاد يصل إلى ما يعادل ١٦ دولاراً في الشهر، بينما تواصل الأسعار الارتفاع بنسبة ٣٠ في المائة من شهر لآخر، بات اللبنانيون، حتى من المهنيين أفراد الطبقة المتوسطة يعيشون في ضنك لم يألوه، أما الآلاف من الأسر اللبنانية الأقل حظاً فلا تكاد تجد اليوم ما يسد الرمق»^(١٤).

٤. الخسائر التي ألحقها السلام بإسرائيل

هذه إذن المكاسب الكبرى التي حققها السلام العادل لمصر والعرب حقن دماء أبناء السادات وأتاح للنظام الانصراف عن الحرب وكل تلك الأشياء الرديئة إلى معالجة الحالة الاقتصادية ومساعدة الشعب المصري على التطلع إلى مستقبل زاهر في ظل رخاء اقتصادي سيبلغ حداً يعرض إسرائيل لمنافسة اقتصادية مصرية، وبذلك تواصل مصر نضالها ضد إسرائيل، ولكن بطريقة متحضرة، على الساحة الاقتصادية. وفي الوقت ذاته، أتاح السلام فرصة ذهبية لكل العرب لم يكن مطلوباً منهم إلا التعقل واغتنامها، فأوقف توسع إسرائيل الاقليمي وكفّ أذاه لا عن مصر وحدها بل عن كل البلدان العربية، وجعل إسرائيل تنكمش فتقبع داخل «حدودها» الدولية التي كانت أطماعها قد تجاوزتها بكثير إلى أن شكمتها السادات بالسلام، وأمن أرواح الفلسطينيين واللبنانيين وكل العرب، وخلّص البلدان العربية من مشكلة الفلسطينيين وأعفى حكامها من ضرورة استهداف أرواح الفلسطينيين، وأتاح لأولئك الفلسطينيين فرصة

قتل مصر

تحقيق «أمانهم الوطنية» وفتح أمامهم السبيل إلى ممارسة «حق تقرير المصير»، وأتاح للبنان أن يصبح منافساً لإسرائيل

وهذه مكاسب تاريخية كبرى من الجحود والظلم إنكار قيمتها فمدا الذي كان يحلم بتلجيم إسرائيل وكفها عن التوسيع؟ ومنذا الذي كان يحلم بأن يصبح في مكة العرب تحقيق الرخاء الذي يمكنهم من منافسة إسرائيل اقتصادياً؟ ومنذا الذي كان يحلم بأن تقوم (بموجب كامب ديفيد والمعاهدة) دولة فلسطينية على حدود إسرائيل، بخبطة سلام واحدة؟.

لكن كل هذه المكاسب العربية، على عظمها، تتضاءل وتهون بجانب الحسائر الفادحة التي ألحقها السلام بإسرائيل

وهنا يحل محل الرؤية المهزلية وجه الرعب والرعب ناجم عن صواب بالغ اتصف به تحليل المفاوض المحارب لـ «خسائر إسرائيل» المترتبة على السلام دون أدنى شبهة لأقل وعي لديه بأن تلك الخسائر بالذات هي ما يجعل السلام الذي حاول بيعه والترويج له مستحيلاً، مميتاً، وفاتحة لمرحلة جديدة من الاجتياح ستتجاوز ضراوتها ووحشيتها كل ما دأقه المصريون والفلسطينيون واللبنانيون وكل العرب حتى الآن على يدي إسرائيل.

فالسلام حرم إسرائيل حقيقة من «استغلال ثروات الأرض المحتلة، زراعية ومعدنية، وبخاصة بترول سيناء». ولا يدري الفريق أول، كم هو صادق في هذا القول الذي كان ينبغي أن يجعله يتوقف فيفكر بدلاً من أن يصدق ما قاله له السادات وكارتر في كامب ديفيد أو ما قد يكون بيجين قد همهم به - بالعبرية. ولا يقلل خطورة عن ذلك الحرمان من استغلال ثروات الأرض المحتلة (وسيناء هي الأرض المحتلة الوحيدة التي انسحبت منها إسرائيل)، «تحديد نصيب إسرائيل من المياه العذبة لنهر الأردن وغيره من المصادر المشتركة الأخرى». والواقع أن الفريق أول أشار، بقدر كبير من العلم بأبعاد المسائل، إلى أنه «ورد في حديث لاريل شارون أن إسرائيل - في ظل استمرار معدلات الهجرة، وبغير توسع في مصادر المياه أو إيجاد مصادر مياه بديلة - سوف تجد نفسها مضطرة، خلال سنوات معدودة، إلى تخصيص كل ما لديها من المياه العذبة للشرب فقط دون أن تجد لترا واحداً توجهه إلى الزراعة أو الصناعة».

ولا بد أن المفاوضين المصريين تلقوا من جهة ما تأكيداً قاطعاً حازماً ونهائياً بأن تلك الجهة لن تسمح أبداً لإسرائيل بأن تنقض حرقاً من كامب ديفيد والمعاهدة مهما كانت الصعاب التي تعانيتها والخسائر التي تتكبدها من جراء السلام الغالي، وإلا لكان العقل في أشد حالاته بدهاة قد جعل أولئك المفاوضين يتوقفون ولو قليلاً عند كل ذلك الحرمان الذي ستعانيه إسرائيل الحرمان من الثروات الطبيعية، من الأرض، الحرمان من التوسع، الحرمان من مصادر المياه، والحرمان من تنمية الزراعة والصناعة، في حين تستمر معدلات الهجرة على ما هي عليه، وفي حين يعلن أرييل شارون في حديث له أن من نتائج السلام أن إسرائيل سيتعين عليها الاختيار بين الموت عطشاً وبين تنمية زراعتها وصناعاتها واستيعاب مهاجريها.

والأشد خطورة من كل ما سبق أن المفاوضين المصريين لم يغب عن فطنتهم تأثير السلام على الهجرة إلى إسرائيل. وكما عني الفريق أول بأن يبين في كتابه المفيد، سيؤدي ازدياد الهجرة إلى رقعة أرض محدودة (رقعة إسرائيل داخل «حدودها» الدولية بعد أن كفها السلام عن التوسع) إلى تفاقم الأزمة الاقتصادية، ويؤدي نقص الهجرة إلى الحكم على إسرائيل ذات الملايين الثلاثة من السكان اليهود بالتجمد في خضم النمو السكاني العربي والفلسطيني. ويقدر كبير من الوعي، قال الفريق أول أن ذلك الوضع الأخير يناقض الهدف الأساسي من إنشاء إسرائيل كوطن لكل يهود الشتات. ومن عجب أنه وهو يقول ذلك، لم يفتن إلى مدى خطورة ما قال. فمؤدى تسليمه بذلك أنه يسلم بأن سلاماً يفرض على الحركة الصهيونية الاكتفاء برقعة الأرض التي تحدها «الحدود الدولية» (أي حدود فلسطين) يظل بالضرورة سلاماً مستحيلاً لأنه «يناقض الهدف الأساسي الذي أنشئت إسرائيل من أجله».

ومما يروى، وقد يجدي التأمل فيه قليلاً، أنه بعد شهور من إعلان بن جوريون إنشاء «الدولة»، سألته أحد مسؤولي «النداء اليهودي الموحد»، المنظمة المظلة التي تجمعت فيها كافة المنظمات «الخيرية» لجمع

بعد القتل، تقطيع أوصال مصر

الأموال في الولايات المتحدة لإسرائيل، عما تريده إسرائيل من اليهود الأميركيين أكثر من أي شيء آخر، فأجاب بن حوريون بسرعة وشيء من العلطة «ما الذي تريده منكم؟ لا نريد منكم شيئاً إلا اليهود»^(١٦). وهذا منطقي فالمشروع الصهيوني برمته مشروع استعمار استيطاني ينفذ، كما تفضل الفريق أول فأشار، في خصم بحرب بشري من السكان الأصليين المعادين. ولذلك يتطلب المشروع تهجير «أعداد بشرية هائلة» من اليهود إلى إسرائيل باستمرار وتلك الأعداد البشرية الهائلة، فوق أنها تتطلب أرضاً، تهجر أصلاً إلى إسرائيل لتستولي على المزيد ثم المزيد من الأرض، وباستمرار، وبلا توقف وبذلك فإن ما تراءى لمخيلة كمال حسن علي الخصنة من خنق للمشروع داخل الرقعة التي يسلم بأنها صيقة داخل «الحدود الدولية لإسرائيل» يظل وهماً، قد يكون مريحاً، وقد يكون مفيداً في «بيع» عملية السلام للمصريين وربما للعرب جميعاً، لكنه في النهاية يظل وهماً، ويظل مغلوطاً، ويظل مميتاً. لأن مؤداه الادعاء بأن السادات والنظام المصري قد تمكنا ببراعة منقطعة النظير من القضاء على المشروع الصهيوني وتخليص المنطقة من شره بضربة واحدة حدقة موفقة هي ضربة «السلام»

وعلى المدى القصير، تتصح خطورة ذلك الوهم في انهيار كل ادعاءات كامب ديفيد ومعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية المتعلقة بالضفة الغربية وعرة ويبقى أن نرى إن كان شيء مما وعده حيمي كارتر ووقع عليه بوصفه رئيس الولايات المتحدة سيحقق -مع صالته في الضفة والقطاع والأمرواض لا يحتاج إلى ذكاء، بل وقد أوضحه بحلاء قاطع الفريق أول في كتابه فاحصار إسرائيل في رقعة الأرض التي تقع داخل «الحدود الدولية» مستحيل، إلا إذا كان قادة الحركة الصهيونية قد تخلوا عن مشروعهم من أساسه وقرروا الاكتفاء «بملايين إسرائيل الثلاثة وسط بحر التزايد الفلسطيني والعربي»، وقرروا إيقاف الهجرة إلى إسرائيل. أما إذا لم يكونوا على استعداد لذلك، فإن التوسع الذي يدعي الفريق أول أن سلام السادات قد أوقفه خارجاً، أي خارج أرض فلسطين والأراضي المحتلة، لا بد أن يتحول إلى «الداخل»، فيخلى الضفة الغربية وغزة والجولان وجنوب لبنان من السكان الأصليين ليحل محلهم السكان اليهود الجدد المهجرين إلى إسرائيل من الغرب والاتحاد السوفياتي ومن أماكن أخرى

ولعل الخبرة الطويلة المعاشة قد علمت الجميع بما فيهم قادة النظام المصري أن الحركة الصهيونية حركة منظمة تعمل بطريقة مدروسة ومنهجية ولا تتخبط هنا وهناك أشبه بدجاجة قد جز عنقها ككثير من ضحاياها، وأنها تفعل كل ما تفعله بحساب وبتخطيط سابق وعلى مراحل، وأن كل وثباتها التوسعية في الماضي كانت وثبة كل عشر سنوات أو قرابة ذلك، تخط فيها الخطبة، وتمتزع الوجبة، ثم تهدأ قليلاً ريثما تهضمها لتعود فتثب من جديد. وكما قال الفريق أول في كتابه، «يعني السلام نهاية التوسع الإقليمي وانكماش إسرائيل داخل حدود تجاوزتها أطماعها بكثير» ولقد كان من الأصوب والأصدق أن يقول، بدلاً من «نهاية التوسع الإقليمي»، «توقف التوسع الإقليمي في المزيد من الأراضي العربية مرحلياً». ولكن لندع ذلك جانباً الآن، وننظر في الوجبة الدسمة من الأراضي التي ما زال على إسرائيل أن تخلّيها من سكانها الأصليين وتهضمها بضمها واحلال اليهود الإسرائيليين والمهجرين الجدد فيها محل الفلسطينيين والسوريين واللبنانيين فتلك وجبة دسمة يمكن أن تكتفي إسرائيل بها مؤقتاً إلى أن يأتي وقت الوثبة التوسعية التالية التي نرحح منذ الآن أنها ستكون الضفة الشرقية وسيناء

وهذا، بطبيعة الحال، يناقض تماماً كل حسابات المفاوضات المصريين، وكل ما أوعز به اليهم الرئيس الطيب حيمي كارتر ومعاونوه ولقد «كان كارتر يريد الوصول إلى السلام، لأن السلام كان يتمشى مع خطه السياسي والأخلاقي في الحفاظ على القيم والحفاظ على الدين والوصول إلى السلام في ظل الوفاق الدولي، فهو بذلك يتمشى مع النظرة العالمية للسلام»^(١٧).

ولما كان الرئيس كارتر يريد السلام لأن ذلك يتمشى وخطه السياسي والأخلاقي المتجه إلى الوصول إلى السلام، وكان النظام المصري راغباً في السلام مراعاة للحالة الاقتصادية وعملاً على تمكين الشعب المصري من التطلع إلى مستقبل أفضل، فإن إسرائيل والحركة الصهيونية التي أوجدتها لا بد أن تقبل بالسلام بعد أن «وضعت مبادرة الرئيس الشجاعة إسرائيل وادعاءاتها للسلام تحت عين العالم الفاحصة»، ولقد اضطرها ذلك التحدي الذي واجهها به السادات إلى «الالتزام علناً والاعتراف لأول مرة بحقوق

فلسطينية عديدة^{١١١} كما اضطررها أيضاً إلى القبول بكل الخسائر الفادحة الأخرى، خشية من عين العالم الفاحصة

بل وقد اضطرت إسرائيل تحت تأثير خبطة السلام إلى القبول بالخطر المتمثل في أنه «بانتهاج حالة الحرب، ستطغى إلى السطح التناقضات الحادة في بنيتها، وهي تناقضات ظلت مستترة تحت خيمة الخطر المهدق» أي خطر الحرب الذي أزاله السلام فرفع تلك الخيمة من فوق رأسها.

وكما في تحليلات الفريق أول الأخرى، صدق في هذا التحليل أيضاً لكن مشكلته ومشكلة القاريء معه أنه توقف في كل تحليل له عند استيلاد ما بدا له أنه يمكن طرحه كمكسب عربي وخسارة إسرائيلية، ولم يذهب إلى ما كان يجب أن يذهب إليه من استظهار لاستجابات إسرائيل المحتملة لتلك الخسائر الفادحة فهو قد طرح صورة بدت فيها الحركة الصهيونية وكأنها قد باتت في حالة استاتيكية أو حالة تجمد بإزاء ما صبه سلام السادات على رأسها من خسائر، وبدأ فيها تاريخ الشرق الأوسط وقد وصل بسلام السادات إلى منتهاه فتوقف عنده تماماً كما توقف تاريخ العالم في الرؤية الكاثوليكية للتاريخ عند النقطة التي ظهرت فيها الكنيسة الكاثوليكية.

وقد يكون ذلك مبهماً مقبولاً في المجالات الغيبية، لكنه - في العالم الواقع - منهج حطر ومميت لأن تصوير خصم ضار كالحركة الصهيونية بأنه قد أصيب بضربة أعجزته فأقعدته وجعلته يحني الرأس ويقفل الفكين ويسحب المخالب ويقبع وراء «حدود إسرائيل» التي كانت لديه حدوداً موقوتة ومرحلية باستمرار. لمجرد أن الرئيس كارتر كان يريد السلام، والرئيس السادات أراد السلام، وأن ذلك السلام قد وضع إسرائيل تحت عين العالم الفاحصة، سيتبين أنه ضرب من التهويم أخطر بكثير من التهويم الذي بررت هزيمة ١٩٦٧ الماحقة بنسبتها إلى المرحوم المشير

ولنأخذ على سبيل المثال لا الحصر الحطر الذي أشار إليه الفريق أول، وهو خطر تفحر تناقضات إسرائيل الحادة التي كانت مكتومة تحت وطأة خطر الحرب المهدق بإسرائيل، تماماً بنفس الطريقة التي كانت تناقضات المجتمع المصري بالغة الحدة مكتومة بها تحت نفس الخيمة في ظل شعار «لا صوت يعلو على صوت المعركة» أيام كان الفريق أول وصحبه الكرام في حالة محاربة لا حالة مسالمة ذلك الخطر الذي فجره السلام في بنية إسرائيل حطر التناقض الجوهرى والعميق في سية «الدولة» بين اليهود البيض واليهود السود والملوئين، أي بين الأشكنازيم والسفارديم

ولقد كان هناك باستمرار في بنية «الدولة» تملل عنصري من حاسب اليهود الشرقيين، أي السفارديم، بإزاء التسيد الكامل لليهود الأشكنازيم على المؤسسة الإسرائيلية وانفرادهم بحل المزايا لكن ذلك التملل ظل مكبوح الجراح خفيض الصوت تحت «خيمة الخطر المهدق» التي حدثنا عنها الفريق أول، من واقع خبرته بطبيعة الحال بفعل تلك الخيمة على الجانب المصري ثم حامت زيارة السادات الميمونة في أواخر ١٩٧٧. وبدأ واضحاً أن القوة العربية الرئيسية القادرة على مواصلة الصراع يحكمها نظام بات مصمماً على الانسحاب من ساحة الصراع وإسكات الجبهة المصرية وبتوافق غريب، بدأ في إسرائيل منذ أواخر ١٩٧٧ ما وصف بأنه «التمرد الشرقي» أو «تمرد اليهود الشرقيين»، وبدأت إسرائيل تواجه ما وصف بأنه «التحدي العرقي» وهو التحدي الذي هز بنيتها السياسية بشكل لم يسبق له مثيل منذ إنشاء «الدولة»

والسؤال الذي ينبغي أن يطرحه، والذي لم يجد الفريق أول وغيره ممن أخذوا على عواتقهم مهمة «بيع» السلام المصري الإسرائيلي ما يدعوهم إلى إثارة أو طرحه أو توجيه انتباه أحد إليه، هو ما الذي يمكن أن تفعله إسرائيل في مواجهة كل هذه الخسائر والمخاطر التي تتهددها في بقائها ذاتة؟ هل تظل ساكنة هامدة سائحة في بلهنية بحر السلام؟ هل تتخلى الحركة الصهيونية عن مخطط إسرائيل الكبرى؟ هل توقف الحركة الصهيونية الهجرة اليهودية من الشتات إلى منصة الانطلاق، إسرائيل، التي تشكل المرحلة الأولى من المشروع الصهيوني؟ هل تنزوي إسرائيل وتنطوي على نفسها باكية معولة وراء «حدودها»؟ هل تسمح بإقامة دولة للفلسطينيين؟ هل تسمح للفلسطينيين بالحكم الذاتي في الضفة الغربية وغزة؟ هل تكف عن محاولة تصفية الشعب الفلسطيني جسدياً لإزالته من الوجود نهائياً باعتباره الخطر الأكبر والحقيقي الذي يتهددها؟ هل تعيد الجولان إلى سوريا؟ هل تتخلى عن جنوب لبنان؟ هل تمتنع عن

بعد القتل، تقطيع أوصال مصر

ضم الضفة الشرقية؟ هل تصرف نظراً عن سيناء؟ هل ترضى بألا يصبح لديها من الماء إلا ما تشربه؟ هل تقبل، وهي الكيان التوسعي الاستيطاني، بأن تقف حيث هي فتذبل وتذوي حبا في السلام؟.

٥ . وثيقة بينون

لندع التفكير الاسرائيلي يحيب على بعض هذه التساؤلات في عدد شتاء ١٩٨١/١٩٨٢ (فبراير/ شباط ١٩٨٢) من مجلة كيفونيم التي تصدرها الحركة الصهيونية وتطرح فيها بأقلام المتخصصين ما تواجهه من مشكلات، نشرت دراسة لم تحظ للأسف بالانتباه الذي تستحقه من كل من تعلق بهم الأمر من العرب، وكان الفصل في توجيه الأنظار إليها ومناقشتها وإدانتها للعالم والكاتب اليهودي ناعوم تشومسكي ولإسرائيل شاهاك. وضع الدراسة أوديد بينون، الصحفي والديبلوماسي الاسرائيلي السابق، والمتخصص حالياً في مجال البحوث المنصبة على علاقات إسرائيل بالعالم العربي، ونشرتها المجلة الفصلية الصهيونية تحت عنوان «استراتيجية لإسرائيل في الثمانينيات»، وقالت أن هدف تلك الإستراتيجية جعل العالم العربي ينهار ويتفكك إلى موزايكو من كيانات عرقية ودينية صغيرة. فليقرأ معاً، ونتعب العقل قليلاً فنفكر يستهل بينون دراسته بقوله «إن إسرائيل يتعين عليها، في مستهل الثمانينيات، أن تصبح لديها رؤية جديدة لمكانها في العالم، وأهدافها ومراميها القومية الداخلية والخارجية. وذلك مطلب يتصف بالحاجة خاصة نظراً لأن الدولة (إسرائيل)، والمطقة (الشرق الأوسط) والعالم تمر جميعاً بالعديد من التطورات الجوهرية».

ويؤكد «أنا نعيش الآن بواكير حقبة جديدة من تاريخ العالم لا يوجد أدنى شبهة أو أي شيء مشترك بين خصائصها وبين أي شيء قد خبرناه أو عرفناه حتى الآن».

وينبه مواطنيه قائلاً «أنا بحاجة، نظراً لذلك، إلى أن تفهم العمليات المركزية التي تميز هذا العصر الجديد، من جانب، وبخاصة - من جانب آخر - إلى نظرة واستراتيجية عالمية قابلة للتنفيذ توائم هذه الأوضاع الجديدة فوجود الدولة اليهودية، ورخاؤها وحالتها ستتوقف جميعاً على قدرتها على انتهاز طريقة جديدة وإطار جديد لحياتها الداخلية والخارجية».

ويستطرد قائلاً «إن بوسعنا أن نتبين منذ الآن عدداً من الملامح التي تميز العصر الجديد وهي ملامح تنبئ عن ثورة محتومة في حياتنا الراهنة».

فما هي تلك الملامح التي تميز العصر الجديد وتنبئ عن تلك الثورة المحتومة؟ يحسن بنا، سواء كنا من سائر خلق الله أو من الحكام وأساطين النظم والمسيرين لأقدار الشعوب، أن نصغي جيداً وبمعن الفكر فيما نسمع

«إن العملية ذات اليد العليا التي يتصف بها العصر الجديد انهيار المنظور العقلاني الإسي الذي ظل الثيمة الرئيسية لحياة الحضارة الغربية ورخائها منذ عصر النهضة وتبعاً لانهيار ذلك المنظور، نجد أن الانسقة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي نجمت عنه والتي أوجدت (في تلك الحضارة الغربية) عدداً من «الحقائق» المعينة، أخذة في الاختفاء من عالمنا اليوم. فعلى سبيل المثال، نجد أن الاعتقاد بأن الإنسان كفرد هو مركز الكون وأن كل ما في العالم موجه إلى إشباع حاجاته المادية مفهوم أخذ في الزوال في العصر الراهن الذي بات من الواضح فيه أن كمية الموارد المتوافرة في الكون لا تكفي للوفاء بتوقعات الإنسان وباحتياجات الاقتصادية والضروريات الديموغرافية».

وهذا كلام يحسن، إلا إذا كنا عاقدين العزم على الزوال نحن أيضاً، أن نتوقف عنده ونفكر فيه فهو كلام له وزنه، وينبغي أن يذكرنا بالقس المبجل مالتوس وبالدأروينية الاجتماعية وكل تلك الأشياء الأعجمية المزدولة. ومالتوس، إن كنا لا نذكر، هو الاقتصادي والمنظر الديموغرافي توماس روبرت مالتوس (١٧٦٦ - ١٨٣٤). وكان مالتوس يعلم بأن موارد العالم متناهية وأنه بالنظر إلى تنامي تلك الموارد ينبغي للعالم أن يتحلى بالواقعية فيفطن إلى أن تكاثر السكان خطر على الحضارة وعلى بقاء النوع البشري ورفاهه، ويدرك أن رفع مستوى معيشة الأفقر والأضعف لن يجدي الأفقر والأضعف شيئاً في خاتمة المطاف ويشكل تهديداً للأثري والأقوى ثم جاءت الدأروينية الاجتماعية التي طبقت مفاهيم صراع البقاء

والبقاء للأصلح التي قال بها تشارلس دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) في نظرياته عن أصل الأنواع على التطور التاريخي للمجتمعات البشرية وركزت على مفهوم «صراع البقاء وبقاء الأصلح»، وهو ما التقطته النازية الهتلرية وجعلته سنداً «أخلاقياً» لفلسفتها، فأعطت - تلك الداروينية الاجتماعية والتطبيقات النازية لها - التوجه المعاصر للدعوى المالتوسية^(١)

وهذا - تحديداً - هو ما يتحدث عنه الاستراتيجي الصهيوني فهو - ابتداءً - يشير إلى انهيار المنظور العقلاني الإنسي وزوال ما انبثق عنه من قيم، كالاقتصاد في قداسة الحياة الانسانية وقيمة الفرد الانساني، نتيجة لما نبه إليه مالتوس منذ القرن الثامن عشر من تنامي الموارد و«عدم كفايتها للوفاء بتوقعات الانسان والاحتياجات الاقتصادية والضروريات الديموغرافية (أي الضروريات اللازمة لبقاء المجموعات السكانية على قيد الحياة وتوفير الحد الضروري من احتياجاتها)».

فالذي يقوله الاستراتيجي الصهيوني بصراحة وإيجاز وبغير كبير لف ولا دوران أن العالم لم يعد فيه متسع للجميع، وأنه في ظل «انهيار المنظور العقلاني الإنسي» وزوال أنسقة القيم التي ابنت عليه، من المحتم بلا مهرب العودة إلى الغابة والانغماس في دوامة الصراع الذي لا ينقطع من أجل البقاء، وهو البقاء الذي لن يكون إلا للأقوى والأشد شراسة والأقل تورعاً. وهذا - حرفاً بحرف - هو ما استولدت منه النازية من الداروينية الاجتماعية.

وكيما تتضح الصورة لأدهاننا - التي قد تتشبهت برفض التصديق - يحسن أن نلقي بالسمع إلى ما يستطرد بيّنون فيقوله.

«إن التصور القائل بأن رغبات الانسان وقدراته لامتناهية يزول ويتبدد عندما يقاس بمقياس حقائق الحياة المؤسفة التي تتضح لعيوننا ونحن نشهد انهيار نظام العالم من حولنا وبالمثل، فإن وجهة النظر (العقلانية الأنسية) التي تنادي بالحرية والرفاه للجميع تبدولنا ممعنة في السخف والسفاهة هذه الأيام»

وبالبراعة اليهودية التي لا تخيب، يلجأ الاستراتيجي الصهيوني إلى تلطيف وقع هذا الكلام الوحشي على من قد يسمعه من الأممين الغربيين بأن يحشر في السياق عدداً من الكلمات المفتاحية التي تحدث الاستجابة الشرطية المنعكسة (تماماً كجرس بافلوف المسيل للعاب) لدى السامع، فيقول أن الادعاء بأن للجميع سواسية الحق في الحرية والرفاه يفصح عن سخفه وعيبيته بوجه خاص «وهو أخذ في الزوال جنباً إلى جنب مع مفهوم المساواة والعدل الاجتماعي الذي حولته الاشتراكية، وبالأخص الشيوعية إلى مفهوم أجوف مفرغ من كل مغزى».

ولا يكتفي بذلك الدق لجرس بافلوف مستخدماً «الاشتراكية» و«بالأخص الشيوعية»، فيضيف دقة جرس أخرى مسيلة للعاب هي الديموقراطية، فيضيف قائلاً أن ذلك المفهوم السخيف القائل باستحقاق كل من يزعمون سطح هذا الكوكب للحياة والحرية والرفاه، وقد انكشف سخفه أكثر وأكثر بانكشاف سخف الاشتراكية وبالأخص الشيوعية، ينكشف سخفه الأقصى «لأعيننا اليوم نظراً لأن ثلاثة أرباع سكان العالم يرزحون تحت نير نظم شمولية».

وبعد أن أرسى الأساس «العقلاني / المنطقي / الأخلاقي» للاستراتيجية التي يطرحها، وفرش الفرشة العقائدية المستمدة بكل ثبات من النازية مغلفاً إياها بكل ذلك الكلام عن الاشتراكية والشيوعية والشمولية المذمومة، ينتقل إلى بيت القصيد، فيقول:

«إن العالم العربي - الاسلامي ليس المشكلة الاستراتيجية الرئيسية التي ستواجهها في الثمانينات، حتى وأن ظل يشكل تهديداً لإسرائيل نتيجة لقوته العسكرية المتعاظمة. فذلك العالم العربي - الاسلامي، بطوائفه، وأقليته، وشيعه، وانقساماته الداخلية، وكلها مفضية إلى تدميره داخلياً - على النحو الذي نشهده اليوم في لبنان، وفي البلد غير العربي إيران، والآن أيضاً في سوريا - عالم ليس قادراً على حل مشكلاته الأساسية المشتركة التي تفعل فعلها فيه. وهو - لذلك - عالم لا يشكل تهديداً خطيراً لدولة إسرائيل على المدى الطويل، ولكن بالآخرى في المدى القصير الذي يتمتع فيه بقدره عسكرية مباشرة يقام لها وزن ففي المدى الطويل، لن يكون ذلك العالم قادراً على البقاء بإطاره الحالي في منطقتنا بغير تطورات هامة وجادة. فالعالم العربي - الاسلامي منبئ الآن كما لو كان «برجاً مؤقتاً من أوراق اللعب، شيدته الأجانب (الفرنسيون والبريطانيون في

بعد القتل، تقطيع أوصال مصر

العشرييات من هذا القرن) دون أن يأخذوا في الاعتبار إرادة السكان أو رغباتهم وهو مقسم إلى ١٩ بلدا يتألف كل منها من خليط من الأقليات والطوائف المختلفة التي تكرر العداء لبعضها البعض، وهو ما يجعل البنية العرقية - الاجتماعية لكل بلد عربي - مسلم قابلة للانحيار إلى حد الحرب الأهلية على النحو الذي نشهده في بعض بلدان ذلك العالم»

وبطبيعة الحال، لم يحد الاستراتيجي الصهيوني مدعاة لتذكير من يقرأ كلامه أن تدمير لبنان بالحرب الأهلية مشروع صهيوني قديم ورد ذكره على لسان بن حوريون لأول مرة سنة ١٩٢٧، وطرحه بن جوريون على أركان حربه بعد إنشاء الدولة بأيام في سنة ١٩٤٨، وشرعت إسرائيل في تنفيذه في منتصف الخمسينيات ثم اضطرت إلى تأجيله بسبب حاجتها للتصالح مع فرنسا على مصر، وعادت إليه في السبعينيات فلم يمكنها تنفيذه فعلاً إلا في ظل إسكات الجبهة المصرية على يد السادات الذي أسكت تلك الجبهة لحساب أميركا وإسرائيل وهو يعلم، كما صرح لصحيفة الفينانشال تايمز، أن إسكاتها سيجعل «الدم يجري أنهاراً في لبنان»

فالعالم العربي فيه تناقضاته ككل عالم آخر وليس في العالم بلد يتصف بالوئام الكامل والتجانس حتى إسرائيل ذاتها فبالرغم من اليهودية المشتركة لكل السكان، توحد التناقضات والتوترات والصراعات بين الأشكنازيم الأحمر والبيض والسفارديم السمر والسود. والولايات المتحدة، راعية المشروع الصهيوني وحاميته، تتألف من خليط من الأعراق والثقافات والديانات والقوميات والأقليات والطوائف ولم يدع أحد بأن ذلك يشكل عامل انهيارها المحتوم، ولو أنه لو كانت الولايات المتحدة على رأس قائمة فرائس الحركة الصهيونية، لا العالم العربي ومصر بالذات، لظهر استراتيجي صهيوني يخطط لانتهارها باستغلال ما فيها من تناقضات وأقليات وطوائف وقوميات لكن الولايات المتحدة وغيرها من بلدان الأمميين موضوعه، لضرورات لا تحفى، في ذيل قائمة الفرائس، والعالم العربي موضوع على رأس القائمة وقد ابتلي بالجهل والتخلف والتهويم تحت أعجاز أناس كبطل السلام أنور السادات، فبات فريسة سهلة ومباحة. وبات بوسع بينون وغيره أن يتخذ من جهله وتخلفه وتهويم أهله وغبنائهم القبلي الذي يتخذ من الشقيق عدواً ومن العدو شقيقاً سائراً لنشاط التخريب الوحشي الذي تضطلع به إسرائيل عملاً على تفتيت البلدان العربية جميعاً إلى كيانات صغيرة هزيلة متناحرة كديدان مسعورة يسهل على إسرائيل أن تسحقها بقدمها واحدة وراء أخرى وهي أخذة في نهش بعضها البعض.

وهكذا يجد بينون بوسعه أن يقول «فالأوضاع الوطنية، العرقية، والطائفية للعالم العربي برمته تفصح عن افتقار بالغ إلى الاستقرار وتنبيء عن التفتت والانحيار في كل المنطقة المحيطة بنا. فإذا ما أضفنا إلى ذلك البعد الاقتصادي، بات بوسعنا أن نتبين كيف أن وإلى أي مدى يماثل بنيان البلدان العربية المحيطة بنا برجاً من ورق اللعب ليست لديه أدنى فرصة للتصدي لمشكلاته الخطيرة.. ومصر أكثر تلك البلدان ترناً وأخطرها متاعب. فالملايين من أهلها على شفا الموت جوعاً، ونصف سكانها من العاطلين المحتشدين، بلا أية مرافق لازمة للعيش، في رقعة ضيقة من أشد مناطق العالم اكتظاظاً بالسكان. فباستثناء الجيش، لا يوجد ولو قطاع واحد يعمل بكفاءة، والبلد كله في حالة إفلاس دائم، ولولا المعونات الأميركية، وهي من ثمار معاهدة السلام مع إسرائيل، لانهار اقتصاده.

هذه الأوضاع الأسيفة في مصر والعالم العربي تضع في متناول إسرائيل، فيما يقوله بينون، خيارات هامة، لولا «سياسات السلام وعملية إعادة الأراضي المحتلة (سيناء) التي تعتمد على الولايات المتحدة والتي تمنعنا من اغتنام تلك الخيارات الجديدة التي تتفتح أمامنا. فمذ سنة ١٩٦٧، أخضعت كل الحكومات التي تعاقبت على حكم إسرائيل صالحن الوطنيين وأهدافنا القومية للمصالح الضيقة لكل حكومة منها، من جانب، وللمناخ الداخلي المدمر الذي حيد قدراتنا في الداخل والخارج، من جانب آخر. فالحقيقة الماثلة في أننا لم نتخذ أي خطوات ضد السكان العرب في الأراضي الجديدة (الأراضي المحتلة) التي كسبناها نتيجة للحرب التي فرضت علينا (حرب ١٩٦٧) تشكل أفدح خطأ استراتيجي وقعت فيه إسرائيل في أعقاب حرب الأيام الستة. فلو كنا قد فعلنا ما كان يجب أن نفعله آنذاك لكننا قد وقينا أنفسنا من كل المنازعات الحادة والخطرة التي نشبت منذ ذلك الوقت ولكننا قد حللنا المشكلة الفلسطينية حلاً نهائياً

بدلاً من أن نتركها قائمة لتواجهنا اليوم بحلول ليست حلولاً على الإطلاق تتمثل في مطالبتنا بالتنازل عن الأراضي أو الحكم الذاتي للفلسطينيين، وهما في الواقع شيء واحد».

ولا يوضح بينون تفصيلاً ماهية ذلك الذي كان ينبغي لإسرائيل أن تفعله ضد السكان العرب في أعقاب حرب ١٩٦٧، لكن المعنى واضح بما فيه الكفاية، ولم تكن به حاجة إلى شرحه لقرائه وقراء مجلته الفصلية وهم أدرى الناس بـ «الحل النهائي» الذي ينحي بأشد اللوم على إسرائيل لكونها لم تغتنم فرصة انتصارها سنة ١٩٦٧ فتحل المشكلة به لكن الفرصة لم تضع على أية حال. لأنه إن كانت مواضع العالم آنذاك قد جعلت الحكومة الإسرائيلية تحجم عن فعل ما لم يكن من فعله بد حلاً للمشكلة حلاً نهائياً، فإن تغير النظام العالمي وانحياز المنظور العقلاني الأنسي الذي جسده بترارك وأراسموس، وأعطاه شيللر مفهومه البروتاغوراسي القوائم على أن الإنسان مقياس كل الأشياء، وتحول العالم إلى العالم الغابة الذي حدثنا عنه الاستراتيجي الصهيوني في مستهل دراسته، بات يتيح لإسرائيل «إمكانيات هائلة لتعويض ما فات وتغيير الوضع لصالحها».

«وذلك هو ما يجب علينا أن نفعله خلال عقد الثمانينيات، وإلا فإننا لن نبقي كدولة. فخلال عقد الثمانينيات، يتعين على إسرائيل أن تمر بتغيرات واسعة المدى إلى أقصى حد فيما يتعلق بسياساتها الداخلية في المجالين الاقتصادي والسياسي، جنباً إلى جنب مع تغيرات جذرية في مجال سياستها الخارجية كيما يصبح بوسعها أن تثابر وتبقى في وجه التحديات الكوكبية، والتحديات الاقتصادية والإقليمية لهذا العصر الجديد».

فما هي تلك التغيرات؟ على رأس قائمة التغيرات المتعلقة بمصر «وصحراء» سيناء، كما تسمى أحياناً. «إن فقدان حقل النفط في خليج السويس حتماً إلى جنب مع الإمكانيات الهائلة لاستخراج الغاز والنفط من أرض شه جريرة سيناء واستغلال ثرواتها الطبيعية، وهي أرض تماثل بنيتها الحيولوجية تماماً أراضي الدول الغنية بالنفط في المنطقة، فقدان كل ذلك سوف يؤدي بنا في إسرائيل إلى وضع مرهق للغاية من الافتقار إلى الطاقة في المستقبل القريب، وهو وضع سوف يؤدي إلى تدمير اقتصادنا الداخلي حيث أن ربع الناتج القومي الاحتمالي وثلاث الميزانية العامة ينفق على شراء النفط لبلدنا وحتى اكتشاف موارد طبيعية ونفط وغاز في النقب وبامتداد الحط الساحلي لن يكفي لتغيير ذلك الوضع السيء في المستقبل القريب».

فبالإضافة إلى ما أشار إليه الفريق أول من حاجة إسرائيل إلى موارد المياه، نجد هذا الاستراتيجي الصهيوني مؤكداً على احتياج إسرائيل إلى نفط سيناء وغازها ومواردها الطبيعية الأخرى، ولذلك

«تعتبر العودة إلى سيناء بما فيها من موارد حالية وموارد كامنة تنتظر من يستخرجها، هدفاً سياسياً عظيم الأهمية بالنسبة لإسرائيل. إن اتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة السلام مع مصر ما زالت تنتظر التنفيذ والاستكمال وبفضل أخطائها، مهدت الحكومات الإسرائيلية، سواء في ذلك الحكومة الحالية أو حكومات حزب العمل السابقة التي حكمت منذ ١٩٦٧، الطريق المفضية إلى إعادة الأراضي (المحتلة). ولن يكون المصريون مضطرين، بعد استعادة سيناء، إلى الالتزام بأحكام معاهدة السلام، وسوف يفعلون كل ما في وسعهم للعودة إلى أحضان العرب والاتحاد السوفياتي، وذلك هو السبب في أن مصر تتمتع بكل هذه الأهمية في مجال العون العسكري، لدى العالم العربي والاتحاد السوفياتي أما العون الأمريكي فمن أجل سلام قصير الأمد. وسوف يؤدي إضعاف الولايات المتحدة داخلياً وخارجياً إلى إحداث ذلك التغيير بينما نحن في إسرائيل لن نستطيع أن نبقي طويلاً بغير النفط (من سيناء) وما يحققه من دخل، وتحت وطأة الكلفة الباهظة التي يتحملها يومياً في شرائه بدلاً من أن يكون مالكيه له، كما هو الوضع حالياً ولذا فإنه سيتعين علينا أن نعمل على إعادة الوضع إلى ما كان عليه في سيناء إلى ما قبل زيارة السادات ومعاهدة السلام المشؤومة التي وقعها في مارس/ آذار ١٩٧٩»

«وأمام إسرائيل خيارات رئيسيان لبلوغ ذلك الهدف (استعادة سيناء)، أحدهما مباشر والآخر غير مباشر والخيار المباشر أقل واقعية من بديله نظراً لطبيعة إسرائيل وحكومتها، وما أسداه السادات من حكمة حتى الآن فإسرائيل لن تكون البائدة بانتهاك المعاهدة سواء اليوم أو في المستقبل المرئي إلا إذا اضطرت إلى ذلك تحت تأثير ضغوط اقتصادية أو سياسية وزودتها مصر بالتكئة لاسترداد سيناء للمرة الرابعة في تاريخها القصير ولهذا يظل الخيار الأفضل والأكثر واقعية هو ما أسميته بالخيار غير المباشر أن مصر، بفصل ضعفها الداخلي، وحالتها الاقتصادية، وطبيعة النظام، لا تشكل بالنسبة لإسرائيل مشكلة استراتيجية عسكرية في المدى الطويل، وسوف يظل بوسع إسرائيل أن تعيد مصر، بطرق مختلفة، إلى الحالة التي سادت بعد يونيو/ حزيران ١٩٦٧»

بعد القتل، تقطيع أوصال مصر

«إن أسطورة قوة مصر وزعامتها للعالم العربي تفككت وانهارت في سنة ١٩٥٦، وبكل تأكيد في سنة ١٩٦٧، إلا أن بعض سياساتها، كإعادة سيناء إلى مصر، جعلت تلك الأسطورة القديمة تبدو من جديد وكأنها حقيقة. إلا أن قوة مصر، في التقييم الواقعي، انخفضت بنسبة النصف تقريباً منذ ١٩٦٧، بالمقارنة إلى قوة إسرائيل وبقوة العالم العربي ككل ومصر ليست القوة السياسية القائمة في العالم العربي فقوتها الاقتصادية مرعزة للغاية، واقتصادها إذا ما حرم من العون الخارجي سيهار وهي حالياً مستطبعة، بفضل استعادة سيناء، تحقيق بعض المكاسب على حسابنا، في المدى القصير، إلا أن ذلك لن يحدث أية تغيرات مواتية لصالح مصر، بل وقد يكون سبباً في دمارها

«إن مصر قد ماتت مصر قد انهارت وهي تواجه حالياً فتنة طائفية ستصبح أشد حدة بمضي الوقت. وتمزيق أوصال جثة مصر بتفتيت أراضيها إلى مقاطعات جغرافية منفصلة عن بعضها البعض هو هدف إسرائيل السياسي الرئيسي على جبهتها الغربية لمصر متى مزقت جثتها، وقسمت، وانهارت مبعثرة في كيانات متعددة متناحرة، لن تعود تشكل أدنى خطر على إسرائيل، بل - على العكس - ستصبح ضماناً تكفل الأمن والسلام لإسرائيل لوقت طويل وبوسعنا أن نحدث ذلك الآن وبالإضافة إلى مصر، سيلحق بنفس المصير الذي ينتظرها بالبلدان المجاورة لها، ليبيا والسودان، بل وبالبلدان العربية الأبعد من ذلك فلسوف تشارك كل تلك البلدان مصر سقوطها وانهيارها وتفتتها والواقع أن ما يجب أن نعمل لأجله تفتيت مصر عن طريق الصراعات الداخلية إلى كيانات ضعيفة لا رابطة مركزية بينها، متناحرة تحت تأثير الكراهيات الدينية والعرقية، فذلك هو مفتاح التطور التاريخي، وهو تطور أجّلته معاهدة السلام بعض الوقت، لكنه - على المدى الطويل - لا مهرب منه

«إن التفكك الكامل للبنان وتفتته إلى خمس حكومات إقليمية هو المصير المحتوم (أو الذي يسعى أن يجعله نحن محتوماً) للعالم العربي برمته ابتداء من مصر إلى سوريا ثم العراق وشبه الجزيرة العربية، وكلها يجب أن تنحل وتفكك كما انحَلَّ لبنان. فمصر، وفي أعقابها العراق، يجب أن تنحلَّ إلى كيانات اقلية دينية وعرقية على نفس النسق الذي تحقق في لبنان، ويجب أن يظل ذلك الهدف الرئيسي على المدى الطويل لإسرائيل، بينما يظل هدفها في المدى القصير إضعاف تلك الدول العربية جميعها عسكرياً سوريا يجب ولسوف تنحلَّ إلى عدة كيانات على الأساس العرقي والطائفي الذي نجح في لبنان فسوف تصبح هناك دولة شيعية علوية، ودولة سنية في حلب، ودولة في دمشق، وكلها متعادلة فيما بينها. أما الدروز، بما فيهم درور الجولان فيجب أن تصبح لهم دولة في الأردن الشمالي ولسوف يكون ذلك الانحلال والتفتت الضمانة طويلة الأجل لسلام والسلم في المنطقة بأسرها، وهو هدف نوسعنا العمل على بلوغه اليوم

«أما العراق الثري بنفطه فيظل بكل تأكيد على رأس قائمة أهداف إسرائيل بل إن العمل على تفتيته أهم لإسرائيل بكثير من تفتيت سوريا، لأن قوة العراق تظل، في المدى الطويل، أكبر خطر يهدد إسرائيل، ولذا فإن إشعال نيران حرب سورية عراقية أو حرب إيرانية عراقية مطلب يمكن أن يؤدي تحقيقه إلى إضعاف العراق وتفككه وقطع الطريق عليه قبل أن يتمكن من تنظيم النضال ضد إسرائيل بشكل ذي مغزى فكل مواجهة يمكن إشعال نيرانها بين العرب وبعضهم بعضاً عون لنا يساعدنا على الاستمرار والبقاء في المدى القصير ويمكننا في المدى الأطول من التعجيل ببلوغ الهدف الأقصى، وهو تقسيم العراق إلى عناصر متناحرة كما سيحدث لسوريا وكما حدث للبنان. فالعراق يمكن تقسيمه إقليمياً وطائفيًا كسوريا في العهد العثماني، بحيث تصبح هناك ثلاث دويلات أو أكثر تتمركز حول مدنه الثلاث الرئيسية، البصرة، بغداد، والموصل، بينما تفصل المناطق الشيعية في الجنوب عن المناطق السنية في الشمال وهي بالقدر الأكبر كردية ومن الممكن أن تؤدي أي مجابهة إيرانية عراقية إلى زيادة حدة الاستقطاب الذي يخدم ذلك الهدف

«وشبه الجزيرة العربية برمتها مرشحة لنفس المصير بشكل طبيعي للغاية، فهي على شفا الانهيار نتيجة للضغط الداخلي والخارجي سواء طلت متمتعة بقوة النفط أو استلّت تلك القوة من أيدي دولها في المدى الطويل.

«أما الأردن فهدف استراتيجي فوري لإسرائيل في المدى القصير ولكن ليس في المدى الطويل. فهولن يشكل أي تهديد لإسرائيل متى تفكك وانهار وليست هناك أية إمكانية لاستمرار بقاء الأردن بشكله وبنيته الحالية، ويجب أن تتجه سياسة إسرائيل سواء في ظروف السلم أو ظروف الحرب إلى إزالة الأردن من الوجود بأوضاعه ونظامه الحالي. (وذلك سوف يحل مشكلة المياه) ويخلص إسرائيل من مشكلة الصفة الغربية التي يتواجد فيها العرب بكثافة غير مرغوبة إطلاقاً. فالمطلوب تهجير أولئك العرب منها، وهو تيار موجود ما علينا إلا تشجيعه عن طريق تجميد الوضع اقتصادياً وديموكرافياً لنكفل استمرار التغير الحادث على ضفتي الأردن فالذي يجب علينا أن نفعله هو أن نحفر ذلك التغير ونسرّعه في أقرب وقت مستطاع. وذلك يتطلب في المقام الأول أن نمتنع امتناعاً جازماً عن القبول بخطة الحكم الذاتي أو الانزلاق إلى الرضى بأية تنازلات أو تقسيم

فيما يتعلق بالأراضي (المحتلة) فعل سوء خطة منظمة التحرير الفلسطينية و«العرب الاسرائيليين» انفسهم، لا يوجد سبيل لعيشهم في هذا البلد (اسرائيل) في ظل الظروف الراهبة بعير فصل الامتين كلا عن الأخرى، بحيث يعيش العرب في الأردن واليهود في كل الأراضي الواقعة عرب نهر الأردن ولن يسود التعايش ويستتب السلم إلا إذا أدرك العرب أنهم ما لم تصح كل المناطق الممتدة ما بين نهر الأردن والبحر تحت الحكم اليهودي، لن يكون لهم وجود ولن يتمتعوا بأي أمر، وأنهم لن تصح لهم هوية وطنية ولن يعرفوا من الأمر إلا ما يمكن أن يستمتعوا به من أمن في الأردن

«أما في داخل حدود اسرائيل، فقد ظل العرب لا يفرقون بين أراضي ١٩٦٧ (التي احتلت في ١٩٦٧) وتلك التي (أخذت منهم) في ١٩٤٨. ونحن الآن، بالمثل، لا نفرق بين هذه الأراضي وتلك فالمشكلة يجب أن ينظر إليها برمتها، ككل، وبلا أية تحزنة أو تقسيم، تماماً كما ظلت الحال منذ ١٩٦٧»^{١٠}

١٩٦٧. السنة التي حققت فيها اسرائيل انتصارها الأكبر الثاني بعد انتصار الحركة الصهيونية في استصدار قرار التقسيم وإنشاء «الدولة». ١٩٦٧، السنة التي انتهى فيها «المجد والخلود» ووضعت مصر تحت حذاء اسرائيل ريثما يستكمل الزعيم الملهم أنور السادات الإجهاز عليها بحلم السلام المميت، ويسلمها للأصدقاء الأميركيين والاسرائيليين جثة هامة ليشرعوا، بتؤدة، وعلى مهل، في تمزيق أوصالها. ولقد يكون النظام الذي قاد مصر إلى هذا المصير البشع تصور أنه - بالتصالح مع اسرائيل والتضحية بالفلسطينيين - نجا ومكن مصر من النجاة. فمصر - بعد كل شيء - الأم البقرة الحلوب، وغنيمة الحرب التي لن يجد مغاوير النظام غنيمة أخرى غيرها أو شعباً آخر مطيعاً طالب سلامة كشعبها يفعلون به ما يفعلونه بالمصريين.

ولقد يكون النظام تصور أنه بارضاء الأصدقاء الأميركيين، وإسكات الجبهة المصرية، سوف يوقظ مصر من غيبوبتها الاقتصادية ويضخ دماء جديدة في شرايينها تجعل ضروعها تمتلئ بما يمكن احتلابه ثانية، خاصة على وعد من الأصدقاء الأميركيين بالمعونات لكن تلك، كما قال الاستراتيجي الصهيوني، معونات سلام موقوت. وحتى بصرف النظر عما قاله أو يقوله غيره، تظل الحالة الاقتصادية لمصر في غير حاجة إلى من يبرهن على تردّيها. وبذلك يكون النظام قد حرم من الصحة الاقتصادية التي تنبأ الفريق أول بأنها ستحقق رخاء مصرياً يجعل مصر تنافس اسرائيل.

وبتبخر وهم الصحة الاقتصادية من الغيبوبة التي قد تكون الحروب قد أسهمت في إحداثها لكن سببها الرئيسي والمميت يظل الخيبة والفساد، وتبخر الوهم في إمكان التخلص من ورطة النظام الفلسطينية عن طريق أسطورة الحكم الذاتي، وتبخر الوهم في فضل النظام على العرب أجمعين عندما أتاح لهم «فرصة السلام الذهبية»، ماذا يبقى من وهم؟ كون السادات قد حقن دماء أبنائه، واستعاد سيناء.

وقد يكون السادات حقن دماء أبنائه في المدى القصير. ولكن كم من تلك الدماء سيراق أنهاراً عندما تستدير اسرائيل كوحش توراتي مسعور فتأخذ في تنفيذ عملية تقطيع أوصال مصر وتسترد سيناء؟ من الذي سيحمي مصر ويحقن دماء أبنائها آنئذ؟ جيمي كارتر؟ من الذي حقن دماء اللبنانيين وهم يمزقون بعضهم إرباً ويهدمون لبنان على رؤوسهم؟ من الذي حقن دماء العراقيين وهم يواجهون وحش اسرائيل الإيراني؟ من الذي يحقن دماء الفلسطينيين وهم يزالون من وجه الأرض ويصفون على مراحل؟ من الذي حقن دماء سكان استراليا الأصليين؟ من الذي حقن دماء سكان تسمانيا عندما أبادهم الغزاة الإستيطيانيون؟ من الذي يحمي العزل من المسلحين، خاصة متى كان المسلحون أبناء العزل؟

هوامش الخلاصة

- (١) «محاربون ومفاوضون»، ص ٧٥
- (٢) المرجع نفسه، ص ص ٧٥/٧٦
- (٣) المرجع نفسه، ص ص ٧٤/٧٥
- (٤) المرجع نفسه، ص ١٧
- (٥) رسالة مؤرخة في ١٨/١٠/١٩٧٩ وموجهة من رئيس لجنة منظمة الأمم المتحدة المعنية بممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه غير القابلة للتصرف الى أمين عام المنظمة الدولية والى رئيس مجلس الأمن، وثيقة رقم S / A/36/605 (13582) واردة في البشارة رقم ٩ - ١٠ المؤرخة سبتمبر / أكتوبر ١٩٧٩ الصادرة عن الوحدة الخاصة المعنية بحقوق الفلسطينيين، ص ٧
- (٦) المرجع السابق نفسه
- (٧) رسالة مؤرخة في ١٩/٦/١٩٨١، وموجهة الى الأمين العام للأمم المتحدة من القائم بأعمال رئيس لجنة المنظمة المعنية بممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه غير القابلة للتصرف، واردة بالوثيقة (A/36/341 - S / 14566)
- (٨) تقرير لجنة مجلس الأمن المنشأة بموجب القرار ٤٤٦ (١٩٧٩)، الوثيقة رقم (S / 14268) المؤرخة في ٢٠/١١/١٩٨٠، ص ٢١
- (٩) صحيفة الحيروراليم بوست الاسرائيلية عدد ١٢/٢٦/١٩٨٠
- (١٠) تقرير لجنة مجلس الأمن المنشأة بموجب القرار ٤٤٦ (١٩٧٩)، الوثيقة رقم (S / 14268) السابق الإشارة اليها، ص ٢٢
- (١١) Chomsky, Noam The Fateful Triangle, The U S., Israel and the Palestinians, South End Press Boston, 1983, p. 162
- (١٢) Petran, Tabitha The Struggle Over Lebanon Monthly Review Press, N.Y , 1987, pp 239 and 241
- (١٣) Fayez Sayegh, quoted by Petran in The Struggle Over Lebanon, op cit , p 253
- (١٤) Petran, Tabitha, The Struggle Over Lebanon, op cit , p 253
- (١٥) Press report by The Christian Science Monitor vol XXX, Issue 3, 30 - 11 - 1987 to 6 - 12 - 1987, p 15
- (١٦) Tivnan, Edward «The Lobby, Jewish Political Power and American Foreign Policy», Simon and Schuster, N Y , p 29
- (١٧) «محاربون ومفاوضون»، ص ٨٠
- (١٨) المرجع نفسه، ص ٣٩٠
- (١٩) شفيق مقار «العنصرية الجديدة وتثار القرن العشرين»، نشرت مجترة بالرقابة، في «الفكر المعاصر» القاهرة ابريل ١٩٧١، ص ص ٤١/٣٦. وأعيد نشرها كاملة في «المنطق العربي» بعداد، ثم في «لوتس» يوليو ١٩٧٢
- (٢٠) Shahak Israel The Zionist Plan for the Middle East, A.A U G , Belmont, 1982. Partial translation in Palestinian Studies, Summer/Fall issue, 1982 (Issue 44/45)

|

خاتمة

وضعنا الله، أفراداً وشعوباً، في هذا العالم الجميل الخير الذي أضفى عليه من جماله الإلهي وخيره المطلق، وأعطانا العقل والارادة الحرة لنبرر بأفعالنا إستحقاقنا لما أفاض علينا من نعم ورحمة، فنعيش حياة آدمية سوية ونصبح مستحقين في النهاية لرحمة الخالق، أو نجنح وندمر أنفسنا بتخليينا عن العقل. وفي خضم صراعات هذا العالم التي يخلقها الجشع الانساني، لا يمكن للعقل أن يدعو شعباً إلى الموت في سبيل شعب آخر. فليس بوسع أحد أن يدعو مصر إلى الموت في سبيل فلسطين أو في سبيل أي بلد آخر.

ومن هذا المنطلق المنتزع من سياقه الكامل، أمكن للسادات ومن التزموا بخطه ودافعوا عنه القول بأن «السلام» المصري الاسرائيلي كان من أجل مصر، وأن مصر فعلت كل ما استطاعت، فلما لم تقدر على أكثر مما فعلت، جنحت إلى درب السلم، وحاولت أن تفتح ثغرة تعطي الفلسطينيين وكل العرب مخرجاً. لكن العقل الذي لا يمكن أن يدعو شعباً إلى الموت - جسدياً أو اقتصادياً، أو جسدياً واقتصادياً معاً - في سبيل شعب آخر، لا يمكن أن يقرّ اختيار شعب لأن يموت وتمزق أوصال بلده ويحكم - بموته - على كل من حوله من شعوب بالموت.

وإبتداء، يظل السؤال الذي يجب أن يطرح هل يمكن أن يكون هناك «سلام» مع إسرائيل؟ لا لأن إسرائيل شريرة أو عدو غادر أو صنيعة الامبريالية والاستعمار أو لكونها يهودية أو أي شيء من هذا القبيل. بل لأنها المرحلة الأولى الاستهلاكية من غزوة إستيطانية طويلة الأمد واسعة النطاق. وكما قلنا في البداية، ولا يجب أن نكف عن القول، كان مصير كل الشعوب التي تصالحت مع الغزاة الاستيطانيين وكفت عن مقاومتهم، الإبادة. الغناء. الموت. الزوال. الانتهاء.

وهذه حقيقة تاريخية لا جدوى من محاولة التهرب من مواجهتها. وما على من يريد أن يناقشها إلا أن يرجع إلى سجلات التاريخ، وسيجد أن كل شعب أو مجموعة من الشعوب إستسلمت للغزو الاستيطاني أبيدت.

ومن سجلات التاريخ إلى الواقع المعاصر الذي يجري تحت السمع والبصر ما الذي يحدث للشعب الفلسطيني الآن؟ تلاحقه الإبادة. تطارده الإبادة. تتحلقه الإبادة. ويشارك كثيرون في إبادته أو في تسهيل إبادته.

وكما قال كمال حسن علي في كتابه، ظلت أرواح الفلسطينيين مستهدفة حتى من شعوب سياأتي دورها في القريب لتباد هي الأخرى. والفكرة في ذلك بسيطة وواضحة: الفلسطينيون الملاعين هم مجلبة كل هذه المتاعب والحروب والمشاكل والأزمات، فإذا ما زالوا، عاد الاستقرار والسلام إلى المنطقة وعاد كل من فيها إلى معالجة مشاكله والعمل على ما فيه خيره.

ولو كان ذلك ممكناً لبات لمن يمتنون أنفسهم بذلك «الخلاص» منطق يبررون به - مهما كان عارياً من الآدمية والأخلاق - إستعدادهم لافتداء أنفسهم بالفلسطينيين، ويضيفون على تخليهم عن «فلسطين الحبيبة والأرض السليبية» بعد أن فقدت صلاحيتها فيما يخصهم، شيئاً من معقولة ملوثة خسيصة. لكن السخرية متمثلة هنا في أن فلسطين الحبيبة والأرض السليبية ليست إلا الأرض الأولى، المرحلة

الاستهلاكية في الغزوة الاستيطانية الصهيونية لمنطقة الشرق الأوسط. فالشعب الفلسطيني لن يكون الفداء بل سيكون الشعب الذي يجرب فيه السفاحون ومن يناصرونهم أساليب الإبادة الحديثة ويوصلونها إلى حد الكمال. ولا نعني هنا مجرد الذبح والقتل، بل نعني العملية برمتها، ابتداء من تصوير الفلسطينيين كـ «حيوانات تسير على ساقين» كما يسميهم مناحم بيجين، وحشرات إرهابية سامة تتهدد الحضارة كما نعرفها» كما يصورهم «الاعلام العالمي»، إلى استعداد الآخرين، حتى من سوف يأتي دورهم عما قريب، عليهم، وباستخدام الترهيب والترغيب والمصالح و «الديبلوماسية» في إقناع عالم جبان بأن يقف متفرجاً كما وقف والالاف يُذبحون المرة تلو المرة في مخيمات اللاجئين، ويغض الطرف وينسى لأن إسرائيل هي التي تقتل والفلسطينيين هم الذين يُذبحون هذه عملية كبيرة واسعة ومعقدة ويتعين على إسرائيل ومعاونيها أن يتقنوا تنفيذ كل مرحلة من مراحلها لتجري تحت ستار من «الشرعية الدولية» أو كما يقول المحارب المفاوض «تحت عين العالم الفاحصة». ومن هناك أفضل من الفلسطينيين لاجراء التجربة فيهم وتحسين الأساليب وتطويرها في غمار العملية الطويلة المتحضرة لآبادتهم؟

وها هي إسرائيل، في سياق التجربة، قد أتقنت تكتيكات جديدة لإبادة الشعوب التي تريد أراضيها. ففي لبنان، جرّبت وطوّرت إسرائيل منهجاً جديداً للإبادة يمارسه الضحايا لحسابها فيذبحون بعضهم بعضاً ويمزقون وطنهم - تحقيقاً لاستراتيجيتها - إرباً. وهي الآن جاهدة، باعتراف أوديد بينون، في استخدام الأساليب التي استحدثت وجرّبت وطوّرت في المعمل اللبناني، في تمزيق أوصال جثة مصر بالكراهيات الدينية.

فالفلسطينيون لن يأخذوا «الخلاف العربي الإسرائيلي» معهم ويذهبوا عندما تزيحهم إسرائيل من وجه البسيطة وترفع عنهم عن صدور كثيرين في المنطقة لأن «الخلاف» ليس على فلسطين، بل على المنطقة كلها، من مصر إلى العراق، ثم من المشرق إلى المغرب، ثم من شمال أفريقيا إلى الخط المتفق عليه لالتقاء الحركة الصهيونية - في غمار التحالف المرحلي مع الأمميين - بالحركة الفاشية الجديدة التي تفعل في الجنوب الأفريقي ما تفعله إسرائيل في غرب آسيا وما سوف تفعله في شمال أفريقيا. و «الخلاف» ليس على الحدود، كما يتصور الفريق أول لأن الحدود لن ترسم في حياته المديدة وربما في حياة أولاده وأحفاده. الحدود سترسم فيما بعد، عندما تكون مراحل الغزوة الاستيطانية قد استكملت وهذا الوحش المسعور قليلاً ريثما يهضم ما ابتلع ليستعد لوثبته الكبرى التالية. و «الخلاف» ليس على قطعة أرض هنا أو قطعة أرض هناك. بل هو «خلاف» على البقاء ذاته لا أقل. لأن الأرض مطلوبة، والموارد مطلوبة، كمصادر المياه المطلوبة، وأصحاب الأرض والموارد ومصادر المياه غير مطلوبين، اللهم إلا إذا استخدموا

وإن بدت الرؤية أشد وحشية من أن تصدّق، فلنرجع إلى التوراة، وسنجد أن إله إسرائيل علّم إسرائيل قائلاً: «متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وطرّد أصحابها من أمامك وضربتهم فإنك تحرّمهم (تبيدهم). لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم» (سفر التثنية ٧: ١ و٢)، وسنجد أيضاً أن «حدود» تلك الأرض تعيّن بميثاق إلهي: «في ذلك اليوم قطع الرب مع إبراهيم ميثاقاً قائلاً: «لنسلك أعطي هذه الأرض. من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات» (سفر التكوين ١٥: ١٨).

وإن بدا لنا أن «هذه تواريخ قديمة» لا صلة لها بما هو حادث اليوم وما سوف يحدث غداً، فلنلق بالسمع إلى الحاخام موشي لينفجر، وهو من كبار زعماء كتلة المؤمنين «جوش ايمونيم» بإسرائيل:

«إنه ما من سبيل إلى الفصل بين الصهيونية وأصولها التوراتية التي تؤكد حتمية قيام ملك التوراة (مملكة صهيون) على الأرض فالفصل بين الصهيونية والتوراة لا مؤدى له إلا ذبول الصهيونية وموتها، كأي نبات يجثّ من جذوره

«إن الصهيونية لا تغلّ حركتها بأغلال التفكير العقلاني الإنسي، ولا تشغل نفسها بمقتضيات السياسة العملية، أو العلاقات الدولية، أو الرأي العام العالمي، أو الديناميكيات الاجتماعية، أو الاعتبارات الديموغرافية، أو أي شيء من ذلك القبيل فهي منصرفة عن كل ذلك إلى تنفيذ تعليمات الإله، وليس هناك في هذا العالم ما له أدنى قيمة، فيما يخصها، إلا الميثاق الذي قطعه الإله مع إبراهيم كما ورد في سفر التكوين».

خاتمة

وبعد أن نفكر قليلاً في كلام الحاخام، يحسن أن نعيد قراءة ما قاله أوديد بينون في استراتيجية الحركة الصهيونية لمنطقة الشرق الأوسط عن أفول عصر التفكير العقلاني الإنسي وبزوغ عصر الغابة وصراع البقاء، وبقاء «الأصلح» والأقل تورعاً. فقد يساعدنا ذلك على أن نفهم الأمور كما هي في الواقع لا في التهويم.

وإذا فهمنا، قد ندرك أن موت أي شعب عربي لن يفقدي بقية العرب. أن موت الفلسطينيين أو اللبنانيين أو من سوف يأتي دورهم ليزبحوا على مذبح بقاء إسرائيل لن يفقدي شعب مصر. لأن شعب مصر مدرج على القائمة. بل هو في الحقيقة على رأس القائمة. وإسرائيل لن تنسى أنه موجود ولن تغفر له أنه موجود على أرضه. ولن تأخذها به شفقة عندما يحين وقت الذبح والإبادة، أو بالأحرى لن تأخذها شفقة بالفلول القليلة التي ستكون قد تبقت منه بعد أن تكون الاستراتيجية الإسرائيلية قد نفذت بنجاح وذبح المصريون بعضهم بعضاً باسم الله وباسم التدين لحساب إسرائيل والولايات المتحدة. فالدم الذي تنبأ السادات، إثر شروعه في إسكات جبهة مصر لحساب إسرائيل والولايات المتحدة سنة ١٩٧٧، بأنه «سيسيل الآن أنهاراً في لبنان وسوريا»، سيسيل أنهاراً في مصر.

إن إسكات جبهة مصر على يد السادات لم يكن إنقاذاً لـ «أبنائه» من إراقة دمائهم أو إنقاذاً لمصر من خراب كان يعلم أنها لا إنقاذ لها منه إلا بزوال نظامه، بل إرغاماً لمصر على أن توقع الرسالة التي يتركها المنتحر وراءه ليعفي الآخرين من تهمة قتله.

يقول أوديد بينون في دراسته البشعة أن مصر قد ماتت وأنه لم يبق على إسرائيل - بعد أن فتح السادات الحدود وطبع العلاقات - إلا أن تعمق أوصال الجثة لكي تضمن ألا تقوم لمصر قائمة بعد ذلك أبداً.

وذلك تحديداً هو ما سوف يحدث ما لم يخرج المصريون اليوم قبل الغد من عالم الوهم المعيت الذي غيبيهم فيه الزعيم الخالد والزعيم المؤمن. لقد بذل الزعيمان كل ما وسعهما من جهد في قتل مصر ليظل نظامهما مستمراً، ولو على أشلائها، لأطول وقت ممكن.

وإذا ما نجح الأصدقاء الاسرائيليون والأميريكيون في تقطيع أوصال مصر، سينهار العالم العربي كله وتعمق أوصاله، لأنه لا بقاء للعالم العربي بغير مصر ولا بقاء لمصر خارج العالم العربي أو على أشلاء العالم العربي.

ولننظر حولنا. إن هذا ليس عصر التفتت، إنه عصر التكتل والتكامل، حتى بالنسبة للمتقدمين الأقوياء الأثرياء. إن دول أوروبا الغربية مستميتة في السعي إلى الوحدة والتكامل، طلباً للبقاء في مواجهة تحديات القرن الحادي والعشرين. ودول أوروبا الغربية ليست متمتعة بما يتمتع به العالم العربي من وحدة اللغة والثقافة وليست مواجهة - حتى الآن وإلى أن يأتي دورها في المخطط الصهيوني لإقامة ملك التوراة على الأرض - بالهجمة الشرسة التي يواجهها العالم العربي. لكن تلك الدول، رغم اختلاف اللغات والتاريخ وطريقة الحياة، بل ورغم الحزازات القديمة وتضارب المصالح، مستميتة في السعي صوب وحدة أوروبية تلم شملها.

ولنقرأ ثانية استراتيجية بينون وما يكتبه غيره من الصهاينة الذين يخططون لليوم وغداً وتفلت كتاباتهم فتصل إلينا متى نشرت وترجمت فنكلف أنفسنا مشقة قراءتها والتفكير فيها. وسنجد أن التركيز اللحوق من جانب أولئك الاستراتيجيين الصهيونيين منصب على وجوب تفتيت العالم العربي. لا تفتيته إلى دول متعادلة متناحرة فحسب، بل وتفتيت كل دولة من دوله إلى كيانات صغيرة متعادلة متناحرة تنهش بعضها بعضاً.

ولقد نتساءل - ونحن في مخاضة اليأس الذي بات مخيماً على المنطقة - وما الذي يستطيع أي بلد عربي أن يفعله؟

والرد على ذلك التساؤل وارد فيما كتبه بينون ويكتبه غيره. لأن انشغال هؤلاء الاستراتيجيين الاسرائيليين بتفتيت العالم العربي لا مؤدي له إلا أن بقاء العالم العربي متماسكاً وقائماً خطراً على بقاء إسرائيل. وانشغال كل من إسرائيل والولايات المتحدة بتفتيت كل بلد عربي إلى كيانات صغيرة ضعيفة

مناقلة فيما بينها انشغال قد تخطى بكثير مقولة السياسة الاستعمارية القديمة «فرق تسد»، وبات قائماً على مقولة جديدة «فتت تبذ».

ان الولايات المتحدة الأميركية التي يلوذ كثيرون بحماها ويتصورونها الله وقد نزل إلى الأرض في طريقها إلى الاضمحلال والانسحاب من المكانة المضخمة التي احتلتها منذ خرجت من الحرب العالمية الثانية منتصرة على حلفائها قبل خصومها. والاستراتيجي الاسرائيلي نفسه قد أفلتت منه في دراسته عبارات تفصح عن إدراك إسرائيل لهذه الحقيقة، كقوله «ولسوف يؤدي أضعاف الولايات المتحدة داخلياً وخارجياً إلى إحداث ذلك التغيير».

والنظام العالمي برمته أخذ في التغير والتحول في ظل المتغيرات عميقة الأثر سريعة الايقاع التي بات الفهم يحار فيها والعقل يلهث وراءها محاولاً إستجلاء غوامضها ومتريباتها. وفي ذلك الخضم من التغير، لا بقاء لأحد وهو صغير ضعيف ومفتت. وإن لم يكن لشيء فلان العدو يركز على أنه لن يعيش ويبقى ويستمر إلا إذا فتتت العالم العربي وماتت تفتتاً واقتتالاً، يجمل بالعرب جميعاً، وفي قلبهم مصر، إن كانوا يريدون البقاء، أن يوقفوا التيار المميت صوت التفتت والاقتتال قبل أن يصبح موجة مد لا سبيل إلى إيقافها تجتاح الجميع وتلقي بهم جثثاً تصعد نتانتها إلى عنان السماء فيتنسم يهوه رائحة الرضى ويزهر القفر كالنرجس فرحاً كما جاء في سفر إشعياء.

وفي النهاية، لا مهرب من التسليم بأن الشعوب القادرة على البقاء الراغبة فيه والقادرة على متطلباته، هي دائماً التي تبقى. أما غيرها فزبد تطيره أعاصير التاريخ.

٢٨٥ ، ٢٦٩ ، ٢٦٨	باراك، هارون
٧٦	باربر، ستيعن
٨٦	باربور، والورث
١٥٤	بارزوهار، ميخائيل
٢٨٠ ، ٢٣١	الباز، أسامة
١١٤	باننش، رالف
٢١٨	بترارك
٩٣ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ٩٩	بدران، شمس
١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٢ -	
١١٤	
٢٣١	البرادعي، محمد
١٤٩	برونينج، هايريش
٧٩	بريا، لافرنتي
٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٨	بريجنيف، ليونيد
٦٦	الجزري، عميف
٨٠ ، ٦٢ ، ٦١	البسيوني، حمرة
١٦٢	البشري، عبد الوهاب
٧٤	بغدادى، ابراهيم
١١٤ ، ١٠٦ ، ٤٦	البغدادى، عبد اللطيف
١٢٩ ، ١٤١ - ١٤٣	
١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٩	
٢٦٨ ، ١٧١	
٨٧ ، ١١٣ ، ٢٥٥	بن جوريون، ديفيد
٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٩٤	
٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٣	
٢١٧	
٥٨ ، ٦١ ، ٢٠١	البناء، الشيخ حسن
١٢٧	بهاء الدين، أحمد
٢٠٥ ، ٢٢٨	بودجورني، ميقلوي
٢٥١ - ٢٥٣	بورقبيبة، الحبيب
٨٥	بول، جورج
١٥٤ ، ١٤٩	بولوك، آلان
	بومدين، هوارى (الرئيس
٢٢٢	الجزائري)
١٢ ، ١٦٨ ، ١٦٩	بيجين، مناحم
١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩	
٢٢١ ، ٢٣١ ، ٢٥٠	

- ١ -

١١٤ ، ١١٥ ، ١٤٢	إبراهيم، حسن
١٥١	
٥٧	أبو العطا، عبدالعظيم
١٦٥	أبو علي، عمر
١٤٨	أبو نار، محمد
١٩٤	أبو النور، عبد المحسن
٢٠١	أبو وافية، محمود
٤٧	أتاتورك، كمال
٧٣	آتلي، كلمنت
٨٠ ، ١٥٦	أحمد، أنور
٢٤٩	آدامز، جون
٨٧	أديناور، كونراد
٢١٨	أراسموس
٧٠	أرسكين، الجبرال
	حافظ الأسد (الرئيس
٢٥٧ ، ٢٤٦ ، ١٦٩	السوري)
	الاسكندر الأكبر (الفتح
٩٥	المقدوني)
٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٤٠	اسماعيل، الفريق أحمد
٢٤٤ - ٢٤٦	
٢٢٦ ، ٢١٨	اسماعيل، حافظ
٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٧	اشكول، ليفي
٢٣٩	العازر، ديفيد
٢٥٧	اللون، ايحال
٧٩	امام، عبادت
١٦٣	أمين، مصطفى
٢٦٥	أندرسون، روبرت
٢٤٤ ، ٢٤٥	أوبالانس، ادجار
٢٣١	أوين، د. ديفيد
٩٨	ايبان، آبا
	ايزنهاور، الجنرال دوايت
٤٦ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٥	(الرئيس الاميركي)
٨٧ ، ٢٠٢	
٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠	إيدن، سيد انطوني
٢٦١ ، ٢١٧	ايلتس، هرمان
	- ب -
١٩٢	بيلتل، لوشياس

١١٨ ، ١١٧ ، ١١٢

١٩٣ ، ١٨٦ ، ١٨١

الجمعي، محمد عبد العبي

(الفريق الأول) ٢٦٨ - ٢٧٠ ، ٢٨٥

٢٩١

- ح -

حافظ، سليمان ٤٦ ، ٤٥

حداد (اله الأراميين) ٢٩

حداد، سعد ٣٠٩

حزقيال، المتسبب وسببه

العصري ٣٠

الملك الحسن ٢٥٣ - ٢٥٦

حسن، الفريق طلعت ٢٢٨

الملك حسين ١٠٢ ، ٢٤٨ ، ٢٥٦

٢٦٩

حسين، أحمد ١٢٩ ، ١٤٠

حسين، كمال الدين ١١٤ ، ١٦٠ ، ٢٠٠

الحفناوي، الدكتور

مصطفى ١٤٠

الحكيم، توفيق ١٢ ، ٨٢ ، ١٣٦ ، ١٣٧

الخوراني، أكرم ١٣٦

حمروش، أحمد ٧٢ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١٠٨

١١٠ ، ١١١ ، ١١٥

١١٧ ، ١٥٠ - ١٥٣

- خ -

الملك خالد (ومعارضته في

وجود عررا وايزمان في

القاهرة) ٢٦٩

خليل، د مصطفى ٢٦٩

الخولي، حسن صبري ٦٤

الخميني، روح الله ١٨٢

- د -

دارون، تشارلس ٣١٦

داود، ضياء الدين ١٧٤ ، ١٩٤ ، ١٩٥

دالاس، جون فوستر ٧٥ ، ١٩٢

الدجوي، الفريق محمد

فؤاد ١٥١

دنيس، وولتر ٢٣١

دوير، هنداي ٨٠

ديان، موشي ١٣ ، ١٦٧ - ١٦٩

٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠

٢٦٨ - ٢٧٠ ، ٢٨١

٢٨٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠١

٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣٢٤

١٧٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٢

٢٢٤ ، ٢٦٦

بيرجنسكي، رينيف ٢٢١

بيرنز، جون ١٢٢

بيفن، أرنست ٧٣ ، ٦٨

بيريز، شمعون ٢٩٢

بينوشيه، الجنرال ١٧٥ ، ٦١

- ت -

ترومان، هاري (الرئيس

الأميركي) ٢٤٩

تريفيليان، سير همفري ٧١

تشاوشيسكو، نيقولا

(الرئيس الروماني) ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٣١

تشرشل، سير وينستون ٦٧ - ٧٩ ، ٧٣ ، ٧٧

تشرشل، رودلف

وينستون ٧٦ ، ٩١ ، ١٠٦ ، ١٢٤

١٢٥

تشومسكي، د. ناعوم ٣١٥

التهامي، حسن ٧٤ ، ١٤٥ ، ٢٥٥

٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٩٣

توفيق، حسين ١٦٤ ، ١٦٥

تيتو، جوزيف بروز

(الرئيس اليوغوسلافي) ١٦٠ ، ١٦١ ، ٢٠٦

٢٠٧

- ج -

جروميكو، أندريه ٢٠٥

جريتسكو، المارشال ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١٠٦

جرين، ستيفن ٨٧ ، ٨٨

جمعة، شعراوي ٦٢ ، ١٠٧ ، ١٥٠

١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٩٤

١٩٥

جنتيلي، جيوفاني ١٤٧

جوبلز، بول جوزف ٥٦

جونسون، ليندون

(الرئيس الأميركي) ٧٦ ، ٨٥ - ٨٧ ، ٩٠

٩٢ ، ٩٩ - ١٠٤

٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ،
٢٢٦ - ٢٢٨ ، ٢٣١ ،
٢٢٢ ، ٢٤٣ ، ٢٦١

رياض، الفريق عند المصم ١٠٣
ريكي، الجبرال ٨٨ ، ٨٩

- ز -

زكريا، د. مؤاد ٤٣ - ٤٥ ، ٥٦
زكي، حسن عباس ١٦٠

- س -

سارتر، جان بول ١٢
السادات، محمد أنور
(انظر أيضاً الحاكم،
الرئيس، الزعيم، العمدة)
١١ ، ١٣ ، ١٨ ، ٢٨ ،
٢٣ - ٣٥ ، ٤٣ - ٤٦ ،
٥١ - ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ،
٧٠ ، ٧٢ ، ٧٩ ، ٨٠ ،
٨٣ ، ٨٨ ، ٩٥ ، ١٠٨ ،
١١٢ ، ١١٦ ، ١٢٩ ،
١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٤٢ -
١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ -
١٥٢ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،
١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٨ -
١٧٦ ، ١٨٣ ، ١٨٧ ،
١٩٣ ، ١٩٣ ، ١٩٤ -
٢٠٥ ، ٢٠٧ - ٢٢٧ ،
٢٢٩ - ٢٧٠ ، ٢٨٠ ،
٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ،
٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ،
٢٩٢ ، ٢٩٩ - ٣٠٢ ،
٣٠٩ - ٣١٢ ، ٣١٧ ،
٣٢٠
٤٣ - ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٣ ،
٥٩ ، ٨٠ ، ١٣١ ، ١٤٢ ،
١٥١ ، ١٧١ ، ١٧٣ ،
١٧٤
٥٨ ، ٥٩ ، ١٤٢ ، ١٥١ ،
٢٥٢ ، ٢٦٨
١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،
٢٦٨

سالم، جمال
سالم، صلاح
سالم، معدوح

٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٥٣ -
٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦ ،
٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٣٠١

الديب، كمال ٦٤
ديجول، شارل (الحرال) ٩٢ ، ١١٢
ديكيز، تشارلس ٤٨
ديماس، الكساندر ١٢٧
دي ميل، سيسيل ٤٧ ، ٤٨

- ر -

رابين، اسحق ٣٦ ، ٣٧ ، ٨٨ ، ٩٧ ،
١٧٩ ، ٢٥٧ ، ٢٩٢
راقب، د عائشة ٢٥٨
راسك، دين ٨٦ ، ٩٠ ، ٢٠٧ ، ٢٢٢
رزق، فتحي ١٤٨
رشاد، يوسف ١٧٢
رضوان، فتحي ٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٦٠ -
٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٥ ،
٨٤ ، ١٣٠
٨٠
رمضان، وحيد الدين حودة ١٥٢
روبسبير ١٥١
روجرز، ويليم ٢٤ - ٣٦ ،
١٧٥ - ١٧٧ ، ١٧٩ ،
١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ،
١٨٥ - ١٩٤ ، ٢٠٢ ،
٢٠٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٤
١٦١
١١٧
١١٣
١٠١
روزفلت، د فرانكلين
(الرئيس الاميركي)
٦٩ ، ٧٣
٧٦ ، ٨٤
٢٤ - ٣٦ ، ٧٠ ، ٧١ ،
٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
٨٦ - ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ،
٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ،
١٠٥ ، ١١٢ ، ١١٧ ،
١١٩ ، ١٦٩ ، ١٧٦ ،
١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٠٦ ،

روديسون، مكسيم
روستو، يوجين
روستو، والت
رولو، اريك
روزفلت، د فرانكلين
(الرئيس الاميركي)
روزفلت، كيرمت
رياض، محمود

قتل مصر

سام بن نوح (انظر سامية) ١٢

٢٥٨	السايج، د حامد
١٢، ١٥٣، ٢٢٤	السباعي، يوسف
١٨٤ - ١٨٧	سبيجل، ستيفن
١٨، ٧٩، ١٨٠	ستالين، جوزف
٦٩	ستيغنسسون، سير رالف
١٨١، ١٨٨	سكرانتون، ويليم
٢٠٨، ٢١٢	سرور، نحيب
٥٩، ٦٠	سعدة، صلاح ابراهيم
١٨، ١٢٤	سعود (الملك)
٢٦٦	سعود الفيصل (الأمير)
٩٥ - ٩٧، ١٠٦، ١٦٢	سليمان، صدقي
	السنهوري، د عبدالرزاق
٧٥، ١١٥، ١١٦	السنهوري
١٤١، ١٥٠	
٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٤	سوندرز، هارولد
١٨٧، ١٩٢ - ١٩٤	سيسكو، جوزف
٢١٤	

- ش -

٢٢٥ - ٢٣٠، ٢١١	الشاذلي، الفريق سعد
٢٣٥، ٢٣٨، ٢٤٢ - ٢٤٥	
١٠٨، ٢١١، ٢٢٣	شارون، اريل
٢٤٣ - ٢٤٥، ٣٠٠	
٢١٢، ٣٠٥	
٢٨٠	شاريت، موشي
٦١، ٩٥، ١١٢، ١٥١	الشافعي، حسين
١٥٢	شاكر، امين
٣١٥	شاهك، اسرائيل
٢٢١	شترنجر، جوليس
١٥٠، ١٥٣، ١٧٣	شرف، سامي
١٩٤، ١٩٥	

الشريف، عمر

١٥٠	(المستشار)
١٠٦، ١١٣	شفيق، علي
١٧٤	شفيق، د. لبيب
٥٧	الشوربجي، عبدالعزيز
٧٦	شمعون، كميل
١٩٦	شميث، هلموت
٣١٨	شيلر، يوهان فردريك فون

- ص -

٢١٧، ٢٢٥	صادق، الفريق
١٣٤، ١٣٦	صاوي، احمد صاوي
٣١٠	صايغ، فايز
٦٤ - ٦٦	صبري، حسين ذو الفقار
٦٢، ٦٦، ٧٠، ٧٢	صبري، علي
٧٥، ١١٢، ١٧٢	
١٧٤، ١٧٥، ١٩٢ -	
١٩٤، ٢١٦، ٢٢٧	
٢٦١، ٢٦٧	
٥٢ - ٥٥، ٥٧	صبري، موسى
٧٩ - ٨١، ١٢٩	
١٣٠، ١٣٧، ١٤٤	
١٤٥، ١٤٨، ١٦٣	
١٦٥، ١٧١، ١٧٣	
١٧٥، ١٩٤، ١٩٥	
٢٠٠، ٢٠١، ٢١٧	
٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٦	
٢٤٢ - ٢٤٤، ٢٤٦	
٢٥١، ٢٥٢، ٢٦١	
٢٦٦، ٢٨٣	

صدام حسين (الرئيس

٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦٣	العراقي)
٣٠١	
٦٨	صدقي، اسماعيل
٥٨ - ٦١، ٧٥، ١٣٠	صديق، يوسف منصور
١٦٠	

- ط -

٢٠٠	الطحاوي، إبراهيم
٧٥	طراف، نور الدين
١٩٥	طلعت، حسن
٧٤	طولان، فريد

- ع -

٥٨	عاشور، حمدي
٢٠٠	عاشور، الشيخ
٥٩، ٦٠، ٦٧، ٢١٦	عامر، حسين سري
٢٥٥	
	عامر، المشير/ الصاغ
٥١، ٥٥، ٥٦، ٥٩	عبدالحكيم
٦٢، ٧٥، ٧٧	

قتل مصر

لودكه، كورت	١٤٩	كافري، حيفرسون	٥٨، ٦٩، ٧٠، ٧٤
لومومبا، باتريس	١٠٩		٨٥، ٧٥
ليرد، ملعين	١٨٩، ١٩٠	كارتر، جيمي (الرئيس	
ليفنجر، الحاخام موشي	٣٢٤	الأميركي)	٢٨، ٣٣، ١٦٩، ٢٢٢،
			٢٣٢، ٢٣٦، ٢٥٠،
			٢٥٧، ٢٦١، ٢٦٩،
			٢٨٠ - ٢٨٥، ٢٩٤،
			٣٠٩، ٣١٣، ٣٢٠
		كامل، رشاد	٨٠
		كامل، سعد الدين	١٦٥
		كامل، محمد إبراهيم	٧٤، ١٦٤ - ١٦٦،
			١٩٥، ٢١٧، ٢١٨،
			٢٢٣، ٢٢٤، ٢٤١،
			٢٤٧، ٢٤٨، ٢٦٢،
			٢٦٦، ٢٦٨ - ٢٧٠،
			٢٨٣، ٢٨٦
		كاهانا، الحاخام مائير	٢٨، ٢٨٥، ٢٩١
		كالاهان، جيمس	٢٣١
		كرايسكي، برونو	١٩٦
		كروتشي، بنيديتو	١٣٨
		كنعان (الاسم التوراتي	
		لفلسطين والفلسطينيين)	١٢، ٢٥٥
		كندي، جون فيتزجيرالد	
		(الرئيس الأميركي)	٧٦، ٨٧، ٢٤٩
		كوبلاند، مايلز	٧٦
		كوريل، هنري	١٨
		كوسيجين، اليكسي	٩٨، ٩٩، ٢٠٥
		كوهين، غولا	٢٨٠
		كويسنج، الخائن	
		التروجي	٢٨٨
		كيسنجر، العزيز هري	٣٥، ٣٦، ١٧١، ١٧٦،
			١٧٧، ١٧٩، ١٨٠،
			١٨٢، ١٨٥ - ١٩١،
			١٩٦، ١٩٨، ١٩٩،
			٢٠٢، ٢٠٨، ٢١٢،
			٢١٤، ٢٢٦، ٢٢٢،
			٢٣٦، ٢٤١، ٢٤٦،
			٢٤٧، ٢٦٦، ٢٨٢،
			٢٩٢

- ل -

لطف الله، المستشار ١٥٠

- ن -

نابوليون والنابوليونيات ٩١، ١٠٨، ١٠٩، ١٥٤

٦٤	الهضيبي، حس	٢٦٢	ناتينج، سير انطوني
	همفري، هيوبرت (بائب)	١١٤، ١٠٦	نافع، عبد الرؤوف
١٠١	الرئيس الاميركي	١٥٢، ١٥٣	النحاس، مصطفى
١٢٠	هود، الجنرال	١٦٥	(الرعيم المصري)
١٥٠، ٩٧	هويدي، امين	٤٣، ٤٥، ٤٦، ٧٥	نجيب، محمد (اللواء)
٢٢١، ١٧١	هيت، ادوارد	٧٧، ١١٦، ١٢٠	
٢٥٩	هيرست، ديفيد	١٢٦، ١٢٤، ١٣١	محنته ومحنة لودندورف
٢٢١	هيسلوب، ماكسويل	١٤٠	مع هتلر
٤٨، ٤٤، ٤٣، ٢١	هيكل، محمد حسين		اول صحية لوحداية
٦١، ٥٤، ٥٣، ٥١		١٤٠ - ١٤٢، ١٧٢	الرعيم الخالد
٧٤، ٧٣، ٧٠، ٦٩		١٩٢	
١٤٤، ١٣٧، ٧٧			نصر، (انظر ايضاً بريا،
١٧٤، ١٧٢، ١٧١		٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٢	هيملر)
٢٠٣، ١٩٤، ١٧٦		٧٨، ٨٠، ٨١، ٩٥	
٢٣٤		١٠٨، ٢٦٨	
- و -		٢٠٤	النميري، جعفر
١٦٢	واكد، لطفي	١٠٠	نولتي، ريتشارد
٣٠٩	وايزمان، حايم		نيكسون، ريتشارد
٢٦٦، ٢٢١، ٢١٢	وايزمان، عررا	٧٥ - ١٧٧، ١٧٩ -	(الرئيس الاميركي)
٢١٠، ٢٨٥، ٢٦٧		١٩١، ١٩٦، ١٩٨	
	ويلسون، وودرو (الرئيس	٢٠٢، ٢٠٧ - ٢٠٩	
٧١	الاميركي)	٢١٢، ٢١٤، ٢١٨	
٢٤٩	وينتروب، جون	٢٢٢، ٢٢٦، ٢٤٦	
- لا -		٢٥٠	
٢١	لاوي (لبي)		
٦٧	لامبسون، سيرمايلز	- ه -	
٢٣٤، ١٧٦، ٢٥	يارنج، جونار	١٣٢	هاردى، كير
٢٥	يشوع بن نون	٨٦	هارمان، افراهام
١٠١، ٩٢، ٨٩، ٨٨	يوانت	٢٢١	هاكوهين، الدكتور
١١٤، ١٠٢		٢١٨	هاي، جون
- ي -			هدد رمون (انظر ايضاً
٣١، ٣٠	يوسف	٢٩	حداد اله الاراميين)
١٢٩	يوسف، محمد	٢٢١	هرتسل، تيودور
١٦٢	يونس، محمود	٣٠	هرون
٢٢٤، ٢١٧، ٢١٥	يينون، اوديد	٤٣، ٩١، ١٤٩، ١٥٤	هتلر، ادولف
٢٢٥		١٥٥، ١٩٢، ١٩٣	
		٢٢٧	

فهرس الأمكنة والمدن والدول

- ١ -

٢٢٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢١	
٢٦٩ - ٢٣١ ، ٢٢٧	
٢٧٩ - ٢٩٩ ، ٢٩٥	
٢٢٥ - ٢٢٣ ، ٢٢٠	
٢٨٠ ، ٢٦٠	الاسكندرية
٢٤٠ ، ٢٣٦ ، ٨٤	الاسماعيلية
٢٨٣ ، ٢٨١	
٢٣٦ ، ١٤٩ ، ١٤٨	اسوان
٢٨٥ ، ٢٨٤ ، ٢٤١	
٣٠٥	
٢١٦ ، ١٧٨	افريقيا
١٧٢	البانيا
١٧٤	المانيا الشرقية
٢٢٣ ، ١٠٥ ، ١٠٢ ، ٨٧	المانيا الغربية
٢٦٧ ، ٦٩	المانيا الهتلرية
٢٤٦	الامارات، دولة
١٩٥	اميركا اللاتينية
	«اورشليم الجديدة» -
	اميركا (انظر أيضاً
٢٤٩ ، ٣٣ ، ٢٠	«اسرائيل هذا الزمان» -
	اورشليم، «بيروشلليم»
٢٦	(انظر القدس المحتلة)
١٧٢	اوروبا الشرقية
٢٣٧	اوروبا الغربية
١٨٢ ، ١٧٩ ، ١٧٨	ايران
٣١٦ ، ٢٦٦ ، ١٨٥	
٢٢٠	
٢٦٧ ، ١٤٦ ، ٦٩	ايطاليا الفاشية

- ب -

٢٥٣ ، ٩٨ ، ٥٠	باريس
٦٨	برقة
٥١ ، ٤٩ ، ٤٧ - ٤٥	بريطانيا
٧١ ، ٦٩ ، ٦٧ ، ٦٦	
٨٩ ، ٨٥ ، ٨٤ ، ٧٣	
١٧٨ ، ١٧٥ ، ١٣٩	

٥٩	ابو عجيبة
٥١ ، ٤٦ ، ٣٥ ، ١٩	الاتحاد السوفياتي
٨٥ ، ٧١ ، ٦٩ ، ٦٦	
٩٨ ، ٩٢ ، ٨٨ ، ٨٦	
١٠٥ ، ١٠٤ ، ١٠٠	
١١٥ ، ١١٤ ، ١٠٩	
١٧٥ ، ١٧٢ ، ١١٧	
١٨١ - ١٧٩ ، ١٧٧	
١٨٧ ، ١٨٥ ، ١٨٤	
٢١١ - ٢٠٤ ، ٢٠٣	
٢٣٠ - ٢١٤ ، ٢١٣	
٢٤٠ - ٢٣٧ ، ٢٣٢	
٢٦٧ ، ٢٦١ ، ٢٥٩	
٣١٨ ، ٣١٢	
٦٥	اثينا
٢٢١ ، ١٦٨ ، ٨٧	الأردن، شرق - الضفة
٢٦٩ ، ٢٥٦ ، ٢٢٣	الشرقية
٣١٩ ، ٢٨٠	
٢٩٠ ، ٢٦٩ ، ٢٢	— نهر
٣١٢ ، ٣٠٠	
٣٠٧	— وادي
١٠٢ - ١٠٤ ، ١٣٢	اسبانيا
٢٦٧	
٢٢٨ ، ١٢٩	استراحة القناطر
٢٢٠ ، ٢٢٠	استراليا
٣١٤ ، ٢٨٠	اسرائيل الكبرى
	«اسرائيل هذا الزمان»
	(اميركا) (انظر أيضاً
٢٤٩ ، ٣٣ ، ٢٠	«اورشليم الجديدة»
٤٥ ، ١٩ - ١٧ ، ١٢	إسرائيل، الدولة اليهودية
٧٢ ، ٦٦ ، ٥٣ ، ٤٦	
٨١ ، ٧٨ ، ٧٦ - ٧٤	
١٠٢ - ٩٧ ، ٩٥ - ٩١	
١٠٩ ، ١٠٧ ، ١٠٦	
١٦٩ ، ١٥٧ ، ١٣٠	
١٨٧ ، ١٨٥ - ١٧٦	
١٩٨ ، ١٩٤ ، ١٩١	
٢١٩ - ٢١٥ ، ١٩٩	

قتل مصر

٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٣٠١

٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١٢

٣١٣ ، ٣١٨ - ٣٢٠

- ش -

شبرا الخيمة ١٠٧

شرق المضائق ٢٤٢

شرق المتوسط ٩٩

شرم الشيخ (انظر نصيحة

بورقية)

٨٢ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢

٩٤ ، ١٠٨ ، ١١٤

٢٨٨ ، ٢٥٢

- ص -

الصين ٢٢٧ ، ٢٠٩

- ظ -

ظفار ١٨٩ ، ١٧٨

- ع -

العريش ١١٣ ، ٦٠

عكا ٩١

العلمين ٢١

عمان ٢٨٠ ، ١٠٢

عنقبيه ٢٢٤

- غ -

غرب آسيا ٢٢٤

غرب القناة (انظر أيضاً

الاحتراق، الشعرة) ١١٦ ، ٢٢٧ - ٢٣٠

٢٢٥ ، ٢٤٠ - ٢٤٧

٢٦١ ، ٢٨٤ ، ٢٩١

الغردقة ٩٥

- ض -

الضفة الشرقية لقناة

السويس

٢١٧ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨

٢٣٥ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ -

٢٤٦

الضفة الغربية المحتلة ٢٠٩ ، ٢١٥ ، ٢٤٧

٢٦٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٢

١٨٥ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠

٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٠

٣١١ ، ٣١٤ ، ٣١٩

الضفة الشرقية (الأردن) ٢٨١ ، ٢٩٤ ، ٣١٣

٣١٥ ، ٣١٩

عزة ٢١٥ ، ٢٤٧ ، ٢٨٢

٢٨٥ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠

٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٠

٣١١ ، ٣١٤

- ف -

فاس ٢٥٣ ، ٢٥٥

الغالوجا ٢١

فرنسا ٤٥ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٦٨

٨٤ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ١٠٦

٢٨٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٧

فلسطين ١١ ، ١٢ ، ١٧ ، ١٩

٢١ ، ٢٥ ، ٦٨ ، ٧٤

١٥٨ ، ١٧٥ ، ٢١٥

٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣

٢٦٤ ، ٢٨٧ ، ٢٩

٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨

٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣

٣٢٣ ، ٣٢٤

الفلبين ٦١ ، ٨٩ ، ١٨٠

فييت نام ٧٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٥

- ق -

القاهرة ٥٠ ، ٦٧ ، ١٧٤

٢٦٨ - ٢٧٠ ، ٢٨١

قبرص ٦٨ ، ٢٢٤

قبة ٢١٥

القدس المحتلة (انظر

أيضاً ديسلايم)

١٢ ، ٢٦ ، ٨٦ ، ١١٤

١٦٨ ، ١٦٩ ، ٢٢٣

٢٢٥ ، ٢٢٣ ، ٢٥٦

٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٨

٢٧٠ ، ٢٨٦ ، ٢٩٢

٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢

٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩

قصر راسن التين ٦٠

قصر القبة ٥٣ ، ٥٥

القناطر الخيرية ٢٧٠

قطاع غزة انظر غزة

فهرس الامكنة والمدن والدول

٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٣١٠

٣١٧ ، ٣٢٣

مضائق (ممرات) سيناء ٢٢٦ - ٢٢٩

مضيق تيران ٨٨ ، ١٨٨ ، ١٨٩

المغرب ١٧٦ ، ٢٣٠ ، ٢٥٣

٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩

منشية البكري ١٥٠

المنصورة ١٢٩

منقباد، معسكر ٦٧

موسكو ٨٨ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٣٤

٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٦

٢٢٥

ميت ابو الكوم ١٢٩

ميلانو ١٤٦

- ن -

الزوج ٢٨٨

نيكاراجوا ٣٠٥

نيويورك ٨٩ ، ٢٥٤ ، ٢٦٥

- ه -

الهاكستب، معسكر ٦١

هليوبوليس ٦١

الهند الصينية ١٧٧

هويلس، الليبية (قاعدة) ١٨٢

- و -

الوادي الجديد ١٤٨

واشنطن ٩٠ ، ٩٨ ، ١١٨ ، ٢٢٦

٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧

٢٥٨ ، ٢٧٠ ، ٢٨٥

الولايات المتحدة (انظر

أميركا، اسرائيل،

الصهيونية، المشروع

الصهيوني، كامب دايفيد) ١١ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٣

٤٦ ، ٥١ ، ٦٦ ، ٦٩ -

٧٧ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩

٩٠ ، ٩٣ ، ٩٣ ، ١٠١

١٠٢ ، ١١٧ ، ١٥٨

١٧٤ - ١٨١ ، ١٨٢ -

١٨٥ ، ١٨٩ - ١٩٤

١٩٧ ، ٢٠٠ - ٢٠٣

٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١١

٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤

- ك -

الكتلة الشرقية ٢١

كوبري القبة ٦١ ، ٧٤

كورنيش النيل ١٤١

كوريا الجنوبية ٦١

الكونغو ٧٦ ، ٨١ ، ١٠٩

٢٢٩ ، ٢٤٤

الكويت ٢٢٣ ، ٢٣٠ ، ٢٤٦

٢٨٣

الكيلو ٩٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٢

- ل -

لبنان ١٢ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٢١٥

٢١٦ ، ٢٢٣ ، ٢٦٩

٢٧٩ - ٢٨٢ ، ٢٩٠

٢٩٤ ، ٣٠٩ - ٣١١

٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣١٩

٤٩ - ٥٢ ، ٩٨ ، ١٠٦

٢٣١ ، ٢٣٢

٦٨ ، ٧٥ ، ١٧٤ ، ٢٣٠

٢٦٤ ، ٢٩٤

٢٨٠ ، ٢٩٤

الليطاني، نهر

- م -

مالطة ٦٨

مجدل ٢٥ ، ٢٩

المحلة الكبرى ١٠٧

مصر (انظر أيضاً العزبة،

غسمية حرب)

١١ ، ١٢ ، ١٨ ، ٢٠

٢٣ - ٢٨ ، ٤٤ ، ٤٩

٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٠ ، ٦٥

٦٧ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٣

٨١ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥

١٠٦ - ١٠٨ ، ١١٢

١١٦ ، ١١٩ - ١٢١

١٢٩ - ١٣١ ، ١٣٤

١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٦٧ -

١٦٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣

٢٣١ ، ٢٣٢ - ٢٣٨

٢٥٢ - ٢٥٤ ، ٢٥٧

٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٨١

٢٨٥ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥

قتل مصر

- لا -	٢٥١ , ٢٤٩ , ٢٤٧
٢٢٤ لارناكا، مطار	٢٥٤ - ٢٥٦ , ٢٦١
	٢٦٤ - ٢٦٦ , ٢٨٠
	٢٨١ - ٢٨٤ , ٢٨٧
- ي -	٢٩٠ - ٢٩٢ , ٣٠٥
٣٠٧ يهودا والسامرة،	٣٠٩ , ٣١٠ , ٣١٣
١٦١ يوغوسلافيا	٣١٧ , ٣١٨ , ٣٢٥
١٧٥ , ٦٥ اليونان	٣٢٦



الأرض المستهدفة (أراضي بغير شعب، لشعب بغير أراضي)

إبادة (انظر أيضاً إزاحة، بقاء الأصلح، تحريم). ٢٠، ١٣٥، ١٧٨، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٣٥، ٢٦٤، ٢٨٨، ٢٢٠، ٢٢٢ - ٢٢٥

آبار النفط. ٢٨١، ٣١٨

الأرض (انظر أيضاً إبادة، إزاحة، غزو استيطاني، المشروع الصهيوني): ١٠٦، ١٧٨، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٦٤، ٢٨٠، ٢٨٩، ٢٩٤، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٣، ٣٢٠، ٣٢٤

الأرض الخالية. ٢٢٠، ٢٢٣، ٣٠٥، ٣١٣

إزاحة (انظر أيضاً تشريد) ٢٠، ١٠٦، ١٧٨، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٨٠، ٢٨٩، ٣٠٨، ٣٢٠

البقاء. ٦٥، ٨٠، ٩١، ١٤٤، ١٧٤، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٣٥، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٩، ٢٩٥، ٣١٥، ٣٢٤، ٣٢٥

بقاء الأصلح والأقوى (انظر أيضاً الداروينية الاجتماعية، المالتوسية). ٣١٥، ٣١٦

التحريم (الذبح بلغة التوراة) ٢٢١، ٣٢٤

تشريد السكان الأصلي (انظر أيضاً إزاحة) ٢٨٩

تفتيت العالم العربي (انظر أيضاً وثيقة بينون) ٣١٥ - ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٢٦

تناهي الموارد وزيادة عدد السكان (انظر أيضاً المالتوسية) ٣١٥، ٣١٦

الداروينية الاجتماعية. ٣١٥، ٣١٦، وفلسفة النازية ٣١٦، وقداسة الحياة الإنسانية ٣١٦

طالبوا الأرض

اسرائيل. (انظر فهرس الامكنة والمدن)

«والأراضي الجديدة، (المحتلة) ٣١٧ - والأرض المستهدفة ٣٢٤ - وأرض الميعاد، الأرض الموعودة (انظر أيضاً التعاقد القانوني مع الإله) ٩١، ٢١٦، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٤٩، ٢٦٤ - والاراميون ٢٩ - والارهاب الدموي ٢١٥ - وإزالة المستوطنات من سيناء ٢٩١ - واستحالة قيام اميركا بالضغط عليها ٢٠٦، ٢٢٢ - واستفراد البلدان العربية بلداً بعد آخر ٢٩٠ - والاستيطان الزاحف ٣٠٦ - واسرائيل الكبرى (انظر أيضاً وسياستها التوسعية) ٢٨٠، ٣١٤ - و. الأعداد البشرية الهائلة المطلوبة لها، (انظر أيضاً الهجرة اليهودية) ٢٩٩، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣١٣ - والإعداد لضربة ١٩٦٧ ١٢٠، ١٢١ - والأغتيال الإقتصادي والثقافي ١٧٩ - وإغتيال لبنان (انظر أيضاً غزو لبنان) ٣٠٩، ٣١١ - وامجاد يشوع بن نون ١١٢ - وامنها المقدس: ٢٤٣، ٢٩٤، ٣٠٥ - والانبهار العالمي بانتصارها سنة ١٩٦٧ ١١٠ - وإنسحابها من سيناء ٢٨٧ - والانصياع لتوجهها التوسعي ٣١٠ - و«انبهار العصر العقلاني/الإنسي، ٣١٥، ٣١٦ - وبتروول سيناء ٣١٢ - وبرنامجها النووي ٨٥ - ٨٧ - و«بنو إسرائيل، (انظر أيضاً الاراميون،

العبرانيون، يهود) ٢٩ - ٣٢، ٤٨، ٩١، ٢٤٩ - و «تمجيد نموها السكاني» بضربة السلام ٣١٢ - و «تحجيم توسعيتها» ٢٩٤ - والتحدي العرقي ٣١٤ - وتدمير لبنان ٣١٧ - والتركيز على دراسة شخصية من يتزعم مصر ٢١٢، ٢١٣ - والتسلل الاقتصادي ٢٩٥ - والتعاقد القانوني مع الاله (انظر أيضاً الأرض الموعودة) ٢٠، ٢١، ٢٤٩، ٢٦٤، ٣٢٤ - والتعامل مع «الارهابيين» بمطلق حريتها طبقاً لسلام السادات ٢٧٠ - و «التعاون الاقتصادي» معها ٢٨٥ - و «التعايش» معها ٢٠ - وتسليمها مفاتيح المنطقة ٢٢٥ - والتعويضات الالمانية (انظر حملة بني جوريون) ١٨ - وتغيير الطابع الديموغرافي للضفة والقطاع ٢٠٨ - وتفاقم أزمتها الاقتصادية ٣١٢ - وتفوقها العسكري والتقني بفضل أميركا ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٢٠٨، ٢٢١، ٢٢٢ - وتملصها من السلام ٢٢١، ٢٢٢ - وتمزيق أوصال لبنان ٢٠٩، ٣١٩ - وتمزيق أوصال مصر ٣١٩ - ٣٢٠، ٣٢٤، ٣٢٥ - وتناقضات العالم العربي ٣١٦ - ٣٢٠ - وتناقضاتها الداخلية ٣٠٠، ٣٠٣، ٣١٤، ٣١٧ - والتهلل في الغرب لانتصارها سنة ١٩٦٧ ٩١، ١١٠ - والتوقف المرحلي لتوسعها ٣١٢ - والتوسع داخلياً (في الأراضي المحتلة - انظر «الأراضي الجديدة») ٣١٢ - وثروات الأراضي المحتلة ٣١٢ - وثروات سيناء ٣١٨ - والجلاء عن سيناء ٢٩١ - وجعلها «تنكمش داخل حدودها» ٢٩٩ - والحدود المعينة بميثاق إلهي ٣٢٤ - الحدود المفتوحة، وإصرارها عليها كشرط «للسلام» ٣٧، ١٧٩، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٥١، ٢٦٤، ٢٨٥ - ٢٨٧ - و «الحدود الآمنة» ٢٨٢ - وحدود ما قبل ٥ يونيو/حزيران ١٩٦٧ ٢٦٥ - والحدود الآمنة التي يمكن أن تقبلها ٢٩٩، ٣٠٥، ٣١٣، ٣٢٤ - وحصون خط بارليف ٢١٧ - وحكومة الليكود ٣٠٧، ٣٠٨ - «الحمامة»، وعملية ٩٨ - وحملة بن جوريون على ألمانيا ٨٧ - وخروجها الممرور من سيناء ٢٩٥ - و «خط المواجهة» ٨٨ - و «خطر مصر الصاروخي والنووي» عليها ٨٥، ٨٧ - وخطط الطوارئ الأمريكية لحمايتها ١٠٤ - والخلافات العربية ٨٧ - وخيبتها حول عنق الزعيم ٨٩ - و «خيمة الخطر المحدق» ٣٠٣، ٣١٤ - وداسو (مصانع الطائرات الفرنسية) ١٠٦ - الدولة اليهودية ١٧٧، ٢٧٩، ٢٨٠، ٣٠٩، ٣١٤، ٣١٧، ٣٢٠ - و «الدولة المارونية» ٢٨٠، ٢٩٤، ٣٠٩ - ودمج المسيحية واليهودية، ولعبة ٩١، ٢٤٩ - و «ذعرها» من جيش المشير ٥٥ - السموع، وقرية - الأردنية ٨٧ - والسلام المرحلي (كمراحل بين وثبات التوسع) ٢٧٩، ٢٨٠ - و سلام الموت والقبر الجماعي للعالم العربي ٢٩٤ - وسلامها الجري ٩٩، ٢٢٩ - وسيف يشوع ٢٥٥ - وشمال أفريقيا ٣٢٤ - وشبه الجزيرة العربية ٣١٩ - وشهيتها المفتوحة لابتلاع الأرض ٣١٥ - والشكوك والتنافسات العربية ٢٦٤ - شعب الله المختار، ودعوى ٢٢٣، ٢٥٠ - شعب يهو ٢٨٥ - وصواريخ «القاهر والظافر» ٨٥، ٨٧ - و «صقورها المتعطشة للحرب» ١٠٨ - و «صيد الديكة الرومية» (١٩٦٧) ١١٢ - وصمت جبهة مصر (انظر في ذلك إخراج مصر من المعركة - إسكات جبهة مصر - السلام - العمدة) - والصيارفة اليهود ٢٥٧ - وصحراء النقب ١٠٦ - ١٠٤، ٢٩٩، ٣٠٩، ٣١٩ - وصراع البقاء (انظر أيضاً إنهاء العصر العقلاني الانسي، الصراع العربي - الإسرائيلي) ٣١٥، ٣١٦ - والضفة الشرقية لنهر الأردن ٢٨١، ٢٩٤، ٣١٣، ٣١٥، ٣١٩ - وضم الأراضي المحتلة ٣٠٧، ٣٠٨ - و«الضروريات الديموغرافية» ٣١٥، ٣١٦ - وضائلة مقاومة قواتها اثر العبور ٢٢٨ - وضربة السادات التي اوقفت توسعيتها ٢٩٩ - والضغط المصري عليها ٨٨ - وطبيعتها التوسعية ٢٩٣، ٢٩٤ - كالطريشة في عب مصر ٨٣، ١١٤، ١٩٠، ١٩١، ١٩٥، ١٩٦، ٢٦٥، ٢٨٧ - والعائم الغابة ٣١٦، ٣١٨، ٣٢٥ - والعبرانيون ٢٩، ٣٠، ٣١ - وعبورها المضاد (١٩٧٣) ٢٤٠ - ٢٤٥ - والعدوان على غزة ٨٤، ٨٥ - والعدوان الثلاثي (١٩٥٦) ٤٥، ٤٦، ٧٦، ٨٥، ١٠٧، ١٤٢ - وعدوتها التاريخية (مصر) ٣٠٩ - والعراق اكبر خطر يتهدها (انظر أيضاً العراق) ٣١٩ - و «العصر الجديد، ملامحة وتحدياته» ٣١٥، ٣١٧، ٣١٨ - وعظم خسائرها التي الحقها بها السادات ٢٩٩، ٣٠٠ - و «العلماء الالمان» ٨٧ - العمق المصري وغاراتها عليه ٢٠٦، ٢١١ - وعملية الخداع الكبرى ١٠٠، ١٠١، ١١٧، ١١٨ - والعهد القديم ٢٣، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٩١، ٩٢ - وعلاقة أميركا العضوية بها ١٩ - والعيش تحت حذائها ٢٠٧، ٣٢٠ - وغرب آسيا ٣٢٤ - و «غرض الله من خلق العالم» ٣٣، ٣٤ - والغزو الشامل ١٠٧ - وغزو لبنان ٣٠٩ - وفالدهايم كورت ٨٩، ٩٠ - والفراعنة ٢٦، ٣٠، ٣٢، ٤٨ - والفُرقة العربية ٢٠٢، ٣٠٦ - وقبضتها على عنق مصر ٢٤٠ - وقبية ٢١٥ - والقتال من جانب واحد ٩٤ - وقدرات العرب العسكرية ٨٥، ٨٦ - وقدرات

مصر، النووية، ٨٥، ٨٦ - وقواتها العسكرية ١١٣ - والقومية العربية ٢٢، ٣٥، ٣٦، ٨٣، ٩١، ١٣٩، ٢٢٢ - وكاهانا، الحاخام مائير ٢٨، ٢٨٥، ٢٩١ - وكاتزباخ، نيكولاس ١٠٠، ١٠٣ - والكراهية الدينية لها ١٧، ١٨، ١٧٧ - وكسر ظهر النظام ٢٥١، ٢٩٢ - وكعب، أخيل لدى الزعيم ٨١، ٨٢، ١٢١ - والكنيست ٢٨، ١٦٩، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٤٤، ٢٦٣، ٢٨٠ - والكونجرس الأميركي ١٠٤، ١٨١، ١٩٢ - وكيسنجر (انظر فهرس الاعلام) - ولبنان بوصفه الحلقة الاضعف في «الإئتلاف» العربي ٣٠٩ - والليطاني، ونهر ٢٨٠، ٢٩٤ - ومجلس وزراتها ١٠٦ - ومحنة فلسطين ٢٢٣، ٣٠٥ - ومخطط بن جوريون بشأن لبنان ٢٧٩، ٢٨٠ - ومخطط السيطرة على كل الشرق الاوسط ٢٦ - ومرحلة مقبلة من الاجتياح ٢١٢ - ومشروعاتها الجيوبوليطيقية ٣٠٩ - ومشروع روبليس ٢٠٧، ٣٠٨، ٣١٠ - ومصادرة الاراضي العربية الباقية ٢٠٦ - ٣٠٨ - ومصادر المياه ٢١٢، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٤ - ومصيدة السلام لمصر والعرب ١٢٤، ١٩٧، ٢٨٧، ٢٩٠ - ومضيق تيران ٨٨، ٢٨٧، ٢٨٨ - و «معاداة السامية» ١٢، ١٣ - و «معركة السلام»، كتاب عزرا وايزمان ٢١٨، ٢٦٩ - والمغرب ١٧٦، ٢٣٠، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٩ - ومفاجأة حرب ١٩٧٣-٢٢٧ - ومفاعل انشاص ٨٥ - والمفاوضات الثنائية ٣٦، ٣٧، ٢٦٩ - ومفاوضات رودس ١٩٤٩ - ٢٦٥ - و «مقلب» اللورد كارادون (انظر أيضاً قرار مجلس الامن ٢٤٢) ٢٨٣ - ومكالمة عبدالناصر وحسين التليفونية ١٠٣ - ومهاجمة سوريا ٨٨ - ومؤسستها الحاكمة ٣٠٩، ٣١٤ - ومؤسستها العسكرية ١٠٨، ٣٠٥ - ومؤامرة ١٩٥٦ ٩١ - والمؤتمر الثاني لليهود والمغاربة المهاجرين ٢٩٢ - ومنابعها التوراتية ٣٢٤ - ومنافسة مصر التي ستعجزها ٣٠٠، ٣٠٤، ٣١١ - والميثاق المعقود مع الاله بشأن الارض ٣٢٤ - ونادي باريس ٣٠١ - ونتائج «حرب» ١٩٦٧ ١١٧ - والنداء اليهودي الموحد، منظمة ٢١٢ - ونزع سلاح سيناء ٢٨٧ - ونُصّب الهولوكوست ٢٢٠ - ونظام الخميني وتكليفه بتثبيت العراق بعيداً عن المعركة ٢٩٤ - والنظرة الغيبية اليها ١٧، ١٨، ١٠٩، ١٧٧، ١٧٨، ٢٠٧ - ونظرتها إلى العالم العربي ك «برج مؤقت من ورق اللعب» ٣١٦، ٣١٧ - والهجرة اليهودية ٣٠٠، ٣١٢، ٣١٤ - هدف انشائها متناقض أصلاً مع أي توجه للسلم ٢١٢ - وهدم بيوت الفلسطينيين ٢٠٦، ٣٠٨ - والهزيمة البشعة التي الحقنها بمصر ١١٧ - و «هؤلاء ليسوا بشراً مثلي ومثلك، إنهم عرب» ٢٢١ - وجودها أعظم عون للنظام في مصر ٣٠٢ - ووثباتها التوسعية المتعاقبة ٢١٢ - ووثيقة بينون ٣١٥ - ٣٢٠ - ووضع اليد على الاراضي العربية الباقية ٣٠٦، ٣٠٨ - ووضع القدس المحتلة (انظر أيضاً اورشليم/ يروشلايم ٣١٠ - ٢١٢ - والوفاء باحتياجاتها الامنية) (انظر أيضاً الملك الحسن ٢٥٦ - لا مصلحة لها في السلام ٢٨٠ - يشوع بن نون وسلالته وامجاده ١١٦، ٢٥٥ - واليهود ١٢، ١٧، ١٨، ٢٣، ٢٩، ٤٥، ٤٨، ٥٠، ١٠٩، ١٨٠ - ٢٠٧، ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٣٦، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٣٠٠، ٣٠٦، ٣١٢ - ٣١٤ - واليهود السفارديم (انظر أيضاً «التحدي العرقي») ٣١٤، ٣١٧ - واليهود الاشكنازيم ٣١٤، ٣١٧ - واليهودية العالمية ١٨، ٥٦، ١٠١ - واليهودية كديانة ٩١ - وكامة ١٧٧ - و «يهودا والسامرة» ٣٠٧ - ويهوه ٢٩، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٨٥، ٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣٦، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٣٠٠، ٣٠٤، ٢٩٤، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣٠٩، ١٧٧، ١٧٦، ١٨٠، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٦، ٢٢١، ٢٤٨، ٢٦٤، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٩٤، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣١١ - ٣١٥، ٣٢٠، ٣٢٤، ٣٢٥ - واصولها التوراتية ٢٦، ٢٨، ٢٨، ٣٠٩، ٣٢٤ - انظر ارميا وتنبؤاته لمصر ٢٥، ٢٦، ٢٨ - واشعياء وتنبؤاته للبنان ٣٠٩، ٣٢٦ - وتنبؤاته لمصر ٢٣، ٢٤، ٢٧، ٢٨ - وسفر التثنية ٢٢٤ - وسفر التكوين ٢٢٤ - وموسى والخروج من مصر ٢٩، ٣٠، ٤٧، ٩١، ٢٤٩، ٢٥٥ - وميخا وتنبؤاته بخراب مصر ٢٩ - وإعلاء مصالحها فوق الجميع ٢٨١، ٢٩٤ - واستخدامها الفعال لصناعة السينما ٣٠٦ - واستماتتها في نفس توجه أميركا الايراني (انظر أيضاً مبادرة روجرن) ١٧٦، ١٧٧ - وتمكينها من اقتصاد مصر ٢٦٤، ٢٦٥ - والتوراة ٢٩، ٣٠، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٤٩، ٢٦٤، ٣٢٤ - و «دعوى صهيون» على كل الأمم ٢٦ - ٢٨ - وصفته «الآباء» العقارية مع الإله ٢٢٠ - ٢٢٢ - وصهيون حاكمة الأمم (ملك صهيون) ٢٧، ٢٨، ٢٤٩، ٢٩١ - طائفة كارتر الدينية والتزامها ملك صهيون حاكمة الأمم ٢٨٥ - و «طرد الحيوانات المتوحشة» لاخلاء الارض (انظر أيضاً هرتسل، تيودور) ٢٢١ - كيفونيم (المجلة الصهيونية) ٣١٥ - ومراحل في خطتها التوسعية ٢٤٨، ٢٤٩ - والمؤتمر الصهيوني العشرون ٢٨٠ - وملكية وسائط الاعلام (انظر أيضاً المجتمع الدولي/ الاعلام العالمي) ٢٨١، ٣٠٦ - ووضع

«استراتيجية عالمية جديدة، ٢١٥، ٢١٦

اميركا (انظر فهرس الامكنة والمدن الولايات المتحدة)

وأبائها المؤسسون ٢٤٩ - واتصال البنتاجون المباشر بالقيادة الاسرائيلية ٢٢٩ - واتفاقها الاستراتيجي مع إسرائيل ٢٩١ - واتفاق فصل القوات الثاني ١٩٧٥ (انظر أيضاً كيسنجر) ٢٩٢، ٢٩٣ - واحتياطي إسرائيل الاستراتيجي (انظر أيضاً الاسطول السادس) ٩٢ - والاختراق الاسرائيلي (انظر أيضاً حرب أكتوبر ١٩٧٣، الثغرة) ٢٢٩ - ٢٤٢، ٢٤٥ - وإخراج الخبراء السوفيات (انظر أيضاً خلع السوفيات، كيسنجر، نيكسون) ١٦٧ - وإخراج مصر من المعركة (انظر اسكات الجبهة المصرية - سلام السادات) - والإدارة الكوكبية للعالم (انظر أيضاً الامبراطورية الاميركية واقاليم الامبراطورية) ٦٩، ٧٠، ٢٤٩ - وإرغام مصر على التفاوض (انظر أيضاً السياسة الخارجية الاميركية، كيسنجر) ١٠٤، ١٨٠، ١٨١، ١٨٦، ١٨٧، ٢٠٩ - وإسرائيل هذا الزمان، ٢٠، ٢٢، ٢٤٩ - الاسطول السادس (انظر أيضاً «انحيازها، الكامل لإسرائيل، احتياطي إسرائيل الاستراتيجي) ٩٢، ٩٤، ٩٩، ١٠٢، ١٠٥ - و «أسلحة» الصراع (انظر أيضاً توجهها الإيراني، مبادرات روجرز) ١٧٨، ١٨٤، ١٨٥ - واشراكها السوفيات في اللعبة ١١٢ - وإشعال الصراع بين مصر والعرب ٢٩٢، ٢٩٣ - وإعادة العرب إلى درب الاعتدال ٢٨٧ - وإعادة امجادها في إبادة السكان الاصليين ٢٩٢ - والإعتراف بحقوق الفلسطينيين ٢١٣، ٢١٤ - وإعطاء صواريخ تاو لإسرائيل ثم لإيران (انظر أيضاً حرب أكتوبر ١٩٧٣، إيران جيت) ٢٩١، ٢٩٢ - وإعلان الاستقلال ٢٤٩ - و «اغواء» النظام المصري لها ١٥٨ - واقاليم الامبراطورية (انظر أيضاً الاحتلال الداخلي) ٦٩ - وإله إسرائيل (انظر يهوه) ١٧، ٢٨٩ - والامبراطوريات الأوروبية ٧٠، ٧١ - وإمبراطوريتها الكوكبية ٦٨ - ٧١، ٧٢ - وإنشاء وطن او كيان فلسطيني ٢٨٤ - (و «انحيازها، الكامل لإسرائيل) ٢٣، ٢٤، ٧٢، ٧٦، ٨٦، ٨٧، ١٠١، ١٠٥، ١٠٦، ١٥٧، ١٧٤ - ١٧٩، ١٨٩، ١٩٠، ٢٠٩، ٢٩٠ - وإنهاء الوجود السوفياتي بمصر والمنطقة ٢٠٦، ٢١٤ - و «أورشليم الجديدة، ٢٠، ٢٢، ٢٤٩ - وأول اتصال رسمي بالسادات ٢٨٢ - وإيران جيت ٢٩٠ - و «برميل بارود الشرق الأوسط» (انظر أيضاً نيكسون) ١٧٦، ١٧٧، ١٨٠، ١٨١ - البعد الامبراطوري الاميركي ٧٠، ٧١ - والبيان الاميركي - السوفياتي المشترك (١٩٧٧) ٣٠٩ - و «تارجحها، في نظر النظام المصري (انظر أيضاً حيرة النظام - السياسة الخارجية الاميركية - العلاقة العضوية بإسرائيل) ٧٦، ٧٧ - وتبرعاتها لإسرائيل ١٧٧، ١٨٠، ١٨١ - وتجاهلها هدية السادات (انظر أيضاً طرد الروس) ١٧٩، ١٨٠، ٢١٣ - وتحجيم «الرايديكالين، العرب ١٨٠ - وتحطيم إرادة مصر (انظر أيضاً إخراج مصر من المعركة، إسكات الجبهة المصرية) ٢٠٢ - وتحركات السلام ١٧٧، ١٧٨، ١٨٢ - وتحبيدها، محاولة النظام المصري ١٥٧ - وتخلف الاتحاد السوفياتي عنها تقنياً ٢٢٩ - تدخلها عسكرياً، واحتمال ٩٢، ٩٣ - وتراوح علاقتها بالثورة ٧٦، ٧٧ - وتسوية تغني مصر عن الروس ١٧٦، ١٧٧ - وتصفية الاستعمار القديم (انظر أيضاً الامبراطوريات الأوروبية) ٦٨ - و «التعاطف العميق، مع إسرائيل (انظر أيضاً جونسون) ٩٠ - وتفوق إسرائيل العسكري والتقني ٨٥ - ٨٧، ٢٠٨، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٩، ٢٨٠ - وتقاربها مع الصين ٢٢٨ - تكرار حرفي لنشأتها، إنشاء إسرائيل ٢٦٤ - وتنقضاتها الداخلية ٣١٧ - وتنقضاتها مع الاتحاد السوفياتي ١٧٦، ١٧٧، ١٨٦، ١٨٧، ٢٠٢، ٢٠٣ - وتنحى بريطانيا لحسابها بعد الحرب (انظر أيضاً بريطانيا وتصفية الامبراطورية) ٦٦، ٦٧، ٦٨ - و «التوازن العسكري» (انظر أيضاً تفوق إسرائيل العسكري والتقني) ٣٥، ٢٠٨ - وتوجهاتها الامبراطورية ٢٤٩ - وتوجهها الإيراني (انظر أيضاً «أسلحة، الصراع، شاه إيران، مبادرات روجرز) ١٧٦ - ١٨٧ - وثراؤها: ٧٣ - وجسرها الجوي إلى إسرائيل (١٩٧٣) ٢٢٧ - ٢٤١ - وجسور التفاهم معها ٨٧ - وحذاؤها ٢١٥ - و «حرية البحار» (انظر أيضاً ميثاق الأطلسي) ٧١ - حضنها، وشبى الثورة إلى ١٩، ٦٦ - ٧٧، ١٧٥، ١٧٦، ١٩٧، ٢٩٠ - والحقوق المشروعة للفلسطينيين ٢٨٤، ٢٨٥، ٣٠٩ - وحلها الاميركي للصراع ٢٤٦، ٢٤٧ - وحلف الناتو ٧٣، ١٠٢، ٢٠٨، ٢٣٩، ٢٤٠ - وحليفها الاستراتيجي ٣٤ - وحوادثها السوفياتي ٢٠٧ - وحيرة النظام في فهم مواقفها ٩٩ - خارجيتها، وزارة ٧٦، ٧٩، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٣ - ١٩٠، ٢٨١، ٢٨٤ - والخرز الملون (انظر أيضاً

الغزو الاستيطاني) ٤٨ - والخط الأحمر، مكالمة جوسون وكوسيجين ١٠٣ - وخطبة عبد الناصر في عيد العمال ١٧٥ - ١٧٧ - والخطر السوفيياتي ٢٠٧ - ٢٠٨ - وخطر الوحدة ٨٦، ٨٧ - وخلع السوفييات من الشرق الأوسط ١٧٦ - ١٨٢، ٢٠٣، ٢٠٧ - وخلق أمتها ٢٦٤ - و«خوفها على إسرائيل» من مصر وسوريا ٢٢٦ - ودعايتها الاسرائيلية الاميركية ١٨ - ودبابات إس/إم - ٤٨ لاسرائيل ٨٦ - ودعمها الكاسح لاسرائيل ٨٧، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ٢٠٦، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٦٢، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٧، ٢٩٠، ٣٠٠ - ودعمها الاستطلاعي الجوي لاسرائيل (في ١٩٦٧) ١٠٢، ١٠٤ - (وفي ١٩٧٣) ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٧ - ودعمها المتواصل للنظم الفاشية في العالم ٢٠٨ - و«الدفاع المشروع عن النفس» ٧٥، ٣٠٥ - ودورها في تحطيم الجيوش العربية سنة ١٩٦٧ ١٠٢ - ١٠٥ - والدول العربية المعتدلة ١٧٦، ١٨٠ - دولة فلسطينية، وإنشاء ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٨٣، ٣٠٠، ٣٠٧، ٣١٠، ٣١٢ - ودمج اليهودية والمسيحية ٩١، ٩٢، ٢٤٩ - وديبلوماسية المكوك (انظر كيسنجر) ٢٦٦ - ورؤيتها التوراتية لذاتها ٢٤٩ - ورؤيتها لاسرائيل كامتداد عضوي لها ٢٣٧ - ورؤية الثورة لدورها ٦٩ - ٧١، ١٠١ - وزيارة السادات الاولى لها ١٧٤، ١٧٥ - وسحب قوات الطوارئ الدولية سنة ١٩٦٧ (انظر أيضاً بانث، يوثانت) ١١٤ - والسد العالي ٧٦، ٧٧ - و«سعيها إلى ما فيه خير مصر» ١٦٩ - والسلفادور ٢٠٠ - وسلاحها الجوي ١٠٢ - وسلاحها الاميركي ١٧٩، ٢١٣ - وسياستها الخارجية تجاه مصر والشرق الأوسط (انظر أيضاً آيزنهاور، جونسون، دالاس، راسك، روجرز، سكرانتون، سيسكو، كارتر، كندي، كيسنجر، الخارجية الاميركية، وكالة المخابرات المركزية الاميركية) ١٧٥ - ١٩١ - وشاه إيران (انظر أيضاً توجهها الإيراني، شرطيها في المنطقة، قبضتها الحاكمة وبلطجيتها في المنطقة، مبادرات روجرز، كيسنجر) ١٧٧، ١٧٩، ١٨٢ - ١٨٤، ١٨٨، ١٨٩، ٢٦٦ - والشرق الأوسط (انظر أيضاً السياسة الخارجية الاميركية) ٦٨، ٦٩، ٧٢، ٧٣، ٧٦، ١٧٤ - ١٨١، ١٨٦، ١٨٧، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٦١، ٢٧٩، ٢٨٦، ٣٠١، ٣١٤، ٣١٥، ٣٢٥ - وشرك يونيو ١٩٦٧ (انظر شرك مميت، كسر ظهر مصر، كسر ظهر النظام، نكسة، هزيمة) - وشرطيها في المنطقة (انظر أيضاً شاه إيران، قبضتها الحاكمة) ١٧٧ - وشروط فض الاشتباك (انظر أيضاً اتفاق فصل القوات الثاني ١٩٧٥، فض الاشتباك، كيسنجر) ٢٤١ - شعبها شعب مختار جديد ٢٠، ٢٤٩ - شريك كامل لاسرائيل ٢٨٣ - وصراعها السوفيياتي ١٧٩ - والصراع العربي - الإسرائيلي الآخر (انظر أيضاً سبيجل) ١٨٤ - ١٨٧ - والصلح (انظر صلح كامب ديفيد المميت، الصلح المنفرد) - وصواريخ هوك ٨٩ - والضربة المشتركة مع إسرائيل سنة ١٩٦٧ ١٦٨، ٢٨٧، ٢٩٣ - وضغطها الاقتصادي على مصر ٨٧ - وطائراتها الاستطلاعية طراز RF-4C ودورها في كارثة ١٩٦٧ (انظر أيضاً الدعم الاستطلاعي لإسرائيل (١٩٦٧) ١٠٢ - وطموحها الكوكبي (انظر أيضاً الإدارة الكوكبية للعامل، توجهاتها الامبراطورية) ١٨٠، ١٨١، ١٨٦ - والعالم الثالث ٦٠، ٦١، ١٢٦، ١٧٥، ٢٠١، ٢٨٠ - وعزل مصر ٣٦، ٣٧، ١٩٠، ٢٠٢، ٢١٢، ٢١٣، ٢٢١، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٩٣ - وعملية العزال الاستراتيجي المرحلية من إسرائيل (انظر أيضاً توجهها الإيراني، مبادرات روجرز) ١٧٨ - وعلاقتها، الخاصة، بإسرائيل ١٩، ٢٠، ٢٣ - ٣٥ - وعلاقتها بالسوفييات ٢٣٨ - وعلاقتها بالعرب ٧١، ٧٢ - والفانتوم، وطائراتها ٨٦، ٢٢٩، ٢٤٠، ٢٥٥ - وفض الاشتباك (انظر أيضاً شروط، كيسنجر) ٢٤٦، ٢٤٧ - والفتنة مجدداً في الشرق الأوسط (انظر أيضاً «أسلحة، الصراع) ١٧٧ - والفلبين (انظر أيضاً ماركوس) ٦١ - وقبضتها الحاكمة في الشرق الأوسط كبلطجي لها بالمنطقة (انظر أيضاً شاه إيران، شرطيها بالمنطقة) ١٧٧، ١٩١، ٢٠٤، ٣٠٠ - و«قدرها الجلي» (انظر أيضاً طموحها الكوكبي، توجهاتها الامبراطورية) ٧٠، ٧١ - و«قواتها التي تعتبر خير ضامن للسلام» ٢٩٠ - وكرمها ١٢١ - وكسر ظهر مصر ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٣، ٢٣٧ - وكسر ظهر النظام ٢٥١، ٢٩٢ - ولجنة العلاقات الخارجية بالكونجرس ١٨٣ - ليبرتي، وضرب إسرائيل للسفينة ١٠٣ - ما بعد الاستعمار، وعصر ١٢٦ - مائدة المفاوضات، والدفع بقوة صوب ٢٢١ - ومبادرات روجرز (انظر أيضاً توجهها الإيراني) ١٧٥ - ١٩١، ٢٦٦ - ومتاعب النظام معها ١٧٥ - ومجلس الأمن القومي ١٧٦، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٩، ٢٥٧ - ومحاولتها احتواء ضرر تواطنها مع اسرائيل ١٧٦ - ومحاولتها الابقاء على «صداقتها» مع العرب ١٧٧ - ومحاولتها تقديم ايران مرحلياً كقبضة حاكمة لها (انظر مبادرات روجرز) ١٨٢ - ١٩١ - ومحطات الانذار المبكر في سيناء ٢٨٤ -

ومحكمة العدل الدولية ٢٠٥ - و «مساعداتها، المالية لمصر ٢٠٢، ٢٠٤ - ومساعدتها «لإحلال السلم، ١٧٦، ٢٨١ - المشروع الصهيوني، والتزامها الكامل بتنفيذه كاملاً ٢٣ - ٢٦، ١٥٨، ١٦٤ - ومصالح الحركة الصهيونية ٢٨١ - ومعهد النظام لتخريب ضباط المخابرات (تمويلها له وتدريب وكالة المخابرات المركزية فيه) ١٥٥، ٢١٢ - ومعركة ديبلوماسية كاملة معها في الأمم المتحدة ٢٤، ٣٥ - ومطار مورون باسبانيا (انظر أيضاً الدعم الاستطلاعي لإسرائيل ١٩٦٧) ١٠٤ - ١٠٦ - و «مفاهيمها، التي غيرها السادات ٢٩٢ - والمنظور الاقليمي في مبادرات روجرز ١٨٦، ١٨٧ - وموقفها سنة ١٩٦٧ ١٠٥، ٢٠٨، ٢٨٥ - ميزان القوة (الميزان العسكري) وحرصها على ابقائه دائماً في صالح إسرائيل ١٩١، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٥١ - والنظم الحاكمة لحسابها في اقاليم الامبراطورية ٦٩ - ونقاط كارتر الثلاث ٢٥٧ - ونقاط وودرو ويلسون الأربع عشرة ٧١، ٧٢ - ونقاط يوثانت الثلاث ٩٢ - النقض (حق الفيتو) واستخدامها المتواصل له لصالح إسرائيل في مجلس الأمن ٢٠٥ - ونقلات الشطرنج على ساحة المنافسة الكوكبية مع السوفيات ٢٠٧، ٢٠٨ - و «نواياها الطيبة تجاه مصر» ٧٢ - ونيكاراجوا ٢٠٥ - نيويورك واللثة التي أصابت بها السادات ١٤٦ - الهنود الحمر، وتكرار عملية إبادة في غمار غزوة الشرق الأوسط الاستيطانية ٢١٥، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٦٤، ٢٦٧ - هوبس، وقاعدة ١٨٢ - الوفاق معها، وسعي السوفيات إليه ٢٢٨ - و «وترجيت» ١٧٦ - و «يهوه» حارسها ٢٤٩ -

انتزاع الأرض

الغزوة الاستيطانية البائدة بفلسطين ١٨ - ٢٠، ٢٢، ٤٨، ٦١، ١٧٥، ٢٠١، ٢٢٠، ٢٦٤، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٩٢، ٢٩٣، ٣٠٦، ٣١٢، ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٢٤ - المشروع الصهيوني الذي تشكل فلسطين مرحلته الأولى (انظر أيضاً أمريكا) ٢٠ - ١٧٥، ١٧٧، ١٩٦، ٢٠٢، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٤٨ - ٢٥٠، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٩ - ٢٨١، ٢٨٧، ٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٣، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١٢، ٣١٤، ٣١٧ -

الحكم

المجتمع الدولي ٢٤٧، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٩٥ - وأسس الحضارة الغربية ٩١، ٩٢، ٣١٥ - و «الاعراف الدولية، ٢٨١، ٢٩٤، ٣٠٥ - والإعلام «العالمي» (انظر أيضاً الصهيونية وتملكها له) ٨١، ١٩٧، ٢١٢، ٢٣٥، ٢٦٠، ٣٢٤ - وإعلان منح الاستقلال للبلدان المستعمرة ٦٩ - والأمم المتحدة ٢٤، ٣٥، ٤٦، ٦٨، ٢١٥، ٢٢١، ٢٦٦، ٢٨٠، ٢٨١، ٣٠٧ - والبنك الدولي ٢٥٧ - ٢٦١ - وتكاثر سكان العالم وتناهي موارده ٣١٥ - وتحول العالم إلى غابة ٣١٦، ٣١٨، ٣٢٥ - والجمعية العامة للأمم المتحدة ٦٩، ٧٠ - والحرب العالمية الأولى ٧١ - و «الراي العام العالمي، ٢٨٠، ٢٨١، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٢٤ - والحرب العالمية الثانية ونتائجها ١٨، ٢١، ٧٢، ٧٧، ٧٨، ٢٨٨، ٣٢٦ - و «الشرعية الدولية، ٢٨٢، ٣٠٥، ٣٢٤ - وصندوق الدين، أسلوب ٢٥٧، ٣٠١ - وصون السلم العالمي والأمن الدولي ٢٨٢ - والظروف الدولية ٢١٢ - وعصبة الأمم ١٣٧ - و «عين العالم الفاحصة، ٣١٢، ٣٢٤ - والقانون الدولي ٢٨١، ٢٩٤، ٣٠٥ - وقداسة المعاهدات ٣٠٥ - وقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ (انظر أيضاً «مقلب، اللورد كارادون) ١٧٧، ١٨٣، ١٨٨، ٢٨٢، ٢٨٣ - وقرار مجلس الأمن ٣٣٨، ٢٨٢ - والقرن العشرون ٦٥، ٧٦، ١٠٨ - وقوات الأمم المتحدة ٢٨٤، ٢٨٨، ٢٩٠ - وقوات الطوارئ الدولية ٨٢، ٨٣، ٨٨، ٩٠ - و «اللجنة المعنية بممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه غير القابلة للتصرف، ٣٠٧، ٣٠٨ - ولجنة مجلس الأمن بشأن فلسطين ٣٠٨ - ومجلس الأمن الدولي ٨٨، ١٧٧، ٢٤٠، ٢٤٦، ٢٨٦، ٣٠٥ - ومراقبو الأمم المتحدة ٨٨ - و «مشكلة الشرق الأوسط، ٢٨٦ - و «مشكلة فلسطين، ٣٠٥ - ومصالح الصهيونية ٢٨١، ٢٩٤ - والمقاومة الأوروبية للاحتلال النازي كبطولة ٢٨٨، ٢٨٩ - والمقاومة الفلسطينية للغزو

الاستيطاني كـ «إرهاب» ٢٨٨، ٢٨٩ - ومقلب اللورد كارادون في صياغة قرار مجلس الأمن ٢٤٢ ومؤتمر مرساي للسلام ٧١ - والمؤتمر الدولي لـ «حل مشكلة فلسطين» ٢٥٩ - ٢٦١ - وميثاق استكهولم ٧١ - وميثاق الأطلسي ٦٩ - وميثاق الأمم المتحدة ٨٩، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٢، ٣٠٥ - ونادي باريس ٣٠١ - والندوة الدولية عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ ٢٤٤ - ووساطة الأمم المتحدة (انظر أيضاً يارنج) ٣٥، ١٧٦، ٢٣٤

المطلوبة أرضهم

الأردن

مملكة ٨٧، ١٦٩، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٥٦، ٢٦٩، ٢٨٠، ٣١٩

نهر ٢٢، ٢٦٩، ٢٩٠، ٣٠٠، ٣١٢

وادي ٣٠٧

الضفة الشرقية ٢٨١، ٢٩٤، ٣١٣، ٣١٥، ٣١٩

الملك حسين ١٠٣، ٢٤٨، ٢٦٩ ووعية بحقيقة المخطط الصهيوني وهدف انهاء وجود الأمة العربية ٢٤٨

سوريا

كهدف اسرائيلي ٦٦، ٦٨، ٨٢، ٨٣، ٨٨، ٨٩، ٩٢، ٩٤، ٩٥، ٩٧، ٩٨، ١٠٥، ١٠٨، ١٧٤، ٢٢٣، ٢٣٢، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٧، ٢٦١، ٢٨٠، ٢٩٠، ٢٩٤، ٣٠٩، ٣١٣، ٣١٦، ٣١٩

وتجربة الوحدة ٣٣، ٦٥، ٨٢، ٨٤، ٨٦، ٩٥، ١١٤، ١٧٤، ٢٩٩

والإنفصال ٨٢، ٨٣، ١١٤، ١٣٦

العراق

كقوة اقليمية ١٨، ١٧٩، ٢٠٤، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٦٤، ٢٩٠، ٢٩٤

واستماتة الصهيونية في ابعاده عن المواجهة ١٧٨، ١٧٩

اكبر خطر يتهدد اسرائيل ٣١٩

وتحذير صدام حسين للدول العربية في قمة الرباط من التخلي عن مصر ٢٥٦، ٢٥٧

وتحركات الشاه لحساب اميركا على حدوده ١٧٨

وتزويد اميركا لنظام الملالي بالسلاح ضده (انظر ايضاً إيران جيت) ٢٩٠

وتنبيه صدام حسين الدول العربية في قمة بغداد إلى أهمية استمرار الدعم العربي لمصر ٢٦٢، ٣٠١

ودعمه للجبهة السورية ٢٣٠

ودور الطيارين العراقيين في حرب ١٩٧٣ ٢٣٠

وفشل نظام الخميني في تنفيذ المهمة التي كلف بها ضده ٢٩٤

ولب الصراع ٢٢٣

ومواجهته مع الوحش الإيراني في حرب الخليج ٣٠٣، ٣٢٠، ٣٢٤

فلسطين

المرحلة الأولى من مراحل المشروع الصهيوني - فلسطين الحبيبة والأرض السليبية ١١، ١٢، ١٧، ١٩، ٢١، ٢٥، ٧٠، ٧٤، ١٥٨، ١٧٥، ٢١٥، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٦٤، ٢٨٧، ٢٩٠، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٣

٣١٢، ٣٢٥، ٣٢٦ - واستئصال الشعب الفلسطيني، محاولة الصهيونية (انظر ايضاً تصفية

الفلسطينيين، الحل النهائي) ٣٠٥

وإشراك الفلسطينيين في «تحديد مستقبلهم» (لا «تقرير مصيرهم») ٢٨٤، ٢٨٥ - والإنتداب البريطاني ٧٠ - وإنشاء دولة فلسطينية ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٨٣، ٣٠٠، ٣٠٧، ٣١٠، ٣١٢ - والبعد الفلسطيني للصراع ٢٢٢، ٢٢٤ -

و«تأمين أرواح الفلسطينيين» بفضل سلام السادات ٣٠٠، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣١٠

وتخطيط البنية الأساسية للمقاومة، اجتهد الصهيونية في ٣١١ - وترحيلهم من الضفة والقطاع ٣٠٨، ٣١١ -
والتصفية الجسدية ٢٨٧، ٣٠٨، ٣١١، ٣١٤، ٣١٨، ٣٢٠
وتقرير المصير، وحق ٧١، ٧٢، ٢٨٢، ٢٨٣، ٣٠٠، ٣٠٦، ٣١٠
وتقسيم فلسطين، وقرار ٢٦٥، ٢٨٠، ٢٨٩، ٣٢٠
والتوجه الديمقراطي للمقاومة الفلسطينية ١٨ - وحركة المقاومة ١٨، ٨٨، ٢٥١، ٣٠٩
و«الحكم الذاتي»، ٢٦٨، ٢٨٣، ٢٨٥، ٣٠٦ - ٣٠٨، ٣١٠، ٣١١، ٣١٤، ٣١٨، ٣٢٠
والحل النهائي لـ «مشكلتهم» (انظر أيضاً استئصال، تصفية) ٣١١، ٣١٧، ٣١٨ - ومحوهم محوياً ٣١٠ -
كـ «حيوانات تسير على قدمين» وصف بيجين لهم ٣٢٤ - و«رابطة ماء» مع الأردن ٢٧٠ - «في كيان
فدرالي أردني فلسطيني»، ٢٥٥ - والشعب الفلسطيني، الفلسطينيون ١٢، ٢١، ٢١٥، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٣، ٢٥٠،
٢٥٠، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٣٠٧، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٤، ٣٢٣، ٣٢٤ - والنظر اليهم
كـ «أساس البلاء»، ١٢ - ومعاداة الكنعانية ١٢، ٢٢٤ - والنظر إليه كشعب من اللاجئين ٨٨ -
والضفة الغربية ٣٠٩، ٢١٥، ٢٤٧، ٢٦٩، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٩٤، ٣٠٠، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣١٠، ٣١١، ٣١٤، ٣١٩ -
والقضية («المسألة»، «المشكلة») الفلسطينية ١٢، ١٦٨، ١٦٩، ١٩٦، ١٩٧، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧،
٢٤٨، ٢٥٦، ٢٨٦، ٢٩٢، ٣١٠ - قطاع غزة ٨٨، ٨٩، ٢١٥، ٢٤٧، ٢٦٩، ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٩٤، ٣٠٠، ٣٠٦،
٣٠٨، ٣١٠، ٣١١، ٣١٤ - والمستوطنات الاسرائيلية ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٨٥، ٢٩١، ٢٩٤، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣١٠ -
ومشروع روبليس (انظر أيضاً «يهودا والسامرة» تحت إسرائيل) ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٠ - ومنظمة
التحرير الفلسطينية ١٢، ١٨٨، ١٩٦، ١٩٧، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٦٩، ٢٨٣، ٢٨٥، ٣٢٠ - وميثاقها ٢٨٣

حركة عسكرية لا ثورة

والاستخبار على العدو الداخلي (الشعب) فقط ١٥٦ - والاستخدام الغوغائي للجماهير (انظر أيضاً
مظاهرات) ١٤١ - والاستفتاءات (انظر أيضاً الانتخابات، «برلمان»، الديموقراطية، الفاشية) ٤٤، ١٤٢،
١٥٤، ٢٠٢ - والاستعمار ١٨، ٧٢، ٧٣ - والاستعمار البريطاني (انظر أيضاً إتفاقية الجلاء، الاحتلال
البريطاني، تصفية الامبراطورية البريطانية، تنحي بريطانيا) ٦٠ - والاستقلال (انظر أيضاً ثورة ١٩١٩،
الوفد، معاهدة ١٩٣٦) ٧٨ - والاستنزاف الداخلي (انظر أيضاً الاحتلال الداخلي، النهب) ٢٥٧، ٢٦٣ -
والإستيلاء على السلطة (انظر أيضاً انقلاب، قلب نظام الحكم) ٦٦، ٧٨، ١٢٢، ١٢٤، ١٤٠، ١٤٦، ٢٠٥ -
والاستيلاء على مصر كغنيمة حرب (انظر أيضاً الاعوان، الجيش في خدمة الجيش، الاحتلال الداخلي،
الزعيم، العزة) ١١٢، ١١٦، ١٤٦، ١٦٢، ١٦٣، ١٧٠، ١٩٧، ٢٢٥، ٢٦٧، ٣٢٠ - والاسلحة الفاسدة
(انظر أيضاً روز اليوسف، العهد الملكي، فاروق، فلسطين، النظام القديم) ١١ - ١٣، ٧٤، ١٥٣، ١٥٥ -
والاشتراكية (انظر أيضاً ايدولوجية، التحول الاشتراكي، التطبيق الاشتراكي، نازية) «الاشتراكي»،
نشرة ١٧، ١٨ - «الاشتراكية»، مجلة ١٤٠ - الاشتراكية الناصرية ١٩٢ - و«اعتناق» للاشتراكية
بالصدفة ١٣٥، ١٣٦، ١٣٩، ١٥٩، ١٦١ - كسلاح في يد النظام ١٦٠ - الكل يهرع إلى «اعتناق»
الاشتراكية ١٦١ - مجرد اختراع مستورد مفيد ١٣٥ - المستفيدون الحقيقيون من الاشتراكية ١٦٠،
١٦١ - والإصلاح الزراعي (انظر فهرس الاعلام، خطاب، محمد) ١٣٩ - والاعتقال (انظر أيضاً الأجهزة،
ارهاب الدولة، المعتقلات) ٥٧، ٧٩، ٨٠، ١١٩، ١٤٤، ١٥٥، ١٧٢ - واعوان الزعيم ٥١، ٥٢، ٥٥، ٥٦،
٦٢، ٦٥، ٧٨، ٨٤، ١٤٣، ١٧٠ - ١٧٤، ١٩٣، ١٩٥، ٢١٦، ٢٦١ - واقاليم الفكر الفاشي ١٣١، ١٣٨،
١٣٩ - والأقلام المتسلقة إلى حذاء الزعيم (انظر أيضاً الارتزاق، «الالتزام») ١٢٦، ٢٦٥ - والاكاديميون
(انظر أيضاً تبرير، تريح، تلفيق، تنظير، تواطؤ) ١١١، ١٣١، ٢١٨ - وأكلو العيش ١٥٥ - و«الالتزام»
(بالزعيم والنظام، لا بقضية أو بالوطن) ٧٨، ٣٠٢ - وامانة الدعوة والفكر (انظر أيضاً الاتحاد
الاشتراكي) ١٣١ - وامانة الطليعة الاشتراكية (انظر أيضاً الاتحاد الاشتراكي) ١٠٧، ١١٥ -
والامبراطورية البريطانية (انظر أيضاً الاحتلال البريطاني، تصفية الامبراطورية البريطانية، تنحي
بريطانيا) ٦٨، ٧٠، ٧٣ - والامن القومي ٧٩، ٨٠، ١١٩ - وامن الزعيم ٨٠ - والامن المركزي ١٧٤، ١٩٥ -
والانتخابات (انظر أيضاً الاستفتاءات، الإيهام بوجود ديموقراطية برلمانية - مجلس الشعب، مجلس

الغمة) ١٣٢، ٦٢، ١٣٤، ١٣٦، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٢ - وانتهاء تنظيم «الضباط الأحرار» ١٥٦ - وانتهاء فكرة القيادة الجماعية (انظر أيضاً مجلس قيادة الثورة، مجلس الرئاسة، وحدانية الزعيم) ١٥٦ - وانتهاء «موضة» الاشتراكية ١٧٤، ١٧٥ - وانتهاء البطولات الخطابية (انظر أيضاً هزيمة، نكسة) ١٣٣، ٢٤٠ - والانفتاح السياسي العظيم في عهد العمدة ٢٠٥، ٢٨٧ - والانفتاح الاقتصادي ٢٦٣، ٣٠٤ - وانهيار مرافق مصر (انظر أيضاً الفساد) ٢٦٣ - واهدار الأدمية (انظر إخصاء، ارهاب) ١١٩، ١٧٠ - والأيدولوجية ١٨، ٨٣، ١٣٠، ١٣١، ١٣٩، ١٤٠، ١٧٥ - والإيهام باشتراك الشعب في العملية السياسية (انظر أيضاً استبعاد الشعب) ١٣٨، ١٩٠ - والإيهام بوجود ديموقراطية (انظر أيضاً «برلمان»، مجلس الشعب، مجلس العمدة، نواب الشعب) ١٣٤، ٢٠١ - و«البرلمان» (انظر أيضاً الرايخستاج، مجلس النواب الإيطالي) ٧٩، ١٤٨، ٢٠٠ - والبلشيفية (انظر أيضاً شيوعية، شيوعيون) ١٨ - والبورجوازية المصرية ١٦٠ - والبورجوازية الصغيرة التي أنجبت «الثوار» ١٦١، ١٦٢، ٢١٦ - والبوليس الحربي ٦٣، ٨٠ - والبوليس السياسي ١٥٥ - وتاديب القضاء ١٢٠ - والتأميم ١٥٩ - ١٦٢ - وتأميم البنوك والشركات ١٥٣، ١٦٠ - و«تأميم» الصحافة ١٥٢، ١٥٣ - تأميم قناة السويس ومنشأ الفكرة ١٢٩، ١٤٠ - تأميم القناة، وضربة ١٤٢ - وتأمين الحركات الفاشية لاستمراريتها ١٤٦ - التبرير، ومحاولات ١١١، ١١٢ - والتبهم بالصحافة والإعلام ٢٢٢، ٢٢٥، ٣٠٢، ٣٠٥ - و«التجاوزات» ٧٩، ١٧٠، ٣٠٣ - والتجربة والخطأ كمنهج ١٤٠ - وتجربة مصر الديموقراطية قبل الإنقلاب ٧٨ - وتجسس الكل على الكل كطريقة حياة ١٦٢، ١٦٣ - وتحالف قوى الشعب العامل كصيغة أيديولوجية (انظر أيضاً الاتحاد الاشتراكي، تناقضات المصالح) ١٣١، ١٣٣، ١٤٧، ١٤٨، ١٧٠، ٢٠٥ - وتحديد الملكية الزراعية (انظر أيضاً الإصلاح الزراعي) ١٦٠ - والتحول الطبقي ١١١ - و«التحول الاشتراكي» ١٣٣، ١٣٥ - وتحويل الحياة في مصر إلى وهم يومي ١١٩، ١٢٠، ١٧٠، ١٩٧ - وتدهور الانتاج (انظر أيضاً البنك المركزي، اليمن، الذهب) ٣٠٢، ٣٠٤ - وتذويب حرية الفرد في سلطة الدولة ١٢٩ - وتذويب تناقضات المصالح ١٢٣، ١٢٤ - وترقيع «فلسفة» ثورية «انظر أيضاً خطاب الزعيم ١٢٨، ١٢٩ - «التطبيق الاشتراكي»، ومناهة ١٢٥ - والتطريب الحماسي (انظر أيضاً التبهم) ١٢١ - والتعظيم بالاعلام ٢٢٢، ٢٢٥ - والتعذيب (انظر أيضاً إخضاع، إخصاء، الأجهزة، ارهاب الدولة) ٥٧، ٧٩، ٨٠، ١٠٩، ١١٩، ١٧٣، ١٩٣، ٣٠٣ - والتغيير الاجتماعي ١٣٥ - وتقديس النظام الحاكم ١١٠ - وتقنين «فكر» ثوري ٨٣ - وتقديس الثروات (انظر أيضاً المستفيدون من الاشتراكية) ١٦٢ - وتكتيكات الشارع الفاشية ١٤١ - والتلفزيون وغسل المخ ٤٨، ١٢٠ - وتلفيق «أيديولوجيا» ثورية (انظر أيضاً تقنين، تنظير، خطب) ١٣٤، ١٣٨، ١٣٩، ١٦٦ - وتملك الصحافة ١٥٣ - وتناقضات المصالح في المجتمع (انظر أيضاً تنظيم لاطبقي، فاشية) ١٣٠ - ١٣٥، ١٤٨، ١٧٠ - والتنظير «الأيديولوجي» (انظر أيضاً الأكاديميون، ارتزاق، تبريد، تلفيق، تواطؤ) ١١١، ١١٢، ١٣١، ١٣٨ - والتنظيم السياسي للمجتمعات السوية ١٢٢، ١٢٣ - و«التنظيم الطليعي» ١١٥ - والتنظيمات الفاشية ١٣١، ٢٠١ - والتنظيمات الواجهة ١٥٥ - وتنظيمات الأخوان كقدوة ٢٠١ - والتنظيم اللاطبقي الفريد (انظر أيضاً الدمج الفاشي للمصالح المتناقضة، تناقضات المصالح، تحالف قوى الشعب العامل، الاتحاد الاشتراكي) ١٣١، ١٣٣ - وتواطؤ مرتزقة الفكر ١٧٠ - وتمييع اللغة على أيدي مرتزقة الفكر ٧٨ - توافق الرأي والقبول وغيبته (انظر أيضاً التنظيم السياسي للمجتمعات السوية، الديموقراطية) ١٢٣ - وثورة ١٩١٩ ٧٨ - و«الثورة الاشتراكية» ١٥٨ - ١٦٠ - والثوار والثورية ١٢، ١٧، ١١٠، ١١١، ٣٠٢ - والجامعات ٧٥، ٣٠٢ - والجبن العام (انظر أيضاً خنوع) ١٠٦، ٣٠٢ - جردان، والتحول إلى ٦٥ - وجستابو الزعيم ١٥٥ - والجعجعات الغوغائية ٧٧، ٢٣٤، ٢٣٨ - و«جند الله» ١٧ - والجهاز التنفيذي للدولة ١٧ - والجهاز التنفيذي للدولة ١٤٥، ١٤٧ - وجهاز التجسس المركب ١٥٦ - وجهاز المخابرات «العلمي» ٧٩ - وجيش الاحتلال الداخلي ١١٢ - وحجب الحقيقة (انظر أيضاً الكذب بإستماتة وإسرار) ١٠٧، ٢٢٢ - والحراسة كسلاح ١٧٣، ١٧٤ - و«حركة الجماهير» ١٣٥ - والحرية ١٨، ١٩، ٥٦، ٧٨، ١٣١، ١٩٥ - والحرية الاقتصادية ١٢٩، ١٤٠ - وحرية التصويت ١٢٦ - والحرية السياسية ١٣٩، ١٤٠ - وحرية العمل السياسي ١٤٨ - وحرية المواطن ٧٩، ٨٠، ١٩٥ - وحرية النقد ١٣٦ -

والحزمة الفاشية ١٣١ - والحصانة الإرهابية ٢٦٧ - والحقوق الانسانية والمدنية ١٩، ٢٠٥ - وحكم الارهاب ٤٨، ١١٩ - وحكم مصر ٦٣، ١٣٠ - بالكذب والتصنع والإيهام ٢٢٦ - و «الحرر» ١٣٠، ٢٠٤، ٢٠٧ - وحملة القلم ١٧٠ - وحياد الدولة تجاه تناقضات المصالح ١٢٥ - والحياة الموهومة ١١٩، ١٧٠، ١٩٣ - والخطابات كبديل للأيدولوجية ١٥، ٨٨ - وكمكمل لـ «الفكر» الثوري ١٢٨ - وكمصدر للفلسفات الفاشية ١٤٧ - والخطر الصهيوني والوعي بحقيقته ١٩ - وخلق عالم موهوم ١٥٢، ١٥٦، ١٦٢، ١٦٦، ١٩٢، ٢١٩، ٢٢٥ - والخوف والصمت والسلبية ١٦٣ - والخوف التقليدي للنظم الفاشية من الانكشاف والعقاب ٢٦٧، ٢٦٨ - والخوف من المناقشة وابداء الرأي ٢١٢ - وخيار الحرب ٢٦٢ - والخيانة ٢٢٢ - والخيانة العظمى ٤٥، ٥٣، ٣٠٣ - والخيبة ٣١٣، ٢٢٢، ٢٢٨، ٢٦٣ - ٢٦٥، ٢٦٧، ٣٠١ - وخيمة الخطر المحقق وفوائدها (انظر أيضاً تربح النظام بالقضية الفلسطينية) ٣٠٣، ٣١٤ - والدستور ٧٨، ١٤٨، ١٤٩، ٢٠١ - والدساتير الفاشية ١٢٨ - والدمج الفاشي للمصالح المتناقضة ١٣٨ - ودور الشعب الكادح في إبعاديات القطاع العام ١٦٠ - ودور الصحفيين والمثقفين ١٧٠ - والديكتاتورية ٦٥ - وديكتاتورية البروليتاريا ١٣٢، ١٣٦ - والديكتاتورية العسكرية ٦٠، ٦٥، ١٣٦، ٢٢٢ - والديكتاتورية الاستثنائية الشعبية ١٥٤، ٢٠٢ - والديموقراطية البرلمانية ١٣٠ - ١٣٣، ١٣٦، ٢٠٠، ٢٦٧ - وديموقراطية الواجهات ١٩٢، ٢٠٠، ٢٠٣ - والديموقراطية الشعبية ١٣٤ - ١٣٦، ١٧٥ - وديموقراطية «الشعب العامل» ١٣٧ - والدين والصراع ١٧، ١٨، ١٧٨ - والدين في الاستخدام الفاشي ١٣٨ - والذنب العام في استثناء الفاشية ٢١٢، ٢٢٢ - وذنب المثقفين وصناع الرأي ٢١٢، ٢٢٢ - والذهب (انظر أيضاً البنك المركزي، تكديس الثروات، تدهور سعر الصرف للجنيه المصري، حرب اليمن) ٨٠، ٢٦٣ - ورأسمالية الدولة ١٣٥، ٢٦٣ - و «راقصو» الاعلام ٢٢٩ - والرابع الثالث ١٥٤ - وربط الصهيونية بمؤامرات بلشفية ١٥٧، ١٥٨ - ورفع مستوى المعيشة ٢٢٢ - ورؤيتها لدور اميركا ٧٠، ٧١، ١٠١ - ورؤية زعامتها لـ «اللعبة» كلها ٨٣، ٨٤، ١٥٧، ٢٠١ - والرؤية الشعبية المغلوطة للصراع مع الصهيونية واسرائيل ٢٢٤، ٢٢٥ - ورؤيتها الثورية للصراع ١٧ - ٢٢، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٤٨، ٢٩٢ - ٢٩٥، ٣٠٤ - السادة القدامى والسادة الجدد ١١١ - والسجون الحربية (انظر أيضاً البسيوني، حمزة) ٦١، ٧٤، ١٤٦ - وسلطة الحياة والموت على رقاب المصريين ١٥١ - سيادة الإرادة الواحدة ١٥٤ - و «سيادة الشعب» ٧٨ - سيادة القانون تخريب للثورة المباركة ١٥٠، ١٧٠ - والسيادة المصرية ٨٢، ٨٣، ٨٩ - السياسة الخارجية والمسؤولية عن وضعها وتسييرها ٦٤، ٦٦، ٧٠ - ٧٢ - و «السيطرة الطبقة في الديموقراطيات البرلمانية ١٣٦ - سيناريو أوبرا صابون، وتحويل الحياة في مصر إلى ١٧٠ - وسينمائية كل الأشياء ٢٤٢ - و «الشارع السياسي» المصري ٥٥، ١٤٥، ١٦٣، ١٩٤، ٢٠٢، ٢٠٧ - والشارع المصري بعد الهزيمة (١٩٦٧) ١١١، ١٢٠ - والشبق إلى حضن امريكا ١٩، ٥٩، ٦٦، ٧٣، ٧٥ - شبكة مخابرات، وتحويل المجتمع كله إلى ١٦٣ - والشرعية ١٧٤ - وشرك ١٩٦٧ المميت ١٣، ١٧، ١٩، ٩٩، ١٠١، ١١٩ - ١٢١، ١٨٩، ١٩٢، ٢١٦، ٢١٧، ٢٣١، ٢٣٦، ٢٤٣، ٢٨٧، ٣٠٦ - والشطارة الاعلامية ٢٦٥ - و «الشعب القائد» و «الشعب المعلم، المستعارة من الهتلرية ١٥٠، ٢٠٢ - و «الشعب مصدر السلطات» كذريعة مشروعة لهدم سلطان القانون ١٥٠ - والشمولية ١٣٠، ١٣٨، ٣١٦ - والشمولية السلفية ١٣٠ - والشمولية التقدمية ١٣٠ - والشيوعية والشيوعيون (انظر أيضاً بلشفية، الحرر) ١٨، ٥٧ - ٦٠، ٧٣، ٧٥، ١٣٤، ١٥١، ١٥٩، ١٧٥، ٢٠٤، ٢٥٩ - والصحافة وكتبة الصحف والمجلات ٧٩، ١١٩ - ١٢١ - كاداة لمحاربة الديموقراطية ١٣٣ - وتشغيلها كجهاز مخابرات ١٦٣، ١٧٠ - وتملكها ١٣٧، ١٥٢، ١٥٥ - وتملك ضمائر كتبتها ١٣٧، ٢٢٢ - وصراع الطبقات ٢٠٤ - وصناع الرأي (انظر أيضاً كتبة الصحف، مثقفون) ٥٦، ٦٥، ٧٨، ١١١، ١٧٠، ٢٦٥ - وصنع القرار السياسي ٨١، ١١٩، ١٤٢، ٢٠٠ - ٢٠٢، ٢٠٣ - وصوغ «وعي سياسي» للشعب ١٣١ - وصيغة «الشعب مصدر كل السلطات» الفاشية ١٤٩، واستخدامها غوغائياً ١٥٠ - وضياع دخل مصر القومي ٢٦٢ - والظلم الذي يلحق بالضباط الشرفاء ١١١ - وعالم الواقع الخارجي والعالم الموهوم الداخلي ٤٩، ٥٣، ١١٩ - ١٢١، ١٢٤، ١٣٦.

- ١٩٨، ٣٠٢، ٣١١، ٣١٤، ٣٢٥ - والعالم المخلوق المكذوب (انظر أيضاً خلق عالم موهوم) ١٦٦ -
و «العدالة الاجتماعية» ٧٨ - والعدو الخارجي ٧٩، ١١٩، ٢٢٥، والداخلي ٧٩، ٢٢٥، والحقيقي ٢٢.
٥ - والعرب ٩١ - والعزة والكرامة (انظر أيضاً المجد والخلود) ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٨٩ - والعصابات
الأميرية ٢٦٧ - و «عصابة تحكم البلد يا أنور» ٨٠، ١١٤، ١٢٧، ١٦٢ - والعفن الداخلي ٢٢٥، ٢٢٩،
٢٣٥، ٣٠٢ - وعمالة المثقفين الملتزمين ١٥٥ - والعهد الملكي ١١٠، ١٤٩، ١٤١ - والعهد الناصري
١٠٨ - وعارتها على مصر ١٣٥ - وغسل المخ اليومي ١٩٣ - والعواعة ١٤٧، ٢٢٥ - وغول التضخم
الرامح ٢٠٢، ٣٠٤ - وغول المديونية الخارجية ٢٠١، ٢٠٢ - وغياب التنظيم السياسي ١٤٢ - وغياب
الأيديولوجية والفكر ١٥٣، ١٥٤، ٢٠٤ - والغياب الكامل للديموقراطية وحكم القانون ١٧٠ - ١٧٢ -
وغياب الوعي بتصارع القوى الاجتماعية ١٥٣ - وغياب الوعي بحركة التاريخ ١٤٠ - والغيبيات ١٧،
١٨، ١٢٤، ٢٠٥، ٣١٤ - وغيلان العجز في الميزانية العامة والميزان التجاري وميزان المدفوعات
٣٠١ - ٣٠٤ - والفاشية ٤٤، ١٣١، ١٣٤، ١٢٧، ١٢٨، ١٤٦، ١٤٧، ١٦١، ١٧٤، ١٧٥، ١٩٥، ٢٦٧ -
فبراير ١٩٤٢، وأحداث (انظر أيضاً العهد الملكي) ٦٧ - والفراغ السياسي ١٢٨ - فساد النظام القديم
٢١، ٥٩، ٦٠، ٦٥ - وفساد النظام «الثوري» الجديد ٢٦٣، ٢٦٧، ٣٠١، ٣٠٢ - الفعل فوق الفكر، ومبدأ
١٢٨ - وفقدان الحس الوطني ١١١ - والفكر الأساسي للفاشية ١٢١ - وفلسفتها ٦٠، ٦١، ٦٦، ٦٧،
١٢٣، ١٤٧، ١٦٦، ٢٩٣ - وفلسفات الفاشية ١٢٨، ١٢٩، ١٤٧، ٣١٦ - وفوهة المسدس، مخاطبة
الشعب من ٥٥ - والقادة الثوريون ١٣٥ - والقانون ١٧٠، ١٧١، ١٧٥، ١٩٤ - كثورة مضادة ١٥٠،
١٥١ - كغريم خطر ١٤٩، ١٥٠ - وقانون الغابة ٩٥، ١٤٩ - وقداصة الزعيم ١٧٢ - القنصاة ومعاملتهم
كمخربين ١٥٠ - - القضية وضدها في السفسة الفاشية ١٣٩ - - والقطاع العام ١٦٠، ٢٦٣ -
وقوانين التاميم ١٦٠ - والقوى «المعادية للشعب الكادح» ١٥٧ - وقوى الفوضى والطغيان
واستخدامها القانون كسلاح ١٤٩ - وقيادات العمال ١٤٨ - وقياداتها السياسية ١١٠، ١١١، ١٢٥ -
وكابوس المؤسسة العامة و «السيد الأستاذ» ١٦٠ - والكتبة (انظر الصحافة، المثقفون) ١٧٠، ٢٣٥،
٣٠٢ - والكتلة الشرقية ٢٠ - وكتلة النظم الفاشية الهلامية ١٥٢، ١٥٤ - والكذب باستماتة واصرار
١٢٠، ١٦٤ - كفالة الحريات بالقانون واعتبارها تخريباً ١٥٠ - والكفاءة المكروهة ٢٢٥ - والكلابية
cynicism ١٣٥، ١٦٥، ١٦٦ - والكلية الحربية ١١٠ - كمنفذ إلى الثراء السريع ١١١ - وكون كلمة
الزعيم ككلمة الإله Flat ١٦٩ - والكلام المزدوج ١٢٨، ١٢٩، ١٩٢ - ولب الصراع ٢٢٢ - ولجنة عليا
لتأديب القانون ١٥٠ - واللجنة المركزية العليا ١٧٤، ١٩٤ - واللعب بالسماع في كل المجالات ٥٩،
٦٣، ٧٢، ٨٣، ١١٥، ١٣٠، ١٤٦ - ولعبة السياسة ١٣٥ - ولعب ورقة إسرائيل وفلسطين الحبيبة
١٥٨، ١٩٧، ٢١٦، ٢٣٤، ٢٧٠ - ولعب ورقة الصراع مع الصهيونية ١٩، ١٥٩، ٢١٥، ٢١٦، ٢٩٢،
٢٩٣ - ولعب ورقة الاشتراكية ١٥٨، ١٥٩ - ولعب الورقة السورية ٢٤٢ - ولعب الورقة السوفييتية
١٧٥ - وورقة ضرب الغرب بالشرق ٢٠، ٢٦٥ - ولعب ورقة التحول الاشتراكي ١٦١، ١٦٢ - والورقة
الصينية، محاولة لعبها ٢٠٩ - واللغو الديماغوجي ١٢٢ - واللوز بالغيبيات ٢٠٥ - ولؤم القضاة
١٥٠ - ولونها السياسي ١٧٥ - وماخذها على النظام الديموقراطي البرلماني ١٣٢ - و «ما اخذ بالقوة
لا يسترد إلا بالقوة» ١٩٧، ٢٨٧، ٢٩٠ - تتحول إلى ما اخذ بالقوة يسترد بالتصالح ١٨٧ - ١٩١ -
والمثقفون ١٢، ٧٨، ٨٢، ١٣٩، ١٤٦، ٢٠٤، ٣٠٢ - والمجازفة بالترشيح للمجلس «النيابي» ١٤٨ -
والمجتمع القديم ٦٣ - ومجتمع النصف في المائة ١١٠، ٢١٦ - والمجتمع الطنّيع ١٤٠، ١٧٠ -
والمجد والخلود (انظر أيضاً العزة والكرامة) ١٢١، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٢٠ - والمجلس الأعلى للصحافة
(انظر أيضاً صحافة، كتبة، مرتزقة) ٤٣، ٤٤ - والمجلس الأعلى للقوات المسلحة ٢١٧ - ومجلس
«الامن القومي» ٢٠٣، ٢٨٣ - ومجلس «الحكماء» (انظر أيضاً مركز الدراسات، هيكل) ١٢٧ - ومجلس
الدفاع العربي المشترك ٨٨، ٢٣٥، ٢٤٣ - ومجلس الدفاع الوطني ١١٣، ١١٩ - ومجلس الدولة (انظر
ايضاً اخصاء، تأديب، القانون، القضاء، مظاهرات، مذبة الهيئة القضائية، الدكتور السنهوري)
١١٥، ١١٦، ١٤١، ١٥٠، ١٥١ - ومجلس الرايخستاج الهتلري ١٤٨، ١٤٩ - ومجلس الرئاسة ١١٤ -
ومجلس الشعب (انظر أيضاً إيهام، «برلمان»، السلطة التشريعية، شرعية، مجلس الغمة) ١٣٤، ١٤٨،

١٥٥، ١٩٤، ٢٠٠ - ٢٠٢، ٢١٥، ٢٤٠، ٢٤٢ - ومجلس الشيوخ (انظر أيضاً العهد الملكي) ١٢٩ -
 ومجلس الغمة (انظر أيضاً نواب الشعب، عبد اللطيف البغدادي، انور السادات) ٥٢، ٨٢، ١١٣،
 ١١٤، ١٣٤، ١٤٨، ١٤٩، ٢٠٠ - ومجلس قيادة الثورة (انظر أيضاً انتهاء فكرة القيادة الجماعية،
 مجلس الرئاسة، وحدانية الزعيم) ٦٣، ٧٥، ١٠٨، ١١٤، ١١٦، ١٢٣، ١٣٦، ١٤١، ١٤٢، ١٥٩،
 ١٧١ - ١٧٣، ٢٠٠، ٢٦٠، ٢٦٨ - ومجلس النواب في النظام الفاشي الإيطالي (انظر أيضاً شرعية،
 فاشية) ١٤٧، ١٤٨ - ومجلس الوزراء ٦٥، ٩٨، ٩٩، ١٩٤ - والمحاربون المفاوضون، كتاب كمال
 حسن علي ٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٩ - ومحاكم التفتيش ١٤٦ - والمحاكم الغوغائية ١٥١ - والمحترفون
 العسكريون (انظر أيضاً استبعاد العسكريين المحترفين، الكفاءة المكروهة) ١١٣ - والمخابرات
 (انظر أيضاً الأجهزة، ارباب الدولة، اعتقال، تخابر، تجسس، تعذيب، دولة المخابرات وإعلان
 سقوطها بعد الهزيمة) ٢٨، ٤٥، ٤٩، ٥٢، ٥٥، ٧٤، ٧٨، ٧٩، ٩٣، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ١٠٦، ١١٣، ١١٩،
 ١٢٤، ١٣٥، ١٤٨، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٠، ١٦٢ - ودورها في هزيمة ١٩٦٧ ٩٦، ٩٧ - والمخابرات
 الاسرائيلية ١١٨ - والمخابرات البريطانية ١٩، ٥٨ - ومخابرات الرئاسة ١٥٦ - والمخابرات المركزية
 الاميركية، وكالة ٧٢، ٧٤، ٧٦، ٧٩، ٨٧، ١٠٨، ١٥٥، ١٥٦، ١٧٤ - ومديرية التحرير ١٧٤ - ومديونية
 مصر الناجمة عن شراء الأسلحة وتركها للعدو ٣٠١ - ومذبحة الاقتصاد ١٦٠ - ومذبحة الديموقراطية
 البرلمانية ١٦٠ - ومذبحة الصحافة ١٦٠ - ومذبحة الهيئة القضائية ١٤٩، ١٥٢، ١٦٠ - ومرتزة
 الفكر، ١٢٩ - ومركز الدراسات بالأهرام (انظر أيضاً هيك) ٥٤ - المزرعة وتسيير شؤونها ١٤٧،
 ١٩٤ - والمستفيدون الوحيدون من الاشتراكية، ١٥٩، ١٦٠ - ومستودعات الأفكار think tanks
 (انظر أيضاً مركز الدراسات بالأهرام، هيك) ٥٤ - ومسرحية مجلس شعب (انظر أيضاً الشيخ
 عاشور) ١٥٥ - ومسلسل التصالح ٢٩٠ - ومسلسل وقف اطلاق النار ٢٢٧، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٤، ٢٦٢،
 ٢٦٦ - والمشروعية وضرورة ادعائها ١٤٩ - ومشينة الزعيم هي القانون ١٥٢ - والمشير الصاغ
 ١١٠، ١١٢ - وتسليمه القوات المسلحة ١١٤ - والمصادرة والتأميم كاسلحة (انظر أيضاً الحراسة
 كسلح) ١٦٠ - ومصالح الطبقة العاملة، ١٤٩ - والمصالحة بين الطبقات فاشياً (انظر أيضاً
 تناقضات المصالح، الحزمة الفاشية) ١٦١ - والمظاهرات الغوغائية ١٤١ - والمظاهرات العسكرية
 (انظر أيضاً تهويز) ٦١، ٨٢ - المعارضة واعتبارها خيانة ٣٠٣ - المعارضة واحزابها ٢٠٢ -
 والمعارضة في النظم البرلمانية ١٢٣ - المعارضة وقطع الطريق على إمكانية وجودها ١٤٨ -
 ومعاهدة ١٩٣٦ ٦٨، ٨٠ - المعركة فوق كل شيء، كنتيك فاشي تقليدي (انظر أيضاً لا صوت
 يعلو) ١٢٨ - والمعتقلات ٥٣، ١٥٥، ١٩٣، ٣٠٣ - ومغامرة الثورة، ١٣٥ - والمغامرة
 العسكرية/الاعلامية كبديل للحرب ٨٢ - والمفهوم الماركسي للديموقراطية ١٢٦ - والمقاومة الشعبية
 ١٠٧ - ومكاسب الاعوان من الاشتراكية، ١٦٠، ١٦١، ٢٦٣ - ومكاسب الشعب الكادح، ١٦٠ -
 و«ملتزمون»، ١٣٦، ١٦٢، ٣٠٢ - وملكية العزبة ١١١، ٢٠٤، ٢٦١ - والمماحكة بالانعاش
 الاقتصادي للخروج من ورطة الصراع ٣٠٠، ٣٠٤ - والمنتفعون ١٣١، ١٣٧، ٣٠١، ٣٠٢ -
 والمنظرون ١١١، ١٣١ - ١٣٦، ١٤٧، ٢٠٢ - ومنظمات الشباب ١٥٢ - والمؤتمر القومي ١٩٤، ٢٠٠ -
 والمؤسسات التي تنبني عليها دولة عصرية ٥٢، ٨٢، ٩٧، ١١٢ - و«الموضوعات العصرية»، ٨١ -
 وميثاق العمل الوطني ١٣٦ - وميثاق الجامعة العربية ٢٦٥ - و«سي، ميرابو» ١٣١ - والنتاج القومي
 الاجمالي ٣٠١ - والنتاج المحلي الاجمالي ٣٠٣ - والناخبون ١٢٢، ١٢٣ - ونسبة الـ ٥٠٪ للعمال
 والفلاحين بمجلس الشعب/الغمة كمنفذ إلى الشرعية ١٤٨ - ونقل ملكية الصحافة «إلى الشعب»،
 ١٥٢ - والنمط الفاشي السلفي (انظر أيضاً الإخوان المسلمون) ٢٠١ - والنهب ١٧٣، ٢٣٣، ٢٥٧،
 ٢٦٣، ٣٠١ - ونواب الشعب ٥٣، ٥٥، ٧٨، ١١٣، ١١٤، ١٤٨، ٢٤٠، ٢٩٩ - والنكسة ٥٣، ٨٠، ٩٢،
 ٢٦٣ - وهزيمة ١٩٦٧ (انظر أيضاً شرك، نكسة) ١٨ - ٢١، ٤٦، ٦١، ٨١، ٩١، ١٠٦، ١١٧، ١٦٨، ٢٠٢،
 ٢٠٦، ٢١٥، ٢٣٤، ٢٥١، ٢٦٥، ٢٦٦، ٣٠٦، ٣١٤، ٣١٨، ٣١٩ - كثاني اكبر انتصار للصهيونية بعد
 إنشاء الدولة ٣٢٠ - وهيئة التحرير ١٣٦، ١٦٢، ٢٠٠ - والهيئة التشريعية ١١٣ - والهيئة
 القضائية ١١٦ - وهيستريا الاذاعة ١٢١ - والوادي الجديد ١٤٨ - والواقعية البراجماتية

١٩٣ - والوجه الفاشي ١٣٥ - ووحداية الزعيم ١٨، ١٩، ٨١، ٨٢، ١٠٦ - كمطلب جوهرى في نظام فاشي ١٣٧، ١٤٠، ١٤٢ - وترسيخ وحدانيته ١٤٢، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٥، ١٦٦، ١٧٢، ١٧٣، ١٩٣، ١٩٣، ٢٠٢ - ووحدة النضال ٢١١ - الوحدة ٢٣، ٦٥، ٦٦، ٨٢، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٩٥، ١١٤، ١٧٤، ٢٩٩ - ووحش فرانكشتاين ٢٠٠، ٢٠١ - وورطة مصر الاقتصادية ٢٥٧ - والورم البيروقراطى الذى تحول إلى سرطان ٣٠٢ - ووسائل الاعلام (انظر أيضاً التبهم، غسل المخ اليومى) ١٢٧ - والوطنية ٤٤، ٥٨، ٦٧، ٦٨ - والوطنية المتطرفة المزعجة للأمريكان ٧٥ - والوفد، حزب ٦٨، ١٢٣، ١٦٥ - والولاء لأمريكا (انظر أيضاً الشبق إلى حضن أمريكا ٢٢٢ - والولاء لذكرى الزعيم ١٠٨ - والولاء لمصر ١٠٨ - ولا أحزاب ولا برلمان، مظاهرات ١٢٤ - اللابطبيقية، الثورية، ١٣٥ - واللابطبيقية النازية ١٥٤ - اللامعقلانية ١٣٩ - لا صوت يعلو على صوت المعركة، فوائد شعار ١٥٨، ٢٢٤، ٢٩٣، ٢٩٥، ٣٠٢، ٣١٤ - لا فكر ولا أيديولوجية ١٥٣ - و، اليسار، المصري ٢٠٤، ٢٠٥ - يموت الفلسطينيون ونفجو نحن، ومبدأ ٢١٥ - واليمين السلفى ٢٠٤، ٢٠٥ -

الحاكم

كاب للمحكومين ١٢٩، ١٣٠، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧، ٣٠٢ - كآله أرضى ٨١، ١١١، ١١٩، ١٥٦ - والجبن العام ١٠٦ - والحكم الفردي المطلق ١٣٠، ١٣٥، ١٣٧، ١٤٢، ١٤٨، ١٦٦ - ١٦٨، ١٧٠، ١٩٣ - وخنوع المصريين التقليدي ١٥٦، ٢١٢، ٢٢٤، ٣٠٢، ٣٢٠ - وخيريته المدعاة ١٣٠ - ودمج الحاكم/الزعيم في الأمة/ الشعب في الوطن/ الدولة ٤٣ - ٤٥، ٥٢، ٥٣، ٧٨، ٧٩، ١١٦، ١٣٧ - كطاغية ٦٥ - ومبدأ سيادة الارادة الواحدة ١٥٤ - وممارسة السلطة بلا شرك ١٤١ - وميل المصريين إلى تاليه ١٥٦

الرئيس:

انتقاده حياة للوطن ٤٤ - والذعر من غضبه طريقة حياة ٦٢ - والذهاب إلى الحرب خوفاً منه ١٠٨، ١٠٩ - وصون بقائه ولو على حساب بقاء مصر ٢٣٥ - وعدوه الشرير القانون ١٥٠ - وكونه كبير القلب ١٣٠ - ومناقشته تطاول على ذاته العلنية ١٧٣، ١٧٤ - ومنحه مصر ليفعل بها ما شاء ٥٤، ٥٥ - لا حاجة به إلى مشورة احد ٦٥

الزعيم:

١٨، ١٩، ٢١، ٤٣، ٤٤، ٤٧ - ٥٤، ٦١، ٧٧، ٨١، ٨٢، ٩٥، ١١٠، ١١١، ١١٩، ١٣١، ١٣٦ - ١٣٩، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٠ - ١٥٤، ١٥٧ - ١٦٠، ١٧٠ - ١٧٤، ١٨٩، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٧، ٢١٦، ٢٦٠ - ٢٦٣

الزعيم الخالد (جمال عبد الناصر). (انظر فهرس الاعلام)

وابتزاز اعوانه له بالثرثرة عن الحرية بمسمع من الشعب ١٣١ - وابتنعده عن الاتجاه الدموي واسلوب الاغتيالات ١٤١، ١٥١، ١٦٤ - ١٦٦ - واحتراسه من إغضاب امريكا ٧٥ - والاحتلال البريطانى ١١٠، ١٢٠، ١٧٠ - واختياره السادات ليخلفه ١٤٠ - ١٤٦ - واختياره اعوانه ممن لا تخشى منافستهم له ١٤٢ - واختياره للوزراء ٦٤ - والارتزاق لديه ١٣٦ - والأرواح (انظر أيضاً تحضير الأرواح) ١٢٩، ١٤٢، ١٤٣ - واستجارته بالصعايدة والفلاحين بعد الهزيمة ١٠٨ - واستبعاده نشوب حرب ١٩٦٧ - ١٠٦، ٩٨، ١٠٨ - ١١٤ - واستبعاده وقوع عدوان ١٩٥٦ - ٩٨ - واستخفافه بالسادات وإذلاله إياه ١٤٣ - واستدراجه إلى شرك ١٩٦٧: ١٣، ١٧، ١٩، ٣٧، ٤٣، ٨٦، ٩٢، ٩٥ - ٩٩، ١٠١، ١٠٢، ١٠٦، ١١٩، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٣، ٢١٦، ٢٨٧ - واستشفاه في الاتحاد السوفياتى ١٤٣ - والاستيلاء على السلطة ٦٦، ٧٨، ١٣٢، ١٤٠، ١٤٦ - واعتناقه الاشتراكية، بالصدفة ١٣٥ - واعتناقه مبدأ «أنا الدولة»، ٥٦، ٢٩٩ - وإعلانه «أنا لن أحارب، سنة ١٩٦٧: ١١٤ - وإغافلته بذكر الديمقراطية أمامه ١٣١، ١٩٢ -

والالتزام به ٧٨ - والتزامه بقضية فلسطين ٢١ - وانفراده بالرأي والسلطة وصنع القرار ١١٤، ١٣٠، ١٣٧، ١٤٢ - وباوندونج، مؤتمر ١٥٧ - والبراعة في التكتكة بغير استراتيجية ١٥٤ - وتأييد زعامته ١٧٠ - وتأذيه من الانفصال ٨٢، ٨٣ - وتأذيه من حرب الاذاعات ٨٢، ٨٣، ٨٩، ١٠٢، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨، ١١٩ - وتأكيده في عنفوان ازمة ١٩٦٧ بأنه لن يحارب ٦٥، ٩٢ - و «تأكيدات الروس ٩٨، ٩٩ - وتاليهه الذي افضى إلى تألهه ٥٢، ٥٦، ٦٥، ٩١، ٩٨، ١١٠، ١٧٠، ٢١١، ٢٣٥، ٢٦٥ - وتأمين بقائه ١١٩، ١٧٠، ٢٣٥ - ٢٣٨، ٢٩٢ - وتبرير تورطه في الكونغو ١٠٩ - وتحاذي مساره مع مسار هتلر ١٥٤ - وتحالفه مع المسلحين في مواجهة شعب اعزل ١٧٠ - وتحضير الأرواح ٧٣، ٧٤، ١٢٩، ١٤٢، ١٤٣ - «وتحطيم الأسطول السادس» ٩٩ - وتحفظات السوفيات ٩٨ - وتشكيكه أول حكومة «ثورة» ٦٣، ٦٤ - وتصوره المغلوط للوضع في سنة ١٩٦٧ ٨٩ - وتصيد الاسرائيليين والاميركيين مصر باستغلال وحدانيته ١٦٧ - ١٦٩ - والتطاول عليه بمجرد المناقشة ١٧٣، ١٧٤، ٢٠٠، ٢٠٢ - والتعبئة العامة سنة ١٩٦٧ على سبيل التهويش ٩٢ - وتفكك القوات المسلحة تحت قيادة المشير/ الصاغ ٨٠، ٨١ - وتفويض «نواب الشعب» له تفويضاً مطلقاً ١١٤، ١٤٨ - وتلقي الضربة الأولى (والقاضية) في سنة ١٩٦٧ بقرار منه ١١٢ - وتلقي الضربة - «جعل موقف أمريكا والدول الكبرى معناه» ١١٢، ١١٣ - وتملك اقلام كتبة الاعلام وضمايرهم ١٣٧ - وتملك العزبة ١٧١ - و«التنحي» عن الحكم ٤٥، ٤٦، ١١١ - وتنكيله بزملاء «الكفاح» ١٤٣، ١٤٤ - وتهديده قبل الهزيمة بشهر بأنه سيدمر اسرائيل على كل الجبهات ٨١، ٨٩، ١٠٨ - والتهويش ١٩، ٢٢، ٨١، ٨٣، ٨٩، ٩٢، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٦ - وثقافته ٤٧ - ٤٩، ٥٤ - ٥٦، ٦٠ - ٦٢ - والثقة المطلقة فيه ٩٧ - كالثقة المطلقة في هتلر ١٥٤ - وجماعية القيادة ١٣٦ - وجهله بقدرات مصر وقدرات العدو وابعاد الوضع ٨١، ٩٣، ٩٨، ٩٩، ١٠٥، ١٠٦، ١١٩ - وجهل المشير/الصاغ الذي سلمه القوات المسلحة بكل شيء عن العدو الغادر ٩٣، ٩٨ - «حافة الهاوية» وممارسته للعبة ١٠٨ - وحالته الصحية والنفسية في أواخر أيامه ١٤٣ - حذائه والتسلق إلى ما تحته ١٣٦ - وحرب ١٩٤٨ - ١٣٥ - وحرب الأيام الستة (انظر أيضاً تهويش، نكسة، هزيمة) ٤٣، ٩٠، ٩١، ١٠٦، ١١٩، ٢٢١، ٢٥٠، ٣١٧ - وتحويلها إلى تمثيلية اذاعية من صوت الحرب ١٠٦، ١٠٧، ٢٣٥، ٢٣٦ - الحرب الخائبة ٣٠٦ - غير محسوبة النتائج ٩٨، ١٠٥ - وحرب الاستنزاف ١٨٢، ١٩٠، ٢٠٩، ٢٥١ - وحرب الكونغو (انظر أيضاً تبرير التورط فيها) ٧٦، ٨١، ١٠٩، ٢٢٩، ٢٤٤ - و«الحرب المحدودة» إن أمكن ٢٢ - وحرب اليمن (انظر أيضاً صراع عربي داخلي، غارز في اليمن) ٨٠، ٨١، ٨٣، ٨٧، ١٠٩، ٢٩٠ - والحسابات المعقدة ٥٣، ٥٦، ٥٨، ٧٠، ٧١، ٧٣، ٨٣، ٨٥، ٨٩، ٩١، ٩٨، ١٠٩، ١٢١، ١٤٤ - وحقيقة الجيش ١١٤ - وحكم الاعدام على ابراهيم عبد الهادي ورفضه التصديق عليه ١٥١ - وحكم اعدام على القوات المنسحبة سنة ١٩٦٧ ١١٦، ١١٩ - والحلقة الداخلية لحركته المسلحة ١٢٩ - وحمايته بالأجهزة من احتمال تمرد القطعان ١١١ - وحوادثه البريطاني (انظر أيضاً «الدولة الذيل»، «قصة الثورة» كتاب انور السادات، معسكر منقباد) ٦٦، ٦٧ - وحيرته من «موقف أمريكا» ٩٩، ١٠١ - و«الخبراء» الألمان وصواريخهم ٨٥ - والخبراء الألمان لتدريب المخابرات ١٥٥ - و«خبرته بالحرب» التي جعلته يكره الحرب ٢١ - ٢٢، ١٠٨ - وخراب مصر ٢٠، ٢٤، ٢٥، ٤٥، ١٦٠، ١٩٥ - وخزائنه ٢٥٥ - وخطه الزعامي ١١٥، ١٩٣، ٢١٨، ٢٣٤ - والخطأ الفاحش في تقييم الوضع سنة ١٩٦٧ ١١٧ - والخطابة كبديل للفكر والعقيدة ١٣٨، ١٤٧ - والخطابة كدواء له ١٤٣ - الخطابيات المشتعلة ٨٨ - وشن الحرب بها خطابياً ١١٦، ١٢١ - وخطبة «أمريكا تشرب من البحر» (انظر أيضاً مصالحة السفير الأميركي) ٥١، ٧٦، ٧٧، ٢٣٤ - و«خروجه من القيادة العامة للقوات المسلحة ١٠٦ - الخطر الصهيوني ومدى وعيه به ١٩ - و«خطوة الأوزة في المعمورة» ١٤٣ - وخوفه من احسار زعامته ٨٣، ١١٤، ١١٩ - وخوف الكل من مناقشته الرأي ١١٢ - وخبريته ١٣٠ - والخية الاسرائيلية حول عنقه ومن خلاله حول عنق مصر ٨٩ - دخول الوزارة في ظله وكونه كدخول السجن او صعود درج المشنقة ٦٤ - والدفاع عنه رغم كل شيء ٢٢٢ - ودوافعه إلى «الاشتراكية» ١٦٠ - ودوائر الثلاث العربية والافريقية والاسلامية ١٣٩ - والدول العربية «التقليدية» ١٧، ١٨ - والدولة كاداة للسلطة ١٥٤ - «دولة المخابرات المنحرفة» وعدم اكتشافه لوجودها إلا بعد الهزيمة، ٧٨، ٧٩،

- ٩٥ - «الدولة الذيل» وإصراره على وصف بريطانيا بتلك الصفة ٦٧ - ودمشق ٢٥، ٢٦، ٨٨، ٩٧، ٩٨ -
 وذهب غطاء العملة بالبنك المركزي ٨٠، ١٠٩ - ورئيس الأركان ٨١، ٨٨ - ورئيس الوزراء وتمثيل
 دوره في ظل زعامته ١١٢، ١٤٨ - والرجعية ١٨، ١٣٥ - ورحيله ١٤٤، ١٨٨، ٢٦٦، ٢٦٧ - ورسالة
 جونسون إليه ١٠٠، ١٠١ - والروس يخططون كيما يخلفه علي صبري ١٤٣ - و«رومانسية» ماساة
 ١٩٦٧ ٩٨ - وروزفلت، كيرمت ٧٦، ٨٤ - رولو، أريك وحديثه الصحفي معه ١٠١ - ورؤيته
 المغلوطة لأوضاع الصراع ودور أمريكا ٧٠، ٧١، ٨٣، ١٠١ - ورؤيته للشعب وازدراؤه لدور الجماهير
 ١٢٦ - وزملاء «الكفاح» ١١٢، ١١٤، ١١٥ - سفير الهند واستخدام الدكتور محمود فوزي له في
 تخويف عبد الناصر من غزو لندن ٤٩ - ٥٢ - والسد العالي ٧٦، ٧٧ - وسحب قوات الطوارئ الدولية
 ٨٢، ٨٣، ٨٨ - ٩٠، ١١٤ - وسقوط دولة المخابرات المنحرفة ٦١، ٨٠ - السياسة الخارجية واستغناؤه
 عن أي مشورة في شأنها ٦٤، ٦٥، ٧٠ - السلاح والحصول عليه للعسكر ٧٤ - ٧٧ - السوفيات
 ومطالبتهم إياه بعدم توجيه الضربة الأولى سنة ١٩٦٧ ١١٢ - والسلطة بلا شريك ١٤١ - والسلطة
 التشريعية ١٤٧ - والسلطة الرابعة ١٣٧، ١٤٧ - والسلطة القضائية ١٤٧ - والسينما ٤٧ - ٤٩، ٦٤ -
 والشطارة ١٠٨ - وشرنقة الزعامة ١٠٦ - وشرك ١٩٦٧ ٤٣ - ١٢٠ - شعبيته ١٥٤ - ١٥٦ -
 وشعبية هتلر ١٥٤ - وشغلة الحكم ١٣٠ - والإصلاح الزراعي (انظر أيضاً محمد خطاب) ١٣٩ -
 صاحباً للعزبة ٦١، ٧٣، ١٠٨، ١١٠، ١١١، ١١٦، ١٢٤ - والصراع على السلطة ٥٢، ٨٤، ١٤٢ - ١٤٤ -
 صراع عربي، وإشغال (انظر أيضاً حرب اليمن) ٨٢ - والصراع العربي الإسرائيلي ١٣، ١٧، ١٨، ٣٣ -
 وصفقة الأسلحة السوفياتية ٧٦، ٨٤ - وصراع القوى الكبرى ١٠٩ - وصنع القرار بلا مناقشة ولا
 مشورة ١١٩، ١٤٢ - وصمته عما كان حادثاً في العزبة ١٠٦ - والصواريخ (انظر أيضاً الخبراء الألمان)
 ٨٥، ٨٧ - الضباط وتسيدهم في ظل تحالفه معهم على العزبة ٦٣، ٦٤، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٨٣، ١١٠،
 ١١١ - ضباط الرتب العليا وضباط الرتب الدنيا والفجوة الطبقية بينهم ١١٠ - الضباط الشرفاء
 والظلم الواقع عليهم ١١١ - وضياح القوات الجوية ١١٢ - والضغط الهائل على إسرائيل ٨٨ -
 والطابع شبه الديني للإيمان بوحدانيته وقداسة نظامه ١٤٦ - والطغيان ٦٥ - وطموحه إلى تزعم كل
 العرب ٩٠، ١٠٥، ١٧٥، ٣٠٨، ٣١٠ - وطلاء سيئات النظام ١١١، ١١٢ - و«طلع حاجة للجرايد»
 ١٠٦ - وطعن مصر في مقتل ٨١ - والظروف الدولية ١١٢ - وعدم اكتشافه لحقيقة إسرائيل إلا بعد
 مؤتمر باندونج ١٥٧، ١٥٨ - وعدم اكتشافه خطورة الصهيونية إلا متأخراً ٨٤، ٨٥ - وعيوبه في نظر
 السادات ١٤٣ - والعلاقات العربية الأمريكية ٧٢ - والعدوان الثلاثي (١٩٥٦) ٤٥، ٤٦، ٧٦، ٨٤، ٨٥،
 ١٠٧ - وعدم الاجترار على إعلان الحرب، سنة ١٩٦٧ ١١٤ - و«عامر هو الذي فعلها» ١١٧ - وعهده
 الناصري ١٠٨ - و«العصابة» التي حكمت البلد في ظله ٨٠، ١١٤، ١٣٧ - والعدوان الإسرائيلي على
 غزة ٨٤، ٨٥ - و«عصا البغدادي السحرية» ١٤١ - و«غارز في اليمن» ٨٣، ١٠٦، ١١٩ - وغاندي وما
 فعله به الإنجليز عندما غزا لندن ٥٠ - ٥٣ - الغزوة الاستيطانية الصهيونية وعدم وعيه بحقيقتها
 ١٨ - ٢٠، ٢٣، ٤٨ - والغيبيات ١٧، ١٨ - غنيمه حرب، ومعاملة مصر بتلك الصفة ١١٢، ١١٦ -
 والغزو الإسرائيلي الشامل ١٠٧ - والفالوجا (انظر أيضاً حرب ١٩٤٨، وخبرته بالحرب جعلته يكرها)
 ٢١ - والفاشية ٤٤، ١٣١ - ١٣٤، ١٣٧، ١٣٨ - والفهلوة الزعامية ١٠٨ - والفروسية بالاذاعة ١٠٥ -
 فكرة ٨٤ - وفكر موسوليني ١٢٨، ١٣٩ - «فلسفة الثورة» ١٣٩ - و«كفاحي» لهتلر ١٤٧ - وقبوله مبادرة
 روجرز ١٨٨ - وقتل مصر ٣٠٢، ٣٠٣ - والقيادة العسكرية ١١١ - ١١٢ - وعبد الكريم قاسم (الزعيم
 الأوحده) ١٢، ٢٧، ٨٦، ١١٤ - وقناة السويس ١٨، ٤٥، ٤٩ - ٥١، ٦٠، ٦٧، ٧١، ٩٢، ١١٦، ١٣٩،
 ١٤٠، ١٦٧، ٢٨٧، ٢٨٨ - والقومية العربية ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٨٣، ٩١، ١٣٩، ٢٨٧ - و«قصة الثورة» كتاب
 أنور السادات ٦٦ - والقانون ٧٨ - والقدرات العسكرية للعرب ٨٦ - وقدرته على أن يقول للشيء كن
 فيكون في العزبة ٩٨ - وقرار الحلاق المضيق ٩٥، ٩٦، ١٠٧، ١١٢ - والقرار الجمهوري كسلاح ماضٍ
 ١١٢ - وقرار الانسحاب سنة ١٩٦٧ ١١٣، ١١٦، ١١٩ - والقضاء ١١٥، ١١٦ - وقمة ماسلته ١١٦ -
 والقتل ١١٩، ١٢٦ - والقصر ٧٨ - وكبح جماح الزملاء القدامى ١٤٤ - وكبيريلؤه ٥٢، ٦٧، ٨٢، ٨٣، ٨٩،
 ١٠٢، ١٠٦، ١٢١، ١٦٨، ١٨٩ - وكونها «كعب أخيل» ٨١، ٨٢، ١٢١ - و«الكل في واحد» ١٢٦ -

١٢٩ - وكونه مصر ١٢٧ - وكون كل شيء في «العزبة» ملك يمينه ١٥٢ - وكلبية المرتزقة و «الملتزمين»
 ١٣٥ - وكوبلاند، مايلز ٧٦ - وكورنيش النيل مصدر غيرة من البغدادي ١٤١ - وكونه الزعيم البطل
 ١٢٧ - وكونه مصدر كل قانون ١٤٦ - وكونه معصوماً من الخطأ ١٢٨، ١٢٩، ١٤٦ - وكون المؤامرات
 «لعبته» ١٤٤ - ولهف، شرم الشيخ من العدو الغادر ١١٤ - وليلة العذاب في معسكر منقباد ٦٧ -
 والمجتمع الطيع ١٤٠ - والمجتمع السياسي العسكري ١١٢ - ومجتمع النصف في المائة ١١٠ -
 مجلس الغمة وكونه ضرورة فاشية ١٤٨ - ومجلس قيادة الثورة ٦٣، ٧٥، ١٠٨، ١١٦، ١٢١، ١٣٦، ١٤١، ١٤٢ -
 وتحويله إلى مجلس الرئاسة بعد الانفصال ١١٤ - ومحضر اجتماعات شمس بدران
 بالقادة السوفيات ٩٨، ٩٩ - ومذكرة جونسون الشفوية إليه ١٠١ - ومرتزة الفكر ١٢٩ - والمرحلة
 الانتقالية لحركته ١٤٢ - ومرض الموت الذي ابتلي به نظامه ١١٩ - المزرعة وتسيير شؤونها ١٤٧ - و
 «المسألة» الفلسطينية (انظر القضية الفلسطينية - المشروع الصهيوني - الولايات المتحدة) -
 والمسلحون والاستيلاء على السلطة ١٢٤ - والمسؤولية عن مذبح الانسحاب سنة ١٩٦٧ (انظر أيضاً
 «عامر هو الذي فعلها») ١١٦، ١١٧ - ومشروع الاستقالة الجماعية ١٤٢ - ١٤٣ - ومصالحة السفير
 الأميركي بعد خطبة «أمريكا تشرب من البحر» ٥١، ٧٧ - ومضيق تيران ٨٨، ٢٨٧، ٢٨٨ - والمظاهرات
 كسلاح ١٢٤ - ومعاركه مع الإخوان والشيوعيين لتأمين وحدانيته المطلقة ١٥٧، ١٥٨ - والمغامرات
 العسكرية ٨٣، ٩١، ١٠٨، ١٠٩ - ومفاعل انشاص ٨٥ - ومكالمته التليفونية مع الملك حسين ١٠٣،
 ١٠٤، ١٢٠ - والملحق الجوي الأمريكي ٧٠، ٧٢ - ومنشأ قوته ٧٦ - المنشية ومحاولة اغتياله ٨٠ -
 ومهمة المخابرات تأمين بقائه ٧٨، ٧٩ - وتسوية تناقضات المصالح ١٢٤ - وميتافيزيقا وحدانيته
 ١٢٧ - ونادي الضباط ٦٧، ٦٩ - والنازية ٤٣، ٧٨، ٩١، ١٣٩، ١٥٤، ١٥٥، ١٩٢، ١٩٥، ٢٢١، ٣١٦ -
 والنتائج العسكرية لقراره السياسي سنة ١٩٦٧ ١١٢، ١١٣، ١١٧ - ونجيب، محمد ١٤٠، ١٤٢ -
 ونشوء نظامه من فراغ ١٢٧ - وتحوله إلى نظام محتضر ١٢٠ - نصوص مقدسة، وتحول اقواله إلى
 ١٤٦ - والنضج السياسي ٧٨ - نظامه ٧٢، ٩٥، ١٠٩، ١٣٥، ١٣٧ - والنظام الهتلري ٧٩ - ونقاط
 ويلسون ٧١، ٧٢ - ونقاط يوثانت ٩٢ - والنقد الذاتي ١٣٦ - والنكات ١١١ - والنكسة ٥٣، ٨٠، ٩٢،
 ٢٦٣ - ونوايا «أمريكا» الطبية تجاه مصر ٧٢ - ونوعية النائب الذي اختاره ١٢٩ - ولغز اختياره له
 ١٤٢ - ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧ - والهرطقة ١٤٦ - والهزيمة الوحشية ٩١، ١١٧ - وهستيريا الاذاعة ١٢١ -
 و «هندسة» نصر سياسي من هزيمة عسكرية ١٠٨ - وهيئة العمليات ١١٣ - وهيبة الزعامة ٨٣ -
 والوجه الفاشي لنظامه ١٢٥ - والوجود الصهيوني ١٩ - والوحدة ٣٣، ٦٥، ٦٦، ٨٢، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٩٥،
 ١١٤ - ووحدانيته ١٨، ١٩، ٨١، ٨٢، ١٠٦ - كمطلب فاشي جوهري ١٢٧، ١٤٠، ١٤٢ - و
 «الوصايا العشر»، فيلم ٤٧ - والوطء بحذائه ١٤٩ - والوطنية ٤٤، ٥٨، ٦٧ - والوعد «بالتدخل» الذي
 لم يصدر عن السوفيات ٩٩ - و«وقعنا في الفخ» ١٠١، ١٠٢ - الولاء لذكراه والولاء لمصر ١٠٨ - لا أحزاب
 ولا برلمان ١٢٤ - ولا طبقية حركته ١٢٥، ولا عقلانيته ١٢٩ - والولايات المتحدة (انظر فهرس الأمكنة
 والمدن والدول، والشبق إلى حضن أمريكا) - ويوثانت ٨٨، ٨٩، ٩٢، ١٠١، ١٠٢، ١١٤

الزعيم المؤمن (محمد أنور السادات): (انظر فهرس الاعلام)

أبعاد شخصيته ١٦٦/١٦٩، ١٩٣ - ٢١٧، ٢١٨، ٢٤١، ٢٦٠ - واحلام البيقظة ١٦٦، ١٦٨، ١٩٧، ٢٦٠،
 ٢٦٢، ٢٨٢ - الاحباط والعدوان في تركيبته ١٦٦ - وتغيير الواقع غير المواتي وتطويعه
 ١٦٨/١٦٤ - بالتعامل مع الواقع سينمائياً ٥٦، ٥٧، ٦٤، ١٩٧، ١٩٨ - وبالتفكير بالتمني ١٦٦/١٦٨ -
 وتعليق الأخطاء على مشجب الغير ١٦٥ - وكون الأدوار مكونات جوهريه في شخصيته ٢١٨ -
 واساساً كونه العمدة ١٢٩، ١٤٤، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٢، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠١، ٢١٤، ٢٨٢ -
 وكونه «الرئيس» ١٦٧، ١٦٨، ٢٢٢ - ذا الأسنان ٢١٧ - الأعظم بطولة من عبد الناصر «بانتصاره» في
 حرب ١٩٧٣ في حين هزم عبد الناصر سنة ١٩٦٧ (انظر حرب ١٩٧٣) وإعلانه الأمة بأنها قد بات لها
 درع وسيف ٢٤٩ وإتخاذه لقب «بطل العبور» ٥٦، ١٣٧، ٢١١، ٢١٥/٢٣٠ - على أساس «إنجازه
 العسكري» العظيم ٢٨٦ - وهو. إفشاله حرب ١٩٧٣: ٢٣٥ - وتكلفه بهزيمة جيشه ٢٢٩ - وفتحه

منطقة خالية من الدفاعات امام الاختراق الاسرائيلي ٢٤٤، ٢٤٥ - مما جعله أجدر بلقب بطل العبور الاسرائيلي ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٥ - وبطل العبور من الصراع المسلح مع الغزو الاستيطاني إلى التصالح مع الغزاة ٢١٩ - وإنهاء المقاومة للمشروع الصهيوني ٢٨٨ - واقتضاه بأنه «أخرج الصهيونية» بالسلام ٢٣١، ٢٣٢ - واستحق تبعاً لذلك لقب بطل السلام ٢٢٩، ٢٦١، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢١٧ - وكونه الرئيس المستنير الذي «قلبها ديمقراطية» ٢٠٠ - باباحة تعدد الأحزاب ٢٠٢ - وإحياء الديمقراطية من غيبوبتها العميقة ١٩٢/٢٠٢ - وإعادة القانون من عطلة ١٧١/١٧٤ - والافراج عن المعتقلين ١٧٢ - وإلغاء الرقابة على الصحف ٢٠١ - على سبيل الإيهام باطلاق الحريات ١٢١ - والاحذ بالنهج الديمقراطي ١٧٢ - والاتحاد السوفياتي (انظر فهرس الأمكنة والمدن والدول) - والسوفيات ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٣٧، ٢٦٥، ٢٠١ - وإشراك الأميركيين لهم في اللعبة منذ سنة ١٩٦٧ - ١١٢ - وتخلفهم عن الأميركيين في التقنيات العسكرية ٢٢٩ - وتنويع مصادر السلاح ٢٢٢ - والنهم التي وجهها اليهم ٢٢٨ - ٢٤٠ - وتعليقه أوزار الثغرة والصلح على مشجبهم ٢٦١، ٢٦٢ - وتجريده مصر من أهم مصدر للسلاح ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٢٨ - وجدعه أنفها ٢٢٧ - إرضاء لاميركا بحرقه جسورها معهم ٢٢٢ - ومعاملتهم باعتبار أنهم العدو ٢٢٩ - تسوية لحساباته الشخصية معهم ٢٦١ - ومعاقبتهم ٢١٠، ٢١١ - لاختيارهم علي صبري ليكون رجلهم ١٩٢، ١٩٤ - وطرد خبرائهم ١٦٧، ٢٠٢، ٢١٤ - وترحيبهم بكونه طردهم للخروج من الورطة ٢١٢ - وخبرتهم المحبطة بما ظل يحدث لما وردود من أسلحة ٢١٠ - وتنفيذه للسياسة الأميركية الرامية إلى التصدي للخطر السوفياتي ٢٠٨ - وخلع السوفيات من المنطقة ١٧٧/١٨٢، ٢٠٢، ٢٠٧ - والجسر الجوي والبحري السوفياتي إلى مصر سنة ١٩٧٣ ٢٢٩، ٢٤٠ - وجسور العبور ٢٢٩ - و «بياعين البطاطا» ٢٥٩ - وبيته الذي أديرت منه العزبة (انظر أيضاً دوار العزبة) ٢٢٨ - وبيع الفلسطينيين ٢٠٤ - وتحقيقه «استراتيجية» بالجيب الاسرائيلي ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٦، ٢٦١، ٢٩١ - وتدمير طائرات ودبابات اسرائيل في بداية حرب ١٩٧٣ ٢٢٧ - ثم تدمير الدبابات المصرية بعد «تطوير الهجوم» ٢٢٧ - وتدمير مصر داخلياً بتصالحه مع اسرائيل ٢٨٩ - وتذبذب الرئيس الطيب كارتز ٢٠٩ - وترتيباته السرية مع اسرائيل بشأن الضفة والقطاع ٢٦٩ - وترتيبات الأمن مع اسرائيل ٢٨٤ - وتركيبته المميته ١٦٦ - وعمليات التطهير الفاشي Putsch ٨٠، ١٧٢، ١٧٣، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٢ - و «تطوير الهجوم» (انظر أيضاً حرب ١٩٧٣، الاختراق، الثغرة) ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٤٢، ٢٤٤ - ٢٤٧، ٢٦٢، ٢٨٢ - «التعامل مع الارهابيين» نصيحته لاسرائيل بكيفية ٢٧٠ - والتعاون الاقتصادي مع اسرائيل ٢٨٥ - وتعليمه رؤساء امريكا ٢١٧ - و «تعنت اسرائيل» ٢٥٠ - والتغني بمهاج السلام ١٤٦، ١٨٢ - وتفضيل السوفيات لعلي صبري ١٧٤ - وتمسك الفلسطينيين «بمسألة تقرير المصير» يزعجه ٢٧٠ - وتكليف عزرا وايزمان «بانزله من السحاب» ٢٦٩ - وتنحيته علي صبري لمجرد أنه أبدى رأياً ١٩٤ - وتلفه على الوفاق مع اسرائيل ٢٠٩ - والتواطؤ مع اميركا واسرائيل ٢٨٨ - والثغرة ٥٦، ٢٢٢ / ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤٢ - ٢٤٤، ٢٥١، ٢٩١، ٢٩٢ - إنقاذ للعمدة والنظام ٢٢٥، ٢٢٩ - وتقرير اوبالانس ٢٤٤، ٢٤٥ - والسماح بتوسيعها ٢٢٦ - والشلل الكلي الذي اصاب القيادات المسييسة حيالها ٢٢٥ - وكونها «شوية فراخ خرجوا من العش» ٢١٥، ٢٢٨، ٢٣٥، ٢٥٢، ٢٩١ - وكونها عملية اميركية / اسرائيلية مشتركة وضعت خطتها في البنتاجون ٢٤١ - وكونها وسيلة للدفاع عن بقاء العمدة ونظامه ٢٢٥ - وكونها قد محت كل كسب أحرز في حرب ١٩٧٣ ٢٤٠ - وثورته الخاصة به الانفتاح ٢٦٢ - وجائزة نوبل للسلام ١٤٦، ٢٢٩، ٢٨٦ - لمهرج عبد الناصر «جحا» ١١٢، ١٢٩، ١٤٤ - ١٤٦، ١٧٢، ٢٦٠ - وجمعية حسين توفيق السرية ١٦٤ - «والجمهورية» صحيفة ١٥٢، ١٦٨ - جناية علي مصر، واعتباره مواصلة الصراع ٢٩٩ - والحالة الاقتصادية المتردية ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٤ - واتخاذها ذريعة ٢٠١، للإقدام على عمل انتحار قومي ٢٩٠

وحرب اكتوبر ١٩٧٣ ٣٧، ٥٦، ١٦٧، ١٧٨، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٥، ٢٢٨، ٢٢٣، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٣ - شنها كفيلم سينمائي ٥٥، ٥٦ - والاستماتة في منعها من التحول إلى حرب تحرير من الاحتلال الداخلي ٢٢٥ - لأنها أوشكت أن تكون بقلعة لمصر ٢٢٥ - كـ «أشعل حريق لتحريك الأمور صوب

السلام» ٢١٨، ٢٢٠ - ٢٢٢، ٢٢٥ - والتخطيط لها كعملية محدودة لتحريك عملية السلم ٢٠٥، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٩، ٢٢٨ - والامتناع عن الاستيلاء على الممرات (مضايق سيناء) ٢٢٦، ٢٢٧ - وإجهاض الانتصار المصري الكاسح ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٩٢ - وتحويله إلى هزيمة ٢٩٢ - من خلال تركيز القيادة في يد العمدة ٢٢٧، ٢٢٨ - ومنع الهجوم المصري المضاد الذي كان مخططاً له ٢٢٦ - ودفع مدرعات مصر لتتصيد صواريخ تاو الأميركية ٢٩١ - بحجة تطوير الهجوم ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٤٢، ٢٤٤ - ٢٤٧، ٢٦٢، ٢٨٣ - لتهية الأرض للتسوية ٢٨٤، ٢٨٦، وفي سبيل ذلك إهدار الانتصار (انظر تقرير أوبالانس) وإهدار التضامن العربي ٢٩٢ - وكسر سلاح النفط ٢٤٦، ٢٤٧ - حتى يتوصل العمدة إلى «السلام» دون أن يبدو مستسلماً ٢٥٦، ٢٥٧ - إعمالاً لمبدأه «وبعدي الطوفان» ٢٢٨ - وفي سبيل ذلك التواطؤ على تمكين إسرائيل من محاصرة الجيش الثالث ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٥ - وتحويله إلى رهينة في أيدي الأميركيين والإسرائيليين ٢٣٦، ٢٤٠، ٢٤١ - وحرصه على مصلحة البلد ٢١٧ - حكم الشعب وحكم الأيليت ١٢٧ - والحل المنفرد ٢٤٠ - «حيوان سياسي» ١٦٥ - والخبث الريفي ١٣٩، ١٤٤، ٢٣٣ - و«خطبة» الذهاب إلى القدس ٢٦٠ - تسوية للحسابات مع الجميع ٢٦١، ٢٦٢ - و«سحب السجادة» من تحت أقدام الجميع ٢٥٧، ٢٦٠ - والخروج من ظل عبد الناصر ١٧٢، ١٩٣ - و«الخسائر الفادحة» التي حقها بإسرائيل من خلال السلام ٣٠٠، ٣٠٢، ٣٠٦، ٣١١، ٣١٥ - وخسائر مصر في الأرواح ٢٦٣ - و«خريف الغضب» كتاب هيك ١٤٤، ١٧١ - وخطبته في الكنيسة وإغفال أي ذكر لمنظمة التحرير الفلسطينية فيها (انظر أيضاً ديان، بطرس غالي) ٢٢٣ - وخوفه من «شماتة العوازل» ٢٤٧ - وخيار الحرب ٢٦٢ - وكونه «الدخيل» ١٦٧، ١٧١، ١٩٨ - ودوار العزبة الذي أدار منه مصر ٩٣، ١٩٤، ١٩٧، ٢٠١، ٢٣٨ - «دولة المؤسسات» وتشدقه بها ١٥١ - الديكتاتور الأمي ٢٥٠ - ودول خط المواجهة ٢٣٥ - وراحة العدم التي يعد بها سلامه ٢٧٩ - ورئاسته لمجلس الغمة ١٧١ - وكونه «رجل دولة» ٢٣٢، ٢٦٦، ٢٧٠ - وكونه رجل أمريكا ١٧٥ - في مقابل «رجل الروس» علي صبري ١٩٣، ١٩٤ - ورد الفعل العربي لذهابه إلى القدس ١٦٩ - والرواج الاقتصادي المأمول ٢٠٠/٢٠٤ - ورفضه إعلان قبول وقف إطلاق النار إلا بعد إكمال الاختراق الإسرائيلي ٢٤٠ - والريدز دايجست كمصدر لثقافته ٥٣ - ورغبته في القيام بعملية بطولة سينمائية كعملية عنيتية (انظر مطار لارناكا) ٢٢٤ - و«رده الجميل» للعرب ٢٦١، ٢٦٤ - والزلزال الذي هز النظام وعجل بزيارته للقدس ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٤ - وزهق روحه منهم ٢٦٠، ٢٦٦ - و«عدم إقامته وزناً لقادتهم» ١٦٧ - وتجريحه لهم علناً ٢٦٦ - وزيارته الأولى لأمريكا ١٧٥ - و«سنة الحسم» ٢٢٦ - وسنوح الفرصة التي كان يتحينها للتظاهر بالغضب: ٢٠١ - والسعي إلى: السلام: ١٦٧، ٢١٣، ٢٣١ - ٢٣٦، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٦٨ - ٢٧٠، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٠٠، ٣٠٤، ٣٠٦ - ٣١٥، ٣١٧، ٣٢٣ - و«السلام الحقيقي» ١٨٩، ١٩٠ - وسفسة السلام والاستسلام ٢٨٢ - وسلام الزحف على البطون ٢٤٠ - و«السلام الضائع» كتاب محمد إبراهيم كامل ٢٢٣، ٢٤٧، ٢٨٣ - والسلام على طريقة كيسنجر ٢٢٦ - والسلام المميت ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٤٩، ٣١٠، ٣١٢، ٣٢٠ - والسياسة الواقعية «Realpolitik» ٣١٠ - والشطارة الفلاح ١٩٨، ٢٠٨، ٢٢٤، ٢٧٠، ٢٨٩ - وشفاء مصر منه ٢٦٠ - وشهيته الحادة إلى السلام ٢١٦ - كونه «صانع استراتيجية لا يقل عن كيسنجر ونيكسون» ١٩٨، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٢، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٤٦ - وكونه صاحب العزبة وعمدتها ١٣٤، ١٩٨، ٢٠٤، ٢٠٩، ٢١٢ - والصراع العربي - الإسرائيلي ١٦٩، ١٨٤/١٨٦، ٢١٥، ٢٢٠، ٢٢٣ - ٢٢٦، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٤٩، ٢٥٢، ٢٦٠، ٢٨٢، ٢٨٦، ٢٩٠ - وتحويله إلى «الخلاف العربي الإسرائيلي» ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣٢٤ - وصفقة السلام ٣٠٥ - والصك النهائي بموت مصر ٢٨٧ - والصالح كمصيدة ٤٣، ١٣٤، ١٦٩، ١٧٦، ١٨٩، ١٩١، ٢٨٦ - وصالح كامب ديفيد المميت ١٦٨، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٤٧ - والصالح المنفرد ١٩٠، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥١، ٢٥٤، ٢٦٢، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٦٨، ٢٩٢، ٣٠١ - صندوق الدين واستخدام دائني مصر ٢٥٦، ٣٠١ - لأسلوبه في اصطيد السادات ٢٥٧، ٣٠١ - وصورة «الحاكم المستنير» ١٥١ - و«صيغة أسوان» ٢٨٤ - وصيغة العمدة للتعامل مع الفلسطينيين ٢٦٩، ٢٨٥ - وصنع السلام ٢٠٥، ٣٠٩ - وضاربو الطبول الذين تحلقوا العمدة ١٩٧، ١٩٨، ٢٥٠، ٢٥٩ - و«ضرب السلام» كنهاية لتاريخ

الشرق الأوسط ٢١٢، ٢١٤ - وضربة العمدة القاصمة لتوسعية اسرائيل ٢٩٩ - وضربته الوقائية ضد المؤتمر الدولي ٢٥٩ - طائفة كارتر الدينية والتزاماتها قبل الدولة اليهودية الخالصة ٢٨٥ - العمدة كطوربيدو العصابات ١٩٥ - الطريشة ووضعها باحكام في عب مصر ٨٢، ١١٤، ١٩٠، ١٩١، ١٩٥، ١٩٦، ٢٦٥، ٢٨٧ - و «عبرة حب فييت بام» ٢٢٥ - والعدس والكافيار ١٤٦ - وعدم التورع عن اي فعل او اختلاق ١٦٦ - وعدم ولعه بالاستماع إلى رأي احد ٢١٠، ٢٦٠ - و «العيب» ٤٥، ١٢٩، ١٩٠، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٨٠ - وكونه عميل اميركا الراقد ١٩٢، ١٩٤، ٢٠٢، ٢٠٨، ٢١٤، ٢١٦، ٢٢٩، ٢٥٩ - وغدره بالعزبة ٢٢٩ - و «غضبه المفزعة» ١٦٩ - الفاشي الفاشل القديم ٢٢٩ - و «الفكرة الحشاشي» التي طرات له فجعلته صانع سلام ٢٢١ - و «الفرصة الذهبية» التي اتاحها للسلام ٢٩٩، ٣٢٠ - والفرم ٦٢، ١٤٦، ١٩٥ - قط الأزقة ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٢، ٢٤١، ٢٥٠، ٢٦٧ - وقتل مصر ٣٠٢، ٣٠٣ - بكامب ديفيد ١١ - ١٢، ٧٤، ١١٢، ١١٤، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٨، ١٩٢، ١٩٦، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٧٠، ٢٧٩، ٢٩٥، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣١٠، ٣١١، ٣١٨ - وبيع صفقته باعتبارها نجاة لمصر ٢٦٥، ٢٩٩، ٣١٢ - ٣١٤ والشراك المبتوثة في كل سطر من أسطر اتفاقاته ٢٨٢ - كرامة العمدة ومصيدة الصلح ١٣٤، ٢١٨، ٢٤٨ - ولعب ورقة العبور ٢٢٨ - واللغة التي لا تروق لبيجين ٢٨٢ - و «المدعي العام الاشتراكي» كسلاح مشروع ١٧٤ - ومراميه من فتح الثغرة ٢٤٣ - وعدم تصفية الجيب ٢٤٠، ٢٤١ - ومراهنته على امريكا من اول لحظة ١٧٥ - ومعاهدة السلام ٢٨١، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٨٨ / ٢٩٥، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٦، ٣١٨ - كانت مسودتها جاهزة في جيبه في اول لقاء له بفانوس ٢٦٠ - ومعركته مع «مراكز القوى» (اعوان سلفه) ٨٠، ١٧٢، ١٧٣، ١٩٢ - والمصطبة ١٢٩، ١٩٧، ٢٠١، ٢٢١، ٢٣٨ - ومكاسبه من الخضوع لإذلال عبد الناصر له ١٦٣ - ومن عملية اغتيال امين عثمان ١٦٩ - والمكاسب التي حققها للعرب بالسلام ٢٠٠، ٣٠٦، ٣١١، ٣١٢ - والمكاسب التي حققها لمصر بالسلام ٢٨٧ / ٢٩٥ - ومكافاة اميركا والصهيونية له بـ «المكانة العالمية الشامخة» ١٦٧، ٢١١ - منبؤ النظام ١٧٣، ٢٦٠ - ومعارضة زملاء عبد الناصر إدخاله في تنظيمهم بسبب سجله ١٧١ - وماضيه ١٧١، ١٧٢ - والميل إلى العدوان كمكون اساسي في شخصيته ١٦٦، ١٦٧ - ونقاد صبره في مواجهة الحقائق ١٦٨، ١٦٩ - نفر المقاولات ١٦٤ - ونصيحة بورقيبة له ٢٥١ / ٢٥٣ - والنضال له طرق متعددة ٢٦٦ - نرجسيته ٢١٧ - ونرجسية الزعماء الفاشيين ١٦٧، ١٩٧ - ونيويورك ٨٩، ٢٥٤، ٢٦٥ - و «هراء فارغ» فتح الثغرة ٢٤٣ - والهزال التسليحي الذي اصاب به مصر ٢٣٢ - والهجوم المضاد الذي منع تنفيذ خطته الموضوعة سلفاً ٢٢٦، ٢٢٩ - وبعدي الطوفان، ٢٣٨ - ووضع القدس المحتلة ٢١٠ / ٢١٢ - ووضع مصر العربي والدولي ٢١٩ - وولعه المشبوب بالديموقراطية ١٤٨ - وهم الصحوة الاقتصادية ٢٢٠ - لاعب الثلاث ورقات ١٩٥ - «يموت الفلسطينيون ونحيا نحن»، ومبدأ ٢١٥

العزبة:

العزبة. ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٤٩، ٥١ - ٥٢، ٥٥، ٥٦، ٦١، ٦٤ - ٦٦، ٧٤، ٨٢، ١٠٩ - والجيش كعزبة خاصة للمشير/ الصاغ ١١٤ - ١١٦، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٨، ١٧٢، ١٧٣، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠١، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٨، ٢٧٠، ٢٩٣، ٣٠١، ٣٠٣ - وإدارتها في العهد الملكي من دار المنسوب السامي ٦٦ - وفي العهد الثوري من بيت الزعيم الخالد ٩٢، ٩٣ ومن دوار العمدة السادات ١٩٤، ١٩٧، ٢٠١، ٢٢٨، ٣٠١، ٣٠٣ - الشعب. ٤٣، ٤٤، ٤٧، ٥٤، ٥٥، ٧٤، ٧٨ - آخر من يعلم ١٠٧ - خارج اللعبة ١٠٨، ١١٠ - في عزبة الثورة ١١١ - في الحظائر ١١١، ١١٢ - مستسلماً ١١٩ - بخنوعه التقليدي ١١٩ - كاسرة واحدة كبيرها الزعيم ١٣٠ - ومع ذلك فهو الشعب القائد والشعب المعلم ١٢٤، ١٣٦، ١٧١، ١٧٣ - الذي لا تواجد له في الواقع ١٣٧ - الجائع ١٤٨ - شعب بلد محتل ١٧٠، ٢١٧، ٢٦٧، ٣٠١، ٣٠٣ - القطعان: ٤٥، ٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٢، ٥٥، ٥٦، ٦١ - ٦٣، ٦٥، ٧٤، ٨١، ١٠٧، ١٠٨، ١١٠ - وحملة الزعيم من احتمال جموحها ١١١، ١٧٠ واجتياح مجلس الدولة بها ١١٦ - والمسلحون ١١٦ - كونها «الشارع

السياسي، ١٣٨، ١٤٤، ١٥٦، ١٧٠، ٢١٢ - والتحفظ عليها في الحظائر ٢٥٩ - و «إنتفاضة الحرامية» ١٣٤، ١٤٨، ٢٥٧ - ٢٥٩

النظام والابعاديات ١٦٠ - والاتباع المنتفعون ٣٠١ - واعتبار أميركاه تابعا للسوفييات ١٧٤ - رغم توجهه الأصلي صوب المسالمة واتخاذ «مسألة فلسطين» ككئة لإبقاء المنطقة في حالة طوارئ تمكنه من الاستمرار ١٩٧ - ورغم اتصالاته السرية المستمرة بالولايات المتحدة ١٧٦، ٢٢٤ - واجهته ٤٥، ٥٢، ٥٥، ٧٨ - ٨٠، ١٠٦، ١٠٩، ١١١، ١١٩، ١٣٥، ١٤٦، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٢، ١٧٢، ٢١٦، ٢٠٢ - وانتفاؤه غضب الحكومة ١٠٩ - والاحتلال الأجنبي ٧٨، ١٤٠، ١٧٠ - والاحتلال الإسرائيلي ٢٢٥ - والاحتلال البريطاني ٦٦، ٦٨، ١٤٠، ١٧٠، ١٩٢ - والاحتلال الداخلي ٦٩، ٧٨، ٩١، ١٦٢، ١٧٠، ١٧٥، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٥٧، ٢٧٠، ٢٠٢ - واحتلال سيناء ٢٨٧ - والخطار الحقيقة التي تواجه مصر، ٢٩٣ - وإدانة أوضاع الطوارئ بإعلان التصدي لتحرير فلسطين الحبيبة والارض السليبية (انظر أيضاً لا صوت يعلو على صوت المعركة) ٢١٦، ٢٢٣، ٢٣٦ - والاذاعة (نظراً أيضاً غسل المخ اليومي، شن الحرب بالراديو، خلق عالم موهوم) ١٠٦، ١١٩، ١٢٠ - وإزاحة مشكلة الفلسطينيين ٣٠٦ - وإزالة آثار العدوان، كشعار مفيد ١٤٥، ٢٢٤، ٢٦٥ - وإزدهار الاقتصاد المصري بفضل السلام ٢٢٣ - وإزمة النفط نتيجة لحرب ١٩٧٣ ٢٩٢ - وأساس التسوية الشاملة ٢٨٤ - وإستدراج مصر من خلال إستدراج النظام وزعيميه ١٦٨، ١٩٣، ١٩٨، ٢٣٦، ٢٤٣ - واسترضاء أمريكا بمطاردة الحمر ١٣٠، ١٣٤ - وإستعراض العضلات الأحمق ٢٨٧ - وإستماتة النظم الفاشية في البقاء ٢٦٧ - اسرار التكنولوجيات العسكرية السوفياتية وإستيلاء الاسرائيليين عليها ٢٢٨ - وإسكات جبهة مصر ٢٢١، ٢٢٩، ٢٦٢، ٢٨٩، ٢٩٤، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٤، ٣١٧، ٣٢٠ - وإطلاق يد إسرائيل في المنطقة ٢٤٧ - والاقلام الحاكمة على معاهدة السلام ٢٨٩، ٢٩١ - واللجنة العليا للتطبيع ٢٩٩ - وإنهاء التوسع الاسرائيلي ٢٩٩ - وتأمين بقائه ١١٠، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٩٢ - وتأمين بقاء مصر ٢٢٨ - وتأمين تبعية القطعان الكاملة للزعيم ١٤٢، ١٥٣، ٢٦٥ - من خلال تحالف العسكر والشرطة والأجهزة ١٧٠ - وتحويل الأشياء إلى «سينما» ١٢٠ - وتحويل العدوان ١٢٨، ١٣٨، ١٥٦، ١٥٨، ١٧٢، ٢٢٤ - وتحين الفرصة طيلة مرحلة «النضال» للتوجه إلى أمريكا ١٧٦ - والتخفف من أعباء الصراع ٢٩٣ - ٢٩٥ - التسوية وتوجهه إليها ١٨ - ٢١، ٢٦٥، ٢٦٦ - التصالح وتطلعه إليه ١٩، ٢٠ - وتصفية الخصوم بمحاكمات غوغائية ١٥١ - تأييد النظام في الفاشية أهم من بقاء الزعيم ذاته ٢٦٦ - والتطابق مع النظم الفاشية ١٣٧ - ١٣٩، ١٤١، ١٤٦ - والتفاوض من مركز ضعف ٢٢١ - التنظيمات الفاشية ١٢١، ٢٠١ - وتنظيم الضباط الأحرار ٥٨ - ٦٠ - ١٦٤، ١٧١ - تحالف استراتيجي إسرائيل مصري أميركي ٢٨٣ - والتنمية الذاتية ٧١ - والجامعة العربية ٣٦، ٢٢٦، ٢٣١، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٩ - وجلاء القوات البريطانية ١٨، ٥١، ٦٨ - وجماعية القيادة ١٣٦ - و«الجماهير» ١٣٤ - ١٣٦، ١٤١، ١٧٢، ١٧٣، ٢٦٥ - الجيش والزعيم والنظام ١٤٠، ١٥٥، ١٦١، ١٦٢، ١٧٤ - وحاشية السيد المشير ١٦٢ - نظام في حالة غير طبيعية ١١٩ - وحرمان إسرائيل من التوسع ومصادر المياه والنمو الاقتصادي ٣١٢ - والحل السلمي ١٨٩، ٢١٦، ٢١٩، ٢٢٢، ٢٣١، ٢٣٨، ٢٤٧ - والحل العادل ١٩٠، ٢٢٢ - والحل الشامل ٢٣١، ٢٤٧ - وخبرته المعاشية ٣٠٣ - والخطا الأساسي في رؤيته للصراع ١٩ - ٢١، ٢٢٢، ٢٢٩، ٢٤٨، ٢٩٣ - ٢٩٥ - والخروج من ورطة الصراع ٢٦٤ - والشلل ١٧٢ - ١٧٤ - وصراعه مع اليسار الماركسي واليمين السلفي ٢٠٤، ٢٠٥ - والضباط كحكام ٦٣، ٦٤، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٨٣، ١١٠، ١١١، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٠ - والضباط التكنوقراط ١٦٢، ٢١٧، ٢٦٢ - والمعجزات الموهولة في كل شيء ٣٠١، ٣٠٣ - وفهمه للمسألة كلها ١٦٩ - والفئات المستفيدة ١٧٢ - والفهلوة على كل المستويات ١٠٨، ١٣١، ١٩٥، ١٩٩، ٢٠٨، ٢١١، ٢٣٣، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٦٢ - وقيادات الأمن تهتز ١٤٨ - تحت تأثير الزلزال الذي هو النظام ١٣٤، ٢٥٧ - ٢٥٩، ٣٠١ - والكمين الذي كان معداً للسلاطات ١٧٤، ١٩٥ - ومتاعب النظام مع أمريكا ١٧٥ - ومكاسبه من العمل من تحت أبطها ١٧٥ - ومسرحيات النظام: مسرحية تنحي الزعيم ٢٦٨ - مسرحية مجلس الشعب ١٥٥ - المسلحون والعزل ١٢٤، ٣٠٢، ٣٢٠ - ومشارف الانكشاف الكامل ٢٣٥، ٢٣٦ - ومصيدة السلام ١٩٧،

فهرس الموضوعات

٢٣١، ٢٤٧ / ٢٧٠، ٢٨٧، ٢٩٠ - بعد مصيدة الديكة الرومية ١٠٢ - ومواقف السوفيات ٩٨، ٩٩، ١٠٥،
١١٤، ١١٥، ٢٠٨ - والمهزلة الماساوية الطويلة ٢٣٠ - وهيكل وعصريته ٥٤ - وكون الولاء للزعيم
والخضوع للنظام غاية الحياة الدنيا ٢٠١ - و«الواقعية البراجماتية» التي اصيب بها فجأة ٢٩٢ -
في مواجهة يشوع السفاح وسلالته ١١٦ - وسيفه ٢٥٥



Library of the Alexan-
dria (OAL)
Bibliothèque d'Alexandria

1

1

1

1

1

1

1
